صحراء الملثمين

وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا

من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م

تقديم
أ.د محمد حجي

تأليف
الدكتور الناني ولد الحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتاب صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن الثاني(8م) إلى نهاية القرن الخامس(11م) من أجود أطروحات الدكتوراه في التاريخ الوسيط التي قدمت إلى جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط. تتجلى أولى إيجابيات هذه الأطروحة التي سعدت بالمشاركة في لجنة مناقشتها في الشجاعة الأدبية لمؤلفها الأستاذ الناني ولد الحسين الذي ركب مركبا صعبا باختياره موضوعا بكرا شائكا طالما حام الباحثون حوله دون أن يجرؤوا على اقتحامه. لقد كتب الكثير عن دولة المرابطين وإنجازاتها العظيمة في العدوتين المغرب والأندلس، لكن خلفيات هذه الدولة وبنياتها التحتية والمراحل التي قطعتها في الصحراء قبل أن تبلغ درجة النضج السياسي والتفوق العسكري ظلت ـ قبل أن تقدم هذه الأطروحة غامضة ضبابية، لا تعدو قصة حج يحيى الكدالي ومجاهدة عبد الله بن ياسين.

تتبع المؤلف ـ بعد تقديم مركز لجغرافية الصحراء وتاريخها القديم ـ أخبار قبائل صنهاجة الكبرى، وهجراتها قبل الإسلام من بلاد المغرب إلى الصحراء أمام زحف الرومان وعسفهم، واستقرار معظمهم في صحراء الملثمين، وأهم هذه القبائل لمتونة وكدالة ومسوفة التي امتدت مواطنها من الطرف الشمالي للصحراء إلى نهري السنغال والنيجر، مسيطرة بذلك على أهم الطرق التجارية المتجهة نحو السودان، وعلى الممالح الغنية في آوليل و تغازة و غيرهما، بحيث أصبحت تتحكم في شؤون الصحراء الغربية وتتولى شؤون القوافل وريادتها وحمايتها، فاستغنت و أثلت الأموال والأنعام، وقوي نفوذها وعظمت مكانتها. الأمر الذي أهلها للتكتل وإقامة دولة صنهاجة الأولى في منتصف القرن الثاني (8م) عاصمتها أودغست، بقيادة ملوكها الكبار: تلاكاكين وابنه تيلوتان وأحفاده.

وفي النصف الأول من القرن الخامس (11م) تكتلت قبائل صنهاجة مرة أخرى، بعد فترة انحلال، بزعامة محمد بن تيفاوت اللمتوني الذي دوخ الصحراء وأطراف السودان، وأوصى قبل موته بالخلافة لصهره يحيى الكدالي فكان ذلك منطلق قيام دولة المرابطين.

تمكن الأستاذ الناني من دراسة هذه الفترة الغامضة السابقة لقيام دولة المرابطين بفضل المادة البيبليوغرافية الغزيرة التي حصل عليها والطريقة الفعالة التي سلكها في استنطاق النصوص والتعامل معها بحذر وأناة. وهي أصناف أربعة:

1 ـ مصادر عربية وسيطة هي أحسن ما كتب عن المنطقة في هذه الفترة، وأهمها ما عاصر مؤلفوها الأحداث فدونوها عن مشاهدة أو رواية عمن عرفوها، وقد فقد معظمها وبقيت منها شذرات معينة في مؤلفات متأخرة نسبيا، وكذلك المصادر الوسيطة المتأخرة التي عرف مؤلفوها بالتثبت وسعة الإطلاع على المؤلفات السابقة ولم يذكروها أو وردت أسماؤها عرضا عندهم.

2 ـ مصادر محلية صحراوية أو سودانية، وكلها متأخرة عن الفترة المدروسة إلا أنها غنية بالروايات الشفوية المتواترة المنقولة جيلا بعد جيل فيما يتعلق بالشطر الجنوبي للدولة الصنهاجية في الصحراء والسودان قبل قيام دولة المرابطين وبعده.

3 ـ دراسات معاصرة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، ولو أنها مهتمة أساسا بالمرحلة المرابطية في القرنين الخامس والسادس (11 ـ 12 م).

4 ـ البحوث الأثرية والتنقيبات الأركيولوجية المنجزة منذ مطلع القرن العشرين في مواقع كونبي صالح القائم على أطلال إمبراطورية غانة، و أودغست عاصمة الصنهاجيين الأولى، والمراكز التجارية الشمالية ذات العلاقة الوطيدة بالصحراء والسودان: سجلماسة و أغمات ونول لمطة.

يضاف إلى هذه المصادر والمراجع دراسة ميدانية للمؤلف ابن المنطقة، فهو يعرف المواقع والقبائل والعادات والمصطلحات، ويستطيع أن يرجح أحيانا من بين الروايات المختلفة ما يوافق الواقع والمنطق، كما فعل في تحديد موقع الرباط الذي اعتكف فيه عبد الله بن ياسين ويحيى الكدالي ومن معهما من المؤمنين، أنه يقع في جزيرة بالقرب من نهر السينغال وليس على شاطئ المحيط.

إنني على يقين من أن هذا الكتاب الثري الموثق سيفيد منه الدارسون والباحثون في تاريخ الصحراء والسودان الغربي في العصر الوسيط وعلاقاتهما بالمغرب العربي، وبخاصة المغرب الأقصى، كما يجد فيه عموم القراء وهواة تاريخ هذه المنطقة متعة وفائدة محققة.

سلا في 14 شعبان عام 1412 / 10 نوفمبر 2000

د. محمد حجي

المقدمة

لعبت الصحراء دورا كبيرا وهاما في تاريخ مناطق مختلفة من العالم وخاصة المناطق العربية، ولم تكن الصحراء الإفريقية الكبرى استثناء في هذا الميدان، فعلى الرغم من اتساعها وارتفاع درجات الحرارة بها وندرة المياه والنباتات في معظم أرجائها، فإنها لم تكن منطقة خالية من الحياة البشرية عبر تاريخها، إذ لم تثن ظروفها الطبيعية القاسية الإنسان عن محاولة التكيف معها، فنتج عن صراعه مع الطبيعة هنالك نمط حياة متميز ومتكامل بأبعاده المادية والروحية، فحفر الإنسان بها الآبار وشيد القصور وغرس الوديان والواحات نخيلا، وأقام البساتين أينما سمحت له الظروف بذلك، كما اختار عينات من الحيوانات ارتأى أنها أكثر قابلية لتحمل المناخ السائد في البيئة المتميزة بندرة المياه والمراعي، فاستأنسها واستجلب بعضها من بيئات مشابهة أو اصطحبها من هنالك أثناء هجراته من مواطنه الأصلية، كما ربط علاقات تجارية مع المناطق المجاورة، فربطت المسالك بين مختلف القرى والمدن والممالك داخل الصحراء، وعبرها بين المناطق الواقعة خلف ضفتيها الشمالية والجنوبية، فكانت الصحراء بمواردها الاقتصادية المتنوعة وموقعها الجغرافي وحيوية سكانها محور تلك التجارة وعنصرها الفاعل، وشيئا فشيئا اتسع نطاق التجارة عبر الصحراء الإفريقية الكبرى ليشمل مناطق أخرى متعددة من العالم القديم خاصة في آسيا عبر مصر وفي أوربا عبر المغرب والأندلس فضلا عن مشاركة معظم مناطق إفريقيا فيها، ولعبت تلك التجارة بالإضافة إلى دورها الاقتصادي دورا متميزا في نقل المؤثرات الثقافية بين الأمم والشعوب التي شاركت فيها، مما خفف من عزلة الصحراء وساعد على ربطها بالحضارات الإنسانية.

وعلى الرغم من أن التصور المبني على عزلة الصحراء الإفريقية وعدم مواكبتها للتطورات التي عرفتها مناطق العالم الأخرى قد تم تجاوزه بواسطة نتائج البحوث والدراسات العديدة التي خصصت لها، فإنه من الملاحظ أن توزيع تلك الأعمال بين مناطق الصحراء والحقب التاريخية التي مرت بها لم يكن متوازنا، ولعل أهم مثال على ذلك ندرة الدراسات والبحوث حول الجزء الغربي من الصحراء الإفريقية الكبرى خلال المرحلة الأولى من العصر الوسيط، وهذا الجزء من الصحراء هو الذي عرف في العديد من الكتابات تحت اسم **" صحراء الملثمين"**.

ومع أن الملثمين الذين نسبت إليهم هذه الصحراء كانوا يعمرون منطقة مترامية الأطراف من الصحراء الإفريقية الكبرى تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي غربا حتى غدامس شرقا، فإن المصادر غالبا ما تترك الانطباع واضحا لدى القارئ بأن مركز الثقل السياسي والاقتصادي لتلك المجموعة كان مرتكزا في الجزء الغربي من الصحراء، إذ هو الجزء الذي تمكنوا فيه من إقامة دولتين قويتين كان لهما دورهما الواضح والمؤثر في المغرب الإسلامي هما مملكة أودغست الصنهاجية ودولة المرابطين، وبالتالي فإن تلك المصادر عندما تعرض لأخبار الملثمين، تحيل قارئها مباشرة إلى قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة وغيرها من قبائل صنهاجة اللثام المقيمة عصرئذ في ذلك الجزء من الصحراء الذي يحده المحيط الأطلسي من الغرب وتادمكة من الجنوب الشرقي وتوات من الشمال الشرقي ومنطقة السوس الأقصى ووادي درعة من الشمال ونهرا السنغال والنيجر من الجنوب، وهذه المنطقة هي التي سنتناولها بالدراسة في هذا البحث الذي اخترنا أن يكون موضوعه هو **"صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن 8م وحتى نهاية القرن 11م"**.

وجاء اختيارنا لهذا الموضوع دون سواه نتيجة لجملة من الاعتبارات، لعل من أبرزها الدور الكبير الذي لعبته هذه المنطقة في تاريخ شمال وغرب إفريقيا عبر التاريخ، فقد تمكن

الإنسان فيها من استغلال موقعها الجغرافي، والبعد الحضاري الذي استمده سكانها عبر التاريخ باعتبارهم جزءا من سكان المغرب الكبير لا يختلفون عنهم جنسا ولا لغة، وبالتالي كانوا يتأثرون بالتطورات التي كانت منطقة الشمال الإفريقي تعرفها من حين لآخر، بل ومن خلالها بحضارات البحر الأبيض المتوسط وآسيا، فكان الصحراويون عندما يستقبلون تيارات حضارية جديدة، بواسطة مجموعات بشرية وافدة عليهم من الشمال أو عن طريق صلاتهم المباشرة والمستمرة - حيث لم تكن تفصلهم عن سكان الشمال حواجز طبيعية ولا لغوية- يقومون بعد استيعاب تلك التيارات وتكييفها مع واقعهم وثقافتهم بنقلها إلى جيرانهم الجنوبيين في غرب إفريقيا.

هذه المنطقة الصحراوية التي شكلت قنطرة التواصل بين الشمال والجنوب، وظلت منذ العصور الغابرة وحتى عهد قريب البوابة الرئيسية لإفريقيا جنوب الصحراء على حضارات البحر الأبيض المتوسط والعالم، جديرة - في نظرنا- بالدراسة، فالبحث في تاريخها يلقي أضواء على تاريخ المناطق المجاورة لها، كما أن دراسة دورها في ربط وتنشيط الصلات بين مناطق مختلفة من العالم لا يقل أهمية عن ذلك.

ومع أننا لا ندعي لأنفسنا شق طريق لم يسلك قبلنا في هذا الموضوع، فإننا لم نطلع حتى الآن على عمل علمي مكرس لدراسة الإشكالات التي يطرحها تاريخ المنطقة المذكورة خلال الفترة الزمنية التي حددنا، خاصة منها المراحل السابقة للقرن 5هـ/11 م، باستثناء مقالات نادرة وقصيرة تعد على رؤوس أصابع اليد الواحدة، يتناول الواحد منها عادة ظاهرة معينة أو حادثة محددة ولا يتجاوز بضع صفحات في الغالب.

فلقد استدرجت الوفرة النسبية للمصادر المتعلقة بالقرن 5هـ/11م الذي عرف قيام دولة المرابطين الباحثين في تاريخ صحراء الملثمين وشمال إفريقيا، وركزوا على تلك المرحلة من تاريخ المنطقة، وإن كان بعضهم حاول أحيانا التمهيد لبحوثه بلمحة عن أوضاع الصحراء خلال المراحل التاريخية السابقة للفترة التي ينوي دراستها، لكن تلك المقدمات لا ترقى إلى مستوى البحث المطلوب في مختلف الإشكالات التي تهم تلك المراحل ولا حتى مجرد إثارتها، بل كانت تكتفي بمدخل موجز ومبهم أحيانا يتعلق غالبا بسرد أسماء أهم قبائل صنهاجة الصحراء قبيل قيام دولة المرابطين.

وحتى المرحلة ذاتها التي ذكرنا أن بعض البحوث تناولتها بالدراسة، فإنها لم تحظ بصفة شاملة باهتمام الدارسين، وإنما ركزوا على المراحل الأولى لقيام دولة المرابطين، ثم إن انتقل اهتمامهم عن الصحراء مع انتقال مركز ثقل تلك الدولة إلى الشمال، فكرسوا معظم كتاباتهم لتاريخها في المغرب والأندلس تاركين تاريخ جناحها الجنوبي في ظلام دامس، على الرغم من وجود إشارات في المصادر العربية يمكن استغلالها من لإلقاء الضوء عليه.

أما تحديدنا لمنتصف القرن الثامن الميلادي منطلقا لدراسة هذا الجزء من تاريخ المنطقة خلال العصر الوسيط، فإن مبرره يكمن في أن هذه الفترة هي التي استقر خلالها الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، فخمدت ثورات البربر، واتجهت أنظار الفاتحين إلى المناطق المجاورة شمالا وجنوبا كالأندلس والصحراء وإفريقيا الغربية، وتطلعت الجماعات العربية المقيمة بين ظهراني البربر إلى ممارسة التجارة وفق تقليد رحلتي "الشتاء والصيف"، وشجعها على ذلك تشابه الظروف الطبيعية وما ينتج عنها من تقارب الوسائل المتاحة لمواجهتها أو التعامل معها، فكانت قوافل الجمال التي مثلت وسيلة النقل الأساسية للتجارة عبر صحراء شبه الجزيرة العربية إلى اليمن أو الشام ومصر، هي نفسها وسيلة النقل عبر صحراء الملثمين باتجاه شمال إفريقيا أو

غربها منذ قرون عديدة قبل ظهور الإسلام، وإن كان دخول عرب الفتح في ذلك الميدان قد أثرى تجربة المغاربة في مجال تنظيم هذه التجارة، كما أدى إلى ازدهار المبادلات التجارية وانعكس ذلك على حياة السكان في المغرب الكبير بما فيه صحراء الملثمين، نتيجة لمشاركة أطراف جديدة في هذه المبادلات، هي القارة الآسيوية عن طريق المنطقة العربية وأوربا بواسطة الأندلس، فعرفت المنطقة ابتداء من التاريخ المذكور نهضة عمرانية تجسدت في نشأة وازدهار العديد من القرى والمدن عند منطلق أو على طول أو عند نهايات الطرق التجارية التي كانت القوافل تسلكها.

وهكذا لم يعد دمج المغرب والصحراء وإفريقيا الغربية في الحضارة الإسلامية، ـ التي انتزعت بسرعة قيادة العالم القديم بعد انهيار فارس والروم أمام جيوش الفاتحين ـ مقتصرا علي النواحي الثقافية والسياسية، وإنما شمل أيضا الجوانب الاقتصادية بعد أن ارتبطت المبادلات التجارية التي كانت تجري بين تلك المناطق بالتجارة الدولية، وفضلا عن ذلك مثلت تلك الفترة بداية العصر الذهبي للتجارة الإسلامية التي استمرت هيمنتها على التجارة الدولية حتى نهاية القرن 5هـ/11م ، ولعبت فيها منطقة المغرب الإسلامي دورا كبيرا.

أما نهاية القرن 5هـ/11م، فإنها تعني بالنسبة لنا تراجع نفوذ الجناح الجنوبي للدولة المرابطية في الصحراء والسودان الغربي، فصمتت المصادر العربية الوسيطة عنها تقريبا بعيد وفاة أبي بكر بن عمر اللمتوني سنة 480هـ/1087م ، ولم يرد فيها إلا إشارات مقتضبة كما عرفت نهاية القرن 5هـ وفاة يوسف بن تاشفين وهو المؤسس الفعلي للشطر الشمالي من تلك الدولة.

وعلى المستوى الاقتصادي عرفت نهاية القرن 5هـ/11م، تحولات كبيرة أدت في نهاية المطاف إلى فقدان المسلمين السيطرة على منافذ ومسالك التجارة الدولية، وأصبحت الأساطيل الأوربية تجوب البحر منذ ذلك التاريخ محملة بأصناف البضائع التي كان المسلمون يحتكرون استيرادها من الشرق وتصديرها إلى أوربا، مما أثر سلبا على دور الوساطة التجارية الذي كان المسلمون يلعبونه بين الشرق والغرب، وخاصة الدولة المرابطية التي فقدت قدرتها على مراقبة تلك التجارة بشكل يضمن مصالحها وتم ذلك خلال ظرفية تميزت بتوقف معاركها الأساسية في الأندلس وإفريقيا الغربية، فلم تعد الغنائم تغذي خزينتها ولم يعد بوسعها فرض مكوس إضافية، لتناقض ذلك مع الطرح الذي بشر به مؤسسوها وركزت عليه دعاياتها، والمتمثل في القضاء علي الضرائب غير الشرعية والاقتصار على ما تسمح به الشريعة وطبقه حكام الدولة الإسلامية في العهدين: النبوي والراشدي.

ويتطلب البحث في هذا الموضوع قدرا كبيرا من الحيطة والحذر، إذ هو - في جزء كبير منه - يكاد يكون موضوعا بكرا لا بد للباحث فيه من اتخاذ تدابير للإجابة على أسئلة مطروحة في قضايا حدثت بمنطقة لم يتمكن الباحثون من العثور لها على وثيقة مكتوبة من طرف أحد سكانها تعود إلى ذلك العصر، ولم يعرها كتاب المناطق المجاورة لها من الاهتمام إلا ما يخدم المواضيع المتعلقة بانشغالاتهم ومصالح مناطقهم.

وفضلا عن ما يتطلبه جمع المعلومات من مصادر غير محددة ومختلفة من حيث أهميتها وطبيعتها من جهد ومتاعب، فإن الباحث في تاريخ هذه المنطقة خلال الحقبة المذكورة عليه أن ينحت لنفسه طريقا يسلكه من للتعامل مع وضعها الخاص، وأن يحذر من التسرع في إطلاق الأحكام المسبقة اعتمادا على أساليب في التحليل ورؤى مبنية قياسا على قراءات لتاريخ

مناطق أو شعوب أخرى تختلف بيئتها والتطورات التي مرت بها عن تلك التي عرفتها المنطقة موضوع البحث.

ولقد اعتمدنا جملة من المصادر العربية الوسيطة والروايات المحلية الصحراوية والسودانية، المدونة خلال الفترة مابين القرن 16م والقرن 19م، ونتائج البحوث الأثرية ومراجع مختلفة، مكنتنا من دراسة الموضوع في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وذلك على النحو التالي:

ـ **المقدمة**: وقد عرضنا فيها الموضوع والإشكاليات التي يطرحها، وبينا حدوده المكانية والزمنية، وحاولنا إلقاء نظرة نقدية خاطفة على المصادر والمراجع المعتمدة.

ـ أما **الفصل الأول**: فقد خصصناه لـ"الإطار الجغرافي والاقتصادي لصحراء الملثمين"، فعرجنا فيه على تسمية تلك البلاد، ثم عرضنا فيه وبشكل موجز لمظاهر سطح الأرض والمناخ الذي كان سائدا في تلك المنطقة ونقاط المياه بها والغطاء النباتي المتوفر، واعتمدنا في ذلك أساسا على المصادر العربية الوسيطة والدراسات الحديثة حول التاريخ الطبيعي لذلك الجزء من الصحراء، لما نراه من أهمية لدور الطبيعة في توجيه الأحداث بل وصنعها خلال تلك الفترة، فتأثيرها في حياة الإنسان كان يشمل مختلف أوجه الحياة، بينما كانت محاولاته تكاد تنحصر في الاستفادة مما توفره له، ولم يكن قادرا على التأثير فيها وتطويعها لخدمة حاجياته وأغراضه، وبالتالي كانت الأنشطة المتاح له ممارستها تتحدد من خلال البيئة التي يعيش فيها، لذلك خصصنا الشطر الثاني من هذا الفصل للحديث عن أهم الأنشطة التي كانت متاحة لسكان صحراء الملثمين، فحددنا طبيعتها والأهمية التي يلعبها كل واحد منها في حياة السكان.

ـ ويتعلق **الفصل الثاني** بـ "السكان في صحراء الملثمين من منتصف القرن8 م وحتى نهاية القرن 11م"، وفيه حاولنا رسم خريطة سكانية لصحراء الملثمين خلال الفترة المحددة، ووفق تسميات تلك الفترة ومفاهيمها الخاصة، فعرضنا لأهم المجموعات الصنهاجية وعرفنا ما أمكننا ذلك بها وبمواقع نفوذ كل واحدة منها ودورها في سير الأحداث بالمنطقة، كما أوردنا معلومات حول سكان الصحراء من غير الصنهاجيين الذين هم عبارة عن مجموعة من الأقليات استوطنت الصحراء خلال فترات مختلفة ولأسباب متعددة بذلنا جهدا للوقوف عليها.

ـ وفي **الفصل الثالث**، الذي يحمل عنوان: "المجتمع والسلطة في صحراء الملثمين من منتصف القرن 8م وحتى نهاية القرن11م"، حاولنا دراسة التنظيم الاجتماعي للمجموعات السالفة الذكر وأهم العادات والتقاليد التي كانت سائدة بينها، خصوصا تلك التي تميزها عن المجتمعات الأخرى، وطبيعة العلاقات التي كانت تربط بينها، ثم تحدثنا عن السلطة السياسية في المنطقة خلال الفترة المدروسة، فعرضنا لمملكة أودغست الصنهاجية ودولة المرابطين، وركزنا على قيام كل واحدة منهما وطبيعة السلطة السياسية فيهما، ثم عرفنا بشكل موجز بأهم الملوك والأمراء الذين تعاقبوا عليهما.

وأما **الفصل الرابع**، المعنون: "علاقات صحراء الملثمين بشمال إفريقيا"، فقد تحدثنا في بدايته عن الصلات بين المنطقتين، ثم ركزنا على العلاقات التجارية التي ربطت بين المنطقتين فأفضنا بعض الشيء في دراستها، وناقشنا الآراء الواردة حول بداياتها وتعرضنا لنظمها والمحاور التي كانت القوافل التجارية تسلكها وأهم المواد التجارية المتبادلة المنطقتين، كما تناولنا دور تلك العلاقات التجارية في تطور الحركة العمرانية في شمال إفريقيا والصحراء ، فدرسنا نماذج من المدن شكلت أهم مراكز التجارة فيها ، ثم تناولنا بالدراسة الصلات

الاجتماعية والثقافية بين المنطقتين فبينا كيف أن الصحراء كانت امتدادا بشريا وحضاريا لشمال إفريقيا وأن الجوار الجغرافي عزز تلك الأواصر عبر التاريخ، حيث كانت التيارات الحضارية التي تهب على المغرب من حوض البحر الأبيض المتوسط والمشرق لا تكاد تستقر فيه حتى تنتقل إلى الصحراء بواسطة القبائل التي كانت تهاجر إليها من هنالك لسبب أو آخر، أو عن طريق التجار المتنقلين بين المنطقتين أو القبائل الصحراوية التي كانت تنتجع مراعي درعة وسوس في بعض السنوات التي تشح فيها المراعي بالصحراء ثم تعود إلى مواطنها، وعرضنا لدور المغرب في نشر الإسلام بين سكان صحراء الملثمين ودور أولئك في ترسيخ المذهب المالكي فيه، ثم القينا نظرة خاطفة على العلاقات السياسية بينهما.

وخصصنا **الفصل الخامس** والأخير، لـ**"**علاقات الصحراء بغرب إفريقيا**"**، فدرسنا فيه العلاقات التجارية بين المنطقتين وأعطينا اهتماما خاصا لدور سكان الصحراء في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا، ثم المحنا بشكل موجز إلى طبيعة العلاقات السياسية بين المنطقتين.

أما **الخاتمة،** فكانت عبارة عن حوصلة لما ناقشناه ضمن الفصول السالفة الذكر، وانتهت بجملة من الاستنتاجات المرتبطة بموضوع البحث.

وأملنا أن نكون قد وفقنا في الوصول إلى الهدف المنشود وفق الطرق المناسبة له.

والله الموفق

الفصل الأول: الإطار الجغرافي والاقتصادي لصحراء الملثمين

I- الإطار الجغرافي

1- التسمية والحدود

عرفت المنطقة الصحراوية الفاصلة بين شمال وغرب إفريقيا عبر تاريخها الطويل تسميات عديدة، اختلفت باختلاف الفترات الزمنية المتعاقبة، والطابع العام الذي ميز كل فترة عن الأخرى، ومن بين أشهر وأبرز التسميات التي عرفتها تلك المنطقة خلال العصر الوسيط تسمية "صحراء الملثمين"[1]، ولا يخفى أن السبب الكامن وراء تداول المؤلفين العرب[2] لهذه التسمية خلال تلك الفترة يتمثل في سيطرة الملثمين اقتصاديا وسياسيا على الصحراء، وبالتالي نسبت إليهم مناطق نفوذهم، إذ يضيفها إليهم ابن خلدون[3] مثلا في قوله: "كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه... ".

أما فيما يتعلق بحدود تلك المنطقة، فإنه من الصعب ضبطها بشكل دقيق، وذلك نتيجة للخلط والغموض الناتجين عن تعدد المصادر التي تتعرض لهذا الموضوع واختلافها البين حوله، وكذلك لعدم دقة الحدود خلال العصور الوسيطة، وبسبب هذا الغموض، فإننا سننطلق في محاولتنا هذه - التي تهدف إلى رسم تقريبي لتلك الحدود- من خلال التسمية ذاتها، فالصحراء التي تهمنا هنا، تعني واقعا طبيعيا كان وما يزال يميز منطقة محددة، أما الملثمون فإنهم مجموعة بشرية كانت تعمر تلك المنطقة، وعليه، فإن تحديد "صحراء الملثمين" يصبح أمرا ممكنا، لتكون هي: الأراضي الصحراوية أو شبه الصحراوية التي تدخل في نطاق نفوذ الملثمين.

وإذا أخذنا بهذا التحديد، فإن الأمر يصبح متعلقا بمنطقة مترامية الأطراف[4] ذكر ابن أبي زرع[5] أنها "... مسيرة سبعة أشهر طولا وأربعة أشهر عرضا: من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية، وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان..."، وفي هذه الحالة فإن تسمية "صحراء الملثمين" اتسع مدلولها لتشمل معظم أجزاء الصحراء الكبرى أو تنطبق عليها (سبعة أشهر طولا وأربعة أشهر عرضا)!، و سنحاول في دراستنا هذه التركيز على الجزء الغربي من تلك الصحراء، أي غرب الصحراء، وهي منطقة عرفت تجانسا بشريا وحضاريا تميزت به عن

---

[1] الملثمون تسمية أطلقها مؤلفو كتب المسالك والممالك والمؤرخون العرب في القرون الوسطى على سكان الصحراء الفاصلة بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان، وإن كانت القبائل الصنهاجية في غرب الصحراء قد اشتهرت بتلك التسمية أكثر من غيرها حتى اختصت بها في معظم الكتابات العربية الوسيطة، وسنوضح هذه التسمية بشكل مفصل في الفصل الثالث عندما نتحدث عن اللثام كعادة من عادات صنهاجة الصحراء.

[2] الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس1987، ص:18 و19.

[3] عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر- المجلد6. منشورات دار الكتاب أللبناني للطباعة والنشر- بيروت.1968، ص: 373.

[4] انظر: عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية- معلمة الصحراء الملحقI- مطبعة فضالة- الرباط،1976،ص:1 وكذلك ص:133.

- انظر أيضا: ريمون فيرون: الصحراء الكبرى- الجوانب الجيولوجية- مصادر الثروة المعدنية و استغلالها. ترجمة: جمال الدين الدناصوري- مؤسسة سجل العرب- القاهرة1963، ص: 19.

[5] على بن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط- 1973، ص:120.

باقي أجزاء الصحراء الكبرى، حيث تشكلت بها تنظيمات سياسية خاصة بها، كمملكة أودغست ودولة المرابطين على سبيل المثال. وكثيرا ما كان المؤلفون العرب القروسطيين يخصون "غرب الصحراء" بتسمية "صحراء الملثمين": باعتبار أن أهم قبائل الملثمين (لمتونة- مسوفة - كدالة) كانت موجودة - خلال تلك العصور- في هذه المنطقة، ولأن المرابطين المشهورين بـ"الملثمين" انطلقوا منها، فاختصت دون غيرها من أجزاء الصحراء الكبرى بتسمية "صحراء الملثمين".

ولا تقل صعوبة التحديد الجغرافي لغرب الصحراء عما عليه الحال بالنسبة للصحراء كلها، وإن كانت هنالك إشارات في المصادر تساعد على ذلك، منها مثلا ما أورده أبو عبيد البكري[6] عندما كتب يقول: "... إيزل وهو جبل في الصحراء إلى قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام...".

وعلى الرغم من أهمية هذا التحديد "مسيرة شهرين في شهرين مابين بلاد السودان وبلاد الإسلام"، فإنه من جهة أخرى يبقى غامضا في بعض جوانبه، فهو لا يقدم لنا سوى الحدود الشمالية والجنوبية لهذه المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى فإن حدود بلاد الإسلام (الحدود الشمالية) تبقى مبهمة هي الأخرى، الأمر الذي يتطلب منا البحث من أجل إزالة اللبس عن تلك الحدود، وذلك بالاستعانة بمؤلفين عرب قروسطيين آخرين أو بالبكري نفسه في مواضع أخرى من كتابه. فلقد ظلت الحدود الشمالية لصحراء الملثمين تتأرجح عند أولئك المؤلفين ما بين السوس الأقصى تارة، ووادي درعة تارة أخرى، وبالتالي فهي حدود طبيعية وسياسية.

فبالنسبة للسوس الأقصى، فإن البكري[7] نفسه أثناء حديثه عنها يشير إلى أنها كانت تمثل في نظره منطقة حدودية بالنسبة لبلاد الإسلام، وذلك في قوله :"... ومن وداي السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل " ومدينة نول آخر مدن الإسلام وهي في أول الصحراء، ويؤكد إسماعيل بن الأحمر[8]أن منطقة السوس الأقصى تمثل الحد الشمالي للصحراء، وذلك أثناء سرده لحكاية مرور يحيى بن إبراهيم الكدالي بتلك المنطقة، بعد ما دار بينه وأبي عمران الفاسي حيث كتب يقول: "... ثم قال له أبو عمران: نكتب لك رسالة إلى فقيه بالسوس مما يلي بلادك..."، أما بالنسبة لوادي درعة، فإن البكري[9] يذكر أنه لا تفصله عن وادي تارجا (الساقية الحمراء) سوى خمس مراحل، ثم ذكر أن وادي تارجا هو "أول الصحراء".

وإذا كانت الحدود الشمالية لغرب صحراء الملثمين هي إذن سوس ودرعة، فإن حدود هذه المنطقة الجنوبية أكثر وضوحا –نوعا ما-، إذ تتميز عن سابقتها بأن الفواصل فيها طبيعية وبشرية في آن واحد، فمن الناحية الجنوبية الغربية، فإن نهر السنغال الحالي كان يمثل الحدود الفاصلة بين بلاد بنى كدالة، وبلاد السودان، كما كان منعطف النيجر في الناحية الجنوبية الشرقية يلعب نفس الدور خاصة عند موقع تنبكتو، وهذا لا يعني أن كل المناطق الواقعة إلى الشمال من النهرين السالفي الذكر، كانت خلال فترات العصر الوسيط خاصة بالصنهاجيين

---

[6] أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، المطبعة الحكومية، الجزائر. 1857، ص. 164.
[7] نفس المصدر، ص:161.
[8] إسماعيل بن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط. 1972، ص:28.
[9] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 163.

وحدهم، بل استقرت بها خلال بعض الفترات مجموعات سودانية كانت تارة في الوسط بحيث أحاطت بها القبائل الصنهاجية من جميع الجهات مثل كنكارة[10]، في حين كانت توجد مجموعة أخرى من التكرور وغيرهم على الضفة اليمنى لنهر السنغال، حيث استقروا هنالك أثناء وبعد قيام الحركة المرابطية، ويمكن تفسير استقرار هذه المجموعات بتلك المواقع، بفترات المد والجزر التي عرفتها حدود الدول الصنهاجية والسودانية المتعاقبة والمتجاورة (غانة- أودغست، المرابطون- تكرور) الخ...، أما الحدود الغربية لهذه المنطقة، فليست كسابقتيها إذ لا خلاف حولها، حيث يحدها من الغرب المحيط الأطلسي.

وعلى العكس من ذلك، فإن الحدود الشرقية لتلك الصحراء تحتاج إلى قدر من البحث والتدقيق، إذ لا يحددها أي مصدر من المصادر المتوفرة لدينا بشكل دقيق وواضح، وإن كانت إشارات بعض المؤلفين[11] توحي بوجود تنظيم سياسي مستقل عن التنظيمات التي وجدت بغربي الصحراء، وهو مملكة تادمكة، كما يضيف بعضهم[12]أن سكان وملوك تلك المملكة يختلفون من حيث أصولهم العرقية أيضا عن ملثمي غرب الصحراء، وبالتالي يمكننا اعتبار مملكة تادمكة الحد الجنوبي الشرقي لغرب الصحراء، بينما تلامس حدودها الشمالية الشرقية الإمارات الزناتية التي كانت تقع إلى الشرق من بلاد مسوفة[13].

وإذا كانت هذه هي حدود صحراء الملثمين- خلال الفترة المدروسة- فما هي يا ترى خصائص هذه الصحراء من حيث مظاهر السطح والمناخ؟

2- مظاهر السطح

ليس الغرض من دراسة مظاهر السطح في هذه المنطقة هو معرفة تضاريسها فحسب، وإنما نرمى من وراء التعرف عليها إلى معرفة أثرها على المناخ، ومن ثمة توزيع السكان بها خلال تلك الفترة ونمط حياتهم...الخ، وبالتالي معرفة دورها في توجيه الأحداث التاريخية داخل هذه المنطقة.

وعلى الرغم من أن المصادر العربية الوسطية، تزودنا بمعلومات هامة في هذا المجال، فإنه لا يمكننا الاعتماد عليها وحدها لمعرفة مظاهر السطح بالمنطقة، لأن مؤلفيها كانوا، إما رحالة يصحبون القوافل التجارية، أو كتابا يستقون معلوماتهم من التجار الذين عبروا الصحراء إلى بلاد السودان وعادوا إلى الشمال. ومن المعروف أن القوافل التجارية كانت تتحاشى المناطق الجبلية، لصعوبة عبورها، فتضطر إلى تغيير اتجاهها[14]، وبالتالي، فإن المسافرين في هذه القوافل من غير أبناء المنطقة لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا من المظاهر الطبيعية في هذه الحالة إلا ما يقع منها على طول الطرق التي يستخدمونها.

ومع ذلك فإننا سنستخدم المعلومات التي وفرتها لنا تلك المصادر في هذا المجال، لكننا سنحاول إكمال النقص الذي تخلفه بواسطة الدراسات الحديثة التي حاول أصحابها بالطرق

---

[10] نفس المصدر، ص:157 و 164.

[11] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:180 و181.

[12] أبو القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض- منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، 1979، ص:101.

[13] أبو القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض- منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، 1979، ص:101.

[14] Suzanne Daveau, Itinéraire de TAMADALT Awdaghost selon ALBAKRI "in TEGDAOUST I, Recherches sur Awdaghost, Arts et Métiers graphiques, Paris, 1970., p. 35.

العلمية معرفة الأوضاع الطبيعية التي كانت سائدة بالمنطقة خلال الفترات القديمة والوسيطة، وانطلاقا من ذلك، يتضح لنا أن مظاهر السطح في غرب الصحراء كانت -مثل ما عليه الحال الآن تقريبا- تتميز بالبساطة، إذ تخلو من التضاريس المعقدة والقمم الشاهقة، فأعلى ارتفاع بها هو "كدية أجِّلْ " التي يبلغ ارتفاعها 915 متر[15].

ومن بين أهم مظاهر السطح السائدة بهذه المنطقة: السهول والسهول التحاتية. وتتشكل السهول أساسا من رواسب أفقية، وقد تكون مائلة ميلا قليلا وارتفاعها ضعيف، أما السهول التحاتية فتتناظر مع امتداد سلسلتي "اركيبات" في الشمال وجبال الموريتانيد في الغرب، وهاتان السلسلتان تعرضتا للتعرية بشدة، ولم يبق منهما سوى تلال منعزلة يطلق عليها محليا اسم "لكلاب"[16]، ومن الأمثلة عليها "اكلاب" كل من آدرار اسطيف، و" كدية أجل"، وكتل كثيرة من الحث الصواني غنية بمعادن الحديد[17].

وقد تحدث الجغرافيون العرب في العصر الوسيط، عن مثل هذه التلال المنعزلة، خاصة البكرى، أثناء وصفه للمناطق التي كان يمر بها الطريق الرابط بين تامدلت وأودغست، وكذلك الطريق الذي كان يتجه من وادي درعة إلى الصحراء[18]، كما أنه أشار إلى غنى بعض تلك الجبال بالحديد عندما كتب يقول: "... ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية آدرار أنوزال و تفسيره جبل الحديد... "[19]، و وصف أيضا جبل لمتونة.

ومن مميزات سطح هذه المنطقة أيضا وجود مجموعة من الهضاب التي يتراوح ارتفاعها ما بين 200 و 400 متر تقريبا، من أشهرها هضاب: آدرار وتكانت ولعصابه، وتطل هذه الهضاب على السهول والسهول التحاتية بواسطة جروف تعرف في الصحراء باسم "الظهور"، ومن أهمها ظهر شنقيط، وظهر تيشيت، وظهر ولاتة والنعمة[20].

وتهيمن الكثبان الرملية على السطح في المنطقة، حيث تغطي معظم السهول، وتظهر تلك الكثبان في مجموعات ذات اتجاه شمالي شرقي- جنوبي غربي، وهو اتجاه يتفق مع اتجاه الرياح التجارية القارية التي تهب على هذا الجزء من الصحراء خلال معظم فصول السنة[21]، وهذه الوفرة في الكثبان الرملية ليست أمرا غريبا، إذ المنطقة جزء من الصحراء الكبرى، التي اختلف الباحثون حول تاريخ تحولها من منطقة ذات مناخ رطب وغطاء نباتي كثيف إلى صحراء جرداء وجافة، فرد بعضهم ذلك التحول إلى بداية التاريخ المسيحي، في حين رده البعض الآخر إلى فترات ما قبل التاريخ.

ويرى المتخصصون في هذا المجال، أن جفاف وتصحر هذه المنطقة الإفريقية، لم يحدث فجأة، وإنما تم بشكل تدريجي خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 3000 ق.م و 500 ق.م،

---

15 Charles TOUPET, "Relief et Hydrographie", in Atlas de la Mauritanie, Editions J. Afrique, Paris, 1977, p. 6.

16 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الجمهورية الإسلامية الموريتانية- دراسة مسحية شاملة، دار نافع, القاهرة، 1978، ص:168.

17 CH. TOUPET: Op.cit P:6.

18 البكري: مصدر سبق ذكره الصفحات: 156 و163.

19 نفس المصدر, ص:167.

20 الجمهورية الإسلامية الموريتانية، مرجع سبق ذكره، ص:169 و170.

21 Suzanne, DAVEAU, Etude géographique de la région de TEGDAOUST, in TEGDAOUST I, op.cit., pp.39-61

وإن كان بعضهم اكتفي بالقول أن ذلك حدث خلال الألف الأخيرة قبل الميلاد[22]، ولم تسلم الدراسات التي أجريت حول الأسباب الكامنة وراء ذلك التصحر هي الأخرى من الخلاف، إذ يرده بعض الباحثين إلى الإنسان وحيواناته، حيث يرون أن التزايد الذي عرفه سكان المنطقة عبر التاريخ أدى إلى ارتفاع كثافتهم، ومن ثمة ازدياد المساحات التي كانت الحقول تقام عليها وما يتطلبه من قطع للأشجار، وما تؤدي إليه تلك الأنشطة من تفتيت للتربة كما أن كثرة الحيوانات بشكل يجعل أعدادها تفوق الإمكانيات التي يمكن للمصادر الطبيعية أن توفرها، وما ينتج عن ذلك من رعي جائر، يؤدي إلى إتلاف الغطاء النباتي، فهذه العوامل كلها عرضت المنطقة للتصحر في نظرهم، أما المتخصصون في تاريخ المناخ، فإنهم يعتقدون أن الإنسان ليس مسئولا عن التصحر ولا الجفاف، وأن تحول هذه المنطقة إلى صحراء، إنما كان نتيجة لتحولات مناخية خارجة عن إرادة الإنسان[23].

وعلى كل حال، فإن واقع الصحراء كان جليا، خلال الفترة الوسيطة، حيث وصفها، البكري[24] مثلا فتحدث عن "مجابة رمل" ذكر أنها تقع على طول الطريق الذي كان يربط بين تامدلت وأودغست، كما أشار إلى صحراء واران الواقعة على طول الطريق نفسه، والتي مازالت تحتفظ باسمها حتى الآن، ثم إنه ترك وصفا لصحارى أخرى في هذه المنطقة من أهمها المجابة الكبرى التي ذكر أنها توجد على طول الطريق الذي كان يربط وادي درعة بالصحراء وغانة[25].

ويتميز الجزء الشمالي لهذه الصحراء بكونه عبارة عن مجموعة من الكثبان الرملية المتحركة، تفصل بينها في بعض الأحيان نطاقات من الحصي والحصباء تسمى محليا "الرك"، وهي ناتجة عن تفتت الصخور ميكانيكيا، وتتناقص تلك "الركوك" كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب، ومن بين أهم الكثبان المتحركة نذكر مثلا أمقطير والمجابات الكبرى وآكشار وأزفال والحمامي...الخ[26].

وكانت هذه الكثبان الرملية من بين أهم مصاعب عبور الصحراء، حيث نوه البكري[27] في القرن 11م بوعورة صحراء أمقطير كما أشار الإدريسي[28]إلى صعوبة عبور القوافل القادمة من شمال إفريقيا للصحاري الواقعة بين "بلاد الإسلام" وبلاد السودان، وذكر من بين تلك الصحاري، صحراء "نيسر" التي نعتقد أنها هي نفسها المجابة الكبرى عند البكري، لأن هذا الأخير ذكر أنه بعد خروج المسافرين من تلك الصحراء، فإنهم يتزودون من الماء الذي يمتلكه بنو ينتسر من صنهاجة[29]، ويصف الإدريسي تلك الصحاري قائلا: "... و مثل هذه المجابات كثير في بلاد السودان، وأكثر أرضها أيضا رمال تنسفها الرياح وتنقلها من مكان إلى

---

22 هوغو (هـ-ج) "الصحراء في ما قبل التاريخ" الفصل23 من كتاب تاريخ إفريقيا العام. جون افريقك -اليونسكو 1980، ص:610.

23 H.N. LEHOUEROU: "Peut-on lutter contre la désertification", in La Désertification au sud du Sahara, Colloque de Nouakchott, 17-19 Décembre 1973, les Nouvelles éditions africaines, Dakar - Abidjan, 1976, pp. 158-159.

24 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:167.

25 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 163 و164.

26 Pierre MICHEL, Géomorphologie, in Atlas de la Mauritanie, op.cit., p. 14.

27 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.

28 الإدريسي (أبو عبد الله الشريف الإدريسي): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس.. تحقيق: إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر1983، ص:32.

29 البكري مصدر سبق ذكره، ص:164.

مكان..."[30]، ويبدو أن وضع تلك الصحارى ورمالها المتحركة، ظل يزعج المسافرين عبرها خلال الفترات اللاحقة، حيث وصف ابن بطوطة الصحراء الواقعة إلى الشمال من ولاتة (ايوالاتن) بقوله: "... إنما هي رمال تسفيها الريح فترمى جبالا من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه..."[31].

أما الأطراف الجنوبية للصحراء فإنها كانت أكثر ثباتا، بسبب الوفرة النسبية للنباتات الساحلية هنالك. أما ساحل المحيط الصحراوي، فإنه صخري وأكثر تعرجا في جزئه الشمالي، في حين يكون رمليا ويكاد يكون مستقيما في جزئه الواقع إلى الجنوب من رأس تيمريس[32]. ولا تدخل الأجزاء الجنوبية من صحراء الملثمين- بمفهومها السياسي- في نطاق الصحراء بمفهومها الطبيعي، أي أن تلك الأجزاء تدخل في إطار تلك الصحراء لأنها كانت تحت نفوذ قبائل الملثمين، وهي من حيث التربة والصخور والمناخ تختلف عن المنطقة الصحراوية، لاختلاف المناخ، خاصة في المناطق المحاذية لنهري النيجر والسنغال.

3- المناخ:

تعتمد دراسة مناخ صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط على ما وفرته النصوص العربية، وفى ظل غياب تسجيل منتظم لدرجات الحرارة والتساقطات في الصحراء خلال الفترة المدروسة، فإن الأيركولوجيا بطرق تحليلها الخاصة للتربة، والمخلفات التي تركها الإنسان، بإمكانها أن تقدم معلومات مدققة عن الوسط الطبيعي، خاصة أن بعض البعثات الأثرية قامت بإنجاز دراسات هامة في هذا المجال بالمنطقة الساحلية.

وبصفة عامة فإن مناخ صحراء الملثمين مراكز الضغط التالية:
- مركز الضغط المرتفع المتمركز في الشمال الإفريقي شتاء، وعلى البحر الأبيض المتوسط صيفا.
- مركز الضغط المرتفع المتمركز على المحيط الأطلسي حول جزر الأسور.
- منطقة الضغط المرتفع المتمركزة على جزيرة سينت ألين.
- مركز الضغط المنخفض الاستوائي الذي يتحرك شمالا وجنوبا مع حركة الشمس الظاهرية[33].

وتتسبب مراكز الضغط السالفة الذكر، في هبوب تيارات هوائية لها تأثيرها على مناخ الصحراء، من أهمها:
- الرياح التجارية البحرية التي تهب على الشاطئ الأطلسي للصحراء خلال أيام السنة كلها، وهي رياح باردة ورطبة، ترتفع درجات حرارتها وتكون جافة أكثر كلما توغلت في الداخل، ومصدرها هو مركز الضغط المرتفع المرتكز على جزر الأسور.
- الرياح التجارية القارية المعروفة في الصحراء تحت اسم "إريفى"، ومصدرها هو مركز الضغط المرتفع المرتكز على الشمال الإفريقي شتاء وعلى البحر الأبيض المتوسط

---

30 الإدريسي: المصدر السابق، ص: 32.

31 أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر بيروت، د.ت، ص:675

32 Serge ROBERT, Archéologie des Sites urbains des Hodh et problèmes de la désertification saharienne au moyen- age, in La Désertification au sud du Sahara, op.cit., p. 47.

33 الجمهورية الإسلامية الموريتانية- مرجع سبق ذكره، ص:274.

صيفا، وتفقد رطوبتها أثناء عبورها للصحراء، فتأخذ خصائصها، حيث تصبح جافة، وتختلف درجات حرارتها بين الليل والنهار، وباختلاف الشتاء والصيف.

وهذان التياران الهوائيان تكون سرعتهما كبيرة لعدم كثافة الغطاء النباتي بالصحراء، مما يؤدي إلى انتشار ظاهرة العواصف الرملية بالمنطقة[34].

- الرياح الموسمية المنطلقة من مركز الضغط المرتفع المتمركز على جزيرة سينت ألين، وتهب في الصيف عندما تتحرك منطقة الضغط المنخفض الاستوائية شمالا مع حركة الشمس الظاهرية، وهذه الرياح تكون محملة ببخار الماء، وتتسبب في سقوط الأمطار على المناطق التي تصلها، وتتراجع إلى الجنوب مع تراجع منطقة الضغط المنخفض السالفة الذكر[35].

ويمكننا من خلال دراستنا للمصادر العربية، التمييز بين منطقتين مناخيتين في الصحراء:

- منطقة صحراوية شمالية تم وصفها من طرفهم بما فيه الكفاية.
- منطقة ساحلية[36] تقع على الأطراف الجنوبية للصحراء.

كما يمكننا التمييز بواسطة تلك المصادر بين فترتين زمنيتين، تتعاقبان على المنطقة أثناء السنة، إحداهما طويلة وجافة وباردة نسبيا، والأخرى حارة ورطبة[37]، وقد نوه معظم المؤرخين والجغرافيين العرب خلال الفترة الوسيطة بارتفاع درجات الحرارة في المنطقة الصحراوية، ومن بين أولئك الكتاب مثلا، أبو عبيد البكري والمهلبي الذي نقل عنه ياقوت الحموي[38] معلومات يتعلق بعضها بمناخ الصحراء خلال القرن10م، وأعاد الإدريسي سبب ارتفاع درجات الحرارة بهذه المناطق إلى موقعها الفلكي في قوله: "...وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا، ولذلك فإن أهل الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء..."[39]، وكأنه يعني بذلك، ما أكده الباحثون بعد ذلك بعدة قرون من أن وقوع منطقة غرب الصحراء في منطقة " بين مدارية " يجعلها تتلقى قدرا كبيرا من الأشعة الشمسية أثناء حركة الشمس الظاهرية إلى مدار السرطان وعند عودتها لتتعامد على خط الاستواء، ويزيد من ارتفاع درجات الحرارة في أجواء وأراضي الصحراء، ندرة السحب التي تحجب الأشعة الشمسية في سماء الصحراء، بالإضافة إلى قلة الغطاء النباتي والمياه السطحية على أرضها[40]، ومع ذلك، فإنه من البديهي أن درجات الحرارة كانت أكثر انخفاضا في الليل منها في النهار، كما كانت أكثر ارتفاعا في فصل الصيف بالمقارنة مع الفصل الجاف والبارد نسبيا "الشتاء".

وينقسم فصل الصيف في المنطقة إلى قسمين:

- قسم حار وجاف، ويبدأ من إبريل وينتهي مع بداية يونيو.

---

[34] Marcel LEROUX, Le climat, in Atlas de la Mauritanie, op.cit., p. 16.

[35] Suzane DAVEAU, "La découverte du climat d'Afrique tropicale au cours des navigations portugaises (XVe et début du XVIes), BIFAN, série B, n!31, 1969, pp. 953-988.

[36] نعني بالمنطقة الساحلية، المنطقة الواقعة على الحدود الجنوبية للصحراء، والتي تختلف عنها من حيث مظاهر السطح والمناخ، وقد أطلقت عليها هذه التسمية منذ العصور الوسطى من طرف الكتاب العرب والمسلمين, حيث شبهوا الصحراء ببحر من الرمال, وأطلقوا على نهايتها "ساحل الصحراء", ثم استخدم هذا المصطلح من طرف الأوربيين في دراساتهم ابتداء من القرن19م، عن هذا المصطلح انظر ريمون فيرون- مرجع سبق ذكره, ص:25.

[37] Serge ROBERT: Archéologie, op. cit., P: 47 et 49.

[38] ياقوت الحموي: معجم البلدان, 4مجلدات - دار صادر بيروت 1977ج1, ص:277.

[39] الإدريسي: مصدر سبق ذكره, ص:32.

[40] الجمهورية الإسلامية الموريتانية- مرجع سبق ذكره، ص:294.

- قسم رطب تتهاطل أثناءه الأمطار، ويكون عادة ما بين شهري يوليو وأكتوبر[41]، وقد كتب ياقوت[42] نقلا عن المهلبي (القرن 10 م)، فقال: "... وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح..."، وتتميز التساقطات هنالك بتذبذبها وسوء توزيعها في الزمان والمكان، وتتناقص أهميتها كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال، لأن تأثير الرياح الموسمية، كان وما يزال هو السبب في نزول الأمطار عليها[43].

وقد توصل بعض الدارسين إلى أن الجبهة المدارية كانت تتوغل إلى الشمال أكثر مما عليه الحال في الوقت الراهن، لذا فإن نصيب المناطق الشمالية من الأمطار كان أكثر خلال العصور السابقة، ويستدل بعضهم على ذلك بوجود آثار لمزارع وقرى زراعية كانت موجودة في العصر الوسيط، توجد بمناطق لا تتلقى في الوقت الحاضر قدرا من الأمطار يسمح بممارسة نشاط زراعي[44]، كما توصل أولئك الدارسون إلى أن كميات الأمطار المتساقطة على غرب الصحراء، قد تناقصت منذ العصر الوسيط بما مقداره، 200 ملم سنويا، ويردون ذلك إلى تراجع الجبهة المدارية إلى الجنوب بمسافة قدرها 200 كلم[45]، وتؤيد الاكتشافات التي تمت في هذا المجال ذلك الرأي، وتتمثل في العثور على بقايا نوعيات من النباتات بصحراء الملثمين، لا يمكن أن تنمو إلا في منطقة ذات مناخ مداري ورطب[46].

و يمكن القول بأن الجفاف بدأ في المنطقة، بشكل خطير منذ القرن 11م، حيث أصبحت كميات الأمطار منذ تلك الفترة في تناقص مستمر قرنا بعد قرن[47]، ويشير البعض إلى أن تغير المناخ في الصحراء خلال العصر الوسيط تميز بتتالي سنوات من القحط وأخرى ممطرة[48].

وعلى كل حال، فإن بعض المصادر العربية تذكر أن المنطقة كانت تمر بسنوات قحط في النصف الأول من القرن11م، وخاصة خلال فترة دعوة ابن ياسين للقبائل الصحراوية[49]، ومثل هذه الوضعية ليس بالأمر الغريب على مناخ الصحراء، الذي عرفه أحد العلماء الغربيين فقال عنه إنه "المناخ الذي قد تنعدم فيه التساقطات أعواما متتالية، لكنها قد تحدث بشكل مفاجئ خلال أية فترة من فترات السنة"[50]، وقد تعود سكان الصحراء على تلك الوضعية المناخية، فأطلقوا على الأمطار المتساقطة في غير موسمها اسم "النكظة"، وحصروا فترات تساقطها وأعطوا لكل واحدة منها اسما، مثل أمطار ابريل وتسمى "النيسان" والمارسية في مارس، وأمطار أكتوبر وتسمى"اكتوبرية" وأمطار الشتاء التي يسمونها بوته[51].

---

[41] المختار بن حامدن: حياة موريتانيا. الجزء الجغرافي، مرقون، محفوظ بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط ص. 4.

[42] ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ص:278.

[43] Suzanne DAVEAU, "La découverte du climat d'Afrique tropicale, op. cit., pp. 953 - 988

[44] S. ROBERT: Archéologie, op.cit., p. 47.

[45] Ch. TOUPET: L'évolution du climat de la MAURITANIE du Moyen-Âge jusqu'a nos jours ,In la désertification au sud du Sahara, op.cit, p. 57.

[46] Théodore MONOD: La dégradation du monde vivant: Flore et Faune, in la Désertification au sud du Sahara, op.cit., p. 93.

[47] S. ROBERT: Archéologie, op.cit., p. 54.

[48] Ch. TOUPET: Les conditions climatiques et végétales et la mise en valeur de la région, in TEGDAOUST I, op.cit, p. 66.

[49] أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ - 9أجزاء- دار الفكر، بيروت 1978ج8، ص:75.

[50] ريمون فيرون: مرجع سبق ذكره، ص:28.

[51] المختار بن حامدن: المرجع السابق، ص: 4.

وكان دور الأمطار هاما، لأنها كانت تتسبب في نمو الغطاء النباتي، كما كانت مصدرا هاما من مصادر المياه بالمنطقة، وتنقسم هذه المصادر إلى قسمين هما: المياه السطحية والمياه الجوفية.

أما الأولى، فإنها كانت نادرة، وإن كانت الشواهد تدل على أن اختفاءها جاء نتيجة للتغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة منذ فترة بعيدة، فلقد كانت البحيرات والأنهار منتشرة في الصحراء، لكن آخرها جف منذ نهاية العصر الحجري الحديث[52]، ولم يبق بالمنطقة سوى المحيط الأطلسي الذي يحدها من الغرب، ونهر السنغال ونهر النيجر على حدودها الجنوبية. وعلى العموم، فإن المياه السطحية بصحراء الملثمين كانت تنحصر- تقريبا- في الغدران التي كانت الأمطار المتساقطة تخلفها، والتي كانت مياهها تساعد السكان على استغلال بعض المراعي التي لم تكن توجد بها آبار، كما كانت تمدهم وحيواناتهم بالمياه طيلة مواسم الأمطار، بل وحتى أثناء فصل الشتاء، وفى حالة ما إذا كانت كميات الأمطار هامة، فإن بعض تلك الغدران تبقى طيلة أيام السنة، ويبدو أنها لعبت دورا هاما في الصحراء خلال العصر الوسيط، كما يعتقد أن عددها كان أكثر مما عليه الحال اليوم، لأنها تأثرت هي الأخرى بالتغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة منذ القرن11م[53]، وكان موسم الأمطار يعرف جريان السيول في بعض الأودية التي تم ردم بعضها بمرور الزمن لتقدم زحف الرمال[54].

أما النوع الثاني من مصادر المياه فيتمثل في المياه الجوفية، وكان استغلالها يتم عن طريق حفر الآبار التي أعطاها سكان الصحراء اهتماما كبيرا، واكتسبوا عن طريق ذلك الاهتمام- الذي فرضته عليهم الظروف الطبيعية- تجربة مكنتهم من الحصول على خبرات هامة في هذا المجال، تمثلت على الخصوص في تقنيات حفر وبناء الآبار والاهتداء إلى الأماكن التي يمكن الحصول فيها على المياه على عمق أقل، وفى هذا المضمار يقول الإدريسي: "... وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة..."[55].

وقد أورد البعض - ممن سافر من تجار شمال إفريقيا خلال العصر الوسيط عبر الصحراء- حكايات ونوادر في هذا المجال، منها على سبيل المثال ما ذكره بعضهم من أن أحد سكان الصحراء أنقذ قافلة من الهلاك عطشا، حيث نفد زاد تلك القافلة من الماء في عمق الصحراء، وكان يصحبها أحد سكان المنطقة، وعند ما مرت القافلة بمنطقة رملية، أخذ الصحراوي بعض رمالها في يده واشتمها، ثم أمرهم بالحفر ففعلوا ووجدوا الماء على عمق لا يتجاوز نصف القامة[56]، ومثل ذلك كان شائعا في أطراف الصحراء ومعروفا من طرف مرتاديها، مثل ما كان عليه الحال بالنسبة للآبار التي كان أصحاب القوافل يحفرونها في شمال الصحراء ويتزودون من مائها، فما تلبث أن تنهار لتحفر في مواقعها آبار أخرى عند ما تدعو الحاجة إلى ذلك[57]، وقد أستخدم الصحراويون آليات خاصة من أجل أن تبقى الآبار سليمة لمدة طويلة من الزمن، معتمدين على ما كانت توفره لهم الطبيعة، من ذلك مثلا تقطيعهم لنوع من

---

[52] Théodore MONOD: La dégradation, op.cit, pp. 91-92.
[53] Serge ROBERT: Archéologie, op.cit, p. 54.
[54] S. DAVEAU:Etude géographique de la région de TEGDAOUST. in TEGDAOUST I , op. cit., p. .132
[55] الإدريسي. مصدر سبق ذكره، ص:43.
[56] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص. ص:43 و44.
[57] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:154.

الطين الصلب مشهور في الصحراء باسم "تافراجيت"، حتى يكون على شكل مربعات، ويبلطون به الآبار فتبقى متماسكة لقرون عديدة[58]، مثل الآبار التي شيدت منذ القرن8م، والتي ما زال بعضها يؤدى وظيفته حتى الوقت الحالي[59].

وقد اهتم سكان الصحراء بحفر الآبار ليزودوا أنفسهم ومواشيهم بالماء اللازم ولتسهيل عبور الصحراء على التجار القادمين من شمال وغرب إفريقيا حتى يستفيدوا من التعامل معهم، كما أعطى بعض حكام شمال إفريقيا اهتماما كبيرا لتزويد الصحراء بالماء لتسهيل عبورها على التجار والدعاة، مثل ما فعل عبد الرحمن بن حبيب الفهري خلال القرن الثامن الميلادي، حيث قام بحفر مجموعة من الآبار على طول الطريق التي كانت تربط تامدلت بأودغست[60].

ويمكن التعرف على مجموعة من الآبار حفرت منذ فترة مبكرة من القرون الوسطى، ذكرت المصادر أنها كانت تؤدي دورها في تزويد سكان وعابري الصحراء بالماء الشروب ، بواسطة تتبع الطرق التي ذكر المؤلفون العرب منذ تلك الفترة، أنها كانت تربط بين شمال إفريقيا والسودان الغربي[61]، وإذا كانت معظم المسميات التي أعطاها بعضهم لتلك الآبار قد تغيرت، فإن السيدة سيزان دافو تمكنت من إنجاز دراسة حول إحدى تلك الطرق، فبينت المواقع التي تم وصفها، وكتبت إلى جانب أسمائها القديمة الأسماء التي تطلق عليها حاليا، ويتبين أن بعضها ظل محافظا على أسمائه القديمة[62].

و يمكننا من خلال الكتابات والدراسات التي أنجزت حول هذا الموضوع ملاحظة أن كثافة نقاط المياه تكثر كلما اتجهنا جنوبا، ويمكن تفسير ذلك بأن أهم مصدر للمياه الجوفية في غرب الصحراء كان يتمثل في الأمطار التي تتزايد أهميتها في ذلك الاتجاه، ويؤيد ذلك ما توصلت إليه بعض الدراسات التي أنجزت من أن المياه الجوفية في هذه المنطقة قد تأثرت سلبيا بالتغيرات المناخية التي سادت منذ القرن11م، وإن كان بعض الباحثين يرى أن مستواها لم ينخفض بشكل محسوس ومؤثر إلا ابتداء من القرن12 م، بعد أن غدت كميات الأمطار المتساقطة غير كافية لتزويد طبقات المياه الجوفية، كما أدى التبخر الحاد لمياه المستنقعات المتبقية من أمطار الصيف وتدهور النباتات إلى الحد منها أيضا[63]، ويضيف الباحثون في هذا المجال أن الإنهاك الشديد الذي تعرضت له المستودعات الطبيعية من المياه الجوفية في غرب الصحراء خلال العصر الوسيط، يمكن أن يكون هو الآخر سببا من أسباب انخفاض مستوى المياه الجوفية بتلك المنطقة، التي كانت لقرون عديدة معبرا للقوافل الكبيرة بين شمال إفريقيا وبلاد السودان.

ولا يمكننا أن نقدر هذا الرأي حق قدره إلا إذا استعدنا إلى الذاكرة أن أعداد جمال القوافل التي كانت تعبر الصحراء كانت تتراوح بين عشرات الآلاف من الجمال والمئات بالنسبة

---

58 المختار بن حامدن: المرجع السابق, ص: 17.

59 S. DAVEAU: Itinéraire, op. cit., p. 133.

60 البكري: مصدر سبق ذكر، ص: 156-157.

61 نفس المصدر، ص: 163.

62 S. DAVEAU: Itinéraire, op. cit., p. 134.

63 Serge ROBERT: Archéologie, op. cit, p. 49

للقافلة الواحدة مثل القافلة التي ذكر سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم أنها انطلقت من " شنقيط" إلى " زارَا " وذكر أن أعداد جمالها وصل إلى 32000 جمل[64].

وتلاحظ الآثار السلبية لانخفاض مستوى المياه الجوفية خلال تلك الفترة على الآبار التي ما زال بعضها مستغلا، بينما اختفى بعضها الآخر دون أن نعرف الفترة التاريخية التي تم فيها ذلك، كما يمكن ملاحظة بعضها ما يزال سليما لكنه خال من المياه، والبعض الآخر لم تبق إلا آثاره[65]، ولم تؤثر تلك الوضعية على المنطقة الشمالية من غرب الصحراء فحسب، وإنما شملت أيضا المنطقة الساحلية الأوفر حظا من الأمطار السنوية، فلقد نضبت الآبار في مدينة أودغست، بعد أن كان معظم المنازل فيها يتوفر على آباره الخاصة، وأصبحت المدينة تتزود من آبار تبعد عنها مئات الأمتار في مجرى الوادي الرئيسي المجاور لها، مع أن الأيركولوجيا أكدت على وجود مجموعة من الآبار تم حفرها في القرن7م، وأكدت الدراسات التي أجريت على تلك الآبار أن المياه الجوفية كانت قريبة من السطح خلال تلك الفترة[66].

وعلى كل حال، فإن انخفاض مستوى المياه الجوفية في الصحراء لم يؤد إلى انعدامها بشكل نهائي، وإن كانت آثار ذلك الانخفاض قد ساهمت في تطورات عرفتها المنطقة خلال العصر الوسيط سنعرض لها في الفصول اللاحقة، كما أن تناقص الأمطار المتساقطة على المنطقة منذ القرن11م، لم يؤثر على مستوى المياه الجوفية فحسب، وإنما أيضا على الغطاء النباتي.

فمن البديهي أن كثافة وتنوع الغطاء النباتي تأثرت بالتحولات المناخية التي عرفتها المنطقة الصحراوية منذ أقدم عصورها وحتى وقتها الحاضر، مرورا بالفترة الوسيطة التي تهمنا في هذه الدراسة، فخلال الفترات التي كان فيها مناخ الصحراء رطبا منذ آلاف السنين، كانت الغابات بها كثيفة[67]، بينما الجفاف التدريجي الذي عرفته إلى تقهقر الغطاء النباتي.

وعلى كل حال، فإن التصحر كان خلال القرون الوسطى سمة من سمات المنطقة وواقعا لا جدال فيه، لذا فإن الغطاء النباتي كان يقل من حيث التنوع والكثافة كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال، وهو أمر أكدته الدراسات الحديثة[68] وشهادات المؤلفين خلال العصر الوسيط الذين جزءا من اهتمامهم لوصف الغطاء النباتي وجمال الواحات وتنوع المزروعات.

ومهما كانت أهمية الدور الذي لعبته المؤثرات المناخية في تدهور الغطاء النباتي، فإن دور الإنسان وحيواناته كان أعظم أثرا، ذلك أن ضغط الرعاة وحيواناتهم الكثيرة على الغطاء النباتي بالمنطقة أدى إلى تدمير هذا الأخير نهائيا، بعد أن تجدد مرات عديدة خلال القرون الخالية[69]، أما جنوب غرب الصحراء، فإن الدراسات تؤكد تراجعا واضحا للغطاء النباتي فيها عما كان عليه خلال الفترة الوسيطة[70].

---

64 سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم: صحيحة النقل في علوية إداوعل وبكرية محمد قلي مخطوط بحوزتنا صورة منه.
65 Serge ROBERT: op. cit, p. 48.
66 Ibid, p. 52
67 Theodore MONOD, op. cit., p. 93.
68 Ch. TOUPET: les Conditions climatiques et végétales in TEGDAOUST I, op.cit., p. 66. et Th. MONOD, op.cit, p. 93 .
69 Monod Op. cit P:94 et H.N. Lehouerou Op. cit P: 159.
70 LE houerou Op. cit P: 158.

ولا يعني ما ذكرناه عن تدمير الإنسان للغطاء النباتي، أن الصحراء كانت خالية من أي مظهر من مظاهر الحياة النباتية، كما لا يعني تراجع الغطاء النباتي في المنطقة الساحلية أن هذه الأخيرة تحولت إلى صحراء قاحلة، وإنما كان لكل واحدة من المنطقتين نباتها الخاص حسب الظروف المناخية السائدة بها، حيث أن ظروف البيئة تتحكم في كثافة وتنوع النبات، ففي المنطقة الصحراوية الشمالية كانت كثافة النباتات منخفضة نسبيا وتوجد بين كثبانها نباتات منها أيكنين، التمات، أم ركبة، آوراش وأسبط[71]، وفى أطراف الصحراء الملامسة للمنطقة الساحلية جنوبا كانت الأشجار المهيمنة هي: الطلح، تيشط، ايفرنان، إتيل وتاطرارت، أما المنطقة الساحلية فكان يسيطر عليها غطاء نباتي كثيف نسبيا تغلب عليه العناصر السودانية مثل اندرن، أوروار، أيزن، إيكنين، إيمجيج، إكيك، وتورجه.

ولقد مكن الغطاء النباتي في الصحراء- على الرغم من محدوديته- بالإضافة إلى استضافته للحيوانات المستأنسة، من وجود حيوانات برية متنوعة، كانت كثيرة خلال العصر الوسيط، ولم تبدأ في التناقص بشكل محسوس إلا في الفترات اللاحقة عندما ظهرت الأسلحة النارية بالمنطقة[72].

وعلى العموم فإن مناخ الصحراء على الرغم مما كان يتصف به خلال العصر الوسيط، قد مكن ساكنيها من الحياة بها عبر العصور، ووفر لهم إمكانيات اقتصادية متفاوتة الأهمية، ساعدتهم على مواجهة مصاعب الاستقرار بها.

II- الإطار الاقتصادي لغرب الصحراء من ق8 إلى ق11.

كان للوضعية الطبيعية والموقع الجغرافي- اللذين بيناهما آنفا- أثر واضح على الحياة الاقتصادية بمنطقة غرب الصحراء خلال العصر الوسيط، فلقد شجعت الظروف الطبيعية التي كانت سائدة في المنطقة على انتشار الرعي كنشاط اقتصادي مهيمن لدى معظم سكانها، وكادت أجزاؤها تتخصص في نوعية الحيوانات التي كانت تعيش بها، كما مورست بها أنشطة زراعية متفاوتة الأهمية، بالإضافة إلى أنشطة اقتصادية أخرى وفرتها الظروف الطبيعية كاستخراج الملح مثلا وجمع الصمغ وممارسة الصيد بشكليه البري والبحري، وكانت هنالك أنشطة مكملة وفرها الموقع الجغرافي للمنطقة من أهمها التجارة التي تمت بواسطتها تغطية العجز في بعض المواد الاستهلاكية التي لم يكن من الممكن الحصول على الاكتفاء الذاتي فيها بالصحراء بسبب ظروفها المناخية أو لظروف أخرى، ولقد تفاوتت الأنشطة الاقتصادية من حيث الأهمية بالنسبة لسكان المنطقة، ولعل من أهمها:

1 -الرعي:

كان هذا النشاط يمثل عصب الحياة بالنسبة لسكان غرب الصحراء منذ عصور موغلة في القدم، ولقد ساهمت الخصائص المناخية لمنطقتهم بشكل فعال في انتشاره بينهم، إذ أن تذبذب الأمطار وعدم تساقطها أحيانا في بعض الجهات خلال بعض سنوات القحط يؤدى إلى سيادة

---

[71] المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره, ص: 6 و7. وكذلك:

Ch. TOUPET: Les Conditions chimatiques, op. cit., p. 66.

[72] Th. MONOD, op. cit, p. 92.

الجفاف وبالتالي إلى عدم الاستقرار، إذ مثل تلك الوضعية لا يشجع على التقري والتمدن، وإنما التنقل الدائم بحثا عن الماء والكلأ ، الأمر الذي يتطلب أن تكون الثروة منقولة، وأهم الحيوانات التي وجدها الإنسان ودخلت في نطاق ثرواته بغرب الصحراء هي: الإبل والأبقار والأغنام والخيول والحمير بكميات أقل.

وإذا كانت الصحراء قد اشتهرت بأنها موطن قطعان الإبل، فإن الخلاف بين المؤرخين دائر حول تاريخ دخول الجمل إليها، بل إلى القارة الإفريقية بصفة عامة، فمعظم المؤرخين الغربيين كادوا يجمعون على أنه طارئ على إفريقيا وأن الرومان هم الذين استجلبوه إليها من الشرق، فغزيل مثلا يرى أن إدخال هذا الحيوان كان خلال القرن الميلادي الأول، عندما أرغمت الإمبراطورية الرومانية بعض سكان شمال إفريقيا على التوغل داخل الصحراء فطردوا منها الزنوج إلى الجنوب بواسطة امتلاكهم للجمل الذي اعتبره مصدر تفوقهم على أولئك الزنوج[73]، أما غوتييه[74] فإنه وإن كان يؤمن بأن الجمل وجد في إفريقيا منذ العصور القديمة وأن البحث الأثري أدى إلى العثور على هياكل عظمية كثيرة له ترجع إلى تلك العصور، يعود ليذكر أن الجمل كان خلال العهود القديمة متوحشا وطليقا، وأنه اختفى من المنطقة بعد ذلك ليظهر خلال حقب لاحقة على يد الرومان، وقد استدل على ذلك الاختفاء بعدم ورود الجمل في كتابات المؤرخين اليونان والرومان، وهو دليل بالنسبة لنا ضعيف، إذ أن أولئك المؤرخين كتبوا بعيدا عن المناطق التي يكثر فيها وجود الجمل، ولم يتجاوز الذين وصل منهم شمال إفريقيا مناطق النفوذ الروماني، ولا تستند كتاباتهم عن المناطق الواقعة خلف حدود إفريقيا الرومانية إلا على الأساطير في معظم الأحيان[75].

ولاشك أن آراء معظم المؤرخين الغربيين حول تاريخ شمال إفريقيا والصحراء كانت مشوبة برغبتهم في إظهار روما على أنها السبب الوحيد في مد مستعمراتها بوسائل الحياة المناسبة، وأن إدخال الجمل إلى الصحراء هو جزء من تلك السياسة، وكان الذين كتبوا منهم خلال الفترة الاستعمارية، يسعون إلى ربط الوجود الاستعماري الأوربي في إفريقيا بالوجود الروماني القديم، وعلى ذلك الأساس بدأ أبناء المنطقة يعيدون النظر في تلك الكتابات، وفي هذا المجال فإن الأستاذ عبد الله العروي[76] يشك في أن الجمل حيوان طارئ على المنطقة، كما يشك في أنه اختفى منها ولو لمدة معينة، وإن كان يؤيد الرأي القائل بأن السياسة الرومانية المرتكزة على طرد السكان الذين كانوا يناصبونها العداء إلى الصحراء أدت في نهاية المطاف إلى تعاطي تربية الإبل بين السكان بشكل أكثر مما كان عليه الحال خلال العهود القديمة.

ونشير إلى أنه من المرجح أن يكون الجمل قد استجلب إلى بلاد المغرب من الجزيرة العربية أثناء الهجرات التي انطلقت منها باتجاه تلك المنطقة خلال العصور الغابرة، ومما يؤيد هذه الفرضية تشابه الجمل في المنطقتين وأن الاسم البربري له مستعار من اللغة العربية[77].

ومهما يكن من أمر فإن الإبل لم تكن حديثة عهد بالصحراء خلال بداية الفترة التي تهمنا على أقل تقدير، إذ أن أعدادها الكثيرة التي أشارت إليها المصادر العربية في تلك المنطقة

---

[73] عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب- الجزء الأول، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع- الدار البيضاء- ب.ت، ص:98.

[74] أميل فيليكس غوتييه: ماضي شمال إفريقيا- تعريب هاشم الحسيني ط1 الفرجاني- طرابلس, 1970, ص:131-134.

[75] هشام جعيط, : المصادر المكتوبة السابقة للقرن الخامس عشر، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، ج1، اليونسكو، 1980، ص ص: 125-103

[76] العروي: مرجع سبق ذكره، ص: 99.

[77] Vincent MONTEIL, Essai sur le chameau au Sahara occidental, centre IFAN Mauritanie, saint- Louis du Sénégal,1952, pp. 128-129

خلال العصر الوسيط المبكر دليل كاف على قدمها بها، ومن بين الأمثلة على ذلك ما ذكرته تلك المصادر من أن جيش الملك تيولوتان بن تلاكاكين في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي كان يتجهز بمائة ألف جمل [78]، كما أورد ابن حوقل خلال القرن العاشر الميلادي أن أخت ملك أودغست كانت تمتلك بمفردها 15000جمل حيث قال: "... وكان رعاتها مائة ومع كل راع منهم مائة وخمسون جملا..."[79]، ويضيف هذا الرحالة مشيرا إلى كثرة الإبل لدى صنهاجة أودغست فيقول: "وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"[80]، ويذكر البكري أن الجزء الذي توجه من الجيش المرابطي إلى سجلماسة خلال منتصف القرن11م كان من بين ما يمتطيه أفراده، ثلاثون ألف جمل[81]، ويتضح من خلال شهادات الكتاب العرب أن وفرة الإبل بمنطقة غرب الصحراء خلال الفترة مابين القرن"8م و11م"، لا تحتاج إلى جهد كبير لإثباتها.

و كانت قطعان الإبل تتركز أساسا في الأجزاء الشمالية والوسطى من غرب الصحراء، وخلال معظم فترات السنة، لتوفر تلك الأجزاء من الصحراء على المراعي المناسبة لهذا النوع من الحيوانات، خاصة أشجار الطلح التي تعتبر من بين أجود تلك المراعي، فقد ذكر ابن حامد أن أحد حكماء الصحراء سئل عن أحسن مرعى للإبل فقال: "... المرعى الذي بين السماء والأرض، ويعني خروب الطلح، قيل له ثم ماذا، قال ورق الطلح، قيل فماذا قال لحاؤه..."[82]. وتعتبر الصحراء أنسب مكان لنمو الإبل، ويعود ذلك إلى طبيعة مناخها الجاف الذي يكاد ينعدم به الذباب المعروف بـ "اتسي- اتسي"، الموجود بالمنطقتين الساحلية والسودانية حيث تكثر الأمطار والمستنقعات.

وتوجد بالصحراء مجموعة من الآبار ذات المياه المالحة التي تشفى الإبل من بعض الأمراض وفى هذا المجال يقول البكري أثناء تعرضه لذكر نقاط المياه الموجودة على طول الطريق الذي كان يخترق غرب الصحراء من الشمال إلى الجنوب "... ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف آبار ملحة تردها أذواد من صنهاجة فتصلح عليه وتصح به، وكل ماء ملح فموافق للإبل..."[83]، ومن جهة أخرى فإن الإبل من أكثر الحيوانات قابلية للحياة في الصحراء فهي قادرة على التكيف مع كمّ ونوعية النباتات الموجودة هنالك وكذلك مع ندرة المياه، حيث يمكنها قضاء فترة طويلة من دون أن تكون لها حاجة ماسة إلى الماء، وهذا العامل هو الذي فسر به ابن حوقل[84] خلال القرن 10م اعتماد معظم سكان صحراء الملثمين على الإبل والماعز في قوله: "... ومنهم من لا يقدر لعوز الماء على غير الإبل واليسير من المعز ولنأي الماء عنه....".

أما الأطراف الجنوبية للصحراء والمنطقة الساحلية فإنها كانت تشتمل بالإضافة إلى الإبل، التي كانت ترتادها خلال الصيف، على الأبقار والأغنام حيث كانت المنطقة أنسب مكان لها، فالأغنام لكثرة أعدادها وحاجتها الكبيرة والدائمة إلى المياه والنباتات الكثيفة، لا يمكن

---

78 انظر: ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121. وكذلك ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص:371.
79 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.
80 نفس المصدر، ص 95.
81 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.
82 المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره، ص:6.
83 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
84 ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص، 100.

للصحراء أن تستوعب منها أعدادا كبيرة، كما أن كثرة الذباب الضار بها والحيوانات المفترسة في المنطقة الساحلية، لا تشجع على استقرارها بها بشكل دائم[85]، لذلك تتجلى أهمية المنطقة الوسطى في أنها تضمن للأغنام استغلال الإمكانات الطبيعية للمنطقتين خلال الفترات المناسبة، حيث تتوغل شمالا خلال فترة الأمطار لتعود إلى المنطقة الوسطى شتاء، ثم تتوغل جنوبا داخل المنطقة الساحلية خلال فترة الصيف التي تقل أثناءها المستنقعات ويتضاءل خلالها ضرر الذباب، وتبقى فيها إلى بداية الخريف لتعود إلى الشمال.

وقد عرفت منطقة غرب الصحراء بكثرة الأغنام إلى حد جعل أثمانها تنخفض بالمقارنة مع السلع والمواد التجارية الأخرى بدرجة مذهلة خلال القرنين 10 و 11م حيث "يشتري بالمثقال الواحد عشرة أكبش وأكثر"[86]، وأشاد الكتاب العرب في الفترة الوسيطة بجمال الأغنام التي كان سكان غرب الصحراء يمتلكونها، وفي ذلك المجال يقول البكري: "... وعندهم الكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها، وهي أحسن الغنم خلقا وألوانا..."[87].

كما نوه نفس المؤلف بكثرة الأبقار التي ذكر أنها كانت تشكل بالإضافة إلى الأغنام معظم ثروات سكان جنوب غرب الصحراء في المنطقة الساحلية[88]، وإن كانت الأبقار أكثر كثافة في الجنوب نظرا لحاجتها إلى الكثير من المياه والحشائش التي لا يمكن أن تتوفر لها بكميات كافية في المناطق الأخرى[89]، لذا فإن تنقلات ملاك الأبقار تبقى محدودة في ذلك النطاق الضيق الذي يشكل المنطقة الوحيدة الصالحة لتربية هذا الحيوان ونموه وهي المنطقة الساحلية[90].

وعلى الرغم من أن غالبية سكان غرب الصحراء كانوا يفضلون خلال العصر الوسيط امتلاك الإبل واشتهروا بها أكثر من سواها من الحيوانات الأخرى، فإن الأبقار هي الأخرى كانت تشكل إحدى دعائم ثرواتهم خاصة في الجنوب، فذلك الحيوان يعتبر من أقدم الحيوانات التي دجنها الإنسان في الصحراء ويتجلى ارتباطه بها في الرسوم والصور التي تركها لها على الصخور.

أما الحصان الذي يعتبر هو الآخر من بين أقدم الحيوانات التي عرفتها الصحراء في تاريخها القديم، فإن بعض الكتاب الغربيين يرون أن وجوده فيها يعود إلى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد[91]، إذ يعتقدون أنه دخل إلى شمال إفريقيا من آسيا عبر مصر بعد غزو الهكسوس لها[92]، ثم انتقل بسرعة إلى الصحراء، حيث لم يستخدم وقتها للركوب وإنما لجر العربات الحربية.

---

[85] المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره، ص: 15.
[86] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.
[87] نفس المصدر، ص: 171.
[88] المصدر السابق، ص: 158
[89] المختار بن حامدن , ص:15.
[90] Ch. TOUPET: Les Conditions climatiques et végétales I , op. cit., p. 66
[91] ريمون فيرون: مرجع سبق ذكره، ص:55
[92] غوتييه: مرجع سبق ذكره، ص: 129.

ولقد اهتم سكان الصحراء بالخيول وحفظوا أنسابها، وتدعم الروايات المتداولة لديهم، الآراء القائلة بالأصول المشرقية للحصان الصحراوي، إذ يردون "اكريكبات" مثلا- وهي خيول تمتلكها قبيلة أولاد محمد في الحوض الشرقي- الولاية الأولى في موريتانيا- إلى أصول مصرية، حيث يذكرون أنها من نسل " لكحيلات"، التي هي بدورها من فصيلة الخيول العربية الأصيلة ، كما يردون أصول بعض خيولهم الأخرى إلى نسل خيول النبي سليمان[93]، وإذا كانت محاولة السكان في حفظ أنساب الخيول تنم عن اهتمامهم الكبير بها، فإنه بإمكاننا رد ذلك الاهتمام إلى الدور الهام الذي كانت الخيول تلعبه في حياة الناس، إذ كانت تستخدم في مجال النقل السريع، كما كانت تستخدم إلى جانب الجمل في الحروب وإن كانت أعدادها قليلة[94] وكان ثمن الفرس يصل في بعض الأحيان إلى مائة ناقة، وتعتبر المنطقة الصحراوية - على الرغم من ارتفاع درجات الحرارة بها وندرة الأعشاب والمياه - أكثر ملاءمة لصحة الخيول ونموها مما عليه الحال في المناطق الجنوبية[95]، الموبوءة، ولعل ذلك هو الذي يفسر ضعف خيول غانة في القرنين 10و11م[96].

وبالإضافة إلى الخيول كانت الحمير موجودة أيضا وكانت تستخدم في نقل الماء من الآبار ونقل الأثقال على طول المسافات القصيرة، وكانت تتركز أساسا في المنطقة الجنوبية التي تكثر فيها المياه والأعشاب لحاجتها الكبيرة إليها[97].

وعلى الرغم من أن تنمية الحيوانات كانت تمثل أهم نشاط اقتصادي يمارسه سكان غرب الصحراء خلال العصر الوسيط، فإن أولئك السكان كانوا يمارسون أنشطة أخرى أقل انتشارا بينهم نتيجة لاختلاف المناخ من منطقة إلى أخرى، ومن بين تلك الأنشطة النادرة في الصحراء نذكر الزراعة.

2 -الزراعة:

مورس النشاط الزراعي بمنطقة غرب الصحراء منذ أقدم العصور[98]، وإذا كان معظم المؤلفين العرب يصفون الملثمين في القرون الوسطى بأنهم "لا يعرفون حرثا ولا زرعا" وأنهم كانوا يعتمدون فقط على تربية المواشي وخاصة الإبل، فإن ذلك الوصف لم يكن ليشمل كافة سكان المنطقة وإنما يتعلق بأعماق الصحراء وخاصة أجزاءها الخالية من الواحات، وهكذا فإن تلك الإشارات لا تعنى على الإطلاق انعدام النشاط الزراعي بالمنطقة، لذا فإن أصحاب تلك الإشارات، ذكروا في نفس الوقت وجود أنشطة زراعية في مناطق مختلفة من الصحراء.

ويمكننا انطلاقا من تلك الإشارات التمييز بين منطقتين زراعيتين تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى من حيث أنواع وحجم المزروعات:

أ- المنطقة الساحلية الواقعة في أقصى الجنوب والتي تتركز فيها أهم الأنشطة الزراعية.

---

[93] المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره، ص: 13-14.
[94] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 166.
[95] المختار بن حامدن: ص 14.
[96] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:177.
[97] المختار بن حامدن، ص: 15.
[98] المختار بن حامدن: الجزء الجغرافي: مرجع سبق ذكره، ص:3

ب-المنطقة الشمالية والوسطى وهي منطقة صحراوية تتخللها واحات تمارس فيها أنشطة زراعية.

ويعتقد معظم الباحثين أن ممارسة الزراعة كنشاط رئيسي لدى سكان المنطقة تأثر بالتناقص المطرد لكميات الأمطار المتهاطلة وتراجعها من الشمال إلى الجنوب، وأن المناطق الزراعية كانت أكثر تقدما نحو الشمال عند ما كانت كميات الأمطار تسمح بالاعتماد على النشاط الزراعي، وفي هذا المضمار يرى دلافوس[99]، أن البربر لم يغادروا الصحراء عندما تعاظم تأثير الجفاف الذي عرفته منذ العصور القديمة، وإنما غيروا نمط حياتهم حيث أصبحت ترتكز على النشاط الرعوي بدلا من النشاط الزراعي، كما يذكر بعض الباحثين في تاريخ الصحراء القديم أن سكان منطقة اظهر تيشيت وولاته كانوا يعتمدون على الزراعة[100].

وخلال العصر الوسيط كان سكان غرب الصحراء يمارسون شكلين من الزراعة، أحدهما موسمي يرتكز على مياه الأمطار التي تتساقط على المنطقة خلال فصل الصيف، أو بعيد تراجع فيضانات النهر، والآخر سَقوى يعتمد على مياه الآبار ويتركز في الواحات الصحراوية.

وبالنسبة للنوع الأول فإنه كان يمارس أساسا في المنطقة الساحلية الواقعة على الأطراف الجنوبية للصحراء، وقد أكدت بعض الدراسات وجود آثار لانتشار واسع النطاق للزراعة البعلية في مناطق أفله ولعصابه وتكانت خلال العصر الوسيط[101]، ومن المعروف أن مثل تلك الزراعة لا يمكن ممارسته في الوقت الحاضر في المناطق المذكورة لعجز التساقطات السنوية عن توفير القدر الكافي من المياه، وتقع المزارع التي تعود إلى العصر الوسيط في تلك المناطق بالقرب من الوديان وتحيط بالقرى، وكان كل حقل منها محاطا بجدران صغيرة من الحجارة يفصله عن القطع الأرضية المجاورة له، وتوجد في خرائب القرى الزراعية القديمة والوسيطة آلات مرتبطة بالزراعة كالرحى الذي كان يستخدم لطحن الحبوب الخ...

وكان المزارعون يواجهون مشاكل كثيرة، منها أن السيول كانت تقضي على الكثير من حقولهم التي كان معظمها يقع بالقرب من سفوح الجبال، كما أن القشرة الرملية التي تنبت فيها المزروعات كانت رقيقة ومعرضة للانجراف لارتكازها على أساس صخري، وكانت تهيئة الحقول تتطلب جهودا كبيرة، تتمثل في رفع وإزاحة الحجارة الكبيرة والمزدحمة عنها، وقد أكدت البحوث أن مزارعي تلك المناطق خلال العصر الوسيط كانوا قرويين يتقنون فنيات الزراعة بشكل دقيق، وأنهم تمكنوا من التغلب على مختلف المصاعب التي واجهتهم[102]، أما المناطق المجاورة لنهر السنغال، فإنها كانت تتوفر على إمكانات زراعية كبيرة بسبب كميات الأمطار الهامة التي كانت تتلقاها سنويا، فضلا عن فيضانات النهر وروافده، لذا كان سكان هذا الجزء أكثر استقرارا وارتباطا بالأرض، وقد ذكر عنهم البكري أنهم "يزرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عنهم ومرة على ثري..."[103]، ويعتقد سرج روبير[104] أن البكري

---

[99] Maurice DELAFOSSE, "Les relations du Maroc et du Soudan à travers les âges", Hesperis Tamuda, RABAT1924, pp153-174

[100] Robert VERNET: La Mauritanie des origines au début de l'histoire, Collection "Connaissance de la Mauritanie", Centre Culturel Français, A. de St EXPERY, Nouakchott, 1989, p. 30 .

[101] Ch. TOUPET, L'évolution du climat, op.cit., p.p-54-56

[102] Ibid, p. 57

[103] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:177.

[104] Serge ROBERT, Archéologie, op.cit., p. 50

يعني بـ"النيل" نهر السنغال الذي مازال السكان يقومون بزارعة الأراضي المحيطة به مرتين خلال موسمين من السنة، وذلك تبعا لطبيعة التربة ونوعية الأدوات الزراعية التي يعتمدون عليها:

- موسم شتوي في "والو"، وهي سهول فيضية تتم زراعتها بعد تراجع فيضانات النهر، وأراضي تلك السهول خصبة ومردوديتها الزراعية هامة.

- موسم صيفي في"جيري" حيث يقوم السكان خلال فصل الأمطار بزراعة أنواع من الحبوب، وهذا الموسم أقل أهمية من الموسم السنوي وإن كانت مساحة الأراضي التي تتم زراعتها خلاله أكثر اتساعا.

أما النوع الثاني من الزراعة والذي ذكرنا أنه كان يعتمد على الري، فإن معظمه كان يتركز في المنطقة الصحراوية والأطراف الشمالية للمنطقة الساحلية، حيث كان السكان يمارسون ما يعرف بزراعة الواحات التي كان النخيل يمثل أساسها، وإذا كنا لا نعرف تاريخ دخول هذا الشكل من الزراعة إلى الصحراء، فإن زراعة النخيل قديمة في إفريقيا الشمالية، حيث عرفت مصر زراعته منذ عصور ما قبل التاريخ، كما وجد في فزان منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

وبينما تؤكد التقاليد المروية المحلية أن وجوده في غرب الصحراء قديم، فإننا نعتقد أن انتشاره بها لم يحدث قبل الفتح الإسلامي للمغرب، استنادا على ما ذكره ابن خلدون[105] عند قوله: "ومن قبائل مطغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخيل على طريقة العرب..."، مما يوحي أن زراعة النخيل التي قام بها مطغرة في الصحراء تختلف عن الطرق التي كانت متبعة في باقي بلدان المغرب، وأنها تمت بالاعتماد على التجربة العربية.

وعلى كل حال فإن المصادر العربية تتحدث خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين عن انتشار النخيل خلال تلك الفترة في الصحراء بشكل يسمح بافتراض أن وجوده بها أقدم من القرن العاشر الميلادي على الأقل، فلقد نقل البكري عن محمد بن يوسف الوراق الذي كان يكتب خلال القرن العاشر الميلادي قوله "... وهنالك حصن يسمى آركي حوله نحو عشرين ألف نخلة"[106]، ويتعلق الأمر بمدينة" آزوكي" الواقعة في شمال موريتانيا وكانت مركزا هاما على طول إحدى طرق المغرب والسودان الغربي عبر الصحراء، ولا يمكن لهذا العدد الكبير من النخيل أن ينتشر في منطقة محدودة جغرافيا إلا بعد تمرس سكانها بالتعامل مع هذا النوع من الزراعة من جهة ومعرفتهم للتقنيات الكفيلة بالمحافظة على هذه الثروة، بل وتنميتها، وهو أمر يتطلب فترة من الزمن.

ولم يتوقف ذكر الجغرافيين والكتاب العرب على ذكر نخيل آزوكي والناحية الشمالية والوسطى من الصحراء فحسب، وإنما أضافوا شهادات أخرى تدل على وجوده في مناطق أكثر توغلا إلى الجنوب بمنطقة غرب الصحراء، خاصة المنطقة التي وجدت بها مدينة أودغست، فقد أشار المهلبى في القرن العاشر مثلا إلى كثرة النخيل في مملكة أودغست في قوله "...

[105] ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، ص:245.
[106] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.

والنخل ببلدهم كثير"[107]، وكذلك معاصره الوراق الذي كتب عن مدينة أودغست في جنوب غرب الصحراء يقول: "... وحولها بساتين النخل"[108]، أما البكري الذي كان يكتب خلال القرن الحادي عشر فإنه وصف نفس المدينة عندما كتب يقول: "... أودغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير"[109].

وانطلاقا من هذه الشهادات فإنه من الواضح أن النخيل كان يتركز أساسا في المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية الشرقية، في حين لم نجد له ذكرا ولا أثرا في المنطقة الجنوبية الغربية من صحراء الملثمين، ولعل ذلك عائد إلى الظروف المناخية، إذ أن بعض الباحثين يعتقدون أن البلح لا ينضج إلا في مناطق يحدها على الأقل خطا الحرارة المتساويان!28 في يوليو و!7 في يناير[110]، لذا فإن نمو النخيل في المنطقة التي أشار إليها الكتاب العرب في القرون الوسطى كان طبيعيا، حيث تتوفر فيها إلى حد بعيد خاصية البعد عن تأثير كل من المحيط والنهر من جهة، كما تتوفر فيها خاصية أخرى مشتركة تتمثل في غزارة المياه الجوفية وقربها من السطح، وهو أمر يساعد على غرس النخيل وتموينه بالماء، فقد وصف البكري موقع مدينة آركي فقال عنها أنها تقع في "جبل منيع كثير الماء والكلأ"[111].

ولا يختلف الأمر كثيرا عما كانت عليه الحال في منطقة الحوض التي كانت مدينة أودغست توجد بها، فقد ذكرت الروايات العربية وجود أعداد هامة من النخيل حول تلك المدينة خلال الفترة التي تهمنا، ودلت نتائج البحوث الأثرية على أن المياه الجوفية كانت قريبة من سطح الأرض، وبالذات خلال الفترة ما بين القرن7م و 11م، إلا أن كميات المياه الجوفية بدأت منذ أواخر تلك الفترة تتناقص بسبب التغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة وقتئذ، الأمر الذي نعتقد أنه كان مسؤولا عن ندرة النخيل في الوقت الحاضر في موقع أودغست وضواحيها بالمقارنة مع آزوكي والمناطق المحيطة بها.

بل إن الباحثين الأثريين[112] أوردوا أنهم لم يتمكنوا من العثور على آثار تدل على الانتشار الواسع للنخيل الذي تحدث عنه المؤلفون العرب في تلك المنطقة باستثناء شجيرات قليلة متبقية استمرت حول بئر المبروك الذي يبعد مسافة 15 كلم إلى الشرق من خرائب أودغست.

كما يمكننا إضافة عامل آخر قد يكون له الدور الحاسم في اختفاء أعداد كبيرة من النخيل من منطقة الحوض، ويتعلق الأمر بعدم الاستقرار الذي عرفته تلك المنطقة من أواخر القرن10م حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، إذ كانت طيلة تلك الفترة ميدانا لحروب كثيرة، في مقدمتها تلك التي حدثت خلال منتصف القرن11م إبان قيام الحركة المرابطية، فقد تسببت تلك الحروب في هجرات سكانية من المفترض أنها كانت السبب الرئيسي في فقدان النخيل للرعاية اللازمة في ظل فترة تميزت بتفاقم مشاكل نقص المياه، ويمكننا ترجيح

---

107 ياقوت: مصدر سبق ذكره، ص:278.

108 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158

109 نفس المصدر، ص: 168.

110 ريمون فيرون: مرجع سبق ذكره، ص:

111 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.

112 Serge ROBERT: Archéologie des cites, op. cit., p. 49

هذا العامل، لأن المنطقة الشمالية التي كانت أكثر استقرارا استمرت فيها أعداد كبيرة من واحات النخيل حتى الوقت الحاضر.

وكانت الواحات تعرف شكلا آخر من الزراعة يتم تحت ظل النخيل أو إلى جانبه، وهو ما يعرف بزراعة البستنة التي كانت تشتمل على أنواع مختلفة من المزروعات ذكر الوراق بعضها عندما كتب عن أودغست يقول: "... وحولها بساتين النخل ويزدرع فيها القمح بالفوس ويسقى بالدلاء(...) وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا"[113]، أما الحناء فقد نوه كتاب القرنين10م و11م بكثرتها في مناطق مختلفة من غرب الصحراء[114].

وعلى الرغم من الأهمية التي كانت زراعة الواحات تكتسيها بالنسبة لسكان غرب الصحراء خلال تلك الفترة، فإنها لم تكن توفر لهم الاكتفاء الذاتي من المواد الغذائية، لذا فإن اعتمادهم كان أكثر على الزراعة البعلية التي كانت تشمل محاصيل مختلفة أجملها المهلبي في قوله: "... وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبيا..."[115]، كما أشار الوراق إلى أهمية الذرة بالنسبة لسكان أودغست في قوله: "... ويزرع فيها القمح بالفوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاثي تجود عندهم"[116]، وتتطلب الذرة بمختلف أشكالها فترة ثلاثة أشهر ابتداء من بذرها من أجل أن تنضج للحصاد، في حين كان الدخن يتطلب شهرين فقط[117].

وهكذا فإن سكان صحراء الملثمين خلال الفترة ما بين القرون8م و11م لم يكونوا كلهم بداة متنقلين، وإنما كان بعضهم مستقرا أو من أنصاف المستقرين الذين يهتمون عادة بنشاطات زراعية موسمية أو دائمة مثل ما أوضحنا سابقا، وإن كان هنالك آخرون يركزون على أنشطة أخرى متعددة خاصة في المناطق غير الصالحة للزراعة مثل الصيد البري في المناطق الصحراوية، والصيد البحري على شواطئ المحيط.

3 -الصيد

يعود تاريخ ممارسة سكان غرب الصحراء للصيد -بشقيه: البري والبحري- إلى عصور سحيقة من الزمن، حيث تبين الرسوم والصور التي خلفها إنسان تلك العصور اصطياد الإنسان لأنواع مختلفة من الحيوانات البرية من أهمها الفيلة والزراف والنعام الخ...

وتشهد تلك الرسوم والصور على وفرة الحيوانات البرية وتنوعها ووجودها في كافة أنحاء المنطقة على عكس ما هو كائن حاليا، ويعود بعض تلك الرسوم إلى الفترة ما بين 1200 ق.م و سنة 300م.

ولم تكن الرسوم والصور هي الشاهد الوحيد على كثرة الحيوانات البرية في منطقة غرب الصحراء، وإنما هنالك شواهد أخرى مثل أسماء بعض المواقع الجغرافية المستمدة من

---

113 انظر البكري، ص: 158.
114 انظر نفس المصدر, في الصفحات 157، 158، 168.
115 ياقوت: مصدر سبق ذكره، ص: 278.
116 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158
117 المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره، ص:13.

أسماء بعض الحيوانات التي لم تعد توجد بها، مما يدل على أن الحيوانات أعطت أسماءها للمواقع المذكورة بسبب وفرتها بها خلال فترات مجهولة من التاريخ، ومن بين تلك الأسماء مثلا آمد ومعناه في اللغة الصنهاجية: الزرافة كما توجد أسماء لمواقع أخرى باللغة العربية مثل المهر، و اكرارت الفيل الخ[118]، ومن أهم الحيوانات البرية التي كان السكان يصطادونها: الغزال بأنواعه والمها والظباء والنعام[119]، كما أن البكري أشاد بكثرة حيوان سماه اللمط بغرب الصحراء فقال عنه "... ومما في هذه الصحراء من الحيوان، اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها". كما أشار إلى كثرة حيوان آخر أسماه الفنك[120].

وهكذا ظلت الحيوانات كثيرة خلال العصر الوسيط، عند ما كانت الأدوات المستخدمة في مجال الصيد البري تتمثل في الرماح والسهام والحراب والمزاريق، وقد أشار ابن بطوطة إلى أدوات أخرى رآها تستخدم في صيد الأبقار الوحشية في الصحراء الواقعة إلى الشمال من ولاتة، فقال: "...وهذه الصحراء منيرة مشرقة (...) والبقر الوحشية بها كثيرة يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب"[121]، وظلت هذه الوسائل مستخدمة في صيد الحيوانات البرية من طرف سكان نفس المنطقة المعروفين محليا تحت اسم: "انمادي" حتى سبعينيات القرن 20 م، ونعتقد أنهم اضطروا إلى تلك الصحراء الموحشة، بعدما فروا إليها من مواطنهم الأصلية تحت ضربات الصنهاجيين والسودان في بداية القرون الوسطى[122] فأصبح الصيد نشاطهم الرئيسي إن لم يكن الوحيد.

وبالإضافة إلى الصيد البري كان سكان الشواطيء الأطلسية لغرب الصحراء يمارسون الصيد البحري، إذ يعتقد روبير فرني أن صيادي " إيمراكن" الحاليين ليسوا إلا من بقايا سكان المنطقة القدامى الذين هجروها منذ آلاف السنين، وأن أولئك السكان كانوا يمارسون نفس النشاط، كما يعتقد نفس الباحث أن أنهارا مختلفة كانت تتخلل الصحراء، وأنها مكنت السكان فيها من ممارسة الصيد النهري مثل ما كان عليه الحال بالنسبة لسكان أظهر تيشيت وولاتة في الألف الأولى قبل الميلاد[123].

وظل سكان شواطيء المحيط الأطلسي وضفاف نهري السنغال والنيجر يمارسون نفس النشاط خلال العصر الوسيط، فقد ذكر الإدريسي أثناء حديثه عن سكان قمنورية الذين يبدو أنهم طردوا من مدنهم بآدرار في بداية العصر الوسيط، أنهم شتتوا وأصبحوا يعيشون على الرعي والصيد وذلك عندما قال: "... فلم يبق من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحاري، وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان والحوت"[124]، كما ذكر البكري ممارسة الصيد النهري خلال القرن11م في جزيرة أيوني القريبة من مملحة آوليل حيث قال: "... وبقرب آوليل في البحر جزيرة تسمى أيوني... وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف فهي أكثر

---

[118] انظر بهذا الصدد: Th. Monod. Op. cit, P: 92

[119] انظر المختار بن حامدن: مرجع سبق ذكره، ص: 16، وكذلك:
Th. MONOD, op. cit, p. 92.

[120] البكرى: مصدر سبق ذكره ص، 171.

[121] ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص: 676.

[122] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87.
سنتعرض بتفصيل أكثر لهؤلاء الصيادين وأسباب استقرارهم في أعماق الصحراء منذ بداية العصر الوسيط عند ما نتحدث عن سكان غرب الصحراء في الفصل الموالي بحول الله.

[123] R. VERNET, La Mauritanie, op.cit., p. 42 . et Th. MONOD, op. cit., p. 91

[124] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87.

شيء عندهم في ذلك البحر وهي مفرطة في العظم"[125]، وأشار مؤسس الحركة المرابطية يحيى بن إبراهيم إلى أهمية الصيد البري والبحري في حياة سكان المنطقة أثناء وصفه للجزيرة التي تورد بعض الروايات أنه رابط بها مع شيخه عبد الله بن ياسين، فقال: "...وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من أشجار البرية وصيد البر وأصناف الطير والوحوش والحوت..."[126]، ولم يكن صيادو الشواطئ في غرب الصحراء يكتفون بالحصول على الأسماك وحيوانات البحر للغذاء فحسب، وإنما كانوا أيضا يبحثون على طول تلك الشواطئ عن العنبر الذي كان يدر عليهم أرباحا كبيرة في الأسواق المجاورة.

والعنبر هو حسب بعض المؤلفين العرب عبارة عن مادة تقذفها البحار على شكل قطع، فيبتلعها نوع من الأسماك يدعى "الأوال"، فيموت بعد ابتلاعه لها مباشرة ويطفو فوق الماء، فيشق الصيادون ويستخرجون منه العنبر ثم يبيعونه للعطارين الذين يصنعون منه الطيب[127]، بينما يعتقد بعض الباحثين أن العنبر يطلق على نوع من الأسماك تصنع من جلودها التروس، وأن الترس من هذا النوع يسمى أيضا "عنبرا"، كما يرون أنه يطلق في الوقت نفسه على روث دابة بحرية، وأن ذلك الروث يستخدم في مجال الطيب[128]، وقد أشارت المصادر العربية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين إلى غنى سواحل غرب الصحراء بهذه المادة، فكتب الوراق[129] مثلا عن أودغست "... ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم"، كما أشار البكري[130] إلى وجوده في جزيرة أيوني القريبة من آوليل، إلا أن تلك المصادر لم تذكر أن العنبر كان يوجه إلى الأسواق المحلية، ولا إلى صنع العطر منه محليا، وإنما تكاد تجمع على أنه كان مادة من بين المواد التي كان غرب الصحراء يصدرها إلى المناطق المجاورة مثل الملح.

4 - استخراج الملح:

اكتسب الملح الحجري أهمية خاصة في منطقة غرب الصحراء والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، ولعب دورا أساسيا في المبادلات التجارية بين شعوب المنطقة، وكانت أهم سباخه توجد في منطقة غرب الصحراء، فكان سكانها يستخرجونه ليبيعوه، إما لتجار شمال إفريقيا الذين كانت قوافلهم تعرج على الممالح لشرائه منها، أو يحملونه مباشرة إلى بلاد السودان[131]ومن بين أشهر الممالح التي عرفت رواجا تجاريا كبيرا خلال العصر الوسيط مملحة آوليل التي تعتبر من أقدم تلك الممالح استغلالا، وقد ذكرها ابن حوقل[132] في القرن العاشر، وهنالك ممالح أخرى قديمة أيضا مثل تاتنتال[133] أوتغازة التي يعتقد بعض الباحثين أن بداية

---

125 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:124.
126 البكري: المصدر السابق، ص:171.
127 أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5 دار الفكر بيروت1973- المجلد الأول- ج1, ص. ص: 150-151.
128 متاع خليل القطان: الحديث والثقافة الإسلامية ط 6- دار الاصفهاني للطباعة- جده 1987، ص52
129 البكري مصدر سبق ذكره، ص:159.
130 نفس المصدر، ص: 171.
131 المصدر السابق، ص: 159-171.
132 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
133 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171

استخراج ملحها كان خلال النصف الأول من القرن11م وبالتحديد خلال الفترة مابين 1020و1040م[134].

وكانت السباخ المتناثرة في منطقة غرب الصحراء خلال تلك الفترة تحت سيطرة القبائل الصنهاجية[135]، تمثل المصدر الرئيسي لمنطقتي السودان الغربي والمغرب من الملح[136]، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الطلب على هذه المادة في الأسواق السودانية، حيث وصل ثمن حمولة الجمل الواحد منه خلال القرن العاشر للميلاد ما بين 200 و 300 دينار من الذهب[137].

وهكذا فإن هذه القيمة المرتفعة التي اكتسبها الملح الحجري، بين مواد التبادل التجاري وقتها، مكنت منطقة غرب الصحراء من أن تلعب دورا رئيسيا في المبادلات التجارية التي ميزت العلاقات بين أجزاء القارة الإفريقية بما فيها منطقة صحراء الملثمين والمناطق الواقعة إلى الشمال و الجنوب منها، والتي أصبحت معروفة لدى الدارسين بالتجارة عبر الصحراء.

5 التجارة:

عرفت صحراء الملثمين التجارة بكافة مستوياتها (المحلية والإقليمية)، حيث مكن اتساع مساحة تلك المنطقة، وما نتج عنه من تنوع للمناخ في مختلف نواحيها من وجود أنشطة اقتصادية متنوعة، حيث كانت كل منطقة تنتج ما يتلاءم مع ظروفها الطبيعية الخاصة، وقد أدى هذا التنوع الجهوي على المستوى الاقتصادي إلى تشجيع سكان المنطقة على التكامل عن طريق التبادل، وهذا الشكل من التبادل بين المناطق الصحراوية يمكن أن نطلق عليه مصطلح "تجارة داخلية"، إذ أن بعض سكان صحراء الملثمين كان يركز على استخراج الملح من السباخ ليبادلوه في المراكز الحضرية بمواد أخرى، في حين ركز بعض السكان على زراعة الواحات، بينما أهتم السواد الأعظم من سكان المنطقة بتربية الماشية.

ومن المعلوم أن سكان صحراء الملثمين ظلوا حتى فترة زمنية قريبة يعتمدون على المقايضة وسيلة وحيدة في التبادل التجاري، ويتمثل ذلك فيما نقله البكري عن الوراق أثناء حديثه عن سكان أودغست عند ما كتب يقول: "... وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة"[138]، مع العلم أن التبر لم يكن يستخرج من الأراضي الصحراوية وإنما يستورد من السودان الغربي عن طريق مبادلته بالملح الذي كانت مملكة أودغست تحتكر الاتجار به خارج المنطقة الصحراوية[139].

وهكذا كان سكان المناطق الصحراوية يبادلون بعضهم البعض كما اتخذوا من التبر وسيلة للتبادل من دون أن يضربوا منه عملة ومن أمثلة ذلك على سبيل المثال لا الحصر طريقة بيع البدو لمواشيهم، حيث كان المثقال الواحد من الذهب يدفع مقابل أكثر من "عشرة أكبش من

---

134 J. DEVISSE: Routes du commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée, un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle in Revue d'histoire économique et sociale, Paris, L.1, 1972, pp. 42-73

135 انظر البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

136 نفس المصدر، ونفس الصحفة.

137 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

138 البكري: مصدر سبق ذكره، ص. 158.

139 ابن حوقل، ص: 98.

الغنم"[140]. وكانت الطرق التي اخترقت المنطقة في مختلف الاتجاهات، ومثلت جزءا من الطرق التي كانت تربط شمال إفريقيا بغربيها، تساعد على حيوية المبادلات التجارية المحلية كما مكنت سكان الصحراء من الدخول مع جيرانهم في مبادلات تجارية سمحت لهم باستيراد المواد التي لم تكن تنتج في أرضهم، أو تلك التي لم يكونوا ينتجون منها القدر الذي يغطى اكتفاءهم الذاتي، خاصة من المواد الغذائية والملابس[141].

وعلى العموم فإن التجارة كانت عبارة عن نشاط مكمل ساعد على توفر الحاجيات عن طريق مبادلة المواد المحلية فيما بينها على المستوى المحلي أو مبادلتها بالمواد الخارجية المستوردة وذلك على الصعيد الإقليمي، كما وفر النشاط التجاري الشغل للكثير من سكان الصحراء الذين كانوا يعملون قوادا للقوافل أو مرشدين أو حرسا لها، بالإضافة إلى مساهمتهم في العملية التجارية بصفتهم شركاء رئيسيين مع الأطراف الأخرى.

يتبين لنا إذن، من خلال دراستنا المجملة للإطار الجغرافي والاقتصادي لصحراء الملثمين خلال الفترة ما بين القرن 8م و11م، أن موقعها ووضعيتها الاقتصادية مكناها من توفير أنشطة اقتصادية مختلفة كان لها الدور الحاسم في رسم الخريطة البشرية المتميزة في المنطقة، كما أن سكان الصحراء أثناء مواجهتهم لظروفها وتكيفهم مع بيئتها الخاصة، توزعوا في أرجائها بحثا عن مستلزمات الحياة، وتقاسموا بالتراضي أحيانا، وتحت تأثير توازن القوة أحيانا أخرى منافعها، فمن هم سكان صحراء الملثمين خلال الفترة مابين القرن 8م ونهاية القرن11م؟ وكيف كان توزيعهم بها ؟

140 البكري مصدر سبق ذكره، ص: 158- 159.
141 نفس المصدر، ص:158

الفصل الثاني: السكان في صحراء الملثمين من منتصف القرن 8م حتى نهاية القرن 11م.

عرفت الصحراء كغيرها من مناطق العالم هجرات بشرية مختلفة عبر تاريخها الطويل، وكانت الموجات اللاحقة من المهاجرين إليها غالبا ما تدخل في صراعات مع السكان الذين استقروا بالمنطقة قبلها تنتهي بإخضاعهم وذوبانهم في المجتمع الجديد الذي تهيمن عليه موجة المهاجرين الأخيرة، ولقد ارتبطت الصحراء منذ عصور موغلة في القدم بالمنطقة التي تحمل الآن اسم المغرب العربي[142]، وكانت امتدادا بشريا وثقافيا لتلك المنطقة التي اعتبر بعض الباحثين[143] أن تاريخها القديم هو عبارة عن تاريخ غزو وهيمنة أجنبية بشكل متكرر، ولا بد لنا أن نتعرض- ولو بإيجاز- للمجموعات البشرية التي استقرت في الصحراء خلال العصور القديمة لنتمكن من معرفة جذور مجتمع الملثمين خلال العصر الوسيط.

I -سكان الصحراء قبل العصر الوسيط:

تمتلك الصحراء تاريخا يتميز بتعاقب وتداخل حضارات عديدة ذات تقنيات وذوق رفيعين، وتختلف طبيعة تلك الحضارات باختلاف المجموعات المشيدة لها، ويعتقد هيجو[144] أن الإنسان عبر مضيق السويس من إفريقيا إلى آسيا، وأن هجرة معاكسة وقعت عبر نفس المضيق خلال العصر العاطري(Epoque Atterienne) الذي عرف هجرات لمجموعات بشرية من آسيا إلى مصر، ومنها تتبعت تلك المجموعات الشاطئ المتوسطي حتى وصلت الشواطئ الأطلسية للمغرب الأقصى، ومنه انسابوا إلى الصحراء، ثم أخذت في الانتشار ببطء إلى أن وصلت إلى ضفاف نهر السنغال، وخلال العصر الحجري الحديث حدثت ثورة إنسانية كبرى أدت إلى تحسن الأدوات الحجرية التي كان الإنسان يستخدمها، فانتشرت حرف جديدة مثل الزراعة والرعي، وباختصار، فإن الإنسان بدلا من أن يظل مصدر تحطيم لوسطه البيئي أصبح منتجا بتدخلاته الإيجابية، كما أن ممارسة إنسان تلك الفترة للأنشطة الزراعية أدى إلى موجة من التقرى في المنطقة، تولد عنها تنظيم المجتمع وتطور الأفكار، وقد تم انتشار الاقتصاد والحضارة النيوليتيين بسرعة مذهلة خلال الألف الرابعة قبل الميلاد عبر الصحراء بواسطة الهجرات التي تتالت عليها قبل وخلال تلك الفترة[145]، وتعايش الإنسان الأبيض مع المجموعات السودانية في الأطراف الجنوبية للصحراء منذ العصر الحجري القديم، بعد الهجرات التي وصلت حوضي السنغال والنيجر قادمة من شمال إفريقيا، وأخرى من المنطقة الاستوائية لمجموعات ذات خصائص سودانية قادمة من المنطقة السودانية الرطبة أو من الشرق.

وكانت الهجرات البشرية إلى منطقة غرب الصحراء تتم بشكل يتناسب طرديا مع التغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة، وكانت تلك التغيرات المناخية عبارة عن فترات متعاقبة من الرطوبة والجفاف مما أثر على تعمير المنطقة، حيث كان سكانها يتراجعون في اتجاه الشمال والجنوب كلما ألمت بهم فترة جفاف طويلة، ثم يعود إليها السكان من الاتجاهين خلال الفترات المطيرة، فخلال العصر الحجري الحديث كانت منطقتا المجابات الكبرى وأزمور المهجورتين حاليا تتلقيان معدلا سنويا للأمطار يصل إلى ما بين 500-600مم، وخلال القرون السابقة للعصر المسيحي تراجعت المجموعات القديمة، حيث أصبحت منطقة غرب الصحراء

---

142 عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب- المطبعة الملكية- الرباط 1968، ص: 292.

143 Gabriel CAMPS: Berbères aux marges de l'histoire، Editions des Hespérides، Toulouse 1980، p. 18

144 Henri Jean HUGOT: Le Sahara avant le désert، Editions des Hespérides، Toulouse،1974، p. ;91

145 Jean BUGNON et Abdelaziz AMINE (et autres): Histoire du Maroc, Hatier, Paris, Librairie Nationale, Casablanca, 1968, p. 12

من شمالها وحتى اظهر تيشيت وولاته خاصة بالبربر، ثم العرب الذين وصلوا إليها خلال النصف الأول من القرن 8م[146] وانتهى العصر الحجري الحديث في غرب الصحراء مع بداية عصر النحاس، فهل يمكننا ربط استخراج واستغلال هذا المعدن بهجرة جديدة من الشمال، حيث يعتقد أن المنطقة شهدت منذ ذلك الوقت توغل مجموعات من البربر باتجاه الجنوب ووصلت الهجرات ذروتها خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد[147].

على كل حال هذا ما تؤيده الرسوم والكتابات الليبية- البربرية التي تعود إلى تلك الفترة والمصادر اليونانية واللاتينية القديمة المكتوبة، وإن كانت معلوماتها مضطربة وأقرب إلى الأسطورة في بعض الأحيان منها إلى الحقيقة نتيجة لبعد كتابها عن المجال الذي كانوا يكتبون عنه، وفى هذا الإطار تحدث هيرودوت[148] عن رحلة لبعض التجار ومعهم شخص سماه "ستاسب" في باخرة زودهم بها المصريون، فانطلقوا على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى أن وصلوا الشواطئ الأطلسية للمغرب الأقصى ثم اتجهوا جنوبا إلى أن وصلوا الشواطئ الموازية لجبال الأطلس التي أطلق على سكانها اسم "الاتلانتيت". كما تحدث نفس الكاتب عن أول رحلة داخلية عرفتها القارة الإفريقية فذكر بأنها نفذت من قبل شباب نازامونيين قطعوا الصحراء وواصلوا رحلتهم باتجاه الجنوب إلي أن وصلوا إلى نهر كبير يقطن بالقرب منه أناس قصار سود يجهلون لغتهم[149]، أما حنون فقد ذكر في رحلته[150] أن سكان نفس المنطقة كانوا يسكنون في الكهوف، وأن الليكسوس أخبروه أنهم أسرع من الخيول أثناء السباق، كما ذكر أنه عند ما وصل إلى الشواطئ الأطلسية المقابلة لوادي درعة حمل معه مترجمين ليستعين بهم أثناء رحلته إلى المناطق الجنوبية، وعندما وصل إلى جزيرة أطلق عليها تسمية "سرنه" ترك بها بعض المعمرين وأصبحت سوقا قرطاجية، ولم يكن المترجمون الذين صحبوا السفن القرطاجية يعرفون لغة الزنوج[151] وهو أمر يدل على أن المنطقة الفاصلة بين وادي درعة وجزيرة سرنه كانت معمورة بنفس الجنس البشري الموجود بالمغرب الأقصى آنذاك[152]، ومع أن دارسي رحلة حنون اختلفوا حول الموقع الحالي لجزيرة سرنة، فإنهم متفقون على أنها تقع على الشاطئ الصحراوي، إذ ورد في الرحلة أن القرطاجيين وصلوا إلى تلك الجزيرة بعد أن انتهت الصحراء جنوبا، وعلى كل حال فإن بعض هؤلاء الدارسين يرون أن المواصفات التي أعطتها الرحلة لسرنة تنطبق على مصب نهر السنغال[153]، وقد كتب سيلاكس[154] في القرن4 ق.م عن الأثيوبيين فذكر أنهم هم السكان المجاورون لجزيرة سرنة، في حين تحدث عنهم بوزانياس باعتبارهم سكان دواخل، ومع أن معظم الدارسين الأوربيين يعتقدون أن الأثيوبيين زنوج، فإن سيلاكس[155] يترك لدينا انطباعا مخالفا لذلك من خلال وصفه لهم حيث وصفهم باسترسال شعر الرأس واللحية وذكر أنهم من أجمل خلق الله، وأنهم طوال القامة، وأن قاماتهم تصل في أقل تقدير- حسبه- إلى أربعة أذرع، بل إن بعضهم تصل قامته إلى خمسة أذرع.

وتعني كلمة "الاثيوبيين" ذات الأصل اليوناني، "الأقوام ذوي البشرة المشتعلة"، وإذا كان هذا الوصف ينطبق على الزنوج، فإنه أيضا يمكن أن يشمل مجموعات البربر الذين كانوا

---

146 Robert VARNET: La préhistoire de la Mauritanie, in Introduction la Mauritanie, CNRS, 1979, p. 42.

147 Cristian VANACKER, In Introduction, op. cit. p. 47.

148 HERODOTE: in Le Maroc chez les auteurs anciens, Textes traduits par Raymond ROGET, Société d'édition "LES BELLES LETTRES", Paris, 1924, p. 16.

149 Stephane GSELL: Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t. 1, OTTO, Zeller Verlag, Osnabrck, 1972, p. 318-319

150 Périple d'HANNON, in le Maroc chez les auteurs ancien, op. cit. p. 19.

151 S. GSELL; op. cit. p. 318.

152 Idem

153 أحمد صفر: مدنية المغرب العربي في التاريخ. (عشرون قرنا من تاريخ افريقية من عصور ما قبل التاريخ إلي آخر العهد البيزنطي)- دار النشر بوسلامة- مطبعة العمل تونس 1959، ص ص:132-13 3 وكذلك غوتينة: مرجع سبق ذكره، ص:35.

154 Périple de SYLAX , in le Maroc chez les auteurs anciens, op. cit., p

cit., p. 39 155 PAUSANIAS, in le Maroc chez les auteurs , op.

يقطنون في المناطق الصحراوية ذات درجات الحرارة المرتفعة، والذين قد تتغير ألوانهم، بحيث تصبح قريبة من السواد تحت تأثير أشعة الشمس، مما يجعل الكتاب الأوربيين القدماء يصنفونهم ضمن الزنوج، ويعتقد غزيل[156] أن "اثيوبيا" كانت تستعمل عند القدماء كمصطلح جغرافي يدل على المناطق الواقعة وراء جبال الأطلس، وأن سكان تلك المنطقة هم الذين يحملون اسم الاثيوبيين، وبالتالي فإن الاثيوبيين هم سكان منطقة اثيوبيا بغض النظر عن الجنس البشري الذي ينتمون إليه، ويدعم رأيه بأن هنالك كتابا لاتينيين كتبوا في بداية العصر المسيحي من أمثال: ميلا وبلين وبطليموس أشاروا إلى وجود اثيوبيين بيض في الصحراء لكن معظم الكتاب الغربيين وخاصة الفرنسيين - الذين كتبوا عن تاريخ المنطقة- أصروا على أن أولئك الاثيوبيين كانوا زنوجا، ودفع بهم ذلك الإصرار إلى الوقوع في التناقض أحيانا مثل ما وقع لمودا[157] أثناء دراسته لمخلفات الإنسان القديم في آدرار، فدرس الخزفيات والنقوش والكتابات التي تعود إلى العصور الغابرة في تلك المنطقة من الصحراء وذكر أن تلك المخلفات من صنع البربر لكنه في الأخير استنتج أن السكان القدماء في تلك المنطقة كانوا زنوجا!! أما غزيل[158]، الذي سبق أن عرفنا كيف أنه أقر بإطلاعه على مصادر توحي بوجود اثيوبيين بيض البشرة، فإنه يتكلف عناء كبيرا من أجل أن يرجعهم إلى أصول زنجية على الرغم من اعترافه ببياض بشرتهم التي افترض أنها كانت مجرد طلاء أبيض يجعله الزنوج على أجسامهم[159]، وعلى كل حال فإن من الواضح من خلال المعلومات التي قدمها لنا الكتاب القدماء أن أولئلك الاثيوبيين الذين قطعوا الصحراء خلال الفترات السابقة للميلاد لم يكونوا يختلفون كثيرا عن باقي سكان شمال إفريقيا.

ومع بداية العصر المسيحي طغت على قاطني الصحراء تسميات شعوب أخرى، لكننا لا ندري ما إذا كانت تلك المسميات تدل على هجرات شعوب فرضت هيمنتها خلال تلك الفترة على المنطقة، أم أنها مجرد تسميات جديدة حلت محل تسميات قديمة لنفس المجموعات التي كانت تقطنها، وقد نقل استرابو[160] عن آرتمديور أن أقواما أطلق عليهم اسم لوتوفاج هاجروا من شمال إفريقيا واستقروا في "المنطقة التي لا ماء فيها وأصبحوا يعيشون على الأزهار والأعشاب وجذور الأشجار، وكانوا في غنى عن الشراب وبواسطة امتصاصهم لتلك الجذور ".

ومن بين الشعوب التي ظهرت تسمياتها أيضا في غرب الصحراء مع بداية التاريخ الميلادي شعب الفاروسي الذي أشار إليه استرابو[161] أيضا، حيث ذكر بوضوح أن مجموعات من ذلك الشعب كانت تجوب الصحراء مستعينة أثناء عبورها لها بقرب مملوءة بالماء كانوا يربطونها تحت بطون خيولهم، كما ذكر أنهم كانوا يمتلكون عربات مسلحة تسليحا رديئا، ويعتقد البعض أن الفاروسي هم الذين تركوا صورا لتلك العربات على طول الطرق المنطلقة من جنوب المغرب والمتجهة جنوبا حتى تصل النهايات الجنوبية للصحراء[162].

ومن بين المؤرخين القدماء الذين تحدثوا عن الفاروسي نذكر بلين القديم المتوفى سنة ٧٩م، حيث ذكر أنهم كانوا جيران الجيتول[163] الذين كانوا يعمرون الجزء الشمالي من الصحراء[164]، أما بوزانياس[165] فإنه يعود بنا إلى تسمية لشعب كان هيرودوت قد أشار إليه منذ

---

[156] SYLAX, op. cit., p. 20

[157] Colonel MODAT: "Les populations primitives de l'Adrar mauritanien", in, B.C.E.H.S. de l'A.O.F., t.1، 1919, pp. 372-392

[158] S. GSELL, op. cit., p. 299

[159] Idem.

[160] STRABON, in le Maroc chez les auteurs anciens, op.cit, p. 27

[161] Ibid , p.26 .

[162] Raymond MAUNY, Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen-Âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Mémoire de l'IFAN, n!61, Dakar, 1961, p. 428

[163] PLINE L'Aneien, in Maroc chez les auteurs anciens, op.cit., p. 32

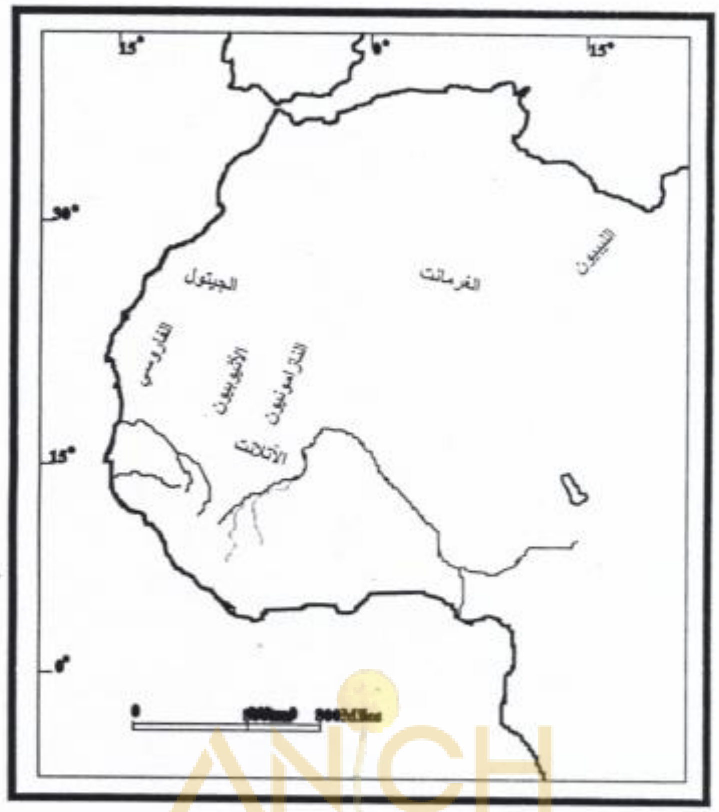
[164] Ibid, p. 34

[165] Pausanias, in Le Maroc chez les auteurs anciens, op. Cit. p. 31.

القرن 5ق.م، هو شعب النازامونيين، فذكر أنه يعيش وراء جبال الأطلس، وأنه لا يعرف الزراعة وإنما يعيش أفراده على التقاط أوراق وثمار الأشجار.

وبصفة عامة، فإن أهم التسميات التي سيطرت على مجتمع الصحراء خلال العصر القديم تتمثل في: الاثيوبيين، الفاروسي والجيتول والنازامونيين، فهل يمكننا إذن اعتبار تلك الشعوب أسلافا للسكان الذين كانوا يعمرون الصحراء خلال العصر الوسيط، والذين كانوا في معظمهم من صنهاجة؟

الخريطة رقم 1: سكان غرب الصحراء خلال العصر القديم



المرجع:

G.AUMASSIP، N.FERHAT، A.HEDDOUCHE، R. VERNET et (autres): Milieux، Hommes et Techniques du Sahara préhistorique، Problèmes actuels، L'Harmattan، Paris، 1988، p. 61

ومع أن بعض الباحثين[166] يؤيدون ذلك، فإن الأمر الذي يكاد يتفق عليه الكتاب والباحثون هو أن سكان غرب الصحراء كانوا في معظمهم خلال القرون القليلة السابقة للعهد المسيحي من البربر[167] وأن هجرات من الشمال تتالت على المنطقة تحت تأثير الضغط الروماني، حيث اتخذت روما سياسة تعسفية اتجاه سكان المغرب، إذ كان المستوطنون والجنود الرومان يقومون بطرد السكان الأصليين عن أراضيهم الصالحة للزراعة، ويسلبون منهم حيواناتهم، مما يضطر أولئك السكان إلى الالتجاء إلى الصحراء القاحلة، بل وعبورها حتى نهر النيجر وأجزاء أخرى من غرب ووسط إفريقيا[168]، ولقد أدت تلك السياسة المتبعة من طرف الرومان إلى تنفير السكان من حكمهم ودعتهم إلى الثورة عليه.

وهكذا عرفت بداية القرن الأول بعد الميلاد ثورات كادت تعصف بالوجود الروماني في شمال إفريقيا من أهمها الثورة التي قادها الزعيم البربري تاكفاريناس الذي تمرد من داخل الجيش الروماني وأيدته معظم قبائل البربر بما فيها القبائل القاطنة في المناطق الجبلية والصحراوية[169] ومن بين أهم القبائل التي ساعدت ذلك الثائر، قبيلة كدالة، وهي قبيلة كانت بطونها وقتئذ منتشرة في الصحراء بعيدا إلى الجنوب، وكانت إحدى أهم القبائل الصنهاجية المعمرة لغرب الصحراء خلال العصر الوسيط.

وكان يوبا الثاني ملك موريتانيا مواليا للسلطة الرومانية، ويبدو أنه قام برحلة إلى الجنوب وصل خلالها إلى جبال الأطلسا[170] فهل كان الهدف من رحلته هو دعوة القبائل في تلك الجهات إلى التخلي عن دعمها لتاكفاريناس؟ أم أنه كان يقود حملة عسكرية ضد أولئك الثوار؟

ومن المعروف أن يوبا الثاني توفى سنة 23م دون أن يتمكن لا هو ولا حلفاؤه الرومان من القضاء على ثورة تاكفاريناس، التي استمرت خلال الفترة ما بين سنتي 17 و 34م[171] ولم تتوقف إلا عندما أرسلت روما حملة عسكرية يقودها سبتنيونيوس ابوليونوس، الذي توغل داخل الصحراء، فطارد الثوار، وأقام بها فترة من الزمن، وذكر عنها أنها منطقة غير مسكونة بسبب ارتفاع درجات الحرارة[172] ولا يستبعد أن تكون تلك الحملات وغيرها من الحملات الرومانية الأخرى قد أدت إلى فرار الكثير من الأهالي أمام الجيوش إلى داخل الصحراء للاحتماء بظروفها الطبيعية غير المناسبة للعدو.

وتميز النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي باندلاع الثورات على نطاق واسع في المغرب ضد الحكم الروماني، وقد حدث ذلك بصفة خاصة خلال عهد جوليانوس الذي تمكن قائده ماكسيم هرقل من الانتصار على الثوار ونفيهم إلى الصحراء[173]، كما نشبت ثورات أخرى خلال الثلث الأخير من القرن الرابع الميلادي، قادها فيرموس (372-375)م وجيلدو (397-398)م، ففي الثورة الأولى التي انطلقت من منطقة القبائل الحالية، تمكن الجنرال الروماني تيوسيوس من مطاردة قبائل كثيرة ناصرت الحركة وأرغمها على دخول الصحراء، لكن جيشه

---

166 فيج- حي-ذي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق د. السيد يوسف نصر، ط1 دار المعارف القاهرة 1982، ص:43.

167 R. VERNET, in Introduction, op.cit.، p. 35 et p. 43

168 رشيد الناضوري: تاريخ المغرب الكبير، العصور القديمة، أسسها التاريخية، الحضارية والسياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1981، ص:327.

169 تاريخ المغرب الكبير، مرجع سبق ذكره، ص: 326.

170 PLINE l'Ancien, op.cit , p. 39.

171 المغرب الكبير: مرجع سبق ذكره، ص: 324.

172 PLINE l'Ancien, op.cit., p. 32

173 MODAT, op.cit, p. 381

المتعود على مناخ بارد، لم يتمكن من تحمل مناخ "أرض تحترق بالحرارة"[174]، ويبدو أن الثوار حصلوا على مساعدة سكان الصحراء القدماء خاصة الاثيوبيون -الذين هم في نظرنا مجرد إحدى قبائل البربر- وذلك عندما انتقلت المعارك بعيدا إلى الجنوب[175].

هكذا إذن، كانت صحراء الملثمين خلال فترتي ما قبل التاريخ والتاريخ القديم، امتدادا بشريا لمنطقة شمال إفريقيا، وإن كانت المعلومات المتوفرة لدينا حتى الآن تسمح بالقول بأنها لم تمر بالتطورات السياسية التي مرت بها تلك المنطقة (الاحتلال الروماني- الوندالي- البيزنطي) ومع ذلك فإن تلك التطورات قد أدت إلى تقوية الصلات الدموية والحضارية بين المنطقتين وتجديدها باستمرار، حيث اتخذت القبائل الهاربة أمام التسلط الروماني في الشمال، من الصحراء ملاذا آمنا لها، لصعوبة تتبع أعدائها لها داخلها[176] ثم تعودت على الانتجاع في تلك المنطقة، فاستوطنتها بشكل نهائي، ومنذ أواخر القرن 4م، أصحبت معالم الخريطة البشرية لصحراء الملثمين واضحة ولم يطرأ عليها تغيير يذكر إلا في بداية القرن8م عندما وطئتها خيول العرب الفاتحين.

II- التوزيع السلالي والجغرافي لسكان الصحراء خلال الفترة مابين القرن 8و11م.

عند ما استقر العرب الفاتحون في المغرب، وتمكنوا من إخماد الثورات المناهضة لوجودهم ولرسالتهم هنالك، تطلعوا من جديد إلى مواصلة زحفهم باتجاه الشمال والجنوب، وكان ذلك في مطلع القرن2هـ/8م، فكان فتح الأندلس بقوة السلاح، كما تم إرسال حملات عسكرية إلى الجنوب باتجاه الصحراء وبلاد السودان من بين تلك الحملات على سبيل المثال حملة حبيب بن أبى عبيدة وحملة المشتري بن الأسود الخ...

لكن الصحراء التي كانت منذ عهد الرومان- وربما قبلهم- ملجأ للثائرين ومخبأ آمنا لهم، لعبت فيما يبدو نفس الدور عند ما تقدمت خيول العرب في أغوارها، مع العلم أن العرب لم يكونوا غرباء على ظروف الصحراء القاسية، وإنما كان يعوزهم التعرف على مظان وجود نقاط المياه النادرة بها والمسالك المؤدية إليها، وهذا ما نعتقد أنه هو السبب الكامن وراء عدولهم عن سياسة الغزو كوسيلة لفتح المنطقة ونشر الإسلام بها واستبدالها بمحاولة إرساء علاقات سلمية مع سكان تلك المنطقة مرتكزة على التبادل التجاري، وقد سمحت لهم تلك العلاقات بالتعرف أكثر على المنطقة وسكانها الذين كان معظمهم من قبيلة صنهاجة.

و صنهاجة مجموعة من سكان المغرب الكبير المعروفين بالبربر، وإذا كان النسابة والمؤرخون العرب والبربر قد اختلفوا حول عروبة البربر[177] فإن آراء معظمهم اتفقت حول الأصول العربية لصنهاجة وكتامة، وبما أن الإحاطة بكل النسابة والمؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع صعبة، فإننا سنكتفي هنا بالتركيز على مشاهيرهم خاصة أولئك الذين تتوفر لدينا كتاباتهم، في حين سنورد أسماء الآخرين الذين أصبحوا يشكلون مرجعية المؤرخين الذين أتوا من بعدهم، بحيث أصبحوا يكتفون بإيراد آرائهم المشتركة، ثم إلحاقها بلائحة أسمائهم، مثل ذلك

---

[174] PLINE L'ANCIEN, op.cit, p. 32

[175] Ibid, p. 35.

[176] المغرب الكبير: مرجع سبق ذكره، ص:326.

[177] انظر في هذا الصدد مثلا: الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق وتعليق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، منشورات مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص.315، وكذلك القاضي النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي: كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوخ ومحمد اليعلاوي، نشر الجامعة التونسية، كلية الآداب، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 1978، ص.138.الخ...

ما أورده القلقشندي[178] عندما تعرض لحميرية صنهاجة فكتب يقول: "ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن وليسوا من البربر، قاله الطبري والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني وابن الكلبي"، وأضاف كتاب آخرون إلى هؤلاء، أسماء أخرى لنسابة ومؤرخين يتبنون نفس الرأي[179]، ولم يكتف أولئك المؤرخون بإرجاع صنهاجة إلى أصول عربية يمنية فحسب، وإنما خاضوا في أسباب هجرتهم من اليمن إلى المغرب والصحراء، وتاريخ تلك الهجرة، واختلفوا حول ذلك.

وفى هذا المضمار يورد بعضهم[180]رواية مفادها أن أحد ملوك اليمن يدعى افريقش فر هو وجيشه إلى مصر، نتيجة لمطاردة الآشوريين له فتجاوز النيل باتجاه المغرب ولم يتمكن هو وجيوشه من العودة فسميت إفريقية باسمه، ويرجع مؤرخون آخرون أسباب الهجرة الحميرية من اليمن إلى المغرب إلى رواية أخرى تحمل في بعض تفاصيلها طابعا أسطوريا واضحا لكنها تحافظ في مجملها على ما اتفقت عليه روايات عديدة وهو مبدأ الهجرة، وتتلخص، تلك الرواية في أن أحد ملوك اليمن من التبابعة آمن بالرسالة المحمدية قبل البعثة النبوية المحمدية!، بعد أن حدثه عنها أهل الكتاب فآمن معه بعض رعيته، وبعد وفاته تعرض أولئك المؤمنون للتقتيل والمطاردة من طرف خليفته، فتلثموا وفروا ولم يستقر لهم قرار إلا بالمغرب[181]، واحتفظت غالبيتهم باللثام الذي كان سبب نجاتهم!، بينما تحدث مؤرخون عرب آخرون عن أن الهجرة الحميرية، تمت في فترات أحدث نسبيا مما سبق أن استعرضناه، حيث ذكر بعضهم أنها تمت بعد تحطم سد مأرب، في حين يرى البعض الآخر من أمثال ابن الأثير[182] و النويري[183] أنها تمت بعد ظهور الإسلام، وأرجعوا أسبابها إلى مشاركة "قبائل صنهاجة الحميرية" في الفتوحات الإسلامية، واعتبرا أن الخليفة أبابكر الصديق -رضي الله عنه- هو الذي سيرهم إلى الشام، ومنه انتقلوا إلى مصر، التي توجهوا منها- حسب نفس المصادر- إلى المغرب في جيش موسى بن نصير.

وهنالك روايات أوردها العديد من المؤرخين والنسابة العرب، تؤيد عروبة صنهاجة تصب في هذا المجال، ومن بينها روايات أوردها كتاب ينتمون إلى صنهاجة، منها ما ذكره عبد العزيز بن شداد- وهو أحد أحفاد الأمير المعز بن باديس- من أن دخول صنهاجة إلى المغرب كان عقب غزو الحبشة لليمن وتغلب جيوشها على الملوك الحميريين، فكان خروج المثنى بن المسور إلى المغرب[184] وينقل النويري[185] عن نفس الشخص أن بالصحراء قبائل من العرب، ويعني بها لمتونة ولمطه ومسوفة الخ.. ويذكر أنها من حمير، ومن المعروف أن سكان الصحراء من الملثمين كانوا يفخرون بانتسابهم إلى حمير، ويطرب أمراؤهم وملوكهم، إن هم مدحوا بأمجاد حمير من ذلك مثلا ما مدحهم به أبو محمد بن حامد الكاتب في قوله:

قوم لهم شرف العلا من حمير وإذا انتموا لمتونة فهم هم

[178] أبو العباس أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الإبياري: دار الكتب الإسلامية. دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، 1980، ص:317.

[179] يراجع مثلا ابن خلدون: العبر المجلد6، سبق ذكره، ص: 26؛177،192وكذلك: المختار بن حامدن: »بعض ملامح الوجه التاريخي والثقافي لموريتانيا« مجلة الفكر. السنة ال23 العدد2، تونس 1977، ص. ص:40-47. والأنيس المطرب، سبق ذكره، ص:119.

[180] الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا- ترجمه عن الفرنسية. محمد حجي - ومحمد الأخضر- ط2- دار الغرب الإسلامي- بيروت 1983، ص:27.

[181] مجهول: كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء 1979، ص:18.

[182] ابن الأثير- مصدر سبق ذكره، ص:74.

[183] أحمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق: مصطفى أبو ضيف أحمد- دار النشر المغربية الدر البيضاء 1985، ص:377.

[184] النويرى: مصدر سبق ذكره،، ص:300-301.

[185] نفس المصدر، ص:377.

لما حووا إحراز كل فضيلة   غلب الحياء عليهم فتلثموا[186]

وكذلك ما أورده أبو فارس عبد العزيز الملزوزي في أرجوزته في التاريخ، عند ما تعرض للمرابطين فقال عنهم:

إن المرابطين هم من حمير   قد بعدت أنسابهم عن مضر
كانوا ملوكا في الزمان الأول   وأمرهم وحالهم لم يجهل
وقد رأيت في كتاب النسب   قولا به أعجز أهل الأدب
بأنه صنـــهاج أبوه حمير   وهو أب لصلبه لا العنصر[187]

وقد ورد في رسالة الاستنجاد التي وجهها المعتمد بن عباد - وهو من أسرة ترفع نسبها إلى المناذرة - إلى يوسف بن تاشفين يستحثه فيها على الجهاد في الأندلس وحمايتها من النصارى، ما نصه: "... وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيدك الله، ملك المغرب أبيضه وأسوده، وسيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها..."[188]، كما تمسك خلف الصنهاجيين بهذا النسب، ولم يكن لديهم شك حول ثبوته، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده على سبيل المثال لا الحصر- عند بعض الزعامات الدينية والقبلية الصنهاجية خلال القرن17م، حيث كانت تطلق على مجموعاتها اسم"عرب النقاب"[189] تمييزا لها عن عرب المعقل الذين وصلوا إلى المنطقة ابتداء من القرن13م، كما انبرى كتاب المنطقة من الصنهاجيين بصفة خاصة، فبدأوا في سباق في مجال كتابة المؤلفات التي تهدف إلى تأكيد عروبة صنهاجة، وذلك بعد قيام الإمارات الحسانية بالصحراء، من أجل إظهار النسب العربي الحميري للمجموعات الصنهاجية فكتب محمد امبارك اللمتوني[190] مثلا أرجوزته حول أمراء الدولة اللمتونية وضمنها نسبهم الحميري، وكذلك كتب الداه بن الطالب اعبيدي[191] كتابه "الدرر الوهاجة في حميرية صنهاجة"، ويضاف إليهما مؤرخون وكتاب محليون آخرون كثيرون.

وإذا كان معظم النسابة والمؤرخين العرب لا يختلفون حول عروبة صنهاجة، وإنما حول ما إذا كانت تلك القبيلة تنسب إلى سبإ لصلبه أو كونها فخذ من هوارة، وأن هذه الأخيرة فخذ من حمير[192]، فإن قلة من النسابة والمؤرخين يرفضون نسبتها إلى حمير أصلا، ويتقدم هذا الفريق ابن حزم[193] الذي رفض كون البربر ينتسبون إلى قيس عيلان، بقدرما رفض حميرية صنهاجة، وذلك عندما كتب يقول: "... وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر أصلا ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن..."، وخلص ابن حزم إلى رأي مفاده أن البربر كنعانيون وأن جدهم بر أنجب ابنين هما: مادغيس الملقب الأبتر جد البتر وبرنس جد صنهاجة وكتامه الخ[194].

[186] ابن الأثير ، مصدر سابق ، ص 76

[187] أبو فارس عبد العزيز الملزوزي: نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية،الرباط،1963 ص48 .

[188] الحلل الموشية، مصدر سبق ذكره، ص.46

[189] الشيخ محمد اليدالي: أمر الولي ناصر الدين: ضمن نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا- أمر الولي ناصر الدين - رسالة النصيحة)، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه بيت الحكمة قرطاجه 1990، ص:137-138.

[190] محمد امبارك اللمتوني: نظم في الدولة اللمتونية: مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي محفوظ تحت رقم 2338 ر.ت.

[191] الداه بن الطالب اعبيدي: الدرر الوهاجة في حميرية صنهاجة - مخطوط، مودع بالمكتبة الوطنية- نواكشوط- موريتانيا.

[192] ابن ابى زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.

[193] ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي: جمهرة انساب العرب تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص:485.

[194] نفس المصدر ونفس الصفحة.

ويبدو أن مؤرخين آخرين من بعده تبنوا رأيه من بينهم مثلا أبو الفداء[195] وإن كان أشهر من تبناه ودافع عنه هو ابن خلدون الذي أورد قصة إفريقش أثناء سرده لبعض الأمثلة المتعلقة بإسراف بعض المؤرخين المسلمين في إيراد الأساطير وسهولة تصديقهم لها وتقبلهم لها، وأرجع ذلك إلى غياب التدقيق، وافتقار منهجهم للنقد فكتب يقول: "... ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأن افريقش بن قيس بن صفى(...) غزا إفريقية وأثخن في البربر(...) وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير، فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنها صنهاجة وكتامة ومن هنا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلي إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح..."[196]، واستعرض ابن خلدون بعد ذلك روايات تدور حول ملوك يمنيين آخرين ذكر الإخباريون أنهم غزوا المغرب قبل افريقش، وانتهى إلى الحكم على تلك الروايات بما نصه "... وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصاص الموضوعة..."[197]، وقد حاول ابن خلدون تعليل هذا الحكم، فأورد جملة من المبررات اعتقد أنها كافية من أجل تزكية ما ذهب إليه[198] نجملها فيما يلي:

1- أن ملك التبابعة كان بجزيرة العرب، وأن هذه الأخيرة محاطة بالمياه من ثلاث جهات، حيث يحدها المحيط الهندي من الجنوب، والخليج العربي من الشرق والبحر الأحمر من الغرب، وأن ذلك كان كافيا لإعاقة الهجرة منها إلى المغرب إلا عبر منفذ واحد هو السويس.

2- اعتبر بأن ذلك المنفذ، كان خارجا عن سلطة التبابعة وأنه من المستحيل أن يمروا عبره غازين من دون أن يخضعوه، وهو أمر ذكر أنه لم يقع على الإطلاق.

3- أما المبرر الأخير، فهو في نظره، بعد اليمن عن المغرب، وأنه حتى إذا حصل أن تم الغزو، فإن ذلك يتطلب الكثير من الزاد للجيوش، وكثيرا من العلوفة لمطايا المقاتلين، وهو أمر -حسبه- لا يمكن توفره إلا لمن أخضع المناطق الواقعة بين اليمن والمغرب حتى يوفر سكانها له ذلك.

ويعتبر ابن خلدون المصدر الرئيس لمعظم الكتاب الذين عاصروه أو كتبوا من بعده،خاصة فيما يتعلق بأنساب البربر، حيث اكتفى معظم المؤلفين الذين اعتمدوا كتاباته بنقل آرائه والتسليم بها، ويرى بعض الباحثين أن قبائل صنهاجة التي استقرت في الصحراء بعد هجرتها إليها من شمال إفريقيا، لا تتميز عن العرب بخصائص جنسية ولا بنمط حياة معين، وإنما تتميز عنهم باللغة فقط[199].

ونحن وإن كنا لا نعير للأنساب أهمية ذات بال، فإننا مع ذلك سنناقش هذه المسألة بإيجاز، والهدف الأساسي الذي نرمي إليه من وراء ذلك يتمثل في أن النتيجة التي سنتوصل إليها، قد تكون ضرورية لفهم حقيقي للخلفيات الحضارية لسكان الصحراء من الملثمين، الذين

---

195 ابو الفداء صاحب حماه :الأخبار القويمة عن الحوادث القديمة. ذيل علي كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للطبري مطبعة محمد محمد مطر، مصر 1919، ص:392-393.

196 أبو الفداء صاحب حماه :الأخبار القويمة عن الحوادث القديمة. ذيل علي كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للطبري مطبعة محمد محمد مطر، مصر 1919، ص:392-393.

197 نفس المصدر، ص:41

198 نفس المصدر، ونفس الصفحة.

199 شارل اندرى جوليان، تاريخ إفريقيا، ترجمة طلعت عوضي أباظة، مراجعة عبد المنعم ماجد، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1968، ص. 23

يعتقد البعض أن أصولهم العربية تتجلى بوضوح في عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم الحضارية[200]، وأن ذلك هو الذي سهل مهمة الفاتحين العرب وعجل بالاندماج المذهل بين الفريقين.

وإذا كان ابن حزم هو زعيم قطب الرفض في هذه المسألة حيث جعلها في إطار ما سماه بـ "تكاذيب مؤرخي اليمن"، فإننا نعتقد أن مؤرخي اليمن أدرى بتاريخ بلادهم وسير أحداثها منه، على الرغم أن والده أحمد كان وزيرا للمنصور محمد بن أبي عامر، كما استوزر هو نفسه من طرف المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام سنة 414هـ، لكن هذه العلاقة ببني أمية في ذلك العهد تجعلنا ننظر إلى آرائه المتعلقة بصنهاجة بعين الريبة، إذ كان أمويو الأندلس وقتها متحالفين مع الزناتيين ضد الفاطميين المتحالفين مع صنهاجة وكتامة، ووقعت بين الفريقين حروب ضارية على مدى طويل وتأصل بينهما العداء، ومما يدعم التمسك بهذا الرأي كون ابن حزم اكتفى برواية نقلت عن أيوب بن أبي يزيد[201] وهو زناتي ثار والده على الفاطميين وحاربهم فترة طويلة بجموع كبيرة، فقتلوه في نهاية المطاف وهزموا جيوشه وقضوا على مطامح قومه، ولاشك أن نصر الفاطميين تحقق على يد حلفائهم من صنهاجة وكتامة، مما يشجع على الطعن في حياد مصدر ابن حزم، كما لا نستبعد أن يكون للصراع الذي كان محتدما بين القيسية والمضرية في الأندلس تأثير على رأي صاحبنا الذي لا شك أنه بحكم موقعه كان أقرب إلى المضرية وأن تسليمه بحميرية صنهاجة وكتامة سيضيف إلى القيسية ثلث سكان المغرب.

وعلى الرغم من المكانة العلمية المتميزة لابن حزم واهتمامه الكبير بالأنساب، فإن ذلك لم يمنع بعض الكتاب من وصفه بالشذوذ وعدم التدقيق خاصة فيما يتعلق بصنهاجة، مثل ما كتبه القادري عندما قال: "... وشذ ابن حزم فذكر صنهاجة في عدد قبائل البربر وفيه نظر"[202]، وقد أورد هذا المؤرخ لائحة بأسماء جمهور من النسابة والمؤرخين العرب اعتقد أن حججهم كافية لتفنيد ما ذهب إليه ابن حزم[203].

أما ابن خلدون الذي انبرى في بداية مقدمته للدفاع عما أورده ابن حزم[204] فإنه ما لبث أن تناقض مع ما سبق أن أعلنه في نفس الكتاب، فقبل بسهولة ما كان قد رفضه بشدة وسفه كل المؤرخين الذين أوردوه، وأبرز مثال على تناقضه في مقدمته، قوله: "... واعتبر ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير، كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة، وإلى العراق والهند أخرى، ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم..."[205]، كما أنه لم يلتزم بنفس الرأي عند ما تعرض لمناقشة أنساب البربر في كتابه "العبر"، وهي مسألة عادية، إذ أثبت الدارسون أنه لم يلتزم دائما في كتابه ذلك بكل ما أورده وأعلن عنه في مقدمته، وفي هذا المضمار وفيما يتعلق بحميرية صنهاجة التي كان قد رفضها، فإنه يقول أيضا ما نصه "... ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فإن بين نسابة العرب خلافا والمشهور أنهم من اليمنية وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها..."[206].

---

200 عبد العزيز بنعبد الله: تاريخ المغرب، ج1، العصر القديم والعصر الوسيط، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، د.ت، ص: 45 و 46.

201 ا بن حزم الأندلسي: مصدر سبق ذكره، ص: 495.

202 محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، 4ج تحقيق محمد حجي واحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ج1، ص: 165.

203 نفس المصدر، ص:164.

204 ابن خلدون: المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص:41.

205 ابن خلدون: نفس المصدر، ص:192

206 العبر، المجلد6. ص:191.

وبغض النظر عن كون صنهاجة من حمير أو غيرها من قبائل العرب، فإن ما ذهب إليه كل من ابن حزم وابن خلدون، من عدم وجود لطريق يمكن أن يستخدمه المهاجرون من اليمن إلى المغرب لا يصمد أمام الحقيقة التي أكدها تدفق أمواج الفاتحين العرب بمن فيهم اليمنيون، ومن بعدهم قبائل بني هلال وبني سليم التي يعتقد ابن خلدون نفسه أنها ذات أصول يمنية[207]، لكننا نتفق معهما حول عدم إمكانية حدوث هجرة من هذا النوع على شكل غزو انطلق من اليمن هدفه الوصول إلى المغرب قبل إخضاع المناطق الواقعة بين المنطقتين، ونعتقد أن هذا الجانب من الرواية اختلط بالأسطورة التي نسجت حول الموضوع، والتي نعتقد أنها حافظت على روح الحدث، وهو وقوع هجرة من اليمن إلى المغرب خلال فترات قديمة عبر مراحل استقرار في الشام ومصر وإفريقية. وهذا الطريق اتفق عليه المؤرخون على اختلاف رواياتهم[208].

أما الوجه الآخر للمسألة فيتمثل في أن ابن حزم وابن خلدون انتهيا إلى القول بأن البربر بمن فيهم صنهاجة من أبناء كنعان، وموطن الكنعانيين القديم هو الشام، ولقد دعمت التقنيات الأثرية الحديثة بدلائل مادية حدوث هجرات بشرية من الجزيرة العربية باتجاه الشام ومصر على شكل موجات بشرية كانت أولاها سنة 9000ق.م تقريبا، أما أكبرها حجما وأكثرها تأثيرا فهي تلك التي حدثت ابتداء من عام 3500ق.م[209]، وكذلك قام الملك الحميري شمس آدد بن وائل الذي حكم اليمن ابتداء من سنة 2150ق.م بحملة كبيرة قاد أثناءها موجة عربية كبرى، كان من نتائجها ترسيخ الوجود العربي في العراق وتوحيد الشام ومصر تحت سلطة الهكسوس العرب[210]، ومن غير المستبعد أن تكون المجموعات العربية التي استقرت في مصر خلال عهد الهكسوس قد فر الكثير منها باتجاه المغرب بعد إسقاط سلطتهم من طرف المصريين، كما لا يستبعد أن يكون أولئك الفارون قد سلكوا نفس الطريق الذي سلكه الفاتحون إلى المغرب، والذي سلكته الهجرات العربية من مصر إلى المغرب خلال القرن11م.

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن هجرات عربية توالت على المغرب عن طريق مصر خلال الفترة ما بين سنة 1500ق.م و 1200ق.م[211] كما أشارت المصادر العربية الوسيطة إلى وجود كتابات بالخط الحميري بخرائب قرطاجة، قرأها بعض الفاتحين العرب آنذاك[212]، وسيطول بنا الحديث إن نحن حاولنا تتبع الهجرات العربية القديمة من الجزيرة العربية إلى المغرب، وإبراز أهميتها في تبرير ما تدعيه بعض المجموعات في المنطقة حول أصولها العربية، ودعم النسابة والمؤرخين لذلك الادعاء.

وخلاصة القول أن الهجرات العربية القديمة أثرت على الخريطة البشرية بالمغرب، بغض النظر عن الفرع الذي ينتمي إليه أولئك المهاجرون أو الطريقة التي تمت بها الهجرة (طريقة سلمية، غزو، الخ)، أما ما ذكره بعض النسابة والمؤرخين من تقسيم جينالوجي للبربر معتمدين على عمود النسب، وأنهم ينقسمون إلى مجموعتين إحداهما: البتر لأبيهم مادغيس الأبتر بن بر، والأخرى البرانس لأبيهم برنس بن بر، فإنه - في نظرنا- لا يعدو كونه محاولة لتبرير وجهة نظر من خلال تطبيق الفكرة العربية السائدة آنذاك في إطار الصراع بين القيسية

---

[207] نفس المصدر، ص:125.

[208] انظر مثلا ابن الاثير: الكامل، ص: 74 والنويري: نهاية الأرب، ص:30. الخ...

[209] محمد حسين الفرح: "بعد المكتشفات الأثرية الجديدة في اليمن: وحدة الحضارة القديمة للأمة العربية". المنابر- السنة الثالثة- العدد27 مايو 1988، ص. ص:136-143.

[210] محمد حسين الفرج: " الحضارات العربية الكبرى في العصور القديمة" المنابر- السنة الرابعة العدد37 مارس1989، ص: 149.

[211] محمد حسين الفرح: المنابر عدد 27، مرجع سبق ذكره، ص:143.

[212] كاتب مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافة العامة (آفاق عربية) بغداد 1986، ص:124.

والمضرية، على مجموعات قديمة متعددة القبائل والبطون وقتها، ويستبعد أن يتم التوصل إلى إعادتها خلال ذلك التاريخ إلى جد مشترك، وبالتالي فإننا نؤيد الرأي القائل بأن العرب في العصر الوسيط ميزوا بين البتر والبرانس على أساس اختلاف هاتين المجموعتين في العادات والتقاليد ونمط الحياة، فكان الزى الغالب عند إحداهما قصيرا ولم يكن يغطي كامل الجسم فاعتبروه مبتورا وأطلقوا على مرتديه البتر، في حين كان الزى الغالب عند المجموعة الأخرى هو البرنس فسموها به[213] ومن ضمن هذه المجموعة الأخيرة صنهاجة التي ينتمي إليها الملثمون.

أ - وصول الملثمين إلى غرب الصحراء

يعتقد بعض الباحثين أن استقرار الملثمين في غرب الصحراء يعود إلى عهود سحيقة من التاريخ، وأنهم ليسوا سوى مجموعات منحدرة من الأقوام الذين عمروا شمال إفريقيا والصحراء خلال العهود القديمة[214]، في حين يرجعهم البعض الآخر إلى شعوب سبق أن أشرنا إلى أن المؤرخين الرومان ذكروا أنها كانت تجوب الصحراء مثل الفاروسي والاثيوبيون والجيتول الخ...

ولا تسعفنا المصادر العربية بتاريخ محدد لهجرات الصنهاجيين إلى غرب الصحراء، وإنما يمكننا بالاعتماد على مقارنة المعلومات التي أوردها سترابو(ق1م)، وتلك التي أوردها كاتب مغربي مجهول هو صاحب كتاب الاستبصار، بالإضافة إلى دعوى النسب الحميري من طرف صنهاجه، أن نتوصل إلى نتيجة في هذا المجال، فلقد ذكر سترابو أن بالصحراء بقايا مؤسسات فنيقية، وأن الفاروسي والزنوج دمروا أكثر من ثلاثمائة قرية بناها الفنيقيون هنالك[215]، أما صاحب الاستبصار فإنه ذكر أن في صحراء مسوفة "آثار عمائر كثيرة وبيوت محصنة لا أنيس بها ولا يسكنها خلق"[216]، لكنه لم يحدد لنا تاريخ تخريب تلك العمائر، ولا المسؤولين عن ذلك التخريب، ويبدو أنه كان يجهل ذلك كله، حيث اكتفى بقول: "إن الجن أخلت تلك العمائر والبلاد"[217].

إن هاتين الإشارتين اللتين وردتا خلال فترتين متباعدتين زمانيا ومن كاتبين مختلفين ثقافيا وحضاريا، بإمكانهما أن تدعما جانبا من رأى غوتييه الذي بشأن ادعاء الصنهاجيين للنسب الحميري، إذ يعتقد أنه مجرد أسطورة حافظت على جانب واقعي يتمثل في وجود شعب مشرقي غير حميري، هو القرطاجيين المنحدرين من الفنيقيين[218]، فهل يمكننا إذن، انطلاقا من ذلك، أن نرجع تاريخ وصول الملثمين إلى الصحراء إلى تاريخ حملة حنون والمستعمرات التي أسسها القرطاجيون وقتها، أي إلى القرن5ق، م، وأن سكان تلك المستعمرات استقبلوا مجموعات جديدة من القرطاجيين الذين يحتمل أن بعضهم فر أمام الرومان بعد أن تغلبوا عليهم، في حين بقيت مجموعات أخرى منهم في أماكن استقرارها القديمة، وهي التي كانت تتركز في بلاد إفريقية التي ذكر النسابة أن افريقش حل بها يقود جيوشه وخلف فيها من العرب صنهاجة وكتامة؟ وهل يمكننا الاعتقاد أن أساس الرواية العربية حول حدوث غزوات من اليمن يقودها ملوك إلى المغرب هو وصول الفنيقيين من المشرق إلى إفريقية وتأسيسهم لقرطاجة وتعميرهم المنطقة بمجموعات منهم قد تكون أسلاف صنهاجة وكتامة؟

---

213 غوتييه: مرجع سبق ذكره، ص:165.

214 يراجع مثلا: فيح جي دي : تاريخ غرب إفريقيا ترجمة د. السيد يوسف نصر دار المعارف القاهرة 1982، ص:43

215 STRABON, op. cit., p. 23

216 الاستبصار مصدر سبق ذكره، ص:179.

217 نفس المصدر ونفس الصفحة.

218 غوتييه: مرجع سبق ذكره، ص:98، 99 و 100.

على الرغم من عدم امتلاكنا لوسائل إثبات لذلك، فإننا نلاحظ أن مواطن صنهاجة كانت خلال العصر الوسيط ممتدة من قرطاج شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن طنجة شمالا حتى نهري السنغال والنيجر جنوبا، أي في مختلف المناطق التي عرفت بشكل أو آخر نفوذ القرطاجيين. ولقد اكتفى ابن خلدون أثناء حديثه عن الملثمين بالقول: "هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها..."[219]، وهذه الإشارة تدل على أن الهجرة الصنهاجية إلى الصحراء أقدم بكثير من القرن7م، الذي بدأت فيه الفتوحات العربية للمغرب، مادامت قد حدثت "منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها".

ويحاول نفس المؤلف أن يسلط الأضواء ولو قليلا على أسباب تلك الهجرة، فيقول: "...فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذا عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة..."[220]، فما ذا يعني ابن خلدون بـ"الغلبة"، هل يعنى بها سيطرة الرومان على أجزاء من شمال إفريقيا، فيكون أسلاف الملثمين من بين بقايا القرطاجيين والمجموعات المحلية المتأثرة بهم التي هاجرت إلى الصحراء "توحشا بالعز عن الغلبة"؟، أم أنه يعني بالغلبة مطاردة الجيوش الرومانية لبعض القبائل المغربية التي ثارت ضد الوجود الروماني خلال الفترة ما بين القرن الأول والثالث الميلاديين، ولاذت بالفرار إلى الصحراء بعد انتصار الجيوش الرومانية عليها[221]، ويؤيد معظم المؤرخين الغربيين هذا الرأي، مضيفين، أن استخدام الجمل في غرب الصحراء يعود إلى نفس الفترة، فربطوا هجرة القبائل الصنهاجية إلى الصحراء بظهور الجمل فيها معتقدين أن ذلك الحيوان الذي يتحمل أكثر من غيره من الحيوانات الأخرى ظروف الصحراء، ساعد أولئك المهاجرين على غزو الصحراء والاستقرار بها[222].

ويبدو أن بعض المؤلفين والباحثين العرب اقتنعوا بهذا الرأي، وأضاف بعضهم أن من بين أسباب الهجرة الصنهاجية إلى الصحراء ضغط قبائل البتر على قبائل البرانس التي صمد بعضها وبقى في الشمال، في حين فر البعض الآخر إلى الصحراء مستعينا بالجمل الذي دخل إلى المغرب خلال الفترة المذكورة سابقا[223]، ويشير أحد المؤرخين الموريتانيين إلى نفس التاريخ الذي نعتقد أنه أخذه عن الكتابات الاستعمارية فيقول:

فتاسع القــرون قبل الهجـرة   صنـــهاجة لموريتان حلت
من الشمال الشرقي والمرابطون   من بعد الإسلام إليها ينتمون[224]

ولعل أهم ما في هذين البيتين هو محاولة صاحبهما تحديد الجهة التي يعتقد أن صنهاجة وصلت منها (الشمال الشرقي)، وهي إشارة إلى مواطن تقليدية وقديمة لتلك المجموعة هي منطقة "القبائل" وباقي مناطق المغربين الأدنى والأوسط، وهي مناطق نعتقد أنها كانت مصدرا لانطلاق الهجرات الصنهاجية إلى المغرب الأقصى، واستقرار بعضها أولا في جبال الأطلس،

---

[219] ابن خلدون: المجلد6 من العبر، مصدر سبق ذكره، ص: 370.

[220] نفس المصدر، ص: 371.

[221] احمد صفر: مرجع سبق ذكره، ص.288، ومابعدها.

[222] D. Jacques-MEUNIE: Cités anciennes de Mauritanie, Librairie C. KLINCKSIECK, Paris، 1961, p.11 et J. LEPORTIER: "ATAR (Etude monographique)", in Annales Africaine, Faculté de droit, Université de Dakar, 1958, pp. 221-233, p. 223 .

[223] حسن احمد محمود ،سن احمد محمود: قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى- دار الفكر العربي القاهرة د.ت، ص:42، ود. عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سبق ذكره، ص:32.

[224] محمد يحيى بن محمد المامي: نظم لبعض التاريخ الموريتاني، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، مسجل تحت الرقم2838.

ثم اتجاهها بعد ذلك إلى الصحراء[225]، وظلت صلات القربى والتواصل مستمرة بين فرعي صنهاجة (الشمالي والجنوبي) خلال العصر الوسيط[226].

وعلى كل حال، فإن صنهاجة الصحراء المعروفين لدى المؤلفين العرب خلال العصر الوسيط تحت اسم "الملثمين" كانوا خلال القرن السابع الميلادي يسيطرون على كامل المنطقة الواقعة بين جبال الأطلس شمالا ونهري السنغال والنيجر جنوبا [227] أي أنهم كانوا وقتها يسيطرون على معظم مناطق غرب الصحراء الكبرى، باستثناء منطقة آدرار التي كانت تحت نفوذ البافور.

ويبدو أن الكتاب العرب المسلمين تعرفوا على قبائل صنهاجة الصحراء خلال فترة مبكرة نسبيا، لكن معرفتهم لها كانت في البداية سطحية واقتصرت على معلومات شاملة عن صفات القوم ونمط حياتهم بشكل مجمل، ثم أصبحت تلك المعلومات تتزايد وتتراكم مع مرور الزمن، حتى منتصف القرن10م، حيث ظهرت منذ تلك الفترة معلومات مفصلة وجيدة عندهم، تتعلق بمجموعات وقبائل مختلفة كانت تتقاسم المراعي والنفوذ في صحراء الملثمين.

ب- أهم المجموعات الصنهاجية في الصحراء من القرن8 إلى 11م.

نوه الكتاب والمؤرخون بكثرة صنهاجة واعتبروها من أعظم قبائل المغرب الكبير عددا، حيث "لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر..."[228]، وإذا كنا نجهل الكثير عن نمط حياة صنهاجة وأماكن استقرارها في التاريخ القديم، فإن تلك الوضعية تغيرت مع إطلالة العصر الوسيط، وخاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، حيث ظهر اسم تلك القبيلة بشكل متكرر وحددت أماكن استقرارها في المغرب والصحراء[229].

وإذا كانت المجموعة الصحراوية من صنهاجة، والمعروفة في الكتابات العربية الوسيطة بـ"الملثمين" هي التي تهمنا أكثر في هذا الفصل، فإنها على الرغم من ابتعادها في الصحاري وتوغلها في المفاوز الواقعة بين المغرب وبلاد السودان، لم تكن في عزلة عن أحداث المغرب الوسيط، منذ بداية الفتح الإسلامي، حيث تعرف عليها الفاتحون الأول، وظهرت معلومات تتعلق بها في الكتابات العربية الأولى حول المغرب، لكن اللافت للانتباه هو الاسم الملغز الذي أعطاه الكتاب العرب خلال الفترة مابين القرن7م والقرن10م لتلك المجموعة وهو "أنبيه"، فقد كتب ابن عبد الحكم[230]عن فتوحات القائد العربي عقبة بن نافع خلال القرن السابع الميلادي في المغرب يقول: "... وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية، فجول في أرضهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله فانصرف إلى إفريقية".

وتتالت حملات الفاتحين العرب على هذه المجموعة خلال القرن الثامن الميلادي، ومنها الحملة التي قادها المشترى بن الأسود، الذي ترك لنا وصفا لمنطقة استقرار أنبيه وحدود

---

[225] غوتييه: مرجع سبق ذكره، ص: 162.
[226] انظر مثلا ابن خلدون العبر المجلد6، ص:358و361.
[227] R. MAUNY: Tableau géographique de l'Ouest Africain, op. cit, p. 455
[228] أبو العباس احمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- 7ج تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري: ج2. الدولتان المرابطية والموحدية ،دار الكتاب ،الدار البيضاء. 1954، ص:3.
[229] Vincent LAGARDERE: Les ALMORAVIDES jusq'au règne de Yusuf Ben Tashifine (1039-1106)، l'Harmattan, Paris, 1991, p. 17.
[230] عبد الرحمن بن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1964، ص: 58.

بلادهم، عندما قال: "... غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى، فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل يخرج النيل من تحته...، وبلاد أنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة في براري ومفاوز..."[231]، ويعتقد بعض الباحثين أن "النيل" الذي يعنيه ذلك القائد العربي هو نهر السنغال[232]، وبذلك تكون المعلومات التي تركها لنا ابن الأسود تهم المنطقة الواقعة بين السوس الأقصى شمالا ونهر السنغال جنوبا، أي الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، الذي يعتبر موطن الملثمين من صنهاجة.

وفى أواخر القرن التاسع الميلادي ظهرت إشارة في كتابات اليعقوبي، تزيح بعض الغموض عن مجموعة أنبية، حيث أرجعها بشكل صريح إلى صنهاجة، ووصف نمط عيشها والتقاليد السائدة بينها وقتئذ، ويبدو أن معلوماته حولهم لا تختلف كثيرا عن ما نجده في كتابات ابن حوقل والبكري خلال القرنين 10 و11م عن الملثمين[233]، إذ يقول اليعقوبي عن أنبيه أثناء حديثه عن الطريق الرابط بين سجلماسة وبلاد السودان: "...ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد أرض السودان من سائر بطون السودان يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا..."[234].

وهذه الشهادة كافية لإزالة اللبس عن صنهاجية أنبية، لكنها لا توضح ما إذا كانت هذه الأخيرة تضم كل المجموعات الصنهاجية الصحراوية أم أنها تقتصر على إحدى تلك المجموعات فقط، إذ أن إشارة ابن عبد الحكم السالفة الذكر أن عقبة بن نافع جول في بلاد أنبيه[235] تتشابه إلى حد كبير مع الإشارة التي أوردها ابن خلدون عن نفس الفاتح عند ما قال عنه أنه "قاتل مسوفة من وراء السوس وسبي منهم وقفل راجعا"[236]، فهل يمكننا من خلال المقارنة بين الإشارتين استنتاج أن مسوفة هم المعنيون بتسمية "أنبيه"؟ أم أننا نأخذ برأي بعض الباحثين الذين يعتقدون أن أنبية هي مجرد تسمية غامضة اختفى وراءها أقدم اتحاد قبلي في غرب الصحراء يضم قبائل: لمتونه ومسوفة وكدالة[237].

إننا نميل إلى هذا الرأي الأخير لأن المصادر العربية التي تحدثت عن أنبيه، تفيد أنها كانت منتشرة في أرجاء المنطقة الفاصلة بين السوس الأقصى وبلاد السودان، في حين كانت مسوفة تتقاسم النفوذ مع القبائل الصنهاجية الأخرى في تلك المنطقة، وتستقر في جزئها الشرقي بصفة خاصة.

ولقد ازدادت معلوماتنا عن صنهاجة الصحراء خلال القرن العاشر الميلادي، فقد أشاد ابن حوقل[238] بكثرتهم وذكر أن ملكهم كان يتلقى سنويا زيارات بعض قيادات المجموعات الصنهاجية التابعة له، مع أنه لا يعرفها ولم يسمع عنها، ويقول في هذا الصدد: "ومن المتعزبين الموغلين في البراري صنهاجة أودغست، وسمعت أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله(...) يقول سمعت تنبروتان بن اسفيشر وكان ملك صنهاجة أجمع يقول أنه يلي

---

231 أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه:مختصر كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، 1303هـ ص. 64.، وص.81

232 (Joseph CUOQ: Recueil des sources arabes concernant l'Afrique Occidentale du VIIIe au XVIe siècle- BULAD ALSUDAN, Editions du C.N.R.S، Paris, 1975, p. 54.

233 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 99-98، والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:170

234 احمد بن احمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي: كتاب البلدان- منشورات المكتبة الحيدرية- النجف 1957، ص:111.

235 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:58.

236 ابن خلدون: العبر. مصدر سبق ذكره، ص: 213

237 Tadeusz LEWICKI: Le rôle du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud, in Histoire générale de l'Afrique t. 3, op. cit. p. 334.

238 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98-99.

أمرهم منذ عشرين سنة، وأنه لا يزال في كل سنة يرد عليه قوم منهم زائرين له لم يعرفهم ولا سمع بهم ولا مقلهم..."[239] ، وأشار ابن أبي زرع إلى كثرة صنهاجة الصحراء، وكان يكتب أثناء الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي لكنه نقل عن كتاب لم تصلنا كتاباتهم، إذ يقول عن صنهاجة الصحراء بعد أن أورد تسميات لأربع عشرة قبيلة من بين قبائلها الكثيرة ما نصه: "... وتنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة (...) وفي كل قبيلة بطون وأفخاذ، وقبائل أكثر من أن تحصى، وهذه القبائل كلها صحراوية..."[240]، ويقول عنها الدمشقي في معرض حديثه عن صحراء الملثمين ما نصه: "...صحراء عامرة بطوائف من البربر متوحشين لا يعرفون غير البادية (...) وهم خلائق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى..."[241]، أما ابن خلدون، فإنه هو الآخر ذكر أن قبائل الملثمين متعددة، ثم أورد على سبيل المثال لا الحصر أسماء سبع من منها[242].

إن هذه الكثرة العددية لقبائل الملثمين التي تواتر عليها الكتاب العرب في العصر الوسيط، سواء تعلق ذلك بعدد القبائل أو الأفراد، لم تبق في إطار المبالغة المعهودة من طرف كتاب ذلك العصر، وإنما دعمت بتحديد كمي من أحد أولئك الكتاب هو ابن حوقل، على الرغم من ندرة المعلومات المتعلقة بإحصائيات السكان خلال العصر الوسيط، خاصة في تلك المنطقة الصحراوية شبه المعزولة، وعلى كل حال، فإن ذلك الكاتب أعطي رقما إحصائيا يتعلق بصنهاجة أودغست، كما سماهم، عندما كتب يقول: "... ويكونون نحو ثلاثمائة ألف بين نوالة وخص..."، ويبقى لنا أن نحاول تحديد عدد نسمات صنهاجة في صحراء الملثمين خلال تلك الفترة(سنة 977م تقريبا)، انطلاقا من تقدير ابن حوقل[243]، ذلك التحديد الذي ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المجتمع الرعوي الصحراوي الذي كانت الأسرة فيه تسعي إلى إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء ليشاركوها في تحصيل موارد العيش، أو رعي وتنمية ما لديها من مواش من جهة، والذود عن حريمها وحريم أبناء العمومة والقبيلة من جهة أخرى، إذ كانت المجموعات الصنهاجية تعرف من وقت لآخر صراعات فيما بينها حول المراعي ونقاط المياه كما كانت تدخل في صراعات مع المجموعات الزناتية والغانية للسيطرة على المراكز التجارية وأهم الطرق العابرة للصحراء[244].

وإذا تركنا جانبا وفيات الأطفال في سن مبكرة، على الرغم مما ذكر عن سكان المنطقة الصحراوية من الجلد والقوة[245]، فإننا نعتقد أن معدل الأبناء والبنات لكل أسرة كان يصل وقتها إلى خمسة أفراد، فيكون معدل أفراد الأسرة الواحدة بإضافة الوالدين هو سبع نسمات، مما يعني أن عدد سكان صحراء الملثمين من صنهاجة كان خلال القرن 10 م حوالي 2.100.000 نسمة، ولا نعتبر أن هذا الرقم مبالغ فيه، لأنه يهم الفترة السابقة لمنتصف القرن الحادي عشر، الذي شهد انسياب جيوش الملثمين من الصحراء باتجاه المغرب والأندلس والسودان الغربي، وتتالت أثناءه الهجرات إلى تلك المناطق للحصول على الامتيازات التي أصبح الملثمون يتمتعون بها بعيد قيام سلط سياسية لهم هنالك.

---

[239] ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص:97.

[240] ابن أبي زرع: روض القرطاس: مصدر سبق ذكره، ص: 120.

[241] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1988، ص. 315

[242] ابن خلدون: العبر. مصدر سبق ذكره، ص: 371

[243] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 97.

[244] Jean DEVISSE: in TEGDAOUST I, op. cit. pp. 122 - 123

[245] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.

وكانت القبائل الصنهاجية الصحراوية، كما أسلفنا كثيرة، لكن حجمها يتفاوت من قبيلة إلى أخرى، وتتفاوت تبعا لذلك الأدوار التي يمكن لكل منها أن تلعبها في المنطقة، ومن بين القبائل التي حدد المؤرخون أسماءها مثلا: لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراته وتكلاته ومنداسه وبني وارث وبني مسفير وبني دخير وبني زياد وبني موسى وبني لماس وبني فشتال[246] وتريكه وتاركا ولمطة[247] وجزولة[248] وسرطة وسمسطه[249]إلخ...

وإذا كان من المتعذر الحديث عن كل القبائل الصنهاجية الصحراوية لكثرتها من ناحية، وندرة المعلومات المتوفرة حول بعضها خلال الفترة المدروسة من ناحية أخرى، فإننا سنحاول التعرف على أهمها وأكثرها تأثيرا في توجيه الأحداث التاريخية في المنطقة، ويتعلق الأمر هنا بقبائل تقاسمت النفوذ في المجال الجغرافي الصحراوي، فسيطرت كل واحدة منها على نطاق جغرافي خاص بها تحمي ثرواته ومراعيه وتستفيد من مياهه وموقعه على الطرق التجارية العابرة للصحراء، وفى هذا المضمار يقول النويري[250] نقلا عن عبد العزيز بن شداد بن تميم ما نصه: "... وكان بالصحراء قبائل العرب وهي لمتونة وجدالة ولمطة وانبيصر وايتواري ومسوفه وأفخاذ عدة، وكل قبيلة قد حازت أرضا يسرح فيها مواشيهم ويحمونها بسيوفهم..."، والقبائل الصنهاجية الصحراوية الكبرى والمشهورة هي: كدالة ولمتونه ومسوفة ثم لمطة وترغة وكزولة وبني وارث، وهي قبائل تمكننا مطالعتنا للمصادر العربية الوسيطة من تصور عام لتوزيعها في النطاق الصحراوي على الشكل التالي:

1- كدالة:

وهي قبيلة من صنهاجة تنحدر من جدها جدال (كدال)[251] وتجتمع مع لمتونه في أب واحد[252]، وكانت - حسب بعض الكتاب - من أكثر قبائل الملثمين عددا[253]، ويعتقد بعض الباحثين أنها من بقايا شعب الجيتول القديم، الذي تحدث عنه الكتاب اللاتين[254] وإن كان البعض الآخر يعتقد أن الأمر يتعلق بجزولة وليس كدالة، ويبقى الخلاف في هذا المجال شكليا ما دامت القبيلتان صنهاجيتان، وما ينطبق على إحداهما يجوز أن ينطبق على الأخرى، ولعل ذلك هو ما جعل البعض يعتقدون أن قبيلة كدالة ثارت ضد الحكم الروماني في بداية القرن الأول الميلادي وبالتحديد ابتداء من سنة 6 بعد ميلاد المسيح، وأن ملك موريتانيا يوبا الثاني حاربها واستعان بالقوات الرومانية لمواجهتها[255]، وبصفة عامة فإن الكداليين استقروا في المنطقة الصحراوية منذ فترة قديمة، وانتشرت فروعهم جنوبا حتى الضفة اليمنى لنهر السنغال، وإذا كنا لا نعرف بالتحديد التاريخ الذي بدأت خلاله هذه القبيلة استقرارها على ضفة النهر، فإن من شبه المؤكد أنها كانت هنالك خلال القرن7م[256].

وكان النطاق الخاص بالكداليين من الصحراء هو جزؤها الغربي الموالي للمحيط الأطلسي، ويحدد أبو عبيد البكري[257] منازلهم عند ما كتب يقول: "...وخلف بني لمتونة قبيلة

---

246 ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.

247 ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ص:371.

248 البكري مصدر سبق ذكره. ص" 158.

249 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:90. البكري المصدر السابق، ص:167.

250 النويري: نهاية الأرب، مصدر سبق ذكره، ص: 377.

251 الحلل الموشية- مصدر سبق ذكره، ص:17.

252 ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:12.

253 شيخ الربوة، مصدر سبق ذكره، ص.315

254 T. LEWICKI : op. cit., p. 337

255 احمد صفر: مرجع سبق ذكره، ص:288.

256 J. CUOQ Histoire de l’islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines jusqu' la fin du XVIe siècle, Librairie Orientaliste, Paul Guethner, SA, Paris، 1984, p. 8.

257 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد..."، ويضيف البكري عن انتشار الكداليين باتجاه الجنوب فيقول: "... المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة، هم آخر الإسلام خطة واقرب بلاد السودان منهم صنغانه بين آخر بلادهم وبينها ستة أيام، وصنغانة مدينتان على ضفتي النيل..."[258]، وقد يطرح لنا هذا التحديد إشكالات تتعلق بالحدود الجنوبية لأراضي كدالة، التي يبدو أنها تغيرت خلال القرن الحادي عشر الميلادي بسبب موقف كدالة من الحركة المرابطية وعدم مشاركتها في فتوحاتها[259] فدخلت في صراع مع لمتونة التي كانت تقود الحركة المرابطية ومع مملكة تكرور، وهي حليفة لمتونة وكانت تسيطر على الضفة اليسرى لنهر السنغال، وقد قتل الكداليون أميرها وارجابي بن لبي عندما كان يقود مجموعة من التكرور ضمن جيش المرابطين بقيادة يحيى بن عمر سنة 448هـ[260]، فاتجهت جيوش المرابطين إلى الكداليين وأخضعتهم بقوة السلاح[261]، فانزووا الكداليون في مناطق شاطئية منعزلة[262].

ومن المحتمل أن يكون حلفاء لمتونة من سكان تكرور قد استفادوا من هزيمة الكداليين، فاستولوا على أراضي تلك القبيلة المجاورة لهم ومن ضمنها صنغانة، المدينة الواقعة على ضفتي نهر السنغال والتي يرى البعض أن اسمها الأصلي هو صنهاجة وأنه حرف إلى صنغانة ومنها إلى السنغال[263]، وقد منحت هذه المدينة اسمها للنهر الذي كانت تقع على ضفتيه ثم توسع الاسم ليشمل المنطقة الواقعة إلى الجنوب منه، وانطلاقا من ذلك فإننا نعتقد أن ابتعاد منازل الكداليين عن النهر بمسيرة ستة أيام أمر طارئ ناتج عن ظرفية سياسية غير ملائمة بالنسبة لهم.

ولقد لعب الكداليون دورا أساسيا في المبادلات التجارية مع بلاد السودان، حيث يسيطرا منذ القرن العاشر- على أقل تقدير- على مملحة آوليل[264] التي كان ملحها يصدر إلى الممالك السودانية في حوض نهر السنغال، وإلى أودغست عبر طريق بري متجه من الغرب إلى الشرق، ومن أودغست يتم تصديره إلى غانه وممالك النيجر السودانية، حيث يباع حمل الجمل منه بثمن يتراوح ما بين200 و 300 مثقال من الذهب[265].

ولعل سيطرة كدالة على هذا المصدر الاقتصادي الحيوي وقتها هي التي تفسر ما كانت عليه تلك القبيلة من الثراء خلال تلك الفترة[266] كما أن ثراء كدالة وقرب منازلها من بلاد السودان قد يكون من بين أهم العوامل التي مكنتها من قيادة اتحاد قبائل صنهاجة الصحراء في شخص رئيسها يحيى بن إبراهيم، قبل أن تعود الزعامة إلى لمتونة.

2- لمتونة:

---

[258] نفس المصدر، ص:172.

[259] J. DEVISS, in TEGDAOUST I, op. cit., p. 115.

[260] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.

[261] ابن الأحمر: مصدر سبق ذكره، ص: 30.

[262] J. DEVISSE, in TEGDAOUST I, op. cit, p. 115

[263] بوفيل مرجع سبق ذكره، ص:102.

[264] V. LAGARDERE, op. cit., p. 19

[265] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

[266] حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص: 46.

هي إحدى أكبر وأقوى وأهم القبائل الصنهاجية الصحراوية وأكثرها شهرة، وتنحدر فروعها حسب الكتاب العرب من جد واحد هو لمت[267] أو تلميت[268] ويقع المجال الجغرافي الذي كانت تسيطر عليه بين أراضي كدالة غربا وبلاد مسوفة شرقا، أما من الشمال، فكانت تصل إلى وادي تارجا (الساقية الحمراء) ووادي نون[269]، وخلال القرن السابع الميلادي كانت لمتونة تنتجع المنطقة الواقعة بين السوس الأقصى و آدرار[270] ووصلت فروعها جنوبا إلى تكانت[271]، ثم إنها واصلت انتشارها خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين باتجاه الجنوب الشرقي، حيث وصلت إلى الحوض الذي أسست به عاصمة ملكها أودغست[272].

وفى أواخر القرن العاشر الميلادي، وبداية الحادي عشر، وبعد طردها من الجنوب على يد التحالف الزناتي الغاني، اضطرت إلى الدخول في صراع مع مجموعة البافور المستقرة آنذاك في آدرار الذي يوفر موقعه على الطرق التجارية العابرة للصحراء بالإضافة إلى واحاته مصادر هامة للعيش، فكانت لمتونة ترمي من وراء محاولتها السيطرة عليه، تعويض ما فقدته في الجنوب، وتمكنت بقيادة رئيسها يانوا بن عمر، أخو يحيى بن عمر، من احتلال منطقة أسست بها حصنا عسكريا هو آركي[273] (آزوكي)، وأصبحت جيوشها تنطلق من هذا الحصن للإغارة على المجموعة السالفة الذكر، لكنها لم تتمكن من احتلال منطقة آدرار بأكملها إلا خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، بعد بسط الحركة المرابطية التي كان اللمتونيون يقودونها، نفوذها على كافة القبائل الصنهاجية الصحراوية والأراضي التابعة لها[274]، فاتخذوا من آركي (آزوكي) عاصمة لهم، ويبدو أنهم شيدوها على أنقاض مدينة قديمة، حيث يعود تاريخ بعض خرائبها إلى فترة سابقة للعهد المرابطي[275].

ويبدو أن قبيلة لمتونة كانت خلال القرن الحادي عشر الميلادي من بين أكثر القبائل الصنهاجية بطونا وأعدادا وأوسعها مجالا، حيث يشير البكري إلى ذلك قائلا: "... قبيل من صنهاجة يعرفون ببنى لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام..."[276].

إننا لا نستغرب سيطرة لمتونة على هذه الرقعة الجغرافية الواسعة، على ما فيها من مبالغة، ما دمنا نعرف أن نفوذ وانتشار فروعها كان يمتد من وادي نون شمالا وحتى أودغست جنوبا، ومن تخوم بلاد كدالة غربا حتى حدود بلاد مسوفة شرقا[277]، وقد نوه بعض المؤرخين بكثرة أعداد اللمتونيين خلال فترة قيام الحركة المرابطية، بل إن بعضهم جعل من نمو تلك القبيلة سببا لقيام دولة المرابطين، مثل ما ذهب إليه لسان الدين بن الخطيب عندما كتب عن المرابطين يقول: "... وكان ابتداء أمرهم أن لمتونة منهم كثرت في بلاد الصحراء وبلغت مراحلهم فيها مسيرة شهرين في مثلها..."[278].

---

[267] مجهول: الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشية. مصدر سبق ذكره، ص:17.

[268] ابن خلدون- العبر- مجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:373.

[269] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 125.

[270] Joseph CUOQ: Histoire de l'Islamisation, op. cit., p. 8.

[271] Pierre LAFORGUE: Notes sur AOUDAGHOST ancienne Capitale des berbères Lemtouna, In B.C.E.H.S. de l'A.O.F, 1940, pp. 217 - 236.

[272] idem.

[273] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.

[274] T. LEWICKI: op. cit, p. 336.133

[275] Idem.

[276] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

[277] حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين- مرجع سبق ذكره، ص:45.

[278] لسان الدين بن الخطيب: تاريخ المغرب العربي الوسيط- القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام. تحقيق وتعليق د. احمد مختار العبادي. ومحمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء 1964، ص: 225.

وكانت لمتونة، مثل غيرها من القبائل، تضم بطونا عديدة ذكر ابن خلدون بعضها عندما قال: "... وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتطنق وبنوزمال وبنو صولان وبنو ناجسة..."[279]، وكان جل تلك البطون من البدو المتنقلين وراء مواشيهم، وقد عبر بعض الكتاب عن ذلك الواقع عندما قال: "... وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفذ عمر أحدهم وما رأي خبزا ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق"[280]، ولم يكن هذا الواقع ينطبق على كافة فروع القبيلة التي كان بعضها قد استقر في المدن كأودغست مثلا منذ فترة متقدمة من التاريخ الوسيط[281]، وإنما ينسحب على الغالبية العظمى من بطونها، وإن كانت تلك الغالبية قد عرفت قدرا من الاستقرار والتحضر بعد قيام الحركة المرابطية[282].

ولقد لعبت لمتونة دورا أساسيا في المبادلات التجارية عبر الصحراء، حيث سيطرت على أقدم طريق يعبر الصحراء باتجاه بلاد السودان، وأصبح ذلك الطريق يحمل اسم القبيلة بعد قيام الحركة المرابطية، وقيادة أبي بكر بن عمر جيوشه شمالا وجنوبا عبره[283] فأطلق عليه مرتادوه خلال تلك الفترة اسم "طريق اللمتوني"[284] نسبة إلى أبي بكر، كما كان الطريق الرابط بين سجلماسة وغانة والذي كانت قبيلة مسوفة تسيطر عليه قريبا من ديار لمتونه، ويعتقد أيضا أنها كانت تشرف على استخراج ملح "أجل" التي تقع في نطاق نفوذها، وإن كنا لا نمتلك مصدرا يؤكد ذلك، إذ أن أقدم إشارة مكتوبة نتوفر عليها تتحدث بشكل صريح عن استغلال تلك المملحة تعود إلى القرن 15م[285] إلا أن بعض الباحثين يعتقدون أنها استغلت خلال القرن11م[286].

وبالإضافة إلى دور لمتونة الاقتصادي فإنها لعبت دورا سياسيا فريدا من نوعه في منطقة الصحراء، حيث كان ملك صنهاجة في حالة اتحادها يختار من بين رؤسائها[287].

3- مسوفه:

تعتبر مسوفة أو مسطوف[288] قبيلة صنهاجية صحراوية، وتعود إلى نفس الأرومة السلالية لقبائل كدالة ولمتونة وغيرهما من قبائل صنهاجة، وكانت ديار مسوفة تقع إلى الشرق من منازل لمتونة، وإلى الغرب من قبائل زناتة[289] بينما كانت منازلها في الشمال تصل إلى تيندوف[290] بل تتجاوزها أحيانا حتى وادي درعة[291]، في حين كانت فروعها تصل منعطف النيجر جنوبا[292].

---

[279] ابن خلدون العبر- مصدر سبق ذكره، ص:371.

[280] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

[281] François de MEDEROS: in Histoire générale de l'Afrique, t. 3, p. 160.

[282] MODAT: op.cit, p. 388

[283] حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:45.

[284] F. DELACHAPELLE, op.cit, p. 64

[285] R. MAUNY: Tableau, op. cit., p. 327.

[286] Ibid, P:358.

[287] ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:120 و121، وابن خلدون العبر- مصدر سبق ذكره، ص:371.

[288] الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:17.

[289] الاستبصار، مصدر سبق ذكره، ص:179.

[290] J. CUOQ: L'islamisation, op.cit., p.7

[291] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:149.

[292] عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر السعدي: تاريخ السودان. تحقيق وطبع، هوداس.المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية ،باريس ،1981ص20..

وهكذا فإن هذه القبيلة كانت تقطن الجزء الشرقي من صحراء الملثمين، ولا تمدنا المصادر بتحديد للفترة الزمنية التي استقر خلالها بنو مسوفة في تلك المنطقة، إلا أننا نعتقد أن ذلك تم منذ أمد قديم، وأن تاريخ حدوثه يعود إلى نفس الفترة التي وصل أثناءها الصنهاجيون إلى المنطقة، ويعتقد بعض الباحثين أن المسوفيين تمركزوا في البداية في تيندوف، ومنها بدأ انتشارهم صوب الجنوب خلال القرن الثامن الميلادي، ووصلت أحياؤهم الأطراف الجنوبية للصحراء خلال تلك الفترة[293].

وتعتبر مسوفة من بين قبائل الملثمين الكبرى، وقد أشار إليها ابن حوقل خلال القرن العاشر الميلادي بقوله: "... وبنو مسوفا قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائله"[294]، كما نقل أحد كتاب القرن12م عن مصدر لم يحدده، معلومات تفيد بكثرة بطون تلك القبيلة، في قوله: "... بلاد مسوفة وهم قبائل كثيرة من صنهاجة يسكنون تلك الصحراء ولا يستوطنون بلدا وإنما عيشهم على اللبن واللحم وهم خلق كثير..."[295].

ولا نعرف الكثير عن توزيع بطون مسوفة في هذه المنطقة، باستثناء ما نقله البكري عن الوراق أثناء حديثه عن الطريق الرابط بين سجلماسة وغانة، حيث ذكر أن مراحله والمناطق المحيطة به كانت خاصة بمسوفه[296]، ثم واصل الحديث عنهم في موضع آخر من كتابه فكتب يقول متحدثا عن نفس الطريق: "... وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة، ومن بني ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة أيضا ومنها إلى مدينة غانه أربعة أيام"[297]، ويعتقد الشنافي[298] أن بني ينتسر، أو نيسر حسب الإدريسي، ليسوا سوى بطن من بطون مسوفة وأنهم كانوا خلال الفترة التي تحدث عنها البكري يتنقلون في منطقة تيشيت وآوكار، ونعتقد أن هذا الرأي مقبول، لأن البكري ذكر أنهم لا يبعدون عن غانة سوى مسيرة أربعة أيام.

الخريطة رقم2: التوزيع الجغرافي لسكان الصحراء خلال الفترة ما بين منتصف القرن 8 م و نهاية القرن11م

---

[293] J. CUOQ: Recueil, op. cit., p. 292.

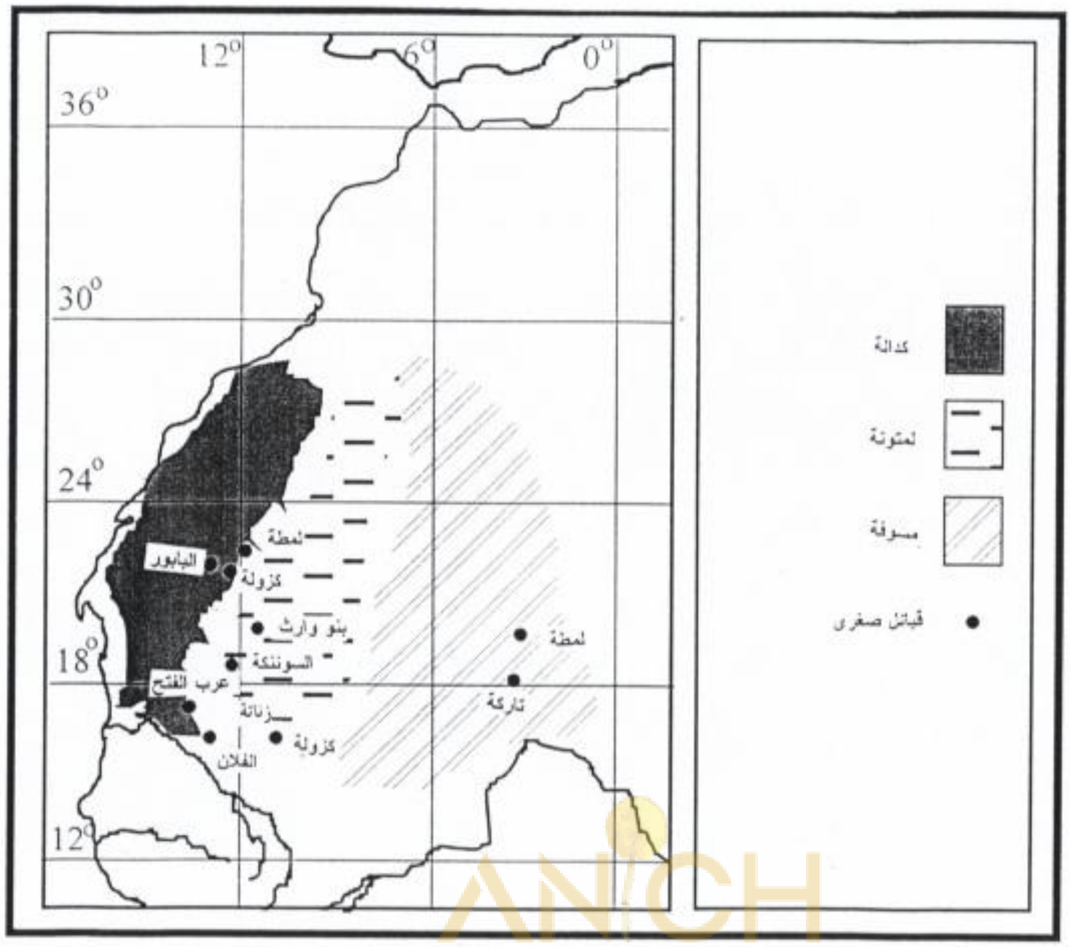
[294] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

[295] الاستبصار: مصدر سبق ذكره، ص:179.

[296] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:155.

[297] نفس المصدر السابق، ص:164.

[298] Mohamed CHENNAFI : in TEGDAOUST I , op. cit., p. 103



ويتضح لنا من خلال ما سلف أن بلاد مسوفة من بين أكثر أجزاء صحراء الملثمين جفافا وتصحرا وأقلها مياها[299]، إلا أن تلك المصاعب لم تقلل من أهمية الدور الحيوي الذي لعبته تلك القبيلة في صحراء الملثمين، فلقد سيطرت على الطريق الرابط بين سجلماسة وغانه[300]، واستولت منذ القرن الثامن الميلادي على مملحة تغازة الواقعة على طول ذلك الطريق[301]، ونتيجة لطبيعة المسوفيين البدوية، وما فرضته عليهم من التنقل في أنحاء أرضهم الصحراوية القاحلة، فإنهم أصبحوا على معرفة جيدة بأسرار تلك المنطقة الوعرة، واستفادوا من تلك الخبرة، فتولوا قيادة القوافل وهدايتها، وانفردوا بالشهرة في هذا المجال من بين كافة قبائل صنهاجة الصحراء[302].

ويبدو أن مهمة الدلالة في ذلك الجزء من الصحراء، الذي تقع فيه المجابات الكبرى، كانت خاصة بهم دون سواهم، منذ أن وجدوا هنالك، واستمرت فيهم خلال القرون الموالية حتى القرن14م[303] على أقل تقدير، وفضلا عن الدلالة والرعي كانت قبيلة مسوفة تحصل على أموال طائلة، تقدمها لها القوافل المتدفقة على مملحة تغازة مقابل الملح الذي كانت تمتلكه،

---

299 صورة الأرض: مصدر سبق ذكره، ص: 98-97.
300 نفس المصدر، ص:98.
301 J. CUOQ: L'islamisation, op. cit., p. 7.
302 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.
303 ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص:675.

وتوكل استخراجه وبيعه إلى عبيدها[304]، كما كان بنو مسوفة يحصلون على ضرائب مختلفة يجنونها من القوافل التي كانت تسلك الطريق العابر لأراضيهم[305]، مقابل حماية أفراد تلك القوافل من القتل، وبضائعهم من النهب، وحصولهم على الماء، واستغلال مواشيهم للمراعي.

وتعتبر قبيلة مسوفة من بين أقدم قبائل ملثمي الصحراء احتكاكا بالعرب الفاتحين، إذ ذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن غزوات عقبة بن نافع في المغرب أن ذلك القائد "...قاتل مسوفة من وراء السوس وسبي منهم وقفل راجعا..."[306].

وعلى الرغم من أن قبيلة مسوفة كانت تدخل في إطار الحلف الصنهاجي الصحراوي الذي كانت قبيلة لمتونة تتزعمه في معظم الحالات، فإنها كانت خلال القرن العاشر الميلادي محكومة من طرف شخص وصفه أحد كتاب تلك الفترة بأنه "ملك"، وذكر أن كافة قبائل صنهاجة تكبره وتجله لسيطرة قبيلته على طريق تجاري هام[307]، كما لعبت هذه القبيلة دورا رئيسيا في توسيع نطاق فتوحات المرابطين إلى جانب لمتونة وترغة، خاصة بعد الصراع الذي حدث بين لمتونة وكدالة حول زعامة الحركة، وانسحاب هذه الأخيرة وانزوائها في المناطق الشاطئية تاركة مصير الحركة يتحدد على يد لمتونة ومسوفة وقبائل صحراوية أخرى أقل شأنا كبني وارث وكزوله ولمطة وترغة الخ...

4- قبائل أخرى:

إذا كانت القبائل الثلاث السالفة الذكر (كدالة ولمتونه ومسوفة) هي أساس صنهاجة الصحراء وعمودها الفقري الذي كانت تستند إليه في المنطقة، لكثرة أعداد أفرادها وسعة مراعيها، فإن قبائل أخرى أقل أعدادا وتأثيرها محدود في توجيه الأحداث داخل المنطقة، كانت تعيش إلى جانب تلك القبائل الكبرى، وأشارت المصادر العربية الوسيطة إلى بعضها في مناطق داخل صحراء الملثمين، وبالقرب من بلاد السودان، مع أن معظمها يحمل نفس الأسماء التي تحملها قبائل كبرى وقوية توجد على الحدود الشمالية للصحراء، في السوس ودرعة.

وسنحاول باقتضاب التعرف على بعض تلك القبائل، خاصة منها تلك التي أثبتت الكتابات الوسيطة وجودها داخل صحراء الملثمين خلال الفترة مابين القرن 8و11 للميلاد.

أ - بنو وارث:

وهي إحدى قبائل صنهاجة الصحراء، ويبدو أن حجمها كان صغيرا، لذا كان اهتمام الكتاب بها ضئيلا، وكانت هذه القبيلة خلال القرن العاشر الميلادي تنتجع صحراء واران، إلى الجنوب من مدينة شنقيط الحالية[308]، ولعل ذلك هو ما أشار إليه البكري نقلا عن الوراق عند ما وصف مراحل الطريق الذي كان يربط بين تامدلت واودغست، ويستشف من خلال ذلك الوصف أن ديار بني وارث كانت في الجزء الجنوبي من صحراء واران، إذ يقول: "... ثم تمشي منه في بلد واران خمسة أيام مجابة في كثبان رمل إلى بير عظيمة في حد بني وارث قبيلة من صنهاجة"[309]، وهذه الصحراء توفر خلال مواسم الأمطار مراعي جيدة للإبل[310].

---

304 زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد واخبار العباد دار صادر بيروت 1969، ص:25

305 ابن حوقل مصدر سبق ذكره، ص: 99.

306 ابن خلدون: العبر- مصدر سبق ذكره، ص: 217.

307 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.

308 LAGARDERE: op.cit.، p. 21

309 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.

ويبدو أن نطاق نفوذ بني وارث قد توسع باتجاه الجنوب خلال قرن من الزمن حيث وصف البكري لهم تجمعا في مدينة أطلق عليها اسم "بانكلابين"، وكان ذلك خلال القرن 11م[311]ويعتقد أن موقع بانكلابين يوجد داخل منطقة تكانت الحالية، إذ هي قريبة من مواقع كنكاره، ويرى بعض المؤرخين أن بني وارث أسلموا منذ القرن السابع للميلاد، منذ بداية الفتح العربي للمغرب الأقصى، وأنهم كانوا يجاهدون لنشر الإسلام في السودان الغربي، وفي هذا المضمار يقول ابن أبي زرع: "... قبيلة من صنهاجة يعرفون ببنى وارث وهم قوم صالحون على السنة والجماعة وأسلموا على يد عقبة بن نافع أيام فتحه للمغرب وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير دين الإسلام"[312]، ويضيف آخرون أن قبيلة بني وارث هي أول قبيلة صنهاجية جاهدت من أجل نشر الإسلام وتطبيق الشريعة قبل قيام الحركة المرابطية[313]، ومن المعروف أن أول زعيم لصنهاجة وصف بالتقوى والفضل توفى وهو يجاهد بالقرب من ديار بني وارث[314] فهل كانوا يعاضدونه ويقاتلون معه من أجل نشر الإسلام؟

ويسمح لنا موقع منازل بني وارث بالتفكير في أنهم كانوا يحصلون على قدر كبير من حاجياتهم عن طريق ما كانت توفره لهم حماية القوافل ورسوم المرور من مداخيل، شأن غيرهم من القبائل التي كانت القوافل تخترق أراضيها باتجاه المغرب و بلاد السودان[315].

ب - كزولة:

يعتقد بعض الباحثين أن قبيلة كزولة تنحدر من شعب كان يعيش في الأطراف الشمالية للصحراء خلال العصر القديم هو شعب الجيتول[316] وذلك على الرغم من أنها وردت في كتابات العرب الوسيطة من بين قبائل صنهاجة، وكانت قبيلة كزولة تتمركز بشكل أساسي خلال العصر الوسيط في جنوب غرب المغرب الأقصى، حيث كانت بطونها تنتجع المنطقة الواقعة بين وادي سوس ودرعة[317]، وهي منطقة ملامسة للحدود الشمالية لصحراء الملثمين، وتخترقها الطرق التجارية العابرة للصحراء باتجاه بلاد السودان، وهو ما مهد لبعض الكزوليين السبل لينسابوا جنوبا حتى أعماق الصحراء، وإن كان بعض الباحثين يعتقدون أن الكزوليين الذين كانوا يوجدون بصحراء الملثمين خلال تلك الفترة قادمون من الشرق وبصفة خاصة من تونس وليس من المغرب الأقصى[318].

ويستشف من خلال ما هو مدون في بعض المصادر الوسيطة أن أعداد تلك القبيلة في الصحراء كانت قليلة، وبالتالي فإن دورها بها كان محدودا، إذ يورد صاحب الحلل[319] أن يوسف بن تاشفين عندما عظم ملكه اتخذ حشمه من بين بعض القبائل من بينها كزولة، وهو أمر لم يسحبه على قبائل الملثمين الكبرى، وليست لدينا معلومات واضحة عن موطن محدد للكزوليين في صحراء الملثمين، وإن كانت هنالك إشارات من البكري تحيلنا إلى أماكن معينة من الصحراء مثل وانزمين، حيث ذكر أن الكزوليين اتخذوا من هذا الموقع مكانا لشن غاراتهم

---

310 Abdoullah ould youba ould KHALIFA, Les aspects économique et sociaux de l'oued TIGIGJA, de la fondation du KSAR a l'indépendance (1660-1960), thèse présenté pour l'obtention du doctorat nouveau régime, Université Paris I Panthéon Sorbonne, 1990 – 1991, p.49

311 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

312 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

313 ابن عذاري: البيان المغرب ج4: مصدر سبق ذكره، ص: 11.

314 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

315 LAGARDERE: op. cit., p. 21 .

316 ناعمي مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكنة- تاريخ العلاقات التجارية والسياسية مطابع عكاظ- الرباط- 1988، ص: 30.

317 LAGARDERE: op. cit., p. 25

318 LAGARDERE: op. cit., p. 25

319 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص: 33.

على القوافل، وذلك "لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه..."[320]، كما ذكر أن والدة عبد الله بن ياسين اسمها "تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء غانة"[321]، فهل يمكننا اعتبار الموقعين السالفي الذكر (وانزمين وتماماناوت) خاضعين لنفوذ الكزوليين بصحراء الملثمين؟ أم أنهما يعتبران فقط مجرد موقعي استقرار مؤقتين لأفراد تلك القبيلة القادمين من الشمال سعيا وراء أنشطتهم الرعوية أو التجارية، خاصة أن الموقعين تمر بهما أهم الطرق العابرة للصحراء؟

وبغض النظر عن الأسباب التي حملت جماعات من قبيلة كزولة على الاستقرار في صحراء الملثمين، فمن الواضح من خلال الإشارات السالفة الذكر أن تلك القبيلة كانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، موجودة على الخريطة البشرية للمنطقة، وأن وجودها على تلك الأرض خلال الفترة المذكورة حقيقة لا ريب فيها، على الرغم من محدودية الدور الذي كانت تقوم به على المستويين: الاقتصادي والسياسي، وهو أمر يمكن تفسيره بهيمنة القبائل الكبرى على هذه الميادين الحيوية، مما اضطر كزولة التي لا يبدو أنها كانت تسيطر على أي طريق عابر للصحراء إلى اتخاذ الإغارة ونهب القوافل في المناطق الوعرة نشاطا لها، ومصدرا من مصادرها الاقتصادية، وهي في هذا المجال كغيرها من القبائل الصغيرة مثل لمطة[322] على سبيل المثال.

ج- لمطة:

لا تختلف وضعية لمطة في صحراء الملثمين كثيرا عن وضعية كزولة، إذ أن عمق هذه القبيلة ومركز ثقلها يوجد على الطرف الشمالي للصحراء، ومع أن معظم المؤرخين يعتقدون أن لمطة تدخل ضمن قبائل صنهاجة[323]، فإن ابن خلدون يعتقد أنهم لا ينحدرون من صلب صناك (صنهاج) وأن جدهم لمط من بين إخوته[324]، وعلى العموم فإن لمطة ارتبطت بصنهاجة الصحراء نتيجة للجوار أو المصالح المشتركة المرتكزة على ممارسة المجموعتين للرعي والتجارة العابرة للصحراء، وكان معظم اللمطيين يعيشون في المنطقة الواقعة بين وادي السوس ومصب وادي نول[325] حيث أسسوا المدينة التي اقترن اسمها بهم[326] (نول لمطة)، وكانت هذه المنطقة خلال الفترة الوسيطة حيوية بالنسبة للتجارة عبر الصحراء، إذ كانت تنطلق منها شبكة من الطرق باتجاه الصحراء وبلاد السودان[327].

ويبدو أن جماعات من اللمطيين استخدمت تلك الطرق ليستقر بعضها في أعماق الصحراء من دون أن يتمكن من السيطرة على منطقة خاصة به، فاضطر إلى القيام بقطع الطرق والهجوم على القوافل[328] بغية الحصول على موارد العيش، في الوقت الذي تمكنت فيه مجموعة أخرى من اللمطيين من التوغل داخل الصحراء حتى وصلت إلى "بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان..."[329]، وهذه المجموعة هي التي اعتبرها بعض الباحثين أصل مجموعات الطوارق التي تعيش إلى الشمال والشرق من مدينة

---

[320] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
[321] نفس المصدر، ص: 165.
[322] المصدر نفسه، ص:157.
[323] الحلل، مصدر سبق ذكره، ص:17. وابن أبي زرع، ص: 120 والبكري 166 وابن حوقل، ص101 الخ.
[324] ابن خلدون: العبر- مصدر سبق ذكره، ص:371.
[325] LAGARDERE: op.cit., p. 22
[326] الروض المعطار: مصدر سبق ذكره، ص: 58.
[327] LAGARDERE: op. cit., p. 22
[328] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
[329] ابن خلدون: العبر- مصدر سبق ذكره، ص:286.

تنبكتو[330] مع أن هنالك من يرى أن الأمر لا يتعلق بلمطة، وإنما بقبيلة صنهاجية أخرى هي تارجا أو ترغة.

د- ترغه (تارجا):

ورد اسم تارجا (ترجه، تاركا، ترغه) ضمن لائحة من أسماء القبائل أطلق عليها ابن حوقل خلال القرن العاشر الميلادي اسم القبائل الصنهاجية الخلص[331]، ويعتقد كيوك[332] بالاعتماد على معنى كلمة تارجا في لغة الطوارق، أن العرب أطلقوا هذا الاسم بعد فتحهم لشمال إفريقيا على المجموعات ذات الأصول الفزانية، إذ تعني الكلمة عند الطوارق الشماليين "فزان". بينما يتغير معناها عند مجموعات أخرى من الطوارق فيصبح "الوادي" أو "الساقية" وبالتالي يكون وادي تارجا الذي تحدث عنه البكري[333] هو وادي الساقية الحمراء الحالية، ولا يستبعد أن تكون قبيلة تارجا الصنهاجية أخذت اسمها من فزان بعد أن استقرت به لمدة من الزمن، ثم أعطت نفس الاسم للساقية الحمراء بعد أن انتقلت إليها، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار آراء البعض ممن يعتد بهم حول الأصول الشرقية لصنهاجة التي تعتبر تارجا فرعا من فروعها، وبالتالي تكون منطقة فزان قد آوت هذه المجموعة أثناء هجرتها من الشرق إلى الغرب.

وخلال العصر الوسيط كان موطن تارجا الرئيسي يقع بين وادي درعة والساقية الحمراء[334]، ومع ذلك فإن اسمها ورد بين أسماء القبائل التي كانت تعمر صحراء الملثمين خلال الفترة السابقة لقيام حركة المرابطين[335]، ثم إنها من بين القبائل التي شاركت في تشكيل جيوش المرابطين عند خروجها من الصحراء وغزوها لسجلماسه[336]، ثم أصبح دور تارجا أكبر في تلك الحركة عند ما شاركت في ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب قبيلة كدالة من الحركة إثر النزاع الذي نشب بينها وبين قبيلة لمتونة[337]، و وقد تعاظم دور تارجا في التبادل التجاري بين شمال وغرب إفريقيا بعد سيطرة المرابطين على الصحراء والمغرب[338]، فهاجرت مجموعات منها من الشمال صوب الجنوب سعيا وراء الأرباح الكبيرة التي كانت تجنيها من التجارة الصحراوية، وتزايدت أعداد تلك المجموعات بمرور الزمن.

وعرفت تارجا بداية عصرها الذهبي بالصحراء في أواخر القرن11م، بعد أن أصاب قبيلة لمتونة التي كانت تتزعم صنهاجة الصحراء الوهن عقب موت زعيمها أبى بكر بن عمر وهجرة الكثير من أبنائها إلى المغرب استجابة لطلب يوسف بن تاشفين، بعد ثورة مسوفة على زعامة لمتونة في الصحراء، فانسابت مجموعات من قبيلة تارجا من أعماق الصحراء إلى الشرق وسيطرت على الصحراء المحاذية لنهر النيجر[339]، فبسطت نفوذها على ساكنيها، وأعطت اسمها لكل المجموعات التي أصبحت خاضعة لها[340]، وقد عبر ابن أبى دينار عن هذه الغلبة عند ما خلط بين صنهاجة الصحراء وتارجا، أثناء حديثه عن المرابطين عند ما قال: "...

330 ناعمي مصطفى- مرجع سبق ذكره، ص: 30.
331 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 101.
332 J. CUOQ: Recueil, op. cit., p. 332.
333 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:163.
334 البكري: سبق ذكره، ص:163، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص:48.
335 ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ص: 371.
336 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:174.
337 J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op. cit., p. 116.
338 Ibid, p. 117
339 قيام دولة المرابطين- مرجع سبق ذكره، ص: 48.
340 قيام دولة المرابطين- مرجع سبق ذكره، ص: 48

هم الذين يقال لهم التوارق في هذا الزمان ويجاهدون السودان وأول من تملك منهم بالصحراء تبولوتان..."[341]، ومن بين الباحثين من يعتقد أن الطوارق هم مجموعة مستقلة عن صنهاجة، ولا تربطها بها علاقات الدم والجنس[342]، إلا أن هذا الحكم يرتكز على فهم غير سليم لفقرة من كتاب ابن حوقل تتعلق ببني تامناك الذين اعتبر هذا الأخير أن أصولهم سودانية[343]، ومع عدم تسليم الدارسين بمعلومات ابن حوقل في هذا المجال، وأن تلك المعلومات تهم سكان تادمكه بصفة خاصة، فإن بوفيل تجاوز ذلك كله، ليسحب مدلول تلك الفقرة على سكان حوض النيجر من غير السودانيين بصفة عامة، متجاهلا التغيرات التي طرأت على الخريطة البشرية بعد القرن العاشر الذي دون خلاله ابن حوقل كتابه، وخاصة فترة القرن الحادي عشر التي هيمنت تارجا في أواخرها على أطراف الصحراء الجنوبية، وشمل اسمها المجموعات والقبائل التي أصبحت تابعة لها، فنسبت إليها (توارك) ثم حرفت لتصبح طوارق[344].

وإذا كانت القبائل التي أعطينا عنها معلومات موجزة هي أهم قبائل الملثمين بالصحراء وليست كلها، فإنها، وبحكم انفتاحها على العالم الخارجي عن طريق المبادلات التجارية الحيوية التي كانت تربطها بمناطق مختلفة خلال العصر الوسيط، لم تبق وحدها في الصحراء، وإنما عرفت تلك المنطقة استقرار قبائل وأجناس أخرى لعب بعضها أدوارا هامة في توجيه وتطور الأحداث بالمنطقة.

ج- سكان الصحراء من غير الملثمين ما بين القرن 8م و 11 م.

كانت صحراء الملثمين بحكم موقعها بين مناطق شمال إفريقيا والسودان الغربي، واختراق طرق التجارة العابرة للصحراء لها، ومشاركتها المباشرة في تنظيم وتموين تلك التجارة، منطقة اجتذاب واستقرار لمجموعات وقبائل مختلفة في مدنها وقراها من بينها زناتيون وعرب وغيرهم.. وتم ذلك خلال فترة مبكرة من انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، كما كان لأحداث تاريخية كبرى عرفتها الصحراء خلال العصر الوسيط دور كبير في تنويع ساكنيها مثل سقوط مملكة أودغست في أواخر القرن العاشر، وما نتج عنه من توغل للسوننكيين الغانيين داخل المنطقة الصحراوية، وكذا تحالف المرابطين مع مملكة تكرور وانسياب بعض سكان تلك المملكة إلى الضفة اليمنى لنهر السنغال.

وإذا كان من الصعب علينا تتبع كل الأقليات القومية والقبلية التي عاشت مع الأغلبية الصنهاجية في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، فإننا سنقتصر على توفير معلومات موجزة عن بعض منها نعتقد أنه شارك إلى حد ما في بعض الأحداث التاريخية الهامة التي عرفتها المنطقة خلال الفترة المدروسة، ومن أهم الأقليات التي عاشت في الصحراء خلال تلك الفترة:

1 زناته:

تعتبر زناته أكبر قبيلة من قبائل البتر، وقد اشتهرت بحروبها وعدائها التقليدي لأكبر قبيلة من قبائل البرانس هي قبيلة صنهاجة، وإن كنا لا نعرف شيئا عن التاريخ الذي بدأ فيه

---

341 أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن ابى دينار:
المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام ط3- المكتبة العتيقة تونس 1967، ص: 104.

342 بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب العربي- ط2-ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز منشورات جامعة قاريونس- بنغازي 1988، ص: 101.

343 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 101.

344 بنعبد الله- الموسوعة، مرجع سبق ذكره، الملحق I ، ص: 61`

الصراع بين هاتين القبيلتين ولا الأسباب التي أدت إليه، ومع ذلك فإن أوج الصراع بينهما كان خلال القرن 10م، وذلك عندما تحالفت كل واحدة منهما مع طرف من أطراف الصراع الذي احتدم في المغرب الإسلامي بين الفاطميين والأمويين، فتحالف الصنهاجيون مع الفاطميين ضد الأمويين في الأندلس وحلفائهم الزناتيين[345].

ولم تكن الصحراء بمعزل عما كان يجري إلى الشمال منها، إذ هي كما هو معروف امتداد جغرافي وبشري وحضاري لشمال إفريقيا، وعلى الرغم من أن معظم سكانها كان من الصنهاجيين، فإن المصادر العربية تؤكد على وجود جاليات أخرى كانت لها إسهامات خطيرة على المستوى الاقتصادي والسياسي في المدن الصحراوية، ومن بينها الزناتيون[346]، ويشير ابن أبي زرع إلى تغلغل زناتي في الصحراء في أواخر القرن العاشر الميلادي، إثر سيطرة زناتة وخلفائها من أمويي الأندلس على المغرب الاقصى[347].

ويبدو أن الزناتيين حاولوا خلال تلك الفترة أن يسيطروا بقوة السلاح على عاصمة الملثمين أودغست، إلا أنهم فشلوا في ذلك في بداية الأمر، ولم يذكر المصدر الذي نقل لنا الحادثة زناتة بالاسم، إلا أنه أورد عبارات تجعلنا لا نفكر في سواهم، ومن الأفضل أن نورد مقتطفا من شهادته، إذ كتب يقول: "... وحدثني أيضا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله أن قبيلة من قبائل البربر قصدت ناحية أودغست للإيقاع بآل تينبروتان في جمع كثيف وعدة قوية وعدة عظيمة تلتمس غرة وتهتبل فرصة عن طوائل حدثت مع بعض صنهاجة"[348].

من الواضح إذن أن المجموعة الغازية كانت من البربر، وأنها جاءت من خارج المنطقة للإيقاع بالصنهاجيين، فهي في هذه الحالة قبيلة من البربر غير صنهاجية، مما يجعلنا نفكر في زناتة نتيجة لاعتبارات عديدة من أهمها أن صنهاجة كانت من أكبر قبائل المغرب، ولا يدانيها من حيث العدد والقوة من بين قبائله سوى زناتة التي كانت قد دخلت معها في صراع مرير وقديم بلغ ذروته خلال القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر الميلاديين في عهد الفاطميين وخلفائهم من بني زيري الذين يبدو أنهم كانوا على اتصال بملثمي الصحراء منذ وقت مبكر من قيام دولتهم بالمغرب، إذ يقول المهلبي في هذا المجال "... وأهل أودغست مسلمون أسلموا على يد أبى عبيد الله الشيعي..."[349]، فهل تدخل الملثمون في الصراع الذي دار بين الفاطميين وحلفائهم من كتامة وصنهاجة من جهة والأمويين وحلفائهم من الزناتيين من جهة أخرى؟

نعتقد أن ذلك حدث بالفعل، إذا صح أن الملثمين أسلموا فعلا على يد أبى عبيد الله الشيعي، لذا يكون من الراجح أن قبيلة البربر التي حاولت تقويض النظام السياسي للملثمين والسيطرة على عاصمتهم أودغست هي زناتة، وذلك نتيجة لما أشار إليه ابن حوقل سابقا من أن سبب الغزو يتمثل في حروب سابقة للقبيلة الغازية مع "بعض صنهاجة"، الأمر الذي يفهم من خلاله أن صنهاجة الصحراء استهدفوا من طرف زناته لأسباب من أبرزها أنهم جزء من قبيلة صنهاجة الكبرى، فيكون غزوهم لهم داخلا في إطار الصراع العام بين صنهاجة وزناتة.

---

345 د. الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي- بيروت 1986، ص: 83-84.

346 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158-168.

347 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 101.

348 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 97.

349 نقلا عن ياقوت- مصدر سبق ذكره، ص: 278.

انظر أيضا: اندريه ميكل، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، 2ج، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1985، ج1،ص.258.

وعلى الرغم من أن ابن حوقل أورد أن أولئك الغزاة قد هزموا من طرف صنهاجة أودغست[350] فإن بعض المصادر العربية الأخرى[351] تؤكد على أن الزناتيين تمكنوا بواسطة تحالفهم مع الأمويين من إلحاق الهزيمة بصنهاجة، وأنهم توغلوا في الصحراء في عهد زعيمهم زيري بن عطيه الذي تجاوز نفوذه السوس الأقصى، وأرسل بعض الهدايا إلى المنصور بن أبى عامر في الأندلس من بينها تحف وأموال صحراوية كالجمال والدرق اللمطية وأصناف الوحوش الصحراوية الخ...، وفى أواخر سنة 997م، فر هذا الأمير الزناتي إلى الصحراء بسبب خلاف دب بينه والمنصور بن أبى عامر أدى بهما إلى حرب هزم عقبها الأول، فاستقر ببلاد صنهاجة الذين وجدهم يعيشون خلافات داخلية، فبعث إلى زناتة يطالبهم بانتهاز الفرصة وغزو عدوهم التقليدي، فنهض إليه منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم وزحف بهم إلى صنهاجة فالحق بهم الهزيمة[352].

وخلال نفس الفترة كان أمويو الأندلس يبذلون جهودا كبيرة لإبعاد أي احتمال يؤدي بالفاطميين إلى السيطرة على الطرق الغربية المنطلقة من المغرب باتجاه غانة[353]، فشجعوا حلفاءهم من الزناتيين على السيطرة عليها، الأمر الذي قد يكون كافيا لتبرير التغير الذي طرأ على تركيبة سكان أودغست الذين كانوا في معظمهم خلال القرن العاشر من صنهاجة[354]، وأصبحوا خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي في معظمهم من زناته، إذ يقول البكري متحدثا عن تلك المدينة ما نصه: "... ويسكن هذه المدينة زناته مع العرب وكانوا متباغضين"[355]، كما أن نفس المؤلف أورد أسماء قبائل مختلفة كان لها وجود هام في أودغست، ومعظمها من زناتة، وذلك في قوله: "... وسكانها أهل إفريقيه وبرقجانه ونفوسه ولواته وزناته ونفزاوه هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار"[356].

ويرى جان دفيس أن حلفاء الأمويين من الزناتيين الأباضيين الذين قضى الفاطميون على دولتهم في تاهرت، كانوا يستخدمون الطريق الغربي المنطلق من سجلماسة باتجاه اودغست خلال القرن11م، إلا أنهم لم يكونوا يسيطرون على مراكز تجارية على طوله، لأن سجلماسة كانت تحت النفوذ القوي لمغراوة وهم أيضا زناتيون صفريون كانوا متحالفين مع الأمويين، وهذا الوضع هو الذي يفسر في نظره استقرار زناتة إفريقية في أودغست، بعد أن لاقوا الكثير من المضايقات والكراهية من طرف صنهاجيي إفريقية[357]، فهل يمكننا انطلاقا من هذا الرأي اعتبار غزو زناتة لمملكة أودغست الصنهاجية بمثابة ثأر من الصنهاجيين حاول الزناتيون أخذه انتقاما مما ألحقه بهم صنهاجيو إفريقية؟، ذلك ما نعتقد أن بالإمكان استخلاصه من عبارة ابن حوقل الغامضة "... عن طوائل حدثت مع بعض صنهاجة"[358]، يضاف إلى ذلك أن الثأر من الصنهاجيين كان الأخذ به خلال تلك الفترة أسهل في صحراء الملثمين منه في إفريقية، بسبب قرب النفوذ الأموي من هذه المنطقة من جهة، وأن قوة الملثمين كانت أضعف من صنهاجة إفريقية من جهة أخرى، إذ أنهم كانوا محاصرين بأعداء من الجنوب ممثلين في إمبراطورية غانة، وأعداء من الشمال ممثلين في زناتة سجلماسة المدعومين من طرف حكام الأندلس.

---

350 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
351 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 103.
352 نفس المصدر، ص:105-106-107.
353 J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op. cit., p. 128
354 ابن حوقل: صورة الأرض- مصدر سبق ذكره، ص: 98.
355 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.
356 نفس المصدر، ص: 158.
357 J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op. cit., pp. 127 – 128 - 129
358 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 97.

وعلى كل حال، فإننا نعتقد أن الوجود الزناتي لم يكن مقتصرا خلال تلك الفترة على أودغست، وإنما امتد ليشمل مراكز تجارية صحراوية أخرى، وإن كانت المصادر لم تسعفنا بمعلومات حول ذلك باستثناء ما أشار إليه ابن خلدون من أن قبيلة مطغرة الزنانية فرت أمام الفاتحين إلى داخل الصحراء وأنها زرعت النخيل في بعض واحاتها[359] أو ما سبق أن أوردناه اعتمادا على ابن أبى زرع، إذ ليس من المعقول أن يترك الزناتيون الصحراء والمراكز التجارية القريبة من أودغست بيد أعدائهم، لأن في ذلك تهديدا مستمرا لوجودهم في أودغست، وخطرا على قوافلهم التي كانت تمر بتلك المراكز متجهة إلى الجنوب.

ومهما كان الأمر، فإن وزن المجموعة الزناتية في صحراء الملثمين، كان أكبر على المستويين التجاري والسياسي منه على المستوى العددي، ومما يؤيد ذلك اختفاؤهم السريع كمجموعة متميزة في هذه المنطقة خلال النصف الثاني من القرن11م، عندما أصبح الانتقام منهم هدفا رئيسيا عند المرابطين[360]، فذابوا في المجتمع الصنهاجي كغيرهم من الأقليات القبلية والقومية.

2 عرب الفتح:

نعني بعرب الفتح، المجموعات العربية التي انسابت إلى شمال إفريقيا، ومنه إلى الأندلس والصحراء والسودان، وقد انطلقت هذه المجموعات من شبه الجزيرة العربية والشام ومصر لغرض نشر الإسلام بين سكان تلك المناطق، لذلك عرفوا بهذا الاسم تمييزا لهم عن العرب الذين استقروا في المغرب والصحراء إثر الهجرات العربية التي عرفتها المنطقة خلال العهد القديم[361]، ونتيجة لانعدام المصادر المكتوبة التي عايش أصحابها الحدث لا في الصحراء فحسب، وإنما في المغرب أيضا[362]، فإننا سنعتمد في هذا المجال على مصادر متأخرة نسبيا كابن عبد الحكم الذي كان يكتب خلال القرن التاسع الميلادي، وأورد معلومات تتعلق بالقرن السابع[363]، والبكري الذي كان يكتب في منتصف القرن11م عن أحداث ذكر أنها تعود إلى صدر الإسلام[364]، وغيرهم من الكتاب العرب في العصر الوسيط الذين تحدثوا عن المد العربي الإسلامي باتجاه شمال إفريقيا والصحراء، وفى هذا المضمار تحدث ابن عبد الحكم عن جيش عربي قاده عقبة بن نافع الفهري خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، وقد وصل هذا الجيش بلاد سوس، وتابع زحفه جنوبا حتى دوخ بلاد أنبية[365]، وهي كما سبق أن ذكرنا تسمية أطلقها أصحاب الكتابات العربية الأولى حول الصحراء على الملثمين الذين كانوا يعيشون إلى الجنوب من السوس الأقصى، فهل تعتبر هذه الإشارة كافية للحكم بأن عرب الفتح وصلوا خلال هذه الفترة المبكرة من الفتح الإسلامي للمغرب إلى صحراء الملثمين؟، خاصة أن بلاد "أنبية" التي ذكر المؤلف أن عقبة بن نافع الفهري جال فيها تمتد جنوبا حتى نهر السنغال.

---

359 ابن خلدون: العبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:245

360 الناصري: ج2: مصدر سبق ذكره، ص:20 و29.

361 أعطى ابن خلدون هذا الاسم لهذا الصنف من العرب القادمين إلى بلاد المغرب بغية فتحها تمييزا لهم عن الهجرات العربية السابقة واللاحقة، انظر مثلا، العبر، سبق ذكره، المجلد6، ص.32.

362 هاجر العرب إلى شمال إفريقيا والصحراء خلال فترة مبكرة من التاريخ، واستقر بعضهم منذ تلك الفترة في واحات الصحراء وبواديها، انظر بهذا الصدد: محي الدين صابر، العرب وإفريقيا، العلاقات الثقافية، المكتبة العصرية، ط1، بيروت،1987.ص.11.

363 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص: 58.

364 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:156-157.

365 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:58.

وإذا ما أضفنا إلى ما ذكره ابن عبد الحكم عن جيش عقبة بن نافع وجولاته في بلاد أنبيه، الإشارة المهمة التي أوردها ابن عذاري[366] عن نفس الجيش وخلال نفس الفترة، فإن معلوماتنا حول توافد عرب الفتح إلى الصحراء تزداد وضوحا، فقد ذكر أن هذا الفاتح تجاوز بلاد هسكورة جنوبا إلى أن وصل موضعا اسمه "أطار فوجد فيه أقواما فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتى فروا أمامه"، فهل يتعلق الأمر بالموقع الذي توجد به مدينة أطار الموريتانية حاليا، والواقع في أعماق صحراء الملثمين، مما يضع حدا لرواج الرأي المألوف الذي يرى أصحابه أن عقبة لم يتجاوز منطقة آسفي؟ هذا ما نعتقده اعتمادا على شهادة هذا المؤرخ الذي لم يتوقف عند هذا الحد، بل صرح أنه نقل عن ابن عبد البر أن عقبة واصل فتوحاته من طنجة شمالا حتى "فتح كورة من كور السودان"[367].

ولم تقتصر حملات الجيوش الموجهة إلى صحراء الملثمين على الحملة التي قادها عقبه بن نافع خلال القرن7م، وإنما تواصلت خلال القرن الموالي، ونخص منها الحملة التي قادها حفيد لعقبة هو حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة، والتي تجاوزت الصحراء إلى أن وصلت بلاد السودان[368]، وكذلك الحملة التي قادها المشترى بن الأسود وقادته إلى بلاد أنبيه (الصحراء)، وواصل حروبه معهم إلى أن وصل نهر السنغال[369]، لكن بما ذا تفيدنا هذه الحملات وغيرها من الحملات العربية الأخرى التي وجهت إلى هذه المنطقة فيما يتعلق باستقرار العرب في صحراء الملثمين خلال تلك الفترة؟.

فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يعتقدون أن تلك الحملات كانت خاطفة، وأنها كانت استكشافية بالدرجة الأولى، ولم يكن غرضها الفتح ولا تمركز العرب في تلك المناطق، فإن إشارات أوردتها بعض المصادر العربية تجعلنا نرفض مثل هذا التصور، إذ توفر لنا دليلا مهما يتماشى مع ما كان معروفا عن الجيوش العربية الإسلامية من تقاليد من بينها أن المجاهد كان يصطحب أحيانا أسرته لتستقر معه أينما حل، وفى هذا المضمار يحدثنا البكري عن مجموعتين عربيتين كانتا تعيشان في عهده في المنطقة السودانية المحاذية للحدود الجنوبية لصحراء الملثمين، فذكر أن إحداهما تعرف عند السكان المجاورين لها بـ"الهنيهين" وكانت قرب غانة، في حين عرفت المجموعة الأخرى باسم "الفامان" وكانت مستقرة بالقرب من سلاو تكرور، ثم أضاف أن تينك المجموعتين من بقايا جيش كان بنو أمية قد أنفذوه من لنشر الإسلام في غانة، لكنه لم يحدد تاريخ تسييره ولا وصوله إلى الصحراء والسودان، وإن كان قد ذكر أن ذلك قد حدث في صدر الإسلام[370]، وهو أمر يجعلنا نستبعد أن الأمر يتعلق بحملة مسيرة من طرف الدولة الأموية بالأندلس، فلا يبقى أمامنا إلا التفكير في الدولة الأموية في المشرق، وخاصة في الحملة التي قادها عقبة بن نافع، حيث ذكرت بعض المصادر أنها وصلت إلى الصحراء، بل تفيد أحيانا أنها تجاوزتها إلى بلاد السودان[371]، أو حملة حفيده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، فهل ترك أحد هذين القائدين فرقة من جيشه بعد أن كلفها بنشر الإسلام في الصحراء والسودان؟

ولكي لا نطيل في أغوار هذا الموضوع، فإننا نميل إلى ترجيح أن وصول أسلاف الهنيهين والفامان إلى المنطقة يعود إلى النصف الثاني من القرن 7م، تحت قيادة عقبة، وأنهم فقدوا الاتصال بموفديهم بعد مقتل قائدهم في طريق عودته إلى القيروان وما نجم عن ذلك

---

366 ابن عذاري : مصدر سبق ذكره، ج1، ص:28.
367 ابن عذاري : مصدر سبق ذكره، ج1، ص:28.
368 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:94.
369 ابن الفقيه: مصدر سبق ذكره، ص.64
370 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 179.
371 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1 ص:28.

الحادث من فوضى كادت أن تنسف الوجود العربي الإسلامي بالمغرب كله، مما أدى إلى انقطاعهم عن الإدارة العربية في شمال إفريقيا، فتخلوا عن مهمتهم، التي يبدو أنهم لم يكونوا قادرين على القيام بها من دون وجود ضمانات بتدفق المدد إليهم، نتيجة لما كانت عليه غانة آنذاك من قوة، كما أنهم لم يتمكنوا من العودة إلى مقر القيادة العربية في القيروان، إما لأنهم علموا بالاضطرابات التي حدثت والتي زعزعت الوجود العربي هنالك، ففضلوا البقاء حيث هم، أو أنهم لم يستطيعوا نتيجة لجهلهم بمسالك الطرق المؤدية إلى تلك البلاد، وتعذر حصولهم على أدلاء مستعدين للتعامل معهم، مما جعلهم يستقرون في تلك البلاد بعد أن انقطعت بهم السبل، لكنهم حافظوا على نقائهم العرقي حتى بداية النصف الثاني من القرن11م على الأقل[372].

على أن دور الدولة الأموية بالمشرق في تطعيم سكان المغرب والصحراء بالمجموعات العربية لم يتوقف عند حد الحملات الصغيرة والمحدودة الأثر، وإنما حاولت التأثير في التوازن الديموغرافى بالمنطقة، في عهد عبد الملك بن هشام، الذي أراد أخذ الثأر للجيش الأموي بعد هزيمته في وقعة الأشراف أثناء مواجهته مع جيوش البربر الثائرين بقيادة ميسرة المدغري، ويورد النويري أن عبد الملك قال عندما بلغه خبر الوقعة: "... والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يمني..."[373]، فهل سلمت الصحراء من تأثيرات هذا التوجه، خاصة أنها كانت تلعب دورا خطيرا سواء تعلق الأمر بكونها مأوى للثائرين منذ الفترة القديمة، فتكون ملاحقتهم بها للقضاء على خطر عودتهم ضرورية، أو لأهميتها الاستراتيجية باعتبارها منطقة مرور إجبارية إلى بلاد السودان التي اعتقد بعض الباحثين أن ذهبها كان هو الدافع الأساسي من وراء غزو العرب للمناطق الواقعة إلى الجنوب من السوس الأقصى ابتداء من القرن8م[374].

ومهما كان أثر الحملات العسكرية العربية ضعيفا في تغيير الخريطة البشرية بالصحراء، فإنها مهدت الطريق أمام العرب للوصول إلى تلك المنطقة خلال فترة مبكرة نسبيا[375] من فتحهم للمغرب خاصة أنهم يتميزون عن غيرهم من الأمم بقدراتهم الكبيرة على الانتشار والاستقرار بهذه المنطقة الصحراوية المشابهة لبيئتهم الأصلية.

وبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق، بدأت ملامح استراتيجية عربية جديدة تتحدد، وكان هدفها هو الوصول إلى الصحراء بالطرق السلمية لنشر الإسلام والمشاركة في المبادلات التجارية، وذلك عند ما قام عبد الرحمن بن حبيب بحفر مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط بين تامدلت وأودغست[376] لتسهيل تنقل الدعاة والتجار من دون أن يتعرضوا لخطر الموت عطشا، ويعتقد أحد الباحثين أن هذه الخطوة التي اتبعها عبد الرحمن بن حبيب ابتداء من سنة 745م كانت أكثر نجاحا من سابقاتها حيث نجحت في تحقيق الهدف الذي كانت ترمي إليه[377]، ولعل من بين أهم نتائجها، الوجود العربي الواضح والهام في المدن التجارية الصحراوية منذ القرن 8م، خاصة اودغست التي ذكر البكري أنها كانت عاصمة مملكة غانة قبل أن يصل إليها العرب[378]، ومن المعلوم أن أودغست أصبحت عاصمة لصنهاجة منذ

372 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 179.

373 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 215.

374 Robert VERNET: in Introduction, op. cit., p. 42.

375 د. صباح ابراهيم الشيخلي والدكتور عادل محي الدين الالوسي: تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، مطبعة التعليم العالي، بغداد 1989، ص:52.

376 البكري: مصدر سبق ذكره، ص. ص: 156-158.

377 F. DELACHAPELLE: op. cit., p. 56

378 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.

القرن8م، وبالتالي يكون وصول العرب إليها قد تم خلال عهد الصنهاجيين وانتزاعهم لها من غانة.

وبصفة عامة، فإن الوجود العربي في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط استفاد إلى حد كبير من ازدهار وحيوية المبادلات التجارية عبر الصحراء، ذلك الازدهار الذي بدأت ملامحه تتضح خلال النصف الثاني من القرن8م، بعد تأسيس سجلماسة وتاهرت، ومهما كانت الأهداف الحقيقية للمسافرين العرب إلى الصحراء والسودان (الدعوة أوالتجارة الخ...)، فإن توغلهم في تلك البلاد أدى إلى اختلاطهم بسكان الصحراء أثناء عبورهم لبلادهم وبعد استقرارهم في المراكز الحضرية الصحراوية[379]، ويعطينا البكري مثالا على هذا الاختلاط خلال القرن11م، عندما نوه بأهمية أعداد العرب في مدينة أودغست، التي كانت قد اجتذبت الكثيرين من عرب إفريقية خلال تلك الفترة[380]، فذكر أن عبد الله بن ياسين قتل بها عربيا من المولدين[381].

ويرى أحد الباحثين أن الاختلاط الذي وقع بين عرب الفتح وسكان صحراء الملثمين خلال الفترة ما بين القرون 8م و 11م، لم يقتصر على المدن، وإنما شمل البوادي، حيث نتجت عنه بعض المجموعات القبلية الصحراوية[382]، ويدعم البكري هذا الرأي بشهادته التي تؤكد على أن التجار العرب كانوا يتنقلون في بوادي الصحراء، إذ يحكى لنا تفاصيل خلاف حدث بين تاجر عربي ورجل صحراوي حكما فيه عبد الله بن ياسين ليقضي بينهما، وكيف أن ذلك التاجر العربي أنقذ من طرف عربي آخر كان في المجلس عند ما حاول عبد الله ابن ياسين تأديبه[383]، وخلاصة القول تتمثل في أن عرب الفتح لم يكونوا غائبين عن صحراء الملثمين خلال الفترة ما بين القرن8م و11م، وإن كان دورهم التجاري والثقافي بها أكبر من حجمهم العددي.

وقد تجاوز العرب الصحراء جنوبا إلى مدن السودان الغربي المحاذية للصحراء من الجنوب، بعد أن احتكوا بالمجموعات السودانية التي استقر بعضها في المدن والمناطق الصحراوية المحاذية لبلادهم.

3 السودانيون:

نعني بالسودانيين المجموعات التي تعايشت مع الملثمين في الصحراء خلال الفترة المدروسة، والتي تعتبر امتدادا بشريا للشعوب والقبائل السودانية المختلفة في غرب إفريقيا، فمن الطبيعي أن تكون للعلاقات التي كانت قائمة بين سكان ودول المنطقتين المتجاورتين انعكاسات على الجانب البشري، حيث يكون هنالك تداخل ناتج عن استقرار جماعات من منطقة أحد الطرفين في منطقة الآخر، سواء تم ذلك الاستقرار بشكل مؤقت (ممارسة التجارة والرعي والدعوة) أو بشكل دائم، ومن بين أهم الشعوب السودانية التي دخلت في علاقات نشطة ومتنوعة مع الملثمين، وشاركت بشكل أو آخر في رسم التغيرات التي عرفتها الصحراء خلال الفترة المدروسة، نخص بالذكر شعبي السوننكة والفلان، اللذين كانت منطقتاهما تحدان الصحراء من

---

[379] د. صباح ابراهيم الشيخلي: «النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن5ه-11م» ضمن تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر- معهد البحوث والدراسات العربية- بغداد. 1984، ص:29-46.

[380] J. DEVISSE, in TEGDAOUST I, op. cit. p.129.

[381] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

[382] بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 116.

[383] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 170.

الجنوب، لذلك فإننا سنتعرض باختصار شديد لكل واحد منهما على حدة، بغية التعرف عليه وإبراز ملابسات الظرفية التي استقر خلالها في الصحراء.

- السوننكه:

وهم من كبريات مكونات المجموعة الكبيرة التي كان يتشكل منها سكان السودان الغربي، وقد لعبوا أدوارا اقتصادية وسياسية خطيرة، في هذه المنطقة، فهم مؤسسو إمبراطورية غانة السودانية التي كانت عاصمتها "قنب" تقع في الحزام الساحلي الملاصق للأطراف الجنوبية للصحراء غير بعيدة من أودغست، ويقول ابن حوقل عن تجاور عاصمتني المملكتين: "... وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة..."[384].

وكان السوننكيون يرمون من وراء بناء عاصمتهم في ذلك الموقع إلى تعزيز مكانتها التجارية، وجعلها في مكان يسمح لها بمنافسة المراكز التجارية الصنهاجية، وبصفة خاصة أودغست، وكانت العلاقات التجارية والثقافية بين عاصمتي المملكتين نشطة، مما أدى إلى استقرار مجموعات صنهاجية وشمال إفريقية في مدن غانه، كما أنه من الطبيعي أن يستقر التجار الغانيون واليد العاملة الغانية في المراكز التجارية والمدن الرئيسية الصحراوية، وتؤكد مصادرنا العربية التي ترجع إلى تلك الفترة ذلك، وجود سودانيات بأودغست "تحسن عمل الأطعمة الطيبة..."[385] ، كما أشارت إلى وجود مجموعات سودانية إلى الشمال من أودغست مثل المجموعة السودانية التي كانت تقوم بأعمال تهدف إلى شل الحركة التجارية عبر الصحراء و كانت تتمزكر في جبل "أزجونان"[386] الذي قد يكون في ولاية تكانت الحالية، وكذلك المجموعة السودانية كانت خلال النصف الأول من القرن11م بالقرب من مدينة "بانكلابين" (شمالي تكانت)، وقد مات أبوعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني، مجدد الدولة الصنهاجية في القرن 11م وهو يحاربها، وأطلق البكري على هذه المجموعة السودانية اسم " قنقارة"[387]، وهو اسم مطابق لاسم إحدى عشائر السوننكة، وينطق محليا بكافين معقودتين استبدلهما البكري بقافين على الطريقة الأندلسية، وما تزال آثار قرى الكنكارة ومزارعهم واضحة المعالم في منطقة تكانت، وتعود تلك الآثار إلى نفس الفترة التي تحدث عنها البكري، وتشير الروايات الشفوية السوننكية إلى أن الكنكارة كانوا منتشرين في مواقع مختلفة من صحراء الملثمين، في الحوض ولعصابة وتكانت وجنوب آدرار[388].

ومع أن الروايات الشفوية والمصادر المكتوبة لم تحدد التاريخ الذي يعود إليه استقرار تلك المجموعة في المناطق السالفة الذكر، ولا الأسباب التي دفعتها إلى ذلك، فإن بعض الباحثين يرون أن الكنكاره هم المعروفون عند بعض الكتاب العرب العصر الوسيط تحت اسم الونجاره، وهم تجار معروفون بمغامراتهم وانتشارهم في أجزاء مختلفة من غرب إفريقيا[389]، فهل تكون مجموعة الكنكاره التي أشار البكري إلى وجودها إلى الشمال من أودغست خلال ثلاثينيات القرن 11م من بقايا التجار الكنكارة وأسرهم، بحيث يكونون قد استقروا هنالك على طول أهم طرق المحور الغربي الرابط بين الصحراء والسودان من جهة وتلك المنطقة والمغرب الأقصى

---

[384] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

[385] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 158.

[386] نفس المصدر، ص: 157.

[387] المصدر نفسه، ص: 164.

[388] Ch. TOUPET: Terroirs Gangara, op. cit., p. 210

[389] J. CUOQ: L'islamisation, op. cit., p. 284.

من جهة أخرى؟، وهل يمكننا رد تاريخ ذلك الاستقرار إلى أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن11م وهي فترة تميزت بالازدهار الاقتصادي والسياسي في غانة؟

هاتان الفرضيتان مغريتان، لكن لا يمكننا التسليم بهما ما دمنا لا نعتمد على مصدر يؤيدهما، مما يقودنا إلى التفكير في فرضية أخرى تبدو أقرب إلى الواقع، بما توفره لها المصادر العربية الوسيطة والروايات المحلية السوننكية والعربية من دعم، وتتمثل تلك الفرضية في أن استقرار مجموعة الكنكارة إلى الشمال من أودغست إنما وقع في أواخر القرن العاشر للميلاد، نتيجة لاحتلال عسكري قامت به غانة للمنطقة منذ تلك الفترة، واستمر حتى بداية النصف الثاني من القرن11م، وفى هذا المجال يمكننا اعتبار ما أشار إليه البكري من وجود لسودانيين في جبل "ازجونان"، يقطعون الطرق، بداية لمحاولة غانة السيطرة على هذا الجزء الحيوي من صحراء الملثمين، حيث أرادت من وراء إرسال طلائع من جيشها لقطع الطريق إحداث بلبلة في اقتصاد جارتها أودغست عن طريق قطع القوافل ومنعها من الوصول إليها لإضعافها ثم احتلالها فيما بعد، ومما يدل على أن تلك الأحداث وقعت في أواخر القرن العاشر الميلادي، كون الشهادة المتعلقة بها وردت أثناء معرض حديث البكري عن الطريق الرابط بين تامدلت واودغست[390] ويرى جان دوفيس أن المعلومات الموجودة في هذه الفقرة من كتاب البكري منقولة من كتاب مفقود لمحمد بن يوسف الوراق المتوفى سنة 974م[391]، ويؤكد البكري أيضا واقع الاحتلال الغاني لأودغست وأجزاء من الصحراء أثناء حديثة عن حروب المرابطين في الصحراء وفتحهم لأودغست وتقتيلهم لبعض سكانها المسلمين من العرب والشمال إفريقيين، لا لشيء، سوى أنهم قبلوا أن يعيشوا تحت طاعة ملك غانة وحكمه في تلك المدينة التي يرى المرابطون أنها كانت محتلة من طرف سلطة وثنية[392]، وبالتالي لا ينبغي للمسلمين في نظرهم قبول ذلك.

وتزيدنا الروايات الشفوية المحلية تمسكا بهذا الرأي، إذ تدعمه هي الأخرى، على اختلاف مصادرها وتباعد المناطق التي أخذت منها، وهكذا فإن الرواية السوننكية المستقاة من السيد حمادي كوني في مدينة ولد أعلى بابي "سيليبابي" في منتصف القرن 20 م، تتعلق بأسباب هجرة الكنكارة من تكانت ولعصابة إلى كيدي ماغه، ويورد السيد كوني أن الكنكارة تعرضوا لحروب متتابعة شنها عليهم جيرانهم من "البيضان"، وأجبروهم على مغادرة السهول والالتجاء إلى الجبال للاحتماء بها، وتذكر هذه الرواية أن محاولات للتهدئة والوفاق بذلت من طرف رئيس الكنكارة في تلك الفترة، حيث بادر إلى تزويج بناته لبعض رؤساء "البيضان" وأن هذا الإجراء خفف من وطأة وكثافة الحروب على الكنكارة في ذلك الوقت، لكن مفعول تلك الارتباطات كان مؤقتا، وعادت الحروب من جديد وتواصلت حتى إخلاء المنطقة من الكنكارة واتجاههم إلى الجنوب في أواخر القرن 19م[393]، أما الرواية الأخرى فإنها عربية مستقاة من الكنتيين في الرشيد في منتصف القرن 20 م، وتتحدث في مجملها عن انتصارات حققها القائد المرابطي أبوبكر بن عمر اللمتوني على الكنكارة في شمال تكانت[394].

وهكذا، ومن خلال المعلومات التي استعرضناها أعلاه، فإننا نتوصل إلى تكامل بين الروايات المحلية فيما بينها من جهة، حيث تزيل كل واحدة منها الغموض عن الأخرى، ثم تكاملها مع ما أوردته المصادر العربية الوسيطة من جهة أخرى، الأمر الذي يمكننا من

[390] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
[391] J. DEVISSE: Le dossier des sources écrites, in TEGDAOUST I, op.cit, p 16
[392] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:169.
[393] Ch. TOUPET: Terroirs Gangara, op. cit., p. 210.
[394] Idem

استخلاص يقودنا إلى اعتبار أن وجود الكنكارة في المناطق الصحراوية خلال تلك الفترة كان وليد ظرفيات محددة، كما أن ذلك الوجود كان في معظم حالاته مؤقتا: كجاليات التجار والحرفيين الذين كانوا يستقرون في المراكز الحضرية التجارية، أو كالمجموعات التي كنا نتحدث عنها والتي استقرت في منطقة متقدمة نسبيا نحو الشمال، ويبدو أنها من بقايا بعض الجنود الغانيين الذين كانوا يراقبون الصنهاجيين الذين طردت قبائلهم في أواخر القرن العاشر الميلادي بعيدا عن الأجزاء الجنوبية من الصحراء، وهي مناطق كانت تكتسي خلال تلك الفترة أهمية استراتيجية خاصة، باعتبارها مناطق استقرار التجار الشماليين ومحط القوافل الكبرى، ومن تحكم فيها يصبح هو المسؤول عن توزيع البضائع في دواخل الصحراء والسودان الغربي.

وانطلاقا من ذلك، يمكننا فهم مدى استماتة الصنهاجيين في قتالهم للكنكارة بعد التفافهم تحت قيادة أبى عبد الله محمد بن يتفاوت أثناء محاولته استعادة عاصمتهم أودغست من سيطرة غانة التي كانت وقتها في أوج قوتها، حيث كان جيشها يعد 200.000جندي[395]، وإذا كانت تلك المعارك قد انتهت بموت القائد أبى عبد الله محمد بن تيفاوت، فإن المرابطين استمروا بعد ذلك في شن الغارات والحروب بعد أن نظموا صفوفهم تحت قيادة أبى بكر بن عمر، الذي لم يكتف بتجاوز طلائع جنود غانة في تكانت بعد أن سحقها، بل واصل مسيره جنوبا حتى قضى على تلك الإمبراطورية الوثنية ودخلت جيوشه عاصمتها سنة 1076م[396].

وبما أن الحركة المرابطية كانت في عمقها ذات أهداف تتجاوز المصالح الضيقة للملثمين وصحرائهم، فإن أبابكر بن عمر لم يقم بطرد الكنكارة من تكانت بعد أن أصبحت دولتهم جزءا من إمبراطوريته، فبقوا في تلك المنطقة إلى أن اصطدموا بعد ذلك بالسكان البدو الذين تزايدت حركتهم وأعدادهم في تلك المنطقة تحت ضغط الهجرة الحسانية إلى الصحراء، فأصبح التعايش بين مجموعتين متباينتين في نمط الحياة (المزارعون/ الرعاة) أمرا صعبا، وفضلا عن ذلك لم تعد تلك المناطق تتلقى قدرا من التساقطات يسمح بإقامة زراعات بعلية، فبدأت هجرة الكنكارة إلى الجنوب.

ولم يكن الكنكارة المجموعة السودانية الوحيدة التي تمكنت من دخول الصحراء والاستقرار بها، وإنما كانت هنالك مجموعة أخرى كانت علاقاتها بالصحراء والملثمين أكثر ارتباطا وتداخلا وهي مجموعة الفلان، التي كانت صلاتها بالسودانيين مقتصرة على استخدامها للغتهم واختلاطها بهم عن طريق الجوار والمصاهرة.

ـ الفلا ن:

الفلان، الفولة، الفولبة أو الفلاته الخ.. تسميات مختلفة لشعب واحد أطلقت عليه من طرف جيرانه، وقد اخترنا التسمية الأولى لذيوعها في مناطق استقرارهم التقليدية، وعلى الرغم من أن الفلان انتشروا خلال فترة متقدمة من العصر الوسيط في معظم أرجاء منطقة السودان الغربي وامتزجوا بشعوبها، فاخذوا عنها لغاتها[397]، فاعتبرهم البعض جزء من الزنوج، فإن بعض الباحثين ينفون عنهم ذلك الانتماء، وإن كانوا قد ظلوا عاجزين عن ردهم إلى أصول إثنية محددة وبشكل نهائي، كما أنهم عجزوا عن معرفة موطنهم الأصلي الذي منه هاجروا حتى

---

395 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 179.

396 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:17

397 عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية.المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة،1961،ص56، وكذلك:

.R. MAUNY: Tableau, op. cit., p. 455-

وصلوا إلى غرب إفريقيا[398]، ومع ذلك فإننا سنورد أسماء بعض الشعوب التي اعتبرها بعض الباحثين على اختلافهم أصلا للفلان، ومن بينها على سبيل المثال "الرومان والهنود والماليزيون والإيرانيون وقدماء المصريين والنوبيون والأثيوبيون والعرب و البربر الخ[399]...

ومن بين أهم الأسباب التي استرعت انتباه الباحثين وجعلتهم يخوضون في مثل هذه الافتراضات نذكر، التميز الواضح للفلان عن الزنوج، في الشكل (حيث يتميزون برؤوسهم المستطيلة مثلا)[400]، وكذلك وضوح بشرتهم وصفاؤها[401]، كما أنهم يختصون بنمط عيش يميزهم بشكل أكبر وضوحا عن باقي الشعوب الزنجية، وهو نمط عيش يرتكز على الرعي والترحال[402] بدلا من الاستقرار والأنشطة المرتبطة به، وهي ميزة تقربهم أكثر إلى سكان صحراء الملثمين من الصنهاجيين، الذين اعتبرهم أحد كتاب المنطقة أصلا للفلان[403]، ولا يستبعد المؤرخ الموريتاني المختار بن حامدن أن يكونوا عربا مولدين ينتسب معظمهم إلى الجيش العربي الذي أنفذه بنو أمية إلى غانة لنشر الإسلام بها، والذي كانت مجموعة منه متمركزة في حوض نهر السنغال وتحمل اسم "الفامان" ويرى أن هذا الاسم أصل تسمية الفلان[404].

وبصفة عامة، فإن بعض الأطروحات الحديثة في هذا المجال تعطي للفلان أصولا صحراوية، وترى أنهم استوطنوا هذه المنطقة منذ ما قبل التاريخ، ثم هبطوا نتيجة للتغيرات المناخية إلى الجنوب، فأصبحوا على اتصال بغانة وشعوبها، واستمرت هجراتهم إلى الجنوب منذ تلك الفترة ولم تتوقف حتى وقت قريب[405].

ويرى أصحاب هذا الرأي أن المنطقة التي كانت تأوي غالبية الفلان خلال الفترة الممتدة بين القرن7م والقرن10م، هي منطقة حوض نهر السنغال (فوتا تورو)[406]، ومع أن وادي السنغال كان يمثل حدودا طبيعية بين مجموعتين بشريتين، حيث تقع المجموعات الصنهاجية إلى الشمال منه والسودانية إلى الجنوب، فإن مصادرنا العربية الوسيطة تشير في القرن11م إلى توسيع المجال السوداني بشكل طفيف، حيث ذكر البكري وجود مدينة سودانية يقع أحد أجزائها على الضفة اليمنى للنهر والآخر على الضفة اليسرى[407]، ونعيد إلى الأذهان أن تلك الفترة بالذات هي التي توسع خلالها نفوذ سكان الضفة اليسري لنهر السنغال إلى الشمال، بعد تحالفهم مع اللمتونيين أثناء حروب الحركة المرابطية في الصحراء، حيث شارك أمير التكرور لبي بن وارجابي في المعارك إلى جانب جيش أمير الحق يحيى بن غمر اللمتوني[408]، وكانت مملكة تكرور قد أسلمت منذ عهد والده وارجابي، ويفترض أنها وسعت حدودها أكثر، فاستحوذت على بعض المناطق الواقعة إلى الشمال من النهر، وهي مناطق كانت تحت نفوذ

---

[398] Idem

[399] Joseph KI-ZERBO: Histoire de l'Afrique noire d'hier a demain, Hatier, Paris, 1972, p. 59.

[400] Ibid, p. 69.

[401] R. MAUNY: Tableau, op. cit., p. 455.

[402] عبد الرحمن زكي: مرجع سبق ذكره، ص: 60.

[403] أحمد بن الحاج عبد الله: في ذكر نسب كنته وقبائل الصحراء، مخطوط، بحوزة الباحث د.حماه الله بن السالم - نواكشوط - موريتانيا،

[404] ابن حامدن: الموسوعة. الجزء الجغرافي، ص.8، وفي هذا الصدد دائما يعتقد أفراد مجموعة دمنتاب من الفلان أنهم منسوبون إلى المدينة التي انطلقت منها هجرتهم من المشرق باتجاه غرب إفريقيا وهي "دمت" التي يؤكدون بأنها كلمة محرفة عن أصلها الذي هو "دمشق"، ويرى الشيخ عبد الله فودي أن اسم "الفلاته" الذي يطلقه البعض على الفلان مشتق من الجذر العربي لكلمة "فلت" لأن الفلان - حسبه - كانوا يفلتون من المخاطر بذكاء كلما واجهوها. انظر في هذا الشأن: الخليل النحوي: إفريقيا المسلمة، الهوية الضائعة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993 .ص ص.20 -41.

[405] -Sékéné Mody CISSOKO: Histoire de l'Afrique Occidentale Moyen-Âge et temps moderne du VIIe s.a 1850, Présence Africaine, Paris, 1966, p. 121.

-Alain ANSELIN, La question peule et l'histoire des Egyptes ouest africaines, KARTHALA, Paris, 1981, pp. 17 - 18.

[406] Ibid, p. 122

[407] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:177.

[408] نفس المصدر، ص:168.

قبيلة كدالة التي كانت في عداء مشترك للمتونة وتكرور، ثم إن تكرور زادت من نفوذها على تلك المناطق بعد وفاة أبى بكر بن عمر وتراجع النفوذ السياسي للقبائل الصنهاجية، ويؤيد ذلك، أن اسم تكرور شمل مدلوله خلال الفترة اللاحقة السودان الغربي بشكل عام[409] والصحراء والساحل بشكل خاص[410].

والتكرور الذين تحدثنا عنهم في إطار شعب الفلان، يتميزون إلى حد ما عنه وإن كانت ارتباطاتهم به وثيقة ومعقدة، إذ يعتبرهم البعض خليطا من الفلان والسرير[411]، ويتكلمون اللهجة الفلانية، لكن يتم تمييزهم عنهم بعبارة "هال- بولار" أي الذين يتكلمون لغة الفلان[412] وهم المعروفون في الكتابات الأوربية بالتوكولير.

وبصفة عامة، فإن استقرار المجموعات السودانية وغيرها من القبائل والشعوب الأخرى غير الصنهاجية في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، كان نتيجة لعلاقات تلك المنطقة بمحيطها الخارجي، وكان وجود تلك المجموعات يتأثر إلى حد كبير سلبا وإيجابيا بالتغيرات التي كانت تطرأ من وقت لآخر على مسار تلك العلاقات، وانطلاقا مما سبق، فإن بعض الكتاب قد أطنبوا[413] أثناء حديثهم عن تعمير الصحراء والتوزيع الجغرافي لسكانها، فتجاهلوا الحقائق عندما تحدثوا عن طرد القبائل الصنهاجية للسودانيين من الصحراء، معتمدين في ذلك على إشارات لبعض الكتاب القدماء وبعض كتاب العصر الوسيط تتحدث عن وجود جماعات صحراوية ذات بشرة سمراء[414]، فاعتبار لون البشرة أساسا وحيدا لتحديد نوعية الجنس البشري، ينطوي على مخاطر جسيمة تهدد القيمة العلمية للنتيجة المتوصل إليها في هذا المجال، إذ يتغير لون البشرة تحت تأثير عوامل مختلفة، خاصة في صحراء الملثمين التي كانت منذ حقب سحيقة من التاريخ مسرحا للاختلاط البشري، نتيجة لموقعها الجغرافي بين شمال إفريقيا والسودان الغربي[415]، و توجد في تلك الصحراء جماعات عربية ذات بشرة سوداء[416].

وقد أرجع الجغرافيون المسلمون تميز سكان هذه البلاد بالسمرة والسواد في بعض الأحيان إلى موقعها الفلكي، وما يترتب عنه من ارتفاع لدرجات الحرارة، وانعكاس ذلك على السكان، وفي هذا المجال يقول الإدريسي متحدثا عن الصحراء: "... وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا، ولذلك فإن أهل الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء..."[417]، ولا يكاد ابن حوقل يبتعد عنه في هذا المضمار، بل إنه أثناء مناقشته للفوارق السلالية بين سكان الصحراء والسودان يتوصل إلى نفس النتيجة[418]، أما موني، فإنه بالإضافة إلى إقراره الضمني للآراء السابقة، يرى أن العلاقات التجارية النشطة والمستمرة بين الصحراء والسودان الغربي، أدت إلى تطعيم سكان الصحراء بمجموعات سودانية، سواء عن طريق الزواج أو بواسطة المغالاة في اقتناء الرقيق الذي يرى أن أعداده

---

[409] أحمد بن يحي بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988، ص:60

[410] أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت،1981- ص:26.

[411] Jeseph KI - ZEBO: op. cit., p. 60 .

[412] Bruno A. CHAVANE: Village de l'ancien TEKROUR, Karthala, c.r.a , Paris, 1985, p. 22.

[413] MEUNIE: les Sites, op. cit., p. 19.

[414] الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص. 43.و كذلك:

-GSELL: op. cit., p. 299.

[415] ماك كوك: الروايات التاريخية حول تأسيس سجلماسة وغانة. تعريب وتعليق محمد الحمداوي دار الثقافة -الدار البيضاء ذ.ت، ص:20-21.

[416] أمين إسبر، إفريقيا والعرب، دار الحقائق، ط1، بيروت،1980 ، ص.18.

[417] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:32.

[418] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 101

تجاوزت في بعض الأحيان في أجزاء من الصحراء أعداد السادة[419]، ولعله يشير إلى ما ذكره البكري عن تجار أودغست من الزناتيين والعرب والذين ذكر أن الواحد منهم كان آنذاك "يمتلك ألف خادم وأكثر"[420]، وهكذا أدى الخلط عند بعض الكتاب الذين يعتمدون على لون البشرة، إلى الخلاف حول مجموعات عديدة من سكان الصحراء فاعتبرهم البعض بربرا أوصنهاجيين، واعتبرهم آخرون زنوجا، ومن الأمثلة في هذا المجال الاثيوبيون القدماء والبافور.

4- البافور:

يعتبر شعب البافور، من بين أقدم الشعوب التي تحتفظ الروايات المحلية بذكريات تتعلق بها، وتتركز الآثار التي خلفتها هذه المجموعة بصفة خاصة في منطقة آدرار بموريتانيا الحالية، وإن كان بعضها متناثرا في نقاط مختلفة من صحراء الملثمين، ولقد ظلت أصولهم محل غموض كبير، لتضارب الروايات المحلية حولها، فأصبحوا من منظور تلك الروايات رمزا للمجهول، حيث أن سكان المنطقة يعيدون كل الآثار التي لا تعود إلى الزنوج أو العرب إلى البافور[421]، بل إن أصحاب تلك الروايات جعلوا من تسمية البافور مدلولا يشيرون من خلاله إلى سكان شمال غرب الصحراء القدماء الذين لا يعرفون عنهم شيئا[422]، وإذا كانت الروايات المحلية مختلفة، بل ومتناقضة في عرضها للمعلومات القليلة المتعلقة بالبافور، فإنها تجمع على أنهم لم يكونوا زنوجا، وإن كانت قد ظلت عاجزة عن تحديد الجنس البشري الذي ينتمون إليه، مكتفية بتحديد لون بشرتهم، الذي يتأرجح ما بين البياض والحمرة[423].

وعلى الرغم من ذلك، فإن بعض المؤرخين المعاصرين يرون أن البافور عبارة عن مجموعة سودانية اعتبروها من بقايا السكان الزنوج الذين يعتقدون أنهم كانوا يعمرون الصحراء وجبال الأطلس، وأن معظمهم هاجر منذ القديم باتجاه الجنوب تحت وطأة الجفاف والتصحر، ومن بين الباحثين الذين يرون هذا الرأي، الأستاذ جوزيف كي زربو[424] الذي يعتقد- من دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن براهين يستند إليها- أن البافور هم أسلاف لشعوب سودانية مثل الماندي والتوكولير والولوف والسرير، ثم إنه يظهرهم في موضع آخر من كتابه[425] باعتبارهم مولدين نتجوا عن الاختلاط بين الزنوج والبربر المتهودين.

وإذا ما رجعنا إلى المصادر العربية الوسيطة والإشارات التي توفرها حول هذا الموضوع، فإن الإدريسي[426] يتحدث عن أقوام لم يصرح بتسميتهم، وإنما أضافهم إلى البلاد التي كانوا يسكنونها، فسماهم "أهل بلاد قمنورية وقال عنهم: "... وأهل بلاد قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود وفى معتقدهم تشويش..."، وأما ما يتعلق بتحديده لموقع بلادهم ومواصفاتها، فإنه يذكر أنها تبعد مسيرة ستة عشر يوما عن سلى وتكرور، اللتين كانتا تقعان على الضفة اليسرى لنهر السنغال من جهة، ومن جهة أخرى ذكر أنها كانت مجاورة لصحراء "نيسر" التي كان المسافرون يعبرونها إلى أودغست وغانه[427]، كما ذكر أن بهذه الأرض جبل

---

[419] R. MAUNY: Tableau, op. cit., p. 454.

[420] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

[421] PUIGADEAU: Les grandes foires des dattes -Adrar mauritanien, Librairie Plon, Paris, 1936, p. 156.

[422] R. MAUNY: Tableau, op. cit., p. 458.

[423] Ibid, p. 457.

[424] - KI-ZERBO (Joseph): Histoire de l'Afrique noire d'hier demain ،Hatier ،Paris ،1972 , p. 107

[425] Ki – zerbo, op. cit. p. 106

[426] الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص. 86.

[427] نفس المصدر، ص: 87.

سماه "جبل مانان"، نعتقد أنه هو نفسه جبل لمتونة عند البكري، وهو الجبل الذي أطلق عليه البرتغاليون في القرن16م اسم جبل البافور[428]، ويبدو أن الإدريسي لم يكن في حديثه عن بلاد قمنورية، يدون معلومات معاصرة له (القرن12م) فحسب، وإنما كان يكتب عن فترات سابقة لعهده بقرون عديدة، ويتضح ذلك في قوله "... وكانت في القديم من الزمن لأهل قمنورية مدينتان عامرتان..." ونوه بكثرتهم، فذكر أن تينك المدينتين كانتا "تحتويان على أمم من القمنورية وبشر كثير..."[429].

وقد أعطى ابن خلدون[430] أوصافا لتلك المنطقة تتطابق مع ما ذكره عنها الإدريسي، بل إنه حددها بشكل لم يترك بعده مجالا للشك في أنها هي المنطقة التى تهمنا، أما ابن عبد المنعم الحميري، فإنه هو الآخر تعرض في كتابه لأرض قمنورية، وأورد أن سكانها كانوا يهودا، وأن لمتونة الصحراء شتتوا شملهم وأفنوا معظمهم أثناء حروب خاضوها ضدهم[431]، وتكتفي مصادر عربية وسيطة أخرى، أثناء تعرضها لقيام الحركة المرابطية بالصحراء، بالحديث عن "قبائل على غير دين الإسلام" كانت تقطن قرب جبل لمتونة[432]، فهل كانت تلك المصادر تعني بعبارة "على غير دين الإسلام"، ما سبق أن ردده كتاب آخرون عن اعتناق "أهل بلاد قمنورية" للديانة اليهودية، خاصة، أننا نعتقد أن جبل لمتونة هو ذاته جبل مانان الواقع في أرض قمنورية، وهو جبل البافور الواقع في إقليم آدرار الموريتاني حاليا؟

وبصفة عامة، فإن معظم المصادر العربية التي اهتم كتابها بتدوين معلومات تتعلق بمنطقة صحراء الملثمين، تجمع على وجود مجموعة منعزلة في بلاد قمنورية أو جبل لمتونة تدين بالديانة اليهودية، وهو أمر تؤكده كتابات مؤرخي المنطقة من جهة، وكتابات البرتغاليين في القرنين 15و16م ونتائج الدراسات والبحوث التي أنجزها باحثون معاصرون من جهة أخرى.

فلقد تحدث سيدي أحمد بن حبت[433]عن معركة دارت بين جيوش المرابطين، وأقوام في مدينة كبيرة بمنطقة آدرار أطلق عليها اسم "مدينة الكلاب"، وقال إنها كانت توجد بموقع أطار حاليا فقال: "... يوم مدينة الكلاب التي هي اليوم أطار، وكانت عامرة كبيرة، فلما قدمها المسلمون خرجت إليهم الروم بكلابهم التي هي أشد منهم قتالا..."، وإذا ما تابعنا سير تلك المعركة في كتاب ابن حبت، الذي لا يخلو من الطابع الأسطوري أحيانا، فإننا نستشف أنه يعني بالروم أناسا متهودين أو يهودا، إذ يورد أن الإمام الحضرمي، وهو الزعيم الروحي للمرابطين في الصحراء بعد ابن ياسين، قد قتل أثناء تلك المعارك بعدما سددت إليه يهودية اسمها شل سهم والدها العجوز الأعمى[434].

وتجمع الروايات المحلية على أن البافور كانوا يمتلكون الكلاب ويكثرون منها، لاستخدامها في مجالات متعددة، فكانوا يستغلونها مثلا في مجال مطاردة الوحوش واصطيادها ويدربونها على ذلك، كما كانت تلك الكلاب تستخدم من طرفهم في مجال الحراسة الخ...، وبما

---

[428] Pierre Bonte, L'Emirat de l'Adrar. Esquisses historiques, Centre Recherches Inter - Africain en Archéologie, Centre Culturel Français de Saint-Exupéry, Nouakchott, 1999, p. 19 et Mauny, op. cit.، p. 237 et p. 457.

[429] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:86.

[430] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص: 96.

[431] محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ط2 مكتبة لبنان- مطابع هيد لبوغ بيروت 1984، ص: 488.

[432] ابن عذاري: ج4، مصدر سبق ذكره، ص: 12.

[433] سيدي احمد بن حبت: تأليف غير معنون يذكر في بدايته القبائل التي خرجت من مراكش إلى بلاد التكرور، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، قسم المخطوطات مسجل تحت رقم2766.

[434] نفس المصدر،

أن آزوكى الواقعة بالقرب من أطار حاليا من بين أكبر وأهم قرى البافور في المنطقة، فإنها اشتهرت باسم مدينة الكلاب، الذي يحمل دلالات مختلفة من بينها وصف سكانها من البافور بأنهم كلاب من طرف أعدائهم من الملثمين الذين كانوا يقاتلونهم خلال القرنين10و11م[435].

وإذا كانت معظم المصادر تتفق على أن البافور كانوا يهودا، فإننا لا نعرف بشكل قاطع ما إذا كانوا من بين مجموعات اليهود التي وصلت منطقة الصحراء وشمال إفريقيا خلال الألف الأخيرة قبل الميلاد، أم أنهم بربر تهودوا تحت تأثير تلك الهجرات، وتنقلوا إلى أن وصلوا تلك المنطقة، ثم إننا لا نعرف بالضبط التاريخ الذي استوطنوا خلاله المواقع التي تملؤها آثارهم حاليا.

فهل أصبح بمقدورنا الآن تحديد هوية البافور بعد سردنا لمحتوي الروايات المحلية حولهم، ورصد كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى حول أهل قمنورية، الذين تنطبق مناطق استقرارهم وصفاتهم على مواقع استقرار وصفات البافور؟، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن أولئك البافور كانوا يهودا، فهل يعني ذلك أنهم يدخلون في نطاق الهجرة اليهودية القديمة من المشرق إلى المغرب؟ أم أنهم سكان محليون تهودوا؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة بشكل نهائي أمر صعب، فالمعلومات التي توفرها المصادر حول أولئك الأقوام غامضة، وما توفر منها يتعلق بالفترة الإسلامية في الصحراء، ولا يكلف أصحابها- عادة- أنفسهم عناء تدوين المعلومات عن الفترات القديمة.

وترجع الهجرة اليهودية إلى جنوب المغرب الأقصى إلى القرن10ق.م، وقد تمت على متن السفن الفينيقية، لكن حجمها ازداد خلال الفترة ما بين القرن 6ق.م والقرن 4ق.م[436]، فخلال هذه الفترة عرفت منطقة فادن، التي يعتقد منيي أنها هي منطقة وادان (في موريتانيا حاليا)، استقرار مجموعة من أولئك المهاجرين اليهود[437]، ولقد أصر أولئك المهاجرون بعد وصولهم إلى تلك المنطقة على التقري والاستقرار، على الرغم من ظروف الصحراء التي لا تشجع على ذلك في أغلب الأحيان، مما يدل على أنهم عاشوا لفترة طويلة قبل هجرتهم في الحضر، ويكفي أن نتصور الصعوبات التي ستواجه شعوبا غير بدوية من أجل أن تصل إلى أعماق الصحراء حتى نفترض أنها هربت من اضطهاد[438]، غير أن أهم هجرة يهودية إلى الصحراء هي تلك التي وقعت بعد سنة 115م، بعد إخماد الرومان لثورة يهود برقة ضد حكمهم، مما اضطر الكثير من أولئك اليهود إلى الفرار باتجاه الغرب، واستقر الكثيرون منهم في واحات الصحراء، بل إن بعض الباحثين يعتقدون أن موجة كبيرة من أولئك اليهود المهاجرين تحت الضغط الروماني، عبرت الصحراء وأسست على نهاياتها الجنوبية مملكة غانه[439]، بينما يعتقد باحث موريتاني[440] أن البافور ليسوا سوى مجموعة من يهود وادي نون نزحت إلى آدرار خلال فترة غير محددة لكنها قديمة، ويتفق هذا الرأي مع ما ذكره البعض[441] من أن رئيس البافور كان تابعا ليهودي بوادي نون.

---

435. O. PUIGADEAU: op. cit., p. 206.

436. Jacques MEUNIE: Le Maroc saharien des origines a 1670, 2 t., Librairie KLINCKSIECK, Paris, 1982, t. 1, p. 60.

437. Ibid, p. 176.

438. MODAT: op. cit., p. 381.

439) بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص:103 و104 وكذلك:
J. MEUNIE: Le Maroc, op.cit, p. 174.

440 محمذن بن باباه: تحقيق نصوص من التاريخ الموريتاني - مرجع سبق ذكره، ص:170 الهامش262.

441. MEUNIE: le Maroc, op.cit, p. 186.

وتتشابه بعض الروايات اليهودية حول إيقاع المسلمين بهم في وادي درعة وتشتيتهم لشملهم، بعد أن قضوا على الكثير منهم، والطريقة التي تم بها ذلك[442] إلى حد كبير مع الروايات المحلية المدونة حول تاريخ آدرار - وهو الموطن القديم للبافور- خاصة فيما يتعلق بالصراع بين قريتي تفتل وكولانه اللتين تقع أطلالهما بالقرب من وادان الحالية[443]، وإذا كانت الروايتان تختلفان حول المكان الذي وقعت فيه الأحداث، فإنهما تتفقان حول الأساليب والطرق التي تمت بها المعارك والصورة التي انتهت بها.

ولا نستبعد أن يكون معظم يهود صحراء الملثمين (البافور) من السكان المحليين الذين تأثروا بالمهاجرين اليهود، فأخذوا عنهم، بالإضافة إلى الديانة اليهودية، تقنيات جديدة لم تكن المنطقة تعرفها مثل زراعة النخيل والري مثل ما وقع لغيرهم من مجموعات البربر التي اعتنقت الديانة اليهودية بعد احتكاكها باليهود القادمين من الشرق[444]، .

ويرى لويكي أن بإمكاننا التعرف على البافور من خلال القبيلة الليبية- البربرية المعروفة عند الكتاب القدماء تحت اسم البافار وكانت نشطة في المغرب الأقصى خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين، ثم إنها هاجرت إلى منطقة آدرار فجلبت إليها التقنيات الزراعية، واحتفظت باسمها (البافور)[445]، ويميز هذا الباحث بين مجموعتين من البافور على أساس لون البشرة: مجموعة بيضاء وأخرى سوداء ذكر أنها كانت تحمل اسم البرابر[446].

ويعتقد بعض الدارسين أن العلاقة بين البافور واليهود تقتصر على تأثر المجموعة الأولي بالثانية عن طريق الجوار والمصاهرة[447]، بينما تؤكد روايات أخرى حدوث هجرة يهودية إلى المنطقة من الجزيرة العربية في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنها تمت بعد فتح خيبر[448] ويورد مؤيدو هذا الرأي أن البافور هم أول من مارس زراعة النخيل بالمنطقة، وأنهم نقلوا أساليب تلك الزراعة من مصر أو شبه الجزيرة العربية[449]، ولا نستطيع استبعاد مثل هذه الروايات، لأسباب منها أن تاريخنا الإسلامي في المغرب عرف هجرات من المنطقة ذاتها، سواء تعلق الأمر بأفراد هاربين من خصومهم مثل إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة، وعبيد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، أو هجرات جماعية مثل الفاتحين العرب المسلمين والهجرة الهلالية، ولكننا لا نعتقد أن تأثير هجرة من خيبر إلى المنطقة سيكون ذا أهمية تذكر، لمحدودية أعداد الأفراد المهاجرين، إذا كانت الهجرة قد وقعت فعلا، لأننا لا نتصور أن هجرة يهودية من خيبر باتجاه المغرب ستصمت عنها كتب الفتوح والمغازي، ونميل إلى الاعتقاد بأن يهود صحراء الملثمين المعروفين باسم البافور كانوا في معظمهم بربرا متهودين من قبيلة زناتة بصفة خاصة، لأسباب عديدة نذكر من بينها:

- أن قبيلة زناتة كانت منذ القديم تعمر واحات توات وتافلالت ودرعة[450]، وهي مناطق ذات علاقة وطيدة بالمناطق الواقعة إلى الجنوب منها حتى بلاد السودان.

---

[442] سيدي محمد بن عابدين سيدي: تاريخ وادان في غابر الأزمان مخطوط، بحوزة الشيخ محمد محفوظ بن محمد الأمين- المرشد الديني بالإذاعة الوطنية- موريتانيا.

[443] نفس المصدر،

[444] بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 103.

[445] -T. LEWICKI: in Histoire générale de l'Afrique, op. cit., p. 338.
-Gabriel CAMPS: op. cit., p. 89 et p. 319.

[446] T. LEWICKI: op. cit. p. 338.

[447] O. PUIGADEAU: op. cit., p. 206.

[448] Histoire du Maroc, op. cit., p. 52.

[449] O. PUIGADEOU: op. cit., p.67.

[450] F. DELACHAPPELLE: "Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale" in Héspéris Tamuda, TXI, Rabat 1930, pp. 35 - 95. p. 51.

- أن الزناتيين عرفوا دون غيرهم من قبائل المغرب بسرعة الاختلاط والتحالف مع العناصر الأجنبية الوافدة إلى المنطقة، خاصة اليهود الذين ساكنوهم في جبال تازة وواحات الصحراء وأطراف السودان ومناطق أخرى مختلفة[451].

- أن الروايات المحلية التي دونها الفرنسيون في بداية القرن 20 م تؤيد ما نحن بصدده، إذ نقل مودا[452] عن ابن حبت أن البافور من زناتة وأنهم ينحدرون من جدهم بوفار بن شروال بن لوات!

- أن بعض الباحثين المتمرسين والعارفين بتاريخ المنطقة خلال الفترة الوسيطة لا يستبعدون كون البافور مجموعة زناتية متهودة[453].

- ثم ألا يمكننا في الأخير التفكير في أن كلمة "أوجنانا" التي أطلقت على أول موقع غرس فيه البافور أشجار النخيل ذات الثمار الحمراء[454]، يمكن أن تكون تحريفا لاسم قبيلة زناتة؟

-أهم مراكز استقرار البافور بالصحراء

يبدو أن البافور انتشروا في البداية وبشكل مركز في منطقة آدرار، حيث شملت المواقع التي استوطنوها أماكن متعددة ومتفرقة من هذه المنطقة مثل نوا ومن وآمدر وآموجار وتوجونين الكبير وتونكاد وتنوشرت ولكصيبة ونجاتو ومواقع أخرى كثيرة يصعب حصرها[455]، هذا بالإضافة إلى وجود مواقع لهم في تكانت خلال نفس الفترة مثل إن تلميت ومطماطه[456].

وكان البافور مزارعون بالدرجة الأولى، حيث يعتقد أنهم أول من أدخل غراسة النخيل إلى المنطقة، كما كانوا يزاولون نشاطا آخر هو الصيد البري، فكانوا يطاردون الوحوش بكلابهم، وعاشوا حياة ميزها الرخاء على الرغم من قساوة الطبيعة، فحفروا الآبار وبلطوها، متبعين في ذلك طريقة فريدة من نوعها[457]، وكثرت قراهم واتسعت مدنهم حتى ذكر عنهم الإدريسي نقلا عن صاحب كتاب العجائب ما نصه: "... وكانت في القديم من الزمن الأول لأهل قمنورية مدينتان عامرتان... وكانت هاتان المدينتان تحتويان على أمم من القمنورية وبشر كثير..."[458]، إلا أن تلك الوضعية تغيرت ابتداء من القرن 4هـ/10م، عندما تعرض البافور لهجمات متكررة من جيرانهم اللمتونيين والسودان، فلقد كانت المنطقة الجبلية التي استقر بها البافور تتوفر على واحات مكنتهم من ممارسة الزراعة، وبصفة خاصة زراعة النخيل مما شجعهم على الاستقرار، ثم إنهم لعبوا دورا في المبادلات التجارية عبر الصحراء، وكانت بعض الطرق الهامة تعبر أراضيهم، بل يذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك، فيرجعون تجارة الذهب واستغلال المعادن إلى الوجود اليهودي القديم في الصحراء[459]، هذا فضلا عن درايتهم بصناعة الجلود والأخشاب والمعادن وحفر الآبار[460].

---

451 Idem

452 MODAT: op. Cit, p. 378.

453 T. LEWICKI: op. cit., p. 338.

454 Charles MONTEIL:" Problèmes du soudan occidental: Juifs et Judaïsés", in Hesperis Tamuda, 19+ pp 265 – 298, p. 280.

455 Idem et O. PUIGUDEAU: op. cit., p.161.

456 MONTEIL: op. cit., p. 280.

457 O. PUIGADEAU: op. cit., p. 67.

458 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:86.

459 J. MEUNIE: le Maroc: op. cit., p. 60.

460 O. PUIGADEAU: op. cit., p. 67.

ولاشك أن وضعية كهذه تجلب لأصحابها الثراء والرخاء، بقدر ما تجلب لهم من العداء، في منطقة صحراوية يعيش معظم سكانها على تربية الحيوانات التي كثيرا ما كانت تتعرض لنكسات إثر سنوات الجفاف المتعاقبة، وما يترتب عنها من ضعف وندرة للمراعي بل انعدامها في بعض الأحيان في أجزاء من الصحراء، الأمر الذي يؤدي إلى تأجيج الحروب لتعويض الخسائر والتخفيف من تأثير الجفاف، فيكون المستقرون الهدف الأول والسهل الذي يوجه إليه البدو حملاتهم.

- محنة البافور وتشتتهم في الصحراء والسودان

من المعروف أن اللمتونيين قد دخلوا في حروب مع البافور لم تحفظ لنا الروايات الشفوية منها سوى تلك التي قادها ابوبكر بن عمر أحد أشهر زعماء المرابطين[461]، وانتهت تلك الحروب بهزيمة البافور وتشتيتهم في الصحراء، وإخضاع معظمهم، فأصبحوا في عداد المجموعات التابعة، ولعل إشارات الإدريسي[462] في معرض حديثه عن قمنورية تصور بشكل كاف الواقع الذي آل إليه أمرهم، وذلك في قوله:"... وكانت بأرض قمنورية مدن للسودان[463] مشهورة وقواعد مذكورة فطلبها لمتونة الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض حتى أفنوا أكثر أهلها وقطعوا دابرهم وبددوا شملهم على البلاد..."[464].

ولاشك أن رغبة لمتونة في السيطرة على المنطقة وسكانها من بين الحوافز الأساسية المحركة لها في حروبها الأولى ضد البافور (أهل بلاد قمنورية)، ثم ازدادت تلك الرغبة بعد الصحوة الدينية التي عرفتها الصحراء ولم يعد الملثمون بقيادة لمتونة يقبلون بوجود مجموعة غير مسلمة في صحرائهم، ويمكن أن نبرز في هذا الإطار مدى مساهمة التكامل بين المصادر العربية الوسيطة والروايات المحلية المتعلقة بالمنطقة في الكشف عن ملابسات تلك المرحلة، إذ يذكر البكري أن يانوا ابن عمر، زعيم لمتونة، هو الذي أسس مدينة آركي (آزوكي)[465]، بينما تجمع الروايات المحلية التي دونها الفرنسيون في بداية القرن 20 م على أن آزوكى كانت من أهم مدن البافور في آدرار، إن لم تكن عاصمتهم، وأنها كانت تعرف بـ"مدينة الكلاب"[466]، لكن تلك الروايات تورد أن آزوكى تم فتحها من طرف أبى بكر بن عمر وليس أحدا آخر[467].

فهل يمكننا إذن أن نقصر إشارة البكري السالفة الذكر على أن لمتونة تمكنوا فقط من خدش جدار مقاومة البافور المنيع في أواخر القرن10م أو بداية القرن11م، ثم اكتفوا بتلك الخطوة، لأنهم كانوا وقتها مشغولين بدفعهم للخطر الذي كانت تشكله عليهم غانة وحلفاؤها من الزناتيين، فبنوا حصنا بالقرب من عاصمة البافور، ليتمكنوا من مراقبتهم بدقة إلى أن تسمح لهم الفرصة بمهاجمتهم، فحمل ذلك الحصن نفس الاسم الذي كانت تحمله عاصمة البافور القريبة منه، ربما لأن ذلك الاسم كان يشمل المنطقة وضواحيها؟.

[461] Lieutenant REVOL:"Etude sur les fractions d'Imraguen de la Côte mauritanienne", B.C.E.H.S. de l'A.O.F.، t; XX، janvier - juin n! 1-2, 1937, pp. 178 - 231.

[462] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:87.

[463] لا يعني الإدريسي بعبارة "مدن للسودان"، أن أهل بلاد قمنورية كانوا من جنس السودانيين، لأن الإدريسي وغيره من الكتاب المسلمين في العصر الوسيط لم يكونوا في الغالب يميزون بين الأجناس البشرية على أساس اللون، وإنما كان معيارهم الرئيسي النسب، ومما يدل على ذلك أن الإدريسي أطلق اسم السودان على مجموعة من البربر وعلل ذلك بقوله: "... وأهل بغامه سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رحالة..." الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص: 43.

[464] نفس المصدر السابق، ص: 87.

[465] سيدي احمد بن حبت: مصدر سبق ذكره

[466] O. PUIGADEAU: op. cit., p. 207., MONTEIL: op. cit., p. 278. et R. MAUNY: op. cit., p. 457.

[467] سيدي احمد بن حبت: مصدر سبق ذكره،

هذا ما نعتقده ، خاصة أن البكري كان واضحا عندما وصف آركي (آزوكي) بأنه حصن في قوله: "وهنالك حصن يسمى آركي حوله عشرون ألف نخلة كان بناه يانوا بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر..."[468]، ومن المعروف أن وظيفة الحصون عسكرية، وهو ما يعزز ما ذهبنا إليه، كما نعتقد أن أعداد النخيل الكثيرة التي أفاد الكاتب أنها كانت تحيط بذلك الحصن لم تتم غراستها من طرف اللمتونيين عند ما بنوه هنالك، وإنما تعود إلى سكان آزوكى من البافور، وذلك لأسباب نذكر من بينها:

- أن لمتونه - أصحاب الحصن- لم يكونوا يعرفون الزراعة وتقنياتها، فقد قال عنهم البكري نفسه: "... وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن..."[469] ، وذلك على العكس من البافور الذين تميزوا بكونهم شعبا مستقرا يتخذ من الزراعة بشكل عام وغراسة النخيل بشكل خاص نشاطه الأساسي.

- أن المختار بن حامدن[470] يرى أن حصن آزوكي ليس هو مدينة آزوكي المشهورة، وإن كان لم يحدد لنا موقع أي منهما.

ومهما يكن من أمر، فإننا نعتقد أن بناء ذلك الحصن، مهد الطريق أمام جيوش لمتونة بقيادة أبي بكر بن عمر للاستيلاء على عاصمة البافور، ومن بعدها على بقية أراضيهم، إلا أننا مع ذلك، لا نعرف بالتحديد التاريخ الذي دارت أثناءه تلك الوقائع، ففي الوقت الذي تحدث فيه ابن عذاري عن حروب دارت في نفس المنطقة بين المرابطين في مبتدئ أمرهم وسكان الجبل المجاور للمتونة وذكر أن نصف جيش المرابطين ذهب ضحيتها وإن كانت قد انتهت بانتصارهم[471]، فإن روايات أخرى تؤكد على أن ذلك تم بقيادة أبي بكر بن عمر وصحبة الإمام الحضرمي[472] دفين الموقع، ولا يمكن أن تكون الحروب التي تحدث عنها ابن عذاري قد تمت بقيادة أبى بكر بن عمر، لأن أخاه يحيى كان وقتها حيا، ومما يؤيد ذلك أن الروايات التي تحدثت عن حروب أبي بكر بن عمر مع سكان آدرار تؤكد أنه كان قادما من الشمال[473].

إننا نعتقد أن حروبا عديدة قد شنت على البافور من طرف اللمتونيين قبل وأثناء وبعد قيام الحركة المرابطية، وأن تلك الحروب التي سبقت عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء من المغرب، قد أضعفت البافور وألجأتهم إلى التحصن في الجبال، لكنها لم تقض عليهم أو تخضعهم بشكل نهائي، وقد أشار الإدريسي أثناء حديثه عنهم إلى كثرة تعرضهم للحروب المتتالية في قوله: "... وتوالت عليهم الحروب والغارات من جميع الجهات فقلوا في تلك الأرض وفروا عنها واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحاري..."[474]، ولقد أدت بهم هذه الوضعية إلى قبول التبعية لملك يهود وادي نون[475] بعد أن كانت سلطة زعيمهم تشمل مناطق من جنوب المغرب الأقصى[476].

ولقد بدأ أبوبكر بن عمر أثناء عودته من المغرب إلى الصحراء بيهود وادي نون فشتت شملهم وقتل ملكهم، وقد تكون تلك الخطوة جزءا من خطة رسمها تهدف إلى قطع المدد عن

---

468 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:167.
469 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.
470 ابن حامدن: حياة موريتانيا، الجزء السياسي، سبق ذكره، ص:32.
471 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 12.
472 ابن حبت: سبق ذكره،
473 نفس المصدر،
474 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87.
475 MONTEIL: op. cit., p. 278.
476 F. DELACHAPELLE، op. Cit, p.53

يهود آدرار (البافور)، الذين يبدو أنهم علموا بما أوقعه أبوبكر بإخوانهم في الشمال وزحفه إليهم، فحصنوا قراهم وشددوا عليها الحراسة بواسطة كلابهم المدربة، واتخذوا من أعلى قمة في أرضهم برجا لمراقبة تحركات الداخلين إلى بلادهم، واتفقوا على جملة من الإشارات تمكن قراهم من الاستعداد والتعبئة في أسرع وقت ممكن لمواجهة الخطر، ومن بين تلك الإشارات إشعال النار فوق قمم الجبال لتراها القرى المتقاربة[477]، وهذه الطريقة ظلت مستخدمة في تلك المنطقة خلال الفترات اللاحقة[478].

وتورد الروايات المحلية أنهم أنذروا بواسطة تلك الطريقة مجموعة قراهم، عندما أبصرت امرأة منهم كانت تراقب من أعلى الجبل المطل على آزوكى جيشا قادما من الشمال، وتضيف هذه الروايات أن تلك المرأة كانت تتوفر على "خاصية سحرية تمكنها من أن ترى المسافر الجاد في السير وهو على بعد يومين"، ويعتقد البعض أن الأمر غير مستحيل لأن ارتفاع الجبل الذي كان يتخذ للمراقبة كان يفوق قامة الإنسان مائة مرة، ثم إن الكثبان الرملية كانت أقل مما هي عليه في الوقت الحاضر ولم تكن تشكل عائقا أمام امتداد الرؤية بعيدا[479]، ولم يكن الجيش الزاحف من الشمال سوى جيش المرابطين بقيادة أبي بكر بن عمر، الذي دخل في معارك عنيفة ضد البافور انتهت بهزيمتهم وتشتيتهم وذوبان بعضهم في القبائل الصنهاجية التي أصبحوا تابعين لها.

وبما أن اتجاه جيش المرابطين كان من الشمال إلى الجنوب، فإن بعض فلول البافور المنهزمة فرت باتجاه الشرق فدخلت المجابات الكبرى (صحراء وعرة)، في حين اتجه آخرون إلى الغرب واستقروا على شواطئ المحيط الأطلسي، بينما اتجهت مجموعة ثالثة إلى الجنوب حتى وصلت نهر السنغال وعبره بعضها[480] واستقر على ضفته الجنوبية، ولقد تكيفت مجموعات البافور بسرعة مع البيئات الجديدة، على الرغم من أن معظم مناطق استقرارها الجديدة لم تكن تتوفر على إمكانات من المياه والتربة الصالحة لإقامة النشاط الزراعي الذي عهدوه، مع ما قاسوه من المصاعب في سبيل التكيف مع هذا الواقع الجديد الذي أشارت إليه المصادر الوسيطة "فلم ينج من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحاري وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان وهم في نكد من ضيق الحال..."[481].

ويبدو أن المجموعة التي فرت إلى الشرق ودخلت في الصحراء انسابت جنوبا حتى وصلت منطقة الحوض[482] ويمكن اعتبار مجموعة "انمادي" من بقاياها، إذ يفترض أن أجدادهم كانوا من بين الفارين أمام جيش المرابطين وأنهم احتموا بالصحاري القاحلة، وابقوا على بعض التقاليد التي ميزت البافور في المنطقة، ومن أهمها امتلاكهم لأعداد كبيرة من الكلاب يعتقد أنها كانت تلعب نفس الأدوار التي كانت كلاب البافور تقوم بها ثم تم توجيهها وتركيزها فيما بعد لخدمة الحياة المعيشية اليومية لتلك المجموعة التي أكرهتها الظروف على العيش في بيئة لا تصلح لزرع ولا لضرع، فاستفادت من كلابها في مجال الصيد البري، كما كانوا يتخذون من جلودها لباسا خلال فصل الشتاء، لذا فإن أعداد الكلاب التي كان يمتلكها الفرد منهم كانت تعتبر مقياسا لمدى ثرائه[483].

---

[477] O. PUIGADEAU: op. Cit, p. 217.
[478] F. DELACHAPPELLE: op. cit., p. 38 et O. PUIGADEAU: op. cit. p. 107.
[479] O. PUIGADEAU: op. cit., p. 207
[480] REVOL: op. cit., p. 183.
[481] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87.
[482] J. KI- ZERBO: op. cit., p. 107.
[483] Pierre LAFORGUE: Une fraction non musulmane en Mauritanie saharienne: LES NEMADI, extrait du B.C.E.H.S. de l'A.O.F., Librairie Larose, Paris V, 1927, p. 5 et p. 7.

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك أدلة تمكننا من الجزم بأن مجموعة "انمادي" كانت متمسكة بالديانة اليهودية، التي كان البافور يعتنقونها، فإن البعض، وحسب معايناته ومقابلاته في بداية هذا القرن 20 م يرى أن علاقات "انمادي" بالإسلام كانت سطحية، وأن معتقداتهم كانت متأثرة إلى حد كبير بالعبادات الشرقية القديمة، خصوصا الديانة المصرية واليهودية[484]، وهذا الأمر يكفي لربطهم بالبافور، الذين كانت تنطبق عليهم نفس الصفات، كما أن انمادي كانوا يستخدمون اللهجة الزناتية للتفاهم فيما بينهم إن هم أرادوا إخفاء كلامهم عن الغير، وانطلاقا مما سبق يمكننا اعتبارهم من بقايا مجموعة قمنورية (البافور) التي ذكر الكتاب أنها فرت إلى الصحاري واحتمت بها خوفا من اللمتونيين[485].

ويكاد واقع "انمادي" ينطبق على مجموعة أخرى من صيادي الأسماك تعرف بـ"إيمراكن"، إذ يرى بعض الدارسين أنها اضطرت إلى ممارسة الصيد البحري، بعد أن فرت أمام الغزو المرابطي، وأن ظروف الخوف أجبرتها على الانزواء في المنطقة الساحلية التي لا توفر من ظروف العيش سوى ذلك النشاط، ومن الغريب أن البكري الذي أعطانا تصورا عن توزيع الملثمين في الصحراء خلال القرن11م، لم يشر إلى تلك المجموعة، وإنما ذكر أن كدالة كانوا يجاورون البحر وليس بينه وبينهم احد، فهل يعني ذلك أن تلك المجموعة لم تكن قد استقرت في هذه المنطقة إبان تدوين البكري لمعلوماته حول الصحراء والتي يبدو أن آخرها تم تدوينه سنة 1068م، وهو تاريخ معاصر للحروب التي دارت بين المرابطين والبافور بعد عودة أبي بكر بن عمر سنة 1062م؟ أم أن ذلك الكاتب لم تكن لديه معرفة مفصلة حول توزيع السكان في المنطقة، وهو أمر محتمل، إذا ما وضعنا في الحسبان أنه كان يعتمد على مصادر سابقة للقرن11م، وبالتالي سابقة للفترة الزمنية التي استقرت أثناءها هذه المجموعة في المنطقة الساحلية، أما الروايات التي كان يتلقاها من التجار والمسافرين إلى المنطقة، فإن المعلومات التي توفرها لم تكن تتجاوز كثيرا حدود المناطق الواقعة على طول الطرق التي كانوا يستخدمونها، فلم يكن بوسعهم التعرف إلا على المجموعات التي كان مجالها الجغرافي يقع على طول تلك الطرق أو محاذيا لها، الأمر الذي لم يكن مناسبا لمجموعة البافور التي لاشك أنها اختارت بعد انهزامها وفرارها مواقع استقرارها الجديدة على أساس أنها تمثل "حصنا طبيعيا" يحميها من عيون أعدائها، وعلى ذلك الأساس يمكن اعتبار إيمراكن من بقايا قمنورية (البافور) التي ذكر الإدريسي أنها فرت إلى الساحل الأطلسي وأن أفرادها كانوا يعيشون على صيد الأسماك وأنهم في "نكد من العيش وضيق الحال"[486].

وبالإضافة إلى انمادي وإيمراكن، فإن مجموعة أخرى من البافور الذين فروا أمام المرابطين باتجاه الجنوب استقرت على الضفة اليمنى لنهر السنغال وظلت متميزة حتى القرن17م[487]، في حين عبر بعضها الآخر ذلك النهر واستقر إلى الجنوب منه.

وبصفة عامة فإن غالبية البافور قد انصهرت كغيرها من الأقليات القبلية والقومية في الصحراء في المجتمع الصنهاجي خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، فأصبحت تدخل ضمن النسيج الاجتماعي للملثمين وتخضع لسلطتهم السياسية.

---

484 Idem

485 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87، والحميري: مصدر سبق ذكره، ص:488.

486 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:87.

487 اليدالي: مصدر سبق ذكره، ص: 170.

الفصل الثالث: المجتمع والسلطة في صحراء الملثمين من القرن8م وحتى نهاية القرن11م.

من الطبيعي أن تكون للظروف الطبيعية وتأثيراتها على الأوضاع الاقتصادية انعكاسات واضحة وآثار بارزة على المجتمع في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، من حيث البنية والعادات والتقاليد، كما كان للتنظيم الاجتماعي بدوره انعكاس على الوضعية السياسية التي سادت تلك المنطقة خلال الفترة المذكورة، فما هي إذن مميزات مجتمع الملثمين ؟ وكيف كانت سمات التنظيم السياسي الذي ساده خلال الفترة المدروسة ؟

I - المجتمع في صحراء الملثمين:

ليس المجتمع الذي كان قائما في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط إلا استمرارا لمجتمعات مختلفة تعاقبت في هذه المنطقة عبر الحقب التاريخية المختلفة، وكانت مستويات تطورها متباينة تبعا لخصوصيات الفترة التي عايشها كل مجتمع من تلك المجتمعات، وانطلاقا من ذلك ، فإن المجتمع الذي كان قائما في صحراء الملثمين خلال الفترة مابين القرن8م، ونهاية القرن 11م ، كان كأي مجتمع آخر نتاجا للبيئة التي نشأ فيها وتطور وفرضت عليه التقيد بالنظم والعادات المناسبة لها، كما فعلت فيه التطورات التاريخية التي مرت بها المنطقة مثل الهجرات المتتالية ، وما انجر عنها من حروب وإعادة توازن ، ودور المؤثرات الأخرى الناتجة عن علاقاته مع جيرانه في الشمال والجنوب، والتي كانت عبر التاريخ علاقات تأثير وتأثر.

وهكذا فإن مجتمع الملثمين، لم يكن مقتصرا في تكوينه السلالي على الملثمين فحسب، على الرغم من هيمنتهم العددية والسياسية، وهيمنة قيمهم على بقيته، وإنما اشتمل على أقليات مختلفة توافدت على الصحراء خلال فترات مختلفة من المناطق المجاورة لكنها اندمجت في النهاية في هذا المجتمع، وأصبح تمييزها عن الملثمين الأقحاح أمرا صعبا، إن لم يكن مستحيلا في بعض الأحيان، ويعتبر ذلك الاندماج من بين أهم العوامل التي تفسر تقاطع الملثمين مع بعض المجتمعات الأخرى المجاورة في العادات والتقاليد، وحتى في التركيبة التراتبية لفئات المجتمع، ومع ذلك، فإن هذا المجتمع ظل متميزا عن سواه من المجتمعات الأخرى، نتيجة للتطور الداخلي الذي عرفه من جهة، ولتأثير النطاق الجغرافي المتميز على سلوكياته ونمط حياته من جهة أخرى، فما ذا إذن عن التركيبة الاجتماعية التي كانت تسود مجتمع الملثمين؟ ثم كيف كان نمط حياته؟ وما هي أهم العادات والتقاليد التي كانت تميزه خلال الفترة المدروسة؟

1 - التركيبة الاجتماعية:

تعتبر البداوة من أهم السمات التي ميزت مجتمع الملثمين عن المجتمعات المحيطة به، وذلك نظرا لأن البيئة لم تكن تسمح للسكان في معظم مناطق الصحراء بحياة مستقرة، لندرة المياه واستحالة ممارسة الأنشطة الزراعية في أغلب الأحيان، مما جعل أغلبية السكان تضطر إلى تغيير مناطق إقامتها من حين لآخر بحثا عن الماء والمرعي من أجل تنمية الثروة الحيوانية، التي كانت تربيتها تمثل النشاط الأساس بالنسبة لهم، وفي بيئة كهذه تتميز بمحدودية الموارد، وما يترتب عن ذلك من عدم الاستقرار والأمن، فإن الفرد كان ملزما بأن يرتبط بجماعة متعاضدة لمواجهة الظروف الطبيعية القاسية من جهة وغارات السلب والنهب التي قد يتعرض لها من طرف الأفراد أو المجموعات الأخرى من جهة ثانية، وكانت تلك الجماعات المتضامنة تنشأ وتتطور أولا على أساس النسب المشترك، وهو ما يعرف في عرف المجتمعات البدوية بالقبيلة.

والقبيلة هي عبارة عن شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي عرفته مجتمعات عديدة، من بينها على وجه الخصوص مجتمعات شمال إفريقيا[488]، التي يعتبر الملثمون جزءا منها من الناحيتين الاتنية والحضارية، وفى هذا الصدد يقول ابن خلدون[489]: "... وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لحمة النسب أقرب وأشد، فتكون عصبته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره.."، وهكذا، فإن معظم قبائل الملثمين، كانت تعتقد أنها ترجع في نسبها إلى جد واحد مشترك، فلمتونة تنحدر من لمت وكداله من جدال ومسوفة من مسطوف[490]، بل إن قبائل صنهاجة كلها وتتجاوز سبعين قبيلة، كانت تعتقد بوحدة نسبها وأن جدها المشترك هو صنهاج الذي رفعه بعض النسابة إلى حمير[491].

ويرى بعض الدارسين أن وحدة النسب يمكن تعويضها بوسائل أخرى تساعد مكونات القبيلة على الانسجام فيما بينها وتوحدها، وأن من بينها وحدة الطوطم[492]، ولم يبتعد ابن خلدون[493] كثيرا عن هذا الرأي، عندما ناقش مشكلة النسب، فأورد أن أهميته إنما تكمن وراء الفوائد التي تجنيها منه المجموعة التي تدعى نسبا مشتركا، وأن ذلك الادعاء ليس صحيحا بالضرورة، ويقول في هذا المضمار: "... بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة، وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له...".

وهنالك حالات تندمج بموجبها عائلات أو عشائر أو حتى قبيلة بمجملها في قبيلة أخرى، لأسباب متعددة، منها على سبيل المثال لا الحصر، انهزام المجموعة المندمجة في الحرب أمام قبيلة أقوى منها، فيؤدي ذلك إلى سبي أفرادها وإلحاقهم بالقبيلة المنتصرة، حيث يتم الاتفاق بعد الهزيمة على الخضوع السياسي (الانضواء تحت اسم القبيلة المنتصرة) ودفع الإتاوات، كما قد يكون تدهور الأحوال الاقتصادية من أسباب ذوبان قبيلة في أخرى أو تبعيتها لها[494]، وقد تنبه ابن خلدون[495] إلى ذلك فقال: "... اعلم أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بنزوع إليهم أو حلف أو ولاء، أو لفرار من قومه بخيانة أصابها، فيدعى نسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال، وإذا ما وجدت ثمرات النسب، فكأنه وجد..."، وفى هذا المجال نجد مثلا أن مجموعة قمنورية تم إلحاق معظمها كأتباع لمختلف القبائل الصنهاجية الصحراوية، وبوجه خاص لمتونة، حيث يقول الإدريسي[496] متحدثا

---

[488] على صدقي "النسب والتاريخ وابن خلدون" مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، العدد11 السنة 1985، ص. ص:47-84.

[489] المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 174.

[490] الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:17

[491] نشوان بن سعيد الحميري: ملوك حمير وأقيال اليمن تحقيق: إسماعيل بن أحمد الجرافي وعلي بن إسماعيل المؤيد، دار الكلمة - صنعاء، دار العودة- بيروت ، 1978 . ص 72وكذلك ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:119و120 العبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:26 و192 إلخ...

[492] على صدقي: مرجع سبق ذكره، ص: 60.

[493] ابن خلدون: المقدمة- مصدر سبق ذكره، ص:174.

[494] سهيره عبد العزيز محمد يوسف: الاستمرار والتغير في البناء الاجتماعي في البادية العربية، دار المعارف، القاهرة 1991، ص:37.

[495] المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 176.

[496] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 87.

عن تلك المجموعة ما نصه: "...وتوالت عليهم الغارات من جميع الجهات، فقلوا في تلك الأرض وفروا منها، واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحاري ودخلوا في ذمة من جاورهم وتستروا في أكنافهم، فلم يبق من أهل قمنورية إلا أقوام قلائل متفرقون في تلك الصحارى وبمقربة من الساحل..."، كما كانت هنالك قبائل صنهاجية ضعيفة مثل بني وارث وكزولة الخ... وكانت كل واحدة منها تعيش في ظل حماية إحدى القبائل الصنهاجية الكبرى مثل كدالة ولمتونة ومسوفه[497].

وبصفة عامة، فإن المهتمين بهذا الموضوع من كتاب الفترة الوسيطة يميزون في هذا الصدد بين المدن والبوادي، ويرون أن أهل الأمصار كانوا أكثر عرضة للامتزاج وضياع النسب من البدو[498]، وسواء كانت وحدة نسب القبيلة حقيقة أو أسطورة، فإنها كانت خلال الفترة الوسيطة أساسا يرتكز عليه المجتمع في صحراء الملثمين، حيث كانت أهم قبائل صنهاجة الجنوب تتقاسم هذا الجزء من الصحراء، فكانت ديار كدالة محاذية للمحيط الأطلسي، ولمتونة في الوسط ومسوفة في الشرق، هذا فضلا عن القبائل الصنهاجية التي كان لها وجود في مناطق ضيقة ومتفرقة[499]، ونعتقد أن كل واحدة منها كانت تحت حماية قبيلة من القبائل الثلاث الكبرى الأنفة الذكر، وكانت كل قبيلة تتكون من عدة عشائر، وكل عشيرة تنقسم إلى بطون متعددة، ويتفرع البطن إلى أفخاذ، والفخذ إلى أسر[500]، وكان مفهوم الأسرة في الصحراء متسعا حيث كان يشمل الآباء والأبناء وأبناء العم والعبيد[501].

ومنطلق القبيلة في صحراء الملثمين كغيرها من المجتمعات القبلية الأخرى[502]، هو العائلة، إذ كان حلم الفرد فيها يتمثل في أن يكون والد أبناء كثيرين ينجبون بدورهم أبناء آخرين، فيكون رئيسا لعشيرة صغيرة، يمكنه أن يوسعها في حالة ما إذا تمكن من جذب أسر أخرى عن طريق القرابة الدموية، أو بتوفيره الحماية لها، وشيئا فشيئا تتضخم العشيرة ويحتفظ أبناء الجد المؤسس لها بالزعامة، وتكون أغلبيتها من مجموعات أخرى قد لا تربط بينها علاقة دموية[503]، وإذا كان الفرد في الصحراء ملزما أخلاقيا وعرفيا بالإخلاص لقبيلته، فإن هذه الأخيرة كانت متكفلة بالدفاع عن جميع أفرادها، إذ يمكن أن تدخل القبيلة بكامل فروعها في حرب مدمرة نتيجة لتصرف طائش لفرد واحد من أبنائها[504].

وتعتبر القبيلة في صحراء الملثمين مسؤولة عن حماية أفرادها الذين لا يعيشون بين ظهرانيها في حالة تعرضهم لسوء من قبيلة أخرى[505]، إذ تعتبر أن إهانة أفرادها مخلة بشرفها،

---

497 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:120.

498 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 175و176.

499 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

500 سهيره: مرجع سبق ذكره، ص: 37.

501 سعد خليل: تكوين موريتانيا الحديثة، 2ج أطروحة دكتوراه في التاريخ، تحت إشراف د. صلاح العقاد، مرقونة على الآلة الكاتبة، جامعة القاهرة 1977، ج1، ص:93.

502 سهيره: مرجع سبق ذكره، ص:36.

503 سعد خليل: مرجع سبق ذكره، ص: 92.

504 سهيره: مرجع سبق ذكره، ص: 37.

505 Abdel Wedoud OULD CHE KH: Nomadisme Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI-XIXè s) Essai sur quelques aspects du tribalisme
Thèse de doctorat(Sociologie) 3t Paris V 1985; t.2 p: 471

ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون[506] عند ما كتب يقول: "... وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر، إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك..."، ومما ساعد القبيلة في الصحراء على التعاضد وقوى بين مكوناتها النعرة، أن ملكية المرافق العامة كانت جماعية ولم تكن فردية، وبالتالي كان المساس بها يعتبر تهديدا لمصالح كافة أفراد القبيلة، فكانت ملكية المجال خاصة بالقبيلة وتوجد به مراعيها وآبارها، ولا يمكنها أن تتجاوزه إلى منطقة نفوذ قبيلة أخرى إلا بإذن منها أو تكون قد عرضت نفسها للحرب[507] ولم يكن لفرد أو عائلة الحق في امتلاك مرعى أو بئر أو سد الخ...

وبما أن القبيلة تتشكل في البداية على أساس الدم، فإن معيار الشرف فيها يخضع للنسب أساسا، وهو أمر كان شائعا بين قبائل صنهاجة الجنوب قبل انتشار الإسلام في الصحراء، إذ لم يكن للدين دور في المفاضلة بين الفئات أو الافراد[508]، وكانت كل قبيلة مكونة من عدة فئات اجتماعية متباينة من حيث الأدوار التي تلعبها كل واحدة منها في المجتمع، ومن حيث المكانة الاجتماعية، وما يترتب عن ذلك من امتيازات في النظام الاجتماعي القبلي، ومثلما كانت هنالك قبائل أكثر عزا وأعلى مكانة في مجتمع الملثمين من قبائل أخرى[509] كانت هنالك أيضا مجموعات أضفى عليها نسبها أو حسبها مكانة وشرفا جعلاها تتعالى على المجموعات الأقل حظا في هذا المجال، وبذلك فإن المجتمع في صحراء الملثمين كان خلال العصر الوسيط هرميا توجد على قمته مجموعة من الأرستقراطيين، وفي أسفل هذا الهرم فئة العبيد.

- التراتب الهرمي لفئات مجتمع الملثمين:

كانت القبيلة في صحراء الملثمين تنقسم من الناحية الاجتماعية إلى عدة فئات، لكل واحدة منها مهامها ومكانتها في السلم التراتبي للمجتمع الصحراوي الذي كان ينظر إلى تلك الفئات بنوع من التكافؤ فيما بين القبائل التي ترى أنها في منزلة اجتماعية واحدة، من حيث النسب والحسب، وفى هذه الحالة فإن الأشخاص كان ينظر إليهم انطلاقا من المكانة الاجتماعية التي يحظون بها داخل الفئة التي ينتمون إليها في قبائلهم، ويعاملون على ذلك الأساس من طرف القبائل الأخرى.

وكانت الفئة التي تتصدر المجتمع من حيث المنزلة و الإمتيازات في كافة القبائل الصحراوية تتكون من الأشراف، الذين يتفاوتون بدورهم حسب قربهم أو بعدهم من الجد الأعلى للقبيلة من ناحية، أو حسب ما يبدونه من شجاعة وفاعلية أثناء الحروب الهادفة إلى الذود عن القبيلة وممتلكاتها، في الوقت الذي كانت قاعدة هذا التنظيم مكونة من مجموعات مسترقة[510]، ويمكننا في مثل هذه الدراسة التمييز بين فترتين زمنيتين من تاريخ صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، كانت كل واحدة منهما تختلف عن الأخرى من حيث التنظيم الاجتماعي، خاصة فيما يتعلق بالفئات وتراتبها، وهما: الفترة السابقة لترسيخ الإسلام في المنطقة، وهي

[506] المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 174.
[507] النويري: مصدر سبق ذكره، ص:378.
[508] ناعمي مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص: 45.
[509] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.
[510] OULD CHEIKH: op. cit, p: 460

الفترة الممتدة ما بين القرن الثامن الميلادي والثلث الأول من القرن11م، أما الفترة الأخرى فتتميز بإدخال القيم الإسلامية إلى المجتمع، وهي الفترة التي طبعها تأثير الحركة المرابطية على البنية الاجتماعية في الصحراء.

أ - المجتمع خلال الفترة الأولى:

ليست لدينا معلومات مفصلة عن الترتيب الهرمي للمجتمع في صحراء الملثمين قبل قيام الحركة المرابطية، وإن كانت المصادر لم تصمت بشكل تام عن هذه المسألة، إذ أشار بعضها إلى تمايز واضح بين فئات المجتمع خلال تلك الفترة[511]، ومع ذلك فإن بعض الباحثين يذهبون إلى حد فرز الفئات الاجتماعية، فيذكرون أن المجتمع الصنهاجي كان مقسما إلى فئتين أساسيتين[512] هما:

فئة السادة الذين كانوا يعرفون في اللغة الصنهاجية بـ"إيماجيقان" أو أمازيغ، ويتمثل دورهم في احتكار القيادة على المستويين السياسي والعسكري، وتتشكل منهم مجالس القبائل، وتتلخص مهمتها في رسم السياسة العامة للقبيلة وتحديد مواقفها من القضايا المطروحة انطلاقا من مصالح أو أهواء أولئك السادة، ومن دون الرجوع إلى الأغلبية لاستشارتها في الأمور العامة، كما كانوا يحتكرون الأنشطة التجارية المربحة، إلا أنهم كانوا مقابل ذلك يقومون بخدمات هامة تنحصر عادة في محيطهم القبلي، من بينها على وجه الخصوص توفير الحماية لأفراد القبيلة والتعرض دونهم وأموالهم بحد السلاح.

أما الفئة الأخرى فتطلق عليها الدكتورة دندش[513] اسم الرقيق، وتذكر أن أفرادها كانوا يتميزون عن العبيد بأنهم لم يكونوا يخضعون لعمليات البيع أو الشراء أو العتق، وإن كانت ملكيتهم تنتقل من فرد إلى آخر عن طريق الإرث، وكانت هذه الفئة تتميز عن العبيد أيضا- حسب الباحثة ذاتها- بأنها تتوفر على حق الملكية الخاصة عكس العبيد، وإن كانت أموال أفرادها تؤول إلى السادة عن طريق الإرث عند موت أحدهم، وتتمثل واجبات هذه الفئة في المشاركة في الدفاع عن أراضي وشرف القبيلة تحت قيادة السادة، كما كانت تلبي حاجيات القبيلة من الأعمال اليدوية، ويقدم أفرادها إتاوات سنوية لسادتهم.

ومع احترامنا لهذا التقسيم، الذي لاشك أنه يعتمد على مصادر قيمة، لم نتمكن حتى الآن من التوصل إليها، فإننا نعتقد أن اقتصاره على فئتين فقط هما السادة والأرقاء يخولنا مشروعية التساؤل عن بعض الفئات الأخرى، التي كانت حاضرة ومتميزة في البناء الهرمي لمجتمع الملثمين الوسيط، أي أنها لم تكن تدخل لا في إطار السادة ولا الأرقاء، مثل فئات: الأحرار من غير السادة والحرفيين والعبيد.

ومع أننا سنحاول إبراز النسيج الاجتماعي كما كان قائما قبل نهاية الثلث الأول من القرن11م، بالاعتماد على ما وفرته لنا المصادر العربية الوسيطة التي تعرضت للموضوع، فإننا نعتقد أن مجتمع الصحراء كان خلال الفترة المذكورة، مبنيا على أساس ما تمليه ظروفه الداخلية بتفاعلاتها فيما بينها من جهة، ومع إطارها الجغرافي وعلاقته بمحيطه الخارجي من

---

[511] أبو عبيد البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

[512] عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-515هـ/1038--1121م، مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص. 34.

[513] دندش: المرجع السابق، ص: 34.

جهة أخرى، وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي أن تتصدر السلم الاجتماعي في الصحراء فئة المحاربين، في محيط يشكو من ندرة المراعي وموارد العيش ونقاط المياه، وتتصارع فيه المجموعات البشرية على النزر اليسير المتوفر منها، ولا تحتكم في الغالب إلا إلى القوة.

ولم يكن الدور العسكري لهذه الفئة يقتصر على حماية ممتلكات القبيلة، والحفاظ على مكانتها الاجتماعية بين القبائل الأخرى والذود عن شرفها، وإنما كان يتجاوز هذه الحدود إلى ممارسة أعمال النهب المنظمة، ومن المعتقد أن للظروف المناخية دورا هاما في ذيوع ظاهرة النهب والسلب في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، ذلك أن تذبذب التساقطات الذي يعتبر من بين أهم خصائص مناخ الصحراء، يؤدي في أغلب الأحيان إلى حدوث عدم توازن بين المناطق، إذ يحدث أن تتالي سنوات من القحط في بعض أجزاء الصحراء، في الوقت الذي تعرف فيه أجزاء أخرى من نفس المنطقة سنوات خصبة، فتنعكس هذه الوضعية المناخية على الناحية الاقتصادية المرتبطة بحياة الناس، مما يؤدي إلى اختلال التوازن المرتبط بتوزيع الثروة بين سكان المنطقة، وتتمثل ابرز ملامحه في هلاك مواشي الناحية المنكوبة، فيتحول سكانها من قبيلة أو عشيرة غنية إلى مجموعة فقيرة، الأمر الذي ربما لا يؤثر على مستواها المادي بين القبائل الأخرى وإنما أيضا على موقعها الاجتماعي والأدوار التي كانت تلعبها في المنطقة، ويهدد بأن تصبح قبيلة لاجئة فتتفرق عشائرها بين القبائل لتصبح في عداد الأتباع، فتصبح الوسيلة الوحيدة المتاحة لها لاستعادة ثرائها في أقصر وقت ممكن قبل أن تعمل فيها انعكاسات الجفاف والفقر، هي استخدام العنف وتنظيم الغارات على المناطق التي لم يؤثر فيها انحباس الأمطار أو لم تعرفه وظلت تحتفظ بأعداد هامة من المواشي، وتشارك مختلف فئات القبيلة في مثل هذه المغامرات التي قد تؤدي إلى نتائج عكسية، إلا أن مخططي الغارات وقادتها يكونون من فئة السادة، ونفس الشيء بالنسبة للقبيلة المغار عليها، إذ تتولى نفس الفئة فيها مهمة التخطيط للتصدي أو الثأر وقيادة العمليات العسكرية.

هذا إذن هو ما يبرر وجود هذه الفئة في قمة الهرم منذ فترة قد تكون سابقة للقرن8م، إذ يذكر ابن رشد (الفقيه) الذي كان يكتب خلال النصف الأول من القرن 6هـ في جواب على سؤال يستفتيه فيه شخص عن مدى جواز قبول هدية من الإبل من أمير المسلمين (علي بن يوسف)، لأن أصل هذا المال- حسب السائل- مأخوذ من مرابطي الصحراء الذين تعودوا على غارات السلب والنهب منذ عهود قديمة[514]، ولم يقتصر النهب على المواشي، بل إن البكري أشار إلى وجود جماعات من الصنهاجيين كانت تمارس نهب القوافل، وكانت تترصّدها في مناطق المرور الإجبارية، مثل نقاط المياه والممرات الضيقة[515].

ولقد جنت فئة السادة من هيمنتها تلك ثمرات عديدة، حيث كانت من أكثر فئات المجتمع ثراء وترفا، إذ يذكر ابن حوقل[516] أن أخت الملك تينبروتان بن اسفيشر كانت تملك 15000 رأس من الإبل، فإذا كانت هذه الأعداد الهائلة من الإبل تمثل ثروة امرأة واحدة من هذه الفئة، فما بالنا بالثروات التي كان يملكها الرجال من الإبل والأموال التي كانت الثروات الباطنية في منطقتهم تدرها عليهم، إذ يذكر لنا القزويني[517] أن عبيد مسوفة كانوا يتولون استخراج وبيع الملح في سبخة تغازة الواقعة في منطقة نفوذ مسوفة، وأن أولئك العبيد كانوا يكتفون بما يسد

---

514 المعيار، مصدر سبق ذكره، ج9، ص:542.
515 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
516 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 97-98.
517 القزويني: مصدر سبق ذكره، ص:26

حاجاتهم اليومية من أثمان الملح ويحتفظون بالباقي لسادتهم، كما ذكر ابن حوقل[518] أنه شاهد صكا لأحد تجار سجلماسة يطالب فيه تاجرا من أودغست بمبلغ 42000 دينار، وهو رقم خيالي خلال تلك الفترة، يدل على ثراء الدائن والمدين، وأضاف أنه عندما حدث أهل العراق وفارس بهذا الصك استغربوا أن يكون بمقدور فرد أن يمتلك هذا القدر من المال.

وهذه الفئة المحاربة التي اصطلح على تسميتها بالسادة، كانت دائما ذات نسب مشترك، حيث تؤدي شجرات نسب كل فرد منها إلى الجد المؤسس للقبيلة، إذ لم تكن فرصة الارتقاء إلى مكانة صريحي النسب من القبيلة متاحة للمجموعات الأخرى التي انضوت تحت اسم القبيلة بسبب الموالاة أو عن طريق القوة، وإن كانت تتفاضل حسب الخصال الحميدة التي كان الفرد يتوفر عليها ويكتسبها، فترفع مكانته في منظور الجماعة، وتتمثل في الشجاعة و الكرم وخدمة الجماعة.

و من بين العوامل التي كانت تساهم في الرفع من مكانة الفرد مقابل أقرانه، ما يوجد في سلسلة نسبه من آباء اشتهروا بالمحافظة على القيم السالفة الذكر، فكلما كان عددهم أكثر يكون ذلك لصالحه حتى تصل الشجرة إلى الجد الأعلى للقبيلة، وقد تميزت فئة السادة باختلاف نمط حياتها عن غيرها من فئات المجتمع الأخرى بما كانت تتوفر عليه من وسائل الرفاهية[519].

أما الفئة الموالية من حيث الترتيب فهي العامة[520]، وهي فئة مكونة من الأحرار الخاضعين لحماية السادة، ومعظم أفرادها لا يرتبطون عادة بعمود النسب الموصل إلى الجد المؤسس للقبيلة، وإنما ينتمون إليها بواسطة الحلف أو الاحتماء بها من القبائل الأخرى، أو الانضواء تحت لوائها بسبب كوارث ألمت بهم أفقدتهم القدرة على الاستقلالية أو بالقوة بعد الهزيمة[521]، وقد ينتمي إلى هذه الفئة أفراد أو عائلات من صميم القبيلة انحطت مكانتهم في السلم الاجتماعي إلى مستوى أدنى من مكانة بني عمومتهم نتيجة لأخطاء كبرى ارتكبوها أو ارتكبها آباؤهم أو أجدادهم، خاصة إذا كانت تلك الأخطاء تعتبر مخلة بالشرف في عرف الجماعة، وكانت هذه الفئة تؤدي المغارم إلى فئة السادة وظلت كذلك حتى قيام حركة المرابطين الذين قاموا "بدعوة الحق ورد المظالم ورفع المغارم"[522].

وإذا كانت المصادر العربية الوسيطة لم تورد معلومات صريحة عن فئات أخرى كان لها دور هام في مجتمع الملثمين خلال تلك الفترة، من بينها على الخصوص فئة الصناع، فإن بعض الإشارات التي وفرتها تلك المصادر، بالإضافة إلى الروايات المحلية المدونة خلال القرنين19 و20م تساعدنا على تحديد إجمالي للمكانة التي كانت تلك المجموعة المهنية تحظى بها في ذلك المجتمع، والدور الذي كانت تضطلع به، فلقد أشار البكري[523] إلى أن الذهب كان يصفى من الشوائب في أودغست، ويتم تحويله من دقيق إلى خيوط مفتولة أو سبائك صغيرة تمهيدا لنقله عبر الصحراء إلى الأسواق في شمال إفريقيا، ويضيف أن براعة القائمين على هذه العملية، جعلت ذهب أودغست أجود ذهب في العالم آنذاك، وقد تمكنت البعثات الأثرية التي

---

518 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 96.

519 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.

520 نفس المصدر، ص: 158.

521 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 176. وسهيرة: مرجع سبق ذكره، ص:37 ، والرسالة الغلاوية، ص: 61.

522 البيان المغرب: مصدر سبق ذكره، ج4،ص: 11.

523 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.

أخضعت أطلال أودغست للدراسة من تحديد حي من تلك المدينة اعتبرته حيا صناعيا[524]، وكانت هنالك صناعة مرتبطة بالتجارة أيضا وبالميدان العسكري هي ما عرف خلال ذلك العصر بـ "الدرق اللمطية" التي هي عبارة عن تروس من الجلد كانت مطلوبة في الغرب الإسلامي لجودتها وخصائصها وما كانت توفره للمقاتل من حماية، وكانت مدينة كوكدم في صحراء الملثمين من أهم المناطق المشهورة بهذه الصناعة الجلدية[525].

لقد سمحت الإشارات التي وفرتها المصادر العربية الوسيطة بتحديد صناعات كانت قائمة في صحراء الملثمين، لكنها لم توفر الدليل القاطع على أن القائمين عليها كانوا يمثلون فئة متميزة وشبه مغلقة، مثل ما كان عليه الحال في المجتمع الصحراوي الحديث والمجتمع الموريتاني الحالي، ومع ذلك فإن البعض يعتقد أن البافور كانوا يمدون المجتمع الصنهاجي قبل اندماجهم فيه بحاجياته في هذا الميدان، ثم إن بعضهم امتهن الصناعة بعد إخضاعه من طرف قبائل الملثمين وتشرذمهم بينها كفئات تابعة، وأصبح أبناؤهم يتوارثون المهنة خلفا عن سلف[526]، وعلى العموم يمكن القول إن هذه الفئة وفرت لمجتمع الملثمين خلال تلك الفترات الاكتفاء الذاتي في مجال اختصاصها وأن صناعاتها تميزت في تلك الفترة بقدر كبير من الجودة وشملت مختلف متطلبات حياة سكان المنطقة[527].

أما الفئة الأخيرة من فئات المجتمع المعروفة، فتتمثل في فئة العبيد، الذين كانت أعدادهم خلال تلك الفترة هامة في صحراء الملثمين، خاصة في المدن، حيث ذكرت بعض المصادر نقلا عن مصادر كتبت في القرن 10م، أن سكان مدينة أودغست كانوا أثرياء، وأن الواحد منهم كان يمتلك ألف خادم وأكثر[528]، وكان معظم أولئك العبيد يجلب من بلاد السودان، حيث كانت الممالك السودانية مثل غانة وتكرور تحصل عليهم عن طريق الحروب التي كانت تشنها على الجماعات السودانية غير الخاضعة لها والموجودة آنذاك في السافانا، ثم تتولى بيعهم للملثمين وغيرهم من تجار شمال إفريقيا،[529]، ويتم دمجهم في القبيلة التي يمتلكهم أفرادها بعد استقرارهم في الصحراء، ، وشيئا فشيئا، وجيلا بعد جيل، يتعود أولئك العبيد على نمط الحياة في الصحراء، وتصبح العادات والتقاليد السائدة بها جزءا من حياتهم، ويتركون لهجاتهم الأصلية لصالح اللهجة المنطوقة في الصحراء، وباختصار فإنهم يصبحون أفرادا من القبيلة التي يعيشون فيها، على الرغم من اختلافهم عن سادتهم من حيث الأصل العرقي، وهو أمر يميز القبيلة في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، حيث كانت فئاتها الاجتماعية في غالب الأحيان، تختلف عن بعضها البعض من حيث الأصول السلالية، ابتداء من السادة، ومرورا بالأتباع والصناع والحراطين، فالعبيد[530]، وكانت رغبة الصحراويين في امتلاك أكبر عدد ممكن من العبيد كبيرة، إذ كانت كثرة أعدادهم لدى فرد ما تشير إلى سمو مكانته الاجتماعية، كما كانوا يستخدمون في مجالات اقتصادية متعددة، مثل الطبخ الذي اشتهرت سودانيات أودغست بتفوقهن في صناعته

---

[524]TEGDAOUST, op. cit, p

[525] القزويني: مصدرسبق ذكره، ص:58

[526] Ch. MONTEIL, op.cit, p. 286

[527] سعدون عباس نصر عبد الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس- عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين- دار النهضة العربية للطباعة والنشر -بيروت1985، ص15و16.

[528] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.

[529] أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية- تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، د.ت، ص:126.

[530]R. MAUNY: Tableau Géographique,: op.cit, p. 456.

خلال القرن10م، مما جعل أثمانمن ترتفع إلى 100 دينار[531]، هذا فضلا عن استخدام أفراد تلك الفئة في نشاطات عضلية أخرى، كالبستنة والرعي وجذب المياه من الآبار ذات العمق الطويل الخ...، وينبغي أن نميز قبل اسكتمال الحديث عن هذه الفئة بين العبيد والحراطين، فإذا كان العبيد- كما سبق أن أشرنا إلى ذلك- عبارة عن مجموعات ذات أصول سودانية في أغلب الحالات، فإن بعض الدارسين يرون أن الحراطين هم مجموعة سلالية متميزة عن السودانيين، وتعتبر من بقايا سكان الصحراء القدماء[532].

ولا تسمح لنا مصادرنا المكتوبة بافتراض وجود فئة المطربين خلال تلك الفترة، وكل ما تشير إليه تلك المصادر في هذا المجال هو عداء المرابطين للموسيقى، وتكسيرهم لآلاتها أثناء فتوحاتهم في المغرب مع أنهم كانوا يستخدمون الطبول في المجال العسكري وكانت أصواتها رمزا لجيوشهم[533].

ب- **المجتمع في الصحراء خلال الفترة الثانية (المرابطية):**

كان لقيام الحركة المرابطية تأثيرات عميقة على الأوضاع العامة في صحراء الملثمين، حيث تمكنت تلك الحركة من تغيير الأوضاع العامة في المنطقة لتتلاءم مع أهدافها الدينية والسياسية، إلا أن تأثيرها على الناحية الاجتماعية لم يقوض البناء الاجتماعي الذي كان قائما بشكل كامل، وإن كان قد أحدث عليه تغييرات يتمثل أهمها في استحداث فئة جديدة تهتم بالشؤون الدينية، وإعطاء بعض الفئات مهام وأدوارا جديدة، حيث أصبحت مهمة فئة السادة المحاربين مثلا تتمثل في الجهاد لنشر الدين الإسلامي بدلا من اقتصارها في السابق على الذود عن القبيلة وشن غارات النهب على القبائل الأخرى والمجموعات المعادية.

ولقد احتفظت الذاكرة الجماعية لسكان الصحراء بذكريات تتعلق ببدايات تشكل المجتمع المرابطي، وأعادت هيكلته إلى أحد الزعماء البارزين في الحركة المرابطية هو أبوبكر بن عمر اللمتوني، الذي يعتبر حسب تلك الروايات أول من رتب فئات المجتمع وأعطى لكل فئة منها وظيفة تقوم بها في خدمة المصلحة العامة، ويمكن أن نلمس تلك الذكريات في كتابات العلماء الشناقطة الذين كتبوا خلال القرنين 18و19م، حيث تحدث ابن حبت مثلا[534] عن هذه المسألة فقال في معرض سرده لوقائع جهاد أبي بكر بن عمر ما نصه: "... ثم ارتحل قاصدا جبل تكانت حتى نزل بالبطحاء المتدلية من جانب الجبل الغربي وعلمها الآن بطحة السلاطين، وعلى الجبل ملوك كنكارة، وحاصرهم حتى مات رئيسهم آدار فوق الحقف وأصبح علم المكان الآن عليه آدار، فانهزموا إلى البحر واسترقهم وقسم السبي والمال وجعل الجيش ثلاث طوائف واحدة من العرب للجهاد، والثانية من الزوايا تتعلم وتعلم الناس العلم، وترزقان من بيت المال الذي هو الخمس في الغنيمة، والثالثة تعنى بالقيام بأمور المواشي والحرث والغرس..."، ويذكر محمد امبارك اللمتوني[535] تقسيم أبي بكر بن عمر لسكان الصحراء إلى فئات مختلفة، فيعدد تلك الفئات ويشير إلى أن تسمياتها ووظائفها لا علاقة لها بالنسب، وإنما كان المراد منها تحقيق الاكتفاء الذاتي للمجتمع في مجالات اهتماماته خلال ذلك العصر عن طريق تقسيمه إلى مجموعات على

---

[531] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

[532] G. CAMPS, op.cit, p.69-70

[533] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:139و 142.

[534] ابن حبت: مصدر سبق ذكره، ص:6.

[535] محمد امبارك اللمتوني: مصدر سبق ذكره، ص: 2-1.

أساس وظيفي، ويضيف أن ذلك مطابق لتعاليم الشريعة الإسلامية، ويقول في حديثه عن أبي بكر بن عمر ما نصه:

وقسم الجيش على أوضاع تليق بالشرع وبالسماع
فبعضهم أخذ للدفاع وبعضهم أخذ للشراع
وبعضهم قد ذكر الحدادا وذكر الطراز و الصيادا
وللأموال أخذت طوائف والكل ليس بأصل يا عارف

و يفيد المختار بن حامدن[536] أن مجتمع المرابطين كان ينقسم إلى فئات هي: المجاهدون والزوايا كفئة عليا ، والأتباع (اللحمة) ، بالإضافة إلى الفئات الحرفية (الصناع، الصيادون الخ...) ، والعبيد ، ويضيف أن العامل الأساسي وراء ظهور هذه الفئات هو متطلبات البيئة الصحراوية ، حيث تم قياس البناء الاجتماعي على عملية نسج مكونات الخيمة الصحراوية ، المصنوعة أصلا من الصوف.

وإذا كنا لا نشك في تأثير الحركة المرابطية في البناء الهرمي لمجتمع الملثمين، فإننا لا نبتعد كثيرا عن الرأي القائل بأن حركة المرابطين هي التي رسمت استراتيجية سياسية وأيديولوجية أدت إلى إعادة تقسيم وتنظيم المجتمع الصحراوي، وأن التغير الذي حدث في بنية المجتمع الصحراوي ليس ناتجا عن قرار صادر عن فرد مهما كانت مكانته آنذاك وإنما حدث بشكل تدريجي تحت تأثير المستجدات الثقافية والسياسية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة بعد قيام دولة المرابطين، ويرى أصحاب هذا الرأي أن العلاقة بين حملة السلاح والفئة المتعلمة في مجتمع الصحراء استمدت من العلاقة التي كانت تربط بين ابن ياسين وغيره من مرشدي المرابطين بالمجاهدين والقادة العسكريين خلال المرحلة الأولى من قيام الحركة[537].

ويمكننا استحضار ترتيب الفئات الاجتماعية في الصحراء خلال المرحلة المرابطية على الشكل التالي:

ـ فئة الأشراف أو السادة: و تتكون من مجموعتين تمارس كل واحدة منهما مهمة مقدسة في نظر المجتمع لارتباط خدماتهما بالجانب الديني، وهاتان المجموعتان كانتا تمثلان الفئة الأرستقراطية وتتشكلان من المجاهدين والفقهاء، وبالتالي فإن الدور الموكل إليهما واحد في نظر المجتمع وإن اختلفت وسائله، ويتمثل في نشر الإسلام بالسيف أو بالموعظة والتفقيه في أمور الدين، وتعود جذور العلاقة بين طرفي هذه الفئة إلى التأسي بالعلاقة النموذجية التي ربطت بين عبد الله بن ياسين وزعماء الملثمين مثل يحيى بن إبراهيم ويحيى وأبو بكر ابني عمر.

ولا يعني هذا التقسيم أن اهتمام المجاهد كان مقتصرا على المجال العسكري وأنه لم يكن يهتم بالعلم والمعرفة أو أن مجموعة المتعلمين والفقهاء كانت غائبة بشكل تام عن الميدان العسكري، بل إن المصادر تذكر أشخاصا كانوا يزاوجون بين المهمتين حيث يحملون السيف بيد والقلم باليد الأخرى، من الأمثلة عليهم لمتاد بن نفير اللمتوني الذي كتب عنه القاضي عياض[538] ما نصه: "... كان من عبادهم وفقهائهم وهو الذي تولى قتل مسعود بن راقودي الزناتي صاحب

---

[536] Mokhtar OULD HAMIDOUN: Précis sur la Mauritanie, Centre de l'IFAN- Mauritanie, Saint-Louis, Sénégal, 1952, p. 37

[537] محمد المختار ولد السعد: حرب شرببه أو أزمة الجنوب الغربي الموريتاني خلال القرن17م: المعهد الموريتاني للبحث العلمي- نواكشوط، 1993، ص:27.

[538] أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك 3 مجلدات: منشورات مكتبة الحياة (بيروت) ودار مكتبة الفكر (طرابلس الغرب) 1967، المجلد2، ص: 780.

سجلماسة عند قيام المرابطين وغزوهم إياهم والمثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء وتعظيم أمرها إلى الآن".

وعلى الرغم من ذلك فإن مجموعة المجاهدين هي نفس الفئة التي كانت تعرف في مجتمع الملثمين قبل تجذر الإسلام فيه باسم "إيماجيقان" أو السادة، وكانت مهمتها تتمثل في الذود عن حرمة القبيلة وقيادة غارات السلب والنهب التي كانت تستهدف القبائل أو المجموعات الأخرى أو التصدي لرد غارات قبيلة أخرى ، ولم يطرأ على هذه الفئة سوى أنها حولت قدراتها وخبراتها في الميدان العسكري من خدمة الأهداف السالفة الذكر إلى هدف جديد هو الجهاد في سبيل الله ، مع أنها ظلت محتفظة لنفسها بامتيازاتها وبعض خصائصها السابقة لقيام حركة المرابطين حيث ظلت تحتكر السلطة السياسية وقيادة الجيوش[539].

أما المجموعة الجديدة المتمثلة في المتعلمين فإنها أخذت بزمام السلطة الروحية و أصبحت تؤثر بشكل غير على القرار السياسي[540]، ومن الطبيعي أن تكون النواة الأولى لهذه المجموعة مكونة في معظمها من أفراد غير صحراويين لحداثة عهد الملثمين وقتها بالإسلام وتعاليمه ، وربما تكون غرابة الجيل الأول من هذه المجموعة على المجتمع وعدم استناد أفراده إلى إحدى المجموعات القبلية الكبرى بالمنطقة هي السبب في استئثار المجموعة المحاربة "المجاهدين" بالتسيير المباشر لأمور المنطقة، في حين اضطرت المجموعة الأخرى إلى الاحتماء بالدين لتمارس من خلاله سلطتها وتتسلق بواسطته إلى قمة الهرم الاجتماعي.

هكذا إذن يمكن أن نفهم في هذا السياق بالذات، المكانة البارزة التي احتلها عبد الله بن ياسين وغيره من الفقهاء الذين تم استجلابهم من الشمال للتبرك بهم من واتخاذهم أساتذة ينشرون المعارف الإسلامية بين صفوف الملثمين مثل أبي بكر المرادي الحضرمي وعبد الرحمن الركاز وإبراهيم الأموي الخ...[541] ولا يعني ذلك أن الصحراء كانت خالية من الفقهاء قبل قدوم هذه المجموعة مع أبي بكر بن عمر بعد عودته من المغرب، فلقد تحدثت المصادر عن فقهاء ملثمين عارضوا عبد الله بن ياسين، وثاروا ضده، لأنهم اكتشفوا تناقضا في الأحكام الشرعية التي كان يصدرها[542]، ونذكر من بينهم الجوهر بن سكم، كما أن بعض الملثمين استفادوا من انقيادهم لابن ياسين في بداية أمره، أثناء إقامته في أحياء كدالة، حيث اجتمع حوله نحو سبعين فردا يتعلمون وبقوا حوله مدة طويلة من الزمن[543]، ثم إنه قام بتكوين مجموعة أخرى منهم أثناء المرابطة[544]، هذا فضلا عن الجماعات التي درست العلوم الشرعية على يد الفقهاء الذين ذكرناهم، ونشرتها في الصحراء وبلاد السودان.

---

539 الناصري: مصدر سبق ذكره، ج2، ص:23
540 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 8 و11 و13 الخ....
541 محمد بن أبي مدين : كتاب المنيحة. مطبعة المعهد الجديد، الرباط، د.ت، ص:71.
542 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.
543 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:8.
544 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 125.

وقد احتكر أفراد مجموعة المهتمين بالعلم لأنفسهم اسم "المرابطين"، ويعرف الواحد منهم حتى الآن بـ "المرابط"[545] وهو لقب لا يطلق إلا على أبناء هذه المجموعة، مما يدل على أنها كانت غائبة عن تركبة المجتمع الصحراوي قبل قيام حركة المرابطين.

أما فئة الأتباع في المجتمع المرابطي، فيمكن التمييز بين مجموعاتها المتعددة التي نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر "اللحمة" التي يذكر ابن حامدن[546] أن اسمها مستعار من الوبر الذي يجعل بين الخيوط أثناء نسيج الخيمة، وبالتالي تكون هي التي يعتمد عليها المجاهدون والمتعلمون في المجال المادي وأمور المعاش، وعلى كل حال، ولا يختلف موقعها في المجتمع المرابطي عن مكانة فئة الأتباع في المجتمع الصنهاجي السابق لتحكم الإسلام، ذلك أن مكونات هذه الفئة تنتمي - في الغالب- إلى المجموعات والقبائل التي تم إخضاعها بالقوة أو دخلت طواعية تحت حماية مجموعة أقوى منها، ولدينا في هذا الإطار مثال مجموعة البافور (قمنورية) التي دخلت في حروب كانت الأشرس من نوعها أثناء إخضاع المرابطين لها، انتهت بتشتيتها وإدخال من بقي منها في عداد أتباع المجموعات الغازية[547]، ويمكننا أن نتصور أن نفس الأمر جرى على قبائل أخرى، ويرى الأستاذ محمود إسماعيل[548] أن جماعات الملثمين التي شاركت ابن ياسين حياته الانعزالية في رباطه تميزت عن غيرها من عامة الملثمين فيما بعد وأصبحت تشكل فئة اجتماعية، وتؤيد التقاليد المروية التي تم تدوينها في الصحراء بعد قرون من سقوط دولة المرابطين هذا الرأي، إذ لم تشمل لائحة القبائل التي أوردت تلك الروايات أن أبا بكر بن عمر حصصها لتنمية المواشي وخدمة المجاهدين والعلماء أسماء القبائل التي كان لها شأن يذكر في الحركة المرابطية[549]، وستتضح هذه الخلفية بشكل أوضح في بداية عهد يوسف بن تاشفين، عندما أرسل إلى الصحراء يطالب الملثمين بالقدوم إلى المغرب، فولى أفراد القبائل الكبرى شؤون الإدارة وقيادة الجيوش، بينما اتخذ من أفراد القبائل الصغرى حشمه[550].

ويبدو أن الهوة بين فئة الأشراف والفئات التابعة في المجتمع المرابطي كانت شاسعة، فإذا ما اعتبرنا أن الحشم هم الأتباع الأحرار، فإن بعض الدارسين يعتقدون أن هذا المفهوم يحمل عند المرابطين معنى قريبا من "العبيد"، ويذكر أولئك الدارسون أن المرابطين أطلقوه على قبائل البربر في المغرب عند ما سيطروا على أراضيها[551].

وتبقى معلوماتنا عن الخدمات التي كانت فئة الأتباع تقدمها لفئة الأشراف ضئيلة، ولا تكاد تتجاوز ما سبق أن أوردناه اعتمادا على التقاليد المروية التي دونت بعد قرون من سقوط دولة المرابطين و التي تذكر أن دور هذه الفئة ينحصر في "إصلاح الأموال" وإمداد المجاهدين والمعلمين بما يحتاجونه حتى يتمكنوا من التفرغ للجهاد ونشر المعرفة، لكن يجدر بنا أن نتساءل

---

545 يبدو أن مكانة المرابط في الأندلس في عهد دولة المرابطين جعلت الصحراويين المقيمين هنالك يحرصون على إلحاق كلمة؛ "المرابط" بأسمائهم، انظر في هذا الصدد مثلا: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الملقب بابن خاقان: قلائد العقيان، تحقيق، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس 1990، ص.709.

546 OULD HAMIDOUN, Précis sur la Mauritanie, .op.cit, p. 37

547 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:87.

548 محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1 1979، ص:72.

549 ابن حبت: مصدر سبق ذكره،

550 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:33.

551 عز الدين أحمد موسي: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشرق- بيروت- القاهرة 1983، ص:116.

عمن تعود إليه ملكية الأموال التي كانت بأيديهم، أهي ملك شخصي لأفراد تلك الفئة (الأتباع)؟ وإذا كان الجواب نعم، ألا يتناقض ذلك مع ما ذكرته مصادرنا الوسيطة من أن المرابطين قاموا في بداية أمرهم بـ"رد المظالم وقطع المغارم"[552]، أم هل يمكن التفكير بأن الزكاة والغنائم كانت وقتها تدر قدرا هاما من الأموال يستدعي تجنيد أعداد كبيرة من الناس لإصلاحها قبل أن تصرفها السلطة وأن أعدادهم تزايدت في العقود الأولى من قيام الدولة المرابطية فأدى بهم الأمر إلى أن شكلوا فئة عريقة من فئات المجتمع؟

سواء كانت هذه التساؤلات واردة أو أن مشروعيتها تتطلب الاعتماد على مصادر تدعمها، فليس بوسعنا أن نفهم من دونها مغزى الأسطورة المؤسسة للمجتمع المرابطي، والتي تجعل من إصلاح الأموال وظيفة اختصت بها إحدى فئات المجتمع كما أراد لها أبو بكر بن عمر، وقد ألقت المصادر المحلية الضوء على هذا الجانب عندما ذكرت أن مصدر الأموال التي عهد الأمير إلى هذه الفئة بإصلاحها هو الجهاد، فهي إذن - حسب تلك المصادر- غنائم، إذ يقول ابن حبت[553] في معرض حديثه عن أبي بكر بن عمر: "... وجعل الجيش ثلاث طوائف، واحدة من العرب للجهاد، وأخرى زاوية تتعلم وتعلم، وترزقان من بيت المال، وطائفة لإصلاح المال الذي هو الغنيمة..."، فهل يمكننا إذن الاعتقاد بأن فئة اللحمة في المجتمع المرابطي هي ذاتها فئة الأتباع في مجتمع الملثمين السابق لمنتصف القرن11م، وأن الفارق بينهما يتمثل فقط في إعادة ترتيب الأدوار، حيث كانت في المجتمع الأول تدفع الغرامات من أموالها مقابل الحماية وأصبحت في المجتمع المرابطي تقدم جهدها من أجل تنمية أموال تم الحصول عليها من طرف الفئة التي كانت تستغلها، فيستفيد أفرادها من تلك الأموال في حياتهم اليومية ويفيدون منها سادتهم.

وإذا كان معظم أفراد فئة المجاهدين ينحدرون من فئة الأشراف في المجتمع الصنهاجي القديم ، فإن أسلوب جمعها للأموال لم يتغير من حيث الشكل على الأقل إذ أن مصدرها ظل يتمثل في الغارات، وإن كان مضمون ذلك الأسلوب ومبرره قد تغيرا، وأصبح خلال العهد المرابطي يدخل في إطار الجهاد من أجل نشر الإسلام، وبالتالي يمكننا تصور الأموال الكثيرة التي سوف يدرها ذلك الجهاد، الذي دار في منطقتي الصحراء والسودان الغربي الغنيتين بالمواشي والذهب، فضلا عما سنه عبد الله بن ياسين من أخذ ثلث أموال من دخلوا الإسلام طواعية من دون قتال تطهيرا لها، وقد بنى حكمه على أساس أن مصدر بعضها- إن لم يكن كلها- هو السلب والنهب المنافيين لتعاليم الشريعة الإسلامية[554].

وإذا سلمنا بأن الغنائم والزكوات كانت فعلا تدر أقدارا من الأموال كافية لتوظيف مجموعة بشرية كبرى مختصة بها (فئة اللحمة)، فكيف يكون مصير تلك المجموعة بعد توقف عمليات الجهاد؟، وما هو الدور الذي ستلعبه بعد تدهور النظام السياسي المرابطي في الصحراء المرتكز في بعض جوانبه على الغنيمة؟ وهل ستبقي دائرة في فلك التبعية للأشراف، وما هي حدود تلك التبعية؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات على الرغم من أهميتها قد لا تكون ملحة بالنسبة لموضوعنا الذي تنتهي حدوده الزمنية مع نهاية القرن11م، وهي الفترة ذاتها التي يعتقد أن عمليات الجهاد توقفت أثناءها، أي بعيد وفاة أبي بكر بن عمر اللمتوني، وبصفة عامة، فإن

[552] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:11.
[553] ابن حبت: مصدر سبق ذكره، ص:6.
[554] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:10.

بعض التقاليد المحلية تورد أن فئة اللحمة تحولت إلى فئة غارمة تقدم إعانات من أموالها إلى فئة الأشراف بالإضافة إلى الزكوات[555]، مثل غيرها من الفئات التابعة الأخرى كالصيادين والصناع، الخ...

أما الفئة الأخرى التي كانت تحتل قاعدة الهرم الاجتماعي المرابطي، فهي فئة العبيد، الذين كانوا موجودين في المجتمع الصحراوي قبل قيام المرابطين، وهو في ذلك مثل غيره من المجتمعات خلال العصر الوسيط التي كان أساس الإنتاج فيها قائما على الرق، ولاشك أن عمليات الجهاد ضد الوثنيين في عهد المرابطين أدت إلى تزايد أعداد هذه الفئة التابعة في صحراء الملثمين[556].

وعلى الرغم من أن المصدر الأساسي للعبيد في الصحراء كان بلاد السودان التي استهدفتها عمليات الجهاد لفترة طويلة نسبيا، فإن العبيد البيض وجدوا طريقهم إلى المنطقة ولكن على نطاق ضيق إذا ما قورن مع المصدر الآخر، حيث تذكر لنا المصادر العربية الوسيطة مثلا أن يوسف بن تاشفين قدم هدايا إلى أبي بكر بن عمر بعد تنازله له عن السلطة في المغرب الأقصى، وكان من بين تلك الهدايا جوار وخدم[557]، وكان المرابطون يحصلون علي العبيد أيضا بواسطة الشراء، مثل ما فعل يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى عندما استتب له الأمر[558].

ولم يكن تأثير المرابطين على المجتمع الصحراوي يقتصر على الجانب المتعلق بتراتب فئاته فقط، وإنما تجاوز ذلك ليشمل قضايا هامة في حياة الإنسان والمجتمع بصفة عامة تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى، ومن بين أهم تلك القضايا العادات والتقاليد، فكيف كانت أهم العادات والتقاليد في المجتمع الصحراوي، وما هو أثر قيام حركة المرابطين عليها؟

2- العادات والتقاليد:

تعتبر العادات والتقاليد التي كانت متداولة بين مجتمع الملثمين خلال الفترة الوسيطة نتاجا لتفاعل السكان مع بيئتهم وما يلزمهم من أجل التكيف معها، كما يعود بعض تلك العادات والتقاليد إلى طبيعة ذلك المجتمع الذي انصهرت فيه مجموعات مختلفة الأجناس والثقافات، ولئن كانت صنهاجة هي المهيمنة سياسيا وثقافيا، فإنها لاشك تأثرت ببعض القيم التي أمدتها بها بعض المجموعات المختلفة التي تم تذويبها في مجتمع الملثمين عن طريق القوة تارة والحماية تارة أخرى، ولعل أهم الصفات التي كانت تميز هذا المجتمع وكانت ترتبط به دون غيره من المجتمعات المجاورة له هي البداوة، وهي نظام اجتماعي عرفته مجتمعات بشرية مختلفة يحافظ كل واحد منها على خصائصه، وتتقاسم نمط الحياة الذي يفرضه عليها الوسط الطبيعي، وإذا كانت أنماط البداوة مختلفة، فإن أشهرها، هو ذلك المرتكز على الترحال سعيا وراء الماء والكلأ، ويكاد هذا النمط يكون مقصورا على المجتمعات الصحراوية[559]، ومع أن البداوة هي أول نظام اجتماعي عرفه الإنسان في مسيرته الطويلة وبحثه عن الوسائل الكفيلة بتكيفه مع

---

555 OULD HAMIDOUN, Précis sur la Mauritanie, .op.cit, p. 37

556 عز الدين احمد موسي: مرجع سبق ذكره، ص:120.

557 الحلل الموشية: مصدر سبق ذكره، ص: 28.

558 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:23.

559 سهيره: مرجع سبق ذكره، ص: 33.

الوسط الطبيعي المحيط به، فإنها لا تعتبر بشكل مطلق نمطا بدائيا من أنماط الحياة الاجتماعية للشعوب[560].

وعلى الرغم من أن معظم سكان المغرب الكبير كانوا بدوا خلال العصر الوسيط[561]، فإن الملثمين بصفة خاصة اشتهروا دون سواهم بأنهم كانوا موغلين في الصحراء معتمدين في معظم الحالات على تنمية الحيوانات، التي تتطلب التنقل والترحال، فكانوا بعيدين نسبيا عن تأثير الحضارات المتوسطية على المغرب، وفي هذا الإطار ربط ابن خلدون[562]، البداوة بالملثمين، واعتبرها طارئة عليهم، حيث اعتقد أن حلولهم بالصحراء القاحلة هو الذي فرض عليهم هذا النمط من الحياة، وما ترتب عنه من مسلكيات ساعدت الإنسان والجماعة على التكيف معه، وأعاد تاريخ تحولهم إلى الحياة البدوية إلى "دهور قبل الفتح لا يعرف أولها".

ويبدو أن سكان صحراء الملثمين كانوا يعيشون حياة مرتكزة على التنقل والترحال منذ القرن الأول من التاريخ المسيحي على أقل تقدير، الأمر الذي يسمح لنا أن نذهب إلى أن هذه الوضعية التي كانت تمثل الطابع المميز لمجتمع الملثمين خلال الفترة المدروسة قديمة في المنطقة وسابقة للعصر الوسيط[563]، وهو رأي تشجعنا المصادر العربية الوسيطة على التمسك به، وذلك عند ما تصف سكان هذه المنطقة بأنهم كانوا بدوا متنقلين خلال الفترة التي وصلت أثناءها طلائع الفتح الإسلامي إلى المغرب الأقصى، أي بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. وفي القرن 3هـ/9م تحدث عنهم اليعقوبي[564] فذكر أنهم كانوا يعيشون على تربية الإبل التي تتطلب التنقل لمسافات طويلة داخل الصحراء، إذ لم تكن المناطق المحاذية للصحراء من الشمال مواتية لتربية أعداد كثيرة من الجمال نتيجة للكثافة السكانية المرتفعة نسبيا هنالك، في حين كانت المناطق الواقعة قرب الحافة الجنوبية لها مضرة صحيا بهذا النوع من الحيوانات خاصة خلال فصل الأمطار[565].

ولم تكن الصحراء، وهي الملجأ الأساسي لملاك الإبل، تتوفر على غطاء نباتي كثيف وإنما شجيرات متناثرة وأعشاب موسمية قليلة ليس بمقدورها توفير مراع دائمة أو حتى قادرة على سد حاجيات قطعان الإبل لفترة طويلة، مما يضطر الجمالين إلى تغيير مواقع إقامتهم من وقت لآخر للحصول على مراع جديدة، وقد وصف ابن حوقل[566] الوضعية التي كان عليها بنو مسوفة خلال القرن 4هـ/10م، فذكر أن المنطقة التي كانوا يعيشون فيها كانت صحراوية وتندر فيها المياه، كما تحدث البكري خلال القرن11م[567] عن هذه المجموعة فأشار إلى أنها كانت في قلب البر ولا تعرف حياة الاستقرار وليست لديها مدينة تأوي إليها، وتحدث كذلك عن بني لمتونة فذكر أنهم "ظواعن رحالة في الصحراء".

---

560 سهيره: مرجع سبق ذكره، ص: 34و 35.
561 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 431.
562 ابن خلدون: المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص: 371.
563 Le Maroc chez les auteurs anciens, op.cit, p. 26
564 البلدان: مصدر سبق ذكره، ص: 111.
565 F. DELACHAPELLE, op. Cit. P.42
566 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.
567 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 149 و 164.

ولا يعني ذلك أن سكان الصحراء كانوا كلهم بدوا متنقلين، بل إن مصادرنا الوسيطة تحدثت عن مدن صحراوية لعبت أدوارا هامة في العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها، وكانت لا تقل أهمية من الناحية العمرانية والحضرية عن كبريات المدن في العالم الإسلامي آنذاك مثل أودغست وآزوكي وبانكلابين[568] وغيرها، ومع ذلك فإن هذه الاستثناءات لا تنفى كون الطابع المميز للملثمين كان خلال الفترة التي تهمنا هو البداوة.

وقد أكسبت البداوة سكان صحراء الملثمين خصائص ومميزات من حيث الشكل ونمط التفكير والتعامل مع الوسط الطبيعي والاجتماعي، وبمرور الزمن ارتبطت بهم تلك الصفات، فأصبحت جزءا من تكوينهم، ومن بين أهم السمات التي طبعت مجتمع الملثمين، وأصبحت جزءا من عاداته وتقاليده نذكر: الشجاعة واللثام ووضعية المرأة.

الشجاعة:

تعتبر الشجاعة من بين أهم الصفات التي تميز بالبدوي متى وأينما كان، حيث يفرضها عليه محيطه الطبيعي الذي يساهم في إثارة الصراعات الكثيرة بين الأفراد والعشائر والقبائل حول المراعي والمياه، فضلا عن عمليات السلب والنهب التي كانت شائعة الوقوع في ذلك الوسط وأشارت بعض المصادر العربية الوسيطة إلى ذيوعها بين الملثمين منذ عهود سابقة لقيام الحركة المرابطية، مثل ما ورد في سؤال وجهه أحد سكان صحراء الملثمين إلى الفقيه ابن رشد واحتفظ لنا صاحب المعيار بنصه، ولعل أهم فقرة منه في هذا المضمار هي: "وسئل من بعض مرابطي الصحراء عن مسألة غصب حلت عندهم، ونص السؤال: جواب الفقيه الأجل أدام الله توفيقه في قوم من قبائل شتى في الصحراء يتغاصبون فيما بينهم وليس لهم مال غير الماشية، وهذا الغصب المذكور فيما بينهم قديم بين آبائهم وأجدادهم، وأنهم يتوارثون ذلك المال المغصوب فيما بينهم..."[569]، ووجه سؤال مشابه إلى الفقيه محمد بن حمدين أورده نفس المصدر وقال فيه: "وسئل عن أهل الصحراء من المرابطين كان بغي بعضهم على بعض في أموالهم وأكثرها الإبل فتناتجت وتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد وذهبت تلك الإبل وبقيت نسولها..."[570].

لاشك إذن أن عمليات الغصب وما كان ينتج عنها من صراعات قد عودت الإنسان الصحراوي على الحروب وفرضت عليه خوض غمارها ذبا عن نفسه وماله، أو محاولة للتكسب والثراء السريع، هذا فضلا عن أن البدو لم تكن عندهم أسوار يحتمون بها ولا عساكر منظمة مكلفة بحفظ الأمن العام، مما يوقظ في نفوسهم اليقظة والحذر والاستعداد للدفاع عن النفس والأهل وماله، ولعل ذلك هو ما أراده ابن خلدون[571] حينما كتب يقول: "... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الفيافى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح ويلتفتون عن كل جانب في الطريق ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس وعلى

---

[568] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121. والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:158، 164، 167و 168.
[569] المعيار: مصدر سبق ذكره، ج9، ص:542.
[570] المعيار: مصدر سبق ذكره، ج9، ص:542.
[571] المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 170.

الرحال فوق الأقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية...".

وقد أشار الرحالة والكتاب خلال القرون الوسطى إلى فروسية وشجاعة الملثمين، فتحدث ابن حوقل[572] في القرن10م عن مسوفة، فوصفهم بالبسالة والجرأة والفروسية، كما تحدث البكري[573] في القرن11م عن المرابطين في بداية قيام حركتهم فقال عنهم: "... ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف..."، ولم تقتصر الشجاعة في مجتمع الملثمين على الرجال، بل كانت موجودة في النساء أيضا، إذ حفظ التاريخ لبعضهن أدورا بطولية مثل فانو بنت عمر بن يتيان التي بقيت صامدة تقاتل الموحدين حتى قتلت وقد أعجبوا بشجاعتها وتمرسها على القتال[574]، ومثل ما ذكره ابن خلكان[575] عن عامة نساء الملثمين.

مكانة المرأة في مجتمع الملثمين:

احتلت المرأة في مجتمع الملثمين مكانة ميزتها عن وضع مثيلاتها في المجتمعات الإسلامية الأخرى، فكانت تتمتع بحرية كبيرة ولعبت أدوارا خطيرة في مختلف المجالات، من بينها تلك التي تعتبر حكرا على الرجل في المجتمعات الأخرى، ففي الوقت الذي كانت فيه المرأة في معظم المجتمعات الإسلامية قابعة وراء الجدران، فإنها كانت في صحراء الملثمين تشارك الرجل في كثير من الأعمال، إذ كانت طبيعة المجتمع القائمة على الترحال وعدم الاستقرار تتطلب مشاركة الجميع في العمل ومصارعة الحياة في الصحراء، فكانت المرأة تتولي القيام بالكثير من المهام كالتخييم والأعمال المنزلية والظعن، ولقد احتفظ لنا النويري[576] باقتباس من رسالة وجهها عبد الله بن ياسين إلى وكاك بن زلوي اللمطي يذكر فيها أن النساء كن يشاركن الرجل في رعي المواشي، كما كانت المرأة تساهم في بعض الأحيان في الحروب، خاصة عند ما يتعلق الأمر بصد الغارات عن الحي أو المدينة، وأثبتت النساء الصحراويات جدارتهن في هذا المجال[577]. وبما أن المرأة كانت تشارك الرجل في مزاولة معظم الأشغال التي كانت متداولة وقتها، فإنها شاركته في امتلاك الثروة، ولعل أخت تينبروتان التي ذكر ابن حوقل[578] أنها كانت تمتلك بمفردها 15000 رأس من الإبل تمثل نموذجا لبعض النساء الصحراويات الثريات خلال تلك الفترة.

وقد ساهمت طبيعة المأوى في منع المرأة الصحراوية من العزلة التي عرفتها مثيلاتها في المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى، فكانت "الخيمة" المكان الذي يأوي إليه الكل، سواء تعلق الأمر بأفراد الأسرة أو بالضيوف، وبالتالي كانت المرأة حاضرة مع الجميع، لأن الخيمة لم

---

572 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98
573 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 166.
574 ابوبكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق: أخبار المهدي بن تومرت تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص:117.
575 أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، 8 ج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971، ج.8، ص: 129.
576 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 380.
577 ابن خلكان: مصدر سبق ذكره، ص:129.
578 بن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97

تكن مكونة من غرف، ولا توجد بداخلها حواجز تفصل بعض أجزائها عن الأخرى، وقد سمح هذا الوضع للمرأة في مجتمع الملثمين بحرية حضور الجلسات المشتركة بين النساء والرجال وكانت تستقبل الضيوف في غياب الزوج وتكرمهم مع محافظتها على شرفها وعفافها[579].

وهكذا، فإن الدور الهام الذي كانت المرأة الصنهاجية تلعبه في مجتمع الملثمين، قد مكنها من أن تحصل على أهم ومعظم الحقوق التي يتوفر عليها الرجل، ما دامت الواجبات التي تقوم بها والأعباء التي تتولاها لا تقل أهمية عن واجباته، فكانت تشارك في اتخاذ القرار المتعلق بالأمور العامة عن طريق حضورها في مجلس القبيلة[580]، كما كان تأثيرها على الرجل مهما كان مركزه قويا، وكان ذلك التأثير يتجاوز القضايا الخاصة إلى القضايا العامة، فقد كان يوسف بن تاشفين مثلا يرى أن الرأي السديد الذي كانت زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية تمده به هو الذي مكنه من الوصول إلى السلطة والانتصار على أعدائه في المعارك، لذا وصفها بعض الكتاب بأنها كانت "...امرأة غالية عليه [...] ولا كان أمر إلا أمرها..."[581]، وكانت هيمنة النساء عادة منتشرة بين الملثمين وأصيلة فيهم[582]، وانتقلت معهم هذه العادة إلى المناطق التي استولوا عليها، ففي المغرب مثلا يقول عنهم عبد الواحد المراكشي[583]: "... واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير..."، وقد وصل نفوذ المرأة في عهد المرابطين إلى الدرجة التي أصبحت فيها تقيل القضاة وتولي من شاءت منهم[584].

ويمكننا تفهم هذا النفوذ والأدوار التي كانت المرأة تلعبها في مجتمع الملثمين، إذا عرفنا أن النظام الأمومي كان سائدا بين الملثمين، ولم يتم القضاء عليه إلا بعد ترسيخ الإسلام في نفوس أفراد المجتمع، وفى هذا المجال يقول النويري[585]: "... وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه، فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان..."، وقد استمرت هذه العادة في بداية عهد المرابطين، حيث نجد أن بعض كبار قادتهم اتخذوا أسماء أمهاتهم ألقابا لهم، مثل أبي عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين الذي كان يطلق عليه لقب "ابن عائشة"، ونجد ألقابا كثيرة على هذا النحو مرتبطة بكبار قادة المرابطين كابن فاطمة وابن غانية الخ...

لقد كانت مشاركة المرأة للرجل في العمل والرأي والمشورة، تجعلها تطمح إلى التمظهر ببعض المظاهر البعيدة عن الأنوثة أحيانا كإبراز قوتها العضلية مثلا[586]، ومع ذلك كانت لدى المجتمع معاييره الخاصة لتحديد مقاييس الجمال لديه، مثل عادة تسمين المرأة

---

579 ابن الشرقي حصري، ص: 23.
580 حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص: 52.
و انظر كذلك: محمد صالح منصور: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس؛ يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف«، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1995، ص. 31.
581 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:30.
582 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 385.
583 المراكشي: المعجب. مصدر سبق ذكره، ص: 260.
584 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 384.
585 نفس المصدر، ص: 385.
586 المعيار: مصدر سبق ذكره، ج5 ص: 116-117 . البكري مصدر سبق ذكره،، ص:158.

والتغالي فيها، فقد وصف البكري[587] نساء أودغست نقلا عن الوراق فقال عنهن: "... قال محمد بن يوسف أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي شيخ من أهل الحج والخير قال أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار أودغست أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في أكثر حالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن ورأي ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها..."، كما وصف صفات نساء صنهاجة الصحراء مبينا محاسنهن وفق مقاييس ذلك العصر فقال عنهن: "... جوار حسان الوجوه، بيض الألوان، منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الأكتاف..."[588] ، وتشير المصادر إلى أن زواج نساء الملثمين من تجار المغرب الكبير كان متاحا وشائعا خاصة في المدن التجارية[589].

ولم يكن حظ المرأة في الصحراء من الثقافة قليلا، فلقد كانت قبل انتشار الإسلام بين قبائل الملثمين محل تقدير وتقديس نتيجة للعلاقات التي كانت تربطها مع الجن عن طريق التمائم والسحر! في نظر السكان الذين كانت المجوسية تسيطر على عقولهم[590]، وقد نسج المجتمع وقتها أساطير عديدة حول تلك العلاقة وما يمكن أن توفره للمرأة من قدرات خارقة، والحدود التي يمكن للمرأة أن تفيد بها المجتمع من خلالها، ومن بين تلك الأساطير مثلا، المرأة التي كان بمقدورها رؤية تحركات العدو وهو على مسافة عدة أيام من السير، وإخبار ذويها بذلك لكي يستعدوا قبل أن يباغتهم الخ...[591]وأصبحت المرأة بعد انتشار الإسلام بين الملثمين وقيام دولة المرابطين، تنهل من مصادر الثقافة العربية الإسلامية، بل إن بعض النساء تجاوزن مرحلة التعلم إلى الإبداع، مثل حواء بنت تاشفين وهي زوج القائد سير بن أبي بكر، التي وصفها ابن عذاري[592] بأنها كانت "... أديبة شاعرة جليلة ماهرة...".

ولعل أبرز مميزات المرأة الصحراوية خلال الفترة المدروسة هي ظاهرة السفور التي كانت تميزها[593]على الرغم من أن الرجال كانوا يتلثمون ولا يخرج من وجوههم سوى أعينهم، فما هي الأسرار الكامنة وراء لثام الرجال وسفور المرأة في مجتمع الملثمين خلال العصر الوسيط؟

عادة اللثام:

تميز سكان صحراء الملثمين بارتداء اللثام أو النقاب الذي كان يعرف في لغتهم بـ" أكلموز"[594]، وهو ثوب يكسو الوجه كله سوى العينين، وارتبطوا به ولم يكونوا يفارقونه في الليل ولا النهار، ولا حتى حين يخلدون إلى الراحة بين ذويهم، لذا أصبح صفة لهم تميزهم عن

---

587 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.
588 نفس المصدر، ص: 158.
589 المعيار: مصدر سبق ذكره، ج5 ص: 116-117 . البكري مصدر سبق ذكره،، ص:158.
590 ابن الشرقي حصري أحمد: ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1986. ص:24.
591 O. PUIGADEAU, op. Cit. P. 206.
592 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص: ج4، ص:57.
593 د. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ 3ج، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، ص: 218.
594 ابن الشرقي حصري: مرجع سبق ذكره، ص: 24.

غيرهم عند كتاب الفترة الوسيطة الذين اهتموا بالمنطقة، حيث تناولوا عادة ارتداء اللثام في كتاباتهم وحاولوا إيجاد تفسيرات كافية لها وتبرير حرص الصحراويين على ملازمة اللثام، واختلف أولئك الكتاب وتضاربت أقوالهم حول هذا الموضوع، وإن كان بعضهم اكتفى بوصف الظاهرة من دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن أسبابها، مع استغرابه لها، لذلك فإننا سنبدأ بوصف أولئك الكتاب للثام والملثمين ثم نتعرض بعد ذلك للروايات التي حاولت إعادته إلى سبب معين أو مجموعة من الأسباب.

ولعل اليعقوبي الذي كان يكتب في أواخر القرن 3هـ/9م عن مجموعة أنبية هو أقدم من تعرض للثام، ممن وصلتنا كتاباتهم، فذكر أن أنبية من صنهاجة، وأنها كانت تقطن المنطقة الفاصلة بين سجلماسة وبلاد السودان ووصف رجال تلك المجموعة الصنهاجية بقوله: "... شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم..."[595]، ويتضح من خلال شهادته تلك، أن ظاهرة اللثام سابقة لعهده (القرن9م)، إذ وصفها بأنها "سنة فيهم"، مما يعني أنها متوارثة وغير مبتدعة في عهد قريب بالنسبة له.

وفى القرن10م لاحظ رحالة آخر ادعى أنه زار المنطقة هو ابن حوقل، هذه الظاهرة فكتب عن بني مسوفة يقول: "... ولم تر لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتلثمون وهم أطفال وينشأون على ذلك..."[596]، أما البكري الذي كان يكتب خلال القرن11م، فقد وصف التزام صنهاجة الصحراء باللثام في قوله: "... وفى قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم..."[597]، ويقول عنهم ابن خلكان "وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، لذلك سموهم الملثمين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف..."[598].

وقد حاول الكتاب العرب في القرون الوسطى الوقوف على الأسباب التي جعلت صنهاجة الصحراء يلازمون اللثام دون سواهم من الشعوب، فذكر صاحب الحلل أنهم أول من تلثم وربط عادة اللثام لديهم بموقفه من نسبهم إذ يرى أنهم من حمير وأن أجدادهم كانوا يعيشون في اليمن، وأنهم آمنوا بدين بشر به أحد ملوكهم الأوائل و تعرضوابعد وفاته للمضايقة من خلفه عن طريق التقتيل والتشريد، فتلثموا ليخفوا أنفسهم،وكان اللثام حسب المؤلف كان وقتها مستخدما من طرف نساء اليمن دون رجالهم، ثم "... فروا بأنفسهم... وانتقلوا من قطر إلى قطر ومن مكان إلى مكان حتى صاروا بالمغرب الأقصى، ببلاد البربر، فاحتلوا به واستوطنوه وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به ونجاهم لأجله من عدوهم، فاستحسنوه ولازموه وصار زيا لهم ولأعقابهم لا يفارقونه إلى هذا العهد..."[599].

أما ابن الأثير فإنه يورد سببين لهذه الظاهرة، أحدهما طبيعي مرتبط بالظروف المناخية المتميزة في الصحراء التي ترتفع فيها درجات الحرارة بشكل كبير نسبيا خلال فصل الصيف

---

595 اليعقوبي: البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 111.
596 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 9
597 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 170.
598 ابن خلكان: مصدر سبق ذكره، ص:129.
599 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص: 19.

الحار والجاف ثم تنخفض انخفاضا كبيرا خلال فصل الشتاء البارد والجاف، وبالتالي كان من اللازم على البدوي الذي لا يطمئن إلى مكان وتقوم حياته على التنقل أن يتكيف مع هذه الوضعية بغض النظر عن كونه صنهاجيا أو غير صنهاجي، فلم يربط ابن الأثير اللثام بصنهاجة فحسب وإنما عرب الجزيرة أيضا، وذلك عند ما كتب عن ملك صنهاجة للمغرب يقول: "... وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد مثلما يفعل العرب..."[600]، لكن الذي يميز الملثمين عن عرب الجزيرة هو أن اللثام أصبح بالنسبة لهم عادة لا يفارقونها، حتى ولو لم تكن تدعو إليه الحاجة[601]، أما السبب الثاني عند ابن الأثير لارتباط صنهاجة الصحراء باللثام، فقد أورده على شكل حكاية مفادها أن حيا من لمتونة باغته العدو أثناء غياب الرجال ولم يكن به سوى النساء والأطفال والشيوخ، وأن أحد الشيوخ أشار إلى النساء بأن يتلثمن قبل أن يصل العدو إليهم وأن يحملن السلاح حتى يظنهم العدو رجالا، فلما اقترب منهن العدو رأى جموعا كثيرة فظنها من المقاتلين، فقال بعضهم "هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن تبعونا قاتلناهم خارجا عن حرمهم..."[602]، وأثناء جمع العدو للحيوانات أقبل الرجال مسلحين، فأصبح الأعداء بينهم والنساء المسلحات، فاعمل فيهم الجميع السيوف وقتلوا معظمهم وانهزم الباقي، وكان عدد من قتل من طرف النساء أكثر، فكان ذلك سببا في ملازمتهم اللثام ... فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا..."[603].

وقد نقل ابن خلكان عن ابن الأثير في مواضع عديدة مما كتبه حول الصحراء، لكنه أضاف سببا آخر فيما يتعلق باللثام وغير بعض عناصر الرواية السالفة الذكر مع إيراده لها مفصلة، و يقول في تفسيره الجديد لتلك الظاهرة: "... وقيل كان سببه أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشائخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو..."[604]، وفي محاولة أخرى لمعرفة سبب التزام صنهاجة الصحراء باللثام، فإن نفس المؤلف يربط هذه العادة بعامل وراثي، فيورد أن خواص حمير، الذين لا يشك في أنهم أسلاف الملثمين، كانوا يتلثمون اتقاء شدة الحر والبرد، ثم إن تلك الظاهرة شملت العامة[605].

ويذكر ابن حوقل أن الملثمين كانوا ينظرون إلى الفم كعورة تستحق الستر، و أن سبب ذلك هو أن "ما يخرج منه عندهم انتن مما يخرج من العورة..."[606]، ولا يبتعد البكري في القرن11م عنه، وإن كان يضيف أنهم كانوا يسخرون من الأمم التي لا يتلثم رجالها ويشبهون أفواههم بـ"أفواه الذبان"[607].

---

600 ابن الأثير: مصدر سبق ذكره، ج9، ص:76.
601 ابن حوقل مصدر سبق ذكره، ص:99.
602 ابن الأثير: مصدر سبق ذكره، ص: 76.
603 نفس المصدر ونفس الصفحة.
604 ابن خلكان: مصدر سبق ذكره، ص: 129.
605 ابن خلكان: مصدر سبق ذكره، ص: 129.
606 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 99.
607 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 170.

ويرى البعض أن حرص الملثمين على ارتداء اللثام وتغطية الفم يعود بالدرجة الأولى إلى المعتقدات السحرية التي كانت سائدة بينهم قبل انتشار الإسلام، ومن ضمنها أن الجن ينشرون الأمراض في الفضاء، وأن تلك الأمراض تدخل إلى الجسم عن طريق الفم والأنف، وبالتالي كان من اللازم عليهم حسب معتقدهم أن يغطوا تلك المواقع من أجسامهم حتى لا تضرهم الأرواح الشريرة، وكان الأمر خاصا بالرجال[608] لأن المرأة كانت في نظرهم ذات صلة بتلك الأرواح الشريرة بواسطة السحر، مما جعلها النساء في مأمن من الأضرار التي قد يتعرض لها الرجال إن لم يتلثموا[609].

ويعتقد دلافوس[610] أن الملثمين من بقايا السكان القدماء للمنطقة، وأنهم كانوا قبل تصحرها مستقرين ويمارسون النشاط الزراعي، وأنهم لم يهاجروا بعد التحول المناخي الذي طرأ عليها، لم يهاجروا، وإنما غيروا نمط حياتهم بشكل تدريجي يتماشي مع واقع البيئة الجديدة إلى أن أصبحوا بدوا رحلا، فكان ارتداء اللثام والتمسك به شكلا من أشكال التأقلم مع المحيط الذي أصبحوا يعيشون فيه.

وبصفة عامة، فإن الرجل الصحراوي الذي كان يقطع المسافات الطويلة بحثا عن ضالته أو ممارسا لتجارة القوافل وغير ذلك، في منطقة ترتفع فيها درجات الحرارة وتندر فيها المياه وتحرك فيها السرعة القوية للرياح حبيبات الرمل فتنثرها في الجو، كان من الطبيعي بالنسبة له أن يحتمي باللثام من الغبار ولفح الشمس والرياح المعطشة، وبمرور الزمن ارتبط اللثام بحياته فنسجت حوله الأساطير، وقد لفتت عادة اللثام انتباه كتاب وشعراء تلك الفترة إلى درجة أن بعضهم اعتبره فضيلة تستحق أن يشاد بها، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قول الفقيه أبي محمد بن حامد[611] في مدح يوسف بن تاشفين، مشيرا إلى أنه من القوم الحميريين الذين غلب الحياء عليهم فتلثموا ، وقد ورد البيتين في الفصل الثاني من البحث.

وقول شاعر آخر في مدح الملثمين[612]:

إذا التثموا بالربط خلت وجوههم أزاهر تبدو من فتوق الكمــائم
أو التأموا بالسابـرية أبــرزوا عيون الأفاعي من جلود الأراقم

وقد وصف الكتاب حرص الملثمين على التمسك بهذه العادة في حلهم وترحالهم وفي يقظتهم ومنامهم حتى أصبحت جزءا منهم، إلى درجة أن ذوي القتلى منهم في المعارك لا يستطيعون التعرف على أبنائهم، إن هم سقطت عنهم ألثمتهم حتى تعاد إليهم ليصبح التمييز عندئذ بين الشخص والآخر أمرا ممكنا[613]، ذلك أنهم نشأوا عليه ولم يفارقوه منذ طفولتهم حتى بين ذويهم، ومن مظاهر تشبثهم به أن الشخص كان أثناء تناوله للأكل أو الشراب يفعل ذلك من تحت اللثام لكي لا يرى وجهه[614]، وقد حفظ لنا بعض الكتاب حكايات لا تخلو من طرافة في هذا

---

[608] شيخ الربوة، مصدر سبق ذكره، ص.316.
[609] ابن الشرقي حصري: مرجع سبق ذكره، ص: 24.
[610] M. DELAFFOSSE: op.cit., p.156
[611] الأنيس المطرب بروض القرطاس: مصدر سبق ذكره، ص: 137.
[612] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 385.
[613] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 170.
[614] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 384.

الصدد، كتلك التي أوردها النويري نقلا عن ابن شداد، فذكر أن شخصا من الملثمين كان يغسل ثيابه على ضفة نهر، و أنه كان يغسل الثياب بيده اليمنى ويستر وجهه باليد اليسرى، فقال له شخص بجواره استر عورتك بيدك، فقال أنا ملثم بها..."[615].

ويبدو أن اللثام أصبح بعد قيام دولة المرابطين رمزا من رموز الأبهة والترفع، فلقد أورد الجزولي مثلا أن شيوخ أبي إسحاق ياران بن يحيى المسوفى وكان من أكابر المرابطين بالمغرب اشترطوا عليه نزع اللثام عندما أراد أن يتخذ التصوف مسلكا له في حياته، وأن يجعل بدلا منه طبقا على رأسه ويدخل إلى السوق حتى يراه الناس، ليذهب ما في نفسه من الرياء، ففعل ذلك وأصبح في زمرة المتصوفين[616]، وإذا كنا لا نعلم الكثير عن المميزات التي كانت تخص لثام السادة وتميزه عن لثام العامة والعبيد، خلال الفترة السابقة للعهد المرابطي، فمن الواضح خلال الفترة المرابطية أن نوعية اللثام كانت تحيل إلى المكانة الاجتماعية للفرد الذي يرتديه في مجتمع الملثمين[617].

ويتضح من خلال استعراضنا للمعلومات التي وفرتها المصادر العربية الوسيطة حول اللثام ومكانته في حياة سكان الصحراء خلال تلك الفترة، أنه كان يتجاوز كونه مجرد قطعة قماش تستخدم لغرض معين وتنزع عند فوات ذلك الغرض، إلى اعتباره جزءا من الإنسان الصحراوي في شتى أبعاده المادية والروحية، وبالتالي فإنه لم يكن بالنسبة لذلك الإنسان مثل ملابسه الأخرى.

***الملابس:**

كان ذوق الملثمين الخاص في اختيارهم لملابسهم متميزا، حيث اختاروا أشكالها ونوعياتها وفقا لما كان يلائم وضعهم وبيئتهم، فكان الإنسان في صحراء الملثمين ينسج بعض ملابسه من وبر الإبل[618] ويستورد بعضها الآخر عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تربطه بشمال إفريقيا، بينما كان الصحراويون غير القادرين على شراء الألبسة المستوردة يلبسون الجلود[619].

وقد تحدث الكتاب العرب خلال فترة مبكرة من التاريخ الوسيط عن طريقة الملثمين في الملبس، فوصفها اليعقوبي مثلا في قوله: "... شأنهم كلهم أن يتلثموا سنة فيهم ولا يلبسون قمصا وإنما يتشحون بثيابهم"[620]، ويبدو أن الملابس الصوفية، كانت أكثر تداولا بينهم من غيرها، ويتجلى ذلك في وصف الإدريسي لنوعية ملابسهم والطريقة التي كانوا يلبسونها بها في قوله: "... ولباس الرجال منهم والنساء أكسية الصوف ويحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف ويسمونها آسفاقس..."[621]، ومما يدل على انتشار الملابس الصوفية بين الملثمين وتعودهم عليها،

---

615 نفس المصدر ونفس الصفحة.

616 أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي: تحقيق احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984، الترجمة رقم 105، ص.254.

617 عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سبق ذكره، ص: 35.

618 ابن الشرقي حصري: مرجع سبق ذكره، ص: 25.

619 شيخ الربوة، مصدر سبق ذكره، ص.316.

620 اليعقوبي: البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 111.

621 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 62.

ما ذكره ابن الخطيب عن يوسف بن تاشفين عند ما كتب عنه يقول: "... لم يغير حاله من لباس الصوف ... مع ما فتح الله عليه من الدنيا..."[622]، وقال عنه ابن أبي زرع: "... لباسه الصوف لم يلبس قط غيره..."[623].

وكانت الملابس الأخرى المختلفة الأشكال تجلب إلى أودغست وغيرها من مناطق الصحراء الأخرى، كتلك التي أفاد البكري أنها كانت تجلب من الأندلس وشمال إفريقيا قي قوله: "... ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة..."[624]، وكان جنود المرابطين يتميزون في زيهم الرسمي بملابس إضافية مثل الغفارة القرمزية وعمامة ذات ذؤابه[625].

- العادات الغذائية:

لابد لنا أن نذكر في هذا المجال بأن أغلبية سكان صحراء الملثمين كانت خلال العصر الوسيط من البدو الرحل، إلا أن ذلك لا ينفى وجود جماعات منهم كانت تعيش خلال الفترة في مدن وقرى صحراوية كانت توجد أساسا على الحافات الجنوبية والشمالية للصحراء، لذلك فإنه يمكن التمييز من خلال ما توفره الكتابات العربية الوسيطة بين نمطين مختلفين من الحياة، أحدهما مرتبط بالبدو والآخر بالمستقرين، خاصة فيما يتعلق بالعادات الغذائية، وإن كانت هنالك نقاط تقاطع بينهما في هذا تلمجال.

يمكننا أن نفهم في هذا السياق إذن ملاحظات الكتاب العرب المسلمين خلال الفترة الوسيطة، عند ما يذكرون أن سكان الصحراء لم يكونوا يعرفون من أنواع الغذاء سوى اللحوم والألبان، فتلك الشهادات لا تنطبق على سكان الصحراء كافة وإن كانت تخص السواد الأعظم منهم، أي البدو، وهم الذين قال عنهم اليعقوبي في أواخر القرن9م ما نصه: " ومعاشهم من الإبل وليس لهم زرع ولا طعام..."[626]، وقد تحدث ابن حوقل في القرن10م عن قبيلة مسوفة، وعاداتها الغذائية، فقال: "... وبنو مسوفة قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة لا يعرفون البر ولا الشعير والدقيق، ومنهم من لم يسمع بهما إلا بالمثل، وأقواتهم الألبان وفى بعض الأوقات اللحم..."[627]، ولا يكاد البكري في القرن11م في وصفه لنمط حياة لمتونه يختلف عن سابقيه عندما قال: "... ليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق..."[628]، ثم إنه يصف العادات الغذائية لمجموع قبائل الملثمين في موضع آخر من كتابه فيقول: "... وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة..."[629]، ويضيف

---

622 لسان الدين بن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص: 234.
623 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 136.
624 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.
625 حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين- ، ط1، مكتبة الخانجي بمصر، 1980، ص: 438.
626 اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص: 111.
627 أبن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:99.
628 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.
629 نفس المصدر، ص: 170.

شيخ الربوة في هذا الصدد قائلا: "...وأموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن وحبوب تنبتها أرضهم زمن الربيع، والذرة تجلب إليهم، يمر على الواحد منهم العمر الطويل ولا يرى على يده خبز إلا ما يحمله إليهم التجار الواردون عليهم من بلاد المغرب، وهم ظواعن في طلب الكلإ لا يستقر بهم منزل..."[630]

وبصفة عامة، فإن العادات الغذائية للبدوي في صحراء الملثمين، كانت مرتبطة إلى حد كبير بما كان يمتلكه من ثروات، ومن المعروف أن الثروة الأساسية لهذا البدوي خلال تلك الفترة هي الثروة الحيوانية، لذلك كان اعتماده عليها كليا في حياته،ف كانت بالنسبة له مصدر الأكل والشرب والسكن واللباس، ويقول ابن الخطيب عن الملثمين في هذا المضمار ما نصه: "... إنما أموالهم الأنعام وأقواتهم لحومها وألبانها..."[631]، أما الصوف الذي كانت تلك الأنعام توفره فكانوا ينسجون منه الثياب والخيام التي كانوا يأوون إليها[632].

وكانت الحيوانات البرية والبحرية هي الأخرى تلعب دورا هاما في النظام الغذائي بالنسبة لسكان صحراء الملثمين، فلقد كانت كثيرة في المنطقة[633]، وكانت توفر لأولئك السكان مصدرا آخر للحوم، يساعدهم على ترشيد مواشيهم.

ولعل ما أوردته بعض المصادر العربية عن حياة عبد الله بن ياسين، واعتماده في قوته اليومي على لحوم الصيد طوال السنوات التي قضاها داعية في الصحراء يجعلنا نقدر أهمية الصيد في هذا الجانب من حياة الملثمين خلال تلك الفترة، فقد كتب عنه ابن الخطيب يقول: "... ولم يقتت إلا من لحوم الصيد.."[634]، ويقول عنه البكري في إطار حديثه عن قبائل الملثمين إبان قيام حركة المرابطين: "... وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورع عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، وإنما كان عيشه من صيد البرية..."[635]، بل إن الجزيرة التي أنشئ بها الرباط قبيل إخضاع قبائل الملثمين من طرف الحركة المرابطية، كانت توفر للمرابطين حاجياتهم الغذائية التي ارتكزت بشكل أساسي على لحوم الصيد ويستشف ذلك مما أوردته المصادر على لسان يحيى بن إبراهيم الكدالي أثناء وصفه تلك الجزيرة لعبد الله بن ياسين، فقال له ما نصه: " وفيها الحلال المحض الذي لا شك فيه من أشجار البرية وصيد البر وأصناف الطير والوحش..."[636].

ولم يكن استهلاك المنتجات الحيوانية مقتصرا على بدو صحراء الملثمين دون حضرييها، الذين كانوا يشاركون البدو في معظم عاداتهم الغذائية، وإن كانوا قد أضافوا إليها عادات غذائية أخرى اقتبسوها من الشعوب المجاورة، لاحتكاكهم بجاليات التجار القادمين من شمال وغرب إفريقيا، حيث كان بعض أولئك التجار يستقرون في المدن الصحراوية وينقلون إليها نمط حياتهم في مواطنهم الأصلية بما فيه عاداتهم الغذائية، هذا فضلا عن كون سكان المدن كانوا يختلفون عن البدو، إذ خولهم الاستقرار إمكانية ممارسة بعض الأنشطة الزراعية، وإن

---

630 شيخ الربوة، مصدر سبق ذكره، ص ص. 315- 316

631 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165.

632 نفس المصدر، ص: 234.

633 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

634 ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص: 231.

635 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165.

636 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 125.

كانت أهمية تلك الأنشطة تختلف من مدينة إلى أخرى، حسب الموقع وما يوفره من إمكانيات في هذا المجال، ففي آزوكي مثلا (آركي) كانت غراسة النخيل وما يزرع تحت ظلاله من بطيخ وشعير نشاطا أساسيا لسكان تلك المدينة التي كان حوليها عشرون ألف نخلة[637]، أما سكان مدينة أودغست فقد ذكر عنهم ياقوت نقلا عن المهلبي الذي كان يكتب في القرن10م، أنهم كانوا يمارسون أنشطة زراعية متنوعة خلال فصل الصيف الذي تتساقط خلاله الأمطار، وذلك في قوله: "... وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبياء والنخل ببلدهم كثير..."[638]، ويتحدث البكري نقلا عن الوراق (النصف الثاني من القرن10م) عن المدينة ذاتها فيقول: "... وحولها بساتين النخل ويزدرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاثي تجود عندهم وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا وبها جنان حناء لها غلة كبيرة وبها آبار عذبة..."[639].

وعلى الرغم من تلك الشهادات، فإن الإنتاج الزراعي المحلي لم يكن كافيا لسد حاجيات سكان مدن وقرى الصحراء الغذائية، حيث كان سكان أودغست مثلا يستجلبون القمح والزبيب والتمور من سجلماسة، والذرة والعسل من بلاد السودان، وكان استهلاك القمح شبه مقصور على الأثرياء من الملوك وكبار التجار لندرته وارتفاع أسعاره، بينما كانت أغلبية السكان من الفئات المتوسطة والفقيرة تستهلك الذرة لأن الكميات المنتجة منها كانت أكثر وما يستورد منها يأتي من بلاد السودان وهي أقرب مسافة لتلك المدن من مصادر استيراد القمح من الشمال.

وإذا كانت الشهادات التي وفرتها المصادر العربية الوسيطة حول العناصر التي كان النظام الغذائي لسكان مدن صحراء الملثمين يرتكز عليها، تمكننا من القول أن ذلك النظام كان قائما أساسا على الحبوب والفواكه، فإن المصادر ذاتها لم تصمت عن طريقة الطبخ في تلك المدن وأنواع الوجبات التي كانت متداولة فيها، ووفر بعضها إشارات تدل على أن الطبخ في مدن صحراء الملثمين خلال تلك الفترة كان أكثر تعقيدا مما نتصور بفضل براعة اليد العاملة "المتخصصة"، إذ كانت أصناف عديدة من الأطعمة والحلويات معروفة في أودغست التي كتب عنها البكري يقول: "... وبها سودانيات طباخات محسنات... تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك..."[640].

وفضلا عن ذلك، كان سكان الحواضر الصحراوية يشتركون مع بني جلدتهم من بدو الملثمين في استهلاك المنتجات الحيوانية، ولعل أهم دليل على ذلك كثرة تلك الحيوانات حول المدن، وتدني أسعارها[641]، خلال العصر الوسيط، وقد أكدت الدراسات الأثرية التي قيم بها في موقع تغداوست (أودغست) على ذلك، إذ تفيد أن سكان تلك المدينة كانوا يستهلكون كميات كبيرة من لحوم الأغنام والأبقار، أما الجمال فكان استهلاكم للحومها أقل[642] كما يشير اكتشاف

---

[637] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.

[638] ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ص: 278.

[639] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

[640] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

[641] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 101. والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

[642] J. DEVISSE in TEGDAOUST III ; Aoudaghost, Campagnes 1960/65, Enquêtes générales, Editions et recherches sur les civilisations, Paris, 1983, p. 353-4

كميات كبيرة من العظام المكسرة الأطراف إلى أن نكهة المخ كانت يجتذب السكان خلال تلك الفترة، وتدل آثار تلك المدينة على أن سكانها مولعين بقنص الطيور استهلاك لحومها[643].

أما سكان القرى الساحلية، فإن اعتمادهم كان يرتكز على الصيد البحري، وما كان يوفره لهم من مختلف أنواع الأسماك[644]، وعلى الرغم من توفر وتنوع الغذاء عند سكان المدن في الصحراء فإن أوضاعهم الصحية كانت أسوأ من البدو.

***الأمراض وطرق العلاج:**

لاشك أن سكان صحراء الملثمين قد عانوا مثل غيرهم من الشعوب من كثرة الأمراض والأوبئة التي اجتاحت مناطق مختلفة من العالم خلال العصر الوسيط بسبب القحط وغياب الرعاية الصحية والأدوية الناجعة مثل القحط الذي أصاب "جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ومصر وبلاد الحجاز"، والذي تسبب في ارتفاع أثمان المواد الغذائية وصاحبه وباء عظيم في عموم المنطقة[645]، لكن المصادر التي تعرضت للحديث عن أوضاع صحراء الملثمين خلال تلك الفترة، لم تهتم كثيرا بهذا الجانب من معاناة السكان، وإن كانت لا تخلو من إشارات يكمن أن تساعدنا في رسم تصور عام عن الوضعية الصحية العامة لأولئك السكان، خاصة أن تلك الإشارات صدرت عن كاتبين أحدهما مشرقي ادعى أنه زار المنطقة في القرن10م وتتعلق إشارته بالبدو من الملثمين، في حين أن الآخر أندلسي كان يكتب في القرن11م، وتتعلق إشارته بسكان المدن، خاصة أودغست.

فقد تحدث ابن حوقل عن مسوفة، فوصفهم بالجلد والقوة، وربط ذلك بعاداتهم الغذائية المرتكزة على الألبان واللحوم، ثم وصفهم بعد ذلك قائلا: "... ولهم خلق تام وجلد عام في نسائهم وفي رجالهم..."[646] ، أما الإشارة الثانية، التي تتعلق بسكان أودغست، فقد أوردها البكري عند ما كتب يقول: "... وهو بلد ألوان أهلها مصفرة وأمراضهم الحميات والطحال لا يكاد يخلو من إحدى العلتين أحد منهم..."[647].

ولا يشك سرج روبير في أن الأمراض التي أشار إليها البكري ترتبط إلى حد كبير بالمناخ الذي كان سائدا في المنطقة الساحلية ونوعية المياه التي كان السكان يستهلكونها[648]، إذ كانت المنطقة الساحلية التي تقع فيها مدينة أودغست، تتلقى وقتها كميات هامة من الامطار، تسمح بنمو أعشاب كثيفة نسبيا ووجود مستنقعات، وهي وضعية مناسبة لتكاثر البعوض والذباب المسببين لحمى الملاريا، وذلك عكس المنطقة الصحراوية الجافة التي وصف ابن حوقل سكانها بالجلد والقوة وكمال الصحة.

و قد أعاد ابن حامدن جل الأمراض التي كانت تصيب سكان المنطقة إلى العامل المناخي، حيث وصف الجزء الشمالي من المنطقة، وهو الجزء الصحراوي بأنه صحي عكس

---

[643] TEGDAOUST III, op.cit, pp. 552-3

[644] الإدريسي مصدر سبق ذكره، ص: 88. والأنيس: مصدر سبق ذكره، ص: 125.

[645] الأنيس: مصدر سبق ذكره، ص: 96.

[646] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98-99

[647] البكري:، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

[648] S. ROBERT: Archéologie, op.cit, p. 47 .

الجزء الساحلي الجنوبي الذي ذكر عنه أنه "كثير الندى عفن مضر بالصحة مغير للون"، وذكر أن المجموعات القبلية التي استقرت في المنطقة الساحلية بشكل دائم قد انقرضت بعض فروعها وقلت أعداد البعض الآخر، وأن البقية التي نجت منها تتميز عن غيرها من سكان المنطقة بضعف البنية الجسدية وقصر الآجال[649]، وأضاف أن سكان صحراء الملثمين كانوا يستخدمون بعض المواد التي توفرها الطبيعة لمعالجة الأمراض المتفشية، مثل عالجهم للجرب بالكبريت الذي كان يوجد في مناطق تاركة وتافلى واستخدامهم " للحميرة" (طين أحمر صلب) في علاج أمراض العيون والأورام و"الونكل" (وهو طين أصفر صلب) في معالجة الصفار واللبن المتجمد في المعدة[650].

وبصفة عامة فإن المجتمع في صحراء الملثمين، كان متميزا خلال العصر الوسيط بتركيبته البشرية وترتيب فئاته وعاداته التي فرضها عليه وسطه الطبيعي المتميز أو تطوره التاريخي الخاص، وإن كنا لا ننفى تقاطعه مع بعض المجتمعات المجاورة في أمور كثيرة، إما نتيجة لصلات الجوار أو الأصول الحضارية المشتركة، وقد تمكن ذلك المجتمع بفضل الانسجام الذي وفرته له سماته المشتركة أن يوحد صفوفه في إطار كيانات سياسية متماسكة ومنسجمة مع طبيعته ومستجيبة لتطلعاته المختلفة، مكنته من تجاوز التحديات التي واجهها خلال الظرفيات التاريخية التي مر بها أثناء الفترة التي تهمنا.

II- السلطة السياسية في صحراء الملثمين:

لاشك أننا نجهل الكثير عن جوانب هامة من تاريخ صحراء الملثمين، خاصة تلك المتعلقة منها بالعصور السابقة لانتشار الإسلام بالمغرب، وبالتالي اهتمام الكتاب العرب بالمنطقة، وإذا كانت النتف الواردة في المصادر القديمة تمكننا بالإضافة إلى ما تقدمه الأيركولوجيا من بناء تصور مجمل عن طبيعة المجتمعات التي عرفتها المنطقة ومستوى تطورها المادي، فإن الجانب السياسي من ذلك التاريخ يبقى غامضا، ومع ذلك، فإن المجتمعات التي تعاقبت عبر العصور في هذه المنطقة وخلفت وراءها آثارا تدل على أنها كانت على مستوى حضاري مرموق بمقاييس تلك الفترة[651]، لابد أنها خلقت لنفسها إطارا تنظيميا كانت تعبر من خلاله عن نفسها بالشكل الذي يناسبها، وذلك من أجل أن تضمن بواسطته وحدتها وتماسكها أمام أي خطر خارجي يهددها، إذ من المعروف أن كل المجتمعات الإنسانية، حتى البدائية منها، عرفت السلطة السياسية، وإن كانت مظاهر تلك السلطة تختلف من مجتمع إلى آخر، ذلك أن السلطة فضلا عن أهميتها التنظيمية، تساعد المجتمع على احترام قيمه وتحميه من الفوضى، وهي كذلك ضرورية لمواجهة المجتمعات المعادية أو التي تشكل خطرا على أمن ومصالح المجتمع الذي تخدمه[652].

ونشير هنا إلى أن الدول التي قامت في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، لم تكن تختلف من حيث التنظيم عن تلك التي عرفتها منطقة المغرب الكبير، والتي حدد بعض الباحثين مفهومها من خلال دراستهم لنظريات ابن خلدون المبنية أساسا على الواقع الذي كان سائدا في

---

649 ابن حامدن: الجزء الجغرافي، مرجع سيق ذكره، ص:4.
650 نفس المرجع ، ص:17.
651 HUGOT: Le Sahara, .op. cit , p
652 جورج بالايديه: الانتروبولوجيا السياسية- ترجمة على المصري، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1990، ص:55.

تلك المنطقة، فقال بأنها هي "الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما"[653]، وفي هذا الإطار يرى الأستاذ عبدالله العروي أن سيطرة صنهاجة الصحراء (زناكة)على معادن الملح خولتهم مقايضته بالتبر مع السود في إطار تجارة ظل نطاقها يتسع تدريجيا، وأنهم أسسوا بالاعتماد على ما كانت تدره عليهم تلك التجارة من أرباح إمارة قبلية صنهاجية لا يعرف بالتحديد تاريخ نشأتها وأن تلك الإمارة اتخذت مدينة أودغست عاصمة لها[654].

وبغض النظر عن طبيعة وأشكال التنظيم السياسي الذي عرفته صحراء الملثمين خلال الفترات القديمة، فإن المصادر العربية الوسيطة توفر لنا معلومات هامة، وإن كانت مقتضبة، حول بعض مظاهر الحياة السياسية في المنطقة خاصة ما يتعلق منها بمملكة أودغست الصنهاجية التي حكم ملوكها المنطقة خلال الفترة ما بين القرن8م وأواخر القرن10م، ثم الدولة المرابطية التي قامت على أنقاض تلك المملكة ابتداء من أواخر النصف الأول من القرن11م.

1 - مملكة أودغست الصنهاجية:

تعتبر مملكة أودغست أول تنظيم سياسي صنهاجي في الصحراء تصلنا عنه معلومات مكتوبة وذات قيمة تاريخية، وقد أخذت تلك المملكة اسمها عن عاصمتها التي توجد أطلالها اليوم في منطقة اركيز بإقليم الحوض في موريتانيا، ولا يعرف بالتحديد التاريخ الذي شيدت خلاله تلك المدينة، ولا بداية الفترة التي أصبحت خلالها عاصمة للملكة الصنهاجية، وما إذا كانت قد لعبت دور العاصمة لممالك متعددة تعاقبت في المنطقة قبل أن تعطي اسمها للمملكة الصنهاجية المشهورة التي تحدث عنها بعض الكتاب المسلمين خلال الفترة الوسيطة ولا تهتم معظم الكتابات العربية الوسيطة التي وصلتنا عن تلك المملكة كثيرا بتاريخ نشأتها ولا الظروف التي أدت إلى قيامها، ذلك أن أغلب من وصلتنا كتاباتهم عنها لم يكونوا معاصرين لبداية قيامها، وإنما عاصر بعضهم بعض ملوكها، بعد أن أصبحت تشكل قوة في المنطقة، ومن بين أولئك الكتاب على سبيل المثال، اليعقوبي، وابن حوقل، ومحمد بن يوسف الوراق، والمهلبي، ومنهم من كتب عنها بعد سقوطها بقرن أو عدة قرون اعتمادا على مصادر يبدو أنها لم تعد متداولة مثل البكري وابن أبي زرع وابن الخطيب وابن خلدون إلخ....

ومع أن اليعقوبي (كان يكتب في أواخر القرن9م) هو أول من أشار إلى تلك المملكة وعاصمتها بالاسم، فإننا لا نستشف من خلال ما كتبه أن نشأتها كانت في عهده، فهو في وصفه لها يذكر أن ملكها كان يحارب ممالك كثيرة في بلاد السودان مما يترك الانطباع بأنها أسست قبل ذلك العهد نظرا لما يتطلبه تنظيم المملكة وتوحيد القبائل في ظل سلطة واحدة من الوقت حتى يتسنى للسلطة الناشئة تكوين جيش قادر على فتح جبهات متعددة مع ممالك سودانية كثيرة، ولا يستبعد أن يكون اليعقوبي الذي لم يزر المنطقة إطلاقا، قد نقل المعلومات المتعلقة بمملكة أودغست عن كاتب أقدم منه، خاصة أنه ذكر أن ملك أنبية (صنهاجة الصحراء) الذي كان يتخذ من "غسط" (أودغست) عاصمة له، كان على غير ملة الإسلام في قوله: "... غسط وهو واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم

---

[653] محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، ط4، الدار البيضاء، 1984، ص .320.

[654] عبد الله العروي، مرجع سبق ذكره، ج2، ص.110

كثيرة..."[655]، ونعلم من خلال مصادر عربية أخرى، أن ملوك صنهاجة الصحراء كانوا يجاهدون لنشر الإسلام في السودان منذ القرن 2هـ/8م[656].

وإذا اعتبرنا انطلاقا من نص اليعقوبي أن أودغست كانت عاصمة لبلاد أنبيه التي كانت تطلق على تحالف قبائل صنهاجة الصحراء، فإن ذلك يحولنا افتراض أن تسمية مملكة أودغست التي أصبحت شائعة في كتابات القرن10م[657] للدلالة على التنظيم السياسي الذي كان قائما في صحراء الملثمين آنذاك، قد حلت محل اسم آخركان متداولا لدى الكتاب العرب الذين كتبوا قبل تلك الفترة بمن فيهم اليعقوبي، هو بلاد أنبيه، وبذلك تكون تلك المملكة معروفة منذ القرن8م حيث تحدث عنها الفزاري المتوفى سنة 790م وحدد مساحتها[658].

وقد حدد ابن أبي زرع تاريخ نشأة هذه المملكة، فربطها ببداية حكم عبد الرحمن الداخل بالأندلس، وذلك في قوله: "... وكان أول ملك منهم بالصحراء يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني ملك بلاد الصحراء بأسرها"... وكان في أيام عبد الرحمن القائم بالأندلس..."[659]، ولا يكاد ابن خلدون يختلف عنه عندما كتب عن صنهاجة اللثام يقول: "... واستوسق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل..."[660].

وإذا اعتمدنا على هذين المؤلفين اللذين يعتبران من أبرز المؤلفين الذين كتبوا عن تاريخ الصحراء خلال العصر الوسيط، فإننا نحدد قيام مملكة أودغست بمنتصف القرن8م، ذلك أن فترة حكم عبد الرحمن بن هشام المعروف بعبد الرحمن الداخل بدأت سنة 138هـ/756م وانتهت بوفاته سنة 172هـ/788م[661]، ويمكننا دعم ما ذهبا إليه، بإشارة أخرى أو ردها البكري وإن كانت أكثر غموضا، وتتعلق بتاريخ مدينة أودغست، عندما كتب عنها يقول: "... أودغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة... وهو كان منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن تدخل العرب غانة..."[662]، فهل يمكننا إذن المقارنة بين ما ذكره البكري من أن أودغست كانت عاصمة غانة بما تذكره المصادر السودانية حول تأسيس غانة، حيث تورد أنها تأسيسها تم على يد مجموعة من البيض يرى محمود كعت أنها من صنهاجة و أن ملوكها ظلوا يحكمون الشعوب السودانية حتى ثارت عليهم بعد أن تعاقب منهم على حكمها أربعون ملكا[663].؟

ويعتبر بعض الباحثين، أن ثورة السوننكة على ملوكهم من الصنهاجيين، وتأسيسهم لغانة السودانية التي كانت عاصمتها "قمب" أو"كمبي" قد تمت في منتصف القرن8م[664]، فهل

---

[655] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.

[656] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 121 . ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص:226

[657] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98 . ياقوت نقلا عن المهلبي: مصدر سبق ذكره، ص:277.

[658] J. CUOQ: Recueil des Sources Arabes, op.cit, p. 42.

[659] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.

[660] ابن خلدون: العبر. مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 371.

[661] عبد الواحد المراكشي: مصدر سبق ذكره، ص: 29 و Recueil op.cit p. 42

[662] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

[663] محمود كعت: مصدر سبق ذكره،ص:42

[664] M. DELAFOSSE: Haut – Sénégal - Niger (Soudan français), 3 t., Larose, Paris, 1912, t. 1, pp. 207 – 226, et t 2 .pp. 23 - 32.

يمكننا اعتمادا على الروايات السودانية، وإشارة البكري، الاعتقاد بأن الثورة السوننكية أدت إلى تقسيم مملكة غانة القديمة إلى مملكتين "قوميتين" متجاورتين، إحداهما احتفظت بالاسم القديم، وهي غانة السودانية، والأخرى صنهاجية عاصمتها أودغست، وهل يعني البكري في إشارته إلى التحول الذي ذكر أنه طرأ على وضعية أودغست كعاصمة لغانة ابتداء من "وصول العرب إلى غانة"[665]، حملة حبيب بن أبي عبيدة التي قادته إلى بلاد السودان سنة 732م؟

إذا كنا لا نتوفر على مصادر توفر إجابات كاملة ومقنعة على هذه التساؤلات، فإن الإشارات السالفة الذكر، بالإضافة إلى طبيعة الظرفية التاريخية التي تهمنا، تسمح لنا بالرد إيجابيا عليها، ذلك أن النصف الثاني من القرن 8م لم يشهد قيام نظام سياسي في صحراء الملثمين وحدها، وإنما شملت ظاهرة قيام الدول خلاله منطقة شمال وغرب إفريقيا، حيث نشأت هنالك أيضا ممالك ارتكزت نظمها على العصبية القبلية أو المذهبية واستفادت من مواقعها الجغرافية في تنشيط العلاقات التجارية عبر الصحراء، ومن بين أهم تلك الممالك على سبيل المثال لا الحصر، إمارة تاهرت وإمارة سجلماسة اللتين قامتا على العصبية الزناتية والمذهب الخارجي، ومملكة غانة السوننكية الوثنية ومملكة أودغست الصنهاجية الخ...

وفى هذا الإطار دائما يري المؤرخ الموريتاني المختار بن حامدن أن صحراء الملثمين تبعت الفهريين منذ قيام دولة عبد الرحمن بن حبيب سنة 127هـ/745م، وأن أهلها أسسوا دولة مستقلة في بلادهم بعد مقتل الياس بن حبيب سنة 146هـ/ 764م، وأن وضعية التمزق التي عرفتها الدولة الإسلامية آنذاك قد شجعتهم على ذلك الإستقلال[666].

وانطلاقا مما تقدم، فإننا نعتقد أن مملكة أودغست الصنهاجية نشأت في بداية النصف الثاني من القرن8م، حيث بسطت نفوذها على صحراء الملثمين، ودخلت في تنافس مع النظم السياسية المجاورة لها على فوائد المبادلات التجارية عبر الصحراء.

- **المساحة والحدود:**

لا شك أن الرقعة التي امتدت عليها مملكة أودغست لم تكن محددة ولا ثابتة كغيرها من دول ذلك العصر، بل إنها كانت تتسع خلال فترات وتتراجع أثناء أخرى، بشكل يتناسب مع فترات القوة والضعف التي عرفتها تلك المملكة عبر تاريخها، ذلك أن مفهوم الدولة في منطقة المغرب الإسلامي بالذات كان في ذلك العصر يختلف عما هو متعارف عليه اليوم والذي يقتضي من بين أمور أخرى ضرورة تحديد الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة، لأن ارتباط المجتمعات القبلية بالأرض كان ضعيفا، حيث كانت تعوضه بالارتباط عن طريق النسب، سواء القريب منه أو البعيد والحقيقي منه أو الوهمي، فكانت حدود الدولة تتحدد من خلال قدرة العصبية المتغلبة على غزو المناطق المجاورة لها وإخضاعها، وهي في هذه الحالة نتغيرة بتغير موازين القوى بين العصبيات[667]، ومع ذلك فإن المعلومات التي وفرتها المصادر العربية الوسيطة حول هذا الموضوع لا تخلو من أهمية، وقد تمكننا من الاستمرار في محاولاتنا الرامية إلى تحديد مساحة تلك المملكة وإبراز حدودها، لكنها في الغالب الأعم تربط تلك الحدود بفترة ملك من ملوك تلك المملكة، عاصره المؤلف أو نقل عمن عاصروه، وهي في الوقت ذاته

---

665 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.
666 ابن حامدن: الجزء السياسي، مرجع سبق ذكره، ص:8.
667 العصبية والدولة، مرجع سبق ذكره، ص323

تستخدم وحدات قياس مختلفة مثل الفرسخ وشهر من السير الخ...، يصعب عن طريقها التوصل إلى معرفة المساحة بالمقاييس المتداولة بشكل دقيق.

ومن بين أهم المؤلفين الذين تحدثوا عن مساحة تلك المملكة، نذكر الفزاري المتوفى خلال النصف الثاني من القرن8م، الذي ذكر أن دولة أنبيه كانت تمتد على منطقة طولها 2500 فرسخ وعرضها 600 فرسخ[668]، ويعتقد لويكي أن الأرقام التي قدمها الفزاري مبالغ فيها، وأن استخدام الفرسخ لقياس المسافات كان شائعا في المشرق، على العكس من المغرب الإسلامي الذي كان يستعمل الميل لهذا الغرض، لذلك فإنه يعتقد أن تلك الأرقام التي قدمها الفزاري -إن صحت- فهي بالميل وليست بالفرسخ، ويحدد الميل العربي بـ2 كلم[669]، وبالتالي يكون طول أراضي تلك المملكة 5000كلم وعرضها 1200كلم، فتكون مساحتها 6.000.000كم$_2$.

أما ابن أبي زرع، فإنه تحدث عن مساحة مملكة أودغست في عهد ملكها تيولوتان بن تلاكاكين، فذكر أن "عمله مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها..."[670]، وقد قدر ريمون موني مسيرة اليوم في تلك الفترة بمسافة تصل ما بين 25-30كلم[671]، وبالتالي يكون الحد الأدنى لكل من طول وعرض المملكة في ذلك العهد هو 90x25= 2250كلم، فتكون المساحة طبقا لذلك تتراوح مابين 5062500كلم$_2$ و7290000كلم$_2$، ويبدو أن رواية ابن أبي زرع لا تخلو هي الأخرى من المبالغة، اللهم، إلا إذا صدقناه في تبعية 20 ملكا من ملوك السودان لتيولتان وإضافة مساحات بلدانهم إلى مملكته.

ويتحدث البكري عن مملكة أودغست في عهد تينيروتان بن ويسنو بن نزار، فيذكر أن عمله كان شهرين في شهرين[672]، وإذا تمسكنا بتقديرات موني دائما، فإن مساحة أودغست تكون في بداية النصف الثاني من القرن10م تتراوح ما بين 2250000 كلم$_2$ كحد أدنى و3240000 كلم$_2$ كحد أعلى، ومع أن البكري، قد لا يخرج عن دائرة زملائه من الكتاب العرب في القرون الوسطى في مجال المبالغة، فإن تقديراته تبدو أقرب إلى المعقولية من غيرها، مع أن التقديرات بشكل عام لا يمكن الركون إليها واعتبارها أساسا للواقع الذي كان قائما، بقدر ما هي مؤشر يعطينا تصورا عن مدى اتساع الرقعة التي تمكنت تلك المملكة من بسط نفوذها عليها، والتي نعتقد أنها كانت شاسعة، خاصة في الحالات التي تكون فيها قبائل الملثمين متجاوبة مع النظام السياسي للمملكة، مثلما كان عليه الأمر في عهد تينيروتان[673]، لأن معظم القبائل كانت من البدو الرحل الذين تقتضي منهم طبيعة الانتجاع السيطرة على منطقة واسعة تكفل لمواشيهم الحصول على مراعي جيدة خلال مختلف فصول السنة، فكانت دائرة نفوذ تلك القبائل تشمل مناطق شاسعة في الصحراء وبلاد السودان، وبما أن الحدود خلال ذلك العهد كانت بشرية أكثر منها جغرافية فإنه يجوز لنا ضم كل المناطق الواقعة تحت نفوذ قبائل صنهاجية تدين بالولاء لمملكة أودغستإلى مساحة تلك المملكة واعتبارها جزءا من أراضيها.

---

668 Recueil des Sources Arabes, op.cit, p. 42
669 Idem

670 ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121.
671 نفس المصدر ونفس الصفحة.
672 البكرى: مصدر سبق ذكره، ص: 159.
673 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.

وقد وصف المهلبي في القرن10م حدود مملكة أودغست، فكتب يقول: "... وفى شرقيهم بلاد السودان وفى غربيهم البحر المحيط وفى شمالهم منفلتا إلى الغرب بلاد سجلماسة وفى جنوبيهم بلاد السودان..."[674].

وبصفة عامة، فإن حدود مملكة أودغست القارة، لا يمكنها في نظرنا أن تتجاوز حدود صحراء الملثمين[675]، وهي منطقة شاسعة كانت تتقاسمها خلال العصر الوسيط قبائل صنهاجية كثيرة ومتشعبة البطون، ولكل واحدة منها شيخها ونطاق نفوذها، مما يسمح بتصور أن دور شيوخ القبائل في توجيه السلطة المركزية للملكة كان كبيرا، خاصة أنها تكن فيما يبدو تتجاوز كونها مظهرا لتحالف قبلي قائم على أساس القرابة والمصالح المشتركة.

- **طبيعة السلطة السياسية في مملكة أودغست:**

إذا أخذنا بعين الاعتبار النظرة التي تقول أن السلطة السياسية في أي مجتمع، وخلال أية فترة زمنية، تكون دائما في خدمة بنية ذلك المجتمع[676]، فإننا نعتقد انطلاقا من ذلك أن السلطة السياسية في مملكة أودغست الصنهاجية كانت قائمة على أساس النظام القبلي، إذ هو الركيزة الأساسية التي تأسس عليها مجتمع الملثمين في الصحراء، ومن هنا، فإن مجتمع الملثمين لم يكن يختلف عن غيره من المجتمعات البدوية، خاصة العربية منها، فهذه الأخيرة كانت تمارس السياسة باسم القبيلة[677].

وقد تحدث ابن خلدون عن نشأة السلط السياسية في المجتمعات القبلية، فقال: "... ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية أقوى من جميعها تغلبها وتستمتعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع..."[678]، وينطبق التشخيص بشكل تام على الدولة الصنهاجية في الصحراء، حيث أن قبائل الملثمين، وإن كانت كلها صنهاجية، فإنها كانت متعددة وتشكل كل واحدة منها عصبية لها رئاستها التي تقودها، ومع ذلك فإن معظم المصادر العربية التي تحدثت عن مملكة أودغست تجمع على أن ملوك الملثمين كانوا من لمتونة[679]، مما يدل على أن تلك القبيلة كانت تمثل خلال ذلك التاريخ العصبية الأقوى وأنها تمكنت من فرض نفوذها على العصبيات الأخرى، مثل كداله ومسوفة وبني وارث الخ...

وكان نمط الحكم السائد لدى الملثمين يتمثل في النظام الملكي الوراثي الذي تنتقل بواسطته السلطة من الأب إلى الابن[680]، ويتميز هذا النوع من الأنظمة السياسية عن غيره من

---

674 ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ص: 278.
675 انظر الفصل الأول من هذا البحث.
676 جورج بلانديه: مرجع سبق ذكره، ص: 54.
677 محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي- محدداته وتجلياته- المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 1990، ص:11.
678 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص:186.
679 ابن خلدون: العبر مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:371.
680 ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121.

أشكال السلطة السياسية التقليدية، باعتماده على العرف وافتقاره إلى تنظيم إداري محكم، فهو يعتمد على الوجهاء في هذا المجال أكثر من اعتماده على الموظفين[681].

وكان ملك الملثمين يستمد قوته من مساندة مجلس رؤساء القبائل له، وقد تنهار السلطة نتيجة لسخط أعضاء ذلك المجلس أو عدم رضاهم عن الطريقة التي ينتهجها ملك أو آخر أثناء ممارسته لسلطته، مثل ما حدث سنة 306هـ/ 918م عندما "ثار شيوخ صنهاجة على تميم بن الأثير فقتلوه فلم يجتمعوا على أحد بعده... مدة من مائة وعشرين سنة..."[682]، وكان أشياخ القبائل متفاوتون في المكانة تبعا لأهمية قبيلة كل واحد منهم من حيث أعدادها وثرواتها، ومن بين الأمثلة على ذلك، ما ذكره ابن حوقل عن شيخ قبيلة مسوفة في القرن10م، الذي أطلق عليه لقب "ملك" مع أنه كان خاضعا لسلطة ملك أودغست، فقال عنه في معرض حديثه عن مسوفة: "... ولهم ملك يملكهم تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار لأنهم يملكون تلك الطريق..."[683].

وكان رؤساء القبائل يجمعون مع دور كل واحد منهم في إدارته لشؤون قبيلته دورا سياسيا آخر هو تقديم الرأي والمشورة للملك، ولم يقتصر ذلك الدورعلى مملكة أودغست، وإنما قاموا به أثناء وبعد قيام دولة المرابطين[684]، وكان دور شيوخ القبائل يشمل مساعدة الملك في تعبئة قبائلهم في الوقت المناسب أثناء الحروب لأن الغزو كان يمثل مصدرا هاما من مداخيل المملكة التي كثيرا ما كانت أسماء ملوكها تقترن بالحملات العسكرية التي يجهزونها والمناطق التي يخضعونها والمردودية الاقتصادية لغزواتهم[685].

ومع أن المصادر العربية تبرر الكثير من عمليات الغزو التي كان ملوك الملثمين يوجهونها إلى بلاد السودان، بأنها كانت تدخل في إطار الجهاد في سبيل نشر الإسلام، فإننا نبقى في حيرة عندما يصف اليعقوبي أحد ملوك أودغست فيقول أنه "لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة..."[686]، فهل يمكننا إذن اعتبار أن عهد الملك الذي يعنيه اليعقوبي سابق لدخول الإسلام إلى الصحراء؟ وهل يمكننا الاطمئنان إلى الإشارات التي تفيد أن حروب تيولوتان لبلاد السودان في النصف الثاني من القرن8م وبداية القرن9م كانت بغرض الجهاد في سبيل الله؟، وكيف يمكننا تفسير مدى جهل أولياء أمور الملثمين في القرن11م بالدين واعترافهم بأنهم وغالبية رعاياهم لا يعرفون من الإسلام أكثر من الشهادتين في حين أن الجهاد من أجل نشره وصل إلى درجة القناعة والممارسة لدى سلفهم منذ القرن8م؟[687].

إننا نرى أن إسلام ملوك الملثمين الأوائل كان سطحيا، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لألزموا به رعيتهم قبل أن يصدروه إلى جيرانهم، إذ من الواضح من خلال المصاعب التي واجهت الحركة المرابطية أن تعاليم الإسلام كانت في معظمها جديدة على مجتمع الملثمين[688]، وذلك،

---

[681] الانتزوبولوجيا السياسية: مرجع سبق ذكره، ص:66.
[682] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.
[683] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
[684] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره ج4، ص: 9و20.
[685] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.
والبكري مصدر سبق ذكره، ص: 159.
[686] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.
[687] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.
[688] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 377 و 380.

فإننا نعتقد أن الإسلام لم يكن يمثل عند أولئك الملوك عقيدة، بقدر ما كان مبررا إيديولوجيا كانوا يستغلونه للحصول على الغنيمة من الممالك السودانية الوثنية المجاورة التي كانوا يتنافسون معها للسيطرة على أهم الطرق والمراكز التجارية الحيوية في المنطقة الساحلية، وكانت علاقاتهم بها تتأرجح بين الحرب والسلم، وقد أورد الكتاب في العصر الوسيط أسماء لبعض ملوك أودغست ممن سيطروا على مناطق هامة من السودان الغربي.

- **أهم الملوك الذين حكموا مملكة أودغست:** السلطة

لعل من بين أهم السمات التي كان ملوك أودغست- الذين وصلتنا معلومات حولهم- يشتركون فيها، أنهم ينتمون جميعا إلى قبيلة لمتونة، وينحدرون بصفة خاصة من بيت بني ورتنطق[689]، ثم إن السلطة استقرت في بيت تلاكاكين الذي اعتبره ابن خلدون أول ملك لصنهاجة الصحراء[690] واستمرت في ذريته بعد سقوط مملكة أودغست حيث تولى أحفاده قيادة الدولة المرابطية، بل إن بعض الكتاب ربطوا السلطة السياسية عند الملثمين منذ نشأتها بذلك البيت المشهور من بيوتات لمتونة.

ومع أننا سنحاول إلقاء الضوء على بعض حكام مملكة أودغست، فإن معلوماتنا حولهم تبقي ناقصة في ظل ندرة المصادر المتعلقة بهم والاقتضاب المخل للإشارات الواردة في بعضها حولهم واختلافها في ضبط أسمائهم وعدد من تعاقب على السلطة منهم وترتيبها لهم من حيث التعاقب على دفة الحكم، وفى هذا المجال مثلا يذكر ابن أبى زرع أن أول ملوك الملثمين هو يتلوتان فكتب يقول: "... وأول ملك منهم بالصحراء يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني..."[691] ، في حين اعتبره ابن خلدون وريثا للعرش عن أبيه تلاكاكين الذي ذكر أنه أول ملوك الملثمين في الصحراء[692]، بينما يرى المختار بن حامدن أن هنالك من هو أقدم من تلاكاكين ويتعلق الأمر -حسبه- بتركوت بن ورتاشن الذي تلاه ابنه إبراهيم، ثم إنه أورد تلاكاكين في الرتبة الثالثة، وأعتبر أن هؤلاء الملوك الثلاثة حكموا الملثمين قبل أن تستقل دولة الملثمين عن الخلافة الإسلامية في عهد تيولتان بن تلاكاكين[693]، ومع تقديرنا لهذا الرأي، الذي لاشك أن صاحبه يمتلك المادة والبصيرة اللتين تخولانه الوصول إلى جادة الصواب، فإننا نعتقد أنه حمل نص ابن عذاري أكثر مما يطيقه، فابن عذاري أورد اسم تركوت (ترجوت) في إطار حديثه عن نسب أمراء الدولة المرابطية ولم يشر إلى علاقته بالملوك الذين حكموا الملثمين قبل قيام تلك الدولة[694].

أما تلاكاكين، فلا نعرف عنه سوى أنه كان ملكا قبل ابنه تيولوتان[695]، ومن المفترض أنه توفى خلال السنة التي تولى أثناءها هذا الأخير السلطة وهي سنة 157هـ/775م، ونعتقد أن فترة حكمه تمت ابتداء من تاريخ غير محدد خلال النصف الأول من القرن 2هـ/8م واستمرت حتى وفاته واعتلاء ابنه للعرش.

---

689 العبر المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص: 373.
690 نفس المصدر، ص: 371.
691 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.
692 العبر: المصدر السابق، ص: 371و372.
693 ابن حامدن: الجزء السياسي. مرجع سبق ذكره، ص: 9و 10.
694 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره ج4، ص:17.
695 ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ص:371.

وتتفق المصادر التي تناولت هذا الموضوع حول فترة حكم تيولوتان بن تلاكاكين، وقوة الدولة الصنهاجية واتساع نفوذها في عهده لكنها تختلف اختلافا بسيطا في رسمها لاسمه، فقد أطلق عليه ابن أبي زرع تيولوتان[696] في حين اضطرب ابن الخطيب أثناء محاولته ضبط اسمه، فسماه يرلونان تارة وفيولوتان تارة أخرى[697]، أما ابن خلدون فقد سماه يتولوتان بن تلاكاكين[698].

ويمكن التعرف على تاريخ ميلاد تيولوتان بن تلاكاكين من خلال ما وفرته المصادر العربية الوسيطة، فإذا صحت تلك المعلومات فإنه ولد سنة 142هـ/759م، لأنه توفى سنة 222هـ/837م، حسب تلك المصادر عن عمر ناهز 80 سنة، ويبدو أنه اعتلى العرش وهو في ريعان شبابه، إذ لم تتجاوز سنه عندما تولى الملك 16 سنة، فطالت فترة حكمه حتى بلغت 65 سنة، وكان ملكا قويا تجاوز نفوذه المنطقة الصحراوية ليشمل مناطق شاسعة من بلاد السودان بفضل جيشه القوي والكبير الذي كان يقدر بمائة ألف مقاتل[699].

ونتيجة لطول فترة حكمه فإن أيا من أبنائه لم يحظ بخلافته، إذ يبدو أنهم توفوا كلهم في حياته، فخلفه احد أحفاده اختلفت المصادر في ضبطها لاسمه هو الآخر، فذكره ابن أبي زرع تحت اسم الأثير بن فطر بن يتلوتان[700]، في حين أطلق عليه ابن خلدون اسم يلتان[701] أما ابن الخطيب، فقد دعاه يالتو بن بطي بن فيولوتان[702]، ولن نخوض هنا لتصحيح اسم هذا الملك، لأننا لا نمتلك الأدوات اللازمة للوصول إلى ذلك الهدف، وإن كنا نعتقد أن المحاولتين الأخيرتين لضبطه أكثر معقولية وانسجاما مع الأسماء التي كانت شائعة بين الملثمين خلال تلك الفترة.

وبغض النظر عن ذلك، فمن الواضح أن المصادر تعني شخصا واحدا، وبالتالي لا يمكن التفكير في أن الأثير أويلتان أويالتو أسماء لملوك متعددين، إذ تنسب تلك المصادر الشخص الذي تعنيه إلى فطر أوبطين أوفطي بن تيولوتان، كما أنها تتفق حول فترة حكمه، فحددتها هي الأخرى بـ 65سنة[703]، وهي فترة مساوية بالتمام لفترة حكم جده تيولوتان بن تلاكاكين، و يثير هذا الأمر الاستغراب إلا أنه غير مستحيل، فتكرار الأرقام عند الكتاب العرب في العصر الوسيط، كثيرا ما يحيل إلى المبالغة، وما دمنا لا نمتلك مصدرا آخر حول الموضوع يورد معلومات مخالفة، فإننا نبقي مضطرين إلى الأخذ بما هو متوفر، ولو إلى حين.

وعلى كل حال فإن معلوماتنا عن هذا الملك لا تتجاوز كونه أمضى خمسا وستين سنة يحكم صحراء الملثمين إلى أن توفى سنة 287هـ/900م، فانتقلت السلطة إلى ابنه تميم[704]،

---

696 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:120.
697 ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص:226.
698 ابن خلدون: العبر. مصدر سبق ذكره، ص:372.
699 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:120.
700 نفس المصدر، ص:121.
701 كتاب العبر،المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص372
702 ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص:226.
703 العبر المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص:372 ابن أبي زرع، مصدر سبق ذكره، ص:120.
704 الأنيس المطرب: مصدر سبق ذكره، ص:121.

أوتلين[705] الذي حكم مملكة أودغست خلال الفترة ما بين 287هـ - 306هـ/900م-918م، وانتهت أيامه بثورة قادها ضده أعيان قبائل الملثمين، فقتلوه في ظروف غامضة لم توضحها لنا المصادر، ويكتفي بعضها بالإشارة إلى انهيار الدولة الصنهاجية في الصحراء، وغياب سلطة سياسية تجمع قبائل الملثمين منذ مقتل ذلك الملك، وان تلك القبائل بقيت كذلك إلى أن قام أبو عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني بتوحيدها بعد مرور 120سنة من التفكك[706].

لكن إشارتين وردتا عن مؤلفين آخرين هما ابن حوقل والبكري تؤكدان وجود ملك كان يحكم الملثمين خلال منتصف القرن 4هـ/10م، وهو تينبروتان بن اسفيشر[707]، أوتينيروتان بن ويسنو بن نزار[708]، فقد نقل البكري عن الوراق أنه كان ملك صنهاجة الصحراء وأنه كان يقيم في أودغست، وأنه كان حكمه كان "في عشر الخمسين والثلاثمائة"[709]، أي خلال الفترة ما بين 340هـ350هـ/951م-960م، أما ابن حوقل[710] فقد ذكر أن تينيروتان ينتمي إلى أسرة عريقة في الملك، مما يجعلنا نفكر في أنه ينحدر من بيت بني ورتنطق اللمتوني الذي ينتمي إليه الملوك السابقون، وإن كنا لا نعتقد أن طريقة انتقال السلطة إليه من سلفه لم تكن طبيعية، فقد يكون ذلك بعد مقتل ملك الملثمين تميم بن الأثير (أو تلين، يالتو) على يد أشياخ صنهاجة الصحراء نتيجة لصراع على السلطة يحتمل أنه نشب بينه وابن عمه تينيروتان، فحظي هذا الأخير بثقة مجلس رؤساء قبائل الملثمين ومساندتهم فتمكن من السيطرة على مقاليد الحكم بعد فترة وجيزة من الاضطرابات الناجمة عن مقتل سلفه، كما نعتقد أن ما أوردته بعض المصادر من أن أمر الملثمين لم يلتئم منذ مقتل تميم سنة 306 هـ وحتى قيام ابن تفاوت، يرتكز على خلفيات ذلك الصراع، لأن تلك المصادر اعتمدت على مصادر أخرى مفقودة كتبت في عهد الدولة المرابطية وتحت إشراف أمرائها الذين ينحدرون من تلاكاكين جد تلين أو تميم، وبالتالي لا نعتقد أنهم كانوا يعترفون بشرعية انتقال السلطة من ذرية جدهم تلاكاكين إلى أبناء عمومتهم الآخرين ممثلين في تينيروتان.

وبغض النظر عن مشروعية سلطة تينيروتان واعتراف الملثمين بها أو عدمه قبل وبعد قيام دولة المرابطين، فإن المصادر التي تحدثت عنه تفيد أنه لم يكن بعيدا من حيث النسب عن أسرة الملك[711]، وإذا أخذنا بعين الاعتبار نظرية ابن خلدون في هذا المجال، فإن انتقال السلطة إلى تينيروتان من ذرية تلاكاكين يكون مقبولا، ذلك أنه يرى أن الحسب الذي هو من بين أهم مقومات السلطة في ذلك العهد لا يتجاوز توارثه الجيل الرابع[712].

وقد احتلف ابن حوقل والبكري في ضبطهما لاسم ذلك الملك مثلما اختلفت المصادر العربية الأخرى في ضبطها لأسماء الملوك الصنهاجيين السالف ذكرهم، فهو بالنسبة لابن حوقل

---

705 ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص:226.
706 الأنيس المطرب: مصدر سبق ذكره، ص:121.
707 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
708 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.
709 البكري: المصدر السابق، ص:159.
710 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
711 ابن حوقل: سبق ذكره، ص:97.
712 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص:182.

تينبروتان بن اسفيشر[713] في حين نجده عند البكري تينبروتان بن ويسنو بن نزار"[714]، وإذا كنا لا نمتلك مصادر أخرى أصيلة تساعد في ترجيح أحد الكاتبين على الآخر، فإننا نرى أن الاسم الأقرب إلى الصحة لذلك الملك هو الذي أورده البكري، لأنه كاتب أندلسي أقرب إلى المغرب من المشرقي ابن حوقل، فهو أقدر منه على نطق وكتابة الأسماء المغربية، وأن مصدره أيضا مغربي هو محمد بن يوسف الوراق، يضاف إلى ذلك أن خلاف المؤلفين حول ضبط اسم ذلك الملك يتعلق أساسا باسمه العائلي، حيث يرى ابن حوقل أنه ابن اسفيشر، في حين يذكر البكري أنه ابن ويسنو، وقد ورد في بعض المصادر العربية اسم لأحد كبار القادة العسكريين في عهد المرابطين يدعى يحيى بن واسينو اللمتوني فذكر ابن عذاري أنه ابن عم يوسف بن تاشفين[715]، ونعتقد أنه واحد من أبناء أو أحفاد تينبروتان أو من أفراد عائلته المقربين، لأن كبار القادة في الجيش المرابطي خلال مرحلته الأولى كانوا في معظمهم ينتمون إلى بني ورتنطق، ومن بينهم أبناء زعماء حكموا صنهاجة قبل قيام الحركة المرابطية.

وقد وصف كل ابن حوقل والبكري الملك تينيروتان بالقوة وإحكام السيطرة على الملثمين إلى درجة أن قبائلهم كانت تبعث سنويا ممثلين عنها من البوادي إلى مدينة أودغست ليجددوا بيعتها له ويقدمون له الهدايا[716]، وأنه تمكن من إرجاع مملكة أودغست إلى عهد القوة الذي عرفته خلال فترة حكم الملك تيولوتان بن تلاكاكين.

وإذا كانت المصادر قد وفرت لنا إشارات تدل على بداية حكم تينيروتان للملثمين، فإننا لا نعرف تاريخ وفاته، فابن حوقل الذي أدعى أنه زار أودغست ذكر أن ذلك الملك تولى حكم مملكته منذ عشرين سنة[717]، ويعتقد بعض الباحثين أن زيارة ابن حوقل لاودغست حدثت سنة 951م[718]، لذلك تكون بداية حكم تينبروتان في سنة 931م أي بعد 13 سنة من مقتل تلين (تميم) على يد رؤساء قبائل صنهاجة الصحراء، مما يسمح بالتفكير في أن الصراع على السلطة في بيت بني ورتنطق لم يحسم إلا بعد انقضاء هذه الفترة.

لكن الاستقرار الذي عرفته ملكة أودغست بعد تتويج تينيروتان ملكا سنة 931م لم يدم طويلا، حيث سقطت في أواخر القرن10م خلال تاريخ غير محدد بدقة لا ندري إذا كان في عهد تينيروتان أم أحد خلفائه، بسبب عن وجود تحديد دقيق لفترة حكم هذا الأخير، فإشارة البكري التي ذكر فيها أنه كان يحكم مملكة أودغست خلال الفترة ما بين 340هـ و 350هـ/951م و961م، لا تعني أن التاريخ المذكور يمثل بداية ونهاية عهد ذلك الملك، وإنما يقصد من ورائها، إما التأكيد على أنه كان موجودا على رأس السلطة آنذاك، أو التنويه باعتبارها فترة قوة وازدهار المملكة في أيامه، ونص إشارة البكري المتعلقة بذلك الملك هو: "... وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تينيروتان بن ويسنو بن نزار، رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية وكان عمله شهرين في مثلها في عمارة، يعتد في مائة ألف نجيب..."[719].

---

713 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
714 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.
715 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:28.
716 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
717 نفس المصدر، ونفس الصفحة.
718 TEGDAOUST I, op. cit, p.120
719 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.

ونمتلك إشارة أخرى أوردها ابن خلدون من الوارد أن لها علاقة بنفس الملك، وإن كانت أهميتها لا ترقى إلى قيمة الإشارتين السابقتين، لكونهما صدرتا عن كاتبين عاصرا الأحداث، في الوقت الذي لم يعلن فيه ابن خلدون عن المصدر الذي نقل عنه معلوماته، وإن كان حرصه على تدقيق الأخبار ونقدها يضفى قدرا من المصداقية على كتاباته، فلقد تحدث عن هذا الملك في معرض حديثه عن ملوك صنهاجة الصحراء، فقال عنه: "... من أشهرهم تينزوا بن وانشق بن بيزا، وقيل يرويان بن وانشيق بن نزار، ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة وفى عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة..."[720].

وإذا تفحصنا الفترة التي حددها ابن خلدون لحكم تينيروتان فإننا لا نجد اختلافا كبيرا بينها وتلك التي حددها ابن حوقل، خاصة أن هذا الأخير لم يذكر إلا بداية عهد ذلك الملك (سنة 931م)، بينما يفهم من البكري أن نهايته كانت في حدود سنة 971م، والجديد في تحديد ابن خلدون لفترة حكم تينيروتان هو تزامنها مع فترة حكم عبد الرحمن الناصر(300هـ - 350هـ/913م-961م)، وابنه الحكم(350-366هـ)/(961-977م)، ونعتقد أن ذلك التزامن كان نسبيا بحيث لا تنطبق بداية أو نهاية حكم تينيروتان مع بداية حكم عبد الرحمن الناصر ولا مع نهاية حكم ابنه الحكم المستنصر، فبداية حكم الناصر كانت في عهد تلين (تميم) الذي قتل سنة 306هـ.

وينفرد ابن خلدون بخبر هام في هذا المجال عندما ذكر أن تينيروتان أوتينزوا كما سماه، خلفه بعد وفاته، أبناء له لم يحدد عددهم ولا فترة حكم أي واحد منهم، وذلك في قوله: "... وملك بعده بنوه ثم افترق أمرهم بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورئاستهم شيعا..."[721]. وإذا اعتبرنا أن افتراق أمر صنهاجة الصحراء تم بعد وفاة تينيروتان مباشرة، وأن أسباب ذلك الافتراق قد تكون لها علاقة محتملة بصراع أبناء ذلك الملك على وراثة العرش، فإن التاريخ الذي حدده ابن خلدون لانهيار مملكة أودغست يكون مطابقا لما ذهب إليه بعض الدارسين من أنه تم في نهاية القرن العاشر[722].

- **سقوط مملكة أودغست:**

إذا كانت مصادرنا غير متفقة حول آخر ملك للملثمين والفترة التي انهارت خلالها مملكتهم، فإنها أيضا مختلفة حول أسباب ذلك الانهيار، فابن أبى زرع مثلا يرى أن آخر ملوكهم هو تميم بن الأثير (تلين) الذي ذكر أن أشياخ صنهاجة قتلوه سنة 306هـ، فقال عنه: "... فقتلوه وافترق أمرهم... مدة من مائة وعشرين سنة..."[723]، أما ابن حوقل والوراق فإنهما تحدثا عن تلك المملكة وملكها تينبروتان الذي عاصرهما، ومع أنهما لم يحددا تاريخا لسقوطها، فإن ابن حوقل أورد رواية تتعلق بغزو خارجي استهدف عاصمتها وذكر أن ملكها تمكن من صده بطريقة تدعو إلى الشك لا في صحة الحدث وإنما في تفاصيله[724].

---

[720] العبر: مصدر سبق ذكره المجلد6، ص:371.
[721] ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 372.
[722] TEGDAOUST I, op. cit p. 122
[723] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 121.
[724] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

وتمكن الاستفادة من تلك المصادر مجتمعة على الرغم من اختلافتها في التفاصيل، خاصة فيما يتعلق بأسباب سقوط مملكة أودغست الذي نرجعه انطلاقا من الإشارات الواردة فيها إلى عاملين رئيسيين أحدهما داخلي والآخر خارجي:

أ - العامل الداخلي:

لاشك أن الثورة التي تحدث عنها ابن أبى زرع، والتي ذكر أنها أدت إلى مقتل الملك وما جري بعد ذلك من تتويج لملك آخر، ستترك آثارا سلبية على وحدة الملثمين الذين يحتمل أن جموعا منهم مهما كان حجمها، قد استاءت مما حدث، وظلت تتحين الفرص من أجل أن توقع بخصومها وتعيد السلطة إلى بيت تيولوتان، الأمر الذي يحملنا على التفكير في أن فترة حكم تينيروتان تميزت بالصراعات الداخلية، وأن تلك الصراعات كانت تختفي أثناء فترات قوة السلطة وتستفحل وتطفو على السطح خلال فترات ضعفها، كما نعتقد أن خلفيات ذلك الصراع قد ساعدت على تأجيجه واستمراريته وخلق المسوغات للخروج على السلطة، مثل صراع القبائل الصنهاجية على الإمكانات الاقتصادية بالمنطقة والمتمثلة أساسا في الممالح والسيطرة على الطرق التجارية والمراعي[725]، وأدت هيمنة بعض القبائل أحيانا على أنشطة اقتصادية حيوية في جزء من المنطقة إلى تكوين مملكة صغيرة داخل المملكة الكبرى[726] مما ساهم في إضعاف الكيان العام وأدى إلى إغراء المنافسين والأعداء الخارجيين بالعمل من أجل إسقاط الكيان المشترك للملثمين، ويتمثل أولئك الأعداء خلال تلك الفترة في غانة وزناتة.

ب- العامل الخارجي:

أدى الدور الكبير الذي لعبته مملكة أودغست في المبادلات التجارية العابرة للصحراء إلى وضعها في إطار تنافس دائم مع الأطراف المشاركة في تلك المبادلات، وكان ذلك التنافس يشتد في بعض الحالات حتى يبلغ درجة المواجهة المسلحة، فيحاول كل طرف التخلص من منافسه وتغييب دوره ليتسنى له الانفراد بمزايا وأرباح تلك التجارة. ولقد زادت الاختلافات الدينية والمذهبية والقبلية والعرقية الأمور تعقيدا، فالدويلات في شمال إفريقيا كانت ترتكز على العصبية الزناتية المشهورة بخلافاتها التاريخية مع قبيلة صنهاجة، فضلا عن أنها كانت تعتنق رسميا المذهب الخارجي (الصفري في سجلماسة والاباضي في تاهرت)، أما غانة فإنها كانت هي الأخرى كانت قائمة على العصبية السوننكية وديانتها الرسمية هي الوثنية.

كان إذن للتنافس والخلافات التي ميزت علاقات مملكة أودغست في معظم مراحل تاريخها مع جاراتها دور في زعزعة النظام فيها، ولم تكن السلطة السياسية في أواخر القرن 10م قاجرة على مواجهة مزدوجة للتحديات الخارجية وتفاقم الصراعات الداخلية مما أدى إلى سقوطها نهائيا على يد التحالف الغاني والزناتي[727]، فتشتت الملثمون ردحا من الزمن وبقوا كذلك إلى قيام الدولة المرابطية.

صحراء الملثمين من سقوط مملكة أودغست حتى قيام المرابطين:

---

[725] النويري: مصدر سبق ذكره، ص:377

[726] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

[727] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97و98، والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:168، و

TEGDAOUST I op. cit., p. 129 .

أدى سقوط مملكة أودغست الصنهاجية وهيمنة إمبراطورية غانة وتجار زناتة على الطرق المخترقة لأراضيها ومراكزها التجارية، وبصفة خاصة مدينة أودغست عاصمة المملكة، إلى إبعاد سكانهاعن المناطق الحيوية للتجارة العابرة للصحراء، ومن بين أهم الدلائل على ذلك، أن صنهاجة الذين ذكر كل من ابن حوقل والمهلبي والوراق أنهم كانوا يمثلون أغلبية سكان مدينة أودغست خلال القرن10م، لم يعودوا حاضرين فيها بشكل مهم خلال النصف الأول من القرن11م، ويتجلى ذلك من وصف البكري لتلك المدينة عندما تعرض لسكانها فلم يذكر صنهاجة من بينهم، وذلك في قوله: "... وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين..."[728]. ومن المحتمل أن الشيء نفسه حل بصنهاجة في المراكز التجارية الأخرى التي كانوا يسيطرون عليها، إذا علمنا أن الأجزاء الشمالية والجنوبية من طرق المحور الغربي للتجارة عبر الصحراء، لم تبق خاضعة لهم خلال تلك الفترة، وإنما دخلت في نفوذ مغراوة وتحالف زناتة إفريقية وغانة[729].

ولم يقتصر التأثير السلبي لسقوط مملكة أودغست على غياب النظام السياسي للملثمين وحسب، وإنما انقطاع ما كانوا يجنونه من فوائد ذلك النظام، خاصة على المستوى الاقتصادي، حيث كانوا يسيطرون على الطرق والمراكز التجارية والمناطق الصالحة للزراعة في الأطراف الجنوبية للصحراء والواحات الواقعة على طول الطرق، فأدى غياب سلطتهم ووحدتهم إلى حشرهم في المناطق الصحراوية القاحلة، ففرضت عليهم طبيعة هذه المنطقة الاعتماد على نشاط واحد هو تربية المواشي بصفة عامة والإبل منها بصفة خاصة، مما حرم معظمهم من الرخاء النسبي الذي كان يعيشه قبل هذه الوضعية، وقد وصفهم البكري خلال هذه الفترة فقال عنهم أنهم: "ظواعن رحالة في الصحراء... وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله..."[730].

ومن المعروف أن قبائل صنهاجة لم تكن تخضع خلال هذه الفترة لقيادة موحدة، بل كانت شحة موارد الصحراء وندرة مياهها ومراعيها تثير الحروب والصراعات بينها، مما أدى إلى عرقلة جهود بعض زعمائها الهادفة إلى توحيدها وتوجيه قوتها إلى عدوها المشترك، وقد أشار النويري هذه الوضعية نقلا عن عبد العزيز بن شداد فقال: "... وكان بالصحراء قبائل العرب وهي لمتونة وكدالة ولمطة وانبيصر وايتواري ومسوفة وأفخاذ عدة وكل قبيلة قد حازت أرضا يسرح فيها مواشيها ويحمونها بسيوفهم..."[731]، وتشير مصادر أخرى إلى الخلافات التي كانت تسود العلاقات بين قبائل الملثمين بعد تفكك مملكتها، إذ كتب كل من ابن أبي زرع وابن الخطيب في معرض حديثهما عن قتل رؤساء قبائل صنهاجة لملكهم وتشتتهم بعد ذلك ما نصه: "... وافترق أمرهم، فلم يجتمعوا على احد بعده، فاختلفت كلمتهم وتفرقت أهواؤهم..."[732].

لكن مثل تلك الوضعية لا يمكن أن يستمر في الصحراء ذات المناخ المتذبذب، والتي لا يمكن أن تضمن لساكنيها توفير المراعي لقطعانهم الكثيرة، خاصة خلال فترات الجفاف التي

---

[728] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168

[729] TEGDAOUST I, op. cit., p. 129 et p. 150. 243

[730] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

[731] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 377.

[732] ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص: 226، وابن أبي زرع: سبق ذكره، ص: 121.

كانت تنتابها من وقت لآخر، وهو ما حدث بالفعل خلال النصف الأول من القرن11م[733] وأدى إلى هلاك الكثير من المواشي وهدد بقيتها بالانقراض، مما فرض على صنهاجيي الصحراء البحث بشكل جدي عن مصادر أخرى للعيش، ومن البديهي أن يتجه اهتمامهم إلى الأنشطة التي كانوا على دراية بمزاولتها وفى مقدمتها التجارة التي كانت ممارستهم لها وقتئذ تتوقف على إعادة بسطهم لنفوذهم على الطرق والمراكز التجارية في الصحراء، أي تحرير أرض الملثمين من السيطرة الغانية والزناتية، ويبدو أن تحقيق ذلك الهدف مر بمراحل تمثلت أولاها في تنظيم بعض قبائل الصحراء لعمليات نهب القوافل المتجهة إلى الجنوب، فكانت تترصدها عند نقاط المياه والممرات الجبلية الضيقة التي لا يمكن للقوافل أن تتجنبها ولا يسمح مجالها بتجمع حرس القافلة ومرافقيها للدفاع عن ممتلكاتهم، فقد ذكر البكري مثلا في معرض حديثه عن الطريق الرابط بين تامدلت وأودغست خلال تلك الفترة ما نصه: "...ثم تمشي في مجابة جبال رمل معترضة لا ماء فيها وهو أصعب موضع بطريق أودغست أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش، وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق، ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه..."[734].

ويبدو أن الغرض من هذه العمليات كان يستهدف تضييق الخناق الاقتصادي على الزناتيين والغانيين لإضعافهم قبل المواجهة العسكرية معهم التي بدأت المرحلة بالفعل عندما توحدت تلك القبائل تحت زعامة أبي عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني في العقد الثالث من القرن5هـ، واتجهت جيوشها صوب الجنوب لنزع السيطرة الغانية الزناتية عن العاصمة أودغست، لكنها اصطدمت قبل الوصول إليها بمقدمات جيش إمبراطورية غانة التي يبدو أنها كانت تترقب عودة الملثمين، فأرسلت منذ احتلالها لأودغست في أواخر القرن10م جزءا من جيشها إلى الشمال، واستقر على جبال تكانت ليتمكن من مراقبة أي تحرك عسكري للقبائل الصنهاجية، وقد تمكن هذا الجيش من صد الهجوم الصنهاجي وقتل قائده ابن تيفاوت بعد أن أمضى ثلاث سنوات يقود معارك قومه.

وعلى الرغم من أن فترة زعامة ابن تيفاوت لصنهاجة الصحراء كانت قصيرة، وأنه كان قائدا عسكريا أكثر منه حاكما سياسيا ولاتمكن مقارنته بملوك أودغست السابقين، فإن الصفات التي نعته بها كتاب الفترة الوسيطة بكونه "من أهل الدين والفضل والحج والجهاد"[735] تميزه عن سابقيه من حكام الملثمين، الذين إذا صح أنهم أسلموا فإن إسلامهم كان سطحيا إذ لم تذكر المصادر ما يفيد أنهم كانوا متمسكين بالدين ولا متحمسين له، بل إنها ركزت على قوة جيوشهم وهيمنتهم العسكرية على ممالك السودان[736]، أي عكس ما كان عليه وضع صنهاجة في عهد ابن تيفاوت الذي كان يواجه جيش إمبراطوية غانة القوي وقتها، والذي كان عدده يصل إلى 200.000 جندي[737] مسلحين تسليحا جيدا ومتطورا نسبيا مما مكنها من إخضاع جيرانها[738]، فهو إذن كان يعاني من هيمنة بلاد السودان، مقابل هيمنة سابقيه عليها، وكان هدفه الأساسي هو وضع حد لتلك الهيمنة واستعادة السلطة الصنهاجية لنفوذها على عاصمتها أولا ثم

---

733 ابن الأثير: مصدر سبق ذكره، ص: 75.
734 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.
735 ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، ص:372 ، ابن بي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121، والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.
736 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159 ، ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:120.
737 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:177.
738 كتاب الجعرافية. مصدر سبق ذكره، ص:126.

باقي أراضيها، لتتمكن من استعادة دورها التجاري في المنطقة[739]، فهل يمكن القول بأن إجماع قبائل صنهاجة الصحراء على قائد بهذه المواصفات يعبر عن رغبتها في اتخاذ الإسلام إطارا يجمعها وسلاحا "أيديولوجيا" تستخدمه في دعايتها ضد عدوها الوثني ممثلا في غانة؟

إذا كانت مصادرنا لا تمكننا من الإجابة بنعم على هذا التساؤل، فإن من المؤكد أن التطورات السياسية التي عرفتها منطقة الصحراء خلال الفترة ذاتها تؤيد ذلك، حيث ظهر جليا أن قادة الملثمين كانوا يسعون إلى إقامة أسس لدولة جديدة ترتكز على الإسلام السني وتصبو إلى نشره في شمال وغرب إفريقيا، وبدا ذلك واضحا منذ عودة يحيى بن إبراهيم الكدالي- خليفة ابن تيفاوت- من الحج صحبة عبد الله بن ياسين، فكان ذلك بداية لدولة المرابطين التي انتهت بقيامها المرحلة السلبية للتنظيم السياسي الصنهاجي في صحراء الملثمين.

2 - الدولة المرابطية في الصحراء

قامت الدولة المرابطية في صحراء الملثمين خلال النصف الأول من القرن5هـ11م، وقد مكنت هذه الدولة الملثمين من إعادة بسط نفوذهم على صحرائهم كلها، بعد تحريرهم الأجزاء التي كانت غانة تحتلها، بل إن سيطرتهم تجاوزت مناطق نفوذهم التقليدية لتشمل معظم أجزاء المغرب الإسلامي خلال القرن 5هـ/11م، مما مكنهم من تحقيق الأهداف التي كانوا يصبون إليها، حيث سيطروا على الطرق والمراكز التجارية، ووضعوا حدا لهيمنة منافسيهم في المنطقة في المجالين الاقتصادي والسياسي خاصة غانة وزناتة، كما تمكنوا من توحيد منطقة نفوذ جديدة لدولتهم يسودها المذهب السني المالكي. ولم تتحقق هذه الأمور دفعة واحدة، كما لم يكن تحقيقها سهلا، وإنما تم ذلك عبر مراحل مرت بها الدولة المرابطية، فكيف نشأت تلك الدولة؟ وكيف كان تنظيمها السياسي؟ ومن هم أهم أمرائها السابقين لنهاية القرن11م؟

أ-نشأة الدولة:

تكتفي المصادر العربية في محاولاتها لعرض أسباب قيام دولة المرابطين بالحديث عن حجة يحيى بن إبراهيم الكدالي ولقائه في طريق عودته من الحج بأبي عمران الفاسي في القيروان وحضوره لحلقات دروسه بها، كما تذكر أنه طلب من ذلك الشيخ أن يوجه معه مرشدا يبين لقومه في الصحراء أمور الإسلام ويفقههم فيه وأن أبا عمران عرض المسألة على طلابه فاشفقوا على أنفسهم وامتنعوا عن تأدية تلك المهمة متذرعين ببعد الصحراء وانقطاعها عن إفريقية وبداوة سكانها وجاهليتهم وعدم تعودهم على ممارسة شعائر الإسلام وتعاليمه، وما قد ينجم عن ذلك من مخاطر قد تقضي على حياة من يحاول صدهم عن العادات والتقاليد التي درجوا عليها، فلم يكن من الشيخ إلا أن أحال الأمير يحيى برسالة إلى تلميذه وكاك بن زللو اللمطي، الذي كان يقيم في رباط له جنوبي السوس الأقصى، أي على المشارف الشمالية للصحراء، وطلب منه في تلك الرسالة أن يبعث مع يحيى بن إبراهيم من طلبته من يثق في دينه وحسن تدبيره، فوقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الذي اصطحبه الأمير الحاج إلى صحراء الملثمين، حيث بدأ في مباشرة تنفيذ خطة دينية وسياسية أدت في النهاية إلى قيام الدولة[740].

---

[739] إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1993، ص.9

[740] البكري مصدر سبق ذكره، ص: ص ص:164-166، وابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص ص:122-128، بيوتات فاس، مصدر سبق ذكره، ص:27.

كادت كل المصادر التي تعرضت لقيام دولة المرابطين أن تجمع على هذه الرواية، وتبقي اختلافاتها محصورة في قضايا جزئية وغير جوهرية، أولاها تتعلق بتاريخ حجة يحيى[741] في حين أن بعضها وهو الأقل، يعتقد أن الحاج ليس يحيى بن إبراهيم، وإنما فقيه كدالي يدعى الجوهر بن سكم أو ابن سجيم[742]، الذي نرى من خلال بعض المصادر أنه قد يكون من مرافقي يحيى أثناء رحلته المقدسة تلك[743]، مما يجعلنا نفكر في أنه كان بمثابة مستشاره ديني وأنه قد يكون هو الذي باشر الحوار مع الفقهاء الذين لقيهم الأمير أثناء رحلة حجه بمن فيهم أبو عمران الفاسي، لكن القرار النهائي بقي في يد يحيى ابن إبراهيم، إلا أن المتمعن في بعض الإشارات الواردة في تلك المصادر، ينتهي به المطاف إلى وجود عوامل اقتصادية وسياسية ودينية، تضافرت فيما بينها لتؤدي إلى قيام دولة المرابطين، ولم تكن تلك الحجة سوى محاولة لتجسيد ضغط تلك العوامل والاستجابة لها.

العامل الاقتصادي

هيمن الزناتيون في أواخر القرن10م على معظم المناطق ذات الصلة المباشرة بالتجارة عبر الصحراء في المغرب، ففي تافلالت حلت مغراوة محل الإمارة الصفرية وقامت بتوسيع نفوذها ليشمل خلال هذه الفترة السوس الأقصى ودرعة[744]، في حين تمكن زناتة إفريقية الاباضيون من الاستقرار بأودغست والتحكم عن طريق التحالف مع إمبراطورية غانة السودانية في النهايات الجنوبية للطرق التجارية[745]. وقد حرم الملثمون من الاستقرار في جنوب المغرب، حيث المراعي الجيدة وموارد التجارة، كما تم طردهم من عاصمتهم أودغست ذات السوق الرائجة والموقع الجغرافي المتميز، وذلك عندما تم تحالف بين غانة وزناتة إفريقية كان يستهدف وضع حد لهيمنة الملثمين على التجارة عبر للصحراء وإنهاء احتكارهم للملح وتجريدهم من دور الوساطة التجارية بين شمال إفريقيا والسودان الغربي، فتولت غانة فرض هيمنتها الإدارية والعسكرية على الجزء الحيوي من صحراء الملثمين، في حين أصبحت الهيمنة التجارية في المنطقة بيد زناتة إفريقية[746]، فأصبح سكان مدينة أودغست خلال منتصف

[741] يرى البعض مثلا أن عودة يحيى بن إبراهيم الكدالي من الحجة ولقاءه بأبي عمران الفاسي كانا خلال عام 440ه-، ومن بينهم على سبيل المثال: ابن عذاري، مصدر سبق ذكره، ج4، ص:7. وابن خلدون: العبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:373. وصاحب الحلل، مصدر سبق ذكره، ص:19. إلخ... في حين يرى ابن أبي زرع: أن الحجة تمت سنة 427هـ وأن يحيى مر بالقيروان فسلمه أبو عمران رسالة موجهة إلى وكاك بن زلوي اللمطي ليساعده على مطلبه وأن يحيى التقى بوكاك في رجب الفرد سنة 430هـ (أنظر ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:122-123.
ونرجح الرأي الأخير، باعتبار أن أبا عمران المتوفى في رمضان سنة430ه- لا يمكن أن يلتقي بالأمير الصحراوي بعد هذا التاريخ، وبالتالي يستحيل التصديق بالتاريخ المقدم من طرف مجموعة المؤرخين السالفي الذكر والمتمثل في سنة 440هـ، والذي نعتقد بأنهم اعتمدوه انطلاقا من قراءة نراها خاطئة لفقرة من كتاب البكري الذي كان مصدرا رئيسا بالنسبة لهم، وذلك أثناء حديثه عن قبائل الملثمين في الصحراء عندما قال: "وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعى الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين، وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ولقي في صدوره عن حجته الفقيه أبا عمران الفاسي". البكري، مصدر سبق ذكره، ص ص:164-165.

[742] ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ص: 74، والنويري: مصدر سبق ذكره، ص:375

[743] العبر: مصدر سبق ذكره، ص:373.

[744] J. DEVISSE, in TEGDAOUST I, op. cit., p. 150.

[745] Ibid, p. 129

[746] Idem.

القرن11م حسب البكري في غالبيتهم من الزناتيين، وذلك في قوله: "... وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسه ولواتة وزناتة ونفزاوة هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار..."[747].

ولقد فرضت هذه الوضعية على الملثمين التقوقع في الصحراء والاعتماد على تربية الإبل، بعيدا عن الواحات والمناطق الصالحة للزراعة، كما حرمتهم من الأرباح الكبيرة التي كانوا يحصلون عليها من إشرافهم على الطرق والثروات والمراكز التجارية في صحرائهم[748]، ولاشك أن هذا التقوقع الناجم عن التغييب السياسي للملثمين، كانت له انعكاسات على المستوى الاجتماعي، حيث أدى إلى تقليص مداخيل أعداد هامة من السكان ففرض على الذين كانوا يعيشون في الحواضر ويمارسون التجارة أو الزراعة وأولئك الذين كانوا يقومون بخدمات مرتبطة بالتجارة من أهل البوادي مقابل أجور أن مواجهة ظروف اقتصادية صعبة للغاية، وقد زاد تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسكان الصحراء بعد الجفاف الذي عرفته منطقتهم في النصف الأول من القرن11م، والذي كانت تأثيراته قاسية قبيل قيام دولة المرابطين، حيث أدى إلى هلاك جزء كبير من الثروة الحيوانية[749]، فكان لابد للملثمين من البحث عن مصادر بديلة تؤمن لهم الحد الأدنى من الحياة، وكانت التجارة العابرة لصحرائهم من أكثر الموارد إغراء لهم، لأن مردوديتها كانت خلال تلك الفترة مضمونة ومربحة أكثر من أي وقت مضى لأن النشاطات التجارية عبر المسالك الشرقية التي كانت تربط مصر وإفريقية ببلاد السودان الغربي بشكل مباشر توقفت آنذاك بسبب المخاطر الطبيعية والبشرية التي هددت أمن مرتادي تلك المسالك[750]، مما أدى إلى اتجاه القوافل المنطلقة من الشرق خلال القرن 5هـ/11م إلى سجلماسة أولا، قبل أن تتجه جنوبا عبر الطرق المخترقة لصحراء الملثمين فإلى بلاد السودان الغربي، فزادت القوافل الجديدة من حيوية التبادل التجاري عبر تلك الطرق وتنوع مواد التجارة والخدمات المرافقة لها على طول المحور الغربي للتجارة عبر الصحراء، فلم يكن أمام الملثمين إذن، خيار أفضل من توحيد صفوفهم وفرض هيمنتهم على الطرق والمراكز التجارية، فكانت محاولاتهم تحت قيادة أبي عبد الله محمد بن تيفاوت لبلوغ ذلك الغرض بداية مرحلة جديدة أدت إلى قيام دولة المرابطين التي وإن كان شعارها المعلن هو نشر الإسلام السني، فإن أهمية العامل الاقتصادي في نشأتها ظاهرة، ولا أدل على ذلك من أن الملثمين بعد أن ضمنوا وحدتهم، فتحوا أودغست سنة 446هـ/1054م ثم انعرجوا إلى الشمال ليسيطروا على سجلماسة ابتداء من 447هـ/1055م بدلا من أن يواصلوا فتوحاتهم باتجاه الجنوب الوثني.

ومن المعلوم أن سجلماسة كانت موقع تجمع لمعظم القوافل المتجهة من شمال إفريقيا إلى بلاد السودان الغربي، فهي منطلق الطرق من الشمال، في حين كانت أودغست مصب تلك الطرق على الحافة الجنوبية للصحراء، وفيها كانت تتم مركزة المواد التجارية القادمة من الجنوب، لذا فإن سيطرة الملثمين على قطبي التجارة عبر الصحراء الأساسيين والمناطق الفاصلة بينهما، كان إجراء أوليا ضروريا ومستعجلا لفك الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضا عليهم من طرف مغراوة في الشمال والاباضيين وغانة في الجنوب من جهة، والتخفيف من تأثير الجفاف من جهة أخرى، ولم يكن ليغيب عن بالهم أن وجود سلطة سياسية

---

747 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

748 قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص:101.

749 ابن الأثير: مصدر سبق ذكره، ص:76.

750 إبراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1994، ص: 57.

قوية تتكفل بحماية هذا المكسب هو الضمان الوحيد لاستمراريته فكان ذلك مبرر تأسيسهم للدولة المرابطية.

العامل السياسي:

تميزت بداية القرن5هـ/11م بحدوث تحولات كبيرة وعميقة الأثر على مستوى العالم بشكل عام والعالم الإسلامي بشكل خاص، فلقد سادت مظاهر الضعف الدولة الإسلامية في المشرق وغابت الدولة الأموية في الأندلس وتراجعت قوة بني زيري وبني حماد في إفريقية والمغرب الأوسط وأصبح المغرب الأقصى موزعا بين العشائر الزناتية المتنافرة، ومقابل ذلك، كان الغرب المسيحي على عتبة نهضته، حيث أحذت الإمارات النصرانية تدعو بعضها البعض إلى الوحدة السياسية، وتمكن بعضها من إحكام سيطرته على تجارة البحر الأبيض المتوسط، وأصبح الغرب يتطلع إلى احتلال أجزاء من الدولة الإسلامية، فكان لزاما على المسلمين التصدي للأطماع الصليبية في بلادهم، ونظرا إلى عجز المركز عن تحقيق ذلك التصدي، انتقلت مهمة إنقاذ المسلمين من هذا الخطر إلى الأطراف خاصة الشعوب البدوية (الأتراك في الشرق والملثمون في الغرب)[751]، وذلك عن طريق تحريض الفقهاء السنيين الذين كان مذهبهم يعرف انتعاشا كبيرا خلال تلك الفترة، وفي هذا الإطار بلذات ترجع المصادر التقليدية قيام دولة المرابطين إلى نتائج حجة يحيى بن إبراهيم الكدالي ولقائه بابي عمران الفاسي ثم وكاك بن زللو وعبد الله بن ياسين وربما غيرهم، وكلهم من الفقهاء المالكيين.

ويرى بعض الدارسين أن حجة يحيى بن إبراهيم، وهو زعيم التحالف الصنهاجي في الصحراء وقتها، كانت ترمي إلى وجود سند شرعي لمشروعه السياسي[752]، إذ لم تعد العصبية الصنهاجية كافية لتعبئة قبائل الملثمين من أجل مواجهة الأخطار المحدقة بها، حيث فقد الملثمون تماسكهم بسبب تأثيرات الحروب التي دارت فيما بينهم منذ سقوط مملكة أودغست، مما أدى إلى صعوبة توحيدهم ضد عدوهم المشترك، الأمر الذي شجع الزناتيين الخوارج على احتلال المدن والقرى التجارية في صحراء الملثمين، بعد أن هيمنت فروع أخرى منهم مثل بني خزرون وبني يفرن على واحات المغرب الأقصى، فكان ذلك بمثابة تحد للملثمين وتهديد لمصالحهم[753] وكان عليهم أن يواجهوا ذلك التحدي وأن يواجهوا جيوش إمبراطورية غانة التي احتلت جزءا من بلادهم يتضمن عاصمتهم أودغست، ويمكن أن نفترض في هذا السياق، أن يحيى بن إبراهيم كان على علم برغبة فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي في قيام دولة سنية توحد المسلمين تحت سلطتها وتدفع عنهم خطر النصارى، وربما يكون قد علم بذلك عن طريق صهره ابن تفاوت أوتجار إفريقية من العرب الذين كانوا يجوبون الصحراء، والذين ذكر البكري أنهم كانوا على خلاف وتباغص مع زناتة، وذلك في معرض حديثه عن أودغست في عهده[754].

---

751 عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغربج2. المركز الثقافي العربي بيروت. د.ت، ص: 107.
752 محمود اسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ:مرجع سبق ذكره،ص:72
753 محمد ولد داداه: مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع- دراسة في التاريخ السياسي. دار الكتاب اللبناني- بيروت . دار الكتاب المصري- القاهرة 1977، ص: 102.
754 البكري: مصدر سبق ذكره، ص 168.

ومما يدعم الرأي القائل بأن يحيى بن إبراهيم كان يهدف من وراء مروره بالقيروان إلى الحصول على دعم ديني لأهدافه السياسية، كونه لم يكن يتمتع بقدر من الثقافة الإسلامية يدعوه إلى التحمس للمذهب المالكي السني أو حتى للدين الإسلامي بصفة عامة، فقد أوردت المصادر معلومات تفيد جهله بأساسيات الإسلام، حيث كان متزوجا بتسع نسوة حرائر ولم يصحح ذلك الوضع إلا بعد أن بين له عبد الله بن ياسين حرمته في الإسلام وألح عليه بضرورة مفارقة خمس من بينهن[755]، كما ذكرت المصادر أن أبا عمران الفاسي اختبره في القيروان، فسأله عن أمور دينه وعن الفرائض منها بشكل خاص "... فلم يجده يعرف منها شيئا ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا..."[756].

وتتجلى أهمية العامل السياسي في قيام دولة المرابطين بوضوح، بعد فتحهم لمدينة أودغست، حيث استباحوا حريمها وقتل فيها ابن ياسين رجلا عربيا من أهل القيروان مشهورا بتقواه ومواظبته على تلاوة القرآن وحج البيت الحرام، ويفسر البكري قساوة المرابطين تجاه سكان أودغست من المسلمين بقوله: "وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه..."[757].

ويرى بعض الباحثين أن قيام الدولة المرابطية في الصحراء جاء في البداية كردة فعل انتقامية من صنهاجة ضد زناتة وغانة ومن المالكية ضد الخوارج[758]، وقد تحقق لهم ذلك بعد اجتماعهم تحت قيادة لمتونة التي لعبت فيهم دور قريش في العرب في جزيرتهم عند ظهور الاسلام[759]، وذلك بعد أن أعرضت عن الاستجابة للدعوة في بداية الأمر، لا لأنها دعوة دينية خالصة، وإنما لكونها تعبيرا عن مشروع سياسي كانت كدالة ممثلة في زعيمها يحيى بن إبراهيم تريد إنجازه وتدعو إليه جميع قبائل الصحراء[760]، و من الطبيعي أن ترفض لمتونة وهي أقوى العصبيات وأكثرها عددا وأعرقها في مجال ممارسة السلطة وقيادة الأحلاف الصنهاجية الانسياق وراء زعامة كدالة بسهولة.

وعلى الرغم من أهمية العاملين الاقتصادي والسياسي في نشأة دولة المرابطين، فإننا لا نشك في صدق المشاعر الدينية لمؤسسي تلك الدولة، وليس ذلك هدفا لنا، وإنما أردنا أن نبين جوانب أغفلها البعض على الرغم من إشارة المصادر إليها.

العامل الديني:

لا تنفى أهمية العاملين، الاقتصادي والسياسي في قيام دولة المرابطين وجود دور هام للعامل الديني إلى جانبهما، فحدث هام كقيام دولة المرابطين، لا بد أن تكون وراءه جملة من العوامل المتضافرة بشكل معقد يصعب معه ترتيبها من حيث الأهمية، ومع ذلك، فإن العامل الديني كان وقتها ضروريا ومهما لقيام الدول، فهو يتكامل مع العوامل المباشرة وغير المباشرة لتنصهر فيه، وغالبا ما كان يطغى عليها فيبرز على مظاهر الأحداث، فالعقيدة في نظر بعض

---

[755] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:124.

[756] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 122، والناصري، مصدر سبق ذكره ج2، ص:6

[757] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

[758] TEGDAOUST I, op. cit., p. 152.

[759] العروي: مرجع سبق ذكره، ج2، ص: 114.

[760] مقالات في الفكر والتاريخ: مرجع سبق ذكره، ص: 70.

المفكرين مهمة لإثارة حماس الأفراد والجماعات وتأطيرها[761]، وهذا الدور تجسد في هاجس تعميق الوازع الديني الذي كان زعماء الملثمين يسعون إلى تحقيقه بين القبائل قبيل قيام الدولة المرابطية[762]، وهو هدف كان مهما بالنسبة لهم ولشعبهم خلال تلك الفترة، فبالإضافة إلى مكانة الدين الروحية، فإنه يحث على الوحدة والتعاطف بين معتنقيه ويزيد من وحدة صفوفهم، وهو أمر كان الملثمون بحاجة إليه من أجل إعداد أنفسهم لمواجهة خصومهم الغانيين الوثنيين والزناتيين الخوارج. لذلك، فإن علاقة يحيى بن إبراهيم بالفقهاء المالكيين، هي حسب البعض ذات أبعاد سياسية في المقام الأول[763]، مع العلم أن السياسي والديني كانا دائما عاملين متداخلين ومتكاملين وحاسمين في نشأة الدول الإسلامية، فقد خصص ابن خلدون فصلا من مقدمته ليبين فيه أهمية الدعوة الدينية بالنسبة لقيام الدول، فذكر أن الدعوة الدينية تزيل الخلافات والتنافس بين مكونات العصبية المؤسسة للدولة، وأعطى من بين الأمثلة على صحة نظريته الدولة المرابطية نموذجا في قوله: "... واعتبر ذلك في دولة لمتونة والموحدين، فقد كان في المغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف عليهم، إلا أن الاجتماع الديني ضاعف عصبيتهم بالاستنصار والاستماتة، كما قلناه، فلم يقف أمامهم شيء..."[764].

ويرجع بعض الباحثين قيام دولة المرابطين إلى رغبة زعيم صنهاجة في تجديد الدعوة بين صفوف قومه الذين حرمتهم طبيعة الصحراء من الاستفادة من الفقهاء والعلماء الذين كان وجودهم وقتها مركزا في المدن، كما شوش توغلهم في الصحاري ومخالطتهم للوثنيين على معتقداتهم وممارساتهم الدينية السطحية أصلا حتى غدا إسلامهم اسميا لا مضمون له، ويشير صاحب هذا الرأي إلى أن تزامن حجة زعيم الملثمين وقتها يحيى بن إبراهيم مع بداية المد السني في العالم الإسلامي بصفة عامة وغربه بصفة خاصة، قد ساهم في ملاحظته للبون الواسع بين مستوى ثقافة قومه الإسلامية وما عليه إخوانهم في المناطق الإسلامية الأخرى، مما استدعى منه السعي إلى إنقاذهم بسرعة، فكان اتصاله بسلسلة الفقهاء المالكيين يهدف إلى تحقيق ذلك الغرض[765]، ويضيف البعض الآخر أن تشبث المرابطين في المراحل الأولى من قيام دولتهم بتعاليم الدين الإسلامي وحرصهم على تقليد كل ما هو مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، خاصة ما يتعلق بالقيادة والجهاد، من بين الدلائل التي تؤكد على أن الدافع الأساسي لقيام تلك الدولة هو العامل الديني وأن رأي المؤرخين القائلين بأن ذلك العامل كان مجرد غطاء للحاجات الاقتصادية للملثمين بحاجة إلى أن يراجع[766].

ويذهب آخرون إلى التأكيد على صدق نوايا قادة الملثمين وإخلاصهم لدينهم عندما قرروا السعي إلى تعميق المعارف الدينية لقومهم وإلزامهم بممارسات وشعائر الإسلام الصحيحة وأن تجسيدهم لتلك القناعة أدى إلى التحالف مع فقهاء المالكية لإقامة إطار سياسي يحقق هذا المشروع ويوسع مجاله ليشمل أرجاء المغرب الإسلامي وأن تلك الخطوات تبرهن على أن الدين لعب دورا حاسما في نشأة دولة المرابطين[767].

---

761 محمد عابد الجابري: العصبية والدولة في فكر ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص:49.

762 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.

763 بوتشيش: مرجع سبق ذكره، ص: 60.

764 المقدمة: مصدر سبق ذكره، ص: 207.

765 العروي: مرجع سبق ذكره، ج2، ص:111.

766 Moraes Farias, Paulo Fernando de :" The Almoravids: Som questions conserning the character of the movement during its period of closest contact with the western soudan " , BIFAN, série B , XXIX, 1967 , pp 794-878

767 Histoire générale de l'Afrique, op. cit., t3, p. 267.

وإذا سلمنا بأن بواكير قيام الدولة المرابطية كانت استجابة لحاجيات اقتصادية وأغراض سياسية، فإن تتبعنا لمراحل تطورتلك الدولة والطابع العام الذي ميزها عن غيرها من دول المنطقة، يبين حرصها على الإتباع الدقيق لتعاليم الإسلام السني المالكي في جميع مناحي الحياة إلى درجة أنها اشتهرت بهيمنة الفقهاء على قراراتها، مما يجعلنا نفكر في أن يحيى بن إبراهيم الكدالي ومن خلفه من أمراء الملثمين أصبحوا بعد قدوم ابن ياسين إلى الصحراء وتوحيد صنهاجة بها يولون اهتمامهم للدين أكثر من أي شيء آخر بل ويقدسون كل من له علاقة به إلى درجة أن الفقهاء أدبوا الأمراء ضربا بالسوط فاستكانوا لهم وأطاعوهم[768]، لكن من الطبيعي أن يحاول الأمراء استغلال الدين لأغراض سياسية فيقعون في شراكه ويتخذونه في البداية وسيلة يقنعون من خلالها غيرهم بمشروعية أهدافهم ووسائل تحقيقها، وبمرور الزمن تزداد قناعتهم هم أنفسهم ب تلك الحجج فيصبحون من أكبر المدافعين عنها[769].

وبصفة عامة، فإن المحرك الأساسي لدولة المرابطين قبيل وبعد نشأتها، هو الدين الإسلامي والرغبة في نشره في المناطق الوثنية، ونشر المذهب المالكي السني منه في المغرب الإسلامي، إذ هو بالنسبة لهم الدين الصحيح الخالي من الشوائب والبدع، وقد اتضح ذلك الهدف بجلاء منذ المراحل الأولى من نشأة الدولة.

- **مراحل قيام دولة المرابطين في الصحراء:**

كانت ولادة الدولة المرابطية عسيرة، فلقد قامت خلال ظرفية تميزت بتشتت القبائل الصنهاجية بعد تقويض مملكة أودغست التي كانت تجمع تلك القبائل، فتكالبت عليها القوى المتنافسة معها على مزايا التجارة عبر الصحراء، وتمكنت تلك القوى من تهميش الملثمين منذ أواخر القرن10م وعزلهم في المناطق الصحراوية بعيدا عن المناطق التجارية والزراعية، فأدت بهم هذه الوضعية إلى التنافر والتنافس فيما بينهم على المناطق الرعوية النادرة في الصحراء القاحلة وأصبحوا محاصرين فيها، وتوالت الحروب بين قبائلهم وعشائرهم وضعفت صلات بعضهم بالبعض وكادوا يفقدون اللحمة العصبية التي جمعت بينهم قرونا عديدة لولا انبعاث حركة إصلاحية بينهم في النصف الأول من القرن5هـ/11م كرست جهدها لجمع شملهم، لكن الدعوة إلى توحيدهم هذه المرة كانت ترفع شعارات التعاليم الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة.

ومهما كانت دوافع تلك الحركة فإن طابعها الجديد مكن قبائل الملثمين من تجاوز الضغائن والاتحاد لإعلاء كلمة الله بينهم وبين جيرانهم، فاستعاضوا عن الخلاف بالوحدة وعن الصراع حول المصالح الآنية والتخاذل من أجل الفوز بها بالجهاد والاستماتة من أجل الفوز بالشهادة أو النصر، فتمكنوا بواسطة هذه الروح العالية التي ضخها فيهم هذا العامل الجديد من استعادة نفوذهم على مناطقهم الأصلية وتجاوزوها حتى شيدوا إمبراطورية كادت تبسط سلطانها على الغرب الإسلامي كله، ولكن عقبات كثيرة اعترضت نشأة هذه الدولة بسبب واقع الفرقة والتشرذم الذي كان يخيم على الملثمين في طورها الابتدائي الصحراوي، فمرت بمراحل عديدة، نجملها فيما يلي:

المرحلة التمهيدية

---

768 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:166.

769 العقل السياسي العربي: مرجع سبق ذكره، ص:13.

تعود الإرهاصات الأولى لهذه المرحلة إلى تمكن الملثمين من إقامة حلف جمع بين قبائلهم، أوكلوا قيادته إلى رئيس قبيلة لمتونة أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المشهور بتارشتا أو تارشني. وقد تم تأسيس ذلك الحلف بعد أن أمضت تلك القبائل فترة من الفرقة والخلاف تباينت الروايات في تحديد أمدها، فذكر ابن أبي زرع والمصادر التي نقلت عنه أنها وصلت إلى 120 سنة ابتداء من ثورة رؤساء قبائل الملثمين على ملكهم تميم بن الأثير وقتلهم له سنة 306هـ وانتهت تلك الفترة بالنسبة له في بداية القرن5هـ في عهد ابن تيفاوت[770]، لكن مصدرا آخر، ذكر أن قبائل الملثمين كانت خلال النصف الثاني من القرن4هـ/10م موحدة وتابعة لمملكة أودغست التي كان يقودها في عهده ملك يدعى تينبروتان[771]، وهذا الملك هو نفسه الذي تحدث عنه كاتب آخر من أهل القرن10م نقل عنه البكري[772].

وانطلاقا من تلك الروايات، فإن فترة التشتت تراوحت بين 120 سنة -حسب ابن أبي زرع-، وعقود من الزمن حسب ابن حوقل والبكري. وبغض النظر عن مدة غياب السلطة الموحدة للملثمين خلال الفترة الفاصلة بين سقوط مملكة أودغست وتكوين الحلف الصنهاجي الذي سيفضي إلى قيام دولة المرابطين، فإن تلك الفترة وما رافقها من مصاعب ألقت بثقلها على كاهل تلك القبائل، وكانت كافية لأن يستخلص منها قادة أي تحالف للملثمين مكامن الضعف في مجتمعهم، والطرق المناسبة للتغلب عليها. وإذا كانت التفاصيل المتعلقة بحيثيات الظرفية التي تمكن خلالها ابن تيفاوت من توحيد الملثمين، والوسائل التي استخدمها في سبيل تحقيق ذلك الغرض، في غير متناولنا، نتيجة لصمت المصادر عنها، فإنه من شبه المؤكد أن تلك الوضعية تميزت عما سبقها بطابعها الديني الذي لا غبار عليه، فأول قائد لها وصف بأنه "من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد..."[773]، وهدفها المعلن هو الجهاد في سبيل الله، ، ويبدو أن هذا التوجه الجديد الذي عرفته صحراء الملثمين كان أكثر تبلورا ووضوحا عند القادة منه بين العامة، فعلى الرغم من أن قبائل الملثمين انضوت كلها تحت زعامة ابن تيفاوت، فإن المصادر لم تربط من بين تلك القبائل بالتوجه الديني خلال تلك الفترة سوى قبيلة واحدة صغيرة هي قبيلة بني وارث التي قال عنها ابن أبي زرع: "... قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة، وأسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتحه للمغرب، وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير دين الإسلام"[774].

وإذا علمنا أن ابن تفاوت قتل بعد ثلاث سنوات من توحيده للملثمين بالقرب من مدينة بانكلابين وهو يجاهد السودان، فإن ذلك يسمح بالاعتقاد أنه كان يعتمد بالدرجة الأولى على بني وارث، إذ المدينة التي قتل بالقرب منها مدينتهم[775]، خاصة أن أيا من القبائل الأخرى لم يرد أنها شاركته ذلك الجهاد، مع العلم أن معظمها دخل في الإسلام خلال الفترة مابين القرن9م و10م، فهل كان إسلام تلك القبائل يختلف في نوعيته عن الإسلام الذي كان ابن تيفاوت وبنو وارث متحمسين له، أي "أهل السنة والجماعة"؟ وهل كانت هنالك وقتها مذاهب تتوزع قبائل الملثمين منعتها من الاتفاق حول صيغة موحدة للجهاد؟

---

770 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121.

771 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.

772 البكري: مصدر سبق ذكره، ص. 159

773 بن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 121.

774 نفس المصدر ونفس الصفحة.

775 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

هذا ما لا تسمح لنا مصادرنا بالإجابة عليه بسهولة، مع أنه ليس بإمكاننا نفي وجود مذاهب مختلفة في الصحراء خلال تلك الفترة، إذ كانت هنالك جملة من المؤثرات تسمح بذلك مثل العلاقات التي كانت تربط المنطقة بدويلات الخوارج واستقرار جماعات من تجار تلك الدويلات بالصحراء واحتمال تأثيرهم فيها وارد، كما أن بعض قبائل الملثمين أسلمت على يد أبي عبيد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية[776]، مما يعزز الافتراض بوجود شيعة من بينهم، وإن كان واقع الإسلام بالصحراء خلال تلك الفترة وما كان يتميز به من سطحية لا يشجع على الجزم بوجود صراع مذهبي بها، على الرغم من أن المصادر أشارت إلى أن من بين أسباب ثورة كدالة على عبد الله بن ياسين وطردهم له، اكتشاف بعض فقهائهم لتناقضات ظهرت لهم في أحكامه، وأن أولئك الفقهاء قادوا الثورة ضده[777]، فهل كانت أحكامه وتعاليمه تتناقض مع مشهور مذهبهم أو نحلتهم؟ أم أنها مجرد خلافات حول التأويل داخل المذهب الواحد؟ مهما كان الجواب فإن الشيء الذي يهمنا هو أن خليفة ابن تيفاوت، وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي نهج مسلك سلفه المتمثل في إضفاء مسحة دينية سنية على المشروع السياسي الصنهاجي في الصحراء، ولعل أهم خطوة قطعها في سبيل تحقيق ذلك المشروع تتمثل في حجته التي اتصل في طريق عودته منها بأبي عمران الفاسي، ومن خلاله بوكاك بن زللو اللمطي، وانتهت هذه المرحلة باختيار عبد الله بن ياسين مرشدا لصنهاجة الصحراء وقدومه مع زعيمهم إلى بلاد الملثمين ليبدأ دعوته بينهم.

- **مرحلة الدعوة:**

بدأت هذه المرحلة بعد وصول يحيى بن إبراهيم وعبد الله بن ياسين إلى صحراء الملثمين قادمين من السوس الأقصى، وقد حرص يحيى على أن يقدم ابن ياسين للقبائل الصنهاجية التي كانا يمران بها على امتداد طريق عودتهما في شكل الرجل المقدس المنقذ، ويبدو أنه كان يرمي من وراء ذلك إلى إعطائه مكانة خاصة في نفوس الملثمين حتى ينصاعوا له ويلتزموا بتعاليمه، فكان الأمير ينزل عن دابته كلما مروا بحي من أحيائهم ويقود بالفقيه دابته إعلاء لقدره وتكريما له، ويصفه لهم بأنه "حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الإسلام"[778]، وعندما وصلا إلى قبيلة كدالة استقبلتهما بالسرور والفرح، وكذلك فعلت لمتونة[779]، واجتمع حول ابن ياسين حوالي 70 رجلا يتعلمون منه، ثم انفضوا من حوله بعد فترة من الزمن نتيجة لأسباب نعتقد أن المصادر لم توفها حقها ولم تبينها بشكل كامل، مع أن بين ثنايا الإشارات المتناثرة ما يمكن جمعه والاستعانة به من أجل الاقتراب من معرفة تلك الأسباب، خاصة إذا وضعنا تلك الإشارات في إطارها، ضمن مجمل الاتجاهات والتيارات التي صاحبت المخاض الذي أدى إلى قيام الدولة المرابطية في صحراء الملثمين، فلقد أوردت المصادر التي أعطت دور يحيى بن إبراهيم الكدالي للجوهر بن سكم - وهو فقيه من كدالة من المحتمل أنه رافق الأول في حجته- رواية لا تخلو من أهمية، حيث ذكرت أنهما عندما عادا وبدأ ابن ياسين في دعوته لقبائل صنهاجة، استجابت له مجموعة وناصبته مجموعة أخرى العداء، فنظمت المجموعة الأخيرة نفسها في "أحزاب" مناوئة له، فأشار على صاحبه بضرورة قتال مخالفيهم، وأوضح له أن ذلك يستوجب تنظيم المؤمنين

---

[776] ياقوت الحموى: مصدر سبق ذكره، ص:278.

[777] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.

[778] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 377.

[779] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:123.

بالدعوة تحت راية واحدة، وقيادة أمير، فعرض عليه الجوهر الإمارة، فرفضها ابن ياسين معللا ذلك بأن الإمارة تتجاوز حدود مهمته المتمثلة في سرد نصوص الشريعة وتبيان مقاصدها لمن يجهلها، ثم ردها إلى صاحبه، الذي رفضها بدوره بسبب ورعه وخوفه منتحمل وزر تسلط قبيلته على سكان الصحراء وما قد تنشره من الفساد، فاقترح عليه ابن ياسين عرضها على رئيس قبيلة لمتونة مبينا أهمية نقلها إلى تلك القبيلة فقال: "... فهذا أبو بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها وهو رجل جليل القدر ميسور الحال محمود السيرة مطاع في قومه نسير ونعرض تقدمه الأمرة عليه، فلحب الرئاسة يستجيب إلى ذلك بنفسه ولمكان الجاه ستجتمع عليه طائفة من قبيلته يقوى بها على عدونا..."[780].

وإذا تغاضينا عن بعض الأخطاء الطفيفة في هذه الرواية، وصححناها انطلاقا مما هو شائع ومتواتر عليه في المصادر الأخرى، فجعلنا يحيى بن إبراهيم مكان الجوهر، ويحيى بن عمر بدلا من أخيه أبي بكر ، فإنها تصبح مناسبة لأن تكون أساسا لقراءة جديدة تساعد على معرفة أحد أهم منعطفات بداية تشكل الحركة المرابطية، فسواء كانت تلك المصادر أمينة في نقلها للحوار الذي دار بين ابن ياسين ويحيي بن إبراهيم حول مسألة الإمارة بتفاصيله، أم أنها احتفظت فقط بمضمونه العام، فإن المهم هنا هو اقتناع ابن ياسين كزعيم روحي للحركة الإصلاحية في الصحراء بإعادة زعامة الملثمين إلى سابق عهدها منذ تشكلت الأحلاف والدول الصنهاجية التي عرفتها الصحراء، إذ كانت تلك الزعامة مستقرة في بطن من لمتونة يعرف ببني ورتنطق، وذلك لعلم ابن ياسين بأن نجاح دعوته لا يمكن أن يضمن إلا إذا تبنتها سلطة سياسية ذات قوة وأن تلك السلطة لا يمكن أن تستقر وتستمر إلا في أقوى العصبيات الصنهاجية في الصحراء، فكان اختياره لزعيم لمتونة الذي ينتمي إلى البيت الملكي التقليدي للملثمين دليلا على أن تلك القبيلة كانت حتى تلك الفترة تشكل النواة الأساسية التي لا يمكن لصنهاجة الجنوب الاجتماع بشكل جدي إلا حولها، كما أن استجابة الزعيم الكدالي له بعفوية وسهولة، تستدعي منا البحث لها عن تفسير يتجاوز النص، إذ ليست عفة وزهد أمير حديث العهد بتعاليم الإسلام كافية لفهم تنازله عن السلطة وتسليم قيادة قبيلته لزعيم قبيلة أخرى، مهما كانت قوة صلتها بها، فهذا أمر لا يحدث في المجتمعات القبلية إلا في حالة الإذعان للغلبة العسكرية أو الحاجة الاقتصادية، وهما أمران لم يكونا منطبقين على كدالة خلال تلك الفترة.

وإذا حاولنا البحث عن دافع آخر لتنازل هذا الزعيم عن موقعه القيادي، فإن عودتنا إلى الظروف التي تسلم خلالها قيادة الملثمين قد تساعد في توضيح ذلك الأمر، خصوصا إذ تولى قيادتهم بعد وفاة قائدهم اللمتوني أبو عبد الله محمد بن تيفاوت، وهو صهر هذا الأمير. فهل كان غياب ابن تيفاوت المفاجئ بعد مقتله أثناء المعركة هو الذي منح يحيى ابن إبراهيم قيادة مؤقتة للحلف الصنهاجي في انتظار اتفاق لمتونة على زعيم جديد؟ أم أن بيت ابن تيفاوت لم يكن وقتها يشتمل على شخص مؤهل لخلافته فأوصى لزوج ابنته بها، فتكون قيادة زعيم كدالة للحلف الصنهاجي مرتبطة بشخصه وليس بقبيلته لكونه زوج أميرة، ومن اللازم عليه أن يعيدها لمستحقيها بعد أن تجاوزوا أزمتهم وأصبح لهم قائدهم المطاع، فيكون زهد يحيى بن إبراهيم في الزعامة نابعا من إدراكه لضرورة إعادة الحق في الملك إلى ذويه من جهة، واقتناعه بخطورة تغييب لمتونة عن دورها التقليدي في قيادة الملثمين على مستقبل الدعوة التي كان هو نفسه متحمسا لها.

وعلى الرغم من أهمية الروايات الواردة في المصادر السالفة الذكر، فإن هنالك مصادر أخرى تصور المرحلة الأولى من دعوة ابن ياسين في الصحراء بشكل آخر، وإن كان اختلاف

---

[780] النويري: مصدر سبق ذكره، ص:378. انظر أيضا بهذا الخصوص ابن الأثير: مصدر سبق ذكره، ص:76 وما بعدها.

العبارات الواردة فيها والمقاصد الظاهرة لتلك العبارات لا يمنع البتة من ربطها بمضمون الإشارات السابقة، حيث تذكر تلك المصادر أن يحيى بن إبراهيم نزل بابن ياسين بين كدالة.."فاجتمع عليه عندهم حوالي سبعين شخصا مابين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم، فانقادوا له انقيادا عظيما ووالوه في ابتداء الأمر تكريما وأقاموا معه على ذلك مدة كبيرة واجتمع عليه منهم أعداد كثيرة"[781]، وأن عبد الله بن ياسين بقي بين الكداليين يمتثلون لأوامره إلى أن قام ضده فقيه منهم يدعى الجوهر بن سكم بعد أن اكتشف تناقضا في أحكامه، فألب ضده بعض زعماء عشائر كدالة من أشهرهم شخصان أحدهما يدعى أيار والآخر اينتكو "فعزلوه عن الرأي والمشورة... وطردوه وهدموا داره وانتهبوا ما كان فيها من أثاث وخرثي، فخرج مستخفيا..."[782]، ويرد ابن أبي زرع ثورة الكداليين على ابن ياسين إلى تشدد هذا الداعية معهم في محاربته للمنكرات التي تعودوا عليها وأن ردة فعله على ثورتهم تمثلت في مغادرته لهم واعتزاله عنهم مع أميرهم يحيى بن إبراهيم، ويقول في هذا الصدد: "... فلما رأوه قد شدد عليهم في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرأوا منه وهجروه ونافروه وثقل ذلك عليهم، ومع ذلك فإنه وجد أكثرهم لا يصلون ولا يزكون...، فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم واتباعهم أهواءهم أراد الرحيل عنهم..."[783].

وبصفة عامة فإن معظم المصادر التي تحدثت عن بداية دعوة ابن ياسين للملثمين تشير إلى أن إقامته مع يحيى بن إبراهيم بين كدالة انتهت بخروجه عنهم وانتقال الزعامة منهم إلى لمتونة، وأن خروجه عنهم مثل منعطفا جديدا في مسار الأحداث التي أدت إلى قيام الدولة المرابطية، وإن كانت تلك المصادر تختلف حول الأحداث التي تلت ذلك الخروج، حيث يرى بعضها أنه استعان ببعض القبائل الصحراوية ضد الأخرى، في حين تورد أخرى أنه أسس رباطا توافد عليه الأتباع فغزا بهم تلك القبائل حتى أخضعها.

إشكالية الرباط وتسمية المرابطين:

مثلت إذن انتفاضة الكداليين ضد ابن ياسين وتعاليمه و خروجه من ديارهم منعطفا في مسار دعوته في الصحراء، حيث اتخذت تلك الدعوة توجها وطابعا جديدين كانا بمثابة ردة الفعل على عدم انصياع الملثمين للداعية، الذي يبدو أنه سعى منذ ذلك الوقت إلى التشدد في اختيار أتباعه وكل من يسعى إلى الاستفادة من علمه وتوجيهاته الدينية، فكان يخضعهم لتدريبات عقلية وبدنية قبل أن يتوجه بهم إلى القبائل الخارجة عن نطاق الدعوة ليخضعها بالقوة، و قد عرف أولئك الأتباع فيما بعد باسم المرابطين ثم شمل ذلك الاسم جميع قبائل الملثمين عندما أخضعها ابن ياسين وأتباعه وأصبحت تشاركهم في تبني نفس التصورات والأهداف.

وتختلف المصادر حول الطريقة التي جمع بها ابن ياسين أتباعه بعد خروجه عن كدالة، وكذلك حول تسمية المرابطين، حيث لم يشر بعضها بشكل صريح إلى لجوئه وأتباعه الأولين إلى موقع محدد ليرابطوا به استعدادا للانطلاق منه من أجل إخضاع سكان الصحراء، في حين ربطت مصادر أخرى تسمية المرابطين بالرباط الذي أسسه ذلك الفقيه ورفاقه الأوائل، فتحدثت عن توافد الأتباع عليهم وتعرضت للتكوين الروحي والبدني الذي خضعوا له أثناء مرابطتهم، ثم

---

781 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 8.

782 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165.

783 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 124.

خروجهم للجهاد وإخضاعهم للملثمين، وينقسم الدارسون انطلاقا من ذلك إلى فريقين بين مؤيد لربط تسمية المرابطين بالجهاد، ويرجح هذا الفريق اعتمادا على تفسيره لعبارات في بعض المصادر أن المرابطة لم تحدث في موقع معين، في حين استأنس الفريق الآخر بما وفرته له المصادر الأخرى فأكد حدوثها واختلف حول الموقع الذي احتضنها.

وتعتبر الإشارات التي وفرها البكري من أهم المصادر التي بنى على أساسها الفريق الأول من الباحثين رأيه، فقد ذكر أن ابن ياسين خرج مستخفيا من بين قبائل كدالة وتوجه إلى الشمال عائدا إلى شيخه وكاك بن زللو وأن هذا الأخير أرسل رسالة إلى صنهاجة الصحراء عاتبهم فيها وقال فيها أن مخالفي أمر تلميذه "فارقوا الجماعة" وأباح دماءهم، ثم أمر ابن ياسين بالرجوع إليهم، ففعل وقتل كل من استوجب عنده القتل من مناوئيه وتمكن من الاستيلاء على الصحراء[784].

وقد أورد ابن عذاري في هذا الصدد روايتين، إحداهما متطابقة مع رواية البكري ومن المعتقد أنه نقلها عنه، أما الثانية فقد ذكر فيها أن ابن ياسين توجه إلى لمتونة بعد خرجه من قبائل كدالة خائفا، فاستقبله زعيمها يحيى بن عمر بحفاوة واحتصنه، ثم إن ابن ياسين أرسل إلى شيخه وكاك يعلمه بما جرى له مع كدالة، فكتب هذا الأخير إلى بعض مشاهير كدالة يذكرهم بانقيادهم إلى عبد الله في البداية ويعيب عليهم نكوصهم عنه استجابة لما روجه أعداؤه عنه، ولم يبين هذا المؤلف تفاصيل حول الشائعات التي روجها أعداء عبد الله بن ياسين بغرض تشويهه ولا أسباب عداء بعض الكداليين له، واكتفى بالقول بأن المجموعة التي وجه إليها وكاك رسالته ردت عليه معتذرة عن تقصيرها في حق ابن ياسين، فأمره بالعودة إليهم، فعاقب معظم الخارجين عليه بالقتل واستجابت له بعض القبائل الصنهاجية[785].

أما صاحب الحلل، فلم يتعرض حتى للحديث عن الخلاف الذي حدث بين كدالة وابن ياسين وإنما ذكر أنه غزا بهم لمتونة وقبائل الصحراء الأخرى حتى دخلوا في دعوته وأن تحمس قبيلة لمتونة لدعوته كان كبيرا فاستقر بينهم "فانقادوا له وأطاعوه وكان أشد الناس انقيادا إليه أمير لمتونة أبو زكريا يحيى بن عمر"، لكنه لم يذكر أن تحوله للإقمة بين لمتونة كان لسوء تفاهم مع كدالة[786].

ويتفق أصحاب المصادر الأنفة الذكر على أن ابن ياسين أطلق على المقاتلين من أجل نشر دعوته اسم المرابطين، لما رآه من صبرهم وحسن بلائهم في حروبهم ضد أعدائهم[787]، وقد اعتمد بعض الدارسين على هذه المصادر، فأصدروا أحكاما بعدم وجود رباط في مكان محدد بالصحراء، ومن أبرز أولئك الباحثين على سبيل المثال: مارياس فارياس[788] ، وذلك على الرغم من إطلاعه على ما ورد في الروايتين اللتين أوردهما كل من ابن أبي زرع وابن خلدون حول ذلك الرباط ووصفهما للمنطقة التي احتضنته[789].

---

784 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 166.
785 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:9.
786 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص: 20و 21.
787 ابن عذاري: ج4، مصدر سبق ذكره، ص:12.
788 Moreas Farias, op. cit. pp 794-
789 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص ص: 124-125 . العبر المجلد6: سبق ذكره، ص:374

وإذا تفحصنا المصادر التي اتخذها أولئك الباحثون أساسا لحكمهم، فسنجد أنها لم تنف بشكل قاطع وصريح انعزال ابن ياسين وأتباعه في موقع معين، كما أن الروايات التي قدمها بعضها والتي تفيد أن ابن ياسين توجه إلى شيعة وكاك وأن هذا الأخير عاتب الملثمين وخوفهم فتراجعوا، تعتبر في نظرنا غير مقنعة، ولاشك أنها تسربت إلى أولئك المؤلفين عن طريق بعض الرواة غير الجديرين بالثقة، إذ من المعروف أن أيا من أولئك الكتاب لم يزر المنطقة ولم يعاصر الأحداث منهم إلا البكري وقد ذكر أن ابن ياسين خرج إلى وكاك بن زللو، لكنه لا ينف حدوث المرابطة أصلا، بل شار إلي حوثها عند ما تحدث عن بداية قيام الحركة المرابطية ودور ابن ياسين فيها، فكتب يقول: "وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين..."[790]، ثم إنه أشار إلى الرباط في معرض حديثه عن تجاوزات عبد الله بن ياسين وأتباعه أثناء عقابهم لمن أسلم من صنهاجة، حيث أقاموا عليهم حدود الجرائم التي ارتكبوها قبل إسلامهم، وذلك في قوله: "... وهكذا يفعلون بمن تغلبوا عليه وأدخلوه في رباطهم..."[791]، وقد صرح البكري يصرح أنه لم يورد بعض التفاصيل المتعلقة ببداية المرابطين مع إلمامه بها طلبا للاختصار[792].

وتكثر مواطن الضعف في الرواية القائلة بأن ابن ياسين ذهب بعد خروجه عن كدالة إلى وكاك وأن هذا الأخير أرسل رسالة إلى الملثمين يصف فيها الخارجين على أوامر ابن ياسين بأنهم "فارقوا الجماعة"، وهددهم بأن "دمهم هدر"، وأنه أمر تلميذه بالعودة إليهم فقتل من استحق عنده القتل وأخضع الصحراء، ومن بين القضايا التي تمنعنا من التسليم بهذه الرواية:

1- عدم وجود وازع ديني قوي لدى قبائل الملثمين خلال تلك الفترة، إذ لو كان لديهم لما ثاروا ضد تعاليم ابن ياسين لمجرد أنه حاول أن يبعدهم عن بعض العادات المخالفة للشريعة الإسلامية، وهو أمر يجعلنا لا نستسيغ تهديد وكاك لهم وسهولة تراجعهم أمام ذلك التهديد الذي لم يكن يستند إلى قوة قاهرة تخيفهم وإنما إلى مكانة صاحبها العلمية والدينية!

2- أن وكاك لم يكن معروفا عند الملثمين بالقدر الذي تكون فيه أوامره مجابة عندهم، ولو كان الأمر كذلك لما كان تعرفهم عليه قد تم عن طريق أبي عمران الفاسي في القيروان.

3- ثم ما هي القوة التي اعتمد عليها ابن ياسين بعد عودته ومكنته من قتل خلق كثير؟ وبأي سلطان تسلط على رقاب الملثمين؟، فسلطان الدين لم يكن قويا بين غالبيتهم ويكن قد وصل وقتها حد الاستسلامهم له والرضا بما يصدره ومد الرقاب للقتل، وتشر المصادر التي أوردت تلك الرواية إلى اعتماده على قوة داخلية أو خارجية يرهب بها من أقام فيهم الحد وقتل من بينهم خلقا كثيرا.

لذلك، فإننا نرجح الرواية التي أوردها كل من ابن أبي زرع وابن خلدون ومن نقل عنهما من الكتاب، على الرغم من أن أصحابها لم يعاصروا الأحداث التي كتبوا عنها لكنهم نقلوا عن مصادر لم تعد متوفرة، ومع أن روايتي ابن أبي زرع وابن خلدون تتفقان في إطارهما العام المتعلق بحدوث الرباط، فإنهما تختلفان في بعض التفاصيل، خاصة فيما يتعلق بموقع الجزيرة التي رابط فيها ابن ياسين وكذلك حول الزعيم الصنهاجي الذي رابط معه.

---

790 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.
791 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:169.
792 نفس المصدر، ص: 165.

فقد ذكر ابن أبي زرع أن الذي أشار على ابن ياسين بالرباط هو يحيى بن إبراهيم الكدالي، ثم إنه قدم وصفا للمكان الذي تمت فيه المرابطة، وذلك على لسان يحيى بن إبراهيم في حواره مع ابن ياسين، عندما قال له: "... إن ههنا في بلادنا جزيرة في البحر إذا انحسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا وإذا امتلأ دخلناها في الزوارق وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من أشجار البرية وصيد البحر وأصناف الطير والوحش والحوت..."[793]، ثم أضاف أنهما دخلاها مع سبعة نفر من كدالة "فابتنيا بها رابطة"[794].

أما ابن خلدون، فإنه أورد أن الزعيم الذي صاحب ابن ياسين ورابط معه هو يحيى بن عمر اللمتوني، وذلك في قوله: "... ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم واطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا منه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخوه أبوبكر..."[795]، ثم إنه قدم وصفا للموقع الذي احتضن الرباط فقال: "... فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها، ضحضاحا في المصيف وغمرا في الشتاء، فتعود جزرا منقطعة، فدخلوا في غياضها منقطعين للعبادة، وتسامع الناس بهم من في قلبه مثقال حبة من خير، فتسايلوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم..."[796].

ويمكننا التوفيق بين نصي ابن أبي زرع وابن خلدون، خاصة فيما يتعلق بالنقطتين اللتين يرى البعض أنهما اختلفا بشأنهما:

ففيما يتعلق بالزعيم الصنهاجي الذي رابط مع ابن ياسين ورفاقه، فإننا نعتقد أن يحيي بن إبراهيم الكدالي هو الذي أشار على ابن ياسين بذلك، فلقد كانت المنطقة الساحلية المحاذية لبلاد السودان تدخل في نطاق نفوذ كدالة، وإذا سلمنا بصحة الرأي القائل بتنازل ابن إبراهيم عن السلطة ليحيى بن عمر، فإن الفرق بين الروايتين يصبح طفيفا في نظرنا وناتجا عن تركيز المصادر التي اعتمدها المؤلفان على الشخصية التي يراها كل واحد من منظاره أجدر من سواها بالذكر كنموذج يغني عن ذكر أسماء الآخرين سعيا إلى الإيجاز بينما يرى البعض الآخر أن يحيى بن إبراهيم هو من دعا إلى الرباط لكن الإشارة إلى يحيى بن عمر في المصادر تشير إلى انتقال الأمر إليه بعد اختياره أميرا للملثمين، وذلك على الرغم من أن ابن عذاري يتفق مع ابن خلدون في أن يحيى بن إبراهيم توفى قبل خروج ابن ياسين عن بني كدالة[797].

أما فيما يتعلق بتحديد موقع الرباط، انطلاقا من الأوصاف التي قدمها كل واحد من المؤلفين، فإن مكمن الخلاف بينهما عند الدارسين ينحصر في أن الأول يعني بالبحر: المحيط الأطلسي، وبالتالي انصرف تفكير بعض الباحثين إلى الجزر الأطلسية المحاذية لشواطئ صحراء الملثمين، وبصفة خاصة جزيرة تيدرة، في حين فسر آخرون مصطلح "بحر النيل" عند ابن خلدون بالنهر فاتجه تفكيرهم إلى نهر السنغال.

---

793 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 124.

794 نفس المصدر، ص: 125.

795 ابن خلدون: المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص: 374.

796 نفس المصدر ونفس الصفحة.

797 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:8.

ويبرر الذين رجحوا أن تكون جزيرة تيدرة الواقعة في منتصف المسافة بين مدينتي نواكشوط وانواذيبو الحاليتين هي الجزيرة التي أقيم فيها الرباط، اختيارهم لها بجملة من المبررات يذكرون من بينها: وجود ممر سري بين اليابسة وتلك الجزيرة يمكن للإنسان أثناء فترات الجزر عبوره مشيا على الأقدام، وأن السائر يمضي ساعة من السير وهو يخوض مياه البحر قبل أن يصل إلى الجزيرة وأن ارتفاع تلك المياه كان يصل صدره، إلا أن الباحثين لم يعثروا على آثار للمياه الصالحة للشرب في هذه الجزيرة لكنهم لم يستبعدوا أن تكون موجودة خلال الفترة التي تم أثناءها تأسيس الرباط، وذكروا أن ظروف المقام بها كانت جيدة خلال عهد المرابطين وأنها كانت توفر الاكتفاء الذاتي للمقيمين فيها وأنهم لم يكونوا بحاجة إلى أي شيء خارجها، وأضافوا أن روايات محلية شفوية أكدت لهم أن جزيرة تيدرة هي التي لجأ إليها المرابطون في بداية أمرهم[798]، ومع أننا لا نمتلك نصا واضحا يسمح باستبعاد هذا الرأي، فإننا لا نجد ما يبرر الاعتقاد بوجود تناقض بين روايتي ابن أبي زرع وابن خلدون في هذا الموضوع، فكلمة "بحر" عند ابن أبي زرع لا تعني بالضرورة "المحيط"، وقد يكون ابن خلدون أدق في اختيار المفاهيم عند ما ذكر أن المرابطة تمت في النهر "النيل".

ويمكننا تبرير الرأي القائل بأن الرباط تم بالقرب من مصب نهر السنغال اعتمادا على رواية ابن خلدون بجملة من المعطيات نذكر من بينها أن تأسيس الرباط يتم عادة على الثغور بين المسلمين والمجموعات التي ستكون هدفا للجهاد، ولا يكون وسط الأعداء، وبالتالي فإن اختيار مصب نهر السنغال يوفر للمرابطين الحماية من طرف الممالك الإسلامية السودانية على الضفة اليسرى للنهر، خاصة مملكة تكرور، فقد ذكر ابن أبي زرع أن ابن ياسين كان ينوي الهجرة إلى أولئك السودان والاستقرار بينهم لأنهم مسلمون قبل أن يقنعه يحيى بن إبراهيم بالمرابطة في الجزيرة المذكورة[799]، لذلك فإننا نعتقد أن الاقتراب منهم والتعويل على حمايتهم من بين الأمور التي يمكن أن تحول دون تعرض المرابطين لهجوم من أعدائهم من الملثمين، خاصة أولئك الذين أخرجوهم وأفشلوا دعوتهم، ومن بين الأمور التي تثبت استعداد السودانيين للدفاع عن المرابطين في هذه المرحلة كون مملكة تكرور شاركت بقيادة أميرها لبي بن وارجابي في معارك المرابطين بعد خروجهم من الرباط لإخضاع قبائل الصحراء، وقد قتل أميرها مع يحيى بن عمر في معركة ضد كدالة[800].

ومن جهة أخرى فإن النهر كان كثيرا ما يحيط بالمناطق الواقعة قرب مصبه في مواسم فيضاناته مشكلا جزيرة لا تختلف أوصافها عما ذكره ابن خلدون[801]، وقد احتفظت الروايات المحلية بذكرى إقامة المرابطين بالقرب من مصب النهر، فقد نقل سيدات عن سيد الأمين نياس أن الاسم الأول للموقع الذي شيدت عليه مدينة أندر وهو "دار المرابطين" نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين وأن سكان المنطقة من السودانيين استصعبوا نطقه فرحرفوه إلى "أندر"[802]، وتذكرنا تسمية "دار المرابطين" بما أورده عياض أثناء حديثه عن وكاك شيخ ابن ياسين، عند ما ذكر أنه أسس دارا للعبادة وتعليم العلوم الشرعية في السوس أطلق عليها "دار

---

798 HUGOT: "Deuxième Mission dans l'Ile de Tidra (Mauritanie), 27 janvier-4 mars 1966", in BIFAN, série B, t. XXVIII, n! 3-4 juillet- octobre 1966, pp. 1019-1023.

799 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص ص:124-125.

800 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:167 و168.

801 D. ROBERT- CHALEIX: "Coquillages et jarosite: propos de la saline médiévale de l'Awlil", in Journal des Africanistes, Paris, 1991, pp. 169.185-

802 سيدات بن الشيخ المصطفى: البرهان القاطع الجلي عن ماثبت عن أصل نسب وتاريخ إيديشلي مخطوط- بحوزة الأستاذ محمد المختار ولد السعد- أستاذ بجامعة نواكشوط، ص:21.

المرابطين"[803]، مما يجعلنا نفكر في أن ابن ياسين احتفظ بذكرى رباط شيخه وكان حريصا على التأسي به شكلا ومضمونا.

وعلى الرغم من أن أيا من الموقعين اللذين يحتمل أن أحدهما آوى المرابطين، لا يحتوي على مخلفات بارزة لمباني تعود إلى تلك الفترة[804]، فإننا نعتقد أن طبيعة المرابطين البدوية وقصر الفترة التي أمضوها في الرباط تقلل من احتمال اهتمامهم بتشييد مباني قوية يمكنهم الاستعاضة عنها بالخيام والعرائش المبنية بأغصان الأشجار والحشيش أو الطين، خاصة أن فترة المرابطة لم تتجاوز ثلاثة أشهر، وخلاصة الأمر أننا نرى أن الرباط تم بالقرب من النهر وليس في المحيط، وهو رأي لا ننفرد به، وإن كان معظم من اطلعنا على كتاباتهم ممن أخذوا به لا يكلفون أنفسهم عناء تبريره[805].

وقد لعب الرباط على الرغم من قصر مدته دورا حاسما في تكوين الوافدين عليه من الناحية الدينية والعسكرية وإعدادهم للسيطرة على الصحراء وإقامة الدولة، فقد ذكرت المصادر أن الملثمين بدأوا يتوافدون على الرباط عند ما ذاع بينهم انصراف مجموعة منهم إلى عبادة الله وانزوائها في جزيرة لذلك الغرض، حتى وصل عددهم إلى ألف رجل خلال مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر[806].

ويرى البعض أن من بين مسوغات الانزواء في تلك الجزيرة والمرابطة فيها، الابتعاد عن الصراع الذي كان محتدما بين قبائل الملثمين حول الزعامة، كما أن الرباط بالنسبة لأصحاب هذا الرأي كان مدرسة استقبلت المؤمنين برسالتها بطريقة طوعية وأن ذلك كان الدليل الأول على إخلاصهم وتفانيهم للوصول إلى الأهداف المنشودة، فيتم إعدادهم وتدريبهم على تحمل الحرمان والالتزام بالطاعة وتغليب العقيدة على القبيلة والانصياع لأوامر الشرع وأولي الأمر[807].

ويتحدث ابن أبي زرع عن ذلك الإعداد في إطار عرضه لأخبار توافد الملثمين على الرباط والجهود التي بذلها ابن ياسين من أجل إعدادهم للدور المنتظر منهم فقال: "وأخذ هو يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار وأمرهم بتقى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة"[808]، وإذا كان برنامج ابن ياسين في الرباط قد ركز في شقه الأول على تعليم المرابطين الكتاب والسنة، فإنه في المرحلة الثانية ركز على إعدادهم لإقامة الدولة وتعميم الدعوة، عن طريق "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، عند ما أصبح واثقا من قوتهم ثم أمرهم بالجهاد لإقامة الدولة الإسلامية في الصحراء، فأخذت الحركة منعطفا جديدا.

---

803 القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك- تحقيق د. احمد بكر محمود 3مجلدات- منشورات مكتبة الحياة بيروت- دار مكتبة الفكر طرابلس- ليبيا، 1967، المجلد2، ص:781

804 H. J. HUGOT: "Mission l'Ile de Tidra", BIFAN, série B, t. XXVIII, n! 1-2, janvier - avril, 1966, pp. 555-563

805 انظر مثلا: إبراهيم محمد الجمل: ؛الإمام عبد الله بن ياسين في رباط السنغال« مجلة البحث العلمي - المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، العدد29-30، 1979، ص ص:247-265.

806 ابن أبي زرع، ص125 ، العبر: ص:374 وكذلك مقالات في الفكر والتاريخ، مرع سبق ذكره، ص:70، الخ...

807 ابن الشرقي حصري أحمد: مرجع سبق ذكره، ص:29.

808 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125.

مرحلة إخضاع الصحراء وإقامة أسس الدولة:

تبدأ هذه المرحلة بعد خروج ابن ياسين وأتباعه من عزلتهم في الرباط الذي أقاموه قرب مصب نهر السنغال، وتنتهي بعد إخضاعهم للملثمين وسيطرتهم على أطراف الصحراء ابتداء من سنة 1055م، ويرى ابن خلدون أن توافد الملثمين على الرباط وتزايد أعدادهم به إلى أن وصلت ألف رجل، كانت من بين الأسباب التي دفعت ابن ياسين ورفاقه إلى اتخاذ قرار إخضاع سكان الصحراء بالقوة، ويقول في هذا الصدد: "... ولما كمل معهم ألف من الرجالات قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين إن ألفا لن تغلب من قلة وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة"[809].

أما ابن أبي زرع، فقد ذكر أن مجموعة الرباط قررت أولا عرض التوبة على الملثمين وإعطائهم فرصة التفكير في أمرهم، وأن ابن ياسين بعثت كل مجموعة إلى قبيلتها لتقنعها بتبني الدعوة واتباع السنة، لكن تلك الجهود لم تكلل بالنجاح فتم اللجوء إلى استخدام القوة، وفى ذلك يقول أثناء حديثه عن مجموعة الرباط و شيخها عبد الله بن ياسين ما نصه: "فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبا، فشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار... فقال لهم اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عماهم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ولجو في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"[810].

ويضيف ابن أبي زرع أن ابن ياسين وأتباعه خرجوا من رباطهم وهم في ثلاثة آلاف مقاتل وأنهم استغلوا الصراعات التي كانت قائمة بين قبائل الملثمين حول السلطة ونهم أخضعوها واحدة تلو الأخرى ولم يواجهوها دفعة واحدة، وإن لم يذكر أنهم استعانوا ببعضها ضد الأخرى في هذه المرحلة وأن قبائل الملثمين الأقل شأنا سارعت إلى الدخول في الدعوة وإبداء الطاعة للمرابطين بعد إخضاع القبائل الصنهاجية الثلاث الكبرى، ويقول في معرض حديثه عن ابن ياسين وجماعته الأولى وخروجهم من رباطهم ما نصه: "... فبدأ بقبيلة كدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف من المرابطين، فانهزموا بين يديه فقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون إسلاما جديدا وحسنت حالهم وأدوا ما يلزمهم من جميع ما فرض الله عليهم وذاك في شهر صفر من سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، ثم سار إلى قبائل لمتونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة وتابوا وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، ثم سار إلى قبائل مسوفة فغزاهم حتى أذعنوا وبايعوه على ما بايعته عليه قبائل لمتونة وكدالة، فلما رأي ذلك قبائل صنهاجة ولمتونة سارعوا إلى التوبة ومبايعته وأقروا له بالسمع والطاعة..."[811].

وتذكر بعض المصادر أن ابن ياسين وأتباعه القدامى ومن انضم إليهم من مقاتلي القبائل التي أخضعوها، غزوا مجموعة أخرى يبدو أنها كانت متميزة من الناحية الدينية عن بقية سكان الصحراء، وكانت تسكن قرب جبل لمتونة، فأخضعوها بعد جهد كبير وأن المرابطين فقدوا أكثر من نصف جيشهم قبل أن يتحقق لهم النصر عليها، وأن الملثمين الذين انضموا إلى الحركة الإصلاحية التي كان ابن ياسين يؤطرها أخذوا اسم المرابطين بشكل رسمي بعد تغلبهم على تلك

---

[809] العبر المجلد6. مصدر سبق ذكره، ص: 374.

[810] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125.

[811] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 126.

المجموعة[812]،ونعتقد أن تلك المجموعة ليست سوى البافور الذين سبق أن تحدثنا عنهم وذكرنا أنهم كانوا يدينون باليهودية.

ولا تناقض هذه الرواية محتوى تلك التي ترى أن تسمية "المرابطين" مستوحاة من الرباط الذي انطلق منه ابن ياسين وأتباعه، لأن المصادر تفيد بشكل صريح أنها لم تطلق عليهم بصفة رسمية إلا بعد خروجهم من ذلك الرباط وتحقيقهم لبعض الانتصارات العسكرية[813]، ولاحت لهم في الأفق إمكانية تأسيس الدولة، لذلك تزامن ظهور اسم المرابطين مع ظهور الألقاب السلطانية لدي قادة الملثمين وقتها[814]، وإنشاء بيت مال للمسلمين لأول مرة في صحراء الملثمين وكان ابن ياسين بنفسه يشرف عليه[815]

ويمكن القول أن سيطرة المرابطين على الصحراء لم تتم بشكل مضبوط ومجدى، إلا بعد أن احكموا سيطرتهم على المراكز التجارية الكبرى ومنطلقات الطرق على طرفي تلك الصحراء، خاصة أودغست سنة 1054م وسجلماسة 1055م، فاكتمل قيام دولة المرابطين في الصحراء وتتالى على حكمها مجموعة من الأمراء بذل كل واحد منهم جهودا مضنية لتدعيم أركانها وتأمين استمراريتها وتمكينها من أداء رسالتها المتمثلة في نشر الإسلام السني المالكي في المنطقة.

أهم أمراء الدولة المرابطية في الصحراء:

تعاقبت مجموعة من الأمراء على حكم الدولة المرابطية في الصحراء وقد اختلفت الروايات الواردة في المصادر حول تحديد عددهم والتعريف بما فيه الكفاية بأشخاصهم والفترة التي قضاها كل واحد منهم في السلطة، وبما أن اهتمامنا سيتوقف عند أولئك الذين حكموا هذه الدولة قبل نهاية القرن 5هـ/11م، فإن الأمر يتعلق في هذه الحالة بيحيى بن عمر وشقيقه أبو بكر بن عمر ومحمد بن يحيى بن عمر.

1 - يحيى بن عمر:

على الرغم من أهمية الدور الذي لعبه يحيى بن إبراهيم الكدالي في قيام دولة المرابطين، فإن معظم الكتاب والمؤرخين، يقدمون يحيى بن عمر اللمتوني على أنه هو أول أمير حكم تلك الدولة بعد قيامها، إذ يعتقدون أن فترة حكم يحيى بن إبراهيم الكدالي لصحراء الملثمين كانت سابقة لقيام دولة المرابطين، ولنمط حكمها المتميز، فهو إذن من حكام الفترة الانتقالية من تاريخ الملثمين بين سقوط مملكة أودغست وقيام دولة المرابطين، وإن كان قد ساهم بشكل مباشر في إقامة ركائز هذه الأخيرة، وينطبق الشيء ذاته على المرحلة الأولي من حكم يحيى بن عمر اللمتوني، بحيث أننا سنتجاهل الفترة السابقة لمعركة جبل لمتونة، التي يظهر من

---

[812] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:12.
[813] العبر المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص: 375.
[814] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:12.
[815] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:26، ابن عذاري ج4، ص:139 . البكري: ص:166.

خلال بعض المصادر أنها كانت حاسمة وأن نتائجها هي التي شجعت المرابطين على توسيع نفوذهم وتركيز دعائم دولتهم[816].

وتعود علاقة يحيى بن عمر بالسلطة إلى توليه لقيادة لمتونة بعد وفاة أخيه يانوا بن عمر مؤسس حصن آزوكي، ثم ما لبث أن اختاره ابن ياسين زعيما للملثمين، رغبة منه في استغلال قوة قبيلته وطاعتها له في تعميم الدعوة من جهة، وللاستفادة من خبرة البيت الملكي للملثمين الذي ينتمي إليه يحيى بن عمر، مع التعويل على سهولة انصياع القبائل لزعامته بالمقارنة مع أي زعيم كدالي أو مسوفي، فيحيى بن عمر من ذرية تلاكاكين أول ملكوك الملثمين[817]، ومع ذلك فإن تتويجه أميرا لكل الملثمين لم يتم إلا بعد خروجه ضمن مجموعة ابن ياسين من الرباط وخوضه للجهاد معهم وما أبداه من انقياد منقطع النظير لزعيم المرابطين الروحي، فكانت توليته بشكل رسمي مصاحبة لميلاد دولة المرابطين بعد إخضاع الصحراء و كسر شوكة آخر أقوى المجموعات المعارضة للدعوة فيها، ويصف لنا ابن عذاري ظروف ميلاد الدولة المرابطية وتولية يحيى لأمورها فيقول: "... فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين، فامتنعوا له، فأمر يحيى بن عمر بغزوهم، فغزاهم لمتونة وسبوهم وقسموا سبيهم وأخذ أميرهم خمسهم، وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم، وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم أكثر من نصف عددهم، وكان إمامهم عبد الله بن ياسين يصبرهم إلى أن ظهروا بأعدائهم، فسماهم عبد الله بالمرابطين وسمى أميرهم يحيى بن عمر "أمير الحق"[818].

وقد خضعت صحراء الملثمين كلها للمرابطين في عهد يحيى بن عمر وأضاف إليها هذا الأمير أجزاء من بلاد السودان[819]، وقاد بنفسه جيش المرابطين إلى سجلماسة سنة 447هـ، فغزاها وهزم مسعود بن وادودين زعيم مغراوة وجيشه وأقام أشهرا في سجلماسة ثم خلف فيها جماعة من اللمتونيين وعاد إلى الصحراء ليقضي على تمرد كداله[820].

وعندما غدر أهل سجلماسة باللمتونيين وقتلوا معظمهم في المسجد، ووردت رسائل فقهائهم إلى المرابطين في الصحراء تطالبهم بالعودة وتخليصهم من ظلم زناتة، وجد يحيى بن عمر نفسه مرغما على البقاء في الصحراء لمراقبة قبيلة كدالة التي رفضت عشائرها الاندماج في الدولة المرابطية تحت قيادة لمتونة، فانطلق ابن ياسين في مائتي رجل من المرابطين مستجيبا لطلب أهل سجلماسة، وأضاف إليهم جموعا كثيرة من سرطة وتاركه عند ما وصل إلى تامدلت وأمر عليهم أبا بكر بن عمر شقيق يحيى نيابة عنه، فانتهزت كدالة فرصة انشغال بعض قادة لمتونة بالشمال وزحفت على يحيى بن عمر في غفلة وحاصرت جيشه، ثم تمكنت من قتله سنة 448هـ/1057م عند موضع قرب جبل لمتونة يدعى تيفريلي[821]، ويرى بعض الباحثين أن اسم ذلك الموقع، قد يكون تحريفا لاسم قرية توجد أنقاضها قرب وادان في موريتانيا تعرف بـ"تفرله"، إذ تورد بعض الروايات المحلية أن أبا بكر بن عمر وجد قرب هذا الموقع بعد عودته من الشمال أحد أبناء أخيه يحيى وكان صغيرا، فكلف جماعة من أتباعه برعايته هنالك[822]،

---

816 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص ص:12-13.
817 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165.
818 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:12.
819 الانيس المطرب: مصدر سبق ذكره، ص: 127.
820 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4 ، ص:13.
821 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167 و168.
822 الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:38.

ويرى البعض، أن يحيى بن عمر توفى في منطقة تقع إلى الجنوب من ذلك مؤكدا أن ضريحه يوجد ببلدة وكشض الواقعة إلى الجنوب من مدينة أوجفت على بعد 36كلم منها، وقد تمكن أحد أبناء تلك المنطقة من قراءة اسمه ولقبه منقوشين على صخرة صغيرة بذلك الضريح سنة 1985م، ويتميز الضريح الموجود بهذه البلدة، بكونه محاطا بحائط يصل ارتفاعه حوالي1.5م وطوله 3م، وعرضه2م، أي أنه عبارة عن بقية بيت بني على القبر، وأمام ذلك الضريح يوجد مصلى طوله 3م وعرضه2م وأمامه صخرة كتبت عليها البسملة وسورة الإخلاص، ولا يعرف سكان تلك المنطقة عن الضريح أكثر من أنه ضريح لأحد قادة المرابطين، واعتنوا على مر الزمن بتقويم حائطه وبنائه كلما لحق به ضرر وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف وكانوا يتبركون به[823].

ويذكر البكري أن سكان الصحراء في القرن11م كانوا يعظمون الموقع الذي توفى فيه يحيى بن عمر ومعظم أفراد جيشه وقال عنهم: "... وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلي بين تاليوين وجبل لمتونة فقتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات..."[824].

وقد خلف يحيى بن عمر ثلاثة أبناء هم: محمد وعلى وعيسى[825] وقد وصفت المصادر يحيى بن عمر بالتقى والالتزام بتعاليم الإسلام، وقال عنه ابن أبي زرع مثلا: "... يحيى بن عمر اللمتوني، كان من أهل الدين المتين والفضل والورع والزهد في الدنيا والصلاح..."[826]، وتولى أخوه أبو بكر بن عمر أمر المرابطين بعد وفاته.

2 - أبوبكر بن عمر:

تولى أبو بكر بن عمر أمر الملثمين بعد مقتل أخيه يحيى سنة 448هـ خلال فترة دقيقة من تاريخ الدولة المرابطية الناشئة وقتها، فقد هزت الاضطرابات التي خلفها مقتل يحيى في الصحراء أركان تلك الدولة التي كانت منشغلة بحروبها في تافلالت مع المغراويين من جهة، وتسعي إلى تحقيق تطلعاتها في توحيد كلمة المسلمين في المغرب تحت رايتها من جهة أخرى.

ويبدو أن اختيار أبا بكر ساعد على امتصاص قدر كبير من الغضب الكدالي في الصحراء، وقد يكون مرد ذلك كون أمه صفية تنتمي إلى أسرة نبيلة من بني كداله[827]، فواصل حروبه في الشمال ولم يعد مباشرة إلى الصحراء لفرض سلطته عليها، ونعتقد أن اطمئنانه على تبعية قبائلها لدولته وانصياعها لسلطته قد شجعه على مواصلة حروبه في جنوب ووسط المغرب من دون أن يخشى من انقطاع المدد عنه من الصحراء، فأخضع لنفوذه مناطق عديدة نذكر من بينها مناطق درعة والسوس الأقصى ثم أخضع منطقة تامسنا لنفوذه وألحقها بدولته بعد مقتل عبد الله بن ياسين على يد برغواطة سنة 451هـ، واتخذ من مدينة أغمات قاعدة له في البداية، وفيها تزوج بزينب بنت إسحاق النفزاوية التي ستلعب دورا بارزا في الدولة

---

823 محمد المصطفى ولد الندى : "حصيلة رحلة استطلاعية إلي منطقة أوجفت بولاية آدرار موريتانيا"، الوسيط: نشرة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط 1993، العدد4 ،ص:90 و94، والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.

824 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.

825 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 17.

826 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 127.

827 العبر المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص: 375.

المرابطية أيام يوسف ابن تاشفين، ثم ارتحل إلى موضع مراكش ليؤسس هنالك عاصمة لدولته، وأثناء إشرافه على بنائها، استدعت منه ظروف طارئة العودة إلى الصحراء سنة 463هـ[828].

وتختلف المصادر في عرضها لأسباب تلك العودة، فبعضها يعيدها إلى ثورة كدالية ثانية وأن تلك القبيلة أوقعت بلمتونة في الصحراء[829]، في حين يرى آخرون أن سببها يتمثل في رغبته في القضاء على صراع جديد نشب بين لمتونة ومسوفة هنالك[830] وهما القبيلتان كبيرتان لم ينفرط تحالفهما منذ قيام الدولة المرابطية إلى ذلك العهد، وقد مثل تحالفهما العمود الفقري الذي أرست عليه تلك الدولة أسسها، فخشي أن تؤدي تطورات ذلك الصراع إلى إضعاف مصدر قوة المرابطين.

وإذا صح أن عودة أبي بكر إلى الصحراء كانت تستهدف القضاء على صراع قبلي نشب بها، فإننا نرجح الرواية الأخيرة، لاعتبارات عديدة، نذكر من بينها على ما ذكره أبو عبيد البكري المعاصر للأحداث، من أن المرابطين لم يدخلوا في صراع مع كدالة بعد مقتل يحيى بن عمر[831]، ثم إن أبا بكر بن عمر تربطه علاقات النسب ببعض أشراف كدالة من جهة الأم، لأن أمه كدالية، وهذا النمط من العلاقات كان فاعلا بمقاييس مجتمعات تلك الفترة، وهو الذي ساعد على تقبل كدالة لزعامته، ومما يجشعنا على القبول بهذا الرأي، أن أبا بكر ترك جزءا من جيشه في المغرب تحت إمرة ابن عمه وخليفته يوسف بن تاشفين، وكان جيشه هنالك مكونا بالأساس من القبائل الصنهاجية الصحراوية، فعقد لكل قائد على جند قبيلته، ومن بين القادة الذين تركهم أبو بكر مع يوسف محمد بن تميم الكدالي وقد عقد له يوسف على خمسة آلاف جندي من كدالة[832]، وإذا صح أن هذا العدد من الكداليين كان مجندا في خدمة حكم أبي بكر بن عمر، فإن ذلك يدل على أن تلك القبيلة قد غيرت موقفها من المرابطين وزعامة لمتونة لها في عهد أبي بكر، وأنها لم تعد تمثل خطرا عليهم.

وتكتفي بعض المصادر بالإشارة إلى أن عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء كانت نتيجة "لاختلال" حدث بها[833]، دون أن تبين نوعية ذلك الاحتلال، و تذكر أنه عاد إلى المغرب بعد أن سيطر على الموقف هنالك، فوجد أن ابن عمه قد استبد بالأمر ولم يعد يفكر في التخلي عنه، فتنازل له عن المغرب حقنا لدماء المسلمين وصيانة لوحدة الملثمين وعاد إلى الصحراء مرة ثانية[834]، إلا أن بعض المصادر الأخرى تورد روايات مفادها أن أبابكر تخلى ليوسف طواعية ومن دون أن يشك في إخلاصه وطاعته له وأن عودته الأخيرة إلى الصحراء كانت بسبب إيثاره لموطنه الأصلي[835]، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك، فأورد مقتطفات من خطاب

[828] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:20.
[829] الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:23. وابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:20.
[830] ابن خلدون، المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص: 375.
[831] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.
[832] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:138.
[833] نفس المصدر، ص:134.
[834] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:23 و 24.
[835] الاستقصاء: مصدر سبق ذكره، ج2، ص:21.

أبي بكر أمام يوسف وأعيان الملثمين، وجاء فيه مخاطبا ابن عمه: "... وما وصلت إليك إلا لأمرتك في بلادك وأسلم لك الأمر وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا وموضع استيطاننا..."[836].

وقد واصل أبو بكر بعد عودته الأخيرة إلى الصحراء سنة 465هـ، جهاده الذي كان قد بدأه قبل ذلك في بلاد السودان، ففتح غانة وبسط نفوذه على رقعة شاسعة من إفريقيا الغربية، وظل يجاهد حتى استشهد، وتختلف المصادر حول تحديد تاريخ وفاته، فذكر كل من أبن عذاري[837] وصاحب الحلل[838] أنه توفى سنة 468هـ/1076م، في حين أوردت مجموعة أخرى من الكتاب أنه توفى سنة 480هـ/1087م[839]، وقد أخذ معظم المؤرخين بالتاريخ الأخير مبررين ذلك بأن السكة ظلت تضرب باسم أبي بكر بن عمر حتى سنة 480هـ[840]، ويوجد قبره على بعد 70 كلم إلى الجنوب من مدينة تجكجه في موريتانيا، بموضع يسمى "مقسم بوبكر بن عامر"، وقد خلف وراءه ولدين هما: "... إبراهيم ويحيى، فأما يحيى فيعرف بابن عائشه وهي بنت ياران بن تايغشت أخت إسحاق بن ياران، وأما إبراهيم فلم تعرف أمه وكان أسود الجلدة، وهو إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر..."[841]، ويبدو أن أيا منهما لم يخلفه بعد وفاته مباشرة على حكم الصحراء، وإنما تحولت السلطة إلى ابن أخيه محمد بن يحيى بن عمر.

3 - أمراء المرابطين في الصحراء بعد أبي بكر:

ليست لدينا معلومات مفصلة وموثوق بها تتعلق بأمراء الدولة المرابطية في الصحراء بعد وفاة أبي بكر بن عمر، وإن كانت هنالك إشارات موجزة في بعض المصادر العربية الوسيطة تتعلق بإبراهيم بن أبي بكر بن عمر ومحمد بن يحيى بن عمر، وإذا كان بعض الكتاب يعتقدون أن الفرع الصحراوي من دولة المرابطين قد انتهى بعد وفاة أبي بكر بن عمر اللمتوني سنة 480هـ/1087م، فإن بعض الباحثين يرون أن ذلك الحكم لا يستند إلى براهين تبرره ويعيدون أسباب ذيوعه إلى جهل كتاب ما بعد وفاة أبي بكر بن عمر ومن اعتمد عليهم بما كان يدور في الصحراء، لانبهارهم بعظمة يوسف بن تاشفين في المغرب وما حقق من انتصارات هنالك وفى الأندلس[842].

وقد أورد محمد امبارك اللمتوني في أرجوزته حول تاريخ الدولة اللمتونية في الصحراء أسماء ذكر أنها لأمراء الدولة المرابطية في الصحراء وتوحي روايته أن تلك الدولة ظلت قائمة في الصحراء حتى وصول الهجرات الحسانية إليها في القرن، فقد عدد الأمراء الذين حكموها ابتداء من أبي بكر وحتى دخول المغافرة إلى الصحراء في القرن16م، وأورد أن أبا بكر قد خلفه أخوه المسمى أحمد؟![843].

---

836 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص: 25.
837 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:26.
838 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص: 28.
839 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 135، العبر المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص:375
840 عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سبق ذكره، ص:115.
841 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:17.
842 محمد المختار ولد السعد: ؛عوائق البحث في التاريخ الموريتاني«، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد2، السنة الثانية1988، ص ص:28-43، ص:41 الهامش14.
843 محمد امبارك اللمتوني: مصدر سبق ذكره، ص:7.

وتشير روايات أخرى إلى إبراهيم بن أبي بكر بن عمر، وتذكر أنه توجه إلى المغرب بعد وفاة أبيه لاسترجاع السلطة، إذ يبدو أنه لم يعترف بمشروعية انتقالها إلى يوسف، ويتضح ذلك الموقف بجلاء من خلال جوابه لابن عمه مزدلي اللمتوني عندما سأله عن الأسباب التي جاءت به من الصحراء عقب وفاة أبيه بها، فرد عليه قائلا: "... أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف..."[844]، وقد انتهت مطالب إبراهيم بحصوله على هدايا من يوسف، فعاد إلى الصحراء مستجيبا لنصائح مزدلي، الذي خاطبه قائلا: "... إن الملك بيد الله يوتيه من يشاء، والله تعالى خص هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك..."[845].

ويتضح من خلال العبارة التي وردت على لسان مزدلي "ترجع بها إلى بلدك" أن الصحراء كانت تحت سلطة إبراهيم بن أبي بكر وأنها كانت خارجة عن نفوذ يوسف، ويبدو أن أبا بكر بن عمر قد هيأ ابنه في حياته للخلافة، وإن كنا لا نتوفر على نص يثبت أنه ولاه العهد، فإننا نعلم أنه ولاه على سجلماسة واستخلفه عليها بعد عودته إلى الصحراء، ومما يدل على قوة نفوذه و ترسخ سلطته في تلك المنطقة أنه ضرب بها دنانير تحمل اسمه، ولم يمكن لأحد مهما كانت مكانته أن يضرب الدنانير الذهبية خلال تلك الفترة إلا إذا كان صاحب سلطة سياسية، إلى درجة أن يوسف بن تاشفين لم يجرؤ على سك العملة باسمه إلا بعد وفاة أبي بكر بن عمر سنة 1087م[846].

ولم تزودنا المصادر بتاريخ محدد لوفاة إبراهيم بن أبي بكر كما أنها لم تذكر أنه خلف أبناء ولم تتحدث عن الطريقة التي تم بها اختيار خلفه في السلطة، وإن كان ابن بسام قد تحدث عن أمير للمرابطين في الصحراء، ذكر أنه اتخذ مدينة آزوكي عاصمة لدولته في أواخر القرن5هـ/11م، وقد أورد ذلك في معرض حديثه عن أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، فكتب يقول[847]: "... ثم كر إلى أمراء المرابطين في المغرب، فانخرط في أسلاكهم وعرض بنفسه على أملاكهم ووقع آخر منهم إلى محمد بن يحيى بن عمر، فاقعد صهوة منبره وولي قضاء معسكره...".

ونعتقد أن محمد بن يحيى بن عمر الذي تحدث عنه ابن يسام هو ابن يحيى بن عمر، صاحب لقب "أمير الحق"، إلا أننا لانعرف الكثير عن الظروف التي اكتنفت فترة حكمه ولا المدة التي قضاها في الحكم ولا تاريخ وفاته، وإن كنا نعتقد أنه أكمل بقية القرن5هـ/11م على الأقل، بالنظر إلى أنه كان في سن الشباب عندما تولى الأمر وولى القاضي الحضرمي المتقدم في السن وقتها شؤون القضاء في دولته، علما أن هذا الأخير توفى سنة 489هـ/1095م.

ويمكن القول بأن أسلوب أمراء المرابطين في ممارسة للسلطة بالصحراء كان واحدا بغض النظر عن اختلاف فترات حكم كل واحد منهم، لأن المرتكزات الروحية التي تقوم عليها سلطتهم وتوجه دولتهم واحدة وثابتة، بل إنهم لا يكادون يختلفون عن أبناء عمومتهم في الشمال.

---

844 ابن عذاري: مصر سبق ذكره، ج4، ص:29.

845 نفس المصدر ونفس الصفحة.

846 صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر 1986، ص: 543.

847 أبوالحسن علي بن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافةللطباعة والنشر والتوزيع،ط1، بيروت،1979،القسم 4 من المجلد الأول،ص 364.

طبيعة السلطة السياسية في الدولة المرابطية في الصحراء:

يمكن التعرف على طبيعة السلطة السياسية في الدولة المرابطية بالصحراء من خلال توزيع المهام والأدوار بين مكونات قياداتها، كما يمكننا بلوغ الهدف ذاته بواسطة تفحص بدايات انطلاقة تلك الدولة ودراسة أسباب قيامها، فلقد قامت دولة المرابطين في الصحراء على أساس دعوة دينية إصلاحية استهدفت في البداية قبائل الملثمين ثم اتسع نطاقها ليشمل فيما بعد أجزاء هامة من المغرب والأندلس والسودان الغربي، و كان هدف ذلك التوسع هو تعميم الدين الإسلامي في المنطقة بصفة عامة والمذهب المالكي بصفة خاصة، وكانت قبيلة لمتونة من بين أكثر قبائل الملثمين انهماكا في هذا المجهود، لذلك كان أمراء الدولة منها، وانطلاقا من الهدف المعلن لتلك الدولة فإن تنظيمها السياسي سيكون مكرسا خدمة الدين الإسلامي الذي كان هو المحرك الأساسي لها وللعصبية الصنهاجية الصحراوية واللمتونية منها بصفة خاصة، ولقد استفادت لمتونة أكثر من غيرها من الغنائم التي توفرت للمرابطين بسبب قيادتها للجهاد في الصحراء والسودان والمغرب، كما استفادت من الامتيازات التي حظيت بها دون سواها من القبائل والجماعات التي خضعت لسلطة تلك الدولة.

ويمكن القول بأن مرتكزات التنظيم السياسي لدولة المرابطين تأسست على "القبيلة والعقيدة والغنيمة"، وهي في ذلك، لا تختلف عن غيرها من الدول الإسلامية التي عرفها العصر الوسيط[848]، كما أنها تعتبر استمرارا طبيعيا للدولة الصنهاجية الصحراوية التي اتخذت من أودغست عاصمة لها وكانت قائمة خلال الفترة ما بين القرن8م ونهاية القرن 10م، لاعتمادهما على العصبية الصنهاجية واستقرار قيادتيهما في بيت بني ورتنطق من لمتونة، فأمراء الدولة المرابطية في طوريها الصحراوي و المغربي، ينتمون جميعهم إلى ذلك البيت وتنتهي سلسلة نسب كل واحد منهم إلى تلاكاكين أول ملوك الملثمين باودغست[849].

ويعتبر يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي قاد الحلف الصنهاجي في بداية قيام دولة المرابطين الاستثناء الوحيد في هذا المجال، لكن الأمر لم يكن لينتقل إليه لولا علاقات المصاهرة التي كانت تربطه ببيت بني ورتنطق[850]، فزوجته وقتها ابنة زعيم لمتونة أبي عبد الله محمد بن تيفاوت، وقد تولى يحيي خلافة هذا الأخير في قيادة الملثمين أثناء صراعهم مع غانة في ظروف غامضة وخلال فترة كانت دولة صنهاجة الصحراء فيها مفككة، لكن ما أن توحدت قبائل الملثمين وبدأت دولتهم تنهض من جديد حتى استعاد أهل البيت الأميري مكانتهم، فتولوا زمام السلطة السياسية، ومنهم يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر بن عمر بن إبراهيم بن تلاكاكين، ثم توالى على السلطة من بعدهم في الصحراء أبناؤهما بينما تولاها في المغرب أبناء عمومتهما.

ولعل المكانة الكبرى التي أصبحت العقيدة (الإسلام) تحتلها في دولة المرابطين في الصحراء هي ما يميز هذه الدولة عن مملكة أودغست السابقة لها، حيث أصبح الدين هو الموجه الأساسي لسياسة دولة المرابطين على الرغم من أن السلطة بقيت في البيت ذاته الذي كان يحكم مملكة أودغست، وأصبحت جماعة جديدة ليست لمعظم أفرادها صلة قربى بلمتونة ولا حتى

---

848 الجابري: العقل السياسي العربي: مرجع سبق ذكره، ص:273. وابن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص: 185.

849 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165، وابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:374.

850 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص ص:372-373.

بصنهاجة تلعب دورا كبيرا وخطيرا في صناعة القرار بحكم صلتها بالتوجه الجديد للدولة، المرتكز على نشر الإسلام في المنطقة وتحكيم شريعته في كل كبيرة وصغيرة، وهذه الجماعة هي جماعة الفقهاء المالكيين الذين اعتمد عليهم دولة المرابطون.

وقد ارتسمت مكانة الفقيه وتحددت أدواره في هذه الدولة منذ الوهلة الأولى من قيامها، من خلال الدور الذي قام به عبد الله بن ياسين، وما حظي به من تقدير في أوساط الملثمين بصفة عامة ومن أمرائهم بصفة خاصة[851]، وقد حرص أمراء المرابطين بعد وفاة ابن ياسين على أن وجود مرشد ديني إلى جانب من يقود منهم الدولة يستشيره ويأخذ برأيه في الكثير من أموره.

وقد تولى سليمان بن عذرا هذه المهمة مباشرة بعد وفاة ابن ياسين، لكنه توفى بعد ذلك بسنة واحدة[852]، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد أثناء حديثه عن حروب المرابطين واستشهاد عبد الله بن ياسين سنة 450هـ ما نصه: "... وقدموا بعده سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم، واستمر أبوبكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم (برغواطة)... وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين..."[853]، ويذكر عياض أن أخا سليمان المسمى أبا القاسم بن عذرا خلفه في تلك المهمة[854]، لكن يبدو أنه هو الآخر لم يعمر طويلا، إذ نجد أن الحضرمي توجه إلى أبي بكر بن عمر في أغمات، فاصطحبه إلى الصحراء التي ظل فيها يمارس مهمته كمرشد للدولة منذ عهد أبي بكر وحتى عهد محمد بن يحيى بن عمر، وقد توفى الحضرمي سنة 1094م، ولم يقتصر دوره على الإرشاد الديني، بل كان مستشارا سياسيا لأمراء الشطر الجنوبي من دولة المرابطين أيضا، ويبدو ذلك جليا من خلال محاولته في كتابه "الإشارة إلى أدب الإمارة" ترسيخ قواعد الدولة المرابطية في الصحراء، ويعتقد بعض الباحثين أن الحضرمي ألف هذا الكتاب لأبي بكر بن عمر[855]، فأورد فيه 30 بابا يمكن إجمال مضمونها في نقطتين أساسيتين:

أولاهما تتعلق بضرورة خلق تقاليد للملك تميز رجال السلطة حسب مواقعهم عن الرعية، وأن تكون تلك التقاليد كفيلة بخلق رهبة في النفوس تساعد على الانصياع لأوامر تلك السلطة.

أما النقطة الثانية فتتمحور حول السلوك السياسي للسلطة تجاه رعيتها، حيث يرى أن ذلك السلوك لا ينبغي أن يكون قارا، وإنما عليه أن يستجيب لخصوصيات الظرفية التي يتصرف أثناءها الأمير، وطبيعة المشكلة التي تواجهه، فثمة حالات يفضل فيها الحلم وأخرى البطش والشدة ومواقف تفضل فيها الخديعة وأخرى الصدق[856]، الخ....

واهتم المرابطون إلى جانب أولئك المرشدين الكبار، بالفقهاء وأعطوهم مكانة كبيرة في دولتهم، فكانوا يستفتونهم في كل الأمور ويشاركونهم بشكل كبير في صياغة القرار السياسي، و

---

[851] البكري: مصدر سبق ذكره، ص ص:165-166.
[852] القاضي عياض: مصدر سبق ذكره، ص: 780.
[853] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:376.
[854] عياض: مصدر سبق ذكره، ص:780.
[855] رضوان السيد، مرجع سبق ذكره، ص.22
[856] الإشارة إلى أدب الإمارة، مصدر سبق ذكره، ص.46 وما بعدها

استغل بعض الفقهاء قربهم من الأمراء وقوة تأثيرهم عليهم والاحترام الكبير الذي كانوا يحظون به من طرفهم، فاستخدموها لجمع الأموال، فأصبح معظمهم من الأثرياء[857].

وإذا أعدنا إلى الأذهان أن دولة المرابطين قامت أصلا على أساس الدين وأن معظم أمرائها خضعوا للتربية الدينية أثناء إقامتهم في الرباط مع عبد الله بن ياسين فإن تبوأ الفقهاء لتلك المكانة العالية في دولتهم يبدو أمرا طبيعيا، فإذا كان الدين الإسلامي هو القاعدة التي ارتكزت عليها سياسة تلك الدولة[858]، فمن الطبيعي أن يكون المطلعون على أحكامه وخفاياه هم راسمو وموجهو تلك السياسة بينما يقتصر دور الأمراء على التنفيذ ، وهذه الوضعية هي التي جعلت كتاب العصر الوسيط ينظرون إلى الفقيه باعتباره الحاكم الحقيقي لدولة المرابطين، خاصة في طورها الأول، فقد وصفت بعض المصادر يحيى بن عمر مثلا، بأنه كان شديد الانصياع لأوامر عبد الله بن ياسين إلى درجة أن هذا الأخير أدبه في بعض الأحيان ضربا بالسوط[859]، ويذهب البعض إلى أكثر من ذلك، فيفيد أن السلطة كانت مقسمة بين الأمير والفقيه، ويقول ابن أبي زرع في هذا الصدد مثلا: "... وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة، لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويأخذ، فكان الأمير يتولى النظر في حروبهم وعبد الله بن ياسين ينظر في ديانتهم وأحكامهم، ويأخذ زكاتهم وأعشارهم..."[860].

ولقد صاحب الجهاد نشأة الدولة المرابطية في الصحراء لأنها اتخذت من الدعوة إلى الإسلام السني المالكي شعارها الأساسي، وبما أن الجهاد كان هو الوسيلة الرئيسية في تحقيق ذلك الغرض فإنها تكلفت به، فتولى أمراؤها تنظيمه وقيادته، فجاهد المرابطون القبائل الصحراوية التي كانت تدين بغير الإسلام[861]، أو كان إسلامها سطحيا ورفضت الانصياع لأوامر الشرع وإقامة الفرائض[862]، وجاهدوا برغواطة في المغرب [863]، كما جاهدوا الوثنيين في السودان الغربي[864]، وكان أمراء المرابطين يتولون قيادة الجيوش بأنفسهم، حرصا منهم على المشاركة في الجهاد، فقد كان يحيى بن عمر يقود المعارك، ويشارك في القتال[865]، كما قتل أخوه أبو بكر بن عمر بسهم مسموم عند ما كان يقود الجهاد ضد وثنيي السودان الغربي[866].

وعلى الرغم من أن الجهاد كان هدفا في حد ذاته، فإنه مد الدولة المرابطية في الصحراء بإمكانات مادية مكنت بيت مالها من القيام بالدور المطلوب منه حتى وفاة أبي بكر بن عمر على الأقل، وكانت الغنائم تدر على بيت المال مداخيل هامة منذ بواكير نشأة الدولة[867]، وفضلا عن الأموال التي كانت جيوش المرابطين تستولي عليها بعد انتصارها العسكري على أصحابها، فإن المرابطين صادروا الكثير من الأموال من بعض القبائل التي دخلت في دعوتهم

---

857 محمد ولد داداه: مرجع سبق ذكره، ص:114.
858 حسن علي حسن: مرجع سبق ذكره، ص: 53و336.
859 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 166.
860 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:127.
861 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:12.
862 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 380.
863 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:131.
864 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 26.
865 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 135.
866 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 135.
867 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165.

طواعية في بداية دولتهم أثناء جهادهم في الصحراء، تطبيقا لفتوى أصدرها عبد الله بن ياسين تقضي بأخذ ثلث أموال كل فرد من سكان الصحراء وجعله في بيت مال المسلمين، لاعتقاده أن أصول أموالهم غير طيبة، حيث لم تكن تزكي وأن مصدر معظمها هو الغارات والنهب، وأن هذا الإجراء كفيل بتطهيرها[868].

و قد حرص الفقهاء على اختيار الألقاب السلطانية التي حملها أمراء الدولة بشكل لا يجعلها تتعارض مع وحدة الدولة الإسلامية، حيث أن لقب "أمير المؤمنين" لم يطلق على أي أمير مرابطي، بل إن السكة الذهبية التي ضربتها تلك الدولة حملت منذ بداية عهد أبي بكر بن عمر اسم أمير المؤمنين العباسي قبل اسم الأمير المرابطي[869]، وكان أول لقب أطلق على أمراء المرابطين هو ذلك الذي أطلقه ابن ياسين على يحيى بن عمر، فتسمى به وهو "أمير الحق"[870]، ويبدو أن هذا اللقب لم يدم طويلا، إذ ورد لنفس الأمير لقب آخر أطلقه عليه ابن ياسين أيضا وهو "أمير المسلمين"[871]، وهو اللقب نفسه الذي حمله خليفته أبو بكر بن عمر[872]، وتسمى به يوسف بن تاشفين في الشمال بعد معركة الزلاقة وموت أبي بكر بن عمر، ثم تداوله خلفاء يوسف من بعده في المغرب.

وإذا كانت العلاقات بين الصحراء وشمال إفريقيا قد وجدت منذ فترات قديمة، فإنها توطدت تشعبت وشملت مناحي عديدة في عهد المرابطين.

868 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص:10. والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:169.
869 صالح قربة: مرجع سبق ذكره، ص:535.
870 صالح قربة: مرجع سبق ذكره، ص:535.
871 عياض: مصدر سبق ذكره، ص:781.
872 النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 279. وعياض: مصدر سبق ذكره، ص: 781.

الفصل الرابع: علاقات الصحراء بشمال إفريقيا

إذا كنا قد عرفنا بصحراء الملثمين في الفصل الأول من هذا العمل، من حيث الموقع والتضاريس والمناخ والحدود، فإن ذلك لا يبدو واردا بالنسبة لمنطقة شمال إفريقيا التي كتبت حولها كتب ودراسات عديدة، وبالتالي فإننا سنكتفي فقط بتحديدها جغرافيا، وبشكل موجز، حتى نتمكن من التعرض للعلاقات التي ربطتها بالصحراء خلال الفترة التي تهمنا.

فشمال إفريقيا هي المنطقة الممتدة من مصر شرقا حتى الشواطئ الأطلسية للمغرب الأقصى غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى الصحراء الكبرى جنوبا[873]، وإذا استثنينا مصر[874] من هذه المنطقة، فإنها تصبح تحمل اسما آخر هو "بلاد المغرب"، التي قسمها العرب المسلمون بعد فتحهم لها إلى ثلاثة أقطار هي: المغرب الأدنى الذي يسمونه أيضا بلاد إفريقية، ويشمل هذا القطر البلاد التونسية بكاملها وجزء من الجزائر وإقليم طرابلس الغرب بما في ذلك برقه على الحدود الغربية لمصر، أما القطر الثاني فيتمثل في المغرب الأوسط، والقطر الثالث هو المغرب الأقصى، الذي لا تختلف حدوده الحالية كثيرا عن تلك التي كان يعرف بها خلال الفترة الوسيطة[875]، وكانت علاقات هذه المنطقة الأخيرة من شمال إفريقيا، بالصحراء والسودان الغربي أكثر تنوعا وكثافة واستمرارية وحيوية من غيرها من بلاد المغرب، وشملت تلك العلاقات ميادين عديدة، وإن كانت علاقات المنطقة ذاتها بمصر قد مرت بفترات من الازدهار خلال العصر نفسه، إلا أنها لم تصل ما كانت عليه علاقات المغرب بالصحراء من الأهمية والاستمرارية، لذلك، فإننا سنركز في هذا الفصل على علاقات المغرب بالصحراء، وإن كنا سنعرض كلما سمح لنا الوضع بذلك لعلاقات هذه الأخيرة ببقية مناطق شمال إفريقيا، بل وحتى بالأندلس.

وقد شملت علاقات الصحراء بشمال إفريقيا، مختلف مناحي الحياة، ويمكن تجزئتها إلى علاقات تجارية، وعلاقات اجتماعية وثقافية، وعلاقات سياسية، فكيف كان مستوى العلاقات بين المنطقتين خلال الفترة مابين منتصف القرن 8م ونهاية القرن11م، خاصة في الميادين المذكورة أعلاه؟

I - العلاقات التجارية:

تدخل العلاقات التجارية بين صحراء الملثمين وشمال إفريقيا خلال العصر الوسيط، في إطار ما يعرف بالتجارة الصحراوية، التي كانت تشمل ثلاث نطاقات جغرافية، متكاملة اقتصاديا، هي:

---

[873] يسرى الجوهري: شمال إفريقيه، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية، منشأة المعارف- الإسكندرية 1976، ص:11 وما بعدها. والعبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:201

[874] حدد علي الجزنائي بلاد المغرب فقال:"... وأول بلاد المغرب على ما حكاه صاحب جغرافيا جبال برقة وجبال ءاوتان في المشرق وهذه الجبال آخر عمل مصر وأول عمل القيروان، وينقسم المغرب على ثلاثة أصقاع، الصقع الأول هو صقع إفريقية من جبال برقة وءاوتان إلى جبال نفوسة، والصقع الثاني المغرب المتوسط وأوله تاهرت إلى سبتة إلى جبل درن، والصقع الثالث السوس الأقصى وحده في الغرب البحر الأعظم من ماسة إلى صحراء المرابطين". أنظر بهذا الصدد: علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967. ص.6.

[875] أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: عصر القيروان. دار المغرب العربي، ط1 تونس 1973، ص:9. وكذلك والعبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:201.

ـ شمال إفريقيا بما فيه مصر، ويتميز هذا النطاق بتوفره على إمكانات كبيرة في مجال زراعة الحبوب والأشجار المثمرة، بالإضافة إلى معادن هامة كالنحاس والفضة الخ.. فضلا عن تطور الصناعات به.
ـ أما النطاق الثاني فيتمثل في الصحراء التي كانت تتوفر على سباخ الملح الحجري، والعنبر، والصمغ العربي، وجلود الماعز والدرق اللمطية الخ...
ـ في حين كان النطاق السوداني غنيا بمواد هامة مثل الذهب والرقيق والعاج الخ...

وهذا التباين في المنتجات، يعود في معظم أسبابه إلى التباين الذي كان موجودا في مجال البيئة والتكوين الجيولوجي بين الأقاليم المذكورة، خاصة ما يتعلق منها بالتكوينات الجيولوجية وما لها من صلات بالمعادن، أو بالناحية المناخية، ومالها من انعكاسات على الإنتاج الزراعي، وقد شجع ذلك الاختلاف على ظهور واستمرار تبادل تجاري بين تلك المناطق منذ عصور موغلة في القدم، من الصعب على البحث تحديد بداياتها، خاصة إذا كنا نقصد نشاطا تجاريا منتظما.

وإذا حاولنا تتبع ما أوردته المصادر القديمة من معلومات - تحوم الشكوك حول صحة بعضها- تتعلق بالعلاقات التجارية بين مناطق شمال إفريقيا والصحراء، نجد أن استرابو تحدث عن بقايا مؤسسات تجارية فنيقية شيدت في الصحراء، فذكر أن الفاروسي والزنوج دمروا أكثر من 300 قرية بناها الفنيقيون هنالك![876]، وقد فسر جيروم كاركوبينو ثراء قرطاج وأسباب عداء روما لها، باحتكار الأولى لتجارة الذهب في غرب إفريقيا الذي كانت تنقله عبر سواحل هذا الجزء من إفريقيا عبر طرق برية أو بحرية تعبر الصحراء إلى موانئ المغرب الأقصى، ومنه توجهه إلى مخازن العاصمة البونيقية[877]، ويذكر بعض الباحثين أن من سكان الصحراء القدماء من الامازيغيين كانوا يمثلون الوسيط التجاري الإجباري بالنسبة للقرطاجيين، الذين يعتقد أنهم اعتمدوا عليهم من أجل الحصول على الذهب المجلوب من غرب إفريقيا[878].

وإذا كانت معلوماتنا عن العلاقات التجارية بين الصحراء وشمال إفريقيا في مراحلها المبكرة مازالت محاطة بالكثير من الغموض، فإن مما لاشك فيه أنها قامت منذ قرون عديدة قبل الميلاد[879]، لا تعرف بدايتها بشكل دقيق، فخلال الفترة مابين القرن 5ق.م وأواخر القرن 3ق.م استفحلت ظاهرة الجفاف في الصحراء، وانحصر وجود الحياة المستقرة في مناطق محدودة منها، خاصة واحات آدرار وتكانت، وعلى امتداد بعض الوديان، مما قد يكون له أثر على اضطراب أو عدم انتظام المبادلات بينها وشمال إفريقيا، في انتظار وجود وسيلة نقل قادرة على التأقلم مع المناطق الصحراوية القاحلة[880].

وانطلاقا من الرسوم التي خلفها القدماء على الصخور في صحراء الملثمين، يمكن التمييز بين وسائل نقل مختلفة، يعتقد أن كل نوع منها ناسب ظروف البيئة خلال عهود مختلفة عرفتها الصحراء، وهي على التوالي: العربات، الخيول، الحمير، الثيران ثم الجمل[881].

---

876 Le Maroc chez les auteurs anciens، op.cit, p. 23.

877 عبد الله العروي: علاقات المغرب بإفريقيا- ملاحظات أولية، نشر كلية الآداب، أكادير، درس اختتامي للسنة الجامعية 1986-1987، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د ت، ص:6

878 ناعمي مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص. 25

879 بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص. 50

880 ناعمي مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص. 27

881 Histoire Général de l'Afrique, op. cit. t3, p. 401.

وعلى الرغم من العثور على العملات الرومانية في مناطق مختلفة من صحراء الملثمين[882]، فإن ذلك لا يكفي في نظر بعض الباحثين المتمرسين لإثبات مشاركة روما في تجارة صحراوية منتظمة وواسعة النطاق[883]، ومع ذلك، فإن العلاقات التجارية لم تنقطع- على الأقل- بين آدرار في موريتانيا الحالية ووادي نون في جنوبي المغرب الأقصى، بفضل الجهود التي بذلتها كل من كزولة ولمطة، اللتين استطاعتا إدخال الجمل إلى المنطقة واستخدامه في مجال نقل المواد التجارية[884].

ومما يؤكد أن المبادلات التجارية بين الصحراء وشمال إفريقيا كانت قائمة في عهد السيطرة الرومانية على شمال إفريقيا، وإن لم تكن الدولة الرومانية قد شاركت فيها بشكل رسمي -لأن سيطرتها كانت مقتصرة على المناطق الساحلية المتوسطية-، أن روما بعد أن تعذرت عليها حماية حدودها من البدو الرحل ومنعهم من تقديم المساعدة للقبائل المتمردة على نفوذها في شمال إفريقيا، أقامت قدرا هاما من المخافر في الواحات الشمالية من الشرق باتجاه الشمال الغربي بمحاذاة حدود المنطقة التي كانت خاضعة وقتها لاحتلالها، وحرصت روما على أن يكون كل مخفر يراقب طريقا واحدا أو عدة طرق، من بين الطرق التي كانت تربط الصحراء بالمرتفعات الشمالية[885]، ولا يبدو أن تغييرا كبيرا قد حدث بعد انهيار روما، وإنما استمرت الصلات بين المنطقتين حتى وصول العرب الفاتحين إلى شمال إفريقيا والصحراء، ومنذ ذلك العهد تعززت وتعمقت العلاقات بين المنطقتين، واتسع نطاقها وتطورت وسائل تنظيمها وتعددت المواد التجارية المتبادلة فيها واتسعت شبكة الطرق التي كانت تربط النقاط بعضها بالأخرى، وازدهرت المراكز التجارية الخ...

- تطور العلاقات التجارية من القرن.8م وحتى نهاية القرن11م.

لا يمكننا إذن الحديث عن تجارة صحراوية منظمة ومنتظمة، إلا ابتداء من الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا والصحراء، خاصة بعد إخماد الفاتحين للثورات، أي خلال القرن8هـ/2م. ويمكننا أيضا أن نفترض أن اهتمام الفاتحين الأوائل بالذهب السوداني كان كبيرا، وذلك بالنظر إلى مسألتين رئيسيتين هما:

- إشارة المصنفات العربية الإسلامية الأولى إلى ذهب السودان، ووصفها لغانه بأنها بلاد الذهب[886]، وهذا يعني أن العرب كانوا خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ملمين- وهم في جزيرتهم- بمعلومات عن ثروات هذه المنطقة النائية عنهم من العالم.

أما المسألة الثانية التي تشجعنا على التمسك بافتراض أن العرب كانت لديهم معلومات عن الذهب السوداني، وأنهم كانوا يرغبون في الوصول إليه عن طريق الفتح أو التجارة، فتتمثل في كون الفاتحين الأوائل لشمال إفريقيا سلكوا أثناء محاولاتهم التوغل في دواخل بلاد السودان،

---

[882] ناعمي مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص. 28

[883] مجمل تاريخ المغرب: مرجع سبق ذكره ج1، ص:100.

[884] ناعمي مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص:27.

[885] بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 72.

[886] يتعلق الأمر بالإشارات الواردة في كتابات وهب بن منيه المتوفى قبل سنة 728م، والفزاري المتوفى سنة790 م عن هذا الموضوع أنظر:

J. CUOQ: Receuil, op cit. p. 41-43

الطرق ذاتها التي كانت مستخدمة في التجارة قبل قدومهم إلى المنطقة، وهي نفسها الطرق التي ستبقى مستخدمة في التنقل بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان بعد الفتح بقرون عديدة.

فلقد سلك عقبه بن نافع مثلا أثناء سيره إلى السودان الأوسط، طريق العربات الكرمانتيه الذي كان يربط بين فزان والكوار[887]، في حين حفر الجيش الذي سيرته الدولة الأموية لفتح غانة مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط سجلماسة بغانة،[888] وتضيف المصادر أن كتيبة عربية أخرى، اتجهت من جنوب المغرب إلى بلاد السودان عبر الصحراء، بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة[889] ويعتقد أن تلك الحملة سلكت الطريق الذي كان يربط سجلماسة بأودغست[890]، بينما يشير مصادر أخرى إلى حملة رابعة انطلقت من السوس الأقصى باتجاه الجنوب بقيادة المشترى بن الأسود، ووصلت ضفة نهر السنغال، بعد أن عبرت صحراء الملثمين[891]، ومن الواضح أن تلك الحملة سلكت ما يعرف بالطريق الساحلي المحاذي للمحيط، وهو الطريق الغربي من طرق المحور الغربي للتجارة الصحراوية.

وقد تجلى اهتمام الفاتحين الأوائل لشمال إفريقيا والصحراء بالتجارة الصحراوية بشكل أكثر وضوحا، بعد تنصيب عبد الرحمن بين حبيب لنفسه واليا على إفريقية، ومحاولته توسيع نفوذه ليشمل مناطق أخرى من المغرب، وذلك عندما أشرف على حفر مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط سجلماسة بأودغست[892]، أي نفس الطريق الذي يعتقد أن حملة والده حبيب قد سلكته.

وابتداء من السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن2هـ/ 8م، نشأت في منطقة المغرب الإسلامي، سلط سياسية كان من بين أكبر اهتماماتها حماية وتنمية المبادلات التجارية عبر الصحراء، ونذكر من بين تلك السلط على الخصوص الدولة الرستمية في تاهرت(161هـ/777م)، والدولة الصفرية بسجلماسة (140هـ/757م)[893]، ومملكة أودغست الصنهاجية في الصحراء.

وقد ترتب عن قيام تلك الدول ونشاطاتها التجارية المكثفة، نشأة مدن عديدة عند منطلقات وعلى طول ونهايات الطرق التجارية الكبرى، وحاولت الدولتان الخارجيتان احتكار المبادلات التجارية مع الصحراء والسودان، وعدم السماح للدول الإسلامية السنية في المنطقة مثل الاغالبة في إفريقية والأمويين في الأندلس بربط علاقات تجارية بالصحراء والسودان، ولم يتركوا لها حتى فرصة التعرف على طرق وأسرار تلك التجارة[894].

---

887 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره ص:52، وكذلك

:R. MAUNY, Tableau، op . cit.، p. 435

888 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:163. وص. 179

889 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:94.

890 R. MAUNY, Tableau, op. cit . p. 428 .

891 ابن الفقيه: مصدر سبق ذكره، ص:64.

892 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:157.

893 المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص:102 و0146.

894 J. DEVISSE: Route du commerce, in **Annale**, op. cit. pp.42-73

وقد ساعدت حيوية التجار، ودور السلط السياسية في الشمال الإفريقي والصحراء والسودان، في توفير الأمن على طول الطرق، على ازدهار المبادلات التجارية، فعرفت منطقة المغرب الإسلامي نتيجة لذلك ثورة عمرانية خلال القرنين 2هـ و 3هـ/ 8 و9م[895].

وفي بداية القرن 4هـ/10م، تم إسقاط الدويلات الخارجية السالفة الذكر على يد الدولة الفاطمية الناشئة في المغرب، وكانت تلك الدولة تسعى جاهدة من أجل بسط نفوذها على العالم الإسلامي بشكل عام، لذلك كانت رغبة خلفائها في الاستفادة من المبادلات التجارية عبر الصحراء كبيرة، ليتسنى لهم الحصول على كميات كبيرة من الذهب تخولهم تمويل فتوحاتهم وضرب عملاتهم، وبالتالي كانت تلك الدولة حريصة على بسط نفوذها على المناطق الواقعة على مسالك تلك التجارة، ومدن المرافئ المرتبطة بها[896]، فدخلت في صراع مع الدولة الأموية بالأندلس قصد السيطرة على تلك المناطق، خاصة ما يقع منها على طرق المحور الغربي[897]، وقد تحزب سكان المنطقة حول الدولتين المتصارعتين، فكان صنهاجة وكتامة إلى جانب الفاطميين، وإلى جانب الأمويين في الأندلس زناتة، المتضررون من الدولة الفاطمية، وقد تمكنت هذه الأخيرة وحلفاؤها من تحقيق انتصارات عسكرية كبيرة، كادت تقضي على طموحات خصومها، إلا أن انتقال مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر، أدى إلى حسم الصراع لصالح الأمويين وزناتة، وظل الصراع محتدما بين صنهاجة وزناتة بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ولم يحسم لصالح صنهاجة إلا بعد قيام الدولة المرابطية.

فقد كان قيام دولة المرابطين في بعض أبعاده ردة فعل على احتكار الزناتيين والغانيين للمبادلات التجارية الصحراوية، وانتزاعهم الوساطة التجارية من الملثمين، لذلك نرى أن المرابطين قسموا قيادة دولتهم إلى جناحين بعد سيطرتهم على عاصمتي ضفتي الصحراء: سجلماسة وأودغست، أحدهما واصل فتوحاته شمالا وشرقا بقيادة يوسف بن تاشفين، وتمكن من إخضاع المغرب الأقصى وجزء هام من المغرب الأوسط، بالإضافة إلى الأندلس، في حين توجه الجناح الآخر إلى الجنوب بقيادة أبي بكر بن عمر، وتمكن من تحقيق انتصارات في بلاد السودان، وإخضاع مناطق هامة منها، لسلطته.

ويمكن أن يكون السر وراء توزيع مجهود الفتح في هذين الاتجاهين هو الرغبة في السيطرة، خلال أسرع وقت ممكن، على المنطقة الحيوية بالنسبة للتجارة الصحراوية شمالا وجنوبا، حتى لا تبقى فيها سلطة سياسية تنافسهم الملثمين في هذا الميدان، فتؤثر سلبا على دورهم التجاري، ويبدو أن اهتمام المرابطين باستمرارية وحيوية وتدفق التجارة عبر الطرق المؤدية إلى صحرائهم من الشمال كان كبيرا، فقد راقبوا الطرق الرئيسية، التي كانت تنطلق من جنوب المغرب باتجاه الصحراء وتلك المتجهة شمالا إلى الأندلس، فبنوا على طول مسالكها القلاع والحصون، وكانت تخضع لمراقبة دائمة منقبل كتائب من جيشيهم، لتوفر الأمن للتجار وبضائعهم[898].

---

[895] الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:15.

[896] الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص. 160

[897] نفس المرجع، ص:166.

[898] EL ALAWI Abdel Aziz: LE MAGHRIB ET LE COMMERCE TRANSSAHARIEN (milieu du XIè - milieu du XIVè s.), contribution l'histoire Economique, Sociale et Politique du Maroc médiéva, thèse en vue du doctorat de 3è cycle, UNIVERSITE DE BORDEAU III, (Institut d'études arabes et islamiques) 1983, p. 36

وبصفة عامة، فإن مشاركة السلط السياسية في دعم وتشجيع المبادلات التجارية خلال الفترة مابين القرن8م ونهاية القرن11م، ساعدت على تطوير تلك المبادلات ونقلتها من وضعية الضعف التي كانت تعرفها قبل وصول الفاتحين إلى شمال إفريقيا إلى وضعية أكثر ازدهارا، وقد أنتجت تلك المبادلات تنظيما خاصا بها، ملائما لطبيعة المناطق التي كانت القوافل تجتازها خصائص المجموعات البشرية المشاركة فيها، وكان ذلك التنظيم يتكيف باستمرار مع ملابسات الفترات التاريخية التي مرت بها التجارة عبر الصحراء.

- تنظيم المبادلات التجارية عبر الصحراء:

يجدر بنا قبل الخوض في مواد التبادل التجاري، الحديث عن الوسائل التي كان التجار يستخدمونها لنقل بضائعهم، والاستعدادات التي كانوا يرتبونها لتحقيق ذلك الغرض، فضلا عن الوسائل المتعلقة بضبط عملية التبادل ذاتها عن طريق مقاييس محددة يتم على أساسها الاتفاق، ولعل أهم وسائل تنظيم المبادلات خلال تلك الفترة هي: القافلة والمحاور التجارية ومقاييس الطول والموازين والمكاييل والعملات الخ...

- القافلة:

تتشكل القافلة من وسائل النقل والتجار وعمال الخدمات المرتبطة بالتجارة، وكان عدد جمال القوافل العابرة للصحراء يصل في الغالب إلى عدة آلاف، في حين كان عدد التجار والمرافقين يصل إلى بضع مئات من الأشخاص[899]، ويتم تشكل القافلة عندما يتجمع تجار أحد الأقاليم الواقعة على إحدى ضفتي الصحراء وينظمون أنفسهم للسفر ببضائعهم معا في اتجاه موحد، فمثلا كانت مدن الجنوب المغربي كسجلماسة وأغمات ونول وغيرها، مكانا يتجمع فيه تجار المغرب المتجهون إلى الصحراء وبلاد السودان، فيصلون إليها من مختلف المدن والقرى المغربية، ويلتحق بهم بعض التجار القادمين من مناطق أخرى في شمال إفريقيا والمشرق الإسلامي[900].

وتبدأ استعدادات التجار لتشكيل القافلة بشراء الجمال أو اكترائها ثم يتم توجيهها إلى مناطق رعوية جيدة لتسمينها حتى تصبح قادرة على تحمل مصاعب عبور الصحراء، كما يتم شراء مواد ضرورية للرحلة كالقرب والحبال والمواد الغذائية[901]، وإذا حاولنا تقصي مكونات القافلة التجارية العابرة للصحراء، فإننا سنتوصل إلى أنها كانت تتكون بشكل مجمل من: وسائل النقل والجهاز الإداري والحرس والتجار.

- وسائل النقل:

يعتبر الجمل وسيلة نقل البضائع الأساسية إن لم نقل الوحيدة في المنطقة الصحراوية، ولقد لعب في الصحراء الكبرى نفس الدور الذي لعبه في مناطق أخرى مشابهة لها، خاصة شبه الجزيرة العربية، حيث ربط المناطق الصحراوية بمراكز الحضارة المجاورة لها، نظرا لسهولة تكيفه مع وضع الصحراء وما يميزها من ندرة المراعي والمياه وارتفاع درجات الحرارة،

---

899 EL ALAW, op.cit. p. 59
900 Ibid, p. 58

901 ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص:673.

فضلا عن قدرته على حمل الحمولات الثقيلة لمسافات بعيدة، وهي خصائص لا يدانيه فيها حيوان آخر أو أية وسيلة نقل خلال تلك الفترة[902]. ويمكننا التمييز في هذا الإطار بين نوعين من الجمال كانا مستخدمين في مجال النقل عبر الصحراء وهما: المهاري وهي جمال كانت مخصصة لركوب الأشخاص، وجمال الحمل، وكانت مخصصة لنقل البضائع.

ولم تكن المهاري تحمل سوى الراكب وزاده، والغرض من استخدامها هو سرعتها المتميزة التي تصل في بعض الأحيان إلى60 كلم في اليوم بل إنها تتجاوز ذلك في الحالات الاستثنائية لتصل إلى 150 كلم خلال اليوم الواحد، وكان هذا الصنف من الجمال يستخدم لنقل الرسائل إلى المراكز التجارية التي تتجه إليها القافلة والعودة بأجوبتها، كما كان حرس القافلة يمتطون جمالا من هذا النوع ويخوضون المعارك على ظهورها في حالة تعرض قافلتهم لعدوان من طرف قطاع الطرق.

أما جمال الحمل، فإنها كانت مخصصة لنقل البضائع، حيث كانت حمولة الجمل منها تصل في الحالات العادية إلى ما بين 125و150 كلغم، وقد تتجاوز ذلك في بعض الحالات لتصل إلى ما بين 170و180 كلغم، ويقدر معدل الرحلة للقافلة الحملة بالبضائع خلال اليوم الواحد إلى ست ساعات من السير، تقطع خلالها مسافة تتراوح ما بين 25 و30 كلم، وبإمكان جمال الحمل مضاعفة السرعة لتقطع خلال اليوم الواحد مابين 50 و 60 كلم، خاصة إذا كانت نقاط المياه متباعدة، مما يتطلب من القوافل مواصلة سيرها خلال الليالي المقمرة تحاشيا لارتفاع درجات الحرارة في النهار وما يترتب عن ذلك من حاجة المسافرين إلى استهلاك كميات أكثر من المياه ورغبة في مضاعفة السير حتى الوصول إلى أقرب نقطة مياه موالية، لكن ينبغي في مثل هذه الحالة أن تستريح الجمال مدة يوم أو اثنين[903]، بعد توقفها عند أول نقطة ماء.

وعلى الرغم من ملاءمة الجمل لمثل هذا النشاط، فإنه لا يمكنه أن يتجاوز أربعة أشهر من العمل المتواصل في نقل البضائع وفق الأساليب المحددة سلفا من دون راحة إلا أصبح معرضا للهلاك[904].

وإذا كنا لا نعرف بشكل محدد أعداد الجمال التي كانت القوافل تتشكل منها خلال تلك الفترة، فإننا نعتقد أنها كانت كبيرة، إذا قارناها بالأعداد التي تشكلت منها قوافل أشارت إليها بعض المصادر خلال القرون14م و18م، وهي فترات تراجعت قبلها وأثناءها كثافة وحجم المبادلات التجارية عبر الصحراء عما كانت عليه خلال الفترة مابين القرن8م ونهاية القرن11م، فلقد ذكر ابن خلدون مثلا أن وسائل جمال القافلة التي كانت تربط سنويا بين مصر والسودان الغربي يصل إلى 12000 جمل[905]، في حين أشار سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم إلى توجه قافلة من شنقيط إلى زاره في منطقة الساحل السوداني، بلغ عدد جمالها 32000 جمل[906].

---

902 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر- معهد البحوث والدراسات العربية- بغداد 1984، ص:11.

903 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p. 395.

904 Ibid, p. 394

905 ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ص:

906 صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قلي: مخطوط- بحوزتنا صورة منه، ص:3

ولا شك أن تنظيم سير هذا الكم الكبير من الإبل و البشر الذي كانت القافلة تتشكل منه يتطلب تنظيما دقيقا يشرف عليه أفراد متمرسون قادرون على إيجاد حلول سريعة ومقنعة لمختلف المشاكل التي قد تحدث بين المسافرين قبل عودة القافلة إلى المكان الذي انطلقت منه.

- الجهاز الإداري للقافلة:

لم يكن من السهل التحكم بشكل منظم في سير أعداد كبيرة من التجار وحيوانات النقل، وحرصا من تجار القوافل على تأمين حياتهم وثرواتهم، وربما نتيجة لتجربة طويلة في السفر، ظهرت في نظم القوافل خلال العصر الوسيط مهام متشعبة أوكلها أولئك التجار إلى أشخاص غالبا ما لا تكون لهم علاقة بالبضائع التي تحملها تلك القوافل، وإنما كانوا متفرغين للقيام بالخدمات المتعلقة بالتجارة مقابل أجور يتلقونها، وهؤلاء هم الذين كان الجهاز الإداري للقافلة يتشكل منهم، وعادة ما كان الشخص،ومن أبرز المهام المسندة إليهم: رئاسة القافلة و دلالتها وحراستها الخ...

ويأتي رئيس القافلة في مقدمة جهازها الإداري، ويتم اختياره من بين الأشخاص المتمرسين في ميدان قيادة القوافل[907] وكثيرا ما كانت القبيلة الصحراوية التي تمر القافلة عبر أراضيها هي التي تتولى اختيار رئيس القافلة من بين أبنائها، وتتلخص مهام رئيس القافلة في تنظيم الرحلات، والتفاوض مع القبائل والعشائر التي تمر القافلة من أراضيها لتحديد مقدار مناسب للضريبة التي سيدفعها التجار عن بضائعهم، ثم إنه يشرف على توزيعها أقساطا على أعضاء القافلة بشكل يتناسب مع ممتلكات كل فرد منهم، كما أنه هو الذي يحدد أوقات سير أو توقف القافلة[908].

أما الدليل، فإن مسؤوليته لم تكن أقل خطورة من سابقتها، فالطرق الصحراوية التي كانت القوافل ترتادها لم تكن لها معالم محددة تتبع، والجمال لم تكن تخلف آثارا دائمة على الأرض يمكن الاهتداء على أساسها، إذ بمجرد أن يرفع السائر رجله، تحثي العواصف الرملية على الأثر فتخفيه في الحال، وقد وصف ابن بطوطة ذلك أثناء سفره ضمن قافلة تجارية عبرت الصحراء الواقعة إلى الشمال من ولاتة فقال: "... إنما هي رمال تسفيها الريح فترمي جبالا من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه..."[909]، لذلك فإن سكان الصحراء كانوا يغطون آبارهم بألواح صخرية خوفا عليها من الردم، فلا ينزعونها إلا عند الحاجة، وغالبا ما كانت الرمال تتجمع فوق تلك الألواح فتغطيها، فلا يبقى للبئر معلم يعرف به مكانه، فيصبح من المستحيل على غير سكان المنطقة المتعودين على أحوالها والعارفين بأسرارها الاهتداء إليها، وهذه الوضعية هي التي تبرر حاجة القوافل الملحة إلى دليل عارف بكنه الصحراء ومتمرس على الاهتداء فيها بدقة لا تحتمل الخطأ وإلا ضاعت الأموال وهلكت الأرواح.

وكان اختيار الدليل يتم مثل سابقه من طرف القبيلة التي تخترق القافلة أراضيها، ويلزمه إتقان جملة من المهارات في هذا الميدان من أبرزها قدرته على الاهتداء بالنجوم في حالة اضطرار القافلة إلى السير ليلا أو التعرف على الموقع من خلال نوعيه التربة أو النبات وأن يكون عارفا بأماكن وجود نقاط المياه.

---

907 EL ALAWI, op.cit., p. 59

908 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 400.

909 ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص: 675.

وقد وصفت المصادر الوسيطة مهارة بني مسوفة في الدلالة، حيث قال عنهم ابن حوقل في هذا المضمار ما نصه: "... وفيهم البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري والشدة، والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله، والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة، ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعي سعيهم..."[910]، ويبدو أنهم احتفظوا بتلك الصفات لقرون عديدة، ومكنتهم من احتكار الدلالة على طول الطريق الشرقي من المحور الغربي، حتى القرن14م، حيث ذكر ابن بطوطة أن رئيس القافلة التي رافقها من سجلماسة إلى ولاتة، كان من مسوفة وكذلك دليلها، كما أن دليل القافلة التي سافر معها من ولاته إلى مالي ينتمي إلى نفس القبيلة[911].

وللدليل مساعدون، تتمثل مهامهم في إيصال توجيهاته إلى مختلف أطراف القافلة، ويحثون المتأخرين عن القافلة على السير حتى لا ينقطعون عنها، ويرشد كل واحد منهم الجزء المكلف به من القافلة على المحطة التي سيتم التوقف عندها للراحة في حالة حدوث الانقطاع عنها لسبب أو آخر، كما أن للدليل في كل قافلة مساعدون آخرون أطلق عليهم ابن بطوطة اسم "التكشيف"، وتتلخص مهمة هذا النوع من مساعدي الدليل في كونه يبعث من طرف تجار القافلة في حالة اقترابها من مركز تجاري كبير برسائل إلى وكلائهم هنالك يطالبونهم فيها بحجز غرف لهم بعضها للسكن والآخر لتخزين السلع، كما يطالبونهم باستقبالهم بالماء على مسيرة يومين أو ثلاثة، إذا كانت القافلة تعبر صحراء شاسعة لا تتوفر فيها المياه، وقد يضل التكشيف أو يموت عطشا فتهلك القافلة[912].

وبالإضافة إلى رئيس القافلة وأدلائها، هنالك أيضا فقيه القافلة، ويكمن دوره في إقامة الصلاة، وإمامة الناس فيها، وتدوين المعاملات التجارية التي قد تحدث بين اثنين أو أكثر من أعضاء القافلة أثناء سيرها وفق الصيغ الشرعية، وإليه يتم الرجوع في النزاعات التي تحدث حول ملكية بضاعة أو حيوان أو حول تسديد الديون أو طريقة التعامل الخ...، كما يتولى الإشراف على تجهيز موتى القافلة والصلاة عليهم ومراقبة بضائعهم والإشراف على بيعها والاحتفاظ بأثمانها وبكل ما خلفوه من ممتلكات حتى يسلمها إلى ورثتهم بعد العودة إلى المكان الذي انطلقت منه القافلة[913].

وكان التجار أيضا يستعينون بمجموعة من العمال اليدويين يراقبون القافلة، وكانوا يتولون خدمة جمال القافلة وحمل الأمتعة عليها وحطها عنها، وكان اختيار أفراد هذه المجموعة يتم من ضمن القبائل المشهورة بخدمة للقوافل[914].

وكانت القوافل الكبرى تشكل حرسا توفر له السلاح مقابل أجور يتم الاتفاق عليها، فيرافقها أثناء عبورها الصحراء، وفى بعض الحالات كان حرس القافلة يتشكل من العبيد الذين يمتلكهم تجار القافلة، وقد يحمل التجار أنفسهم السلاح ويدافعون إلى جانب الحرس عن أنفسهم

---

910 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.

911 ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص:673، و675 و678.

912 نفس المصدر، ص:675.

913 Mme AKHCHICHINE TAMOUH Zahra: Le Maroc et le Soudan au XIXe siècle (1830-1894), thèse pour le Doctorat de 3e cycle, Université de Pathéon-Sorbonne, (Paris I)، 1982، pp. 34-35

914 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 400.

وممتلكاتهم إذا دعت الحاجة لذلك[915]، إذ كان قطاع الطرق يتربصون بالقوافل حول نقاط المياه التي تفضي إليها معظم الطرق أو يترصدونهم في الممرات الإجبارية الضيقة لا توفر مواقعها حيزا يكفي لتجمع الحرس وأعضاء القافلة من التجمع لمواجهتهم[916]، وكان التجار في مثل هذه يفضلون التفاوض مع قطاع الطرق لإقناعهم بالاكتفاء برسوم معقولة مقابل إخلاء سبيل القافلة وتجنيبها القتال[917].

ولم يكن هواجس أصحاب القافلة الأمنية مقتصرة على ما تسببه غارات قطاع الطرق من خسائر في الأرواح والمتاع أو فزع، وإنما كانت هنالك مشاكل أمنية مرتبطة بالظروف الطبيعية الصعبة التي لم يكن للقوافل مناص من مواجهتها أثناء عبورها الصحراء، مثل ندرة المياه وارتفاع درجات الحرارة، فكان احتياطي القوافل من المياه يطرح مشاكل كثيرة، إذ أن المسافات الفاصلة بين نقاط المياه كانت طويلة نسبيا، فقد ذكر البكري مثلا أن القوافل كانت تمضي أربعة أيام من السير في صحراء لا ماء فيها على طول الطريق بين تامدلت وأودغست، ثم خمسة أيام على طول نفس الطريق، وبالذات في صحراء واران، كما أشار نفس المؤلف إلى مجابة رمل على طول الطريق بين وادي درعة والصحراء، فذكر أن طولها ثمانية أيام من المسير للقوافل لا ماء فيها[918]، ويضيف نفس المؤلف أن مياه معظم الآبار القليلة الموجودة على طول الطرق الصحراوية مالحة[919].

وقد يتعرض زاد القوافل من الماء يكون لخطر التبخر خلال الفترات التي ترتفع أثناءها درجات الحرارة في الصحراء، فقد أوردت المصادر أن رياحا ساخنة كانت تهب من وقت لآخر في المنطقة الصحراوية، فتؤدي إلى نفاذ المياه من القرب، وفي هذا الصدد يقول أبو الفداء مثلا "... صحراء يسر التي يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة، وهي طويلة عريضة، يكابدون فيها شدة العطش والوهج وربما هبت ريح جنوبية عليهم فنشفت مياههم بقربهم، فهم يعدون لذلك المياه التي تكون في بطون الإبل يذبحونها ويشربون مياه أجوافها..."[920]، لذلك كانت القوافل حدد بعناية مواسم تنقلها عبر الصحراء لتفادي هذه الحالات، فقد ذكر ابن حوقل مثلا أنه ليس بإمكانها السير إلا خلال فصل الشتاء للاستفادة من الانخفاض النسبي لدرجات الحرارة[921]، وينطبق ذلك على القافلة التي سافر معها ابن بطوطة حيث ذكر أنها انطلقت من سجلماسة في 18 فبراير ووصلت إلى ولاته يوم 18 ابريل 1352[922]، ويضيف الوزان أنه من الخطورة بمكان السفر في الصحراء خلال فترة غير الشتاء[923]، أما الإدريسي، فإنه ذكر بأن القوافل كانت تعبر الصحراء خلال فترة الخريف[924]، مستفيدة من تأثير التساقطات على درجات الحرارة

---

915 EL ALAWI, op.cit, P 60

916 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.

917 EL ALAWI, op. cit., p. 60

918 البكري مصدر سبق ذكره ص: 164.

919 نفس المصدر، ص:157.

920 عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماه: تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس 1830، ص:137.

921 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:100.

922 اغناطيوس يوليا نو يتش كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم ط2 دار الغرب الإسلامي بيروت1987، ص:461.

923 وصف افريقيا: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:76.

924 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 89.

وتوقف الرياح الشمالية الشرقية الجافة والحارة وهبوب الرياح الجنوبية الغربية الرطبة، وقد وصف لنا طريقة سير القافلة في الصحراء خلال هذا الموسم ومحاولاتها تفادي مصاعب العبور قائلا: "... وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف وصفة السير بها أنهم يوقرون جمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشتد الحر على الأرض فيحطون أحمالهم ويقيدون جمالهم ويغرسون أمتعتهم ويخيمون على أنفسهم ظلالا تسكنهم من حر الهجير وسموم القائلة، ويقيمون كذلك إلى أول وقت العصر، وحينئذ تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة الغرب يرحلون من هنالك ويسيرون بقية يومهم، ويصلون المشي إلى وقت العتمة، ويغرسون أينما وصلوا ويبيتون بقية ليلهم إلى أول الفجر الأخير ثم يرحلون، وهكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه لأن الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض..."[925].

ومن الأرجح أن تكون حركة القوافل خلال فصل الشتاء أكثر من سواه من فصول السنة، على الرغم مما ذكره الإدريسي، لأن فصل الخريف لا يناسب نقل بعض البضائع التي تؤثر عليها الأمطار فتتلفها، مثل المواد الغذائية التي كانت القوافل تحملها إلى الصحراء، وبصفة خاصة الملح الذي يفسده البلل، وإذا حدثت حركة للقوافل خلال هذا الفصل، فمن المعتقد أنها من الجنوب باتجاه الشمال وليس العكس، لأن المواد المصدرة من الجنوب ليست في الغالب من النوع الذي يضره الماء كالذهب والعاج الخ...

وتعتبر عملية اختيار المسلك أو الطريق الذي تسلكه القافلة من اختصاص الدليل الذي يراعي في ذلك الاختيار، جملة من الاعتبارات من بينها الأمن من البشر والطبيعة وفي بعض الأحيان يشجع وجود مراكز تجارية على طول إحدى الطرق القوافل على ارتيادها للاستراحة بها، والتبادل مع سكانها.

- المحاور التجارية:

نعني بالمحاور مجموعة الطرق والمسالك التي تربط بين منطقتين أو أكثر، وبالتالي فإن المحور هو مجموعة الطرق ذات الاتجاه المشترك، التي تربط بين مركز تجاري وآخر، ويختلف الباحثون في تحديدهم لعدد المحاور التجارية التي كانت تربط بين شمال إفريقيا من جهة، والصحراء وبلاد السودان من جهة أخرى، إذ في الوقت الذي يرى فيه بعضهم أنها ثلاثة، وهي: المحور الشرقي الذي كان يربط مصر وفزان وإفريقية بالصحراء وبلاد السودان، والمحور الأوسط الذي كان يربط المغرب الأوسط بالصحراء والسودان، ثم المحور الغربي الذي كانت طرقه تنطلق من المغرب الأقصى باتجاه المنطقة الصحراوية والسودانية أيضا، فإن البعض الآخر يرى أن الأمر يقتصر على المحورين الشرقي والغربي، لأن طرق المحور الأوسط- في نظرهم- تندمج في طرق المحورين السابقين قبل أن تصل إلى نقطة النهاية[926]، وهذان المحوران الأخيران قديمان قدم المبادلات التجارية الصحراوية، بل إنهما من بين أهم الدلائل على أن المبادلات التجارية عبر الصحراء عرفت منذ عصور موغلة في القدم، وإن كانت في مرحلة ما قبل التاريخ لا تعدو كونها مبادلات محدودة النطاق، تسعى إلى تبادل المنافع بين مزارعي واحات الصحراء وسكان مناطق السافانا[927].

---

[925] نفس المصدر، ص:88.

[926] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 432.

[927] ريمون موني: «طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السافانا في النيجر وتشاد قبل الفتح العربي»- مجلة البحوث التاريخية- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الثالثة- العدد الأول، 1981، ص.ص:115-131.

ويمكن التمييز بين طريقين قديمين كانا يخترقان الصحراء باتجاه بلاد السودان أحدهما ينطلق من فزان متجها إلى بحيرة أتشاد ومنها إلى النيجر، والآخر تنطلق طرقه من جنوب المغرب الأقصى وجنوب غرب الجزائر متجهة إلى منعطف النيجر عبر الصحراء، وهذه الطرق كانت ترتادها عربات خفيفة تجرها الخيول، ترك مستخدموها رسوما لها على واجهات المرتفعات الصخرية التي كانوا يمرون بها، ويعتقد موني أنها كانت مخصصة لنقل الأفراد الأغنياء مع زادهم من الماء والغذاء، ويفترض أنهم كانوا يسوقون أمامهم قوافل من الحمير والعبيد محملة بالأثقال إلى المناطق التي تقصدها[928].

وعند ما تطورت المبادلات التجارية بعد الفتح العربي لشمال إفريقيا والصحراء واتسع نطاقها، أصبح طريق العربات المتجه من الشرق إلى الغرب أساسا لمجموعة من الطرق ذات اتجاه مشترك، وهي ما عرف عند المهتمين بالتجارة الصحراوية بطرق المحور الشرقي، في حين عرفت مجموعة الطرق المتجهة من الشمال إلى الجنوب باسم المحور الغربي، وإذا كان هذان المحوران قد تناوبا على اجتذاب حيوية المبادلات عبرهما، فإن المحور الغربي كان أكثر أهمية وارتباطا بمصالح سكان صحراء الملثمين التي نحن بصدد دراسة علاقاتها بشمال إفريقيا.

- المحور الغربي للتجارة الصحراوية:

هو مجموعة الطرق المنطلقة من جنوب المغرب باتجاه الساحل الجنوبي للصحراء، وقد ساعدت الأنهار النابعة من الأطلس الكبير والصغير (زيز- درعة- سوس)، واتجاهها جنوبا حتى مشارف الصحراء على تكون واحات ذات كثافة بشرية مرتفعة نسبيا، تمارس بها أنشطة زراعية حول ضفاف تلك الأنهار والمناطق الموالية لها، هذا فضلا عن وجود معادن ثمينة كالفضة والنحاس بتلك المنطقة (جنوب المغرب)، المرتبطة أيضا بباقي بلاد المغرب بثرواتها المتنوعة، ومن خلالها بالبلدان المتوسطية، فانسابت من تلك الواحات مجموعة من الطرق إلى الصحراء وبلاد السودان، عرفت ازدهارا كبيرا خلال الفترة الوسيطة في إطار التبادل التجاري بين تلك المناطق.

وقبل أن نحاول تحديد أهم تلك الطرق، نشير إلى أن مفهوم الطريق في هذه المنطقة وخلال تلك الفترة، يختلف كثيرا عن مفهومه الحالي، نتيجة لطبيعة المنطقة الصحراوية التي كانت تلك الطرق تعبرها، وما كانت تعرفه من العواصف الرملية، فلم تكن للطرق بها معالم واضحة ، وبالتالي فإننا نعرف الطريق على أنه هو المسافة الفاصلة بين مركزين تجاريين أو أكثر، وكانت تتخلل تلك الطرق مراحل تساعد على تحديد معالمها، وهي في الغالب نقاط مياه أو قرى تستريح فيها القوافل وتجدد فيها أدواتها، (القرب، الحبال،الخ) ومؤونتها من الغذاء.

ويتشكل كل طريق من مجموعة من المسالك المتوازية، تفصل بينها أحيانا عدة كيلومترات، لكنها تندمج في بعضها البعض عند نهاية كل مرحلة من مراحل الطريق، ولكل قافلة أن تختار المسلك الذي يناسبها، إذ لم يكن بإمكان مسلك واحد أن يوفر حاجيات كل القوافل التي ترتاد طريقا معينا، فكان عليها أن تتوزع على مسالك الطريق لتتمكن من الحصول على مراعي كافية لحيواناتها، وعلى حاجياتها من الحطب للتدفئة وتجهيز الأطعمة ومؤونتها من الماء...، وتكثر مسالك الطريق الواحد خلال فصل الخريف، خاصة في المنطقة الجنوبية من الصحراء، وذلك من أجل تفادي الوديان السائلة، أو الغدران الكبيرة التي تغطي مياهها خلال

---

[928] نفس المرجع، ص: 120.

ذلك الفصل مساحات شاسعة نسبيا[929]، وبصفة عامة يمكننا التمييز بين ثلاثة طرق رئيسة في المحور الغربي للتجارة الصحراوية هي:

- الطريق الساحلي:

وينطلق هذا الطريق من نول لمطه في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب، ويتجه جنوبا ليصل إلى مملحة آوليل قرب مصب نهر السنغال، في منطقة الترارزة بموريتانيا الحالية[930]، وإذا كنا لا نمتلك -حتى الآن- المصادر التي تخولنا تحديد التاريخ الذي بدأت خلاله القوافل ارتياد هذا الطريق، فإن بإمكاننا ربطه بالرحلات البحرية القرطاجية خلال القرن 5 ق.م، ويبلغ طول مسافة هذا الطريق 1600 كلم[931]، كانت القوافل تقطعها بعد شهرين من السير[932].

ومن أهم المشاكل التي كانت تعترض المسافرين عبر هذا الطريق، ندرة المراكز الحضرية وقلة الآبار على طوله، وإن كانت محاذاته لساحل المحيط الأطلسي قد ساعدت في تلطيف درجات الحرارة في المناطق التي يعبرها، كما أدت الرطوبة التي يوفرها الموقع إلى نبات شجيرات كانت كافية لتلبية حاجيات القوافل، سواء فيما يتعلق بمراعي الحيوانات أو استخدامات القافلة الأخرى من الحطب[933]، وعلى الرغم من عدم وجود آبار معلومة على طول ذلك الطريق وتأثير ملوحة المحيط على المناطق التي يخترقها، فإن البكري يورد أن مستخدميه كانوا يحصلون على الماء العذب متتبعين طرقا لم يحددها، نعتقد أنها كانت بإيحاء من الأدلاء العارفين بأسرار المنطقة، فيقول في هذا الصدد: "... وإنما يشربون في طريقهم من قلات يحتفرونها فتبض ماء عذبا..."[934]

ويعتقد موني أن الطريق الساحلي لم يلعب دورا تجاريا مهما خلال العصور القديمة، والوسيطة ولا حتى خلال الفترة الحديثة، على الرغم من تنويه بعض المؤلفين بأهميته، ولم يكتسب - حسب هذا الباحث- قدرا يشار إليه من الأهمية إلا بعد وصول الأوربيين إلى شواطئ إفريقيا الغربية، ويبرر موني رأيه بأن نهاية هذا الطريق في الجنوب لم تكن توفر للقوافل مواد تجارية نفيسة مثل تلك التي كانت نظيراتها المستخدمة لطرق المحور الغربي تعود بها إلى أسواق شمال إفريقيا، بينما لم تكن نهاية الطريق الساحلي توفر للتجار سوى العنبر الرمادي، والصمغ العربي[935]، ومقابل هذا الرأي، يرى عبد العزيز العلوي أن الطريق الساحلي كان على العكس من ذلك، مهما خلال مراحل التجارة الصحراوية المختلفة، وأنه استفاد من قيام دولة المرابطين والازدهار الذي عرفته إمبراطوريتهم بعد ذلك، كما استفاد من ازدهار مملكة تكرور التجاري على مدى عدة قرون لاحقة[936]، وبوسعنا تبني الرأي الأخير باعتبار أن الملح الذي كانت سبخة آوليل توفره للقوافل قبل وبعد ظهور المرابطين كان وحده جديرا بأن يضفي على

---

[929] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p. 427
[930] EL ALAWI, op.cit, P56
[931] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 428

[932] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 172.

[933] EL ALAWI, op.cit., p. 56

[934] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 172.

[935] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 427
[936] EL ALAWI, op.cit., p. 56

هذا الطريق قدرا كبيرا من الأهمية، فضلا عن أن ممالك حوض نهر السنغال مثل سلا وتكرور، كانت توفر مواد مهمة بالنسبة للتجارة وقتها كالذهب والرقيق.

وتنطلق من نهاية الطريق الساحلي الجنوبية (آوليل) طريق أخرى تتجه من الغرب إلى الشرق، مسافتها شهر من السير تؤدي إلى أودغست[937]، التي تبعد عن الشاطئ الأطلسي الواقع إلى الجنوب من تيمريس حوالي 600 كلم، ويعتقد أن القوافل المحملة بملح آوليل كانت تستغل المنخفضات الواقعة بين الكثبان الرملية حتى تصل إلى الحدود الجنوبية لآوكار الغربي، ثم تتجه بعد ذلك إلى الشرق لتمر بين آوكار ولبراكنه، وتصل إلى الحوض (أودغست) بعد أن تعبر مضيق جوك بين هضبة تكانت ولعصابة، من الموقع الذي يمر به الطريق المعبد الحالي[938]. "طريق الأمل".

- طريق تامدلت - أودغست:

وهو أقدم طرق المحور الغربي استخداما، وأكثرها استمرارية، فهو الطريق الغربي الذي سلكته العربات التي تجرها الخيول خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد، وكانت تلك العربات تربط جنوب المغرب الأقصى بمنعطف النيجر، وقد رسمت على واجهات الجبال الواقعة على طول ذلك الطريق، كما توجد رسومات لها في كهف بالجبل المطل على موقع أطلال أودغست، مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أن تلك المدينة ربما تكون قد لعبت دورا تجاريا هاما منذ ذلك التاريخ[939].

وينطلق هذا الطريق من مدينة تامدلت بجنوب المغرب الأقصى وكانت ذات أهمية تجارية خاصة، لوقوعها على مشارف الصحراء، وبمعدن فضتها المشهور، فكانت القوافل القادمة من مختلف المناطق المغربية المحيطة بها تتجمع في تلك المدينة، خاصة تلك المنطلقة من سجلماسة وأعالي درعة وإيغلى وأغمات الخ...، فيشكل مجموع تلك القوافل، قافلة كبرى تنطلق من تامدلت باتجاه أودغست[940].

ولقد عرف هذا الطريق ازدهارا مبكرا بعد وصول العرب الفاتحين إلى المنطقة، إذ من المحتمل أن حملة عقبة الثانية سلكت جزأه الشمالي، من السوس وحتى آدرار في موريتانيا الحالية، وذلك في حالة ما إذا كانت أطار التي ذكر ابن عذاري أنه وصلها يطارد قبائل هسكوره[941]، تعني نفس الموقع الذي يحمل الاسم ذاته حتى الآن في هذه المنطقة، وهو أمر لا نستبعده خاصة أن المؤلف نقل عن ابن عبد البر أن عقبة واصل جولاته من هذا الموقع حتى وصل أطراف بلاد السودان، وذلك في قوله: "... وجال هنالك ولا يقاتله أحد ولا يعارضه حتى فتح كورة من كور بلاد السودان..."[942]، كما أن حملة حبيب بن أبي عبيدة سنة 734م إلى بلاد السودان سلكته، ويعتقد البعض أنها كانت تهدف إلى استكشافه[943]، ثم قام ابن هذا الأخير، وهو

---

[937] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91.

[938] D. ROBERT-CHALEIX, op.cit, p. 170

[939] R. MAUNY: "Les peintures rupestres TEGDAOUST", in TEGDAOUST I, op.cit., p. 76.

[940] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 128

[941] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:29.

[942] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[943] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 128

عبد الرحمن بن حبيب بحفر جملة من الآبار على طوله[944] ابتداء من سنة 745م، وقد ساعدت تلك الآبار على زيادة حجم وأعداد القوافل التي كانت تسلكه خلال السنة، و من المحتمل أنه كان يمر بسبخة اجل التي يعتقد أن استغلالها تم خلال الفترة الوسيطة، إضافة إلى أن الحركة التجارية النشطة للدويلات الخارجية في شمال إفريقيا باتجاه بلاد السودان ساعدت هي الأخرى على ازدياد حيوية وازدهار هذا الطريق، إذ كان هو الطريق الرئيسي بالنسبة لها، حيث أشار إليه اليعقوبي في القرن9م، باعتباره أهم طريق كان يربط المغرب ببلاد السودان في عهده فقال عنه: "... ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد السودان... يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة ثم يسير إلى بلد يقال له غسط وهو واد عامر فيه المنازل..."[945]، واستفاد هذا الطريق خلال القرن10م من الاهتمام الذي حظي به من الفاطميين في المغرب والدولة الأموية في الاندلس[946]، أما في القرن 11م فقد كان طريق الجيوش المرابطية الأساسي، خاصة في عهد أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي أعطى اسمه لذلك الطريق منذ تلك الفترة، حيث أصبح معروفا عند مرتاديه ومميزا عن طرق الصحراء الأخرى باسم **"طريق اللمتوني"**[947].

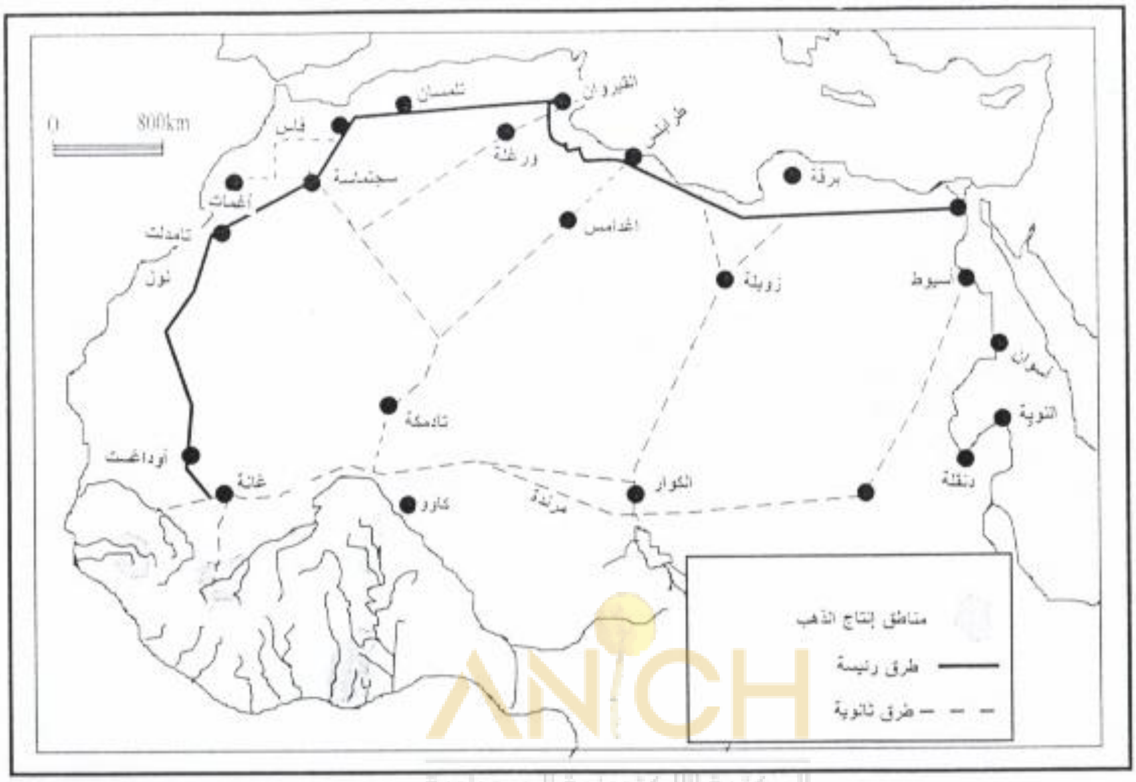
[944] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 156 و157

[945] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.

[946] J. DEVISSE: TEGDAOUST I, op.cit., p. 145.

[947] F. DELACHUPELLE: op.cit., p. 64

الخريطة رقم3: الطرق التي كانت تربط شمال إفريقيا والصحراء من القرن8م وحتى نهاية القرن10م



وقد حدد بعض الباحثين بعض مراحل هذا الطريق معتمدا أسماءها الحالية، خاصة داخل الصحراء، فذكر فيها، (من الشمال إلى الجنوب): تيندوف، الفارسية، عين بن تيلي، بيرأم اكرين، أناجيم، تورين، بير الطالب، اجريف، شنقيط[948]، أما موني فذكر أنه كان ينطلق من تامدلت، ليتجه إلى تيندوف ومنها إلى بيرأم اكرين، فأناجيم، ومنه إلى تورين ثم واران فعكلت انمادي ومنها يتجه إلى أودغست[949]، وقد تعرض البكري إلى ذكر مراحل هذا الطريق بشكل مفصل[950]، لكن أسماء الأماكن التي ذكر أنه يمر بها، يصعب التعرف عليها في الوقت الحاضر، لأن معظمها تغير وحلت محله أسماء أخرى، إلا أن بعض الباحثين تتبعوها وحاولوا التعرف عليها، بحيث جعلوا إلى جانب كل تسمية من تسميات المواقع التي ذكرها البكري، الاسم الذي تعرف به في الوقت الحاضر[951].

ومن بين أصعب مراحل هذا الطريق عبورا على القوافل، منطقة رملية، يعتقد أنها صحراء آمقطير الحالية بآدرار الموريتاني، حيث كانت القوافل تسير"في مجابة رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أودغست أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين، آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش، وبهذا الماء تجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف، تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق، ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه، وحاجة الناس إلى الماء فيه..."[952]، وتعتقد "دافو" أن الموضع الذي كانت تجتمع فيه القوافل وتفضي إليه الطرق، والذي سماه البكري "وانزمين" هو بئر الغلاوية الحالية الواقعة إلى الشمال الشرقي من وادان بموريتانيا[953].

وتصل مسافة هذا الطريق إلى 51 يوما من السير لا تجد القوافل أثناءها الماء إلا في 12 موقعا، متباعدة، يفصل بين الموقع منها والآخر مابين يومين إلى خمسة أيام من المسير[954]، وبعضها لا يوجد به إلا الماء المالح الذي يضر مستعمليه مثل "... بئر وينطونان وهي كبيرة لا تنزف ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والأنعام، وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب"[955]، ولا تختلف مياه آبار: يغرف، وواران عن سابقتها[956]، وقد يضطر التجار إلى حفر الآبار من أجل التزود بالماء في مناطق لا تسمح طبيعتها الرملية ببناء الآبار وبقائها لفترة ولو قصيرة مثل ما كانوا يقومون به عند ما تصل قوافلهم إلى تندفس (تيندوف)، "...آبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن"[957]، وكذلك في صحراء أوكازنت وهي "...موضع يقال له أوكازنت أرض زرقاء ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث...»[958]، كما كان بإمكان القوافل الحصول على الماء أثناء فصل الخريف أو بعيده في بعض المناطق الصخرية التي تغطيها الرمال من دون أن يبذل الإنسان للوصول إليها جهدا يذكر، مثل المنطقة الواقعة

---

[948] Idem
[949] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 428
[950] البكري: مصدر سبق ذكره، ص.ص:156-158.
[951] S. DAVEAU: in TEGDAOUST I, op. cit., p. 35.
[952] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:157.
[953] S. DAVEAU: in TEGDAOUST I, op.cit., p. 35 .
[954] EL ALAWI: op.cit., p. 53
[955] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:157.
[956] نفس المصدر ، ص: 156.
[957] نفس المصدر ص:157.
[958] نفس المصدر، ونفس الصفحة.

إلى الجنوب من بئر وين هيلون، التي قال عنها البكري "...ثم تمشي ثلاثة أيام في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفا تحت الرمل من بقية الأمطار"[959].

ويبدو أن هذا الطريق فقد أهميته خلال النصف الثاني من القرن11م، بعد اختفاء أو تراجع دور أودغست التجاري إثر هجوم المرابطين عليها سنة 1056م[960]، فتحولت كثافة التنقل، وحيوية المبادلات إلى طريق آخر يقع إلى الشرق منه، وهو طريق: درعة- الصحراء- غانة.

- طريق وادي درعه- الصحراء- بلاد السودان:

لا يهمنا في هذا المقام إلا الجزء الرابط بين وادي درعة والصحراء، فالجزء الرابط بين الصحراء وبلاد السودان سيكون موضع اهتمامنا في الفصل الموالي، وينطلق هذا الطريق من المنطقة المحيطة بوادي درعة التي كانت قاعدتها يتومتين، وكان يطلق عليها أيضا اسم مدينة درعة[961]، وتصب في هذه المدينة عدة طرق من المغرب أهمها الطريق الذي كان يربطها بسجلماسة، ومن يتومتين تتجه القوافل جنوبا لتصل بعد خمسة أيام من السير إلى وادي تارجا (الساقية الحمراء)، الذي اعتبره البكري "أول الصحراء"[962]، ويصل طول مسافة هذا الطريق إلى مابين 40-50 يوما من المسير[963].

وإذا كنا لا نعرف بالضبط التاريخ الذي بدأت خلاله القوافل استخدام هذا الطريق، فإن بإمكاننا القول بأنه كان مستغلا عند بداية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا والصحراء، إذ أورد البكري اسم بئر على طوله ذكر أن الناس يذكرون أنها حفرت من طرف الأمويين، وذلك في قوله: "... البئر المسماة تزامت بير معينة غير عذبة وهي إلى الملوحة أقرب، قد انبطت في حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بني أمية صنعتها..."[964]، وإذا صحت هذه الرواية، فإنه بإمكاننا ربطها برواية أخرى، أوردها نفس المؤلف حول جيش أرسلته الدولة الأموية إلى غانة من أجل نشر الإسلام بها، لكنه استقر هنالك، وبمرور الزمن تخلى أحفاده عن الإسلام واتخذوا من الوثنية دينا لهم، مع محافظتهم على نقائهم العرقي عن طريق انغلاقهم على أنفسهم وعدم اختلاطهم بالشعوب المجاورة[965].

ومن شبه المؤكد أن طريق درعة - الصحراء، هي التي تحدث عنها ابن حوقل في القرن10م، وذكر أن قبيلة مسوفة كانت تسيطر عليها، وذلك أثناء حديثه عن هذه المجموعة القبلية عندما كتب يقول: "... ولهم ملك يملكهم ويدبرهم تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار

---

959 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:156.

960 EL ALAWI: op.cit., p. 53

961 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:155.

962 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:163.

963 EL ALAWI: op.cit., p. 50

964 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 163.

965 نفس المصدر، ص:179.

لأنهم يملكون تلك الطريق..."[966]، وإذا كنا نعرف أن ديار مسوفة كانت وقتها تقع في الجزء الشرقي من صحراء الملثمين بين تندوف شمالا وتنبكتو جنوبا، فإن الطريق الذي يعنيه ابن حوقل لا يمكن أن يكون سوى الطريق الشرقي من المحور الغربي أي الطريق الرابط بين درعة والصحراء وبلاد السودان، وقد استفاد هذا الطريق من مروره بمملحة تغازه التي بدأ استغلالها خلال القرن8م[967]، وعرفت أوج ازدهارها خلال القرن 5هـ/11م، إذ كان العمل في ذلك المعدن وقتها "متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة"[968].

وعلى الرغم من أهمية هذا الطريق، فإن ندرة المياه ظلت على مر الزمن تطرح مشاكل حادة لمستخدميه، إذ لم تكن توجد على طوله سوى أربعة نقاط للمياه هي آبار: تزامت، بئر الجماليين، ناللي وبني ينتسر، وقبل أن تصل القوافل إلى البئر الأخيرة، كان عليها أن تقطع صحراء مروعة أطلق عليها البكري اسم "المجابة الكبرى"، إذ كانت القوافل تسير فيها ثمانية أيام من دون أن تجد قطرة ماء[969]، ويبدو أنها هي الصحراء الواقعة بين لكصيبة شرقي وادان شمالا، وولاته جنوبا، حيث ذكر ابن بطوطة في القرن 14م أن القوافل كانت عندما تتوسطها ترسل مبعوثا إلى أهل ولاته من أجل أن يستقبلوها بالمياه على بعد مسيرة عدة أيام، وقد حدد مونى المسافة التي كانت القواقل تقطعها من تلك الصحراء بـ 550 كلم[970]، وآخر مراحل هذا الطريق في الصحراء هي "قرية مدوكن لصنهاجة، ومنها إلى مدينة غانة أربعة أيام"[971]، ويمكن أن نفترض أن قرية مدوكن لم تكن بعيدة عن موقع ولاته إن لم تكن هي ذاتها، فكونها لا تبعد سوى مسيرة أربعة أيام من غانة يشجعنا على تقبل ذلك الافتراض، خاصة أن ولاتة كانت خلال القرن13م و14م أهم مركز تجاري على طول ذلك الطريق بعد تراجع الدور التجاري لمدينة غانة[972]، ويبدو أن فرعا من هذا الطريق، كان يتجه من مدوكن إلى منعطف النيجر، خاصة خلال القرن5هـ/11م الذي الطريق المذكور أوج ازدهاره، الأمر الذي قد يكون وراء تأسيس مسوفة المسيطرين عليه لمركز تجاري في أقصى مناطق تفوقهم العددي والاقتصادي جنوبا، هو مدينة تنبكتو التي أسسوها في أواخر القرن 5هـ/11م[973]، لمنافسة غانة في دور الوساطة الذي كانت تلعبه بين المناطق الصحراوية والمنطقة السودانية الواقعة خلف النيجر حيث أصبحت القوافل تنطلق مباشرة من تنبكتو باتجاه كوكيا وجنة الخ...

وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فإن هذا الطريق التجاري سيبقى أهم طريق في المحور الغربي من حيث الحيوية منذ تدهور تامدلت وأودغست، بعد هجوم المرابطين على المدينة الأخيرة، وبقي كذلك إلى أن تحولت خيوية المبادلات إلى طرق المحور الشرقي للتجارة الصحراوية خلال فترة متأخرة نسبيا، حيث تمكنت من اجتذاب الكثير من القوافل إليها.

- المحور الشرقي للتجارة الصحراوية:

---

966 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.

967 J. CUOQ: L' islamisation , op cit, p 7.

968 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

969 نفس المصدر، ص:163 و164.

970 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 430

971 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

972 R. MAUNY: Tableau géographique, op. cit. p.

973 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:20 و25.

نقصد بالمحور الشرقي، مجموعة الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب أو العكس، في إطار العلاقات التجارية عبر الصحراء، وكانت القوافل السالكة لتلك الطرق تنطلق من مناطق متعددة من أهمها: الواحات المصرية وفزان وإفريقية وبعض أجزاء المغرب الأوسط.

وأقدم طريق في هذا المحور، هو طريق العربات الكرمانتية المعاصر لطريق العربات الغربية[974]، و تصل معظم الطرق المشكلة له صحراء الملثمين عبر الصحراء الوسطي والشرقية أو بلاد السودان، فقد أشار البكري في القرن11م إلي وجود طريق بين أودغست والقيروان لم يحدد مراحله بشكل تفصيلي فقال: "... وبين أودغست والقيروان مائة مرحلة وعشر مراحل..."[975].

وتشير المصادر إلى سفر مجموعات من تجار إفريقية، واستقرارها في أودغست، فقد ضمن الونشريسي كتابه سؤالا وجهه شخص من أهل القيروان إلى القابسي يتعلق بتاجر يطالبه بدين سافر إلى تادمكة ثم توجه منها إلى أو دغست التي استقر بها فتزوج وولد له الأولاد، ويفهم من سياق الإجابة أن جالية كبيرة من أهل إفريقية كانت مستقرة أودغست[976]، ويبدو أن هذا الطريق عرف انتعاشا كبيرا فى منتصف القرن 5هـ/11م حيث كان معظم سكان مدينة أودغست خلال تلك الفترة من أهل إفريقية[977].

الخريطة رقم4: أهم الطرق التي كانت تربط بين شمال إفريقيا والصحراء خلال القرن 11م

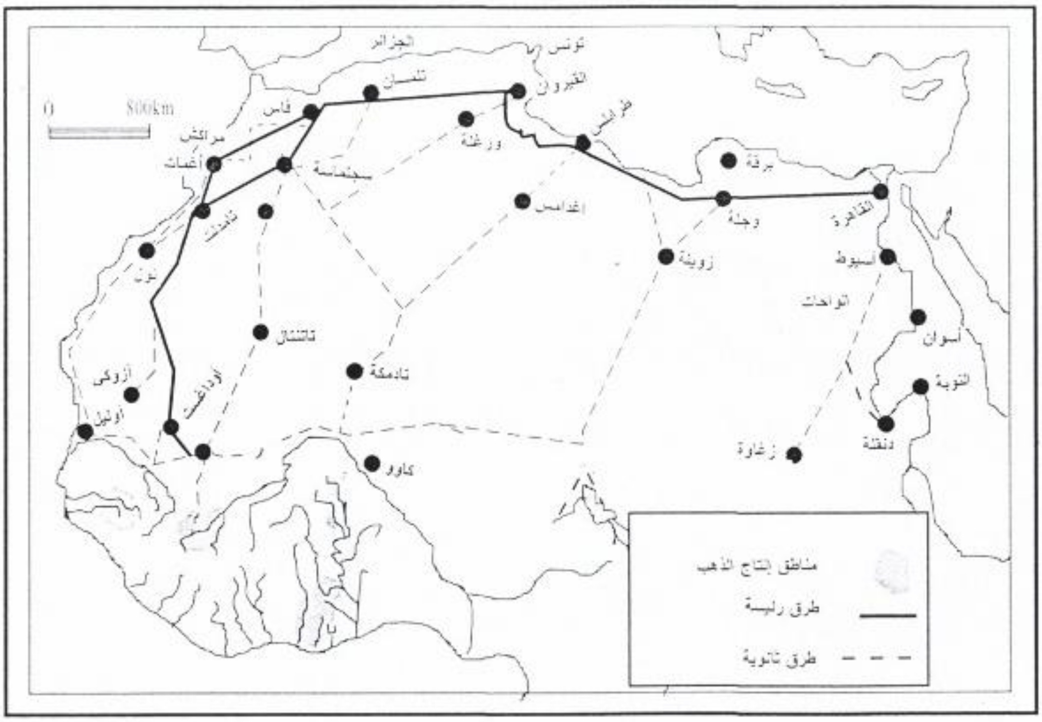
---

[974] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 435

[975] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.

[976] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص:117.

[977] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.


0 800km
تونس
الجزائر
القيروان
تلمسان
فاس
مراكش
أغمات
سجلماسة
ورغلة
طرابلس
برقة
القاهرة
وجلة
غدامس
زويلة
أسيوط
الواحات
أسوان
النوبة
دنقلة
زغاوة
تادمكة
نول
تامدلت
أزوكى
أوليل
أودغشت
كاوو
مناطق إنتاج الذهب
طرق رئيسة
طرق ثانوية

ومن جهة أخرى تحدث ابن حوقل عن طريق كان يربط الواحات المصرية بغانة، وذكر أن العواصف الرملية وهجمات قطاع الطرق فرضت على القوافل التخلي عنه، فقال: "...براري عظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر إلى غانة، فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة..."[978].

ويرى بعض الباحثين أن ابن طولون هو الذي أصدر أمرا بمنع القوافل من استخدام هذا الطريق، وأن غرضه من ذلك الإجراء لم يكن نابعا من حرصه على أمن التجار والقوافل، كما أنه لم يكن ضد تطور المبادلات بين مصر والصحراء وبلاد السودان، وإنما كان يهدف إلى السيطرة بشكل تام على تلك المبادلات عن طريق صرفها إلى طرق أخرى يسهل على الدولة مراقبتها، خاصة أن الطريق القديم الذي تحدث عنه ابن حوقل، كان يمر عبر أرض الخوارج المزعجين لابن طولون وسادته العباسيين[979]، فأصبحت القوافل تنطلق من مصر عبر الطريق الساحلي المحاذي لشواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى أن تصل إلى سواحل المغرب الأقصى، ثم تتجه جنوبا حتى تصل إلى سجلماسة، ومنها تسلك إحدى طرق المحور الغربي السالفة الذكر لتصل إلى المراكز التجارية في الصحراء أو السودان[980].

ولقد انتظمت العلاقات التجارية بين ورغلة وتوات من جهة، وتادمكة وكاوو من جهة أخرى وذلك منذ القرن9م عبر طرق المحور الشرقي، وإن كانت طرق هذا المحور قد ظلت خلال معظم الفترة الوسيطة أقل أهمية من طرق المحور الغربي، ولم تتغير تلك الوضعية حتى القرن 14م[981].

وبصفة عامة، فإن العلاقات التجارية بين صحراء الملثمين ومصر وفزان وإفريقية وبعض أجزاء المغرب الأوسط، كانت قائمة منذ عهد قديم لكنها لم تكن في معظم الحالات مباشرة، فالقوافل التي كانت تنطلق من تلك المناطق كانت في أغلب الحالات تتبع طرقا مؤدية إلى المغرب الأقصى لتلتحق بمراكزه التجارية الجنوبية، وتتجه منها مع القوافل المتجهة إلى أودغست أو غيرها من مراكز الأطراف الجنوبية للصحراء، بينما كانت قوافل أخرى تتجه من الشرق إلى تادمكة وكاوو وغانة لتصل إلى صحراء الملثمين عبر شبكة الطرق التي كانت تربطها ببلاد السودان، وذلك ربما تفاديا للظروف الطبيعية القاسية على طول الطرق المؤدية مباشرة إلى المنطقة أو تخوفا من عمليات السطو التي كانت القوافل تتعرض لها من سكان الصحراء الوسطى.

وكما وقع صراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس من أجل السيطرة على طرق المحور الغربي، وقع صراع بين الدولة الطولونية في مصر والاغالبة في إفريقية حول السيطرة على طرق المحور الشرقي للتجارة عبر الصحراء، وأدى ذلك الصراع بالعباس بن طولون إلى الزحف على طرابلس الغرب وإعلان سيادة الحكم الطولوني عليها، ثم إنه كان يخطط للسيطرة على أكبر قدر ممكن من سواحل شمال إفريقيا، كخطوة أولى للسيطرة على بعض الطرق

---

[978] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:65.

[979] محمد عبد الحي محمد شعبان: الدولة العباسية- الفاطميون 750م-1055م/ 132-448هـ. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1981، ص:136.

[980] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 436

وكذلك ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:65

[981] Tableau géographique, op.cit., P. 433

التجارية المتجهة إلى الصحراء وبلاد السودان من جهة، والطرق البحرية المؤدية إلى أوربا من جهة أخرى[982].

وبصفة عامة فإن طرق التجارة عبر الصحراء كانت تسلكها القوافل من مختلف الاتجاهات، محملة ببضائع مختلفة، وإن كانت الأهمية ظلت تنتقل من محور إلى آخر، ومن طريق إلى طريق حسب عوامل طبيعية وسياسية واقتصادية، وكان بحث القافل عن المواد التجارية الرائجة هو أكثر العوامل أهمية، وقبل أن نتعرض للمواد التجارية، يجدر بنا التعرف على المقاييس التي كانت مستخدمة في التبادل.

- مقاييس التبادل التجاري:

كانت المقاييس المستخدمة التجارة عبر الصحراء خلال الفترة التي تهمنا تتخذ من المقاييس العربية الإسلامية نموذجها الأساسي، وإن كانت لكل مدينة أو منطقة طريقتها في تطويرها طبقا لوضعها الخاص، وتختلف طبيعة المقاييس باختلاف الأمور المقيسة، فقد كانت هنالك مقاييس للطول، وأخرى للوزن، فأما مقاييس الطول، فإن ابن خرداذبه يرى أن أصغر وحدة فيها هي الإصبع الذي يقول عنه: "... والصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض.."[983] ويرى موني أن طول ست حبات شعير متناظرة يساوي بالمقاييس الحديثة 2سم[984]، أما الوحدة الموالية للإصبع، فهي الذراع الذي يرى ابن خرداذبه أيضا أنه يساوي 24 أصبعا[985]، أي48سم وفقا لتقديرات موني السالفة الذكر، ويرى هذا الأخير أن الأمر هنا يتعلق بالذراع العربي، الذي يميزه عن الذراع في الأندلس الذي كان طوله يبلغ 47سم، في حين يذكر أن طول الذراع في موريتانيا الحالية يبلغ 50سم، أما الشبر فيبلغ طوله مابين 21و23سم[986]، وهذه المقاييس الثلاثة كانت تستخدم أساسا في قياس الاقمشة[987]، أما مقاييس الطول الأخرى فكانت تستخدم لقياس المسافات الطويلة، ونذكر من بينها الميل الذي يساوي طوله 1960مترا[988]، وكذلك الفرسخ الذي يصل طوله إلى 12000ذراع، أي 12000*48 =576000سم = 5،76كلم، وأكبر وحدة في هذا النوع من مقاييس الطول هي الدرجة التي يبلغ طولها25 فرسخا أي 144كلم.

أما مقاييس الوزن، فإن أهمها المثقال الذي ذكر ابن خلدون أن وزنه يساوي وزن72حبة شعير[989]، وكذلك أوقية الرسول (صلعم)، والرطل والقنطار، ويعتقد موني أن المعلومات عن هذا النوع من المقاييس متوفرة، سواء بواسطة المصادر المكتوبة أو عن طريق الآيركولوجيا، وحدد قياساتها وفقا للمقاييس الحالية على النحو التالي: المثقال =4.72غرام، الأوقية 37.77غرام، الرطل= 453.33غرام، والقنطار =45333.33 غرام[990].

---

982 محمد عبد الحي محمد شعبان: مرجع سبق ذكره، ص:138.

983 أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه: المسالك والممالك -دار المدينة- مطبعة ابريل ليدن 1889، ص:4.

984 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 410

985 ابن خرداذبه: مصدر سبق ذكره، ص:4.

986 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 411

987 Ibid, P. 412

988 ابن خرداذبه: مصدر سبق ذكره، ص:4.

989 ابن خلدون:المقدمة،مصدرسبق ذكره ،ص322

990 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 414

أما المكاييل، فإنها كانت تستخدم لكيل المواد الجافة والسائلة معا، فمن بين المواد الجافة نذكر مثلا: الحبوب التمور الزبيب الخ... أما المواد السائلة التي كانت متداولة في الأسواق فنذكر منها على سبيل المثال: العسل الزيوت الحيوانية الخ...[991]، والوحدة الأساسية في هذا النوع من المقاييس هي المد النبوي، وقد عثر على نماذج منه في المغرب الأقصى تعود إلى أواخر العصر الوسيط، وتصل سعته إلى 0.75 لترا، ويليه الصاع الذي تبلغ سعته هو الآخر أربعة أمداد أي 3 لتر، وظهرت في المدن التجارية الكبرى التي يتم التعامل فيها بكميات كبيرة من الحبوب والسوائل،مكاييل أكبر من المد النبوي والصاع اللذين كان صغر حجمهما معيقين لسرعة كيل الكميات الضخمة، وإن كان تحديد مقدار سعة المكاييل الجديدة ظل يتم على أساس سعة المد النبوي، ومثال ذلك المودي السجلماسي الذي كانت سعته تبلغ 768 مدا نبويا وغيره من المكاييل المماثلة في المدن الكبرى[992]. وكانت عمليات التبادل التجاري تتم عن طريق مقايضة مادة بأخرى حسب وزنها أو مقياسها، وكان استخدام النقود قليلا في المنطقة الصحراوية بصفة خاصة.

- وسائل التبادل التجاري:

إذا كانت إفريقيا الشمالية قد عرفت استخدام النقود في التعامل التجاري منذ فترة متقدمة من تاريخها، نتيجة لارتباطها بالحضارات المتوسطية، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للصحراء، إذ كانت المقايضة هي وسيلة التعامل الشائعة في أرجائها، وكانت هي وسيلة التعامل في المبادلات التجارية بين تجار المنطقة والتجار القادمين من الشمال، ولا يتناقض ذلك مع وجود عملات مغاربية أو مصرية خلال العصر الوسيط في المراكز التجارية االصحراوية، إذ كان نطاق تداول تلك القطع النقدية النادرة مقتصرا على المدن التجارية الكبرى المأهولة بجاليات من التجار العرب، وكان استخدامها محصورا -تقريبا- بينهم، وبالتالي كان دورها في السوق ثانويا[993].

ولقد انتبه البكري إلى هذه الوضعية عند ما تحدث عن مدينة أودغست التي تعتبر من بين أكبر مدن الصحراء وأكثرها أهمية في مجال التبادل التجاري خلال العصر الوسيط، فقال عنها: "... وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة[994]..."، ويمكن أن نعتبر انطلاقا من هذه الشهادة، أن دقيق الذهب كان هو وسيلة التعامل الأساسية في الصحراء، لذلك يمكننا أن نطلق عليه تجاوزا "عملة" لقيامه بوظيفتها، إذ كل وسيلة للتبادل قادرة على أن تكون مقياسا ثابتا للتعامل التجاري يمكن أن تحمل اسم عملة، ومن بين المقادير المحددة من الذهب المتعارف عليها، والمتخذة وسيلة للتبادل التجاري في الصحراء خلال القرن11م، نذكر على سبيل المثال، المثقال الذي كان وزنه وقتها يصل 4.72غرام، فقد أشارت المصادر إلى استخدامه لهذا الغرض، حيث حددت بواسطته أثمان بعض المواد التجارية، ويقول البكري في هذا الموضوع متحدثا عن

---

991 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

992 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 413

993 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit., p. 439

994 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

مدينة أودغست: "... يشتري بالمثقال الواحد عشرة اكبش وأكثر... وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك التمر والزبيب..."[995].

وهكذا تمكن تجار القوافل التي كانت تربط بين شمال إفريقيا وصحراء الملثمين عبر العصور من خلق تنظيم محكم للنشاط التجاري الذي كانوا يمارسونه، بدءا بالاستعدادات للسفر ومرورا بعبور الصحراء وانتهاء بمبادلة المواد التجارية الشمالية بتلك الجنوبية.

- مواد التبادل التجاري:

كانت مواد التبادل التجاري هي أساس العلاقات التجارية التي ربطت بين نطاقات التجارة الثلاثة: شمال إفريقيا والصحراء والسودان، ولقد تحدثت المصادر العربية الوسيطة عنها، فأشارت إلى نوعيات مختلفة منها، كما ذكرت الأماكن والجهات التي كانت تصدرها، وتلك التي كانت تستوردها، إلا أن تلك المصادر أحجمت عن ذكر بعض المعطيات الهامة حول عملية التبادل، وبالتالي فإن هنالك بعض النواقص التي تقف أمام المهتمين وتمنعهم من التفكير في تصور تحديد دقيق لحجم المبادلات التجارية التي كانت تتم بين المنطقتين خلال تلك الفترات، حيث لا تزودنا تلك المصادر بأرقام تتعلق بما تم تصديره من مادة أو أخرى في أحد الاتجاهين خلال تاريخ محدد، كما أنها لم توفر لنا أسعار كل المواد التي ذكرتها، وما وفرته عنها من معلومات أحيانا لا يغطي كل الفترات الزمنية.

ويمكننا التمييز بين نوعين من المواد التجارية، تختلف عن بعضها البعض من حيث النوعية وجهة التصدير، وبالتالي تكون لدينا مواد تجارية صحراوية موجهة إلى شمال إفريقيا وأخرى شمال إفريقية موجهة إلى الصحراء.

- المواد المصدرة من شمال إفريقيا إلى الصحراء:

تتشكل المواد المصدرة من شمال إفريقيا إلى الصحراء من نوعيات مختلفة، وهي في معظمها مواد كمالية موجهة إلى الفئات العليا والوسطى من المجتمع الصحراوي، ومن بين أهم تلك المواد:

- النحاس:

لعب النحاس - كغيره من المواد المعدنية الرئيسية التي ساعد اكتشافها واستخدامها في تطور البشرية- دورا كبيرا في التاريخ الاقتصادي العالمي والإفريقي بوجه خاص، فهو معدن جذاب ببريقه واختلاف ألوانه، الأمر الذي خوله منافسة الذهب في مناطق مختلفة من القارة الإفريقية[996].

ولم تكن الصحراء بمعزل عما كان يدور في محيطها، خاصة في مجال استغلال واستخدام النحاس، فقد تم تعدينه بها على مرحلتين، تعود آثار أولاهما إلى الألف الثانية قبل الميلاد، ويتعلق الأمر هنا أساسا بمناجم الآيير، مع أن الشكوك تحوم حول دقة المعلومات

---

[995] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[996] Laurence GARENNE-MAROT et Lo‹c HURTEL" : le Cuivre: approche méthodologique de la Métallurgie du Cuivre dans les Vallées du Niger et au sud du Sahara" in Vallées du Niger‹ édilions de la Réunion des musées nationaux, Paris, 1993, p. 320

المتعلقة بهذه المرحلة، بخلاف المرحلة الثانية التي تمت البرهنة علميا على صحة معظم نتائج البحوث التي كانت موضوعا لها، وتعود هذه المرحلة إلى الفترة الواقعة بين 800 ق.م و 300ق.م، وهي فترة معاصرة حسب رأي بعض الباحثين لاستغلال مناجم النحاس في اكجوجت، كما تعود بقايا الأفران التي كانت تستخدم لمعالجة خامات ذلك النحاس إلى نفس الفترة، مثل تلك التي تبعد 40 كلم عن اكجوجت كاجعرانية ودامان ولمدنة[997]، كما تم اكتشاف منجم آخر للنحاس في الصحراء، يعتقد أن استغلاله هو الآخر يعود إلى هذه المرحلة، ويقع في تجالت أم أكجار إلى الشرق من كوركول الأسود بين المجرية وامبود في جنوب موريتانيا الحالية[998].

وبالإضافة إلى ذلك، تم العثور في مواقع مختلفة من صحراء الملثمين على قطع كثيرة من النحاس، ذات أشكال مختلفة من ضمنها سبيكة وصل وزنها ما يقارب 10كلغم، كما تم العثورعلى حمولة قافلة من النحاس، يبدو أن أصحابها هلكوا في أعماق الصحراء- ربما عطشا- ، وتتشكل تلك الحمولة مما يزيد على 2000 قطعة من النحاس، طول كل قطعة منها 70سم ومتوسط وزنها 470 غرام[999]، ويرى بعض الباحثين أن تلك الاكتشافات، إذا ما أضيفت إلي شهادات المؤرخين العرب في العصر الوسيط، تؤكد أن كميات هامة من النحاس كانت تصدر إلى الصحراء وبلاد السودان من الشمال، وبالتحديد من المغرب الأقصى[1000]، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن المغرب كان خلال الفترة الوسيطة يتوفر على مناجم عديدة من النحاس، مثل منجم تيحمامين الذي كان يقع على طريق سجلماسة، ومنجم آخر في تنودادن الواقعة بين درعة وسجلماسة[1001]، ومنجم داي في تادلا ومنجمين آخرين في السوس الخ...[1002]، وكان النحاس المغربي يصدر إلى الجنوب بعد أن تتم قولبته على شكل قضبان أو سبائك أو خواتم في أغلب الأحيان[1003].

وقد أكد البكري تصدير النحاس من المغرب إلى أودغست، فكتب يقول: "... ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع..."[1004]، ومن الواضح من خلال هذه الإشارة أن أودغست، وصحراء الملثمين بصفة عامة، كانت تستورد أساسا المواد المصنعة من النحاس، على شكل حلي أو أواني الخ... لم يكن بمقدور الصناع المحليين وقتها تصنيعها محليا، وهو أمر لا ينفى استخراج النحاس في ذلك العصر من مناجم الصحراء ولو بكميات قليلة، مثلما أكدته نتائج التحليلات المخبرية التي أفادت بأن بقايا النحاس الموجودة في آثار الأفران التي كانت مخصصة لتذويب خاماته وتصفيتها من الشوائب تختلف في نوعيتها عن النحاس المغربي، في حين تتطابق مكوناتها مع النحاس الصحراوي، وبالتالي فإن تموين المغرب للصحراء بالنحاس خلال العصر الوسيط مؤكد، لكنه لا ينفى تزويد مناجم صحراوية وساحلية لأودغست بهذه المادة خلال تلك الفترة خلافا لما كان سائدا من أن استغلال تلك المناجم قد توقف منذ القرون القليلة السابقة للميلاد، ومن بين أهم المناجم التي يعتقد أنها كانت تموِن أودغست والصحراء بالنحاس

---

997 Ibid P 322
998 C. VANACKER: TEGDAOUST II, Recherches sur Aoudaghost, Fouille d'un quartier artisanal, Mémoire de l'IMRS, n!2, Imprimérie Sopizet Thonon, 1979, p. 139
999 EL ALAWI, op.cit., p. 73
1000 C. VANACKER: TEGDAOUST II, op.cit., p. 141
1001 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:156.
1002 EL ALAWI, op.cit., p. 71.
1003 Ibid, p. 72
1004 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.

حتى منتصف القرن11م، نذكر بصفة خاصة تلك القريبة نسبيا من مدينة أودغست، مثل منجم تجالت أم اكجار ومناجم اكجوجت وكذلك منجم انيورو الخ..[1005].

وتدل وفرة بقايا الأفران التي كانت تستخدم لتصفية خامات النحاس في أرجاء الصحراء، على أن هذا المعدن كان يستخرج من مناجم محلية خلال العصر الوسيط، ومن بين الأمثلة على ذلك: بقايا الأفران التي عثر عليها في حي صناعي بأطلال أودغست، وكذلك الأفران المحيطة بمناجم اكجوجت، كما تم اكتشاف فرن لمعالجة النحاس بالقرب من كيفه قرب جبل انتاكات، وعثر على سوار من النحاس يعود إلى نفس الفترة على قمة ذلك الجبل[1006].

وعلى الرغم من ذلك، فإن نحاس الصحراء والساحل لم يكن كافيا لسد حاجيات المنطقة من هذه المادة، فضلا عن حاجيات بلاد السودان وهي كبيرة، مما جعل هذه المادة على رأس أهم المواد المصدرة من المغرب إلى الصحراء والسودان، مثلها في ذلك الفضة وغيرها من المواد الأخرى.

- الفضة:

لم تشر مصادرنا العربية الوسيطة إلى وجود مناجم للفضة في صحراء الملثمين، كما أن البحوث الأثرية هي الأخرى لم توفر لنا معلومات من هذا القبيل، وعلى العكس من ذلك كانت مناجم الفضة كثيرة نسبيا في المغرب ومستغلة خلال تلك الفترة، ومن بينها على سبيل المثال مناجم تامدلت و واركناس التي يعتقد أنها هي مدينة المعادن التي أشار إليها بعض كتاب القرن10م، وحددوا موقعها بين فاس وأم الربيع، كما نذكر مناجم تازرارت وازندر وعوام، وقد أكدت نتائج البحوث الاثرية التي قيم بها في تلك المواقع كثافة استغلال مناجم الفضة بها خلال الفترات القديمة والوسيطة[1007].

وعلى الرغم من وفرة مناجم الفضة بالمغرب الوسيط وانتظام المبادلات التجارية بينه والصحراء منذ القرن8م على أقل تقدير، فإن المصادر العربية الوسيطة لم تتحدث بشكل صريح عن تصديره لهذه المادة إلى الصحراء، ولكن نظرا إلى ما سبق أن أشرنا إليه من انعدام وجود مناجم الفضة في الصحراء فإنه بإمكاننا التفكير بأن الأدوات الفضية التي عثر عليها هنالك مجلوبة من المغرب، كما أن انتشار الصناعات الفضية في بعض المدن الصحراوية الوسيطة التي تعتمد في مادتها الأولية على الفضة المغربية لدليل آخر على دخول هذه المادة ضمن مواد التصدير المغربية إلى الصحراء، وفى هذا الإطار أكد الأثريون أن الفضة كانت مستخدمة في الصناعات التي كانت تمارس في مدينة أودغست حتى منتصف القرن11م[1008]، كما عثر على سلسلة من الفضة في أطلال نفس المدينة[1009].

1005 C. VANACKER: TEGDAOUST II, op.cit., p. 144
1006 Vallée du Niger, op.cit, P. 323
1007 EL ALAWI, op.cit., p. 74
1008 Histoire générale de l'Afrique, t. 3, op.cit., p. 449
1009 Ibid, P. 435

ومن بين الأمور التي تجعلنا نعتقد أن كميات هامة من الفضة جلبت إلى الصحراء من المغرب بواسطة القوافل كون ذوق الصحراويات في مجال الحلي خلال تلك الفترة كان مرتكزا على الحلي الفضي الذي كن شغوفات به[1010]، وكن يفضلنه حتى على الحلي الذهبي.

وبالإضافة إلى المواد التجارية المعدنية، كان شمال إفريقيا بصفة يصدر إلى الصحراء مواد أخرى هامة موجهة في معظمها إلى الفئات المترفة في المدن كالفخار والمصنوعات الزجاجية.

- المواد الفخارية والزجاجية:

لم تشر المصادر العربية الوسيطة، ولا حتى معظم الدراسات المعاصرة إلى أهمية المواد المصنوعة من الخزف والزجاج في المبادلات التجارية عبر الصحراء، ولم يتم التنويه بأهميتها في تلك المبادلات إلا بعد نشر نتائج البحوث الأثرية التي قيم بها في بعض المواقع الصحراوية، حيث لفت انتباه الباحثين في هذا الميدان تناثر القطع الفخارية والزجاجية في مختلف المواقع المذكورة، وفى مختلف مستويات الحفر.

وعلى الرغم من أن الصحراء عرفت إنتاج المواد الفخارية منذ فترة مبكرة نسبيا من العصر الوسيط[1011]، فإن المتخصصين تمكنوا من التمييز بين تلك المصنوعة منها محليا وتلك المستجلبة من الشمال، فالخزفيات المستوردة تتميز عن سابقتها بإتقانها وتعقد زخرفها وبطلائها، وهي تنقسم إلى شكلين خزفيات مغطاة بطلاء أبيض، وأخرى مبرنقة[1012].

ونتيجة لكثرة شظايا هذه الأشكال من الخزفيات في الصحراء، فإن البعض ذهب إلى القول بأنها كانت مادة هامة في مجال التبادل التجاري بين الصحراء والمناطق الشمال إفريقية، وأن وصولها إلى الصحراء من مناطق بعيدة على الرغم من هشاشتها وثقل وزنها لا يمكن إلا أن يكون استجابة لطلب متزايد عليها وأرباح مغرية شجعت التجار على المغامرة بحملها إلى هنالك.

ويعتقد أنها كانت موجهة إلى فئة ثرية ومتحضرة ربما يكون معظمها من الجاليات الشمال إفريقية التي استقرت في المدن الصحراوية، ويرغب بعض أفرادها في اقتناء أدوات تختلف من حيث الجودة والجمال عن تلك المصنوعة محليا[1013]، ومن بين أهم الأدوات الفخارية التي كانت تجلب إلى الصحراء من شمال إفريقيا، جرار صغيرة لحفظ المياه وأباريق وصحون الخ...، لكن اللافت للانتباه هو كثرة الاسرجة بمختلف أشكالها، ويبدو أن استعمالها المتزايد في مدينة أودغست فترة بعد أخرى يعتبر تطورا ملموسا لإمكانات الإضاءة لدى المجتمع الحضري الصحراوي وقتها[1014].

ويمكننا مقارنة الموجودات الفخارية في المواقع الأثرية الصحراوية بتلك التي كانت تصنع في مراكش وآشير وقلعة بني حماد وقرطاج ومصر والأندلس، ونلاحظ بشكل خاص

[1010] EL ALAWI, op.cit., p. 74

[1011] C. VANACKER: **TEGDAOUST II**, op.cit., p. 173

[1012] Ibid, P. 155, et **TEGDAOUST III**, op.cit, P. 269

[1013] D. ROBERT-CHARLEIX: Ceramiques découvertes TEGAOUST, in **TEGDAOUST III**, op.cit, p. 269

[1014] **TEGDAOUSTIII**، op.cit، P 269

كثرة الآلات الفخارية التي يعتقد أنها جلبت من بلاد إفريقية خلال القرنين 9م و10م[1015]، كما يعتقد أن بعض بقايا الاسرجة مجلوبة إلى الصحراء من رقادة الاغلبية[1016]، ومن ليبيا، حيث تعرض أسرجة مشابهة لتلك التي وجدت في موقع أودغست في متاحف كل من مصراته وطرابلس[1017]، وقد ساعدت المصنوعات الفخارية المستوردة من شمال إفريقيا إلى الصحراء على تطور صناعة الفخار في هذه الأخيرة وبصفة خاصة في أودغست[1018].

أما المواد الزجاجية، فإنها وجدت هي الأخرى في مناطق مختلفة من الصحراء، وهي بدون شك مستوردة من الشمال وبصفة خاصة من المغرب وإفريقية ومصر[1019]، وقد عثر في أطلال أودغست على مواد زجاجية ذات ألوان وزخارف وأشكال مختلفة، ومن أهمها: القوارير و الأواني والكؤوس والقداح[1020]، فضلا عن مختلف أشكال الحلي الزجاجي[1021]، وعثر في موقع رقادة الاغلبي في تونس على قداح تشبه من حيث الشكل والزخرف والقياس القداح التي عثر عليها في حفريات تغداوست (أودغست)، كما عثر فيها على أدوات زجاجية مطابقة من حيث نوعية الزجاج وطريقة صناعته لتلك التي كانت تصنع في مصر وخاصة النوعيات التي عثر عليها في حفريات الفسطاط[1022]، وقد مكنت المكتشفات الزجاجية في حفريات أودغست ومناطق أخرى في شمال إفريقيا من الاعتقاد بأن الزجاج كان من بين مواد تجارية أخرى يدخل في مبادلات تجارية كانت قائمة بين مصر وصحراء الملثمين عبر إفريقية[1023].

وقد تم استخدام الزجاج المستورد إلى الصحراء من طرف الصناع المحليين في مجال صناعة الحلي الزجاجي الذي كان مطلوبا بكثرة هنالك نتيجة لأناقته[1024]، ويبدو أن تقنية الصناعات الزجاجية نقلت من إفريقية إلى أودغست، حيث عثر في حفريات هذه الأخيرة على أفران توفر درجة حرارة تصل C1000!، بل إنها تتجاوز ذلك أحيانا، وكان وجودها مرتبطا بصناعة الزجاج، ولا تختلف أشكال تلك الأفران والأغراض من استخداماتها عن أفران مماثلة لها عثر عليها بصبرا منصورية بتونس، مما جعل البعض يعتقد أن تقنية صناعة الزجاج نقلت من هنالك إلى صحراء الملثمين[1025].

وبالإضافة إلى المواد الكمالية التي تحدثنا عنها سلفا، كانت الصحراء تستورد من الشمال الإفريقي مواد أخرى أكثر أهمية بالنسبة للسكان بصفة عامة وسكان المدن بصفة خاصة، و من أهمها المواد الغذائية والملبوسات.

- المواد الغذائية والملبوسات:

[1015] Ibid, P. 294 et C. VANACKER: **TEGDAOUST II**, op.cit., pp. 160 -161
[1016] C. VANACKER: **TEGDAOUST II**, op.cit., p. 161
[1017] Ibid, P. 156, **TEGDAOUST III**, op.cit, P. 278
[1018] Ibid , P. 269
[1019] R. MAUNY: **Tableau géographique**, op.cit., p. 372
[1020] **Histoire générale de l'Afrique** t. 3, op.cit., p. 447

[1021] راجع كلا من :

- R. MAUNY: **Tableau géographique**, op.cit., p. 372.
- C. VANACKER: **TEGDAOUST II**, op.cit., p. 168

[1022] **TEGDAOUST II**, op.cit, P. 166
[1023] Ibid, P. 168
[1024] **Histoire générale de l'Afrique** t. 3, op.cit., p. 448
[1025] Ibid, P. 457

من الطبيعي أن تدخل مثل هذه المواد في المبادلات بين الصحراء وشمال إفريقيا، إذ من المعروف أن الظروف المناخية في الصحراء لم تكن تسمح بإنتاج زراعي كبير ومتنوع، كما أن المصادر لم تتحدث عن وجود معامل للنسيج بها بإمكانها أن تسد حاجات السكان في هذا الميدان. وعلى الرغم من عدم خلو الصحراء من النشاط الزراعي، فإنه كان محصورا في واحات محدودة أو في أشرطة ساحلية ضيقة وذات إنتاجية ضعيفة نسبيا، ومقابل ذلك كانت مناطق شمال إفريقيا تنعم بكثرة وتنوع المحاصيل الزراعية، خاصة المناطق غير البعيدة من الحدود الشمالية للصحراء مثل سجلماسة وأغمات، ودرعة، فقد تحدث البكري مثلا عن سجلماسة، فقال: "... وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ويعرفونه بالظلى..."[1026]، ثم تحدث عن أودغست فذكر ندرة القمح بها وغلاءه في أسواقها مثله في ذلك التمور والزبيب، وذكر أن تلك المواد كانت تجلب إليها من الشمال، فقال: "... ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل، وكذلك التمر والزبيب..."[1027]، ويتحدث نفس المؤلف عن نوعية القمح الذي كان ينتج في مناطق تافلالت ودرعة وسوس، فيقول: "... وقمحهم رقيق صيني يسع من مد النبي صلى الله عليه وسلم خمسة وسبعين ألف حبة..."[1028].

وتنبغي الإشارة إلى أن البكري أثار مسألة هامة هي تجارة التمور التي يرى بعض الباحثين أنها عبرت الصحراء خلال فترة مبكرة من بداية التبادل التجاري بين المنطقتين، وأن ذلك صاحبه نقل تقنيات غراسة النخيل من الشمال الإفريقي إلى الصحراء[1029]، وقد كانت تلك التمور تلعب دورا رئيسيا في تغذية بعض سكان الصحراء، خاصة سكان تغازة التي تقع في منطقة رملية قاحلة ليس بمقدور سكانها من العمال القائمين على استخراج الملح والتجار المتوافدين عليها، العيش إلا اعتمادا على المواد الغذائية المجلوبة إليهم من شمال إفريقيا وفى طليعتها تمور سجلماسة ودرعة[1030]، كما كان التجار يزودون سكان الصحاري من البدو بدقيق القمح أثناء مرورهم بهم على طول الطرق التجارية[1031].

وقد اقتصرت لائحة المواد التي كانت تجلب إلى الصحراء من شمال إفريقيا على أصناف محدودة، قادرة على تحمل ظروف السفر الطويل عبر بيئة قاسية، من دون أن يتهددها التلف، وكانت موجهة بالأساس إلى الأغنياء من سكان المدن الصحراوية الذين كان بمقدورهم توفير أثمانها بشكل مستمر[1032]، فبالنسبة لأودغست مثلا، فإن البكري يقول عن هذه الوضعية إن القمح كان يستهلك فقط من طرف الملوك والأغنياء، في حين كان العامة يعيشون على الذرة[1033].

[1026] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:148.

[1027] نفس المصدر، ص: 158.

[1028] نفس المصدر، ص:151.

[1029] **Histoire générale de l'Afrique** t. 3, op.cit., p. 447

[1030] EL ALAWI, op.cit., p. 82

[1031] البكري، مصدر سبق ذكره، ص:164.

[1032] EL ALAWI, op.cit., p. 82

[1033] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

أما الملبوسات، فإن المصادر أقل تعرضا للحديث عنها كمادة تبادل تجاري، وإن لم تكن قد صمتت عنها بشكل نهائي فإنها لم تعطها اهتماما كبيرا على الرغم من أننا نعتقد أن معظم ملابس سكان المنطقة كانت خلال تلك الفترة تستجلب من الشمال، إذ لم تشر المصادر إلى وجود صناعة للنسيج في صحراء الملثمين، كما أن البحث الأثري لم يعثر حتى الآن على مخلفات تمكن من الاعتقاد بذلك، وعلى العكس من ذلك، كانت صناعة النسيج منتشرة في مناطق شمال إفريقيا، حيث كانت مصر تحتل المرتبة الأولى في هذه الصناعة في شمال إفريقيا، واشتهرت بعض أقاليمها بها، مثل الفيوم ودمياط، كما عرفت إفريقية بنسيجها المتنوع والمتقن خاصة في مدن سوسة والمهدية وقفصة وقابس التي تميزت عن مراكز النسيج في شمال إفريقيا بمنتوجاتها الحريرية خلال الفترة ما بين القرن10م و12م، أما المغرب الأقصى الأقرب جغرافيا إلى صحراء الملثمين، فقد تميز بوفرة المادة الخام المستخدمة في مجال النسيج من أصواف وقطن وكتان، ومواد صباغية مختلفة، وقد اشتهرت بعض مدنه بصناعاتها النسيجية نذكر منها مدينة سبته، ومدينة فاس التي عرفت منذ تأسيسها سوقا خاصا لبيع الأزر، كما نذكر تادلة وداي اللتين كان التجار يترددون عليهما لشراء الاقمصة والملابس من أجل تصديرها إلى الصحراء وبلاد السودان، بينما كانت آسفى ووجدة متخصصتين في النسيج الصوفي، وفى المنطقة الجنوبية من المغرب الأقصى الواقعة على الأطراف الشمالية للصحراء كانت توجد مراكز نسيج هامة في مدن نول لمطة ودرعة وسجلماسة، وكانت أراضي هذه المناطق الأخيرة تتوفر على كميات هامة من الصوف، بالإضافة إلى صلاحيتها لزراعة النباتات النسيجية، كما كانت تصلح أيضا لزراعة المواد الصباغية، وكانت منطقة سوس قد عرفت بمنسوجاتها الجميلة منذ القرن9م، أما سجلماسة فإنها كانت تستورد كميات هائلة من القطن الخام من إقليم البنغال في الهند على الرغم من كثرة مزارعها القطنية، وهو أمر يدل على كثرة الطلب على المنسوجات القطنية من طرف المناطق التي كانت لها صلات تجارية بسجلماسة وبصفة خاصة بلاد الصحراء والسودان[1034].

وإذا كانت القدرة الإنتاجية لشمال إفريقيا بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة تمكن من توفير فائض كبير من هذه المادة، قادر على تموين الصحراء بمختلف أنواع المنسوجات، فإن المصادر الوسيطة شحيحة فيما يتعلق بالحديث بشكل صريح عن تصدير الملابس من الشمال إلى الصحراء خلال الفترة التي تهمنا، وإن كانت تؤكد أن الأغلبية من سكان المنطقة كانت تلبس الثياب الصوفية[1035]، كما أورد اليعقوبي أثناء وصفه لملابس صنهاجة الصحراء خلال النصف الثاني من القرن9م، "أنهم كانوا يتشحون بثيابهم ولا يلبسون القمص..."[1036]، وهو أمر يجعلنا نفكر بالأزر التي كانت تباع في سوق الملابس بفاس منذ تأسيسها في القرن8م[1037]، كما ذكر ابن بطوطة في منتصف القرن14م أن ملابس سكان ولاته مجلوبة في معظمها من مصر[1038]، وهو وضع نعتقد أنه ناتج عن ذوق ترسخ عبر الأجيال عن طريق المبادلات التجارية، ولعل أوضح إشارة إلى تصدير الملابس من شمال إفريقيا إلى

[1034] عبد العزيز العلوي: ؛ صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الانتاج والمبادلات» مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس- عدد خاص، دراسات في تاريخ المغرب، عدد خاص(2) 1985، ص.ص:49-65.

[1035] ابن الخطيب: مصدر سبق ذكره، ص:234، ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:156. والادريسي: مصدر سبق ذكره، ص:62.

[1036] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.

[1037] صناعة النسيج في المغرب الوسيط، مرجع سبق ذكره، ص:52.

[1038] ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص:677.

الصحراء، هي تلك التي أوردها البكري عند ما كتب يقول: "... ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة..."[1039].

وليست الملبوسات إلا جزءا من مواد مختلفة كانت الصحراء تستوردها من شمال إفريقيا، صمتت المصادر عن بعضها، وذكرت البعض الآخر، مع تفاوت في أهمية المعلومات من مادة إلى أخرى.

- **مواد مختلفة:**

لا تمكن آليات البحث المتوفرة في المناطق المعنية بالمبادلات التجارية عبر الصحراء خلال العصر الوسيط في الوقت الراهن من تسجيل لائحة كاملة ودقيقة لكل مواد التبادل التي كانت تعبر الصحراء، لأن كتاب الفترة لم يهتموا بها كلها وإنما تحدثوا عن أهمها بالنسبة لهم، والدليل على ذلك أن الايركولوجيا كشفت عن مواد يبدو أنها لعبت أدوارا هامة في المبادلات التجارية، لم يرد لها ذكر في تلك المصادر مثل المصنوعات الفخارية المتعددة الأشكال والاستخدامات، وغيرها من المواد الأخرى، كما أن الايركولوجيا في حد ذاتها لا يمكن أن تعتمد من أجل الوصول إلى ذلك الهدف في الوقت الراهن، لأن المواقع الأثرية المعنية بتلك المبادلات التجارية لم تشملها عمليات التنقيب والحفر، وتلك القليلة منها التي حظيت بحفريات، اقتصر فيها العمل على حفر عينات من كل موقع، ومع ذلك فقد أفادت نتائج تلك الحفريات الباحثين حول هذا الموضوع وإن كانت قد ظلت ناقصة نتيجة لعدم شموليتها.

وانطلاقا مما هو متوفر، يمكننا أن نضيف إلى المواد التجارية الأساسية السالفة الذكر، مواد أخرى يعتقد أنها كانت أقل أهمية في الحركة التجارية، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر نذكر الحجارة الكريمة التي دخلت في إطار التبادل بين الصحراء وشمال إفريقيا قبل متم القرن 9م، واتسع نطاق تداولها في الصحراء والسودان ابتداء من سنة 900م، حيث تم جلب العقيق الصرف من أعالي مصر، كما جلب الامازونيت من تيبستي وفزان على الرغم من اكتشاف آثار استغلال مناجم صغيرة منه في صحراء الملثمين خلال الفترة الوسيطة خاصة في منطقة تيجكجة، وتم استيراد البفش وهو نوع من الحجارة الصوانية لونه أحمر رماني كانت القوافل تحصل عليه من جنوب المغرب[1040]، ولعل هذا النوع من الحجارة الكريمة هو الذي تحدث عنه البكري، وأعطاه اسم الياقوت، فقال عنه أثناء حديثه عن الطريق الرابط بين سجلماسة واغمات مانصه: "... وهناك جبل يقال له جبل هزرجة فيه أجناس من الياقوت المتناهي في الجودة وحسن اللون، يتكون على حجارة الجبل..."[1041]، كما جلبت القوافل إلى الصحراء حجرا كريما آخر هو الخلقيدونية، وهو حجر شفاف عثر على كميات هامة منه في مواقع الحفر بأودغست، ويعتقد دفيس أنه هو الحجر ذاته الذي سماه البكري تاسنمست[1042].

وبالإضافة إلى الحجارة الكريمة استوردت الصحراء من شمال إفريقيا مادة أخرى مصدرها آسيوي هي الودع، وهو نوع من الأصداف يوجد في المحيط الهندي، وبصفة خاصة جزر المالديف تم استخدامه كعملة في مناطق متعددة من العالم الوسيط، من أهمها الصين والهند وبلاد السودان، وكان يصل إلى إفريقيا الشمالية عن طريق التجار الشرقيين والأوربيين[1043]،

[1039] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.

[1040] **Histoire générale de l'Afrique** t. 3, op. cit., p. 449

[1041] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 153.

[1042] **Histoire générale de l'Afrique** t. 3, op. cit., p. 449

[1043] EL ALAWI, op. cit., p. 88.

وتم العثور على وثائق تتعرض لعمليات تسويقه في شمال إفريقيا ورد فيها أنه كان يصل موانئ بلاد إفريقية بانتظام خلال القرن11م، كما كان ميناء طرابلس يستقبله في فصل الخريف، وظهر الودع كمادة تجارية ذات وزن في الصادرات الشمالية إلى أودغست والصحراء خلال القرنين9 م و10م[1044]، كما تم العثورعلى بقايا حمولة قافلة منه كانت قادمة من الشمال وهلكت في أعماق الصحراء، تم التمييز فيها بين ما يقارب 3260 عينة من تلك الأصداف نسبة 90% منها من عينات الودع المستخدم في ذلك العصر كعملة[1045]. وتضاف إلى هذه المواد، العقاقير، والعطور وأخشاب الصنوبر، وكتب الفقه الإسلامي، والخيول[1046].

وبصفة عامة، فإننا نؤكد على أن المواد التي كانت صحراء الملثمين تستوردها من شمال إفريقيا، هي في معظمها - إن لم تكن كلها- مواد كمالية، موجهة إلى سكان المدن من ملوك وأغنياء[1047]، وكانت المنتوجات الصناعية تحتل مكانة مرموقة في الصادرات الشمال - إفريقية إلى الصحراء، ومقابل ذلك كانت غالبية صادرات الصحراء إلى شمال إفريقيا عبارة عن مواد أولية تعتمد عليها الصناعات المحلية، أو مواد أساسية ضرورية للاستعمال اليومي كالملح مثلا.

- صادرات الصحراء إلى شمال إفريقيا:

لم تكن صحراء الملثمين مجرد منطقة ربط بين شمال وغرب إفريقيا في إطار المبادلات التجارية عبر الصحراء، وإنما ساهمت بشكل مباشر، وبطرق مختلفة في عملية تنشيط تلك المبادلات[1048]، ونشير مثلا إلى دور الصحراويين في تنظيم المبادلات سواء عن طريق قيادة القوافل أو دلالتها وتوفير الأمن لها، وكذلك توفير جمال الحمل بيعا أو كراء الخ...، كما ساهمت صحراء الملثمين في إنتاج مواد هامة وجدت طريقها إلى التصدير عبر القرون شمالا وجنوبا، ومن بين أهم المواد التي كانت الصحراء تصدرها إلى شمال إفريقيا: العنبر، والجلود والشب والصمغ والملح ومواد أخرى مختلفة.

- العنبر:

أشارت المصادرالعربية الوسيطة إلى كثرة هذه المادة على الشواطئ الأطلسية لصحراء الملثمين بصفة عامة، وجزيرة أيوني القريبة من مملحة آوليل بصفة خاصة، وكانت حاجة الشمال إلى هذه المادة كبيرة، نظرا إلى تعدد استخداماتها في صناعة العطور والشموع والصابون، وفي مجال الصيدلة والطب، فالعنبر - حسب تلك المصادر-، يقوي الذاكرة بشكل فعال وينمي المواهب الذهنية وينشيط الدم والقلب، كما يكتسي أهمية خاصة بالنسبة للاشخاص المتقدمين في السن، نتيجة مفعوله الجيد في مجال التدفئة[1049].

وبالنظر إلى تعدد استخدامات العنبر في مجالات مختلفة بالمغرب كالصناعة والصيدلة إلخ... فإنه بالإمكان تصور أن الصحراء كانت تصدر كميات كبيرة منه إلى الشمال، وكانت

1044 Idem
1045 EL ALAWI, op . cit.، p. 89
1046 R. MAUNY: **Tableau géographique**, op. cit., p. 373

1047 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.

1048 د. ابراهيم حركات: «دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط»، مجلة البحوث التاريخية الليبية، العدد الأول، 1981، ص27.

1049 EL ALAWI, op. cit., p. 105

هناك طريقان، كان العنبر يصدر بواسطتهما عن طريق القوافل، أولاهما هو الطريق الساحلي الذي كان يربط آوليل بنول لمطة[1050]، أما الطريق الثاني فهوالطريق الرابط بين أودغست بسجلماسة، ويحمل من سجلماسة إلى بقية مناطق شمال إفريقيا والاندلس، فقد ذكر البكري أن أودغست كانت تصدر هذه المادة إلى الشمال، وذلك في قوله: "... ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم... "[1051].

- الجلود:

على الرغم من أن المغرب عرف خلال العصر الوسيط بانتاجه الغزير من الجلود[1052]، فإنه كان يستورد من صحراء الملثمين نوعا خاصا منها، لم يكن يوجد إلا بها، ويتعلق الأمر بجلود الحيوانات البرية الصحراوية، وخاصة الحيوان الذي أطلقت عليه المصادر العربية الوسيطة اسم "اللمط"، الذي وصفه البكري فقال عنه: "... ومما في هذه الصحراء من الحيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها وكلما كبر منها الواحد طال قرنه حتى يكون أكبر من أربعة أشبار... "[1053]، أما القزويني فإنه شبه هذا الحيوان بالظبي، فقال عنه أثناء حديثه عن مدينة كاكدم، وهي إحدى مدن صحراء الملثمين، مانصه: "... حيوان يقال له اللمط لايوجد إلا هناك وهو شبه الظباء ابيض اللون إلا أنه أكبر خلقا... "[1054].

وقد أكدت نتائج الدراسات التي انجزها أحد العلماء المتخصصين في الحيوانات البرية الصحراوية أن ما أطلق عليه الكتاب العرب في العصر الوسيط اسم حيوان اللمط، هو المها الذي يعتبر من أسرة الظباء[1055]، كما اثبتت نتائج البحوث الاثرية أن هذا الحيوان ظل يصطاد طيلة فترات تعمير مدينة أودغست، وأن لحومه ربما كانت تدخل في النظام الغذائي للسكان هنالك، مع أن الغرض الاساسي من اصطياده خلال تلك الفترة كان يتمثل في الحصول على جلده الذي كان يستخدم من طرف المقاتلين كترس بعد أن يدبغ ويقطع إلى قطع دائرية تسمى بالدرق اللمطية التي كانت ذائعة الصيت في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط[1056]، ذلك أن حيوان اللمط كان يوجد بكثرة في صحراء الملثمين بصفة عامة والمناطق المحيطة بمدينة أودغست بشكل خاص، وفى ذلك يقول البكري: "... والحيوان الذي يعمل منه الدرق حوالي أودغست كثير جدا..."[1057].

وكان التجار يحملون جلود اللمط من الصحراء إلى شمال إفريقيا قبل أن تدبغ وتصنع منها الدرق فيبيعونها للدباغين في المدن الكبرى، كما أن بعض التجار كانوا يحملون الدرق بعد صناعتها في الصحراء[1058]، إذ من المؤكد أن ورشات لدباغة جلود اللمط كانت موجودة في

[1050] R. MAUNY: **Tableau géographique**, op. cit., p. 428

[1051] البكري مصدر سبق ذكره، ص: 159.

[1052] EL ALAWI, op. cit., p. 103

[1053] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

[1054] القزويني: مصدر سبق ذكره، ص: 58.

[1055] EL ALAWI, op.cit., p. 104

[1056] **TEGDAOUST III**, op. cit, p. 362

[1057] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.

[1058] EL ALAWI, op. cit., p. 104

مدينة أودغست[1059]، وقد وصفت لنا المصادر طريقة دباغة تلك الجلود في صحراء الملثمين، فقال القزويني مثلا في معرض حديثه عن حيوان اللمط في الصحراء: "... يدبغ جلده في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام سنة كاملة"[1060].

وتكثر خصائص الدرق اللمطية التي منحتها شهرة ورواجا في منطقة الغرب الإسلامي، وقد وصف الإدريسي بعض تلك الخصائص أثناء حديثه عن مدينة أزقى، وهي مدينة صحراوية فقال: "وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لاشيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها.."[1061] ، ويضيف القزويني صفات أخرى لجلد هذه الدرق، خاصة بعد دباغتها، فيقول: "... لايعمل فيه الحديد أصلا إن ضرب بالسيوف نبت عنه وإن أصابه خدش أوبتر يبل بالماء ويمسح باليد فتزول عنه..."[1062].

وتمكننا هذه الصفات التي يتمتع بها هذا الصنف من الجلود - التي لاشك أنها كانت مهمة من أجل حماية المقاتلين- أن نفكر في أن حاجات الجيوش والافراد إليها كانت كبيرة، وبالتالي فإن مكانتها بين المواد التي كانت الصحراء تصدرها إلى الشمال لاشك كانت كبيرة، نظرا إلى حيوية مجال استخدامها، ومع أن القزويني حدد أثمان الدرق اللمطية المصنوعة من تلك الجلود، فذكر أنها كانت تصل 30 دينارا للدرقة الواحدة، فإن البكري يورد أنها كانت متفاوتة الأثمان تبعا لنوعياتها مبررا ذلك بأن الدرق المصنوعة من جلود الحيوانات الكبيرة أجود من تلك المصنوعة من جلود الحيوانات الصغيرة فيقول في هذا الصدد: "... وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العواتق منها وهي التي طال قرناها لكبر سنها، فمنع الفحل علوها..."[1063].

وبالإضافة إلى جلود اللمط كانت الصحراء تصدر أنواعا أخرى من الجلود إلى الشمال مثل جلود الضأن التي كانت تصدر إلى تلمسان، وجلود الفنك، وإن كانت كل هذه الأنواع الأخيرة أقل أهمية في التبادل التجاري من جلود اللمط[1064]، وقد أشار البكري إلى كثرة حيوان الفنك في صحراء الملثمين، وتحدث عن تصدير جلوده منها إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وذلك في قوله: "... ودواب الفنك أكثر شيء في هذه الصحراء ومنها يحمل إلى جميع البلاد..."[1065].

- الشب:

وهو معدن حجري كان يستخدم من طرف الصباغين لتثبيت الصباغة على الثياب، وهو نادر[1066]، والشب منتوج صحراوي كانت مناجمه تتركز في الصحراء الوسطى بصفة خاصة،

[1059] **TEGDAOUST III**, op. cit, p. 362

[1060] القزويني: مصدر سبق ذكره، ص:58.

[1061] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 127.

[1062] القزويني: مصدر سبق ذ،كره، ص:58.

[1063] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171.

[1064] R. MAUNY: **Tableau géographique**, op.cit., p. 380

[1065]البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171.

[1066] صناعة النسيج في المغرب الوسيط: مرجع سبق ذكره، ص:50.

ومن بينها المنجم الذي كان يقع على طول الطريق بين تادمكة وغدامس[1067]، كما تحدثت المصادر عن منجمين لهذه المادة خلال تلك الفترة في منطقة الكوار[1068]، وقد ذكر القزويني وجوده بالقرب من مملحة تغازة وأن القوافل كانت تحمله إلى الشمال[1069].

ونظرا إلى انتشار صناعة النسيج في المغرب وشمال إفريقيا وأهمية هذه المادة بالنسبة لذلك النشاط، فإن التجار كانوا يحملونه من الصحراء إلى سجلماسة ومنها يوزع في باقي مناطق المغرب، ويتجاوزها إلى البلدان الأوربية المجاورة التي كان الشب الصحراوي فيها معروفا تحت اسم "الشب السجلماسي"، لكون سجلماسة كانت تلعب دور الوسيط في هذه المادة بين أوربا والصحراء[1070].

- مواد مختلفة:

وبالإضافة إلى المواد السالفة الذكر، كانت صحراء الملثمين تصدر إلى شمال إفريقيا، مواد أخرى تعرضت لها المصادر بقدر أقل من التفصيل، فكانت المعلومات حولها موجزة، ولا يحدد ذلك بالضرورة مكانة تلك المواد في المبادلات التجارية عبر الصحراء، إذ قد يتعلق الأمر بمجرد عدم اهتمام الكتاب بها، أو لأن المعلومات حولها لم تكن في متناولهم، ومن تلك المواد على سبيل المثال الصمغ العربي، الذي هو عبارة عن مادة نباتية مصدرها أشجار القتاد (الاكاسيا)، وكانت الصحراء تصدر هذه المادة إلى المغرب والأندلس لتستخدم هنالك في صباغة النسيج، حيث كانت تضاف لتلميع ودعك وصقل الأقمشة بعد الانتهاء من مرحلتي الحياكة والصباغة[1071].

وذكر البكري أن الأشجار التي تنبت هذه المادة كانت كثيرة في صحراء الملثمين، وقريبة من مدينة أودغست، فقال: "... شرف عال مشرف على أودغست فيه طير كثير... وفيه أشجار الصمغ الذي يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج..."[1072].

ولايعني ذلك أن المصدر الوحيد للصمغ الذي كان يصدر إلى الشمال هو الغابات التي كانت توجد بالمنطقة المحيطة بمدينة أودغست فحسب، وإنما كان يصدر انطلاقا من جهات أخرى من صحراء الملثمين، مثل المنطقة الغربية التي ظلت تصدر ذلك المنتوج إلى الاندلس حتى بعد سقوطها نهائيا في يد المسيحيين، إذ كانت تصدره إليها في أواخر القرن15م، ثم إن تلك الجهة استمرت في تصدير الصمغ إلى مناطق مختلفة من أوربا خلال القرون الموالية[1073]، كما كانت صحراء الملثمين تصدر جزءا من انتاج ممالحها إلى المغرب بواسطة سجلماسة[1074].

[1067] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 183.

[1068] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:98 و99.

[1069] القزويني: مصدر سبق ذكره، ص:25.

[1070] EL ALAWI, op. cit., p. 105

[1071] صناعة النسية في المغرب الوسيط: مرجع سبق ذكره، ص:50.

[1072] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

[1073] R. MAUNY: **Tableau géographique**, op.cit., p. 379

[1074] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171.

أما المواد التي كانت الصحراء تستوردها من السودان الغربي لتصديرها إلى الشمال بعد تأهيلها من طرف الحرفيين الصحراويين المهرة، فنذكر من بينها الذهب الذي كان يصدر انطلاقا من أودغست، وذكرت المصادر أن ذهب تلك المدينة من بين أجود انواع الذهب المتداول وقتها، ويعرض البكري لذلك الموضوع فيقول اثناء حديثه عن مدينة أودغست: "... ويجلب منها العنبر المخلوق... والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه"[1075]، ومرد تلك الجودة هي جهود الصائغين المهرة الذين كانوا يعيشون في تلك المدينة، حيث كانت تربطهم علاقات وطيدة بتجار الذهب، فكانوا يتولون تخليص الذهب الخام المجلوب من بلاد السودان من الشوائب، ويختارون نوعياته الجيدة ويدققون أوزانه بواسطة موازين خاصة كانت متوفرة لديهم*، ثم يهيئونه للتصدير على شكل خيوط مفتولة أو سبائك أو حلي، فيحمل إلى المغرب أومصر وعبرهما إلى مناطق أخرى من العالم المعروف وقتها[1076].

وكانت الصحراء تصدر إلى الشمال أيضا الرقيق الذي كان التجار يجمعونه بأودغست ليصدروه إلى الشمال، لذلك كان الواحد من هذه المدينة يملك الكثير منه، يقول البكري: "... وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر..."[1077] ، هذا فضلا عن مواد تجارية أخرى كثيرة كانت الصحراء تنتجها أو تجلبها من السودان لتصدرها إلى الشمال، وتلك المواد متباينة من حيث أهميتها في المبادلات التجارية، من بينها مثلا العاج الذي كانت المدن الصحراوية تصدره إلى الشمال عبر سجلماسة وتلمسان ومختلف انواع الحجازة الكريمة[1078].

وعموما فإن مواد التبادل التجاري الشمالية والصحراوية لعبت دورا كبيرا في حياة سكان شمال إفريقيا والصحراء وساعدت على نشأة وتطور المدن في المنطقتين حتى أصبح لبعضها صيت دولي في تلك الفترة.

- المراكز التجارية:

عرف العالم الإسلامي بصفة عامة، ومغربه خاصة ابتداء من منتصف القرن2هـ/8م ثورة عمرانية، تميزت بظهور مدن كبرى فيه، وأصبحت من بين كبريات المدن العالمية المعاصرة لها، ويعتبر الإزدهار التجاري الذي عرفته المنطقة منذ التاريخ السالف الذكر، العامل الرئيس في نشأة وتطور تلك المدن وربط بعضها بالبعض، على تباعد المسافات فيما بينها، بواسطة شبكات طرق تجارية برية، بل وربطها بمناطق نائية من العالم الوسيط، فقد نشأت تجمعات سكانية في شمال إفريقيا والصحراء عند منطلقات الطرق ونهاياتها وعلى امتدادها، وظلت في تطور مستمر خلال فترة الإزدهار التجاري الذي عرفته المنطقة خلال الفترة مابين منتصف القرن8م ونهاية القرن 11م[1079].

[1075] نفس المصدر، ص: 159.

* يوجد ميزان من ذلك النوع عثر عليه في المنطقة، ويعود إلى نفس الفترة، محفوظ بالمتحف الوطني- نواكشوط.

[1076] R. MAUNY: **Tableau géographique**, op. cit., p. 37

[1077] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.

[1078] EL ALAWI, op. cit., p. 102 et p. 107

[1079] الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي- الحياة الأقتصادية والاجتماعية (3-4ه-/9-10م)، الدار التونسية للنشر- تونس 1978، ص.ص:13-16.

وعلى الرغم من أن ظاهرة التمدن غطت أجزاء هامة من المغرب الإسلامي، فإن بعض مدنه لعبت أدوارا أكثر تميزا من غيرها في المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان، وفي ما بين تلك المناطق وجنوب أوربا والمشرق الإسلامي، حيث كانت تمركز مواد التصدير من المدن المحيطة بها لتصدرها إلى المناطق البعيدة، كما كانت تستقبل المواد المصدرة إليها من تلك المناطق، وتمركزها لتوزعها في مختلف جهات الاقليم الذي تقع فيه، واتجاه البلدان التي تربطها بها علاقات تجارية، وهذا النوع من المدن هو المعروف اصطلاحا عند المهتمين بالعلاقات التجارية عبر الصحراء بـ"مدن الإيراد والتصدير"، أو المراكز التجارية الدولية[1080]، فهي الاسواق التي كان يتم فيها التبادل التجاري وهي المراكز الحضرية التي كانت تحتضن تبادل التأثير الثقافي والحضاري بصفة عامة بين الأطراف التي كانت تشارك في تلك المبادلات.

- المراكز التجارية في شمال إفريقيا:

إذا كانت الثورات التي نشبت في المغرب ضد الوجود الروماني قد أدت بمعظم سكانه إلى اعتماد حياة البداوة والابتعاد عن الامصار فرارا من الذل والهيمنة، فإن الفتح الإسلامي قد غير تلك الوضعية، حيث توفرت خلال الفترة ما بين القرنين8م و 11م ظروف ملائمة لتطور حياة مدينية، بعد أن أصبحت تلك المنطقة تلعب دور الوسيط التجاري بين اطراف أهم العالم المعروف وقتئذ، فانطلقت منها الطرق إلى بلاد السودان وجنوب أوربا والمشرق الإسلامي، مما ساعد في إزدهار مدن كانت قائمة، وظهور وتطور مدن أخرى كان للازدهار التجاري دور كبير في نشأتها[1081].

ومن بين أهم مدن شمال إفريقيا التي ارتبطت بصحراء الملثمين خلال الفترة المذكورة، بعض المدن المصرية[1082]، ومدن من بلاد إفريقية خاصة القيروان التي أسست سنة 50هـ/670م، ومكنها دورها السياسي والديني وموقعها الجغرافي من النمو السريع، فتطورت عمرانيا، وكانت مؤهلة في بداية فترة الإزدهار التجاري الذي عرفته المنطقة منذ منتصف القرن8م لأن تلعب دورا مهما في العلاقات بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان، فاظهر ولاتها اهتماما كبيرا بالصحراء والسودان في وقت مبكر، وإن كنا نعتقد أن دوافعهم كانت بالدرجة الأولى دينية وتكرس رغبتهم في نشر الإسلام في كل المناطق يمكنهم الوصول إليها، لكن ذلك لا ينفي مشروعية التفكير في أن توفر الصحراء والسودان على مواد تجارية كانت الدولة الإسلامية بحاجة إليها (الذهب، الرقيق الخ...) من بين الأمور التي قد تكون شجعت على التعجيل بمحاولات فتحها أو ربط علاقات تجارية بها على الأقل، فنجد مثلا عبيدالله بن الحبحاب يبعث مباشرة بعد توليه الولاية في إفريقية سنة 116هـ/734م، حملة بقيادة حبيب بن أبي عبيدة إلى المغرب الأقصى تجوزت السوس جنوبا وعبرت الصحراء حتى بلغت بلاد السودان، وعادت ببعض السبايا وكميات من الذهب[1083].

[1080] R. MAUNY: **Tableau géographique,** op. cit., p. 383

[1081] موريس لومبار: الإسلام في فجر عظمته- ترجمة حسين العودات- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، 1979، ص:66 وص:161.

[1082] موريس لومبار: الإسلام في فجر عظمته- ترجمة حسين العودات- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، 1979، ص:66 وص:161.

[1083] المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:49 وص:62.

وخلال القرن10م كانت القيروان ترتبط بأودغست بواسطة طريق كان طوله مائة وعشر مراحل[1084]، فاستقرت بأودغست والصحراء جالية كبيرة من تجار بلاد إفريقية معظم أفرادها من القيروانيين، بل إنهم كانوا خلال الفترة ما بين نهاية القرن10م ومنتصف القرن11م يمثلون أغلبية سكان مدينة أودغست[1085].

وفى النصف الثاني من القرن8م، تم تأسيس مدينة في المغرب الأوسط لعبت هي الأخرى دورا كبيرا في المبادلات التجارية عبر الصحراء، وهي تاهرت التي أسستها مجموعات البربر الأباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم قرب مدينة قديمة، واختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيسها، فاعتبر ابن خلدون مثلا أنه تم سنة 144هـ/761م[1086]، في حين ذكر ابن عذاري أنها أسست سنة 161هـ/777م[1087]، وهذا التاريخ الأخير هو الذي يرجحه بعض الدارسين، مبينا أسبابا اعتبرها معقولة لاختياره[1088].

وهنالك مدن شمال إفريقية عديدة لعبت أدوارا كبيرة في التبادل التجاري مع الصحراء والسودان مثل زويلة وغدامس وطرابلس وورغلة وتامدلت وأغمات ونول لمطة ومراكش وسجلماسة الخ...، وبما أنه من الصعب تتبع كل المراكز التجارية الشمال إفريقية ذات الصلات التجارية بالصحراء في هذا المقام، فإننا سنكتفى باختيار سجلماسة نموذجا لها.

سجلماسة:

ليس اختيارنا لمدينة سجلماسة نموذجا للمراكز التجارية في شمال إفريقيا اعتباطيا، وإنما نتيجة لجملة من العوامل الموضوعية تتبادر بداهة إلى أذهان المهتمين بالتجارة الصحراوية، فقد لعبت تلك المدينة دورا متميزا في تلك التجارة منذ تأسيسها في بداية مرحلة الإزدهار التجاري في المنطقة، ونتيجة لموقعها الجغرافى على الحافة الشمالية للصحراء، فإنها كانت تمثل ملتقى طرق لمعظم القوافل المتجهة من شمال إفريقيا إلى الصحراء والسودان، واستمرت حيويتها التجارية من دون انقطاع يذكر حتى القرن16م، فاختزلت بذلك أدوار مدن كثيرة في الشمال الإفريقي، لكونها المنطلق الذي كانت القوافل تتجمع فيه من معظم تلك المدن لتتجه جنوبا أو العكس.

ولا تختلف مصادرنا الوسيطة حول تاريخ تشييدها، حيث تعيده إلى سنة 140هـ/757م[1089]، في حين يعتقد بعض الباحثين أنها شيدت على انقاض مدينة قديمة[1090]، اعتمادا على روايات أوردها الوزان عندما كتب عنها يقول: "...إن مؤسس هذه المدينة حسب

1084 البكري: مصد سبق ذكره، ص: 159.

1085 انظر كلا من:

-الونشريشي: مصدر سبق ذكره، ج5 ، ص:116 ،

- البكري مصد سبق ذكره، ص: 158.

-**TEGDAOUST I**, op.cit, pp. 124-129.

1086 ابن خلدون: مصدر سبق ذكره المجلد6، ص:225.

1087 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:196

1088 المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص: 102.

1089 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 148، ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:157، ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:225.

1090 ماك كوك: مرجع سبق ذكره، ص:10.

بعض مؤلفينا قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة وسماها سجلوم سيسي، لأنها كانت آخر مدن ماسة، ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاتة فحرف هذا الإسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة..."، ثم إنه أورد رواية أخرى ذكر فيها أن مؤسسها هو الإسكندر الأكبر وأنه ترك فيها الجرحى والمرضى من جنوده[1091].

ويرفض بعض الدارسين هاتين الروايتين ذات الطابع الاسطوري، لصمت المصادر العربية الوسيطة عن ذكر روايات تدور حول تأسيس المدينة على انقاض أو قرب أطلال مدينة قديمة، إذ من عادة أصحاب تلك المصادر إبراز ذلك إذا كانوا على علم به[1092]، علما أن الوزان نسب روايته الأخيرة إلى البكري[1093]، إلا أن هذا الأخير لم يشر إلى شيء من هذا القبيل في كتبه المتداولة، وإن كان قد ذكر أن تأسيس مدينة سجلماسة أدى إلى خراب مدينة ترغة، من دون أن يشير إلى تاريخ تأسيس هذه الأخيرة[1094]، لكن من الواضح أنها سابقة على تأسيس سجلماسة.

وتقع سجلماسة في منطقة تافلالت، وتبعد مسافة 315كلم عن فاس إلى الجنوب الشرقي منها[1095]، وقد أسست على نهر زيز الذي كان يتفرع قبل أن يصل إلى موقعها إلى فرعين أحدهما يمر إلى الشرق منها والآخر غربيها، وكانت المدينة تقع على المشارف الشمالية للصحراء[1096]، وتورد المصادر أن موقعها كان قبل تشييدها سوقا موسمية للبربر المتنقلين، يقول ابن عذاري: "... وكان براحا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه، فاجتمع قوم من الصفرية على ابي القاسم وسكنوا هنالك في خيمات، ثم شرعوا في البناء في حدود الأربعين ومائة... "[1097].

وكانت مدينة سجلماسة، منذ تأسيسها في منتصف القرن 2هـ/8م، عاصمة لإمارة صغيرة بلغت مساحتها مسيرة خمسة أيام في ثلاثة[1098]، ترتكز من الناحية العصبية على مكناسة من الناحية القبيلية والنحلة الخارجية الصفرية من الناحية المذهبية[1099]، وظلت كذلك إلى أن دخلت في صراع مع الدولة الفاطمية منذ أن تمكن عبد الله الشيعي من قتل أميرها اليسع بن ميمون سنة 296هـ/909م، وولى عليها عاملا ثار عليه سكانها وقتلوه بعد خمسين يوما من توليته[1100]، فعادت السلطة إلى بيت بني مدرار من جديد، وظلت دولتهم تتأرجح بين الاستقلال عن الدولة الفاطمية وتبني المذهب السني المالكي احيانا والخضوع لها أحيانا أخرى، إلى أن تمكن حلفاء أمويي الأندلس من مغراوة من الاستلاء عليها والقضاء على سلطة ونفوذ بني

1091 وصف افريقيا: مصدر سبق ذكره، ج2، ص: 127.
1092 المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:153.
1093 الوزان: مصدر سبق ذكره، ج2، ص:127.
1094 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:148.
1095 المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:148.
1096 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 148.
1097 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:156.
1098 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
1099 ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:225.
1100 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:157.

مدرار سنة 366هـ/983م[1101]، فملكها خزرون ثم بنوه من بعده حتي استولى عليها المرابطون سنة 446هـ/1055م.

وإذا كانت الصراعات المذهبية التي عرفتها المنطقة منذ قيام الدولة الفاطمية قد لعبت دورا كبيرا في عدم الاستقرار السياسي الذي ساد في إمارة سجلماسة، فإن مكانة المدينة الاقتصادية في المغرب خلال ذلك العصر، وعلاقاتها التجارية النشطة كانت من أهم العوامل التي جعلت القوى السياسية تتنافس لوضع اليد عليها، فلقد كان وادي زيز الذي كانت الأودية المنحدرة من الأطلس الصحرواوي تغذيه يوفر ما يكفى من المياه لإقامة نشاط زراعي متنوع ومكثف وقادر على تموين الأسواق الصحراوية والسودانية بشكل مستمر، لأن مياهه كانت قابلة للاستغلال على مدار السنة، مما مكن سكان سجلماسة من ممارسة الزراعة في مختلف فصول السنة وساعدتهم خصوبة أراضيهم على ذلك، يقول البكري في هذا الصدد: "... ويزرع في أرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وأرضهم متشققة فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في الثالث وقمحهم رقيق صيني"[1102].

وقد أشارت المصادر إلى بعض منتوجات سجلماسة الزراعية، فقال عنها أحد كتاب تلك الفترة مثلا ما نصه: "... وهي كثيرة النخل والاعناب وجميع الفواكه وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس... "[1103]، ويبدو أن هذا التنوع في الإنتاج الزراعي طرأ على المدينة بعد فترة من تأسيسها، حيث أن اليعقوبي ذكر مزروعاتها فاقتصر على قوله: "... زرعهم الدخن والذرة..."[1104] ، ونشير إلى أن انتاج سجلماسة من التمور كان كبيرا ومتنوعا بحيث كان يميز فيه بين 16 صنفا[1105]

ونتيجة لموقعها الجغرافى، فإن سجلماسة لعبت دورا كبيرا في التجارة، فكان موضعها حتي قبل بنائها سنة 140هـ/757م "براح يتجمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون..."[1106]، ثم إن البكري أشار إلى ذلك الموقع قائلا: "...ومدنية سجلماسة في أول الصحراء لايعرف في غربيها ولا قبليها عمران... "[1107]، وقد مكنها هذا الموقع من اجتذاب الحيوية التجارية من مختلف الاتجاهات، وبصفة خاصة الصحراء والسودان، وفى هذا المجال يقول ابن حوقل: "... ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة إلى بلد السودان وسائر البلدان وارباح متوافرة ورفاق متقاطرة... "[1108].

وترتبط تلك المدينة بصحراء الملثمين بواسطة جملة من الطرق التجارية، من بينها الطريق الذي كان يربطها بأوليل وكانت مسافته تصل شهرا وبضعة أيام من المسير

1101 المغرب الإسلامى: مرجع سبق ذكره، ص: 168و169.
1102 البكري: مصدر سبق كره، ص:151.
1103 نفس المصدر، ص:148.
1104 اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص: 110.
1105 جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، 1984، ص:227.
1106 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:149.
1107 نفس المصدر، ص:148.
1108 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:96.

للقوافل[1109]، والطريق الذي كان ينطلق منها باتجاه أودغست وكانت مسافته تصل خمسين رحلة[1110]، فضلا عن الطريق الذي كان يربطها بقرية مدوكن الواقعة في الطرف الجنوبي من صحراء الملثمين على بعد مسيرة أربعة أيام من غانة[1111].

ولقد ازدادات أهمية سجلماسة التجارية بعد توقف الطريق الشرقي الذي كان ينطلق من مصر باتجاه الصحراء والسودان، بسبب عوامل طبيعية وبشرية، فاصبحت القوافل تتوجه من مصر وإفريقية والمغرب الأوسط ابتداء من منتصف القرن9م إلى سجلماسة لتسلك الطرق الآمنة المتجهة منها إلى الصحراء والسودان، ويقول ابن حوقل في هذا الصدد: "...براري عظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر إلى غانة، فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فاهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة... "[1112].

ولم تكن الأهمية التجارية لسجلماسة نابعة من إنتاجها المحلي على غزارته وتنوعه وإنما لارتباطها بمختلف مدن وقرى المغرب وكونها مركزا لتجميع صادرات البلاد إلى الصحراء وبلاد السودان، فكانت تربطها طرق بقرى تاسغمرت، وأخرى بصفروي وهي مدينة قديمة تميزت خلال الفترة الوسيطة بغزارة انتاجها الزراعي، كما كانت ترتبط بفاس وغيرها من مدن شمال المغرب، خاصة مدن الموانيء التي كانت توفر لها امكانيات ربط صلات تجارية مع جنوب أوربا[1113]، وكما كانت ترتبط بمدن السوس الأقصى مثل أغمات، ونول لمطة الخ...، يقول ابن حوقل متحدثا عن صلاتها بتلك المنطقة: "... وعن يسار طريق فاس إلى سجلماسة إقليم أغمات وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة إلى سجلماسة وغيرها، ومن سجلماسة إلى أغمات نحو ثماني مراحل ومثلها إلى فاس، ومن ورائها إلى ناحية البحر المحيط السوس الأقصى، وليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها..."[1114].

وكانت الطرق تنطلق من سجلماسة باتجاه الشرق إلى مدن المغرب الأوسط وإفريقية، وعبرها تتصل بمدن المشرق الأسلامي[1115]، وتعتبر المنتوجات الزراعية كالتمور والمنسوجات بمختلف انواعها واشكالها، والخزف الخ...، هي أهم صادرات سجلماسة إلى صحراء الملثمين، أما وارداتها من تلك المنطقة، فأهمها الذهب والرقيق والعنبر والصمغ العربي[1116].

وقد جلب الدور التجاري الحيوي إلى تلك المدينة جاليات من مختلف البلدان فاستقرت بها، وأصبحت تمارس نشاطها التجاري انطلاقا منها، ونذكر من بين تلك الجاليات على سبيل المثال، العراقيين الذين تحدث ابن حوقل عن وجودهم فيها فقال: "...وكانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا

[1109] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91.
[1110] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.
[1111] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.
[1112] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:65.
[1113] المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:150.
[1114] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:90.
[1115] جودت عبر الكريم يوسف: مرجع سبق ذكره، ص:224، المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:150.
[1116] المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص: 180و181.

يقطعون ذلك الطريق، فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال..."[1117].
ولقد أدت الديناميكية التجارية لسجلماسة إلى استقرار أصحاب الحرف بها، من نساجين وصاغة ذهب وبنائين إلخ...[1118].

وإذا كانت المصادر لم تعطنا رقما إحصائيا لسكان سجلماسة طيلة الفترة التي تهمنا، فإننا نعتقد أنها كانت مدينة كبيرة، تسكنها عشرات الآلاف من البشر، خاصة إذا قارناها ببعض المدن المغربية الأخرى التي عاصرتها، والتي نعتقد أنها -على الرغم من أهميتها- كانت دون مكانة سجلماسة الاقتصادية، وبالتالي أقل منها جاذبية للسكان، ومن بين تلك المدن اغمات التي قال عنها البكري: "... فسوق اغمات وريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك..."[1119].

وعلى الرغم من أن السلطة السياسية التي حكمت سجلماسة ومحيطها خلال الفترة مابين منتصف القرن8م وبداية القرن10م، كانت تتمذهب بالمذهب الخارجي الصفري، وكذلك معظم السكان المحليين، فإن أثر الوضعية الاقتصادية على سكان المدنية خفف من التعصب المذهبي لتعودهم على الاحتكاك الناس منمختلف البلدان والأديان والمذاهب، فكانت روابط المصالح فيما بينهم كافية لتذويب الحواجز المذاهبية والدينية[1120]، فقد أشار بعض الكتاب إلى اختصاص اليهود مثلا دون سواهم بمهمة البناء في المدينة[1121].
أما من الناحية العمرانية، فقد كانت مدينة سجلماسة من بين كبريات مدن المغرب "... وفيها دور رفيعة ومبان سرية، ولها بساتين كثيرة وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب... وله اثنا عشر بابا الثمانية منها حديد... وجامعها متقن البناء بناه اليسع فاجاد وحماماتها ردية البناء غير محكمة العمل..."[1122].

ونتيجة لعلاقاتها التجارية النشطة مع صحراء الملثمين، فإن سجلماسة لاشك قد أثرت في حياة سكان تلك المنطقة وتأثرت بهم، ونعني هنا بصفة خاصة سكان المراكز التجارية الحضرية الصحراوية.

- المراكز التجارية في صحراء الملثمين:

لم تكن صحراء الملثمين منطقة خاصة بالرحل، وإنما عرفت حياة حضرية تراوحت بين كثافة المدن والقرى أحيانا وندرتها أحيانا أخرى، حسب العصور وتبعا للظروف والتحولات التي عرفتها المنطقة، و كانت تتراوح ما بين ظروف غير مشجعة على الاستقرار، كفترات الحروب التي تستهدف بالدرجة الأولى المستقرين وفترات الجفاف وانحباس الامطار وما تخلفه من انعكاسات سلبية على المياه الجوفية التي عادة ما تكون غزارتها مرتبطة بمياه الأمطار، فضلا عن ندرة المراعي قرب المدن والقرى، الأمر الذي يفقدها الكثير من سكانها الذين

[1117] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 65.
[1118] المغرب الإسلامي: مصدر سبق ذكره، ص:174.
[1119] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 153.
[1120] جودت عبد الكريم يوسف: مرجع سبق ذكره، ص:229.
[1121] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:148و149.
[1122]نفس المصدر، ص:148.

يمتلكون المواشي ويفرض على البدو الرحل الابتعاد عن ضواحيها بحثا عن الكلإ، فيقل فيها التبادل التجاري بين السكان الرحل والمستقرين، مما يؤدي إلى افتقار سكان المدينة إلى بعض الحاجيات التي كانوا يحصلون عليها من أولئك البدو من جهة، وكساد إنتاجهم المحلي والبضائع التي كانوا يحصلون عليها من القوافل العابرة للصحراء من جهة أخرى، بسبب انخفاض الكثافة السكانية في المدنية وضواحيها.

وقد عرفت صحراء الملثمين وجود تجمعات بشرية على شكل حواضر كثيرة خلال فترات ما قبل التاريخ والعصر القديم[1123]، وبعد ازدهار العلاقات التجارية بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان نتيجة للديناميكية التي عرفتها ابتداء من القرن8م، برزت إلى الوجود مدن كثيرة [1124]. فنشأت في صحراء الملثمين مدن عند بدايات وعلى طول ونهايات الطرق التجارية، وشيدت تلك المدن أساسا في المواقع التي تنبت حشائش وشجيرات تسمح بأن توفر مراعي دائمة للإبل بشكل خاص، وأن توجد بها كميات من المياه الجوفية قادرة على تموين سكان المدينة وحيواناتهم بالماء الشروب، بل وتمكنهم من حفر آبار لسقي بساتينهم، وقد وفرت تلك العوامل بالإضافة إلى التجارة الخارجية (عبر الصحراء)، ظروف استقرار ملائمة، فاجتذبت تلك المدن الصحراوية بما كانت توفره من وسائل وامكانيات كبيرة للربح، سكانا تجاوزوا الآلاف في المدينة الواحدة[1125].

وإذا كان من الصعب تحديد التاريخ الدقيق الذي أسست خلاله تلك المدن، فإن المصادر بمختلف أشكالها لم تصمت بصفة نهائية عن بعضها مثل آبير (شنقيط الأولى)، آزوكي، تيشيت، ولاته، وأودغست الخ...

فبالنسبة لمدينة آبير مثلا فإن بعض الروايات تفيد أنها كانت موجودة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي النصف الأول من القرن1هـ/7م[1126]، وكونها موجودة في عهده لا يعني أنها أسست خلال ذلك التاريخ، وإنما قد تعود نشأتها إلى عهد أقدم بكثير، في حين تورد روايات أخرى أنها شيدت سنة 160هـ/777م[1127]، وهذا التاريخ الأخير معتمد عند سكان شنقيط ومنقوش في محراب مسجدهم، باعتبار أن شنقيط هي وريثة آبير التي لا تبعد عنها سوى ثلاث كلمترات إلى الشمال الشرقي منها، ومن المعتقد أن مدينة آبير كانت تمثل أحد أهم المراكز التجارية الصحراوية على طول الطريق الذي كان ينطلق من سجلماسة تجاه تامدلت ثم أودغست. ويبدو أن زحف الرمال على تلك المدينة وتناقص المياه بها والنزاعات الداخلية التي عرفتها هي أبرز العوامل التي أدت إلى إخلائها من السكان الذين تحول معظمهم إلى شنقيط

1123 J. DEVISSE, D. et S. ROBERT: **Villes an cienne de Mauritanie,** Associatiom universitaire Pour le developoment de l'enseignement et culture en Afrique et Madaguscar, Paris, p. 3

1124 المغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:13 و42.

1125 Villes anciennes de Mauritanie, op. cit, p. .3

1126 أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط- مكتبة الخانجي- القاهرة- مؤسسة منير- موريتانيا، ط4، 1989، ص:426.

1127 انظر:

-ابن حبت: مصدر سبق ذكره، ص: 3،

- DELACHEPELLE, op. cit, p. 46, note n!1

بشكل تدريجي، على مدار أربعين سنة[1128]، وقد تم البدء في تأسيس شنقيط سنة 660هـ/1262م[1129].

وإذا تثبتنا من أن تأسيس آبير يعود إلى سنة 160هـ/777م، فإنها تكون بذلك قد أسست خلال السنة ذاتها التي بنيت أثناءها مدينة تاهرت، أي بعد عشرين سنة فقط من تشييد سجلماسة، لذا يمكن افتراض أن العوامل ذاتها التي أدت إلى نشأة المراكز الحضرية التجارية في شمال إفريقيا هي التي كانت وراء تنشيط أوتأسيس المراكز التجارية في الصحراء، ولعل ذلك هو مبرر وجود أوجه شبه كثيرة بين مدن الصحراء والمدن الشمال إفريقية، خاصة مراكش وشيشاون، ورقادة والفسطاط[1130].

وخلال نفس الفترة أسست في الصحراء مدن أخرى نجهل الكثير عن بدايات أدوارها التجارية، وإن كان البعض يؤكد أنها شيدت خلال القرن2هـ/8م، مثل تيشيت، التي يعتقد بعض الباحثين أنها أسست خلال تلك الفترة[1131]، وهو أمر لايتناقض مع ماورد في بعض الروايات المدونة من طرف أبناء تلك المدينة خلال القرنين18و19م من أنها تأسست خلال القرن 6هـ/13م على يد الشريف عبد المؤمن بن صالح خلال ، لكن تلك الروايات تصرح بأن المدينة شيدت بالقرب من قرية كانت قائمة إلى الجنوب من موقعها الحالي، حيث يقول محمد بن أحمد الصغير التشيتي: "... وسار عبد المؤمن إلى بلاد تيشيت وساكنوها يومئذ أهل أخصاص على قدر فرسخ من جهة جنوب موضع القرية، فندب بعضهم إلى البناء فلم يساعدوه... فارتحل عنهم إلى موضع القرية التي هي به الآن، وكان قد استصحب حين قدومه من له حرفة بالبناء وآلات البناء فابتدأ بالبناء للمسجد ثم ابتنى داره حذوه"[1132]، ولا يكاد الشريف حمى الله التشيتي يختلف عن ذلك حين كتب يقول: "... تيشيت بقعة مباركة تبدأها بالسكني بها أهل فضل وصلاح وسكنوها في أخصاص حتى انتدبهم إلى البناء جدنا رحمه الل تعالي فآتاهم بمن له حرفة بالبناء... "[1133]، هكذا إذن اتفقت كتابات التشيتيين على أن البناء في منطقة تيشيت كان موجودا قبل تأسيس المدينة الحالية في القرن12م، مما يسمح بقبول الرأي السالف الذكر، والذى يفيد بأنها أسست خلال القرن8م.

وكان سكان تيشيت يعون مكانتها التجارية ويعرفون أن موقعها لايسمح لها بالاستمراية إلا إذا استمرت في دورها التجاري، وفى هذا الصدد يقول محمد بن أحمد الصغير: "... إنها قرية لا تصلح إلا بالرفاق... "[1134].

[1128] ابن الأمين الشنقيطي : مرجع سبق ذكره، ص:426.

[1129] ابن حبت: مصدر سبق ذكره،

[1130] **Villes anciennes de Mauritanie**, op. cit, p. 5, note n!9

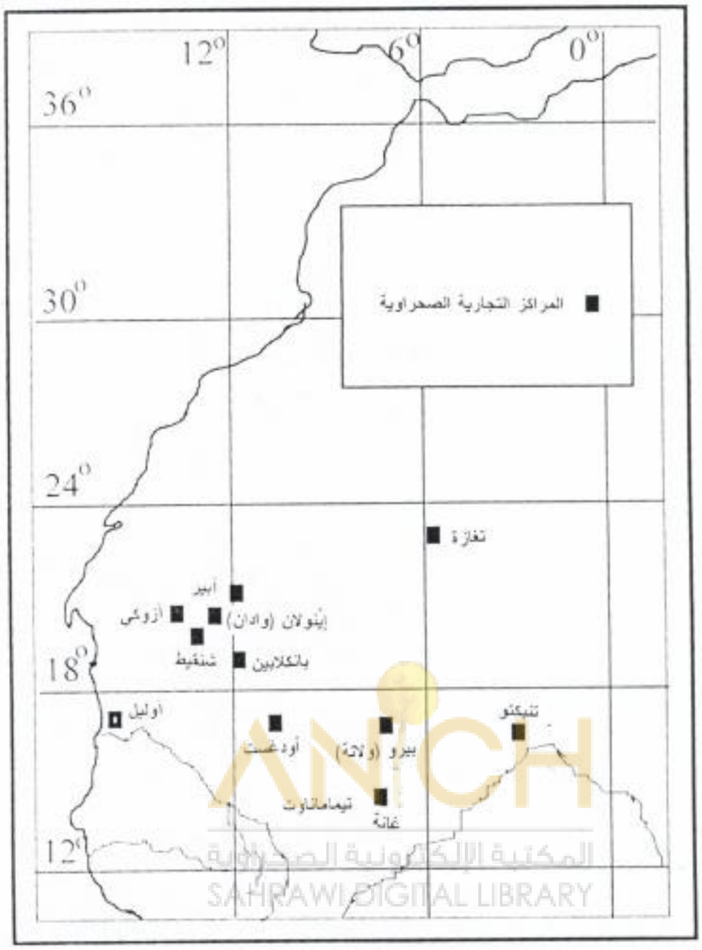
[1131] DELACHUPELLE, op. cit, p. 46, note n!1

[1132]شيخنا بوي بن بوعسريه: تأليف في انساب بني عبد المؤمن وبني محمد مسلم- ميكرو فيلم المعهد الموريتاني للبحث العلمي الرقم:413.

[1133] داد بن ايده: ترجمة الشيخ بوي احمد ، ميكرو فيلم بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي. مسجل تحت الرقم 271.

[1134] نفس المصدر.

الخريطة رقم 5: أهم المراكز الحضرية التجارية بصحراء الملثمين خلال الفترة الوسيطة



وبالإضافة إلى تيشيت هنالك مدينة ولاتة التي يؤكد المؤرخون أنها أسست منذ قرون عديدة تحت اسم بيرو وأنها كانت على صلة قوية بإمبراطورية غانة منذ القرن 2هـ/8م، قبل أن يتم تحويل اسمها إلى ولاتة في بداية القرن 13م[1135]، أما سكانها فيعتقدون أن تأسيسها سابق لظهور الإسلام وأنها فتحت من طرف عقبة بن نافع في القرن 1هـ/7م الذي يوجد قبر ابنه العاقب بن عقبة قرب من مسجدها حسب ما توارثوه من روايات[1136].

هذا فضلا عن آزوكي التي ذكر البكري أن حصنها شيد من طرف يانوا بن عمر الحاج قبل قيام الحركة المرابطية[1137]، وأكدت الدراسات الأثرية الأولية بالاعتماد على بقايا بعض المواد الموجودة بأطلالها على أنها كانت قائمة خلال القرن10م، وأن بعض البنايات فيها تعود إلى بدايات العهد المرابطي[1138]، وقد وصفتها بعض المصادر العربية الوسيطة بأنها "..ليست بالكبيرة لكنها متحضرة..."[1139] ، وأضافت تلك المصادر أنها كانت تلعب دورا تجاريا هاما على طول الطريق بين مدن المغرب الأقصى وحوض نهر السنغال[1140]، كما كانت بالإضافة إلى ذلك عاصمة دولة المرابطين في الصحراء[1141].

وقد ذكرت لنا المصادر العربية الوسيطة مدنا صحراوية أخرى كانت تقع على طول الطرق التجارية بين المغرب والسودان الغربي، ولم تعد مواقعها اليوم معروفة بشكل دقيق، لاندثارها منذ عدة قرون وتبدل اسمائها، ومن أهم تلك المدن آزقا وتيماماناوت وارتنني وبانكلابين ومدوكن الخ..[1142].

كما عرفت المنطقة الغربية المحاذية لشواطئ المحيط الاطلسي قيام تجمعات بشرية منذ العصور القديمة، حيث تغطي بقايا المساكن القديمة آفطوط الساحلي من شمال موقع نواكشوط الحالي حتى مصب نهر السنغال جنوبا، وأكثر آثار العمران في تلك المنطقة يعود إلى الفترة الوسيطة، خاصة منها القرى والمداشر المعاصرة لاستغلال مملحة آوليل، وقد شيدت معظم تلك القرى فوق الكثبان الرملية الصفراء، خوفا من أن تغمرها الفيضانات التى عادة ما كانت منطقة آفطوط الساحلي تتعرض لها[1143].

ويعتقد بعض الباحثين أن هذه المنطقة كانت مكتظة بالقرى والمدن، وأن خلو بعض أجزائها من آثار البنيان ليس أمرا غريبا، ولا يدل على عكس ماذهبنا إليه، إذا علمنا أن البنايات

1135 UNESCO: Patrimoine culturel de l'humanite, **Bulletim d'informntion n**!23-24/octobre 1983, p. 24

1136 انظر حول هذا الموضوع كلا من:

-الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص 65;

-الشيخ سيدي محمد الكنتي، الرسالة الغلاوية، مصدر سبق ذكره، ص ص 57-58;

-D. Jacques - MEUNIE**: Cités anciennes de Mauritanie**, op. cit, p. 72.

1137 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:167.

1138 Abdelwedoud ould cheidh et Bernard saison: **"le théoligien et le somnanbule: un épisode recent de l'histoire Almoravide en Mauritanie"** in Canadian Journal of African studies, vol, 19, 1985, pp. 301-317

1139 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:128.

1140 نفس المصدر ونفس الصفحة، ومحمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق د. احسان عباس ط2، مكتبة لبنان، بيروت 1984، ص:28 وص:134.

1141 الزهري: مصدر سبق ذكره، ص:117

1142 البكري: مصدر سبق ذكره، ص ص:164-167.

1143 D ROHERT-CHALEIX, op. cit, ، p. 76

التي كانت تتشكل منها معظم تلك القرى والمدن لم تكن سوى مجموعة من المخابئ الخفيفة المشيدة من جذوع وأغصان الاشجار، تشبه ما يعرف اليوم بـ"التيكيت" التي مازالت تشيد في الواحات الموريتانية خلال موسم التمور، وقد أشارت الكتابات الأوربية خلال القرن16م إلى انتشار هذا النوع من البنايات على الشاطئ الأطلسي للصحراء[1144]، ويبدو أنه أصيل في تلك المنطقة حيث يقول ابن سعيد متحدثا عن آوليل ما نصه: "... وأمام مصب النيل في البحر المحيط جزيرة الملح، وطولها من الشمال إلى الجنوب درجتان وقليل، ووسعها نصف درجة، وفى طرفها الجنوبي على البحر مدينة آوليل وهي سراح كمدن [...] والهنود (وفيها كثير) من أنواع القصب والنبات..."[1145].

وفى القرن5هـ/11م، نشأت مدن صحراوية جديدة نتيجة للدفع الذي اعطته الدولة المرابطية للتجارة في المنطقة والتغيرات الطفيفة التي طرأت على الطرق التجارية، ومن بين أهم تلك المدن على سبيل المثال تنبكتو[1146]، وتينيكي[1147]، كما تم تشييد مدينتين سنة 454هـ/1062م في موقعي تيكماطين وانكبك[1148].

وبصفة عامة، فإن الصحراء لم تكن كما قد يتبادر إلى الذهن خالية من العمران حتى في أشد أجزائها قساوة من حيث المناخ، كالمنطقة الواقعة بين آدرار في موريتانيا الحالية، ووادي نول في جنوب المغرب الأقصى، حيث أشارت الروايات المحلية إلى كثافة العمران في تلك المنطقة[1149]، خلال ذلك التاريخ، وإذا كان من الصعب علينا في مثل هذه الدراسة تتبع كل المراكز التجارية الصحراوية، فإننا وكما سبق أن فعلنا أثناء تعرضنا للمراكز التجارية الشمال إفريقية، سنختار مدينة تجارية صحراوية نموذجا للمراكز التجارية في صحراء الملثمين، ونعتقد أن مدينة أودغست هي انسب نموذج في هذا المجال.

- مدينة أودغست:

لا يختلف الدور الذي لعبته أودغست في صحراء الملثمين كثيرا عن دور سجلماسة في المغرب وشمال إفريقيا، فلقد كانت أودغست تمركز المنتوج الصحراوي، وارتبطت بعلاقات تجارية نشطة مع مدن شمال وغرب إفريقيا خلال الفترة مابين القرنين 8و11م.

وتقع أطلال مدينة أودغست في الموقع الذي يعرف اليوم تحت اسم "تغداوست"، وتبعد تلك الاطلال مسافة 34كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط بمنطقة الحوض في موريتانيا الحالية، بالقرب من بئر النوداش[1150]، ويعتقد موني، اعتمادا على رسوم ونقوش وكتابات وقبور غير إسلامية وجدت في الموقع وحواليه، أن تغداوست (أودغست) عرفت استقرار جماعات

1144 Idem

1145أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق اسماعيل العربي، ط2 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1982، ص:90.

1146 السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:20

1147 DELACHAPELLE, op. cit, p //.

وكذلك،الخليل النحوى:مرجع سبق ذكره ص65

1148 محمد بن أبي مدين الشنقيطي: كتاب المنيحة- مطبعة العهد الجديد الرباط 1959، ص: 71.

1149 DELACHAPELLE, op. cit, p. 38

1150 Raymond MAUNY: **Les Siècles obscurs de l'Afrique noire**, Fayard, Paris 1970, p. 151

ذات صلة بسكان البحر الأبيض المتوسط منذ فترة غير محددة سابقة للميلاد[1151]، أما ناعمي مصطفى، فإنه أورد أن المدينة أصبحت منذ القرن2م عاصمة الضفة الجنوبية للصحراء[1152].

وقد وصف الكتاب العرب المسلمون مدينة أودغست خلال الفترة التي تهمنا، فقال عنها اليعقوبي في القرن3هـ/9م مانصه: "... غسط، وهو واد عامر فيه المنازل..."[1153]، وهذا الوصف يتطابق مع دلالة اسم المدينة باللغة الصنهاجية التي كانت سائدة في صحراء الملثمين، وظلت متداولة بين سكانها حتى عهد قريب، فقد نقل جان دفيس عن المرحوم المختار بن حامدن قوله أن "غسط" تعني "الجنوب"، و"إد" تعني "أهل"، فتكون كلمة إدغسط، في مجملها بمعنى: "أهل الجنوب"، فتم تحويرها بشكل بسيط إلى أودغست[1154]، أما ابن حوقل فقد وصفها في منتصف القرن4هـ/10م، فقال عنها: "... وأودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجزروان في بلد الجوزجان من بلاد خراسان، لأنها بين جبلين ذات شعاب..."[1155]، وفى النصف الثاني من نفس القرن، كتب عنها المهلبي يقول: "...أودغست مدينة بين جبلين في قلب البر..."[1156]، أما البكري، فقد كتب عنها في النصف الثاني من القرن11م يقول: "...أودغست مدينة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير..."[1157]، وذكر ياقوت بأن تشييد أودغست بين جبلين من بين أهم العوامل التي وفرت لها الحماية[1158].

من الواضح إذن، أن تشييد مدينة أودغست بين كتلة أركيز الصخرية وجبال أفله، لم يحدث بشكل اعتباطي، كما لاحظ ذلك الكتاب العرب في العصر الوسيط من خلال الإشارات السابقة، وإنما لعب الهاجس الأمني دورا كبيرا في اختيار الموقع، وتضيف المصادر، أن سكان أودغست استخدموا الجبال المطلة عليها من أجل الدفاع عنها، من ذلك مثلا ماذكره ابن حوقل من أن مجموعة من البربر أرادت الإيقاع بأهل أودغست انتقاما من صنهاجة، فجهزت جيشا وارسلته باتجاه المدينة، فعلم ملكها تينبروتان بذلك، ولم يحرك ساكنا، ولم يدع إلى استنفار المقاتلين لمواجهة الغزاة، مما جعل البعض في حيرة، وعندما علم أنهم قرروا المبيت خلف أحد الجبال المطلة على أودغست دبر لهم مكيدة أوردها ابن حوقل على الشكل التالي: "... ودعا برعاة كانوا لأخته وكانت أيسر أهل قبيلتها وأكثرهم مالا من حيث لا يعلم أحد، وقال لهم: أنتم على مياه فلانة وفلانة، وبنو فلان يردون ناحيتكم ليلة كذا وكذا، فإذا كان في سحرة تلك الليلة فاعتمدوا هيج الإبل التي هناك باجمعها على الشرف الفلاني ونفارها على القوم واكتموا علي ما أقوله على أنفسكم لتنالوا مني به خيرا إن شاء الله، وأتى القوم فنزلوا، ونفر الرعاة الإبل، فصوبت على المكان والجيش الذي به، فأتت على جميع من كان منهم مع إبلهم وسلاحهم دوسا لهم ووطئا عليهم، حتى استفاض من بأودغست ومن بعد عنها من أعدائهم أنه لم يعرف لواحد منهم حلبة بوجه من الوجوه، ولا عثر لشيء مما كان معهم، حتى جعلوه شذر مذر.."[1159].

1151 Ibid, p. 153

1152 ناعمي مصطفي: مرجع سبق ذكره، ص:31.

1153 اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص: 111.

1154 **TEGDAOUST III**, op. cit, p. 535

1155 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91.

1156 نقلا عن ياقوت: مصدر سبق ذكره، ص: 277.

1157 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

1158 ياقوت: مصدر سبق ذكره، ص: 277.

1159 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97وص:98.

وبالإضافة إلى دور العامل الأمني في اختيار موقع المدينة، يبدو أن مؤسسيها الأوائل، كانوا يعون أهمية ذلك الموقع من الناحية الاقتصادية، حيث تم اختيار منطقة ساحلية قادرة على توفير مراعي جيدة ودائمة لأعداد كبيرة من الحيوانات خلال فصل الصيف وسنوات الجفاف واستقبال أعداد أخرى من الاجزاء الشمالية للصحراء، ومن البراهين على ذلك، ماسبق أن أشرنا إليه نقلا عن ابن حوقل من أن أخت ملك أودغست كانت تمتلك لوحدها 15000 رأس من الإبل، كانت ترعى في ضواحي المدينة، يقول ابن حوقل: "...وكان رعاتها هناك مائة ومع كل راع منهم مائة وخمسون جملا..."[1160]، وإذا علمنا أن الكاتب ذكر أن قطعان تلك المرأة من الإبل كانت ترعى حول مدينة أودغست، فلا شك أن قطعانا أخرى كثيرة من الإبل يمتلكها سكان المدينة والمناطق المحيطة بها، كانت تشاركها المرعى، ولم تقتصر ضواحي مدينة أودغست على الإبل عن سواها من الحيوانات الأخرى، بل على العكس من ذلك، فإن المنطقة الساحلية التي كانت المدينة تقع فيها، تعتبر بالدرجة الأولى منطقة أبقار وأغنام، وقد أشار البكري إلى ذلك في معرض حديثه عن ثراء سكان مدينة أودغست، فقال عنهم: "... والغنم والبقر أكثر شيء عندهم، يشترى بالمثقال الواحد عشرة أكبش وأكثر..."[1161].

ولاشك أن الموقع كان يوفر للمدينة حاجياتها من المياه أيضا نتيجة للكم الهام الذي كان يتلقاه من التساقطات سنويا، كما كانت المياه المنحدرة من أعالي الجبال أثناء موسم الأمطار تشكل أودية تجري داخل المدينة وحولها، وكان لتلك الأودية دور كبير في تغذية المياه الجوفية في المنطقة، الأمر الذي سمح لمعظم سكان المدينة بحفر آبارهم الخاصة في ساحات منازلهم[1162]، وقد ساعدت تلك المياه على انتشار النشاط الزراعي في المدينة، فكانت بساتينها متنوعة المزروعات، وينقل البكري عن الوراق المتوفى سنة 974م قوله: "... وحولها بساتين النخيل ويزدرع فيها النخل بالفوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاثى تجود عندهم، وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا، وبها جنان حناء لها غلة كبيرة، وبها آبار عذبة..."[1163].

ونلاحظ أن بعض تلك المرزوعات نادر الوجود في الصحراء أصلا، إن لم نقل إن زراعته بها دخيلة عليها، مما يجعلنا نفكر في أن سبب زراعتها يعود إلى الجاليات العربية التي استقرت في المدينة لقرون عديدة، كما أننا لا نستبعد أن يكون للمبادلات التجارية التي ربطت صحراء الملثمين بشمال إفريقيا دور كبير في اختيار موقع المدينة، من أجل أن تلعب دورا أكثر حيوية، فالمنطقة الساحلية التي أسست بها أودغست أقل خطورة، من الناحية الصحية، على المتوسطيين والمشارقة من بلاد السودان، وذلك نتيجة للفوارق المناخيةبين الساحل والسافانا، إذ تكثر في الأخيرة المستنقعات وترتفع مستويات الرطوبة وتتعدد أنواع الباعوض الخ...، لذلك كانت مدينة أودغست أهم ميناء على ساحل بحر الرمال يستقبل القادمين من الشمال، فارتبطت بمختلف المناطق التي كانت تشارك في التجارة عبر الصحراء، بواسطة الطرق التي كانت تصب فيها من كبريات المدن التجارية الموجودة في تلك المناطق، فكانت أودغست ترتبط بشكل مباشر بمنطقتي السوس الاقصى وتافلالت بواسطة الطريق الذي كان يربطها بسجلماسة عبر تامدلت، وعبرهما بباقي مدن المغرب والأندلس[1164]، كما كانت على صلة ببلاد إفريقية

[1160] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
[1161] البكري: مصد سبق ذكره، ص: 158.
[1162] Serge ROBERT: in **Archéologie des sites**, op. cit, p. 48
[1163] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.
[1164] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:65، وص:91، وكذلك البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 156و ص:158.

والمغرب الأوسط ومن خلالهما بمصر والمشرق العربي بواسطة الطريق الذي كان ينطلق من القيروان باتجاهها، والذى كانت القوافل تقطع أثناء عبورها له مائة وعشرة مراحل[1165].

هذا فضلا عن أن أودغست كانت ترتبط بآوليل بواسطة طريق كان يتجه من الغرب إلى الشرق، وهذا الطريق يربطها بشبكات الطرق المنطلقة من آوليل إلى نول لمطة وممالك حوض نهر السنغال، كما كانت تلك المدينة ترتبط بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها، خاصة تلك الواقعة في حوض نهر النيجر[1166].

وكانت أسواق أودغست تمركز المواد التجارية التي كانت صحراء الملثمين تنتجها، والتى من أهمها الملح والعنبر والجلود والصمغ العربي، كما كانت بحكم موقعها الجغرافي بين المغرب وبلاد السودان مكنا لتجميع مواد المنطقتين، وهذا ما أدى إلى استقرار جاليات مختلفة من العرب والبربر والسودان فيها، فقد ذكر ابن حوقل أن تجار الكوفة والبصرة وبغداد كانوا يتجهون إليها انطلاقا من سجلماسة، وكان من بينهم الأثرياء نتيجة لنشاطهم التجاري بها[1167]، كما أشارت المصادر إلى كثرة القيروانيين بها[1168]، ويقول عنها البكري: "وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر..."[1169].

وعلى الرغم من أن معظم سكان أودغست ظلوا حتى منتصف القرن 4هـ/10م في معظمهم من الصنهاجيين[1170]، فإن ذلك الوضع تغير منذ إنهيار دولة الملثمين في الصحراء التي كانت تلك المدينة عاصمة لها، وذلك في أواخر القرن10م، حيث أصبح معظم سكانها من زناتة إفريقية الذين دخلوها بعد أن احتلتها غانة عسكريا، ويقول البكري الذي عاصر تلك الفترة مانصه: "... وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواته وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار..."[1171].

ونتيجة لأهمية الدور الاقتصادي الذي كانت مدينة أودغست تلعبه في المبادلات التجارية عبر الصحراء، فإنها اجتذبت أعدادا كبيرة من السكان، الذين نعتقد أنهم لم يكونوا يقلون عن اعداد سكان نظيراتها من مدن شمال وغرب إفريقيا الكبرى، حيث كانت تؤوي عشرات الآلاف إن لم نقل مئات الآلاف من البشر، وكان سكانها نشطون في مجال التجارة، حيث يقول عنهم البكري واصفا اكتظاظ سوقها بشكل لم يصف به مدينة أخرى من مدن العالم الإسلامي: "... وسوقها عامرة الدهر كله لايسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله..."[1172]، فالامر إذن لايتعلق بنشاط تجاري مرتبط بمناسبة إقتصادية مؤقتة كسوق أسبوعية أو موسم قدوم القوافل التجارية، وإنما كان ذلك حال المدينة "الدهر كله" كما أشار الكاتب إلى ذلك.

[1165] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.
[1166] نفس المصدر، ص: 168و ص:176 ومابعدها.
[1167] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 65.
[1168] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص116، والبكري: مصدر سبق ذكره، ص:158 و168.
[1169] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168.
[1170] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.
[1171] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.
[1172] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك مصادر عاصر كتابها تأسيس المدينة، وتتحدث عن طبيعة عمارتها، فإن اليعقوبي الذى كتب عنها في القرن3هـ/9م اكتفى بذكر أن "بها منازل" لم يحدد نوعيتها[1173]، أما ابن حوقل فذكر أنها "مدينة لطيفة"[1174]، ووصف البكري مبانيها في منتصف القرن11م فقال عنها: "... وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة.."[1175] ، ويقول عنها أيضا: "... أودغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير... وهي متقنة المباني حسنة المنازل..."[1176].

وقد أكدت الدراسات الاثرية التي قيم بها في موقع تغداوست أن المدينة مرت بثلاث مراحل متمايزة من حيث شكل المباني ومادة بنائها، وذلك أثناء تطورها العمراني، وهي:
- مرحلة أولى اعتمد أصحابها على أغصان الاشجار والحشائش في تشييد المنازل، وهذه المرحلة يرى بعض الدارسين أنها مازالت تفرض نفسها حتى الآن على معظم سكان الصحراء الذين يقررون الاستقرار[1177].

أما المرحلة الثانية، فقد تميزت باستخدام اللبن الطيني الذي يجفف بواسطة أشعة الشمس بعد قولبته، وهذا النوع أكثر ملاءمة لمناخ المنطقة.

والمرحلة الثالثة هي تلك التي استخدمت أثناءها الحجارة وسيلة للبناء، وهي حسب البعض تعبير عن الأزدهار الاقتصادي الذي عرفته المنطقة بحيث تطلب مستوى الثراء وجود مباني صلبة ، وتمثل هذه المرحلة ، فترة ازدهار العمارة بأودغست تحت تأثير الجاليات العربية والشمال إفريقية المستقرة بها، وكانت القطعة السكنية فيها تتكون من فناء متسع مسور بجدران ، وبمدخله غرفة لها باب واحد يقود عن طريق ممر أو دهليز احيانا إلى المنزل الذي كان يبنى في وسط الفناء، ومعظم المنازل التي حفر عنها تتكون من غرفة متسعة تفتح عليها ابواب غرف أخرى أصغر منها وملتصقة بها يعتقد أنها كانت خاصة بأهل المنزل، وكان تنظيم القطع في الفناء يدور حول البئر المحفورة داخله، ومن بين أهم تلك القطع التي لا يكاد أي منزل يخلو منها المراحيض وغرف صغيرة للاستحمام والمطابخ، وهي عادة موزعة بين زوايا جدران الفناء[1178].

وبصفة عامة فإن عمارة المنازل التي تم التعرف عليها حتى الآن بتغداوست تشبه إلى حد كبير فن العمارة الذي تميزت به مدينة الزهراء في الأندلس[1179]، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن تجار الآندلس كانوا يتوافدون على هذه المدينة وأن البكري استقى معلوماته حول الصحراء وبلاد السودان من بعضهم، وقد استقرت جماعات منهم بشكل دائم في تلك المدينة وغيرها من المراكز التجارية في الصحراء والسودان، لذلك يعتقد أنهم بنوا منازلهم وفق ما عهدوه في بلادهم الأصلية، فنشروا بذلك الفن المعماري الأندلسي في المنطقة.

[1173] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.
[1174] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91.
[1175] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.
[1176] نفس المصدر ، ص:158.
[1177] J. POULET: Fouille d'un cartier de TEGDAOUST, Mauritanie orientale, Urbanisation Architecture, Utilisation de l'espace construit, **TEGDAOUST IV**, Editons Recherches sur les civilisations, Paris, 1985, Mémoirc n!54 p. 233
[1178] **TEGDAOUST IV**، op.cit، P 234
[1179]**TEGDAOUST III**، op.cit، P 162

وفى الوقت الذي اعتقد فيه بعض الباحثين أن الافنية المسورة إنما هي عادة رافقت البدو الذين كانوا يحتاجون في حياتهم اليومية إلى قطعة من الأرض يستغلونها إلى جانب الخيمة أو العريش اللذين كانا مكونين من قطعة واحدة[1180]، فإنه لاينفى أن الفناء كان ضروريا، خاصة خلال فترة الصيف التي يبلغ ارتفاع درجات الحرارة خلالها ذروته ابتداء من شهر مايو وحتى نهاية سبتمبر من كل سنة، وعليه فإن منازل أودغست لم تكن بحكم ذلك المناخ مريحة لساكنيها خلال كل الفترات، حيث كانت في معظمها مشيدة بحجارة رسوبية ترتفع درجات الحرارة فيها بشكل سريع، وتحتفظ بها مدة طويلة نسبيا، مما يجعل اللجوء إلى الفناء أثناء الليل أمرا مريحا بالنسبة لسكان تلك المنازل.

وقد حرص مصممو المنازل على أن تكون نوافذها وأبوابها ومواقع المطابخ في أفنيتها متكيفة مع الظروف المناخية السائرة وخاصة اتجاهات الرياح، كما كان اختيار مواقع الأبواب الخارجية والنوافذ يتم بطريقة لا تسمح للمارة بالتعرف على من بداخل المنزل أو فنائه المسور عن طريق اختلاس النظر[1181].

وخصص سكان أودغست المنطقة الواقعة إلى الشرق من مدينتهم للبساتين حيث عثر على بقايا قنوات وخزانات يعتقد أنها كانت تستخدم في ري المزروعات المتنوعة التي عرفتها بساتين أودغست، وتحدثت عنها المصادر العربية الوسيطة[1182].

واستفادت مدينة أودغست من استقرار جاليات عربية وشمال إفريقية بها، مما ساعد على ذيوع المعارف العربية الإسلامية فيها، وتوزع مساجد أحيائها للمدرسين والفقهاء[1183]، وكان ذلك وجها آخر من أوجه علاقات الصحراء مع شمال إفريقيا.

II - العلاقات الثقافية بين الصحراء وشمال إفريقيا:

إذا كانت منطقة صحراء الملثمين قد تميزت منذ زمن طويل من حيث المناخ والتضاريس ونوعية التربة الخ... عن معظم مناطق شمال إفريقيا، فإنها كانت على الرغم من ذلك امتدادا جغرافيا وبشريا وحضاريا لتلك المناطق، ولا أدل على ذلك من أن أغلب المجموعات التي كانت تعمر الصحراء هي نفسها المجموعات التي كانت تعمر أجزاء مختلفة من الشمال الإفريقي، وقد عرفنا كيف أن الصحراء كانت ملجأ للفارين من شمال إفريقيا إثر ثورات شعوبها ضد الدول التي فرضت نفسها على سكان المغرب الكبير خلال التاريخ القديم، وأن جماعات كبيرة قد دخلت صحراء الملثمين نتيجة لذلك وخلال فترات تاريخية مختلفة.

وظلت الهجرات الجماعية من الشمال إلى صحراء الملثمين متواصلة على الرغم من اختلاف أسبابها وطبيعة المهاجرين وأعدادهم حتى العصور الحديثة (بنو حسان)، كما كان للعلاقات التجارية بين المنطقتين دور كبير في نقل المؤثرات الثقافية بشكل متبادل بواسطة القوافل التجارية الكبرى التي كانت تربط بين المنطقتين بشكل مستمر، والتى كان يصحبها عدد هام من التجار الذين كانوا يستقرون لفترات طويلة أو بشكل نهائي في المراكز التجارية بالمنطقتين، فيمتزجون بسكانها، مما يساعد على عملية "التثاقف".

1180 Ibid, P . 551
1181 S. ROBERT : **Archéologie des cites**, op. cit, P. 51
1182 انظر: البكري مصدر سبق ذكره، ص:158 وياقوت: مصدر سبق ذكره، ص:278.
1183 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158، وص:168.

ولعل من بين أهم العوامل التي ساعدت على تسهيل الصلات الثقافية بين سكان المنطقتين، وحدة اللغة والكتابة والدين بينهما عبر العصور، فخلال العصور السابقة لانتشار الاسلام في المنطقتين كان الملثمون في الصحراء يدينون بالمجوسية التي كانت سائدة وقتها بين معظم سكان شمال إفريقيا، وقد نبه ابن خلدون إلى ذلك في حديثه عن سكان الصحراء ما فقال: "...وكان دينهم جميعا المجوسية شأن برابرة المغرب..."[1184].

أما اللغة التي كانت سائدة بينهم فهي أساسا اللغة الصنهاجية المعروفة باسم "تامشيكت"، وهي لغة مكتوبة ترك لنا قدماء الملثمين نماذج منها تبين طريقة كتابتها، منقوشة في الصخور بأجزاء مختلفة من الصحراء، ويطلق على تلك الكتابة اسم "تيفناغ"، ويعتقد أنها تحريف لكلمة "فينيقي"، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يعتقدون بوجود تأثير قرطاجي على سكان المنطقة، ومازالت الحروف الهجائية لكتابة التيفناغ متداولة حتى الآن بين الطوارق الذين مازال بعضهم يجيد كتابتها وقراءتها[1185]، علما أن الكتاب الذين يقولون بعروبة صنهاجة يعتقدون أن هذه الأخيرة أخذت لغتها عن البربر نتيجة مخالطتها لهم واستقرار عشائرها بينهم، وفى هذا الإطار يقول صاحب الحلل على سبيل المثال لا الحصر ما نصه: "... وإنما تبربرت ألسنتهم لمجاورتهم البربر وكونهم معهم ولمصاهرتهم إياهم..."[1186]، وذكر ابن الأمين الشنقيطي أن اللغة التي كان صنهاجة الصحراء يتكلمونها كانت تعرف محليا باسم "كلام آزناكه" الذي قال عنه: "... هو نوع من انواع البربرية المغربية وهو موافق للسان الشلحي..."[1187].

وبالإضافة إلى اللغة الصنهاجية التي كانت متداولة في الصحراء ومناطق مختلفة من شمال إفريقيا، عرفت الصحراء لغة أخرى تحت اسم لغة "آزير"، يعتقد بعض الباحثين أنها انتشرت في المنطقة أثناء عهد مملكتي أودغست وغانة، وأنها كانت متداولة على حد السواء بين سكان الصحراء والسودان المهتمين بالمبادلات التجارية، فهي إذن حسب أولئك الباحثين لغة تفاهم تجاري، يعتبرون أنها خليط من الصنهاجية والسوننكية، ثم دخلت عليها ابتداء من القرن8م مفردات من اللغة العربية، ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن المجموعة التي تولت نشر تلك اللغة في الصحراء والسودان هي مجموعة صنهاجية[1188].

أما كتاب المنطقة الصحراوية، فإنهم يعتقدون أن لغة الأزير لا تختلف كثيرا عن لغة تامشيكت أو كلام آزناكة، وبالتالي فإنها حسبهم من لغات البربر، وفى هذا الصدد يقول أحمد بن الأمين مانصه: "... إن لغات تلك الأرض كانت قبل دخول العرب هناك قسمين، قسم يسمى آزير وقسم يقال له كلام آزناكة... والاغلب في ظني أن القسمين واحد..."[1189]، ونميل إلى هذا الرأي الأخير، نتيجة لأن كلمة "آزير"، قد لا تكون سوى تحريف لكلمة "آجر" التي هي اسم لإحدى عشائر صنهاجة التي كانت تقطن صحراء الملثمين، وهي التي أشار إليها عبد الرحمن السعدي أثناء حديثه عن أحد علماء شنقيط الذين هاجروا إلى بلاد السودان خلال القرن15م

[1184] كتاب العبر، المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:371.

[1185] ابن الشرقي حصري: مرجع سبق ذكره، ص: 25.

[1186] الحلل الموشية: مصدر سبق ذكره، ص:19.

[1187] احمد بن الأمين الشنقيطي: مرجع سبق ذكره، ص: 512.

[1188] **TEGEAOUST III**, op. Cit, p. 529

[1189] احمد بن الأمين الشنقيطي: مرجع سبق ذكره، ص: 511.

بقوله: "محمدنض، وهو صنهاجي من قبيلة آجر أصله من شنجيط، وهو أصل جميع هذه القبيلة..."[1190].

هكذا إذن ساعدت وحدة الدين والجنس واللغة في توحيد الفضاء الثقافي العام للصحراء وشمال إفريقيا عن طريق أشكال التواصل المختلفة التي كانت قائمة بين المنطقتين خلال الفترة ما بين القرنين8م و11م، على أننا سنحاول الحديث عن العلاقات الثقافية بين المنطقتين خلال تلك الفترة، مقتصرين على انتشار الإسلام والعلوم الشرعية.

1- دور شمال إفريقيا في نشر الإسلام والعلوم الشرعية بالصحراء:

لم تكن قبائل الملثمين إذن تعيش حياة بدوية جافية، بل كانت دائما تدركها المؤثرات الحضارية من مراكز الاشعاع الثقافي في شمال إفريقيا، وبمرور الزمن امتلكت تلك القبائل موروثا حضاريا قلما توفر لنظيراتها في المجتمعات البدوية الأخرى، ولعل احتفاظ قبائل الصحراء بابجدية التيفناغ حتي عصرنا هذا جعل بعض الباحثين يصفون سكانها بحفظة التراث البربري القديم[1191].

وهكذا، فقد تعرف الملثمون في صحرائهم على الإسلام عند وصوله إلى المغرب الأقصى، أي خلال منتصف القرن1هـ/7م، وعلى الرغم من أن دخولهم فيه لم يتم دفعة واحدة، وإنما بشكل تدريجي وبطيئ، وعبر مراحل مختلفة بدأت مع حملة عقبة بن نافع على السوس الأقصى وما تلاها من حملات عربية أخرى، ومرورا بدور التجار المسلمين الذين استقروا في المدن الصحراوية أوعاشوا بين ظهراني أحياء الملثمين المتنقلة، وانتهاء بدور المرابطين الذين تمكنوا بدعم من علماء شمال إفريقيا من ترسيخ الإسلام في نفوس سكان المنطقة واستمراره بها.

أ - مرحلة الحملات:

بدأت تلك المرحلة في صحراء الملثمين مع وصول أول حملة عربية إسلامية إلى جنوب المغرب الأقصى بقيادة عقبة بن نافع الفهري سنة 682م، الذي تتبع بعد توليته الثانية على إفريقية من طرف يزيد بن معاوية، شواطئ البحر الأبيض المتوسط غربا حتي وصل طنجة، ومنها أراد فتح سبتة والجواز إلى الاندلس، فدله يليان على مناطق جنوب المغرب التي من بينها صحراء الملثمين، ونصحه بالاتجاه إليها، ويقول ابن خلدون في هذا المجال متحدثا عن فتوحات عقبة في المغرب الاقصى: "... وأذعن له يليان أمير غمارة ولا طفه وهاداه ودله على عورات البرابرة وراءه، ابوليله والسوس وما والاهما من مجالات الملثمين، فغنم وسبي، وانتهى إلى ساحل البحر وقفل ظافرا..."[1192].

[1190] تاريخ السودان: مصدر سبق ذكره، ص: 22.
[1191] قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص:56-57.
[1192] كتاب العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:297.

وإذا كان اليعقوبي قد ذكر لنا أن قبائل أنبية هي ذاتها قبائل صنهاجة الصحراء[1193]، فإن ابن عبد الحكم ذكر أن عقبة حاربها ووطئ مضاربها، وذلك عندما كتب متحدثا عن فتوحاته يقول: "... وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية، فجول في بلادهم لايعرض له أحد ولا يقاتله..."[1194]، ويضيف ابن خلدون أن عقبة تجاوز السوس مطاردا قبيلة مسوفة الصنهاجية الصحراوية، فقال: "... ثم أجاز إلى بلاد السوس يقاتل من بها من صنهاجة أهل اللثام، وهم يومئذ على المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية، فاثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوفة من وراء السوس وسبي منهم وقفل راجعا..."[1195].

وبالإضافة إلى مسوفة، تذكر المصادر العربية الوسيطة قبيلة أخرى من قبائل صنهاجة اللثام أسلمت على يد عقبة أثناء حملته لنشر الإسلام في المغرب الأقصى، وكانت تقطن المنطقة الوسطى من صحراء الملثمين، وفى هذا الصدد يقول ابن أبي زرع: "... ومدينة تاكلاتين يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة واسلموا على يد عقبة بن نافع أيام فتحه للمغرب..."[1196] ، ونذكر بأن مدينة تاكلاتين عند ابن أبي زرع هي ذاتها مدينة بانكلابين عند البكري[1197].

ويعتقد بعض الباحثين أن اتصال الفاتحين العرب بقبائل الملثمين أثناء فتوحات عقبة بن نافع لم يقتصر على بني وارث ومسوفة، وإنما شمل كل قبائل الصحراء، خاصة لمتونة، إذ لاشك -حسب ذلك الرأي- أن تلك القبائل لم تذعن لعقبة أثناء جولاته الأولى، وأنها اتحدت فيما بينها لتدافع عن كيانها وأراضيها[1198].

ويشير ابن عذاري إلى أن عقبة توغل في بلاد الملثمين، حتى وصل موضعا أطلق عليه اسم أطار، وهو موقع يفهم من سياق ما أورده أنه قريب من بلاد السودان، وهي مواصفات تنطبق على موقع المدينة الموريتانية الحالية الواقعة بإقليم آدرار، والتي تبعد7كلم عن آثار قاعدة المرابطين آزوكي، يقول ابن عذاري متحدثا عن عقبة: "... ثم رجع من دكالة إلى بلاد هسكورة إلى موضع يقاله أطار فوجد فيه أقواما فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتي فروا أمامه، فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب..."[1199]، ومما يؤكد أن ابن عذاري، والمصادر التي نقل عنها يعنون بـ"أطار" الموقع الذى عرفنا به قبل قليل، كونه ذكر بالاعتماد على مصادر سردها أن حملة عقبة بن نافع لم تنته عند الصحراء، وإنما تجاوزتها جنوبا حتى بلاد السودان، وذلك في قوله: "... قال ابن عبد البر فتح عقبة عامة بلاد البربر إلى أن بلغ طنجة وجال هنالك ولا يقاتله أحد ولا يعارضه حتى فتح كورة من كور السودان..."، ثم إنه يورد أن ذلك الفاتح عاد إلى بلاد جزولة ومنها سلك الطريق قافلا إلى بلاد إفريقية لكنه قتل بتهوذة قبل الوصول إلى القيروان[1200].

1193 اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.
1194 ابن عبد الحكم: مصد سبق ذكره، ص:58.
1195 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:217.
1196 الانيس المطرب: مصدر سبق ذكره، ص:121.
1197 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.
1198 قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص:61.
1199 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:28.
1200 نفس المصدر ونفس الصفحة.

ويؤيد بعض الباحثين كون عقبة وصل بلاد الصحراء والسودان مشيرين إلى أن ذكراه مازالت حاضرة في الذاكرة الجماعية لسكان تلك المناطق حتى اليوم، وتداولتها روايات أجيالهم الشفوية والمكتوبة[1201]، ويؤكد باحثون آخرون على أن عقبة بن نافع هو أول من أرغم بعض قبائل الملثمين على الدخول في الاسلام[1202].

وفي هذا الصدد يورد البكري أن بنى أميه أوفدوا جيشا لنشر الإسلام في غانة، وأن أحفاد أفراد ذلك الجيش كانوا ما يزالون حتى عهده يحافظون على وجودهم كمجموعة عربية متميز في بلاد السودان عن طريق عدم مخالطتهم لسواهم، ويفيد بأن أجدادهم وصلوا المنطقة في صدر الإسلام[1203]، كما يذكر أن بني أمية حفروا جملة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط وادي درعة بغانة[1204].

فهل يمكننا انطلاقا من هذه الإشارات التفكير بأن الجيش الذي استقر في بلاد السودان وظل بها متميزا خلفا عن سلف حتى منتصف القرن5هـ/11م، قبل أن ينصهر في سكان الصحراء والسودان، هو جزء من جيش عقبة بن نافع خلفه هنالك وكلفه بمهمة نشر الإسلام في غانة بعد أن اعتقد أنه أكمل فتح المغرب الأقصى والصحراء، وأراد العودة إلى بلاد إفريقية؟، وهل يمكن لجيش أن يعبر الصحراء من طرفها الشمالي إلى حدها الجنوبي من دون مباركة الملثمين ومساعدتهم، إذ هم وحدهم الذين يعرفون أسرار صحرائهم، طرقها ومكامن وجود المياه بها؟، وهل يمكن ربط الآبار التي ذكر البكري أن بني أمية حفروها على طول الطريق بين درعة وغانة بتلك الحملة التي ذكر نفس المؤلف أن الأمويين سيروها إلى غانة في صدر الإسلام؟

على الرغم من أننا لا نمتلك - حتى الآن- مصادر تمكننا من الإجابة على الأسئلة السابقة، فإننا نميل إلى الإجابة عليها بالإيجاب مؤقتا، نظرا لجملة من المؤشرات من بينها إجمالا، كون البكري ذكر أن ذلك الجيش تم تسييره في صدر الإسلام، ونحن نعلم أن حملة عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى تمت في عهد يزيد بن معاوية، ثم أن منازل مسوفة التي سبق أن أشرنا إلى أنه طاردها، كانت تصل درعة شمالا[1205] وتلامس منعطف النيجر جنوبا[1206].

ومن المعلوم أن درعة كانت منطلق طريق تجاري يربط المغرب ببلاد السودان خاصة غانة، وهو الذي حفرت على طوله تلك الآبار[1207]، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن عقبة توغل جنوبا أثناء مطاردته لمسوفة إلى أن وصل حدود نفوذها الجنوبية، فسمع عن غانة وقوتها وثرائها، فترك جزءا من جيشه هنالك، بعد ما اتفق مع مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء وأشار على تلك القوة بغزو غانة، وأمر أثناء عودته إلى المغرب بحفر الآبار على طول الطريق ليضمن ارسال الإمدادات إلى ذلك الجيش من جهة، ويحدد معالم الطريق من جهة أخرى، وأن مقتل عقبة قبل أن يصل إلى عاصمة ولايته ويكاتب الخليفة الأموي بشأن فتح السودان، هو الذي

1201 F DELACHAPELLE, op. cit, p. 55

1202 قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص: 62.

1203 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:179.

1204 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:163.

1205 نفس المصدر، ص:149.

1206 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:20

1207 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:163.

أدى إلى عدم مجازفة أفراد ذلك الجيش بشن الحروب ضد تلك المملكة القوية، وربما يكون الملثمون بعد مقتل عقبة قد تخلوا عن الإسلام، وبالتالي تخلوا عن التعاون مع أفراد ذلك الجيش الذي تعد عودته إلى الشمال مما حال دون عودتهم إلى الشمال، مأمونة العواقب نتيجة لثورات البربر ضد الوجود العربي بعد مقتل عقبة بقيادة كسيلة، فظل هنالك، وحافظ أفراده على تميزهم وبقوا كذلك حتي منتصف القرن5هـ، فبهذا الافتراض يمكن تفسير الاشارات التي أوردها البكري حول حفر الآبار والجيش الذي ارسل من طرف بني أمية إلى غانة في صدر الإسلام.

وتؤكد المصادر على أن عقبة استخدم الطريق المنطلق من درعة إلى صحراء الملثمين، حيث يقول ابن عذاري متحدثا عن فتوحات ذلك القائد: "... ونزل من درعة إلى بلاد صنهاجة"[1208]، ويعتقد بعض الباحثين أن حملة عقبة بن نافع في صحراء الملثمين، لم تكن تهدف إلى نشر الإسلام بين سكانها في تلك الفترة الزمنية الضيقة، وإنما اكتشاف الطرق الرابطة وقتها بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان[1209]، من أجل التخطيط لفتح تلك المنطقة لاحقا وبشكل نهائي.

وبصفة عامة، فإن تجوال عقبة بن نافع في صحراء الملثمين، ومطاردته لقبائلها، تم خلال فترة وجيزة وبشكل خاطف، وبالتالي لم تكن له انعكاسات مباشرة ومؤثرة على الوضعية الثقافية في الصحراء، لكنه مهد الطريق أمام الفاتحين الذين جاءوا من بعده من أجل نشر الإسلام في تلك المنطقة[1210].

وهكذا امتد النفوذ العربي الإسلامي وأثناء ولاية موسى بن نصير على المغرب إلى جنوب المغرب الأقصى ثم إلى المناطق الصحراوية، بعد أن تمكن ذلك القائد من فتح كافة أرجاء المغرب الأقصى خلال الفترة مابين سنتي705م و709م، وولي ابنه مروان بن موسى على منطقة السوس الأقصى المصاقبة لصحراء الملثمين[1211]، ويعتقد أن مروان اتصل بالملثمين، وأنهم جددوا اعتناق الإسلام على يده أو على يد موفدين من طرفه دعاة أو قادة حملات عسكرية، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون عند ما كتب عن صحراء الملثمين وسكانها، فقال عنهم: "ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس"[1212].

لكن اهتمام ولاة المغرب بنشر الإسلام في الصحراء وبعثهم للحملات العسكرية من أجل تحقيق ذلك الغرض ازداد في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب[1213]، الذي قاد بنفسه حملة كانت تهدف إلى القضاء على ثورات البربر قادته سنة 740م، إلى صحراء الملثمين، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد مانصه: "... ثم انتفض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبد الله بن الحبحاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس، واثخن في البربر وسبى وغنم، وانتهي إلى مسوفة فقتل وسبى وداخل البربر منه رعب..."[1214].

[1208] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:27.

[1209] T.LEWICKI: "Les origines de l'Islam dans les tribus Berbères du Sahara occidental: Musa Ibn Nusayr et Ubayd Allah Ibn Alhabhab **in STUDIA ISLAMICA**, vol. 32, 1970, pp. 203 -214, p. 209

[1210] عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سبق ذكره، ص:37.

[1211] T.LEWICKI: in **STUDIA ISLAMICA,** op. Cit, p. 204

[1212] كتاب العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 371.

[1213] T LEWICKI،in **studia Islamica**, op. Cit, P. 203 - 214

[1214] العبر، مصدر سبق ذكره المجلد6، ص: 221.

ثم إن عبيد الله بن الحبحاب ولى هو الآخر إبنه إسماعيل بن عبيد الله على منطقة السوس الاقصى[1215]، ويعتقد لويكي أن اسماعيل هو الذي وجه حملات متتالية إلى صحراء الملثمين بقيادة المشتري بن الأسود[1216]، ويقول ابن الفقيه متحدثا عن تلك الحملات: "... وقال ابو الخطاب، قال المشترى بن الأسود، غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى، فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمال يخرج النيل من تحته..."[1217]، ويتضح من خلال هذا الاستشهاد أن أبا الخطاب يعني ببلاد انبية، صحراء الملثمين، وذلك لقوله: "وبلاد أنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة في براري ومفاوز، وأهلها أهل لمطة اصحاب الدرق..."[1218]، ويرى بعض الدارسين أن مصب النهر الذي وصفه ابن الفقيه على لسان المشتري بن الأسود، هو مصب نهر السنغال[1219]، وبالتالي تكون حملات ذلك القائد التي وصل عددها عشرون حملة، قد سلكت الطريق الساحلي الذي كان يربط نول لمطة في السوس الأقصى بمملحة آوليل قرب مصب نهر السنغال.

ونعتقد أن كثافة الحملات المشار إليها خلال تلك الفترة بقيادة المشترى ابن الأسود في الجزء الغربي من صحراء الملثمين، قد وازتها حملات أخرى لم تتحدث عنها المصادر خلال الفترة ذاتها وجهت إلى أجزاء أخرى من تلك الصحراء، من بينها الحملة التي قادها حبيب بن أبي عبيدة بأمر من ابن الحبحاب، وهي التي قال عنها ابن عبد الحكم: "...وغزا عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهري السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله، وأصاب ما شاء من ذهب..."[1220] ، كما أورد مصدر آخر أن حبيبا سلك طريق جده عقبة بن نافع فوصل إلى ديار مسوفة بأمر من عبيد الله بن الحبحاب، وذلك في قوله: "... وبعث حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبه بن نافع غازيا إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وارض السودان ولم يقاتله أحد وإلا ظهر عليه وأصاب من الذهب والسبي أمرا عظيما، ولم يدع في المغرب قبيلة إلا اداخها فملئوا منه رعبا وخوفا... وسبى من قبيل من قبائل البربر يقال لهم مسوفة في طريق بلاد السودان نساء لهن جمال، وكان لهن أثمان جليلة لم ير مثلها ورجع سالما حتي قدم على ابن الحبحاب..."[1221].

وعند ما استقل عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري بولاية إفريقية، وتمكن من اخراج حنظلة بن صفوان من القيروان سنة 123هـ، وجه حملة كان يهدف من ورائها إلى اخضاع المغرب لسلطته، ولم يهمل صحراء الملثمين استكمالا لما قام به أبوه حبيب وجده عقبة بن نافع من محاولات لنشر الإسلام بها، فوصل جنوده الطرف الجنوبي للصحراء ودعوا قبائل صنهاجة اللثام لاعتناق الاسلام[1222].

1215 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:94.

1216 T LEWICKI in **Studia Islamica**, op. Cit, P. 203 - 214

1217 ابن الفقيه: مصدر سبق ذكره، ص:64.

1218 نفس المصدر، ص:81.

1219 **Histoire general de l'Afrique**, op. cit t3 , P . 333

1220 ابن عبد الحكم: مصدر سبق ذكره، ص:94.

1221 أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق، د. عبد الله العلي الزيدان، ود. عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص:72.

1222 عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سبق ذكره، ص:40.

ولعله غزا الصحراء انطلاقا من مدينة ايجلى بالسوس الأقصى التي افتتحها جده عقبة بن نافع، وكان بها حتى منتصف القرن5هـ/11م بقايا معسكره، ويتحدث البكري عن تلك المدينة فيقول: "... ومدينة ايجلى مدينة كبيرة... والذى افتتحها عقبة بن نافع... ودخلها عبد الرحمن بن حبيب بعد ذلك وبها معسكره إلى اليوم..."[1223].

لكن الذي اشتهر به عبد الرحمن بن حبيب، وكان له انعكاسات إيجابية على ربط الصحراء بطريقة أكثر فاعلية بالمغرب وتسهيل تدفق التجار والدعاة إليها، هو حفره لجملة من الآبار على طول الطريق الذى كان يربط بين تامدلت وأدغست[1224]، مما ساهم في تحديد معالم ذلك الطريق وتأمين سالكيه من مخاوف العطش.

وبصفة عامة، يمكننا القول إن مرحلة الحملات العسكرية في الصحراء امتدت مابين سنتي 682م و745م، وأنها وإن كانت لم تفض إلى دخول جميع سكان تلك المنطقة في الإسلام وتطبيقهم لتعاليمه بشكل مباشر، فإنها جعلتهم على علم به، وربطتهم بصلات مع مراكز اشعاعه في الشمال، فاستكمل الدعاة والتجار المسلمون الدور، وساهموا في نشر الإسلام بالطريقة السلمية عن طريق الحوار الهادئ والتأثير مع مرور الزمن.

أ - مرحلة الإنتشار السلمي للإسلام:

إذا كانت الحملات العسكرية العربية الإسلامية إلى صحراء الملثمين قد مهدت لدخول الإسلام عن طريق إشعار السكان بالدين الجديد، بل إنها قد أدت إلى اعتناق بعض قبائل الملثمين له - ولو شكليا-، فإن دور قادة تلك الحملات وكذلك الولاة والحكام العرب المسلمين في شمال إفريقيا في تذليل العقبات أمام عابري الصحراء عن طريق حفر الآبار على طول الطرق التي كانت تربطها بالمغرب، خاصة في المناطق الوعرة والرملية، قد ساعد على تدفق التجار العرب والبربر المسلمين إلى الصحراء، فاستقر بعضهم بها، وأثروا بشكل مباشر في ثقافة سكانها، كما أدى قيام الدول الإسلامية المستقلة عن الخلافة ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، واهتمامها بالطرق المتجهة نحو الصحراء إلى تأثر الملثمين بدعواتها سواء عن طريق التجار أو بواسطة اتصال قادة الملثمين بزعاماتها بشكل مباشر، ومن بين أهم تلك الدول نذكر الدولتين الخارجيتين الرستمية والصفرية ودولة الإدارسة والدولة الفاطمية.

وإذا كانت المصادر - التي اطلعنا عليها- لم توفر معلومات تتعلق بصلات مباشرة بين قادة الملثمين والدولتين الخارجيتين تمكننا من معرفة مدى رغبة السلطة السياسية فيهما قبل نهاية القرن3هـ/9م في نشر الإسلام في صحراء الملثمين، واقتصار الإشارات الواردة، في هذا الموضوع على دور التجار في نقل المؤثرات الثقافية من تينك الدولتين إلى صحراء الملثمين، فإن الأمر يختلف بالنسبة للدولتين الأخيرتين، حيث تتضمن بعض المصادر إشارات تمكن من الاعتقاد بأن الأدارسة والفاطميين بذلوا جهودا من أجل ربط الملثمين بالإسلام، وأن ذلك التوجه قد أثر في الصحراء ولو لبعض الوقت، فمن المعلوم أن صنهاجة بصفة عامة، وصنهاجة المغرب الأقصى والصحراء بصفة خاصة، قد ساندت دعوة إدريس بن عبد الله وساعدت في رفع دعائم دولته والالتفاف من حوله[1225]، ولعل ذلك هو ماجعل بعض الكتاب يشيرون إلى

[1223] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 162.

[1224] نفس المصدر، ص:156و157.

[1225] قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص: 71.

الارتباط الوثيق بين صنهاجة والعلويين، ومن ذلك مثلا ماذكره ابن خلدون في قوله: "... ولصنهاجة ولاية لعلى بن أبي طالب..."[1226]، أما ابن الأحمر، فإنه يفيد وبصراحة أن الملثمين دخلوا الإسلام على يد إدريس فقال: "... وكان السبب في دخول لمتونة المغرب أنهم كانوا على دين الإسلام منذ أسلموا على يد الإمام إدريس..."[1227].

وإذا صحت المعلومات التي أوردها ابن الأحمر فإن الأمر يتعلق بقبيلة لمتونة وحدها كما نص هو نفسه على ذلك، إذ قد سبق أن عرفنا أن المنطقة الساحلية التي كانت عشائر قبيلة كدالة تقطنها قد استهدفتها عشرون حملة بقيادة المشترى بن الأسود انطلاقا من السوس، وأن حملات عقبة وحفيده حبيب ركزت على قبيلتي مسوفة وبني وارث، فلم يبق من قبائل الملثمين ذات الشأن سوى لمتونة التي لاشك أنها شاركت القبائل الصنهاجية الصحراوية السالفة الذكر في مواجهة الحملات الأولى، وبالتالي كانت على علم بالإسلام منذ بداية دخوله إلى المغرب، بل ربما تكون جماعات منها قد اعتنقت الإسلام، لكنها لم تكن معنية بشكل مباشر بجهود الفاتحين الأوائل، وربما لم يتم استنفارها بشكل شامل لذلك الغرض، وبالتالي فإنه من المستساغ أن يكون بعض زعماء قبيلة لمتونة الذين تعرفوا على الإسلام عن طريق الاحتكاك بالتجار المسلمين واعتنقوه شكليا، قد شدوا الرحال إلى إدريس عند ما علموا بخبر وصوله إلى المغرب وأنه ينحدر من سلالة الرسول الكريم وبايعوه نيابة عن قبيلتهم لا من الناحية السياسية لأن نفوذ دولة الأدارسة لم يتجاوز عمليا السوس ودرعة، وإنما على أن تدخل قبيلتهم الإسلام[1228].

على أن الاتصال المؤثر بين الملثمين والأدارسة لم يتم إلا بعد أن لامست حدود دولة أولئك الأشراف مشارف صحراء الملثمين، خاصة في عهد دولة إدريس الثاني وأبنائه من بعده، فقد وصل إدريس بن إدريس بجيوشه إلى المنطقة الجنوبية من السوس الأقصى، وذلك بعد تأسيسه لعاصمة ملكه، مدينة فاس، ومن المحتمل أنه التقى بممثلي بعض قبائل الملثمين هنالك، إذ كانت الحدود الشمالية لمنازلهم تلامس وقتئذ تلك المنطقة، كما أن بعض عشائرهم القاطنة في أعماق الصحراء كانت تتنقل موسميا بحيواناتها إلى منطقتي السوس الأقصى ودرعة للاستفادة من مراعيهما الجيدة، ويشير ابن أبي زرع إلى وصول إدريس تلك المنطقة فيقول: "... وأقام بها سنة سبع وسبعين ومائة [يعني مدينة فاس]، فخرج إلى غزو نفيس وبلاد المصامدة فوصل إليها فدخل مدينة نفيس ومدينة أغمات..."[1229].

ويرى الاستاذ محمود إسماعيل أن رغبة الأدارسة في خلق نفوذ لهم بصحراء الملثمين كانت تدخل في إطار صراعهم مع صفرية تافلالت حول الاستفادة من التجارة عبر الصحراء، وأنهم تمكنوا من تحقيق غرضهم مؤقتا وبشكل جزئي عن طريق احتلالهم لبعض الحصون والقرى الواقعة في جنوب المغرب الأقصى، خاصة في المناطق التي تنطلق منها طرق هامة كانت القوافل التجارية الكبرى تسلكها في طريقها إلى الصحراء مثل تامدلت وتارودانت إلخ...[1230].

[1226] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 34.
[1227] إسماعيل بن الأحمر: مصدر سبق ذكره، ص:27.
[1228] قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص: 71.
[1229] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 50
[1230] مقالات في الفكر والتاريخ: مرجع سبق ذكره، ص:62.

وقد توطدت الصلات بين الأدارسة والملثمين بعد وفاة إدريس بن إدريس وخلافة ابنه محمد، حيث وزع حكم أقاليم الدولة على إخوته، وأصبح كل واحد منهم يدير منطقة، فولى عبد الله بن إدريس منطقة السوس الأقصى وما والاها[1231]، فأسس بها مدينة تامدلت التي كانت القوافل تنطلق منها بكثافة باتجاه مدينة أودغست بصفة[1232]، بينما تولى يحيى بن إدريس الأمر في درعة التي كان ينطلق منها هي الأخرى طريق يعبر صحراء الملثمين باتجاه غانة[1233].

وقد أثار وجود الأدارسة على حدود الصحراء خلال القرن3هـ اهتمام الدارسين، فاعتبر بعضهم أنهم لعبوا دورا في نشر الإسلام بين قبائل الملثمين، مع اعترافهم بغموض علاقة أولئك الأشراف بالصحراء لعدم وجود مصادر تتحدث بشكل صريح ومفصل عنها، وإن كان بعضهم يعتقد أن إشارة ابن خلدون المتعلقة بدخول الملثمين للإسلام خلال القرن3هـ إنما هي دليل على وجود علاقة مؤثرة بين الأدارسة وسكان الصحراء[1234]، فقد كتب ابن خلدون عن الملثمين فقال: "...كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه..."[1235].

وإذا تمعنا في عبارة ابن خلدون "ظهر فيهم الإسلام"، فإن بإمكننا الاعتقاد بأنها تتعلق بشموليته لسكان المنطقة وليس بدخوله إلى الصحراء أو انتشاره بين بعض الأفراد بها أو بعض قبائلها لأول مرة، ومع ذلك فإن إشارة أخرى أوردها أحد كتاب القرن4هـ/10م، يمكن أن يفهم من خلالها أن إسلام الملثمين في القرن3 هـ إنما يعود الفضل فيه إلى الفاطميين، فقد كتب المهلبي في هذا المجال متحدثا عن سكان مملكة أودغست التي يعتبرها اسما لمدينة ولمملكة يشمل نفوذها في عهده معظم مناطق صحراء الملثمين. فقال: "... وأودغست بها أسواق جليلة وهي مصر من الأمصار جليل والسفر إليها متصل من كل بلد، وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات، أسلموا على يد عبيد الله المهدي وكانوا كفارا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم..."[1236].

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك مصدرا آخر يبين الطريقة التي دخل بها سكان أودغست في الإسلام على يد عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية، فإننا نعتقد أن ذلك تم عند ما تمكن أبو عبد الله الداعية من إخراج المهدي من سجنه بسجلماسة، حيث نفترض أن جماعة من كبار الملثمين وقادة عشائرهم ذهبوا إلى سجلماسة من أجل الالتقاء به ومحاباته لماسبق أن أوردناه نقلا عن ابن خلدون من أن لصنهاجة ميولا إلى على ابن أبي طالب وخلفه، والفاطميون يدعون النسب العلوي، وبالتالي يكون دخولهم الإسلام على يده مجرد عبارة أوردها المهلبي ككاتب شيعي يريد ابراز دور دولة شيعية في نشر الإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن العلاقات التجارية، الوثيقة بين صحراء الملثمين وسجلماسة، والرغبة في استمراريتها وجني ثمارها، قد تكون وراء قدوم ممثلين عن الملثمين إلى السادة الجدد لسجلماسة وضواحيها للتفاهم معهم في سبيل محافظتهم على مصالحهم الاقتصادية، كما

[1231] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:124.

[1232] نفس المصدر، ص:163و156.

[1233] نفس المصدر، ص: 155.

[1234] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، مرجع سبق ذكره، ج1، ص:104.

[1235] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:373.

[1236] ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:277.

أن تحالف صنهاجة المغرب بصفة عامة مع الفاطميين ضد زناتة في المغرب والأمويين في الأندلس قد يكون من بين الأسباب التي جعلت صنهاجة الصحراء يهرعون إلى عبيد الله الشيعي، وهذا في نظرنا هو ما جعل الفاطميين أثناء حملاتهم المتكررة الموجهة إلى جنوب المغرب، لايتجاوزون سجلماسة وضواحيها جنوبا، لأنهم كانو - فيما يبدو- مطمئنين على الطرق التجارية العابرة للصحراء التي كانت تمر من أراضي واقعة تحت نفوذ حلفائهم من الملثمين.

وبعد استقرار الفاطميين بمصر واستخلافهم لصنهاجة إفريقية على المغرب، بدأت كفة الصراع تميل تدريجيا لصالح الأمويين بالاندلس وحلفائهم من زناتة بالمغرب،واتهى الأمر بسيطرة الزناتيين على طرق المحور الغربي للتجارة عبر الصحراء في أواخر القرن4هـ/ 10م، ويعتقد أن تجارزناتة الخوارج لعبوا فيتلك الحقبة دورا مؤثرا في نشر الإسلام والثقافة العربية في ربوع الصحراء وغرب إفريقيا نتيجة للعلاقات التجارية النشطة بين صحراء الملثمين وكل من سجلماسة والجنوب التونسي والصحراء الليبية، وهي مواطن معروفة خلال تلك القرون، بخضوعها لنفوذ الخوارج الصفريين والأباضيين، وكان تجار تلك المجموعات يمثلون أغلبية ملاك ومرافقي القوافل المتجهة إلى الصحراء وكانوا يستقرون في حواضرها مؤقتا أو بشكل نهائي، مما يخولهم التأثير ثقافيا في سكانها.

وقد ازداد تأثير الخوارج الأباضية ابتداء من النصف الثاني من القرن10م، عند ما نشطت قوافلهم التي كانت تسلك الطريق الذي كان يربط بين إفريقية واودغست[1237]، ثم إنهم تمكنوا في النهاية من السيطرة على مدينة أودغست عاصمة دولة صنهاجة الصحراء، فاصبحت في نهاية القرن10م مدينة تهيمن عليها قبائل أباضية من إفريقية بعد أن طردوا منها صنهاجة[1238]، فأصبحت تلك المدينة مركزا دينيا خارجيا[1239]، ولعل تلك الفترة هي التي أشار إليها البكري عند ما وصف مدينة أودغست فقال عنها: "... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن"[1240]، يضاف إلى ذلك أن من بين أهم الدلائل على تغلغل التجار الخوارج في الصحراء كونهم مثلوا خلال تلك الفترة مرجعية الكتاب الذين تحدثوا عن صحراء الملثمين، من ذلك على سبيل المثال أن محمد بن يوسف الوراق المتوفى سنة 974م اعتمد في معظم ماكتبه عن أودغست على احد التجار الأباضيين المقيمين في تلك المدينة يدعى ابورستم النفوسي عن طريق تاجر آخر[1241].

وفي بداية القرن5هـ/11م كان معظم سكان مدينة أودغست من قبائل إفريقية، خاصة منها تلك المشهورة بتمسكها بالمذهب الخارجي الأباضي فقد كتب البكري عن تلك المدينة فقال: "وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواته وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الامصار..."[1242].

[1237] **TEGDAOUST** I, op. cit, P. 126 et 127
[1238] Ibid, P. 150
[1239] Ibid, P. 155
[1240] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.
[1241] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:159.
[1242] نفس المصدر السابق، ص:158.

ومن المعرف أن قبيلة برقجانة كانت محمسة للأباضية ومن المحتمل أنها خرجت من تاهرت بعد تخريبها على يد الفاطميين، واستقرت جماعات منها في أودغست والصحراء، كما كان الزناتيون من أكثر قبائل المغرب ارتباطا بالمذهب الخارجي الأباضي في منطقة طرابلس خلال القرنين8م و9م، شأنهم في ذلك قبيلة نفوسة التي استقرت على الجبل الذي كان يحمل اسمها وكانت هي الأخرى متحمسة للدعوة للمذهب الأباضي والدفاع عنه، ويعرف عنها أنها كانت أكثر القبائل إخلاصا للرستميين، وقد خرجت أفواج من تلك القبيلة من مواطنها فارة أمام عبيد الله الشيعي واستقرت في بلاد الجريد، وكان وجودها في تلك المنطقة واضحا حتى نهاية القرن11م، في حين كانت قبيلة لواته مقسمة بين المناطق الواقعة جنوب برقة، وتلك الواقعة إلى الجنوب من تاهرت وكانت المجموعتان تحت نفوذ الرستميين، مما يعني أن أفراد تلك القبيلة المستقرين في القرن 5هـ/11م بأودغست كانت لهم صلة بالأباضية، مثل غيرهم من أفراد القبائل الأخرى السالفة الذكر[1243].

ومن المحتمل، إن لم يكن من المؤكد، أن وجود التجار الأباضيين في الصحراء لم يقتصر على مدينة أودغست، وإنما شمل معظم المراكز التجارية بتلك المنطقة بل ربما كان لهم نشاط في البوادي الصحراوية، كما أن علاقات إفريقيا الشمالية الثقافية بصفة عامة وبلاد إفريقية منها بصفة خاصة بصحراد الملثمين لم تكن مقتصرة على دور التجار الخوارج فحسب، وإنما كان هنالك تجار آخرون قدموا من إفريقيا الشمالية والمشرق العربي ربما كانوا يعتنقون مذاهب إسلامية أخرى، فقد ذكر ابن حوقل مثلا أن التجار العراقيين كانوا كثيري التردد على الطرق التي كانت تربط سجلماسة بالمشرق من ناحية، وتلك التي تربطها بالصحراء من ناحية أخرى، وذكر من بين النماذج تاجرا بغداديا كان مقيما في أودغست اسمه محمد بن أبي سعدون كان من بين أغنى التجار المعروفين وقتها، حيث كان عليه دين لأحد تجار سجلماسة وهو عراقي آخر يدعى ابو إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله، والذى كان هو الآخر كثير التردد على صحراء الملثمين وكانت تربطه صداقة حميمة بملك الملثمين المقيم بمدينة أودغست، تينبروتان، بل أن الكاتب أشار إلى هجرة الكثير من العراقيين صحبة أولادهم إلى الصحراء سعيا وراء الأرباح الكبيرة التي كانوا يجنونها[1244]، كما كان التجار القيروانيون السنيون يستخدمون الطرق التي كانت تربط بلادهم بأودغست من أجل السفر إلى الصحراء والاستقرار بها، فقد ورد في سؤال موجه إلى المفتي أبي الحسن القابسي أن أحد التجار القيروانيين ذهب مستدينا إلى تادمكة وغانة وأنه سافر إلى أودغست واستقر بها وولد له بها الأولاد، وكان حتي وقت توجيه السؤال قد أمضى بها إحدى عشرة سنة[1245].

وبصفة عامة، فإن مرحلة الانتشار السلمي للاسلام في صحراء الملثمين قد تميزت بتعدد المذاهب تبعا لتعدد الجاليات المستقرة في المراكز التجارية أو تأثير الدول ذات العلاقات التجارية المكثفة والمتنوعة بالصحراء (الأدارسة، الدويلات الخارجية، الفاطميون الخ...)، وربما يكون ذلك الاختلاف المذهبي قد خلق جوا من التباغض بين التجار الشماليين والشرقيين الذين كانوا مستقرين في الصحراء، ولعل ذلك الجو هو الذي تحدث عنه البكري عند ما وصف أوضاع مدينة أودغست قبيل فتح المرابطين لها فكتب يقول: "...وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين... "[1246].

1243 **TEGDAOUST I**, op. cit, PP. 124 - 125

1244 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:65 و97.

1245 الونشريسي: المعيار، مصدر سبق ذكره، ج5، ص:116.

1246 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبه التجار في نشر الإسلام في المدن وبين التجار والارستقراطيين من الملثمين الذين كانوا يحتكون بهم أكثر من غيرهم، فإن أول قائد لحركة المرابطين انتقد أولئك التجار وقلل من شأنهم ووصفهم بالجهل، واحتج على عدم سيادة مذهب إسلامي محدد في بلاده، وذلك عندما خاطب أبا عمران الفاسي قائلا: "... مالنا علم من العلوم ولامذهب من المذاهب لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم..."[1247].

ج-المرحلة المرابطية:

ليست الحركة المرابطية التي أدت نتائجها في نهاية المطاف إلى قيام دولة كبرى ظل أمراؤها يظهرون أنفسهم على أنهم حملة وحماة الإسلام الصحيح، إلا نتاجا للدور الذي قام به قادة الحملات العربية ابتداء منذ النصف الثاني من القرن7م، بالإضافة إلى دور الدول المغربية ذات الصلات بصحراء الملثمين، وكذلك مابذله التجار المسلمون من جهود من أجل ترسيخ الاسلام في تلك المنطقة، غير أن لقيام دولة المرابطين أسبابا عديدة ومتداخلة، كما سبق أن تعرضنا لذلك، ويعتبر العامل الديني من بين أهم تلك الأسباب، فالبوادر الأولى لقيام دولة المرابطين كانت في معظمها تهدف إلى تعميق وتصحيح المسار الديني في المنطقة، بدءا بسلف يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي وصف بأنه "من أهل الفضل والحج والجهاد والدين"، وكان قد قتل بعد ثلاث سنوات من إعلانه الجهاد بشكل متواصل لنشر الإسلام بين سكان الصحراء، أما المنعطف الثاني في حركة انتشار الإسلام في الصحراء ضمن هذه المرحلة فيتمثل في حجة يحيى بن إبراهيم وتردده على مجالس العلم وتعطشه للحصول على معلم يرافقه إلى الصحراء يفقه قومه ويساعد في الرفع من مستوى معرفتهم للدين الإسلامي، ليرقوا إلى ماسمعه هو وشاهده لدى المجتمعات الإسلامية التي تعرف عليها أثناء حجته، خاصة في بلاد المغرب.

ومن الواضح من خلال المصادر العربية الوسيطة أن البعد الديني للحركة المرابطية، تغذى على جهود علماء المالكية في بلاد إفريقية والمغرب الأقصى، وذلك في إطار سعيهم إلى كسب الصراع المذهبي الذي كانوا طرفا فيه ضد الإسماعلية من جهة، والخوارج الأباضيين والصفريين من جهة أخرى، حيث كان أولئك العلماء يطمحون إلى تكوين قوة سياسية كبرى في منطقة المغرب الإسلامي يكون بمقدورها فرض الإسلام السني، خاصة أن اعتناق بعض قبائل الصحراء للإسلام على يد الفاتحين الأوائل لم يكن سوى اعتراف بقبولها التبعية السياسية للخلافة، في الوقت الذي ظلت فيه الثقافة الدينية لديها ضحلة، مما شجع دعاة الفرق الإسلامية غير السنية على العمل بين صفوفهم ونشر أفكارها ومعتقداتها بينهم، خاصة بعد استقرار جاليات هامة من التجار القادمين من شمال إفريقيا من ذوي المذاهب المختلفة في المراكز الحضرية بصحراء الملثمين.

ويضاف إلى ذلك أن ابتعاد رحل الملثمين عن سكنى المدن الكبرى التي عادة مايستقر بها الفقهاء والعلماء، وقد أدى توغل معظمهم في الصحاري إلى تناقص البعد المعرفي لإسلامهم السطحي أصلا حتى لم تبق منه إلا مظاهر شكلية[1248]، فى حين سيطرت المذاهب "البدعية"، خاصة الخوارج الاباضيون، على المدن القليلة بصحراء الملثمين نتيجة لحيوية دورهم التجاري

[1247] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:7.

[1248] عبد الله العروي: مرجع سبق ذكره، ج2، ص:111.

في المنطقة ابتداء من أواخر القرن4هـ/10م، حتي منتصف القرن5هـ/11م، وكانوا في معظمهم من زناتة، الاعداء التقليديين لصنهاجة، وتمكنوا في النهاية من بسط نفوذهم على عاصمة الملثمين، أودغست، وطردوهم منها عن طريق تحالفهم مع غانة[1249]، مما أدى إلى امتعاض صنهاجة الصحراء الذين نفترض أنهم منذ ذلك الحين، بدأوا يبحثون عن حليف يساعدهم على التخلص من هيمنة التحالف الزناتي - الغاني/ الخارجي- الوثني، ففى هذا الإطار يمكن أن ندرج أول حجة تحدثت عنها المصادر لزعيم سياسي صنهاجي صحراوي، ويتعلق الأمر بأبي عبد الله الموصوف بأنه "من أهل الفضل والدين والحج والجهاد"[1250].

لكن الحجة التي اعطتها المصادر اهتماما أكبر هي تلك التي قام بها خليفته يحيى بن إبراهيم الكدالي، وقد تزامنت مع بداية انتشار دعوة إسلامية سنية مضادة للدعوة الشيعية ومناهضة لها، وتعمل لتطويقها والقضاء عليها، واعتمدت تلك الحركة السنية في المشرق على الأتراك، في حين ستعتمد في المغرب على صنهاجة الصحراء.

ولم يقتصر دور تلك الحركة السنية على القضاء على الدعوة الشيعية، وإنما كل المذاهب الأخرى التي يرى أصحابها الدعوة أنها بدعية، ومن بينها المذهب الخارجي الذي كان دعاته منتشرون في الصحراء، فقد ورد على لسان يحيى بن إبراهيم الكدالي، أثناء محاورته لأبي عمران الفاسي ما يفيد بوجود دعاة لمذهب أومذاهب غير سنية في المنطقة، فعند ماوجه إليه أبو عمران السؤال قائلا: "... مايمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."، أجابه يحيى بن إبراهيم بقوله: "... لايصل إلينا إلا معلمون لاورع لهم ولا علم بالسنة عندهم... "[1251]، فسؤال أبي عمران يتضمن إشارة تدل بأنه كان على علم بأن سكان الصحراء يتعلمون الشرع على "غير وجهه الصحيح" وهو أمر قد يكون تلميحا إلى وجود مذاهب يراها الفقيه منافية للوجه الصحيح للدين، ويشجعنا جواب يحيى بن إبراهيم له على تمسكنا بهذا التفسير، وذلك عند ما لم يرد المسألة إلى جهل الدعاة المطلق للدين وإنما للسنة، بل إن الزهري تحدث بصراحة عن ذلك عند ما كتب عن المرابطين فقال: "... وبين هاتين المدينتين يسكن المرابطون، وهؤلاء القوم أسلموا حين أسلم أهل وارقلان في مدة هشام بن عبد الملك لكنهم كانوا على مذهب خرجوا به عن الشرع ثم صلح إسلامهم..."[1252].

فمن المحتمل إذن أن القيادة السياسية للملثمين قررت في ذلك الوقت اختيار المذهب المالكي ليواجه به صنهاجة الصحراء أقواما ذوي مذاهب أخرى، وانطلاقا من ذلك كان فقهاء القيروان من المالكيين الذين عانوا من محن عسيرة طيلة الحكم الفاطمي لشمال إفريقيا، بعد الانتصارات التي حققوها في النصف الأول من القرن 5هـ/11م والتي حولوا بموجبها القيروان إلى عاصمة للمذهب المالكي في المغرب الإسلامي[1253]، على استعداد لمد يد المساعدة للمستعينين بهم من "ضحايا المذاهب والنحل البدعية"، وساعدهم على ذلك كون القيروان وقتها كانت تلعب دور المركز التجاري الهام، كما كانت مركز استقطاب للحجاج المغاربة[1254]، فأثروا

1249 **TEGAOUST I**, op. cit, p. 129

1250 عبد الله العروي: مرجع سبق ذكره، ج2، ص:112.

1251 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.

1252 الزهري: مصدر سبق ذكره، ص: 126.

1253 Y. LESTIVEN, **Implantation de l'Islam en Mauritanie** (VIIe-XIIe siècle) Dact. Inédit. p. 51.

1254 بوتشيش: مرجع سبق ذكره، ص:59.

في منطقة المغرب بشكل عام، وأصبح هدف فقهاء المغرب المالكيين سواء في المغرب الأدنى أو الاقصى هو إقامة دولة سنية قوية للقضاء على المذاهب المنافية لمذهب أهل السنة.

أهم الفقهاء الذين أثروا في مسيرة الاسلام بالصحراء

ومن بين أهم الفقهاء المالكيين في شمال إفريقيا، والذين أثروا بشكل مباشر في سكان الصحراء خاصة أثناء وبعيد قيام دولة المرابطين:

1 -أبو الحسن علي بن محمد بن حلف المعافري المعروف بالقابسي:

وهو من كبار علماء المذهب المالكي في القيروان خلال النصف الثاني من القرن4هـ، حيث كان مشهورا بسعة علمه، ومن بين شيوخه في القيروان أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني[1255] وأبو العباس الأساني وأبو الحسن بن مسرور الدباغ وأبو عبد الله بن مسرور ودارس ابن اسماعيل، ثم إنه رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة 352هـ، فأخذ عن بعض مشاهير علماء الإسلام في عهده، من أمثال حمزه بن محمد الكناني وأبي الحسن القلباني وأبوزيد المروزي الخ...،

واشتهر القابسي بتضلعه وسعة معرفته في علوم الحديث والفقه والكلام، وله مؤلفات عديدة أورد منها ابن فرحون 17 عنوانا وانتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في القيروان[1256]، ويبدو أنه كان على علم بما يدور في صحراء الملثمين من معاملات وبطبيعة السلطة السياسية بها ومستوي التزام سكانها بالشريعة الإسلامية[1257]، مما يجعلنا نعتقد أنه كان يوليها اهتماما خاصا، الأمر الذي يدفعنا إلى الإفتراض بأن أباعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني قابله أثناء رحلته إلى الحج، وإن كانت المصادر المتوفرة لم تشر إلى ذلك، واقتصرت على أنه حج وتوفى بعد عودته من الحج وهو يجاهد من أجل نشر الإسلام في الصحراء في بداية القرن5هـ/11م[1258].

إلا أننا نعتقد، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، أن تلك الحجة مثلت بداية اتصال زعماء الملثمين بفقهاء المالكية في القيروان، خاصة أن هذه المدينة كانت خلال تلك الفترة مركز تجمع هام للحجاج المنطلقين من كافة انحاء المغرب الكبير[1259]، وإذا صح ذلك فإن حجة يحيى بن إبراهيم تكون مجرد خطوة ثانية في إطار استكمال وضع خطة سبق الاتفاق على خطوطها العريضة، ومما يساعد في تقبل هذه الفرضية كون خليفتي الرجلين (القابسي وابن تيفاوت)، هما اللذان وضعا خطة من هذا القبيل من أجل نشر الإسلام السني في الصحراء، وإقامة دولة كان من بين أهدافها الأساسية توحيد الغرب الإسلامي في ظل المذهب المالكي، وذلك عند ما التقى

[1255] LESTEVEN, op. cit, p. 51.

[1256] برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمري: كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - دار الكتب العلمية- بيروت.د.ت، ص: 200 و201.

[1257] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج، ص:116.

[1258] البكري مصدر سبق ذكره، ص:164 ابن ابي زرع مصدر سبق ذكره، ص:121، ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:372.

[1259] بوتشيش: مرجع سبق ذكره، ص:59.

خليفة ابن تيفاوت على الملثمين في الصحراء، يحيى بن إبراهيم الكدالي بأبي عمران الفاسي الذي أصبح كبير فقهاء المالكية في القيروان بعد وفاة شيخه القابسي هنالك سنة 403هـ/1013م[1260].

2 -أبو عمران الفاسي:

هو موسى ابو عمران بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي، نسبة إلى إحدى عشائر زناتة، ولد بفاس وبها تربى ونشأ، وكانت عائلته بها مشهورة، تعرف ببني حجاج[1261]، وقد رحل عن مدينة فاس في ظروف غامضة اختلفت المصادر حول أسبابها[1262]، واستقر في القيروان فأخذ عن شيخ المالكية فيها وقتئذ وهو أبو الحسن القابسي[1263]، ثم توجه إلى الاندلس فمكث بقرطبة حيث درس على فقهاء اندلسيين كبار من أمثال الأصيلي وأبي عثمان وعبد الوارث واحمد بن القاسم وغيرهم[1264]، ثم رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وفى طريق عودته عرج على بغداد حيث استقر ابتداء من سنة 399هـ/1009م، في مدرسة أبي بكر بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة 403هـ/1013م، "فأخذ عنه علما كثيرا"[1265]، ثم رجع إلى القيروان بعد وفاة شيخه القابسي واستقر بها، فلم يبارحها إلا لأداء فريضة الحج مرة أخرى، وحل محل أستاذه شيخا لفقهاء المالكية في القيروان بل وفى المغرب الإسلامي كله، إذ سلم له أقرانه بعلو الكعب في المعارف الإسلامية، وقد قال عنه ابن فرحون مانصه: "...كان أبو عمران من احفظ الناس وأعلمهم، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبع ويجوده مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم..."[1266].

ونقل عن القابسي قوله، بأن أي شخص لن يتجاوز أبا عمران في التقوى ومعرفة العلوم الشرعية[1267]، كما أعجب به شيوخه في المشرق حيث ذكر صاحب الديباج أن "الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول له: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب، وكان إذ ذاك بالموصل، لاجتمع علم مالك أنت تحفظه وهو ينظره"[1268]، فلا غرو إذن أن يكون لأبى عمران صيت وذكر في منطقة المغرب الإسلامي بما فيها صحراء الملثمين التي عرج أحد حجاجها إلى القيروان من للتبرك منه والانتفاع بعلمه، خاصة أن أبا عمران، -حسب بعض الروايات- أخرج من مدينة فاس بعد فترة أمضاها يناهض المظالم والبدع التي كانت شائعة في المغرب الأقصى في ظل حكم الدويلات الزناتية، فـ: "أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم وأخذهم أموال الناس بغير حق..."[1269]، وهذا لاشك سيكسبه تعاطف الملثمين أعداء زناتة التقليديين.

1260 ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:201.
1261 نفس المصدر، ص:344.
1262 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:122، بيوتات فاس الكبرى: مصدر سبق ذكره، ص:28.
1263 ابن أبي زرع: مصدرسبق ذكره، ص:122.
1264 أبن فرحون مصدر سبق ذكره، ص:344.
1265 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:122 وكذلك
Y.lesteven, op. cit, p. 53
1266 ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص: 345.
1267 Y. LESTEVEN, op. Cit, p. 53
1268 ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص: 345.
1269 بيوتات فاس الكبرى: مصدر سبق ذكره، ص:27.

لكن اللقاء الذي تذكر المصادر العربية الوسيطة أنه تم بين أبى عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم الكدالي، وأنه كان -حسبها- البادرة الأولى لوضع خطة أدت إلى قيام دولة المرابطين، لايبدو أنه تم اعتباطا[1270]، كما أن حوار الرجلين حول الإسلام في الصحراء قد يكون بدأ في مكان آخر غير القيروان، فلقد رأينا كيف أن إفريقية كانت على صلات تجارية وثقافية كثيفة بصحراء الملثمين قبل حجة يحيى بن إبراهيم، وأن سلف هذا الأخير حج هو الآخر وربما يكون قد التقى بالقابسي، وبما أنه هو الذي ولى خلفه وصهره يحيى بن إبراهيم الكدالي على قيادة الملثمين قبيل وفاته في ساحة القتال، رغم أنه لا يمت بصلة إلى البيت الملكي في صحراء الملثمين (بنو ورتنطق من لمتونة)[1271]، فهل يمكننا الافتراض بأنه أوصاه بالحج والاتصال بفقهاء المالكية في إفريقية والمشرق لاستكمال مشروع كان ابن تيفاوت قد بدأنقاشه معهم؟

وإذا كانت المصادر لاتمكننا من الإجابة على هذا التساؤل، فإن أول تصرف ليحيى بن إبراهيم بعد توليه قيادة الملثمين يحمل في طياته ما يفيد أنه كان يسعى إلى تنفيذ وصية، حيث قام مباشرة باستخلاف ابنه إبراهيم بن يحيى على قومه ورحل إلى المشرق حاجا في تاريخ اختلفت المصادر في تحديده، لكن أقربها إلى القبول رواية ابن أبى زرع، الذي ذكر أن هذه الحجة تمت سنة 427هـ/ 1037م[1272]، لأن أبا عمران الذي لقبه يحيى أجمعت المصادر المتداولة على أنه توفى في 13 رمضان سنة 430هـ/1039م[1273]، مما ينفى صحة روايات مصادر أخرى ذكرت بأن حجة يحيى بن إبراهيم ولقاءه بأبى عمران تمت سنة 440هـ/1049م[1274].

ومن المحتمل أن يحيى بن إبراهيم أمضى رفقة أبى عمران في المشرق أكثر مما نتصور من الزمن قبل أن يصلا إلى القيروان بعد عودتهما من الحج ويحمله برسالة إلى وكاك، فلقد ذكر ابن عذاري أن أبا عمران خرج لأداء فريضة الحج سنة 425هـ/1034م، وأنه توفى في القيروان سنة 430هـ/1039م بعد عودته من تلك الحجة[1275]، فهل تسمح لنا هذه المعلومات بالاعتقاد بأن أباعمران أمضى سنوات في الحجاز قبل عودته إلى القيروان وأنه التقى أثناء إقامته في الحجاز وخلال موسم الحج بيحيى بن ابراهيم الكدالي سنة 427هـ، إذ من المفترض أن زعيم الملثمين التحق بالحجاج المغاربة الذين لاشك أن أباعمران كان قائد ركبهم من القيروان إلى الحجاز، فتم بينهما التعارف هنالك ورافقه في العودة ليجدا متسعا من الوقت لوضع خطتهما بشكل محكم في القيروان؟

ومهما كانت الصيغة التي تم بها اللقاء بين أبى عمران الفاسي ويحيى ابن إبراهيم الكدالي، فإن الأول لعب دورا كبيرا ومؤثرا في رسم الخطوط العريضة للمستقبل الثقافى والسياسي لصحراء الملثمين ومعظم أجزاء المغرب الإسلامي بصفة عامة عن طريق اختياره الملثمين أداة لتنفيذ مشروع إقامة الدولة السنية المالكية في المنطقة، وتمهيدا لذلك، كان لابد لأبى

[1270] بوتشيش: مرجع سبق ذكره، ص:59.
[1271] ابن خلدون: العبر،المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:373
[1272] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:122
[1273] ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:345.
[1274] الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:19 ، البكري مصدر سبق ذكره، ص:164
[1275] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:275.

عمران من أن يوفد مع زعيم الملثمين مرشدا قادرا على تنفيذ المهمة الموكلة إليه بدقة، وربما يكون ذلك هو سبب عدم اختيار أبى عمران لأحد طلبته القيروانيين لمرافقة الزعيم الكدالي، مفضلا أن يكلف من هو أقرب إلى ديار الملثمين من فقهاء المالكية بذلك، فارسل رسالة إلى تلميذه وكاك بن زللو اللمطي الذي كان "مرابطا" على مشارف الصحراء من الشمال ليختار من بين طلبته من يرافق يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء محددا صفات الفقيه المطلوب: بقوله: "...فابعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته..."[1276].

3 -**وكاك بن زللو** :

اختلفت المصادر حول طريقة رسمها لإسم هذا الفقيه، ومكان إقامته، فقد ورد في كتاب المغرب للبكري أن اسمه هو وجاج بن زلوي، وأنه كان أثناء زيارة يحيى بن إبراهيم له يعيش في منطقة تدعى ملكوس[1277]، أما ابن أبى زرع فقد سماه واجاج بن زلو، وذكر أنه كان يعيش في نفيس بأرض المصامدة[1278]، في حين اطلق عليه ابن خلدون اسم الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي، وأضاف أنه كان يسكن سجلماسة[1279]، ويبدو أن المرحوم محمد المختار السوسي يضيف معلومات جديدة حول هذا الشيخ - ربما اعتمادا على وثائق لم نتوصل إلى التعرف عليها، بالإضافة إلى سعة اطلاعه المعروفة بتاريخ منطقة السوس الأقصى، فقال عنه إنه: "... وكاك بن وزلوان بن أبى جمعه بن محمد بن القاسم بن يعقوب بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الفضيل بن يحيى بن إدريس بن إدريس..."، وبالتالي ربطه بالنسب الشريف حيث الحق شجرة نسبه بادريس بن عبد الله، إلا أنه ينقل في نفس الوقت رواية مغايرة استقاها من الحضيكي لم يحاول تفنيدها، تؤيد ما سبق أن ذكره ابن خلدون، خاصة في ما يتعلق بنسبة الرجل إلى لمطه، وذلك في قوله: "...ومنهم وكاك بن زلوى - هكذا لا زلوان المشهور- اللمطي من أهل السوس الأقصى..."[1280].

وعلى كل حال، فإن وكاك يبدو في الكتابات العربية الوسيطة من أكبر وأشهر علماء المالكية في المغرب الأقصى، فقد وصفه أبو عمران بكونه "فقيها حاذقا تقيا ورعا..."[1281]، وأضاف بأنه أخذ عنه "علما كثيرا"، وهذا يعني أنه رحل إلى القيروان وإن لم يكن أبوعمران قد صرح بذلك، فإنه أشار إليه عند ما قال: "...لقيني وعرفت ذلك منه..."[1282]، أما السوسي فقد وصفه بأنه "قطب العارفين وإمام المتصوفين وقدوة السالكين"[1283]، ولا نعرف الكثير عن علاقة وكاك بصحراء الملثمين قبل وصول يحيى بن إبراهيم الكدالي إليه رسولا من أبى عمران الفاسي، حيث وجده مقيما في رباط للتعبد وتعليم العلم "... وله تلاميذ جمة يقرأون عليه العلم..."[1284].

[1276] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:123.
[1277] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.
[1278] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 123.
[1279] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:374.
[1280] محمد المختار السوسي: المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1963، ج11، ص:33و38.
[1281] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:123.
[1282] نفس المصدر ونفس الصفحة، البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.
[1283] محمد المختار السوسي: مرجع سبق ذكره، ص:32.
[1284] ابن أبي زرع: مصدرسبق ذكره، ص: 123.

وعلى الرغم من أن موقع إقامة وكاك كان وقتها يقع على الحدود الشمالية لصحراء الملثمين[1285]، فإنه لم يكن معروفا - فيما يبدو- لدى صنهاجيي الصحراء، إذ لو كان الأمر كذلك لما كانت هنالك حاجة إلى وساطة أبى عمران الفاسي بينه وزعيم الملثمين يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي حمله برسالة يقدمه فيها لوكاك ويعرفه عليه، ويطالبه فيها أن يوفد معه إلى بلاده من يثق في دينه وحسن تدبيره إلى الصحراء من أجل تعليم أهلها[1286].

وقد أكدت المصادر متابعة وكاك لنشاطات عبد الله بن ياسين في الصحراء، ودعمه له لنشر الإسلام السني المالكي بين سكانها، وتعميق ثقافتهم الدينية[1287]، بل إن بعض الكتاب يذكرون أن دخول المرابطين إلى المغرب الأقصى كان بتوجيه منه، حيث أفادوا أن وكاك طلب من تلميذه عبد الله بن ياسين وأتباعه من المرابطين الزحف على منطقتي درعة وتافلالت لتخليصهما مما اعتبره ظلما ممارسا من قبل حاكمها مسعود بن وانودين، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد مثلا متحدثا عن المرابطين: "...ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء سجلماسة من مغراوة وحرضهم على تغيير أمرهم..."[1288].

وتكاد معلوماتنا حول هذه الشخصية العلمية تنعدم بعد دخول المرابطين إلى جنوب المغرب الأقصى، مما يعني أن وكاك توفي قبيل أو أثناء تلك المرحلة، ويحدد البعض وفاته بسنة 445هـ[1289]، وأن قبره معلوم الآن بأكلو قرب تيزنيت، الأمر الذي يعني بالنسبة لبعض الدارسين أن المكان الذي كان يقيم به وكاك وعليه أقام رباطه لم يكن بنفيس وهو واد مشرف على مراكش، ولا بسجلماسة، وإنما في هذه المنطقة الأخيرة (اكلو) التي ما زال قبره بها معروفا[1290]، مما يجعلنا نعتقد أن عبد الله بن ياسين لم يتمكن من الاستجابة لطلب شيخه وكاك المتعلق بتغيير أمر مغراوة في تافلالت إلا بعد وفاة هذا الأخير بسنة أو عدة أشهر على الأقل.

3-عبد الله بن ياسين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك[1291] بن سير على[1292]، يعتقد بعض الكتاب أنه ينتسب إلى قبيلة كزوله[1293]، في حين تشير مصادر أخرى فقط إلى أن أمه كزولية صحراوية مثل ما ذهب إليه البكري عند ما كتب عنه يقول: "...عبد الله بن ياسين واسم أمه تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة"[1294].

1285 ابن الاحمر: مصدر سبق ذكره، ص:28

1286 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 123 ، البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165

1287 العبر مصدر سبق ذكره، ص:

1288 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:375.

1289 محمد المختار السوسي: ايليغ قديما وحديثا- طبع وتعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966، ص:7، الهامش33.

1290 نفس المرجع ونفس الصفحة.

1291 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 28. 374.

1292 حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:114.

1293 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:123و124، والحلل، ص:20، العبر، ص:374.

1294 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين يرون أن تماماناوت هي ذاتها تامانارت الواقعة في جنوب المغرب الأقصى، وأن معنى الكلمة هو "الجو الفاصل"، وذلك- حسبهم- باعتبار أنها تفصل بين منطقتين متمايزتين من حيث المناخ والظروف الطبيعية الأخرى، هما منطقتا التل في الشمال والصحراء إلى الجنوب منها[1295]، فإن باحثين آخرين يعتقدون أن عبد الله بن ياسين رجل صحراوي، ولد ونشأ في الصحراء، ومنها انتقل في ريعان شبابه للدراسة في الشمال، ثم عاد مع أحد زعماء بلاده ليحمل مسؤولية التوجيه الديني في إطار مشروع يرمي إلى إقامة دولة صنهاجة الجنوب، التي ستحمل فيما بعد اسم دولة المرابطين، بل إنهم يذهبون إلى القول بأنه كدالي النسب، وأنه من السهل جدا على النساخ والرواة تغيير النسبة من كدالي إلى كزولي[1296]، إذ كثيرا ما يقعون في أخطاء مشابهة أثناء عملية الاستنساخ، أولعدم التحري والتحقق أثناء تدوين الخبر، من ذلك مثلا ماوقع فيه بعض كتاب الفترة الوسيطة عند ما نسبوا الجوهر بن سجيم الكدالي إلى كزولة[1297]، ويرى أصحاب هذا الرأي أن تطوع عبد الله بن ياسين وتحمسه للقيام بمهمة إرشاد سكان الصحراء من دون أي تردد وصموده أمام الثورات التي نشبت ضده هنالك وكادت تؤدي بحياته[1298] كلها من بين الأمور التي تشجع على ترجيح أنه ليس سوى فقيه كدالي تحمس لإرشاد ذويه ملبيا رغبة زعيم قبيلته، أو أنه على الأقل ينتمي إلى إحدى قبائل الملثمين الأخرى، إذ المرجح أن المعيار الأول في اختيار وكاك له من بين تلامذته أجمعين خبرته بأحوال الملثمين وكثرة إطلاعه على أوضاعهم وعاداتهم فيكون هو أدراهم بطرق معالجة مشاكلهم والتعامل معهم[1299].

ولا نستبعد أن يكون رأي هذا الفريق من الباحثين أقرب إلى الصواب، لجملة من الاعتبارات بعضها أوردوه ونتفق معهم فيه، ونضيف إليها شهادات مؤلفين عاصروا الأحداث خاصة البكري الذي كان يتابع تطورات حركة المرابطين بتلهف، والذى كان دقيقا فيما كتبه خاصة حول الشخصيات الأساسية لتلك الحركة، فضلا عن معرفته الجيدة بالمسالك والمناطق في الصحراء والسودان، وبالتالي فإن عبارته "... واسم أمه تين يزامارن من أهل جزوله من قرية تسمى تيماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة..."[1300]، تحمل معاني دقيقة لعل أوضحها أن عبد الله بن ياسين صحراوي، وأن علاقته الأساسية بكزولة تقتصر على أمه لا غير، إذ لو كان والده كزوليا لأكتفى بنسبته إلى تلك المجموعة القبلية، ولما كانت هنالك حاجة إلى ذكر نسبة والدته، أما التوضيح الثاني فيتجلى في إشارة البكري المتعلقة بوالدة ابن ياسين، فمع أنها من كزوله، فإنها -حسبه- من كزوله الصحراء، خاصة طرفها الجنوبي، مما يفيد أن عبد الله ولد ونشأ هنالك، فحرص البكري على ذكر أن تيماماناوت كانت تقع في صحراء مدينة غانة، وليست صحراء مملكة غانه يجعلنا نرجح أن موقع تلك القرية لم يكن بعيدا من مدينة غانة التي كانت عاصمة الإمبراطورية السودانية المشهورة بالاسم نفسه، ولا نستبعد في هذا المجال الاحتمال الذي أورده بعض الباحثين من أن تيماماناوت كانت قريبة من مدينة أودغست باقليم

1295 ايليغ قديما وحديثا: مرجع سبق ذكره، ص.ص:2، الهامش7.

1296 حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:114.

1297 ترتيب المدارك: مصدر سبق ذكره، ص: 781، و النويري: مصدر سبق ذكره، ص:

1298 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 165 و 166، ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص ص 8- 9

1299 دندش: موجع سبق ذكره، ص: 62.

1300 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.

الحوض في موريتانيا الحالية[1301]، وإن كنا نعتقد أنها تقع إلى الشرق من ذلك قليلا أي بموازاة مدينة غانة إلى الشمال منها على طول الطريق الذي كان يربطها بدرعة[1302].

وإذا كانت المصادر لا تتحدث عن حياة عبد الله بن ياسين المبكرة، ولا تتعرض لها في الغالب إلا ابتداء من اختياره من طرف وكاك بن زلوى من أجل مرافقة يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، فإن ابن عذاري تعرض لمرحلة طلبه للعلم ورحلته إلى الاندلس للدواسة بها، من دون أن يحدد المكان الذي انطلق منه، فذكر أنه أمضى سبع سنين في الاندلس في عهد ملوك الطوائف وكان أثناء عبوره لأراضي المغرب الأقصى عائدا إلى الجنوب يقيم بين كبريات القبائل آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، خاصة في جنوب المغرب، مثلما وقع له مع مصمودة و كزولة الذين يبدو من خلال رواية ابن عذاري أن علاقته بهم لم تكن تختلف عن علاقته بالقبائل الأخرى في المغرب، وذلك في قوله: "... فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة، فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجداله ما تقدم ذكره... "[1303].

إننا نعتقد أن توقف ابن ياسين في بلاد كزولة كان لمجرد إشباع رغبته في زيادة مستواه المعرفى من العلوم الشرعية، عند ما اعترضت طريقه مدرسة وكاك، قبل أن ينهي طريقه المؤدي إلى موطنه الأصلي في الصحراء، فهل كان الأمير يحيى بن إبراهيم على علم بوجود عبد الله بن ياسين في جنوب المغرب الأقصى يتعبد ويتعلم، إذ من المعروف أن القبائل البدوية عادة ما تكون على علم بتفاصيل حياة أفرادها الذين تميزوا في أي وجه من أوجه الحياة حتى لو لم يكونوا يعيشون بين ظهرني القبيلة ويستبعد في هذه الحالة أن تكون سعة معارف ابن ياسين العلمية وسيرته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موضوع أحديث مشاهير قبيلته كلما سنحت الفرصة للكلام عن العلماء بصفة عامة وعلماء الملثمين بصفة خاصة[1304].

وعلى العموم لا خلاف في أن ابن ياسين لعب دورا هاما في نشر الإسلام بين قبائل الملثمين، إذ يمكن القول إن إسلامهم قبل وصوله إليهم داعية كان شكليا، ولا أدل على ذلك مثلا من أن زعيمهم يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي حج والتقى بمجموعة من كبار علماء الإسلام، وكانت ثقافته الدينية أوسع من توفر لأقرانه الآخرين فضلا عن عامة الناس من الملثمين، كان ذلك الزعيم بعد عودته من رحلة الحج متزوجا بتسع نسوة حرائر من دون أن يكون له علم بمخالفة ذلك لتعاليم الإسلام، فلما أشارعليه ابن ياسين بضرورة مفارقة خمس منهن "أجابه بالسمع والطاعة وفارقهن ثم قال له إن جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالي فانذرهم وعرفهم حكم الله، فخرج الفقيه عبد الله بن ياسين ويحيى معه وجمع الرؤساء فقال لهم بلغني أنكم تتزوجون بما شئتم من النساء حتى أن الشخص منكم يجمع بين العشرة وليس هذا من السنة وإنما السنة والإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر وله سعة فيما شاء من ملك اليمين، ثم جعل يعلمهم الدين ويبين لهم شرائع السنة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر... "[1305].

ولقد أوفصح عبد الله بن ياسين نفسه بعض الممارسات البعيدة عن تعاليم الإسلام، كانت سائدة في مجتمع الملثمين قبيل تأثير دعوة المرابطين فيه، وذلك من خلال رسالة وجهها

[1301] حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:114. ودندش: مرجع سبق ذكره، ص:62.
[1302] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165
[1303] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:10.
[1304] دندش: مرجع سبق ذكره، ص: 63.
[1305] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:124.

إلى شيخه وكاك اعتذر له فيها عما سمع عنه من قساوة الأحكام التي كان يصدرها في حقهم، وذلك في قوله: "... أما إنكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالي، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية يخرج أحدهم ابنه وإبنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى، فتأتي المرأة حاملا من أخيها ولا ينكرون ذلك، وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض لا دية عندهم في الدماء ولاحرمة عندهم للحريم ولا توقى بينهم في الأموال"[1306]، ويجمل بعض الكتاب طبيعة إسلام الملثمين عند قدوم عبد الله بن ياسين إليهم مع يحيى بن إبراهيم فيقول: "... ومع ذلك، فإنه وجد أكثرهم لايصلون ولا يزكون وليس عندهم من الإسلام إلا الشهادة وغلب عليهم الجهل"[1307].

ويمكننا التعرف على طريقة عبد الله بن ياسين في تعليم سكان الصحراء أمور دينهم من خلال ما جاء في بعض المصادر، حيث كان يتوجه إلى العامة بدروس مبسطة من الوعظ والإرشاد يبين بواسطتها شفويا بعض الأحكام الشرعية، بينما يجلس لتعليم العلوم الشرعية وكان مجلس درسه مخصصا للنخبة التي تسعى إلى تعميق معارفها الدينية بواسطة الدرس والتحقيق، مثل ما حدث عند ما استقر بين ظهراني قبيلة كدالة حيث "اجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصا ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم..."[1308]، ومن بين ما كان ابن ياسين يدرسه لهم القرآن والحديث، وتفقهت على يده جماعة منهم[1309].

ولم يتوقف برنامج عبد الله بن ياسين المتعلق بتكوين فقهاء صحراويين بسبب ماحدث له مع كدالة، بل إنه انتهز إقبال المخلصين لدعوته على الرباط الذي انزوى فيه، فأخذ يعلمهم إذ "لم تمر عليهم أيام حتى اجتمع عليه من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته وأخذ هو يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبا... ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة..."[1310].

ولعل أهم ما تميزت به مدرسة الرباط هي الشروط الصعبة والامتحان العسير الذي كان ابن ياسين يخضع له المترشحين لها، بحيث كانت تقام على الراغب في الانضمام إلى المرابطين حدود المخالفات التي ارتكبها في حياته قبل توبته لتطهيره من الرجس، فمن قبل ذلك بشكل عفوي يعتبر من الأشخاص المثاليين الذين يحظون بقرب الفقيه، ومن رفض أو تردد يرفض قبوله في جملة المرابطين.

ويرى بعض الباحثين أن أخذ ابن ياسين بهذه المعايير الصارمة في اختيار طلبته، يعتبر ردة فعل على فشل سياسة المهادنة والمرونة التي اتبعها في الملثمين قبل مرحلة الرباط، فكان لا بد له وهو يسعى إلى إختيار مجموعة منتقاة يعتمد عليها في فرض التغيير على الرافضين الانصياع له، أن يمتحنهم لكي لا تتكرر محنته، فيقبل في مدرسته من قد يثور عليه، لذلك كان حريصا على التأكد من إخلاص التائب ورغبته في التملص من ماضيه وإيمانه بتعاليم شيخه[1311].

[1306] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 380.
[1307] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:124.
[1308] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:8.
[1309] النويري: مصدر سبق ذكره، ص:379.
[1310] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125.
[1311] حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:143.

أما وسيلة ابن ياسين في تعليم العامة، فكانت تعتمد على تخصيصه أوقاتا محددة لذلك الصنف من الناس "للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد فاستقام منهم خلق كثير وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم وصفت قلوبهم..."[1312] ، لكن عبد الله لم يركن إلى هذا الأسلوب فحسب، بل إنه استعان بقية الملثمين ممن لم يؤثر فيه أسلوب الموعظة الحسنة والإرشاد، بالمخلصين منهم لدعوته، الداخلين في رباطه، فارغمهم بحد السيف على التوبة، واتباع كتاب الله وسنة رسوله[1313].

وكان عبد الله قاسيا في العقوبات التي يلحقها بمن تغلب عليهم عنوة، إلى الحد الذي جعل أحد معاصريه يتهمه بالجهل وتجاوز حدود الشريعة الإسلامية في حقهم، من ذلك مثلا ما ورد في المصادر من أنه كان يأخذ ثلث مال من تغلب عليهم عنوة مبررا ذلك بأن مصادر الأموال في الصحراء تتمثل في غارات السلب والنهب، وأن اقتطاع ثلثها وجعله في بيت مال المسلمين يحل الثلثين الباقيين لأصحابها، ماداموا لم يعودوا يعرفون ملاكها الأصليين، ولعل ذلك هو السبب في تورعه طيلة إقامته الأولى بين الملثمين عن ما يمت بصلة إلى ممتلكاتهم خاصة في معاشه، فلقد كان "مقيما فيهم متورعا عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة وإنما كان عيشه من صيد البرية..."[1314].

وكان يعاقب الداخلين في دعوته بعد توبتهم على ما اقترفوه من ذنوب قبل ذلك "فيضرب حد الزاني مائة سوط وحد المفترى ثمانين سوطا وحد الشارب مثلها وربما زيد على ذلك، وهكذا يفعلون بمن تغلبوا عليه وأدخلوه في رباطهم، وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاهم تائبا طائعا أو تغلبوا عليه مجاهرا عاصيا"، ويضيف أصحاب تلك المصادر أنه كان يعاقب "من تخلف عن حضور الصلاة مع الجماعة بضربه عشرين سوطا، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط، ويأخذون الناس بصلاة ظهر أربعا قبل صلاة الظهر في الجماعة، وكذلك في سائر الصلوات، ويقولون إنك لابد قد فرطت في سالف عمرك فاقض ذلك.."[1315].

ويبرر أولئك الكتاب موقفهم من ابن ياسين وما وصفوه به من تعسف أثناء عقابه المتشدد وغير المقبول شرعا -حسب رأيهم- بأن ذلك التشدد أدى إلى مخالفة الناس للشرع من دون قصد تفاديا للعقوبة، من ذلك مثلا أن العوام كانوا إذا باغتهم المؤذن بالنداء للصلاة، هرعوا إلى المصليات دون وضوء، فيختلقون الأعذار ويصلون تيمما خوفا من الضرب الذي يؤدي إليه تخلفهم عن صلاة الجماعة أو ركعة منها[1316]، لكن نفس المؤلف يبرر تصرفات ابن ياسين في موضع آخر من كتابه عند ما كتب عنه يقول، "...قتل خلقا كثيرا ممن استوجب القتل عنده بحرابة أو فسق..."[1317].

إن الذين اتهموا عبد الله بن ياسين بالغلو والتشدد نسوا أنه كان يتعامل مع مجتمع عرف الإسلام قبل ذلك الحين بأربعة قرون، واعتنقته أغلبيته وتوارثه الخلف عن السلف بشكل

[1312] النويري: مصدر سبق ذكره، ص: 380.

[1313] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125و126

[1314] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.

[1315] نفس المصدر، ص:169.

[1316] نفس المصدر، ص:170.

[1317] نفس المصدر، ص:166.

متواصل إلى عهد مقدم ابن ياسين إليه معلما ومرشدا، لكن إسلام معظمهم -كما سبق أن رأينا- كان شكليا، فاستتابهم فلم تستجب منهم إلا أقلية، فاستعان بها بعد أن أعدها للجهاد قائلا: "... اخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق عما هم عليه فخلوا سبيلهم وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ومجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله تعالى بيننا وهو خير الحاكمين...."[1318].

وبهذه الوسائل تمكن عبد الله بن ياسين معتمدا على المخلصين لدعوته من الملثمين من تحقيق الأهداف المنشودة و"...استولى على الصحراء كلها وأجابته جميع تلك القبائل ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به..."[1319]، ونعتقد أن انتماء عبد الله للمجال والمجتمع الصحراوي من أهم العوامل التي ساعدت على نحاجه في تبليغ الرسالة وإرشاد الناس، لمعرفته اللغة الصنهاجية المتداولة بين الملثمين، ومن المحتمل أنه كان يستخدمها أثناء التدريس لشرح النصوص وتبسيطها بعد أن يكتب طلبته تلك النصوص ويحفظونها باللغة العربية، إذ من المعروف أن صنهاجة الصحراء لم يكن بمقدورهم خلال تلك الفترة استيعاب النصوص الشرعية، ولا حتى تلقي الإرشاد شفويا من الدعاة بالعربية الفصحى، التي لم يتمكن يوسف بن تاشفين بعد حكمه للمغرب لمدة عقود من الزمن أن يفهم بها الرسائل الوجيزة الواردة إليه من الأندلس أومناطق أخرى، فكان لابد له من مترجم يطلعه على فحوى بريده باللغة الصنهاجية[1320]، فكيف بعامة الملثمين الذين عاشوا معظم حياتهم في فيافى الصحراء، ولم يكن البدو الذين كانوا يمثلون غالبيتهم على كبير اتصال بالتجار ولا بمراكز الثقافة العربية الإسلامية في صحرائهم.

وبصفة عامة يمكن القول بأن عبد الله بن ياسين هو الشخصية الأكثر تأثيرا بشكل مباشر في نشر الإسلام بين سكان الصحراء. وسائل كثيرةالسالفة لتوجيههم إلى مراده، منها وسيلة، مصاهرته للكثير من عشائرهم، فلقد ذكرت المصادر أنه كان مزواجا، حيث "... كان عبد الله نكاحا للنساء يتزوج في الشهر عددا ويطلقهن لا يسمع بإمرة حسناء إلا خطبها ولا يتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل..."[1321]، ونعتقد من خلال ما عرفناه عن شخصية ابن ياسين المتسمة بالزهد والورع ومجاهدة النفس، أن كثرة زواجه لا يمكن أن تفسر بأنها مجرد رغبة في اشباع الشهوات، بقدر ما هي سعى منه لربط صلات متعددة بمختلف القبائل والعشائر المؤثرة في المنطقة حتى يتمكن من استعطافها كليا أو جزئيا، أو على الأقل يتفادى عداءها المعلن له أويتمكن من التخفيف منه أسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن مظاهر زهد عبد الله بن ياسين مثلا أنه تورع خلال مدة إقامته الطويلة في الصحراء عن الاستفادة من أموال الملثمين لعدم اطمئنانه إلى شرعية أصولها لذيوع الغارات والسطو على الأموال بينهم[1322]، وقد حاول في بداية أمره أن يفرض على سكان الصحراء الإلتزام بما كان يراه قويما وأن يغرس فيهم الزهد والتواضع، عند ما أصدر أوامره إلى كدالة بعد نزوله بينهم مباشرة "... ببناء مدينة سموها ارتنني وأمرهم أن لايشف بناء بعضهم على بعض، فامتثلوا ذلك..."[1323]، ومن المعتقد أنه كان يسعى من وراء ذلك إلى القضاء على التباهي

[1318] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 125.
[1319] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:166.
[1320] لاستقصا: مصدر سبق ذكره، ج2 ،ص:36
[1321] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.
[1322] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:132
[1323] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165.

والتنافس في مظاهر الحياة الدنيا عامة والتطاول في البنيان بصفة خاصة، وإلى خلق نوع من الانسجام والتشابه على الأقل في مظاهر حياة الاغنياء والفقراء حتى يدخل الطمأنينة إلى نفوس أفراد الفئة الأخيرة، ويزيل أو يحد من الكبر والرياء في قلوب أفراد الفئة الأولى.

ويفهم من زهد عبد الله أنه كان يميل إلى التصوف، بل إن اتصاله بوكاك واستقراره معه يجعلنا نعتقد أنه أعجب بسلوك فقهاء المالكية المرتكز على البعد عن السلطان والزهد والتقشف والابتعاد ما أمكن عن الرخاء وعن الاستسلام لملذات الحياة الدنيا، فضلا عن ترغيب فقهاء المالكية الناس في التوافد على الربط والبقاء بها تقربا إلى الله[1324]، وإقبال المقيمين في تلك الربط عادة على تعلم العلم.

وقد اشتهر عبد الله بن ياسين بتضلعه في المعارف الإسلامية، خاصة ما يتصل منها بالفقه المالكي، حيث اتجه إلى الاندلس في ريعان شبابه، وأمضى بها سبع سنوات خصصها للتعلم، فأخذ عن جهابذه علماء الأندلس لذلك العهد، "... وحصل فيها علوما كثيرة ثم رجع إلى المغرب الأقصى..."[1325]، هكذا إذن تمكن من أن ينهل من المشربين الأساسيين للثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي وقتها، وهما المدرسة المالكية القيروانية عن طريق اتصاله بوكاك ، والمدرسة الاندلسية[1326].

وعلى الرغم من أن ما أوردته المصادر عن تكوينه العلمي كان مجملا، فإن البعض يؤكد أنه كان متميزا في الحديث أساسا، حيث أجاز فيه بعض كبار العلماء[1327]، وقد أثنت المصادر، حتى تلك المدونة منها في عهد الموحدين المعادين للمرابطين، على عبد الله بن ياسين، فوصفه ابن أبي زرع مثلا بقوله: "... وكان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء، من أهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة مشاركا في العلوم..."[1328]، أما النويري فقد كتب عنه يقول: "... وكان عبد الله بن ياسين فقيها عالما ورعا دينا شهما قوي النفس حازما ذا رأي وصبر وتذكير حسن..."[1329].

وقد حظي ذلك الفقيه بتقدير منقطع النظير من طرف سكان صحراء الملثمين إلى درجة أن أميرهم يحيى بن عمر اللمتوني أسلمه جسده ليؤدبه ضربا بالسوط عقابا له على دخوله في المعركة، لأن القائد حسب ابن ياسين ينبغي أن يبقى بعيدا عن مباشرة القتال بنفسه لأن موته يؤدي إلى انخفاض معنويات جنوده وانهزامهم[1330]، كما كان سكان الصحراء يحفظون له الكثير من الكرامات والخوارق[1331]، وقد وصلت درجة تقديرهم له إلى حد أنهم كانوا بعد وفاته: "لا

1324 حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:115.
1325 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره،ج4، ص:10، والحلل: مصدر سبق ذكره، ص:20.
1326 دندش: مرجع سبق ذكره، ص:63.
1327 نفس المرجع، ص:64.
1328 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:123.
1329 النويري: مصدر سبق ذكره، ص:377.
1330 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:166.
1331 نفس المصدر، ص:168و169.

تقدم طائفة منهم أحدا للصلاة إلا من صلى وراء عبد الله وإن كان فى تلك الطائفة أقرأ منه وأورع ممن لم يصل وراءه... "[1332].

وتجاوزت شهرة عبد الله وتأثيره حدود الصحراء حيث "بعث بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة المصامدة وقضاتها، واشتهر أمرهم في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب، وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله وإلى طريق مستقيم ويحكم بما أنزل الله وأنه متواضع زاهد في الدينا..."[1333].

ثم إنه استنفر جيوش الملثمين، بعد أن أخضع الصحراء، لغزو الشمال استجابة لطلب شيخه وكاك أولطلب فقهاء سجلماسة لتخليص سكان جنوب المغرب من ظلم زناتة وزعيمها مسعود بن وانودين، فنهض إلى تلك المناطق سنة445هـ، وفتحها وفتح بلاد السوس الأقصى[1334]، ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة في تادلا، فاستشهد في إحدى المعارك التي خاضها ضدهم، وتوفي يوم الأحد 24 جمادي الأولى سنة 451هـ الموافق 8يوليو1059م[1335].

ولقد حاول المرابطون بعد وفاة ابن ياسين أن يبقوا على سلطة الفقيه إلى جانب سلطة الأمير، مع أنهم في الواقع حدوا من نفوذ الأولى لصالح الثانية، فحرصوا على وجود مرشد ديني بالقرب من الأمير، فاختاروا فقيها يدعى سليمان بن عذرا خليفة له، لكنه لم يلبث أن توفى هو الآخر بعد سنة من توليته[1336]، فخلفه أخوه أبو القاسم بن عذرا[1337].

وإذا كنا لا نعرف الكثير حول شخصيتي الفقيهين السالفي الذكر، ولا مدى تأثيرهما في توجيه الحركة المرابطية، فإنه من المؤكد أنهما لم يخلفا الصدى الذي تركه ابن ياسين في المصادر أثناء مباشرته للمهمة التي اضطلعا بها من بعده.

ونشير هنا إلى أن جنوب المغرب الأقصى الذي كان خلال ذلك التاريخ تحت نفوذ المرابطين، استقطب مجموعة من الفقهاء القيروانيين، بعضهم من تلامذة أبى عمران الفاسي، من بينهم عبد العزيز التونسي الزاهد الذي استقر به المقام في أغمات وتوفى بها سنة 1086م، ومحمد بن سعيد المتوفى خلال نفس السنة بالمدينة ذاتها، والكلاعي الصفاقسي الخ...[1338].

ويبقى ابوبكر المرادي الحضرمي من الفقهاء الذين هاجروا من القيروان إلى أغمات خلال تلك الفترة، إذ هو بدون منازع معلم الصحراء ومرشدها بعد وفاة ابن ياسين بعد رحليه إليها من أغمات رفقة الأمير أبوبكر بن عمر، فاستقر هنالك حتى وفاته، وأثر بشكل ملموس في سكانها إلى درجة أن الأساطير المرتبطة بشخصه والمتداولة بين أولئك السكان حتى أيامنا هذه أكثر من تلك المتعلقة بابن ياسين.

[1332] نفس المصدر، ص:169..
[1333] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:126.
[1334] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6 ص:375.
[1335] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:132.
[1336] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:376
[1337] ترتيب المدارك: مصدر سبق ذكره، ص:780.

[1338] Lesteven, op. Cit, P. 53.

4 -الإمام الحضرمي:

هو أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي[1339]، لايعرف الكثير عن المراحل الأولى من نشأته، مما جعل بعض الباحثين يكلفون أنفسهم عناء البحث في ذلك الموضوع، مثل ماذهب إليه رضوان السيد من أنه نشأ في المشرق أو رحل إليه ودرس فيه، معتمدا في ذلك على جملة من الاعتبارات يراها كافية لتبرير فرضيته، من أهمها نسبة المرادي إلى قبيلة مراد العربية من ناحية وإلى حضرموت من ناحية أخرى، ومن المعروف أن قبيلة مراد ظلت تتخذ من حضرموت موطنا لها منذ عصور قبل ظهور الإسلام ، كما أن تخصص المرادي في بعض المعارف وانفراده بالإهتمام بها في المغرب، خاصة علم الاعتقادات الذي لم يكن وقتئذ شائعا هنالك ععكس ما كان عليه الأمر في المشرق، فضلا عن ارتباط إجازاته بسلسلة من الأشياخ المشارقة، خاصة إجازته المتعلقة بكتاب فقه اللغة للثعالبي[1340].

لكن، يمكننا الاعتقاد بأن الحضرمي مغربي وذلك استنادا إلى المصادر العربية التي تحدثت عنه، كما أن نسبته إلى مراد وحضرموت لاتنفى عنه مغربيته لأن الكثير من الأسر العربية التي استقرت في المغرب منذ بواكير الفتوحات، احتفظت بكناها وألقابها التي كانت تتمتع بها قبل هجرتها إلى المغرب، ومن بينها نسبتها إلى قبائلها ومناطقها الأصلية وتوارث الخلف تلك النسب عن السلف قرونا مثل وضعية صاحبنا المرادي الحضرمي، بل يكفى من أجل اثبات مغربيته أن الذي نسبته معظم المصادر التي تحدثت عنه إلى القيروان[1341].

أما اهتمامه بعلم الكلام، ووجود علماء مشارقة في سلسلة مشايخه خاصة في رواية كتاب فقه اللغة للتعالي، فهي مبررات غير كافية لحسم مسألة نشأته بالمشرق ولا حتى رحلته إليه، فمن المعروف أن القيروان التي نسبت المصادر المرادي إليها كانت على ارتباط وثيق بالمشرق وأن الكثيرين من شيوخها قد رحلوا إلى تلك المنطقة للحج والدراسة، ومن بينهم على سبيل المثال أبو عمران الفاسي الذي يعتقد أن صاحبنا عاصر السنوات الأخيرة من حياته على أقل تقدير، وقد رحل إلى المشرق وتتلمذ على الباقلاني وأخذ عنه علوما كثيرة يعتقد أن علم الكلام من بينها، خاصة العقيدة الاشعرية، وعلوم أصول الدين، وهي الاهتمامات ذاتها التي كانت تشغل المرادي[1342].أما الشخصيات العلمية المشرقية التي ورد ذكرها في إجازته فإنه لم يأخذ عنها مباشرة، وإنما بواسطة شيخ مغربي قيرواني هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر بن محمد التميمي القصديري[1343].

وانطلاقا من ذلك، فإن المرادي ليس سوى عالم مغربي قيرواني، نشأ ودرس في موطنه القيروان ثم قرر كغيره من علماء إفريقية الهجرة إلى والمغرب الأقصى عند ما اختلت الأوضاع الأمنية في إفريقية ولم تعد الحياة فيها مأمونة منذ سنة 449هـ/1058م، عند ما

1339 أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال: كتاب الصله في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم.، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955، ص:572

1340 رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة: مرجع سبق ذكره، ص: 10و 12.

1341 ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص: 364.

1342أبو الفضل القاضي عياض بن موسى: الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) دراسة وتحقيق د.محمد بن عبد الكريم -الدار العربية للكتاب- ليبيا، تونس 1978، ص:282.

والتادلي: مصدر سبق ذكره، ص:106، الصلة: مصدر سبق ذكره، ص:572.

1343الصلة: مصدر سبق ذكره، ص:572. والغنيه: مصدر سبق ذكره، ص:283.

خرج الأمير المغربي باديس من القيروان بعد هجوم أعراب هلال وسليم على البلاد ودخولهم القيروان وتخريبهم لها[1344].

ويبدو أن المرادي توجه مباشرة من القيروان إلى الأندلس حيث كان ينوي الاستقرار هنالك عند ما يحصل على الحظوة التي يراها مناسبة لطموحاته، فتردد على ملوك الطوائف فلم يطمئنوا إليه وساورتهم الشكوك حول أغراضه ومراميه، يقول ابن بسام أثناء حديثه عنه: "... وتقلب أبو بكر بين السهول والحزون تقلب الميل بين أطباق الجفون، وقلت دولة من دول ملوك الطوائف بالاندلس إلا وقد ابتغي إليها وسيلة وأعمل في الهجوم عليها حالا وحيلة، فتنزوي عن مكانه انزواء الخائف من الرصد وتغص باحسانه غصص العين بالرمد..."[1345].

واستعان المرادي بفقهاء الأندلس من ذوي المكانة المرموقة لدى الملوك من أجل تحقيق مبتغاه، فتقرب منهم، ومن بينهم أبو مروان بن سراج[1346]، وأبو عبد الرحمن بن ظاهر[1347]، وغيرهما، واحتفظت لنا المصادر ببعض الأشعار التي مدح بها بعض ملوك الطوائف متقربا إليهم بكتبتهم من كبار الفقهاء، مثل القصيدة التي مدح فيها ابن صمادح متوسلا إليه بقاضيه أبى الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالي[1348]، وقد ألغى المرادي عصا ترحله بين الأمراء بعد التحاقه بالمرابطين في بداية دولتهم عند ما انخرط في خدمة أبى بكر بن عمر اللمتوني في أغمات فتوجه معه إلى الصحراء ونصبه قاضيا بآزوكي عاصمة المرابطين هنالك[1349].

وعلى الرغم من تولي المرادي منصب القضاء ذي الطابع الديني، فإن اهتماماته السياسية ظلت طاغية على حياته المعرفية وإنتاجه العلمي، ومن الأمثلة على ذلك محاولته تعليم أمراء مرابطي الصحراء "رسوم الملك" والآداب المرتبطة به، فألف لهم في ذلك المجال كتابه المشهور والمتداول حتى أيامنا هذه، وهو كتاب "الإشارة إلى أدب الإمارة"[1350]، كما يبدو من خلال قطعة من رسالة حررها بأمر من أحد أمراء المرابطين موجهة إلى أحد ولاتهم أنه كان يتولى مهام الوزير إلى جانب خطة القضاء، ونصها: "... وقفنا على كتابك الذي طال فقصر، وكبر جرمه فصغر، صدرته بنون التعظيم، وسطرته بمجدك الحديث والقديم، وخاطبتنا فيه بالالفاظ الحجابية التي تخاطب بها غوغاء الرعية، ارجع أصلحك الله عن هذا الأدب وتأدب في خطابك لذوي الرتب، فقد أطعنا فيك سلطان الحكم لانتسابك إلى اسم العلم..."[1351].

وكان المرادي من علماء الإسلام الكبار، إلا أنه اشتهر بعلو كعبه في معرفة علوم أصول الدين وعلم الكلام وفقه اللغة[1352]، كما كان شاعرا مجيدا وأديبا كبيرا، وفى هذا الإطار

[1344] رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة للمرادي: سبق ذكره، ص:13.
[1345] ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص: 364.
[1346] الصلة: مصدر سبق ذكره، ص:572.
[1347] ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص: 365.
[1348] الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:94.
[1349] العباس بن ابراهيم: الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور -المطبعة الملكية- الرباط 1976، ج4، ص:12.
[1350] رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.
[1351] ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:365.
[1352] الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282.

يقول عنه ابن بسام: "...وكان أبوبكر هذا فقيها فطنا وشاعرا لسنا، ممن جمع براعة الفقهاء وبراعة الشعراء النبهاء، وتصرف تصرف المطبوعين وتكلم بألسنة المجيدين، أشعار كصفحات البدور ودواوين كانتاج البحور..."[1353] ، وقال عنه ابن بشكوال مانصه: "كان رجلا نبيها عالما بالفقه وإماما في أصول الدين، وله في ذلك تواليف حسان مفيدة، وكان مع ذلك ذاحظ وافر من البلاغة والفصاحة... له نهوض في علم الاعتقادات والأصول ومشاركة في الأدب وقرض الشعر..."[1354].

ويعتبر المرادي رائدا في مجال علم الكلام بالمغرب الأقصى، إذ قال عنه التادلي: "...وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى..."[1355]، وبصفة عامة فإنه كان عالما موسوعيا، ينطبق عليه بجدارة ما وصفه به بعض المؤلفين الذين أعطوه لقب "الإمام أبوبكر المرادي"[1356].

وإذا كانت المصادر لم تحتفظ لنا باسماء مشاهير تلامذة الإمام الحضرمي في الصحراء، والذين يفترض أنهم كانوا كثيرين نسبيا، فإنها تفيد أنه سافر إلى الأندلس بعد أن قضى ما يزيد على ثلاثين سنة بالصحراء قاضيا في آزوكي، وأخذ عنه في رحلته هذه الكثيرون من قضاة الأندلس ومشاهير علمائها، ومن أشهر من أخذوا عنه منهم، القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللخمي، الذي درس عليه أصول الدين، وأبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الانصاري المقرئ وأبو الوليد بن هشام بن أحمد بن هشام الهلالي[1357]، وأخذ عنه أبو العباس الكتاني كتاب فقه اللغة للثعالي، وغيرهم من علماء الأندلس[1358].

ويبقي أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير السرقسطي أشهر تلامذة المرادي وأكثرهم ارتباطا به، من خلال ما احتفظت لنا به المصادر، "وعنه أخذ كثيرا..."[1359]، وكان أبو الحجاج يتردد على المرادي في آزوكي بالصحراء[1360]، وبعد وفاة شيخه استقر بمراكش، وكان قد حصل منه على أجازات في معظم مؤلفاته التي ذكر منها عياض: الأرجوزة الصغرى، والكبري، وكتاب التجريد، وهي كتب في علم الاعتقاد[1361]، وكتب أخري عديدة، لكن يبدو أن مؤلفات المرادي- حسب ماهو معلوم حتى الآن- تلفت ولم يعد متداولا منها في وقتنا الراهن، سوى مختصره في السياسة المعروف تحت عنوان: "الإشارة إلى أدب الإمارة"، وكتاب آخر له في علم أصول الدين وهو محفوظ بمكتبة القرويين بفاس تحت عنوان "اختصار تنبيه الأنام"[1362]، وتوجد نسخ منه في بعض المكتبات الشخصية الكبرى بموريتانيا[1363]، واحتفظت لنا المصادر بقطع شعرية مختلفة الأغراض للمرادي، منها ماكانت له أهداف تعليمية، كالقطعة

1353 ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:364.
1354 ابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص:572.
1355 التشوف: مصدر سبق ذكره، ص:106.
1356 ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:45. وابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص:572.
1357 الغنية: مصدرسبق ذكره، الصحفات: 238،216،94.
1358 ابن بشكوال مصدر سبق ذكره، ص:572.
1359 الغنية: مصد سبق ذكره، ص:283.
1360 رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.
1361 الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282.
1362 رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.
1363 الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ض:

الشعرية التي رواها القاضي أبو الفضل عياض عن أبى الحجاج يوسف الكلبي، حيث يقول عياض متحدثا عن هذا الأخير "... انشدني رحمه الله، قال انشدني أبو بكر المرادي لنفسه في الحجة على إثبات القدر[1364].

علمي بقبح المعاصي حين أركبها   يقضي بأني محمول على القدر
كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم   أكن لأفعل أفعالا بلا قدر
وكان في عدل ربي أن يعذبني   فلم أشاركه في نفع ولا ضرر
إن شاء نعمني أو شاء عذبني   أو شاء صورني في أقبح الصور
يا رب عفوك عن ذنب قضيت به   عدلا علي فهب لي صفح مقتدر

وكان المرادي معتزا بنفسه، معتدا بها، فخورا بسعة معارفه ومآثره، قاسيا على مخالفى رأيه، ومما يحكى عنه في ذلك المجال مثلا أنه كان أثناء إقامته بأغمات في خلاف مع الشيخ أبى محمد عبد العزيز التونسي في مسائل علمية، وعند ما أراد المرادي الانصراف عن أغمات - ربما إلى الصحراء مع أبى بكر بن عمر- كتب لخصمه يقول[1365]:

قل لعبد العزيز يكثر من بعد   ي ما شاء منه قيلا وقالا
وتشجع ماغبت عنك فإنا   قد ضربنا لك الأمثالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

ومن ذلك أيضا ما رد به على الوليد بن عبد الوارث الذي كان مؤدبا بالمرية بالأندلس عند ما بلغه أنه يقول بقدم الحروف، حيث أرسل له رسالة تضمنت[1366]:

لا د ر د ر سخافة   شنعاء جاء بها الوليد
كفر تكاد له الجبا   ل على ثقالتها تميد
قل للرئيس الاحوصـ   ي ورأيه أبدا سديد
حمق المؤدب فادعى   من بينهم ما لا يجيد
مكنتموه من الكلا   م وجهله أبدا يزيد
وتركتموه مسرحا   أين السلاسل والقيود؟
أغلا الحديد بأرضكم   أم ليس يمكنه الحديد؟

كما مدح المرادي بعض ملوك الطوائف في الأندلس[1367].

ومن جملة الأشعار التي تدل على اعتزازه بنفسه الأبيات التي وجهها إلى ابن طاهر الكاتب أثناء إقامته بمرسية، فبلغه أن أحد شعرائها هجاه، فأوفد إليه المرادي شخصا كان في خدمته يدعى ابن المقدم فصفعه، فشكاه الشاعر إلى ابن طاهر، فكتب المرادي إلى هذا الأخير يقول[1368]:

1364 الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:283.
1365 ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:367.
1366 ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:366.
1367 الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:366.
1368 ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:366.

تعرضني كلب بهجو مخذل كقئ السكارى أو هراء المبرسم
فانفذت من وفى إليه سحائبا من الصفع يحدو وفدها ابن المقدم
فحامت عليه كالجراد تساقطت من الجو في أنوار روض معمم
وغنى دوي النعل في صحن رأسه ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

ومن ذلك أيضا أنه كان يرافق أحد أمراء المرابطين في سجلماسة، وكان معهما "أبو الاصبغ" وهو كاتب ذلك الأمير، فسقط "أبو الاصبغ" من فوق دابته وشج رأسه، ثم حدث أن سقط المرادي من أعلى دابته، "... فقال أبو الاصبغ هذا الفقيه أيضا قد سقط" فقال المرادي من جملة أبيات[1369]:

فشتان بين وقوعي أنا وبين وقوع أبى الأصبغ
فذاك سقوط يشج الوجوه وهذا سقوط كما ينبغي

ولاشك أن هذه النماذج الشعرية، تبرز منزلة المرادي كشاعر وأديبا كبير بقدر ما أيضا فقيه وأصولي متكلم وسياسي طموح. وليست لدينا معلومات حول الأسباب التي دعت المرادي إلى السفر إلى الأندلس سنة 487هـ/1094م، أي سنتين فقط قبل وفاته في آزوكي[1370].

ويبدو أن المرادي كان بالإضافة إلى المهام التي كلف بها من أمراء المرابطين في الصحراء، حريصا على نشر المعارف الإسلامية بين سكان تلك المنطقة، فابتكر لهم وسائل تناسب وضعهم البدوي الذي لا يساعد على انتشار الكتب بينهم واقتنائها، واختار لهم منهجا للتعليم يناسب أيضا واقع معظمهم ممن لم تكن لديهم القدرة على القراءة، أو التفرغ للدراسة بسبب مشاغل الحياة اليومية، فنظم أراجيز ومختصرات في مختلف فروع الدين لتسهيل حفظها وتداولها بين السكان[1371].

وظل المرادي منذ وصوله إلى آزوكي صحبة أبى بكر بن عمر اللمتوني قادما من المغرب[1372]، يشغل منصب القاضي في عاصمة الدولة المرابطية الصحراوية، وكان يطمح إلى أن يحتل بها مكانة عبد الله بن ياسين، وآخر أمير مرابطي شغل في عهده المرادي ذلك المنصب، هو محمد بن يحيى بن عمر، الذي توفى المرادي في أيام حكمه سنة 489هـ/1096م.

وقد خلف المرادي أولادا ذكرت المصادر من بينهم ابنه أبو الحسن على المعروف بابن المرادي الذي يبدو أنه ارتحل من الصحراء بعد وفاة والده، وسكن غرناطة، وكان من كبار العلماء بها، وله روايات عن والده أخذها عنه علماء أندلسيون من بينهم أبو خالد بن رفاعة وأبو القاسم بن سمحون وغيرهما[1373]، كما ترجم ابن فرحون لحفيده أحمد بن حسين بن عمر الحضرمي المرادي المولود بغرناطة سنة 575هـ، والذى يبدو أن اهتماماته كانت متطابقة مع

[1369] نفس المصدر، ص:367.
[1370] الصلة: مصدر سبق ذكره، ص:572.
[1371] رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص: 15.
[1372] التادلي: مصدر سبق ذكره، ص: 106.
[1373] الإعلام: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 12و13.

اهتمامات جده أبي بكر، حيث كان أحمد "... فقيها حافظا ذاكرا للنوازل بصيرا بالفتوى متقدما في علم الكلام وأصول الفقه سنيا فاضلا متين الدين"[1374].

وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبه عبد الله بن ياسين في نشر الإسلام وقيام دولة المرابطين، فإن الذاكرة الجماعية لسكان الصحراء احتفظت للمرادي بدور أكبر ونفوذ أوسع في مجتمع المنطقة خلال ذلك العصرمما حفظته لسلفه، ولاشك أن بقاء المرادي والأساطير المرتبطة به في ذاكرة المجتمع الصحراوي عبر الأجيال والقرون أمر يدل على عمق الدور الذي لعبه في تغيير عقليات ومعارف أهل تلك المنطقة، فضلا عن أنه توفي هنالك وظل ضريحه مزارا، ولأن بعض العائلات في موريتانيا الحالية ترفع نسبها إليه[1375].

وتورد الروايات المحلية أن المرادي جاء إلى آزوكي ضمن مجموعة من العلماء اصطحبهم أبوبكر بن عمر من أغمات إلى الصحراء، وبينما أختير هو لخطة القضاء واستقر في عاصمة الدولة، رافق العلماء الآخرون جيوش الفتح المرابطية وكانوا يتولون تعريف سكان المناطق المفتوحة بقوة السلاح بأمور دينهم، كما كان أولئك العلماء يساعدون السكان الذين أسلموا قبل ذلك في تعميق معارفهم[1376].

وإذا كانت المصادر العربية الوسيطة، لم تسعفنا بأسماء محددة لبعض أولئك العلماء، فإن المصادر المحلية تعطي بعض التفاصيل في هذا المجال، فقد تحدث محمد امبارك اللمتوني[1377]، مثلا عن خمسة فقهاء نسبهم إلى قريش، وذكر أنهم كانوا يرافقون جيش الفتح الذي كان يقوده أبوبكر بن عمر في الصحراء والسودان فقال:

وخمسة من قريش أركان للجيش دائما بهم يزدان
الكنتي والركاز ثم المجلسي رب فتى من نزغات النفس
والقزنبي والحضرمي الشهير العالم المتفنن النحرير

وتتحدث الروايات المحلية المتعلقة بتلك القبة عن رفيق آخر للحضرمي هو إبراهيم الأموي وتكاد تتفق على أنه اختير من قبل أبى بكر ابن عمر ليكون قاضي ومعلم مجلسه[1378]، يرافقه في حله وترحاله، لحل الإشكالات الدينية التي تطرح للأمير وغيره من المسلمين قبل عودتهم إلى آزوكي، وحسب تلك الروايات، فإن ذرية إبراهيم الأموي أخذت عنه اللقب الذي كان يطلق عليه وقتئذ وهو "قاضي المجلس"، فأصبحوا يعرفون "بالمجلس" حتى الآن[1379]، ويضيف ابن أبي مدين أن قبر إبراهيم الأموي، معلوم الموقع، وأنه يوجد ضمن مقبرة تقع غرب مدينة القوارب الموريتانية، تبعد سبعين عنها ميلا، ويضيف أن تلك المقبرة بدأ فيها الدفن سنة 454هـ، وأن بها إلى جانب ذلك الفقيه المشهور، الكثير من العلماء والصلحاء الذين عاصروه[1380].

1374 ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:45.

1375 Abdelwedoud OULD CHEIKH et Bernard SAISON: **Canadian Journal of Africa studies**, op.cit. pp. 301-317

1376 رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:14.

1377 الارجوزة: مصدر سبق ذكره، ص:

1378

1379 ابن أبي مدين: مرجع بق ذكره، ص:71، وبابه: مرجع سبق ذكره، ص:177، والخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:65.

1380 ابن أبي مدين: مرجع سبق ذكره، ص:71.

أما الفقهاء الآخرون الذين جاءوا صحبة الحضرمي وإبراهيم الأموي، فعلى الرغم من أن الروايات تتفق على وصولهم إلى الصحراء فإنها لم تحدد لهم دورا معينا، باستثناء ما احتفظت به حول شخصية مجهولة- حتى الآن- لكنها حسب تلك الروايات معاصرة لأولئك الفقهاء، ويوجد قبر تلك الشخصية غربي مدينة شنقيط على بعد ميلين منها، ويعرف بضريح "قاضي تنيكه"[1381]، فهل يتعلق الأمر هنا بأحد الرفقاء الخمسة أم بشخصية دينية أخرى؟

وبغض النظر عن مدى دقة تلك الروايات، فإنها تشير إلى قضايا أشارت إليها المصادر العربية الوسيطة، تتمثل في استعانة السلطة السياسية المرابطية في الصحراء بفقهاء من شمال إفريقيا وترغيبهم وفي الهجرة إلى بلاد الملثمين لنشر الدعوة بين أهلها، وبين سكان بلاد السودان المجاورة، لتحقيق هدف الدولة المرابطية في نشر الإسلام السني المالكي في تلك الأصقاع، ولا شك أن أعداد أولئك العلماء والمدرسين كانت أكبر بكثير مما احتفظت لنا به الروايات التي نرى أنها كانت انتقائية، حيث ركزت على أشخاص اعتبرتهم بعض القبائل والعشائر الصحراوية أجدادا لها[1382].

ونعتقد أن هجرة العلماء إلى الصحراء كانت تدخل في إطار توافدهم من إفريقية إلى المرابطين بحثا عن الأمن والجاه من ناحية، وامتثالا للواجب الديني الذي كان عليهم القيام به، وهو مساعدة دولة إسلامية شبه ناشئة وتدعيم أركانها عن طريق تحقيق أهدافها الممثلة في تعليم الناس أمور دينهم، واستكمالا لخطة علماء المالكية في المغرب الإسلامي الرامية إلى خلق ودعم سلطة سياسية سنية قادرة على تنفيذ تعليماتهم في المنطقة، والقضاء على الفرق الأخرى التي يرون أنها تروج البدع.

ولقد استمر توافد الفقهاء إلى الصحراء من الشمال الإفريقي بعد سقوط الدولة المرابطية في المغرب، وذلك عند ما بدأ الموحدون يتتبعون أنصارها من الفقهاء المالكيين، من ذلك مثلا المحنة التي تعرض لها القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بعيد انتفاضة سبته ضد الموحدين ومساندته هو لتلك الانتفاضة، مما أدى بعبد المؤمن بن على إلى استدعائه إلى مراكش بعد فتح الموحدين لمدينته، وبقي في مراكس حتى توفي في ظروف غامضة، إذ يعتقد البعض أنه مات مسموما بأمر من عبد المؤمن نفسه[1383].

وقد تعرض تلامذة عياض لنفس المضايقات التي عمت فقهاء المالكية المناصرين للمرابطين بالمغرب، حيث كفرهم الموحدون وأطلقوا عليهم اسم "المجسمين" واستحلوا دماءهم، فدخلت الصحراء خلال تلك الحقبة جماعات منهم فارة بدمائها وقناعاتها، واحتفظت لنا الروايات والتقاليد المحلية بأسماء بعض مشاهير تلك المجموعات مثل الشريف عبد المؤمن، مؤسس مدينة تيشيت والحاج عثمان أحد مؤسسي مدينة وادان، ويحيى الكامل الذي استقر في ولاته ونشر معارفه بها الخ... [1384].

[1381] الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:65

[1382] محمد امبارك اللمتوني: مصدر سبق ذكره، ابن حبت والخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:65.

[1383] عبد السلام الإدغيري: ؛موقف عياض من المرابطين والموحدين» ضمن ندوة التي الإمام مالك إمام دار الهجرة- دورة القاضي عياض- بمراكش 20-12-22 مارس 1981، مطبعة فضاله- المحمدية 1983، ج2، ص:214.

[1384] عبد الله حسن بن حميده: نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، بحث قدم لنيل الماجستير- من جامعة القاهرة، 1986، ص:23 (مرقون).

- البرامج والنصوص المتداولة في الصحراء:

إذا كان الإسلام قد انتشر في صحراء الملثمين عبر المراحل السالفة الذكر نتيجة لجهود أجيال من الفاتحين والعلماء والدعاة القادمين من شمال إفريقيا، فإنه من الطبيعي - في هذه الحالة- أن ينقل أولئك العلماء والدعاة معهم من شمال إفريقيا طرق التدريس والبرامج التي كانت سائدة هنالك فضلا عن الكتب الدينية واللغوية التي كانت تمثل المرجعية الرئيسية للثقافة العربية الإسلامية في تلك المنطقة وقتئذ، ومع أننا لا نتوفر على مصادر تحدد بشكل دقيق مجمل النصوص التي كانت تدرس، ويتداولها الفقهاء والمتعلمون في صحراء الملثمين خلال الفترة التي تهمنا، فإن هنالك بعض الإشارات العامة التي قد تساعد على فهم الإطار العام لنوعية الثقافة العربية الإسلامية التي كانت سائدة بها، قبل وأثناء وبعد قيام دولة المرابطين، من ذلك مثلا ما نقله البكري عن الوراق فيما يتعلق بأودغست خلال النصف الثاني من القرن4هـ/10م، عند ما كانت تلك المدينة تعج بجاليات زناتية وعربية كبيرة وصلتها من إفريقية بصفة عامة والقيروان بصفة خاصة، فكتب عنها يقول: "... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن.."[1385]، فهل يمكننا معرفة أسباب اقتصار البكري - وهو سني مالكي- على ذكر تدريس القرآن فقط بمساجد أوداغست؟ وهل يعني ذلك تحفظه على المعارف الإسلامية الأخرى التي قد يكون لفرق إسلامية غير سنية الدور الأكبر في الترويج لها؟، خاصة أن ذلك يفهم من الرد الذي أورده نفس المؤلف على لسان يحيى بن إبراهيم الكدالي أثناء حواره مع أبي عمران الفاسي عند ما سأله هذا الأخير عن الأسباب التي تمنعهم من تعلم الشرع على وجهه الصحيح، فأجابه قائلا: "...لايصل إلينا إلا معلمون لاورع لهم ولا علم بالسنة عندهم..."[1386].

وتتدرج معرفتنا لبرامج التعليم في صحراء الملثمين نحو التحسن ابتداء من منتصف القرن5هـ/11م، عندما وصل إليها عبد الله بن ياسين داعية ومصلحا وبدأ مباشرة التدريس بها، حيث تذكر المصادر أن سبعين شخصا تفقهوا على يده في المرحلة الأولى من دعوته، وذلك عند ما استقر بين بني كدالة في مدينة ارتنني[1387]، ولا تخرج العلوم التي درسها ابن ياسين في ارتنني عن القرآن والسنة، إذ يقول النويري في هذا الصدد: "... هذا وعبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة حتى صار حوله الفقهاء..."[1388].

ويبدو أن عبد الله واصل تدريسه لنفس المعارف بعد طرده من ارتنني، ولجوئه إلى الرباط الذي جعل منه المنطلق الجديد لدعوته، إذ عند ما حصل له به ألف رجل من التلاميذ "... أخذ هو يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك..."[1389].

ويعتقد أن ابن ياسين اتخذ في هذه المرحلة منهجا تدريجيا أثناء تدريسه للملثمين حيث كان ينتقل لهم من البسيط إلى المعقد، فاعتنى أولا بتحفيظهم نصوصا قرآنية وأحاديث نبوية، ثم إنه كان يبين لهم بعد ذلك بعض الفرائض المرتبطة بحياتهم اليومية، لينتقل بعد أن تطمئن نفوسهم إلى الإسلام، ويمتثلون لما تعلموه، إلى تفسير القرآن والحديث[1390]، فأدت جهوده تلك

[1385] البكري: مصد سبق ذكره، ص:158.
[1386] نفس المصدر، ص:165.
[1387] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:8، وكذلك البكري: مصدر سبق ذكره، ص:165
[1388] النويري: مصدر سبق ذكره، ص:379
[1389] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125.
[1390] دندش: مرجع سبق ذكره، ص:66، وحسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:144.

إلى خلق جيل من الفقهاء من بين الملثمين اشتهر معظمهم بالورع والتقى[1391]، وحفظ الملثمون في الصحراء الكثير من الفتاوي الفقهية الصادرة عن ابن ياسين تشمل مواضيع مختلفة[1392].

ويعتقد بعض الباحثين أن تلك الفتاوي كانت تتداول ،(الشفوي منها والمدون) بين السكان باللغة الصنهاجية، وليس بالعربية الفصحى التي لا يعتقد أولئك الباحثون أنها كانت معتمدة لدى ابن ياسين في بإصدار الفتاوى أو دروس تفسير النصوص[1393]، وهو نفس النهج الذي نعتقد أن الفقهاء الذين استعان بهم ابن ياسين لتعليم سكان الصحراء أمور دينهم اتبعوه، إذ لا يعقل أن ابن ياسين كان المعلم الوحيد في المنطقة قبل نجاح دعوته، ومما يدل على ذلك ذكر المصادر لبعض العلماء القيروانيين الذين كانوا وقتها في الصحراء، وكانوا يحضرون مجلس ابن ياسين ويناقشونه فيما كان يصدر عنه من أحكام فيمتثل لرأيهم أحيانا[1394].

ومع قدوم الجيل الثاني من معلمي الصحراء بدأت المعارف تتنوع أكثر، خاصة مع المرادي الذي كان فقيها، أصوليا، متكلما، وأديبا، له جملة من المؤلفات أخذها عنه بعض تلامذته ممن كانوا يترددون عليه للأخذ عنه في آزوكي قادمين من الأندلس وشمال إفريقيا[1395].

ويمكن التعرف على مصادر الثقافة العربية الإسلامية في صحراء الملثمين خلال الفترة المدروسة، اعتمادا على معرفتنا لما كان شائعا في المراكز العلمية الكبرى في المغرب والاندلس في ذلك العهد، خاصة ما هو مرتبط منها بشخصيات أثرت في نشر الإسلام بالصحراء عن طريق إجازاتها أو إنتاجها، ويمكننا، انطلاقا من المناهج التعليمية التي ظلت رائجة في الصحراء حتى عهد قريب، الافتراض بأن أهم النصوص التي كانت متداولة في حلقات الدرس منذ كانت هي:

فى الفقه: المدونة التي هي عبارة عن سماع ابن القاسم عن مالك بن أنس، الذي دونه عنه أسد بن الفرات، فأخذها عن هذا الأخير سحنون وصححها وأضاف إليها بعض استدراكات ابن القاسم عليها، وذلك عند ما التقى به[1396].

وقد حظيت المدونة باهتمام كبير من لدن الفقهاء المالكيين في المغرب الإسلامي، فشرحوها وأعدوها لأن تكون كتاب التدريس الأول في المنطقة، من ذلك مثلا كتاب أبى عمران الفاسي "التعاليق على المدونة"، الذي وصفه ابن فرحون بأنه "كتاب جليل"[1397]، ومن المعروف أن أبا عمران هو شيخ وكاك بن زلوي، وهو الذي طلب منه أن يوفد مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء من يفقه أهلها في أمور دينهم، لذلك نعتقد أن كتابه دخل إلى الصحراء.

[1391] حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، 158.
[1392] ترتيب المدارك: مصدر سبق ذكره، ص:781
[1393] دندش: مرجع سبق ذكره، ص:66و74.
[1394] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:170.
[1395] الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282 - 283
[1396] الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:184.
[1397] ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:345.

وعلى كل حال، فإن المدونة ظلت هي النص الفقهي الأساسي في صحراء الملثمين حتى فترة متأخرة -نسبيا- عند ما حل محلها بشكل تدريجي مختصر الشيخ خليل[1398]، وإلى جانبها كانت رسالة أبى محمد عبد الله بن أبى زيد القيرواني المتوفى سنة 386هـ/996م، متداولة، بل ومازالت كذلك حتى أيامنا هذه، ومن المعروف عن مؤلفها أنه كان من ضمن شيوخ أبى عمران الفاسي، وأنه كان يلقب "بمالك الصغير"[1399].

أما في الحديث، فإنه من الطبيعي أن يكون موطأ مالك بن أنس من أشهر الكتب المتداولة في هذا الميدان بالصحراء خلال ذلك التاريخ، ويعتبر علي بن زياد أول من أدخله إلى المغرب حيث سمعه من مالك وحمل معه نسخة منه إلى القيروان[1400]، كما جلبه الفارس بن قيس إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل[1401]، ومن المعروف أن ابن ياسين كان يدرس الحديث في الصحراء[1402]، وقد أجاز فيه بعض العلماء[1403]، كما كان أبو عمران أيضا من رجال الحديث العارفين له في القيروان[1404]، وكذلك من المعتقد أن صحيح البخاري كان هو الآخر متداولا خلال تلك الفترة بالصحراء[1405].

وإذا كان بعض الباحثين يؤكد أن المرابطين اكتفوا **في مجال العقيدة**، بما كان مأثورا عن السلف الصالح، ولم يولوا اهتماما يذكر لعلم الكلام، خاصة العقيدة الاشعرية التي انتشرت في المغرب فيما بعد، بل أنهم حاربوها[1406]، فإننا نعتقد أن ذلك الرأي قد يصدق على المرحلة الأولى من قيام الدولة، وفى عهد ابن ياسين بالذات، ذلك أن العقيدة الاشعرية لم تكن غريبة تماما على المغرب الإسلامي حتى قبل قيام دولة المرابطين، فأبو عمران الفاسي درس على أبي بكر الباقلاني المؤسس الفعلى للمدرسة الاشعرية، ويرى بعض الباحثين أنه كان من بين أبرز المغاربة الذين أدخلوا العقيدة الأشعرية إلى إفريقية والمغرب وأن جماعة من تلامذته المغاربة أخذوا عنه من أمثال عتيق السوسي وأبي القاسم السيوري ومجموعة من الفاسيين وغيرهم، ولا بد أن هؤلاء ساهموا بدورهم في نقل معارفهم إلى المناطق التي استقروا بها[1407].

كذلك كان أبو الحسن القابسي من أهل علم الكلام وله مؤلف في "الاعتقادات"[1408]، كما يعتقد أن أبامحمد عبد الله بن أبى زيد القيرواني الذي يحتمل أن مؤلفات أخرى له بالإضافة إلى "الرسالة" كانت متداولة في الصحراء والمغرب، قام بدور هام لإدخال العقيدة الأشعرية إلى القيروان وعبره إلى باقي مناطق المغرب وتعرف له في هذا المجال رسالة في الدفاع عن الإمام

[1398] الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:199.

[1399] Lesteven, op. Cit, P. 54:

[1400] عبد العزيز المحدوب: الصراع المذهبي بافريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس 1985، ص:41.

[1401] الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:74و184.

[1402] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:125.

[1403] ابن بشكوال، مصدر سبق ذكره، ص: // ودندش: مرجع سبق ذكره، ص 65،

[1404] ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:345.

[1405] الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص:75.

[1406] حماه الله بن السالم: «الإطار الفكري للحركة المرابطية» أعمال الندوة الدولية حول المرابطين،نواكشوط17-15إبريل1996،قيد النشر

[1407] عبد المجيد عمر النجار: فصول في الفكر الإسلامي في المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 28-29

[1408] ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص: 200 و201.

الأشعري ردا على أحد منتقديه من المعتزلة[1409]، ومن المحتمل أنه تأثر هو الآخر بجملة من العلماء الذين أخذوا بهذه العقيدة في المغرب، ونذكر من بينهم على سبيل المثال الفقيه الأندلسي الأصيلي المعروف أنه أشعري[1410]. إن عدم تبني دولة المربطين في المغرب والأندلس رسميا للعقيدة الأشعرية لا ينفي أن الأشعرية كانت حاضرة في اعتقاد مجموعة لا بأس بها من الفقهاء المغاربة والأندلسيين.

ونعتقد أن العقيدة الأشعرية انتشرت في أرجاء صحراء الملثمين، بتشجيع من المرادي وبمباركة من الأمراء الذين كان في خدمتهم، خاصة أن له مؤلفات عديدة في العقيدة الأشعرية، وبعض تلك المؤلفات على شكل أنظام[1411] نعتقد أنها موجهة إلى سكان الصحراء لتيسير حفظهم لها، بسبب ندرة الورق بها وصعوبة المحافظة على الكتب فيها وسهولة انتشار الأنظام بين سكانها البدو المتنقلين الذين ليس لديهم وقت لمطالعة الكتب، ونرى أن تأثير مؤلفات المرادي لم يقتصر علي سكان الصحراء وإنما تجاوزهم ليشمل إخوانهم في المغرب والأندلس.

1- دور الصحراء في تدعيم المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية في شمال إفريقيا:

من البديهي أننا لانقصد من وراء هذا العنوان، القول بأن منطقة شمال إفريقيا تعرفت لأول مرة على المذهب المالكي بواسطة فقهاء صحراويين أو أن ذلك المذهب دخل إليها عن طريق الصحراء، وإنما مرادنا -أساسا- هو إبراز دور السلطة السياسية المرابطية التي انطلقت من صحراء الملثمين في فرضه على المناطق التي خضعت لها سواء في الصحراء أو في بلاد السودان أو شمال إفريقيا والأندلس.

فمن المعروف أن المذهب المالكي دخل إلى شمال إفريقيا خلال فترة مبكرة من تاريخه وأثناء حياة مالك نفسه، وذلك على يد تلامذته من تلك المنطقة، ونذكر منهم، على بن زياد الذي يعتقد أنه أول من أدخل المذهب إلى بلاد إفريقية والمغرب، وعبد الله بن فروخ الذي أخذ المذهب عن مالك، وأخذ عنه مالك بعض معارفه، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم وأسد بن الفرات وغيرهم من علماء إفريقية الأوائل[1412].

أما الأندلس التي كان أهلها على مذهب الإمام الأوزاعي، فقد دخلها هذا المذهب على يد بعض رجال من أهلها أخذوا عن مالك في المدينة، وقد عادوا إلى بلادهم في عهد عبد الرحمن الداخل، وأخذ به الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية رسميا وحمل الناس على اتباعه وأمر القضاة باعتماده في القضاء سنة 170هـ، في حين دخل المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى في عهد إدريس بن عبد الله، مع أنه لم ينتشر هنالك بشكل كبير إلا ابتداء من القرن4هـ ، على يد دراس بن إسماعيل المتوفى سنة 357هـ الذي تعتبره بعض الروايات أول من جاء بمدونة سحنون إلى تلك البلاد[1413].

[1409] عبد المجيد عمر النجار: مرجع سبق ذكره، ص23.

[1410] Lesteven, op. Cit, P. 54

[1411] الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282

[1412] عبد العزيز المجدوب: مرجع سبق ذكره، ص:40.

[1413] عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987، ص:24-26.

وعلى الرغم من ذلك، فإن منطقة المغرب والأندلس كانت حتى قبيل سيطرة المرابطين على معظم أجزائها عبارة عن ساحة تتصارع فيها النحل والمذاهب المختلفة، بل إن سكان بعض الجهات فيها ارتدوا عن الإسلام، واستولى النصارى على جهات أخرى وشردوا أهلها وأصبحوا يفرضون الجزية على المسلمين، ففي المغربين الأقصي والأوسط، ساهمت الدولتان الخارجيتان اللتان قامتا في سجلماسة وتاهرت خلال القرن2هـ، وسقطتا على يد الفاطميين في أواخر القرن3هـ، في تهيئة الظروف لانتشار المذهب الخارجية بفرعيه الأباضي والصفري بين سكان المنطقة، فضلا عما أدى إليه قيام الدولة الفاطمية في المغرب من ذيوع للتشيع بين سكانه وأخذ بعضهم به.

وقد تحدثت المصادر عن تلك الوضعية، فأشار البكري مثلا إلى وجود جماعات من الصفرية في المغرب الأقصى[1414]، كما تجاوز الاباضيون تلك الحدود لتستقر جاليات كبرى منهم في صحراء الملثمين[1415]، وتحدث ابن حوقل عن أوضاع أهل درعة والسوس الأقصى في أيامه فقال عنهم: "... ومن بالسوس ونواحي درعة شيعة..."[1416]، أما ابن أبى زرع، فقد ذكر أن وصف وضع تارودانت وضواحيها قبيل إخضاع المرابطين لهم فقال: "... وكان برودانة قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين إلى عبد الله البجلي الرافضي كان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي إلى إفريقية، فأشاع هنالك مذهبه، فورثوه بعده جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لايرون الحق إلا ما بأيديهم..."[1417].

وبالإضافة إلى توزع السكان بين المذاهب والمعتقدات المختلفة، فإن حكام الدويلات الزناتية التي تقاسمت المغرب الأقصي خلال تلك الفترة مارسوا من الظلم والجور قدرا فقدت معه الرعية الأمن ولم يعد هنالك اطمئنان على الأنفاس والأموال[1418]، "وجاروا على رعيتهم، فأخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحرمهم، فانقطعت عنهم الموارد وكثر الخوف في البلاد..."[1419].

ولم يقتصر الأمر على ضعف الوازع الديني بين السكان والحكام، ولا على ذيوع النحل والمذاهب المختلفة في المنطقة وتوزعها لأهواء الناس وإنما أدى عدم وجود سلطة سياسية مركزية قوية وقادرة على إجبار السكان على التمسك بالشريعة، إلى انتشارالعادات والأخلاق المنافية للإسلام في معظم أرجاء المغرب خلال النصف الثاني من القرن4هـ/10م[1420]، بل حدثت الردة بشكل صريح، مثل ما وقع بالنسبة لقبيلة برغواطة في منطقة تامسنا التي اتبعت منذ سنة 125هـ/743م، شخصا يدعى صالح بن طريف ادعى النبوة، واستقرت خلافته فى عقبه، وظل أتباعه يتزايدون حتى منتصف القرن 5هـ/11م عندما قضى عليهم المرابطون، ويقول

[1414] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 147و149.

[1415] نفس المصدر: ص: 158 وكذلك:

TEGDAOUST I, op. cit, P. 129

[1416] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:99.

[1417] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 129.

[1418] ابراهيم حركات: مرجع سبق ذكره، ج1، ص:157.

[1419] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:113.

[1420] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91.

عنهم ابن أبى زرع: "... قبائل برغواطة المجوس أهل ضلال وكفر... اجتمعوا إلى صالح بن طريف القائم بتامسنا حين ادعى النبوءة في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان..."[1421].

وكادت حرب الإسترداد المسيحية في الأندلس تقضي على الوجود العربي الإسلامي هنالك بسبب ضعف ملوك الطوائف وعدم التنسيق فيما بينهم، بل وتخاذلهم وممالأة بعضهم للنصارى ضد البعض الآخر[1422].

وبما أن الملثمين أصبحوا بعد قيام دولة المرابطين في الصحراء حريصين على اتباع ونشر المذهب المالكي، لأنهم كما قال البكري: "على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس"[1423]، فإنهم كانوا على استعداد لبذل كل ما بوسعهم من أجل نشره لأنهم اتخذوه من ذلك - حسب بعض الباحثين- غطاء أيديولوجيا لتحقيق أهدافهم السياسية[1424]، فأعلنوا الجهاد على "البدع"، واعتمدوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أداة لفرض مذهبهم في المغرب والصحراء والسودان، ومكنوا له في الأندلس[1425].

واعتمدوا على الفقهاء والعلماء المالكيين وقربوهم واشركوهم في تسيير شؤون الدولة، وحثوهم على تدريس كتب المذهب وخصصوا للطلبة مصروفات من بيت مال المسلمين، واجتذب إجلالهم للعلماء الكثير من فقهاء المذهب من مناطق مختلفة[1426] إلى المغرب، مما ساعد على خلق جو مناسب لنهضة علمية هنالك، وذلك بعد أن تم القضاء على المذاهب الأخرى بالقوة من طرف السلطة السياسية المرابطية، مثل ما فعلوه في بداية دخولهم للمغرب الأقصى بأتباع الفرقة البجلية الشيعية بتارودانت حيث "... قاتلهم الأمير أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل فيها من الروافض خلق كثير فرجع من بقي منهم إلى السنة..."[1427].

ثم إن المرابطين لما علموا بديانة برغواطة، توجهوا إليهم مباشرة ودخلوا في حروب معهم للقضاء على نحلتهم، ولم يثنهم عنهم مقتل إمامهم عبد الله بن ياسين في تلك الحروب سنة 451هـ، بل زاد ذلك من عزمهم على تنفيذ أهدافه، فقاد أبوبكر بن عمر المرابطين لقتالهم "... فاستأصل برغواطة حتى فروا بين يديه وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثخن فيهم، وتفرقت برغواطة في الصحراء، وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا ولم يبق لديانتهم الخسيسة أثر إلى اليوم..."[1428]، وسيطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع جهود المرابطين في القضاء على الديانات والمذاهب المنافية للسنة بشكل عام، وللمذهب المالكي بوجه خاص، ودورهم في تحقيق الوحدة المذهبية في الغرب الإسلامي.

1421 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:130.
1422 الحلل الموشية: مصدر سبق ذكره، ص:69و70
1423 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.
1424 مقالات في الفكر والتاريخ: مرجع سبق ذكره، ص: 69و72.
1425 حسن احمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص: 207 و 325 و331.
1426 ندوة الإمام مالك: مرجع سبق ذكره، ص: 234.
1427 أبن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:129.
1428 أبن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:129.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه من المعتقد أن العقيدة الأشعرية لم تنتشر في المغرب الأقصى بشكل كبير قبل أواخر القرن 5هـ/11م عن طريق أباي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي الذي هو "... أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى، فلما توجه أبوبكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء بآزوكي... فخلفه أبو الحجاج في علم الاعتقادات..."[1429].

ويبدو أن جهود المرادي لنشر العقيدة الأشعرية أثناء إقامته بأغمات لم تعط نتائج كبيرة، حيث تصدى له معظم الفقهاء هنالك، كالخلاف الذي شب بينه وعبد العزيز التونسي وهو أحد القيروانيين الذين استقروا بأغمات خلال نفس الفترة التي كان المرادي يقيم أثناءها في تلك المدينة[1430]. ويعتقد بعض الباحثين أن صمت المصادر المغربية والأندلسية عن المرادي وعدم تعرضها للحديث عنه إلا عرضا، عائد إلى نفور فقهاء المالكية بتلك من علم الكلام[1431].

وانطلاقا من ذلك، فإننا نعتقد أن أبا الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير هو الذي نشر مؤلفات شيخه المرادي في العقيدة بالمغرب، وقد أكدت المصادر أنه أخذ عنه علم الكلام وكان يتردد عليه في آزوكي بالصحراء[1432]، إذ من المعروف أن أبا الحجاج استقر بمراكش بعد وفاة المرادي، وأخذ عنه فيها القاضي عياض مؤلفات الحضرمي في علوم الاعتقادات، كأرجوزتيه: الصغرى والكبرى وكتابه المسمى التجريد وأجازه جميع تآليفه الأخرى التي لم نحظ بمعرفة عناوينها والميادين التي تتعرض لها[1433]، ومن المحتمل أن فقهاء آخرين حذوا حذو عياض فأخذوا عن الكلبي تلك المعارف، إذ كان هذا الأخير "من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل السنة"[1434]، ولما توفى المرادي "خلفه أبو الحجاج في علوم الاعتقادات..."[1435].

ثم إن عياض الذي يعتبر من أبرز مناصري دولة المرابطين في الشمال أصبح حصوله على كتب المرادي يروج للعقيدة الأشعرية ويدافع عنها مثل قوله في الرد عن الإمام الأشعري: "... ومن رأى أنه كان ابتداء أمره معتزليا ثم رجع إلى هذا المذهب، فهذا لاينقصه، فقد كان من هو أفضل منه أولا كافرا ثم أسلم، بل هذا أدل على ثبات قدمه وصحة يقينه في التزام السنة، إذ لم يلتزمها لأنه نشأ عليها واعتقدها تقليدا إلا بما نور الله قلبه وأيده بروحه"[1436].

وقد ساهم فقهاء كبار من الملثمين في نشر مذهبهم الفقهي والعقدي[1437]، وتجاوز نشاط بعضهم المغرب الإسلامي ليشمل المشرق العربي، حيث وصل أحد فقهائهم إلى بغداد سنة

1429 التشوف: مصدر سبق ذكره، ص:106.
1430 الذخيرة: مصدرسبق ذكره، ص:367.
1431 رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:13.
1432 نفس المرجع، ص:15.
1433 الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282.
1434 نفس المصدر ونفس الصحفة.
1435 التشوف: مصدر سبق ذكره، ص:106.
1436 نقلا عن عبد الله كنون: ندوة الإم مالك-دورة القاضي عياض- سبق ذكره، ص:17.
1437 ترتيب المدارك: مصدر سبق ذكره، ص:780

499هـ، وجلس في جامع قصر الخلافة للوعظ وحضر إلى مجلسه خلق كثير أثناء إقامته هنالك، و"كان يعظ الناس وهو ملثم"[1438].

وفضلا عن دور الملثمين في نشر ودعم المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية في الغرب الإسلامي، فإنهم وطدوا الإسلام في الأندلس بعد أن أوشك النصارى على استردادها، كما نجح المرابطون في إقامة سلطة سياسية قوية في المنطقة كانت علاقاتها بالدول الإسلامية المجاورة مبنية على أساس التعاضد والتكامل من أجل رفع راية الإسلام عالية.

III - العلاقات السياسية بين الصحراء وشمال إفريقيا:

كانت علاقات صحراء الملثمين مع مختلف الدول التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا خلال الفترة ما بين منتصف القرن8م، ونهاية القرن11م، تخضع لمقاييس، العصبية القبلية الحاكمة والدين والمصالح الاقتصادية، ولقد تميزت تلك الفترة بالتنافس بين صنهاجة وزناتة، في إطار سعي كل واحدة منهما إلى الهيمنة على المغرب، كما كان هنالك تنافس بين النحل والمذاهب الإسلامية المختلفة من خوارج وشيعة وسنة، وتم استغلال ذلك التنافس المذهبي من طرف الدول القائمة على أساس العصبيتين سالفتي الذكر في المنطقة، فقد كانتا تتنافسان أيضا للسيطرة على طرق القوافل وفوائد التجارة التي كانت تربط شمال إفريقيا بالسودان الغربي.

وهكذا عرفت منطقة الغرب الإسلامي ابتداء من القرن2هـ/8م اسقرارا نسبيا ولم يعد الإسلام بها مهددا، وخمدت الثورات، فانتعشت المبادلات التجارية في دواخل المنطقة وفيما بينها والمناطق الأخرى المجاورة لها، فأدت هذه العوامل إلى المساعدة على قيام دول متعددة عرفتها مختلف أرجاء منطقة المغرب الإسلامي، وكان لكل واحدة من تلك الدول مميزاتها وتطلعاتها في إطار المحددات الثلاث السالفة الذكر، ونذكر من تلك الدول: إمارة الفهريين، وإمارة الزناتيين الصفريين في سجلماسة، والزناتيين الأباضيين في تاهرت، والأدارسة في مناطق مختلفة من المغرب الأقصى، والأمويين في الأندلس، ومملكة أودغست في صحراء الملثمين...

ومع أن المصادر المتوفرة لدينا حتى الآن لم تتعرض بشكل مفصل للعلاقات السياسية بين صحراء الملثمين ودول شمال إفريقيا خلال تلك الفترة، فإن الإشارات الواردة فيها تقود إلى الاعتقاد بأن الصحراء لم تكن بمنأى عما كان يدور في شمال إفريقيا من أحداث، بل إنها كانت معنية بتلك الأحداث، إذ هي مجرد جزء من تلك المنطقة التي تشكل في النهاية وحدة حضارية وثقافية واحدة على الرغم من التمايز الشكلي والخلافات المؤقتة، وبالتالي كانت علاقاتها بالنظم السياسية التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا تتأثر بدرجة تطابق أو تناقض مواقفها ومصالحها معها.

وقد أورد ابن حامدن أن دولة الملثمين في الصحراء كانت تابعة للفهريين منذ تأسيس إمارتهم على يد عبد الرحمن بن حبيب سنة 129هـ، وظلت كذلك حتى سقوطها بعد مقتل ابنه حبيب سنة 140هـ[1439]، فهل أن تلك التبعية، إذا صحت، هي مبرر حفر عبد الرحمن بن حبيب لجملة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط تافلالت ودرعة بمدينة أودغست التي كانت

[1438] قيام دولة المرابطين: مرجع سبق ذكره، ص: 331.

[1439] المختار بن حامدن: الموسوعة، الجزء السياسي: مرجع سبق ذكره، ص:8.

عاصمة للملثمين ومقاما لملوكهم؟، وهل أن تلك التبعية تمت عقب اتصال عبد الرحمن بن حبيب نفسه بالملثمين أثناء جولاته وحروبه بالمغرب لإخضاع سكانه لولايته؟، حيث ذكرت المصادر أنه: "... دوخ المغرب كله وأذل من به من القبائل ... وداخل جميع أهل المغرب الرعب والخوف منه..."[1440].

نعتقد أن تلك التبعية، إذا كانت قد حدثت فعلا، لم تتجاوز حدود رغبة السلط السياسية الإسلامية في الصحراء تشريع سلطتها بتبعية شكلية لإمام قرشي، وأن اهتمام عبد الرحمن بن حبيب بصحراء الملثمين نبع من رغبته في الاستفادة من التجارة مع بلاد السودان، فمهد الطرق وبذل جهودا لتأمينها لتزداد حركة التجار العرب والمسلمين إلى تلك البلاد، من أجل أن تتضاعف مردودية التبادل التجاري معها، وتزود الإمارة الناشئة بما تحتاجه من الذهب من ناحية، كما أنه كان يهدف من ناحية أخرى إلى إفساح المجال أمام المسلمين بعد أن استقر وجودهم في شمال إفريقيا لنشر الإسلام في الصحراء والسودان الغربي، خاصة أن للأسرة الفهرية محاولات سابقة لتحقيق ذلك الهدف، من ذلك محاولة عقبة، وحبيب بن أبى عبيدة، الذي هو الأب المباشر لعبد الرحمن، تلك المحاولات التي نعتقد أنها أثرت في الملثمين وهيأتهم لقبول الخضوع الشكلي لسلطة حفيد عقبة وابن حبيب.

وخلال السنة ذاتها التي سقطت أثناءها إمارة الفهريين مع مقتل حبيب بن عبد الرحمن سنة 140هـ/757م، عرفت منطقة جنوب المغرب الأقصى، وتافلالت منه بالذات، قيام إمارة خارجية صفرية اتخذت من سجلماسة عاصمة لها، كما عاصر قيام تلك الإمارة نشأة إمارة خارجية أخرى هي إمارة تاهرت الرستمية الأباضية التي أسست سنة 161هـ/777م، وتشترك هاتان الإمارتان في كونهما قامتا اعتمادا على العصبية الزناتية والمذهب الخارجي، وأنهما كانتا تبسطان نفوذهما على مواقع جغرافية استراتيجية بالنسبة للتبادل التجاري بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان[1441]، لذلك كان لابد لأية سلطة سياسية تقوم في الصحراء من التعامل معهما، مهما كانت طبيعة ذلك التعامل الذي لاشك أنه كان يتم وفق معطيات الظرفية السائدة، وما كانت تسمح به الإمكانات العسكرية والاقتصادية للأطراف المتعاملة.

وإذا كانت المصادر الوسيطة قد ركزت أثناء تعرضها للعلاقات بين صحراء الملثمين وتينك الإمارتين على الجوانب التجارية، فإنها تحتوي أيضا على إشارات يمكننا من خلالها تتبع طبيعة العلاقات السياسية التي ربطت بين الطرفين خلال الفترة التي تهمنا، والتغيرات التي كانت تطرأ عليها، ويعتقد أن أهم الركائز التي أسست عليها تلك العلاقات وظلت تحكمها، هي حرص الجانبين على تنمية واستمرار العلاقات التجارية عبر الصحراء، التي يعتبر قيام تلك الدول وغيرها خلال سنوات متقاربة من القرن2هـ/8م ثمرة لها، وذلك على الرغم من عدم الانسجام فيما بين طرفي تلك العلاقات على مستوى العصبيات القبلية والمذهبية، وولائهما السياسي.

ويبدو أن الخلافات القبلية والعقدية كانت مصدر إزعاج رئيسي لتلك العلاقات التي كان من الأفضل أن تكون علاقات تكامل وتعاون بين سلط ومجتمعات مستفيدة من سيطرتها على مبادلات تجارية واسعة النطاق[1442]، وكان أي خلل يطرأ على تلك التجارة في إحدى المناطق

[1440] ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:61.

[1441] الجنحاني حبيب: المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص: 100 وما بعدها.

[1442] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:99

التابعة لأحدى تلك الدول يؤثر سلبا وبشكل مباشر على الحياة الاقتصادية للاطراف الأخرى، ومع ذلك فإن رغبة بعض تلك الدول في بسط نفوذها على معظم المناطق الاستراتيجية بالنسبة لتلك المبادلات والهيمنة عليها ونشر إيديولوجيتها (المذهب) بين سكانها، قد أثرت على صفو تلك العلاقات بين صحراء الملثمين والدول الخارجية، وقد حدث ذلك مثلا مع إمارة سجلماسة الصفرية في عهد أميرها أبو المنتصر اليسع بن أبى القاسم (174هـ/791م)، الذي وسع نفوذ إمارته جنوبا ولامس المناطق التي كانت تدخل في إطار المجال الجغرافى للملثمين "... وكان جبارا عنيدا فظا غليظا، فظفر بمن عانده من البربر وذللهم وأخذ خمس معادن درعه، وأظهر الصفرية..."[1443]، كما "دوخ بلاد الصحراء"[1444].

أما تاهرت فإن علاقات الصحراء بها لم تكن مباشرة، إذ كانت إمارة سجلماسة هي حلقة الوصل بينهما، لكن مما يدل على أهمية صلات الصحراء بالرستميين وجود جاليات كبيرة من رعاياهم بها منذ القرن8م، وربما تكون حاجة الرستميين في الإبقاء على تلك الصلات واستمرارها مع الصحراء، هي التي جعلتهم يحرصون على أن تكون علاقاتهم بسجلماسة ودية، وتجلى ذلك في زواج أبى المنتصر بن أبى القاسم من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم[1445].

وكانت علاقات صحراء الملثمين بالأدارسة مبنية أساسا على تقديرهم لآل البيت، إذ من المعروف أن صنهاجة كانت تؤثر أهل البيت على من سواهم من قريش[1446]، لذا كان اتصال زعماء الملثمين بالأدارسة مبكرا، إذ تفيد بعض المصادر أن الملثمين عند ما علموا بقدوم إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وإقامته لإمارة به "... قدم عليه وفدهم وأسلموا إليه بلادهم..."[1447]، وإذا صحت هذه الرواية، فإنها لا تعني أن مملكة أودغست أصبحت مجرد ولاية تابعة للأدارسة، وإنما نعتقد أن عبارة "أسلموا إليه بلادهم"، تشير إلى مدى التفاهم والصلات الودية التي ربطت الملثمين بالأدارسة، سليلي البيت العلوي الشريف، وأن العلاقاتت بين الطرفين كانت مشابهة للعلاقات التي ربطت الملثمين قبل ذلك بالفهريين، والمرابطين فيما بعد بالعباسيين.

ولما تقاسم أبناء إدريس بن إدريس المغرب، حظيت المناطق المشرفة على الصحراء التي كان الملثمون يترددون عليها، باستقرار بعضهم واحفادهم من بعدهم، خاصة في مدن السوس الأقصى ودرعة، مثل مدينة تيومتين بدرعة التي كان يحكمها في بداية القرن5هـ/11م علي بن أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس، كما أسس عبد الله بن إدريس مدينة تامدلت على الحافة الشمالية للصحراء، وكانت ذات صلات تجارية نشطة بصحراء الملثمين وبلاد السودان[1448].

وانقسم سكان المغرب ما بين مؤيد للأمويين ومشايع للفاطميين، عند ما قامت دولة الفاطميين بالمغرب في أواخر القرن 3هـ، بداية القرن10م، وقضت على السلط السياسية التي

1443 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:150.
1444 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:268.
1445 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:150.
1446 ابن خلدون: المصدر السابق، ص: 311.
1447 ابن الأحمر: مصدر سبق ذكره، ص: 27. وتورد المصادر أن صنهاجة بايعت إدريس الثاني مع بقية قبائل المغرب، انظر مثلا: علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سبق ذكره، ص 16وص
1448 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 124و163.

كانت قائمة به، وضمتها إلى أملاكها، ودخلت في صراع مع الأمويين في الأندلس، ويعيد بعض كتاب العصر الوسيط توزع سكان المنطقة بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين وقتها إلى أسباب مرتبطة بموقفهم من أحداث المشرق، خاصة ما كان يدور بين بني أمية وبني هاشم، فيقول ابن خلدون في هذا الصدد ما نصه: "...ولصنهجة ولاية لعلي بن أبى طالب، كما أن لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما.."[1449].

وعلى الرغم من أننا لا ننفى أن الاختلاف المذهبي كان له دور كبير في الصراع الذي دار في منطقة الغرب الإسلامي، وتزعمه الفاطميون والأمويون في الأندلس، فإن رغبة السلط في الدولتين وأحلاف كل واحدة منهما في السيطرة على مسالك التجارة إلى بلاد السودان وعلى الموانئ المتوسطية التي كانت مواد تلك التجارة تصدر عبرها كانت واضحة، وكان أثر هذا التنافس على تطور واستمرارية ذلك الصراع كبيرا وجليا[1450]، فكان الملثمون إلى جانب معظم صنهاجة المغرب وكتامة أحلافا للفاطميين في مواجهة الأمويين بالأندلس وأحلافهم من زناتة الذين تضرروا من قيام الدولة الفاطمية عند ما ضمت أراضي إمارتي تاهرت وسجلماسة إلى إملاكها.

وتشير المصادر إلى أن الاتصال حدث بين الملثمين والفاطميين خلال فترة مبكرة من قيام الدولة الفاطمية، حيث تحدث المهلبي عن سكان مملكة أودغست، فقال: "...وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات، أسلموا على يد المهدي عبيد الله، وكانوا كفارا يعظمون الشمس..."[1451] ، وظل الفاطميون بعد استقرارهم في إفريقية، حريصون على بسط نفوذهم على الواجهة الجنوبية للمغرب الأقصى، فوجهوا الجيوش لإخضاعها، مثل الجيش الذي قاده مصالة بن حبوس سنة 309هـ/922م، فدخل سجلماسة وبسط نفوذ الفاطميين عليها وعلى المناطق المجاورة لها، وأخذ بيعة سكان تلك المناطق لعبيد الله المهدي، وكذلك الجيش الذي قاده جوهر الكاتب في عهد المعز لدين الله الفاطمي، والذي كان في معظمه من صنهاجة وكتامة، فدخل سجلماسة أيضا سنة 347هـ/959م، وغير ذلك من الحملات الفاطمية التي استهدفت منافذ التجارة إلى الصحراء والسودان[1452].

وبما أن الفاطميين تمكنوا من التحكم في المناطق الحيوية للتجارة الصحراوية، إثر سيطرة جيوشهم عليها، فإن مصلحة الملثمين الاقتصادية تتطلب منهم تدعيم العلاقات مع هذه القوة الجديدة، فضلا عن أن تلك العلاقات جزء من علاقات معظم صنهاجة المغرب مع تلك الدولة، بالإضافة إلى ماسبق أن ذكره المهلبي عن ارتباطهم بتلك الدولة منذ بداية قيامها، وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر ابتداء من سنة 362هـ عهدوا بحكم إفريقية والمغرب من بعدهم إلى بيت زيري بن مناد الصنهاجي، الذي اشتهر بموالاته للفاطميين واستعانته بهم ضد الزناتيين أثناء حروبه الطويلة معهم[1453]، فبسط صنهاجة إفريقية نفوذهم على معظم مناطق المغرب، وسقطت مدنه التجارية المحاذية للصحراء مرات عديدة بأيديهم، وظلوا متفوقين على أمويي الأندلس وحلفائهم من زناتة المغرب حتى سنة 993م.

1449 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 311.

1450 التاريخ الاقتصادي للمغرب الإسلامي: مرجع سبق ذكره، ص:159.

1451 ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ص:277.

1452 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج1، ص:185و222.

1453 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:313.

وعند ما تغيرت الموازين وأصبحت تميل لصالح الطرف الآخر للصراع، سيطر الزناتيون والخوارج على الطرق والمدن التجارية في المنطقة، فانتزع مغراوة من الملثمين مناطق ذات أهمية تجارية كبرى وشمل نفوذهم بدعم من حكام الأندلس أعالي حوض ملوية وسيطروا جنوبا على أغمات وتامدلت، كما امتد سلطانهم ليشمل مراعي درعة التي خصصوها لأنعام أسرة بني وانودين الحاكمة ابتداء من سنة 1010م، وطردوا منها الملثمين الذين كانوا يستغلون تلك المراعي وينتجعونها خلال فترة الصيف عند ما تستنفذ المواشي المراعي الشحيحة في الصحراء، وتكتسي هذه المناطق بالإضافة إلى أهميتها الرعوية أهمية تجارية أيضا، حيث كانت تنطلق منها الطرق الأساسية للمحور الغربي للتجارة الصحراوية.

وفي نفس الوقت، نجح مخطط زناتة إفريقية، الذين لم يتمكنوا من استعادة نفوذهم في المغرب الأوسط في احتلال أودغست العاصمة التجارية والسياسية لصنهاجة الصحراء، وذلك بعد تحالفهم مع غانة السودانية فطردوا الملثمين منها، وبالتالي أصبحوا يتحكمون في النهايات الجنوبية لأهم طرق المحور الغربي للتجارة الصحراوية[1454].

ويبدو أن تلك السيطرة لم تتم لزنانة إفريقية إلا بعد محاولات عديدة أشار ابن حوقل إلى واحدة منها تمت في عهد ملك أودغست تينبروتان بن استفيشر، فقال: "وحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله أن قبيلة من قبائل البربر قصدت ناحية أودغست للايقاع بآل تينبروتان في جمع كثيف وعدة قوية، وعدة عظيمة، تلتمس غرة وتهتبل فرصة عن طوائل حدثت مع بعض صنهاجة"[1455]، ويضيف ذلك الكاتب الذي عاصر تلك الأحداث وادعى أنه زار المنطقة، أن ملك الملثمين تمكن من صد ذلك الهجوم ببساطة ومن دون أن يلجأ إلى استنفار قومه للدفاع عن أنفسهم، وإنما لجأ إلى الحيلة التي نجح فيها بالقضاء على العدو[1456].

وبصفة عامة، فإن سيطرة زناتة على الطرق والمراكز التجارية الهامة، وكذلك على المراعي وحرمانهم للملثمين من كل ذلك، من بين الأمور التي ستفرض على زعماء صنهاجة الصحراء التفكير بشكل جدي في البحث عن وسيلة لإيجاد متنفس اقتصادي يساعدهم على فك الحصار الذي فرضته عليهم زناتة من الشمال والجنوب، فكان قيام حركة المرابطين في الصحراء وسيطرتها عليها وعلى مناطق كثيرة من الغرب الإسلامي ردة فعل على تلك الوضعية، حيث وجهوا جيوشهم بعد إخضاعهم للصحراء إلى الشمال، فاستولوا على درعة، ثم سجلماسة سنة 445هـ/1075م، واخضعوا الريف بعد فتحهم لطنجة وضمها إلى أعمالهم سنة 470هـ/1078م، كما وجهوا جيشا سنة 474هـ/1082م، إلى المغرب الأوسط تمكن من ضم معظم أراضيه إلى ممتلكاتهم واحتل مدينة الجزائر خلال تلك السنة، فأصبحت حدود دولتهم تلامس حدود إمارة بني حماد الصنهاجية[1457].

وكانت الظرفية التي تمت فيها الفتوحات المرابطية مؤاتية تميل لصالح الملثمين، إذ لم يكن بمقدور الأندلس التدخل لحماية حلفائها الزناتيين أو أن تقدم لهم أي مساعدة، فلقد سقطت

[1454] **TEGDAUST I**, op. cit, P. 127, s9

[1455] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:97.

[1456] نفس المصدر، ص:98.

[1457] د. رشيد بورويبه، د. موسى لقبال، د. عبد الحميد حاجيات، د. عطاء الله دهينه ود. محمد بل راد: الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني3ج،وزارة الثقلفة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. د ت. ج3، ص:291، وما بعدها.

الخلافة الأموية بها في بداية القرن5هـ، وأصبح ملوك الطوائف المتناحرون فيما بينهم المنشغلون بصراعاتهم عن سواهم، كما لم يكن المغرب مؤهلا لمواجهة المرابطين، فقد كانت الإمارات الزناتية به أشبه ما تكون بدويلات ملوك الطوائف في الأندلس[1458].

وقد لاحظ ابن ياسين تشرذم المغرب السياسي وترك في نفسه أثرا عميقا، حيث دخل الأندلس في عهد ملوك الطوائف فشاهد بنفسه أوضاعها وعايش صراع السلط الصغيرة بها فيما بينها، وبعد عودته منها إلى بلاده اخترق أراضي المغرب الأقصى من شماله إلى جنوبه، فوجد بأن الوضعية كانت أخطر، حيث كانت كل عشيرة هنالك تحكم نفسها، وكان ذلك الفقيه كلما أقام بين إحدى تلك العشائر يسأل ذوي الأمر فيها قائلا: "... هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي عليه السلام؟، فقال له بعض أشياخ المصامدة، لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم من غير قبيله، فتركهم ورحل عنهم..."[1459].

ولعل أهم العوامل التي سهلت على المرابطين الاستيلاء على الإمارات الزناتية في المغرب الواحدة تلو الأخرى، انتشار الفساد فيها وظلم أمرائها للرعية، وقد وصف أحد الكتاب وضعيتهم فقال: "... نقص ملكهم وجاروا على رعيتهم، فاخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحرمهم، فانقطعت عنهم الموارد وتبدل الرخاء بالشدة والأمن بالخوف والعدل بالجور وتوالى منهم ظلم وعدوان على رعتيهم، وغلاء مفرط ... فلما فعلوا ذلك سلبهم الله ملكهم وغير نعمته لديهم، فإن الله لا يغير نعمة قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فسلط الله عليهم المرابطين، فأزالوا ملكهم وشتتوا جمعهم وقتلوهم وأخرجوهم عن بلاد المغرب بأسره..."[1460]، فكانت الرعية في بلاد المغرب إذن بحاجة إلى من يخلصها من ظلم الأمراء فانصاعت للمرابطين وتجاوبت معهم، لأنهم كانوا يرفعون شعارات العدل والدين، فهم الذين "... غيروا المنكرات واسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات..."[1461].

ونذكر أيضا بأن المرابطين ضموا الأندلس، وأصبحت جزءا من إمبراطوريتهم[1462]، ولم يبق خارج ملكهم من منطقة المغرب الإسلامي وقتها سوى المناطق الواقعة تحت نفوذ صنهاجة إفريقية، وهي مناطق كانت قد عرفت هي الأخرى فرض المذهب المالكي من أمرائها الصنهاجيين على السكان، منذ وصول المعزبن باديس إلى الحكم سنة 406هـ/ 1016م، فـ"المعز هذا، هو الذي طهر الله تعالى على يديه إفريقية من مذهب الشيعة... وحمل الناس في أيامه على مذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه وقطع ما عداه، وكانت بإفريقية مذاهب الصفرية والشيعة والأباضية والنكارية والمعتزلة، ومن مذاهب أهل السنة، الحنفية والمالكية، فلم يبق في أيامه إلا مذهب الإمام مالك..."[1463].

1458 ابن أبي زرع: مصد سبق ذكره، ص:102و119.
1459 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:10.
1460 أبن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 114.
1461 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 375.
1462د. ابراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص:380.
1463 ابن أبي دينار: مصدر سبق ذكره، ص: 103.

وإذا كانت المصادر تختلف حول التاريخ الذى أظهر فيه المعز رفضه للتشيع وأخذه بالمذهب السني المالكي، فرده بعضها إلى بداية حكمه لإفريقية[1464]، ورده البعض الآخر إلى سنة 435هـ/1044م، عند ما قطع الدعوة للفاطميين وأظهر ولاءه للعباسيين[1465]، فإننا نعتقد أن الصلات بين المجموعتين الصنهاجيتين، في إفريقية وصحراء الملثمين، كانت وراء التنسيق الذي تم بين فقهاء المالكية في القيروان وتلامذتهم في المغرب الأقصى من جهة، وزعماء الملثمين من جهة أخرى، والذي كان يرمي إلى إقامة دولة سنية مالكية في المغرب وأدى في آخر المطاف إلى قيام دولة المرابطين، ذلك أن التزامن بين تبني بني زيري للمذهب المالكي في إفريقية، ودعوة المرابطين له في الصحراء والمغرب والسودان، من بين القضايا التي لا نعتقد أنها قد حدثت بمحض الصدفة، وإلا فلماذا لم يتول فقهاء آخرون من غير القيروان تلك المهمة ويتحمسوا لها ويحرضوا عليها؟، ولماذا عرج يحيى بن إبراهيم بعد عودته من الحج على القيروان، ولم يتوجه مباشرة إلى السوس الأقصى من أجل الاستعانة بفقهائها من دون واسطة؟

هذه التساؤلات، هي التي جعلتنا نفكر في أن علاقات فقهاء القيروان وزعماء الملثمين ربطت بتوصية من المعز بن باديس، وأن يحيى بن إبراهيم ليس أول من أجرى اتصالات لهذا الغرض وإنما واصلها تنفيذا لتوصيات سلفه أبى عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني، الذي يعتبر أول زعيم للملثمين وصف بأنه من أهل الدين والسنة والحج، وتوفي وهو يقاتل من أجل نشر الإسلام والمذهب المالكي، وولى قبيل وفاته على الملثمين يحيى بن إبراهيم الكدالي على الرغم من أنه لم يكن من البيت الأميري[1466].

ولعل توقف المرابطين أثناء فتوحاتهم في المغرب عند حدود دولة بني حماد، وتقليدهم لبني زيري في اعترافهم بالخلافة العباسية وإظهارهم الولاء لها، فضلا عن مساعدتهم العسكرية لهم أثناء صراعهم مع روجر ملك صقلية، من بين الأمور التي تؤيد أن تلك الخطوات كانت منسقة بين الزعامتين الصنهاجيتين في الصحراء وإفريقية[1467]، كما أن تشابه السكة االزيرية التي ضربها المعز بن باديس بعيد إعلانه الاستقلال عن الفاطميين سنة 441هـ، وتلك التي ضربها أمير المرابطين أبوبكر بن عمر اللمتوني بسجلماسة سنة 450هـ، من حيث قياس قطر دنانيرها وأوزانها والشعارات المنقوشة عليها[1468]، وغير ذلك من المؤشرات التي تثبت وجود علاقات عميقة كانت تربط بين صنهاجة في إفريقية والصحراء خاصة منذ عهد المعز بن باديس.

وبعد إخضاع المرابطين للصحراء والمناطق الجنوبية من المغرب الأقصى، فإنهم -فيما يبدو لنا- تقاسموا الجهد لتوحيد منطقة المغرب الإسلامي تحت نفوذهم وفقا لمصلحتهم التجارية أولا في تحييد مملكة غانة في الجنوب والزناتيين في الشمال في مجال التجارة مخافة أن تهدد تلك الأطراف مستقبلا دورهم في الوساطة التجارية بين المناطق المتوسطية ومناطق استخراج الذهب في بلاد السودان، كما تستهدف هذه الخطة تقاسم الجهد لتوجيد المغرب الاسلامي سياسيا ومذهبيا لتحقيق انسجام واستقراردائمين في المطقة من جهة والقضاء على الوثنية في بلاد السودان وضمها إلى دار الاسلام من جهة أخرى.

1464 العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:28.

1465 ابن أبي دينار: مصدر سبق ذكره، ص:105.

1466 العبر: مصدر سبق ذكره،المجلد6 ص: 373 وابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121و122

1467 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:149. والاستقصا، سبق ذكره، ج2، ص:49.

1468 صالح بن قربة، مرجع سبق ذكره، ص ص. 480- 521

ولتحقيق هذه الأهداف على الأرض نعتقد أن أبابكر بن عمر اللمتوني استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وكلفه باستكمال فتحه، بينما توجه هو بنفسه جنوبا فاستقر في الصحراء واتخذ مدينة آزوكي عاصمة له ومنطلقا لجيوشه إلى بلاد السودان لنشر الإسلام فيها، ففتح مناطق شاسعة منها وقضى على حماة الوثنية بها بعد فتحه لغانة سنة 1076م.

ونشير إلى أن يوسف ظل تابعا لأمير المسلمين أبي بكر بن عمر حتى وفاته[1469] شهيدا إثر إصابته بسهم مسموم سنة 480هـ/1087م[1470]، كما ظلت صحراء الملثمين تمد يوسف وخلفاءه بالجند من بني عصبيتهم للاعتماد عليهم في معارك دولتهم وفتوحاتها في الشمال، وتواصلت هجرات جموع الملثمين إلى المغرب حتى سقوط دولة المرابطين هنالك، بل توجهت منهم جماعات بعد ذلك إلى الشمال لدعم ثورة بني غانية ضد الموحدين[1471].

وبعد وفاة أبى بكر بن عمر، هم ابنه إبراهيم أن ينازع يوسف حكم المغرب، فاتجه إلى أغمات "... في خلق كثير من إخوانه لمتونة فسمع بذلك أمير المسلمين، فبعث إليه الأمير مزدلي، فقال له: ما الذي تريد يا إبراهيم؟ قال: أطلب ملك أبى الذي غصبنا فيه عمي يوسف، قال مزدلي: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك..."[1472] ، فقبل إبراهيم عرض مزدلي وعاد بهدايا يوسف إلى الصحراء، ومنذ ذلك التاريخ تكرس انشطار الدولة المرابطية إلى دولتين إحداهما شمالية قوية كانت تهتم أساسا بتدعيم نفوذها في المغرب والأندلس، والأخرى صحراوية ركزت جهودها على مواصلة نشر الإسلام في إفريقيا الغربية.

هكذا إذن تمكن المرابطون من تحقيق الوحدة المذهبية في المغرب الإسلامي بعد أن فشلت الفرق الإسلامية المتطاحنة من خوارج وشيعة وغيرهما في الوصول إلى ذلك الهدف، كما كان لدورهم البارز في تنشيط المبادلات التجارية عبر الصحراء أثر طيب على تجديد انتشار الإسلام وتعميق معارفه في نفوس العامة بالمغرب، ونشره بين صفوف فئات واسعة من سكان غرب إفريقيا[1473].

1469 الحلل: مصدر سبق ذكره، ص:28، ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ص: 25. ومجمل تاريخ المغرب: مرجع سبق ذكره،ج2، ص: 133.

1470 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ، ص:135

1471 العبر: المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص:45.

1472 ابن عذارى: مصدر سبق ذكره،ج4، ص29

1473 محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988، ص.59، و ص.61.

الفصل الخامس: علاقات الصحراء بغرب إفريقيا

لم تكن علاقات صحراء الملثمين بإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الوسيط، وبإفريقيا الغربية منها بصفة خاصة، دون مستوى علاقاتها بشمال القارة، بل إن علاقاتها مع غرب إفريقيا كانت في بعض الأحيان أكثر استمرارية وتنوعا، وذلك نتيجة لعوامل تاريخية وجغرافية واقتصادية سنعرض لها في حينها.

وغرب جزء من الفضاء الجغرافي الذي أطلق عليه الكتاب العرب في العصر الوسيط اسم "بلاد السودان"، وهي المنطقة التي تحدها الصحراء من الشمال، والغابات الاستوائية من الجنوب، والمحيط الأطلسي من الغرب ونهر النيل شرقا[1474]، ولقد ميز كتاب تلك الفترة بين أربعة شعوب كانت في مجموعها تمثل سكان إفريقيا جنوب الصحراء خلال ذلك العصر، وهي: الزنج في شرق القارة والأحباش في شمالها الشرقي، والنوبة في الوسط، والسودان في غربيها[1475]، ثم الحقوا بكل شعب من تلك الشعوب مجاله الجغرافي، مثل بلاد الزنج وبلاد الحبشة وبلاد النوبة وبلاد السودان، وقسموا بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام هي: السودان الشرقي، ويشمل الأراضي التي تضم حوض نهر النيل وروافده، أي من حدود دولة السودان الحالية حتى جنوب الموزنبيق، ثم السودان الأوسط ويعنون به المنطقة الواقعة حول بحيرة أتشاد، وأما القسم الثالث من بلاد السودان فهو السودان الغربي، وهو المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي غربا والسودان الأوسط شرقا والصحراء شمالا والغابات الاستوائية جنوبا، وهذا الجزء من بلاد السودان، بالإضافة إلى بعض أجزاء السودان الأوسط، هو الذي يعرف اليوم تحت اسم "إفريقيا الغربية"[1476].

وتتميز منطقة غرب إفريقيا بموقعها الجغرافي بين منطقتين أقل منها قدرة على اجتذاب واستقرار أعداد هامة من السكان، هما: المنطقة الصحراوية شبه الجافة من الشمال، ومنطقة الغابات الاستوائية ذات الأمطار الغزيرة من الجنوب وهي منطقة تعتبر موطنا لذبابة اتسي-اتسي الضارة، وقد ازدهرت الزراعة في منطقة غرب إفريقيا[1477].

سكان غرب إفريقيا

استقطبت تلك المنطقة خلال الفترة الوسيطة أعدادا هامة من السكان، وكانت الكثافة السكانية بها أكثر ارتفاعا من المناطق المحيطة بها، لما كانت تحظى به من موارد وما توفره من فرص لساكنيها من أجل القيام بممارسة أنشطة اقتصادية متنوعة، وهي عوامل تساعد الإنسان على توفير مستلزمات حياته من دون كبير مشقة.

ومع أن الدارسين لا يعرفون الكثير عن مراحل تعمير منطقة غرب إفريقيا، ولا يكادون يعرفون عن شعوبها خلال الفترة التي تهمنا أكثر مما قدمته المصادر العربية الوسيطة، فإنهم استعانوا بالإضافة إلى العلوم المساعدة للتاريخ التي كثيرا ما تستغل لملء الفراغ الناتج عن

1474 Recueil des sources Arabes ، op. cit . p. 6

1475 العبر، المجلد6: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 410-412.

1476 صباح ابراهيم الشيخلي وعادل محي الدين الالوسي: مرجع سبق ذكره، ص:5 وص:50.

1477 نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر، 1975، ص:13.

غياب المصادر المكتوبة، بالروايات الشفوية الإفريقية، وميزوا بين ثلاث مجموعات بشرية كانت تتوزع منطقة إفريقيا الغربية خلال الفترة الوسيطة وهي:

1 - المجموعة النيجرية

وهي المعروفة عند بعض الكتاب باسم "الماندي" أو "الماندينغ". وكانت يعمر المنطقة الفاصلة بين الغابات الاستوائية في الجنوب والساحل الصحراوي شمالا[1478]، أي ما بين سانلوي ومونروفيا[1479]، ومن بين أهم الشعوب التي تتشكل منها تلك المجموعة، المالنكه أو الماندنكا، ويصعب الحصول على معلومات محددة حولهم، لأنهم عبارة عن أخلاط من الشعوب والقبائل السودانية التي بدأت في الامتزاج فيما بينها خلال الألف السنة الأخيرة قبل الميلاد على أقل تقدير، فانصهرت تدريجيا لتشكل ذلك الشعب الذي كان يستوطن الجزء الجنوبي من غرب إفريقيا، خاصة أعالي حوض النيجر، وهم مؤسسو مملكة مالي، ولم تتوفر حولهم معلومات ذات أهمية إلا ابتداء من القرن 12م[1480]، ومن فروع الماندينغ أيضا، شعب الصوصو الذى كان يعيش بجوار المالنكه، وكانت مواطنه إلى الشرق منهم[1481]، وكذلك الديالنكه والبمبارا والصنغاي.

وكان شعب الصنغاي يستوطن منطقة النيجر الأوسط، ويعتقد أن أسلافه وصلوا إلى السودان الغربي بعد هجرتهم من السودان الأوسط، ومن أهم عشائره، كوروميا وكولمانص، وكانتا تمارسان النشاط الزراعي، وكذلك عشيرة الدو التي كان أفرادها يمارسون الصيد النهري والسوركو، والكو الذين كانوا يمارسون الصيد البري[1482]، واختلطت بتلك العشائر مجموعات من المهاجرين الماندينغ القادمين من الغرب، فضلا عن مجموعات صنهاجية هاجرت من صحراء الملثمين خلال القرن 7م[1483] وتجاوزت منعطف نهر النيجر جنوبا لتدخل ضمن تلك العشائر وتشكل معا شعب الصنغاي[1484].

ولعل شعب السوننكه كان من أكثر شعوب هذه المجموعة أهمية وحيوية، فقد هيمن على تاريخ المنطقة خلال الفترة التي تهمنا، وكان يستوطن المنطقة الساحلية الماذية للصحراء من الجنوب، وموطنه الأصلي هو منطقة وكدو التى انتشر منها إلى المناطق المجاورة[1485]، والسوننكه أيضا هم عبارة عن خليط من شعوب الصحراء والساحل وحوض النيجر، انصهرت بمرور الزمن بعد أن اجتمعت حول نواة هذا الشعب الأصلية وهي الكنكارة[1486]، وكان السوننكه خلال الفترة التي تهمنا من أكبر وأقوى العصبيات السودانية في غرب إفريقيا.

1478 Histoire générale de l'Afrique ، t3 op.cit ، P 155.

1479 قداح نعيم: مرجع سبق ذكره، ص:18.

1480 Vallées du Niger ، op. cit ، p. 143

1481 نعيم قداح: مرجع سبق ذكره ص:19.

1482 Ibrahima Baba kaké et Elikia M'BOKOLO: Histoire générale de l'Afrique Imprimerie custerman (SA) ، Tournon (Beogique) 1979 p 43

1483 الشيخ الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، دار المجمع العلمي، جدة، 1979، ص65.

1484 Vallées du Niger ، op.cit ، p. 151.

انظر أيضا: محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الكويت، د.ت، ص.53.

1485 Histoire générale ، t3 ، op.cit ، P. 154.

1486 Vallées du Niger ، op.cit ، p. 137.

2- المجموعة السنغالية:

وهي مجموعة من الشعوب كانت تعيش في حوض نهر السنغال، ومن أهمها: الولوف الذين كان نفوذهم يشمل الحوض الأدنى للسنغال والسرير الذين كانوا يستوطنون المنطقة التي شيدت عليها داكار الحالية والمناطق المجاورة لها بالإضافة إلى أعالي نهر غامبيا، إلا أن أكثر شعوب هذه المجموعة صلة بالصحراء وأقدمها تأثرا بالإسلام هو شعب التكرور الذي كانت مواطنه تتركز أساسا في حوض نهر السنغال وأعالي النيجر، واستقبلت مواطن نفوذه شعب الفلان بعد هجرته إليها، فأخذ عن التكرور لغتهم على الرغم من أنه احتفظ بنمط حياته المتميز عن بقية الشعوب السودانية بمن فيها التكرور[1487].

3 – سكان السودان الأوسط

أما الجزء الآخر من منطقة غرب إفريقيا، وكان يعرف بالسودان الأوسط، فإن أهم المجموعات التي كانت تتقاسم النفوذ فيه هي: الهاوصا الذين كانوا يعمرون وادي النيجر الأدنى، بالإضافة إلى المجموعة التشادية التي تتكون من شعوب مختلفة ومتباينة الصفاة، ومنها مثلا شعب التوبو الذي هو نتاج امتزاج الزنوج والفلان والعرب والبربر، وكان يعيش في منطقة البرنو، فضلا عن شعب الكانوري الذي كانت منازله على الضفة اليمنى لنهر شاري وشعب واداي في المنطقة الشرقية من اتشاد[1488]، وشعب السو الذي كان موجودا في مناطق مختلفة من السودان الأوسط وتم إخضاعه خلال القرنين 7و8 للميلاد من طرف مهاجرين قادمين من حوض النيل وبرقة وفزان[1489].

وعلى الرغم من أن شعوب غرب إفريقيا، تمكنت من خلق تنظيمات سياسية عديدة، اختلف الدارسون حول تاريخ قيامها والظروف المصاحبة له، فإن من بين أشهر الممالك والإمبراطوريات التي عرفتها المنطقة خلال الفترة التي تهمنا، مملكة غانة السوننكية، فقد تمكن ملوكها ابتداء من منتصف القرن8م من إخضاع الممالك السودانية المجاورة لها، وإقامة نظام إمبراطوري كانت تلك المملكة نواته وكان شعب السوننكه هو العصبية التي قامت عليها، ودخلت تلك الإمبراطورية في علاقات منظمة ومنتظمة مع صحراء الملثمين منذ تلك الفترة.

العلاقات التجارية:

إذا كانت بداية تاريخ العلاقات التجارية بين صحراء الملثمين وشمال إفريقيا قد أثارت نقاشا بين المختصين، فإن دخول بلاد السودان بشكل منظم في تلك العلاقات يرجع إلى فترة متأخرة نسبيا، وذلك بعد ما دخل فلاحو الماندي في علاقات تجارية مع قوافل الإبل المحملة بالبضائع القادمة من الصحراء فكانوا يبادلون الملح بالذهب، وكان ذلك خلال تاريخ غير محدد بدقة، لكنه يتأرجح ما بين القرن2م والقرن5م[1490].

[1487] نعيم قداح: مرجع سبق ذكره، ص: 18 و
Histoire générale ، t3 ، op.cit ، p 151.

[1488] نعيم قداح: مرجع سبق ذكره، ص:20.

[1489] Ibrahima Baba kaké et Elikia M'BOKOLO ، op.cit ، p. 46

[1490] دونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة د. راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، د.ت.، ص.40.

وقد لعبت مجموعات من المهاجرين القادمين من شمال إفريقيا خلال تلك الفترة دورا كبيرا في إرساء دعائم تلك العلاقات وتطويرها، إلا أنها لم تتضح وترقي إلى مستوى العلاقات التجارية بين الصحراء وشمال إفريقيا إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن8م، ثم عرفت أوج ازدهارها خلال القرن10م.

ومن المعلوم أن القرن2هـ/8م تميز باستقرار الفتح في شمال إفريقيا، وبدمج تلك المنطقة نهائيا في العالم الإسلامي، مما أدى بالعرب الفاتحين الذين استقروا هنالك إلى استغلال الفراغ الناجم عن توقف المعارك ليمارسوا الأنشطة الاقتصادية، فكان من بينهم من اهتم بالتجارة واستفاد من تجارب السكان المحليين في ذلك المجال، فعبر الصحراء واستقر في مراكزها التجارية، وأغنى أولئك العرب التجارة الصحراوية بالتجارب التي اكتسبوها في الجزيرة العربية، حيث يوجد نشاط تجاري قديم كان يربط شمالها بجنوبها ويربطها بالشام ومصر وفارس.

وبما أن فتح شمال إفريقيا والأندلس ودمجهما في العالم الإسلامي، ومساهمة التجار العرب القادمين من المشرق في المبادلات التجارية عبر الصحراء الإفريقية، أمور كلها ساعدت على توسيع نطاق تلك التجارة، لتعدد الأطراف المشاركة فيها، وتزايد الرقعة الجغرافية المعنية بمبادلة موادها، فإنه بالامكان القول بأن النصف الثاني من القرن8م كان بحق فترة تحول جذري في تاريخ العلاقات التجارية بالمغرب الإسلامي، حيث انتقلت من مجرد مبادلات تجارية محدودة في منطقة جغرافية ضيقة، وذات مردودية اقتصادية ضعيفة، إلى تجارة دولية شاركت فيها معظم مناطق العالم المعروف وقتها بشكل مباشر أو غير مباشر أحيانا.

ولعل دور التجار العرب المسلمين في الرفع من مستوى العلاقات التجارية مع بلاد السودان والاستفادة منها هو ما أشار إليه ابن خلدون عند ما كتب يقول: "... ولما فتحت إفريقية المغرب دخل التجار المغرب فلم يجدوا فيه أعظم من ملوك غانية، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك..."[1491]

وهكذا إذن لم تعد العلاقات التجارية بين صحراء الملثمين وإفريقيا الغربية مقتصرة على مبادلات ثنائية بينهما، وإنما أصبح الملثمون منذ منتصف القرن8م يفرضون أنفسهم بحكم موقع بلادهم، كوسطاء تجاريين على كل من إفريقيا الشمالية والغربية، وكانت المراكز التجارية الصحراوية ترتبط بمدن وقرى بلاد السودان بواسطة شبكة كثيفة من الطرق كانت القوافل تجوبها خلال مختلف فصول السنة.

تنظيم التبادل في غرب إفريقيا:

لا يختلف تنظيم المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين الصحراء وبلاد السودان كثيرا عن الطرق التي كانت متبعة في تنظيمها بين الصحراء وشمال إفريقيا في خطوطها العريضة، وإن كان اختلاف التضاريس والمناخ والمجتمعات قد ساعد على تميز كل نطاق جغرافي عن الآخر فيما يتعلق بالأمور التفصيلية، ومن الأمور التي تأثرت بتلك الاختلافات مثلا، وسائل النقل، حيث كان الثور يشارك الجمل في نقل البضائع في الجزء الشمالي من المنطقة الساحلية ثم تزداد هيمنته في الأجزاء الوسطى والجنوبية من تلك المنطقة، ويتميز الثور بحاجته إلى

[1491] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 412.

المراعي الجيدة وإلى الماء يوميا، وهو ما توفره له تلك المنطقة، وتتراوح حمولته بين 126-141كلغم، وكانت المسافات التي يقطعها يوميا قصيرة نسبيا نتيجة لتقارب القرى والمدن في المنطقة الساحلية، ويبدو أن استخدامه في النقل قديم في المنطقة حيث عثر فيها على تماثيل تؤيد ذلك[1492].

ويشارك الحمار الثور في النقل في الصحراء والساحل ويكاد ينفرد بالمنطقة الواقعة بين المنطقة الساحلية وحدود الغابات الاستوائية، ويتميز ببساطة التغذية التي يتطلبها في اليوم ويتحمل نسبيا العطش، وأشارت المصادر العربية الوسيطة إلى استخدامه في نقل البضائع، من ذلك مثلا ما ذكره البكري أثناء حديثه عن غانة عند ما كتب يقول: "... ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل..."[1493]، وتبلغ حمولة الحمار من البضائع خلال تلك الفترة مابين 70-80كلغم وكان يقطع بها مسافة 16 كلم خلال رحلة يومية[1494].

ويبدو أن استخدام الثيران والحمير في النقل التجاري يعود إلى عهد قديم، بل إن هذين الحيوانين كانا منفردين بهذه المهمة تقريبا في المنطقة حتى سنة 2000 ق. م، كما أن بعض الباحثين يعتقدون أنهما كانا مستخدمين لعبور الصحراء قبل أن يستفحل الجفاف، وقبل أن تأخذ الصحراء شكلها النهائي، ويرون أن العربات التي تجرها الخيول، والتي توجد لها نقوش على الصخور من جنوب المغرب الأقصى وحتى نهر النيجر مرورا بكتلة اركيز الصخرية القريبة من أطلال مدينة أودغست، كانت مخصصة لركوب كبار التجار ولا تحمل معهم سوى زادهم ومؤونتهم من الماء، وكانت وسائل النقل في قوافل أولئك التجار مشكلة أساسا من الثيران والحمير والعبيد[1495].

أما في الأدغال الاستوائية حيث تزداد كثافة النباتات وتوجد مجاري الوديان العميقة نسبيا وغير الصالحة للملاحة، وحيث تكثر ذبابة تسى ـ تسى، فإن دور الحيوانات في النقل يتضاءل ليعوضها الإنسان، إذ كان التجار السودانيون الذين كان بإمكانهم وحدهم دخول تلك المنطقة لقدرتهم على التكيف مع تلك البيئة، يشكلون قوافل بشرية تحمل لهم البضائع في تلك المناطق الوعرة، وإذا كنا لا نتوفر على مصادر تتحدث بشكل تفصيلي عن هذه الظاهرة في بداية العصر الوسيط، فإن كتاب القرن14م، نقلوا عن بعض العلماء السودانيين أن حمل الإنسان للبضائع والأثقال كان مسألة مألوفة هنالك، من ذلك مثلا ما ذكره ابن خلدون في قوله: "... وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا..."[1496].

وكانت القوافل البشرية تتشكل إما من أشخاص أحرار يمارسون التجارة برأس مال محدود لم يمكنهم من الحصول على ناقلين، أو أجراء لدى التجار أصحاب البضائع، أو من أسرى الحروب أو العبيد الذين كان التجار يشترونهم من أجل استخدامهم في هذا الميدان مثلما كان شائعا بين الكنكارة الذين كان تجارهم مشهورين بتشكيلهم لقوافل العبيد الكبيرة وكانوا

[1492] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p

[1493] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176.

[1494] R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p ، 3 96

[1495] ريمون موني: المجلة التاريخية الليبية: مرجع سبق ذكره، ص:116و ص:119.

[1496] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 416.

يستخدمونها في نقل الملح من مدينة جنة إلى مناجم الذهب، وكذلك الهاوصا الذين كانوا يستخدمون العبيد على نطاق واسع لنقل البضائع في قوافل بشرية.

وكانت حمولة الإنسان من البضائع تختلف من شخص إلى آخر حسب الجنس والسن والحوافز، فكانت حمولة العبيد الذكور البالغين في المتوسط تصل إلى 25كلغم يقطعون بها مسافة 25كلم أثناء اليوم الواحد، في حين كانت حمولة النساء والأطفال لا تتجاوز 15 كلغم لكن يقطعون نفس المسافة، أما الأشخاص الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص فإن حمولتهم كانت تصل ما بين30-40 كلغم وفى بعض الحالات 50 كلغم، وكانت مسافة رحلتهم اليومية في المتوسط تصل ما بين 30-35 كلم[1497].

أما المناطق التي توجد بها أنهار صالحة بشكل دائم أو موسمي للملاحة، فإن وسيلة النقل فيها كانت تتمثل في القوارب مثل ما كان يتم في بلد زقوا على نهر النيجر[1498]، كما كان ملح آوليل ينقل إلى ممالك حوض نهر السنغال بواسطة تلك القوارب، خاصة خلال موسم فيضان ذلك النهر[1499].

أما طريقة التبادل بين التجار والباعة في المنطقة السودانية، فإنها كانت تتم على شكل مقايضة بين مواد تجارية سودانية وأخرى صحراوية أو شمال إفريقية، وتشير بعض المصادر العربية الوسيطة إلى استمرار ما يعرف "بالمقايضة الصامتة" في دواخل بلاد السودان، من ذلك مثلا ما ذكره المسعودي أثناء حديثه عن سكان تلك المنطقة وعلاقات التجار المسلمين بهم في عهده فكتب يقول: "... وبها منهم أمم عظيمة ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم، فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه فانصرفوا فيأتون أولئك السودان ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون ويأتي أصحاب الأمتعة فإن أرضاهم و إلا عادوا ورجعوا فيعود السودان فيزيدونهم حتى تتم المبايعة..."[1500]، ولعل تلك الطريقة ذاتها هي التي أشار إليها البكري خلال النصف الثاني من القرن5هـ/11م، عندما تعرض للحديث عن المناطق السودانية الواقعة إلى الجنوب من غانة، فذكر بلد غرنتل ووصفه بكونه مملكة جليلة لا يسكنها المسلمون "... ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم..."[1501]، فهل يعبر انصراف سكان مملكة غرنتل عن الطريق عن رغبتهم في إفساح المجال للتجار المسلمين من أجل أن يضعوا أمتعتهم هنالك فتكون الطريق هي الخط الذي لا يجاوزه أحد وفق ما سبق أن أوردناه على لسان المسعودي ؟

ونشير إلى قدم المقايضة الصامتة في هذه المنطقة، فقد أشار إليها هيرودوت خلال القرن5ق . م[1502]، مفيدا أنها كانت هي وسيلة التبادل الأساسية مع سكان تلك المناطق وأنها تمارس على ضفاف الأنهار هنالك، إلا أن المنطقة السودانية بدأت مستهل العصر الوسيط تنفتح

1497 R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p 396

1498 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:177.

1499 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 31و32.

1500 ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: اخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ط4، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1980، ص:88.

1501 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 177.

1502 أحمد صفر: مرجع سبق ذكره، ص134، وكذلك فيج جي - دي: مرجع سبق ذكره، ص43

أكثر على الصحراء ومن خلالها على شمال إفريقيا والعالم المعروف وقتئذ عن طريق شبكة الطرق البرية.

1 - الطرق التجارية بين الصحراء وغرب إفريقيا:

تتميز الطرق التي كانت تربط جنوب الصحراء بغرب إفريقيا بعدم الاستقرارا حيث كانت اتحاهاتها تتأثر بتغير أحوال مدينة أو جملة من المدن والقرى أو انتقال الأهمية الاقتصادية بشكل مؤقت أو دائم من منطقة إلى أخرى، وكانت التغيرات التي تمس اتجاهات ومسافات الطرق في هذه المنطقة تحدث من دون صعوبة تذكر لوفرة المياه، على العكس مما كان عابروا طرق الصحراء يقاسونه من مخاطر ومتاعب مرتبطة أساسا بندرة المياه[1503]، ففي هذه المنطقة الساحلية المحاذية للصحراء كانت الطرق سهلة الاستخدام وصالحة لمختلف وسائل النقل المعروفة هنالك، وكانت شبكة الطرق فيها كثيفة، لكثرة المدن والقرى بها[1504].

وكانت الطرق التي تربط مدن الصحراء بالمدن السودانية الساحلية امتداد للطرق العابرة للصحراء، لكن كل واحدة من المدن السودانية الساحلية كانت ترتبط بدورها بالكثير من المدن والقرى الواقعة خلفها، وبالتالي فإنها كانت تربط دواخل بلاد السودان بشكل غير مباشر بالصحراء عن طريق إيصال المواد التجارية الشمالية إليها، وجلب منتوجاتها إلى الأسواق الصحراوية.

ومن أهم تلك الطرق، الطريق الذي كان يربط مدينة آزوكي ومنطقة آدرار بشكل عام بممالك حوض نهر السنغال، وبصفة خاصة مدن صنغانة وتكرور وسلى، وكانت تلك المدن تبعد عن آزوكي 16 يوما من السير للقوافل، وترتبط تلك المدن بدورها بحواضر سودانية أخرى كثيرة بواسطة طرق كانت تنطلق إلى الجنوب منها فتصل مثلا إلى بربسي التى تبعد مسافة اثنتي عشرة مرحلة عن مدينة تكرور بمحاذاة ضفة نهر السنغال باتجاه الشرق، ومن بريسي تنطلق طرق باتجاه مدن، دو، ولملم وغانة، فكانت تبعد عن لملم (مالى) مسيرة عشرة أيام جنوبا، وتبعد عن غانة اثني عشر يوما باتجاه الشرق، في حين كانت تبعد اثنتي عشرة مرحلة عن مدينة أودغست باتجاه الشمال[1505].

وكانت مدينة أودغست ترتبط بمدن حوض نهر السنغال بواسطة طريق كان يربطها بمدينة آوليل التي تحمل اسم مملحة تقع بالقرب من مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، وكانت على ارتباط تجاري وثيق بمدن سلي وتكرور[1506]، كما كانت أودغست ترتبط بمدن حوض النيحر بواسطة جملة من الطرق، من أهمها الطريق الذي كان يصلها بمدينة غانة التي كانت تبعد عنها خمسة عشر يوما[1507]، كما كان هنالك طريق آخر يربط مدينة مدوكن الصنهاجية بمدينة غانة، وكانت مسافة ذلك الطريق أربعة أيام من السير[1508].

1503 R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p
1504 Ibid ، p 438

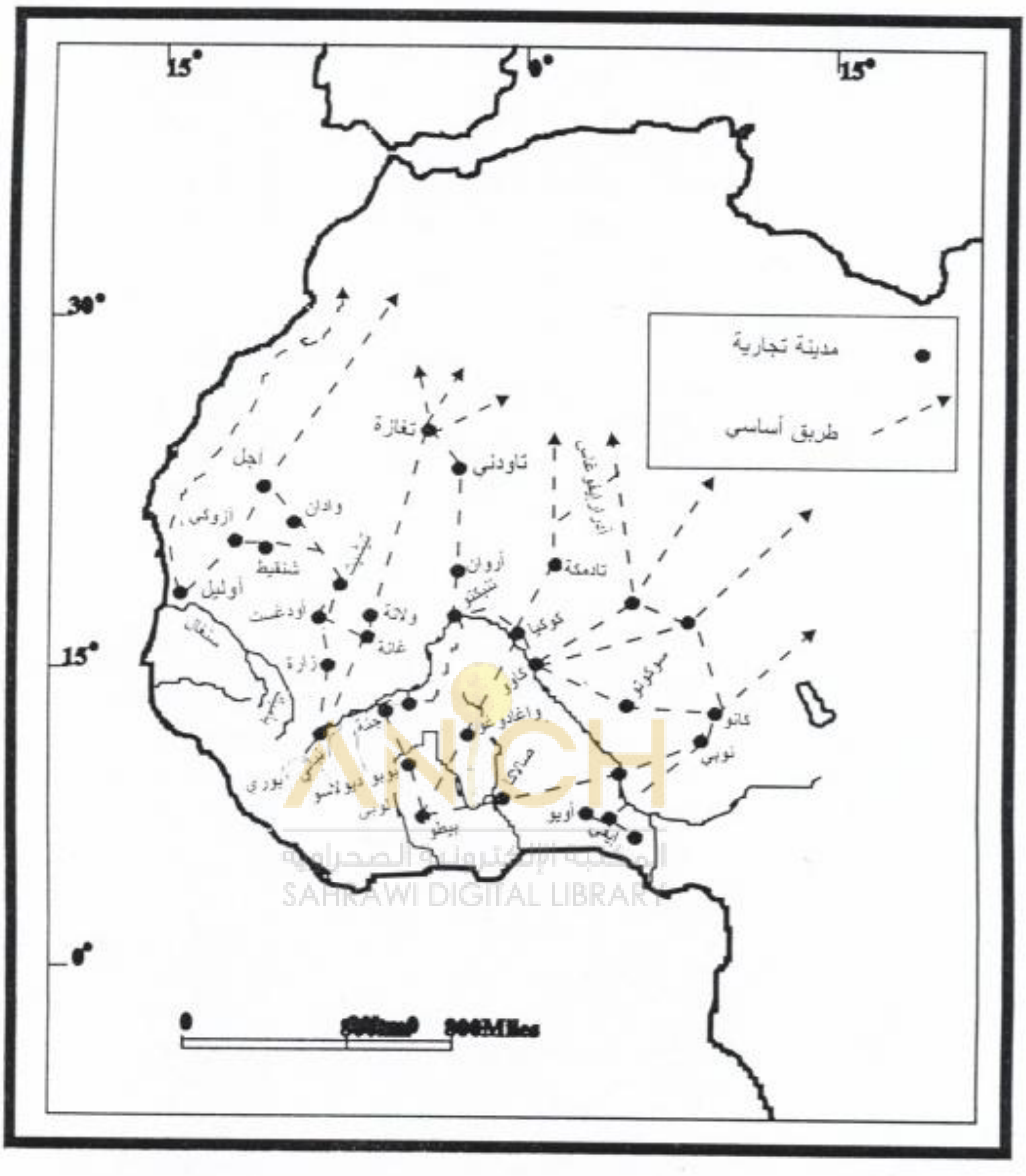
و البكري: مصصدر سبق ذكره، ص:172.
1505 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، الصفحات:33، 34و87.
1506 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:91، وابن سعيد: مصدر سبق ذكره، ص:90.
1507 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:168
1508 نفس المصدر، ص: 164.

وكانت مدينة غانة بدورها ترتبط بالمدن والقرى الكثيرة المتناثرة في المنطقة السودانية بواسطة شبكة كثيفة من الطرق، كالطرق الذي كان يربطها بمدينة سامقندي التي تبعد عنها مسيرة أربعة أيام، والآخرالذي يربطها بمدينة طاقة وطوله ستة أيام، أما ازقوا فكانت على بعد سبعة أيام من غانة، وكذلك مدينة غرنتل، كما كانت مدينة غانة ترتبط بمدينة غياروا الغنية بالذهب بواسطة طريق تصل مسافته مسيرة ثمانية عشر يوما من السير[1509]، هذا فضلا عن الطرق التي كانت تربط عاصمة الإمبراطورية السوننكية بمدن سودانية ساحلية أخرى مثل سامة، وانبارة وكوغه الخ...[1510].

لقد ساعد تطور التواصل وبالتالي المبادلات التجارية بين المدن والقرى السودانية والمدن الصحراوية، على تطور الأولي واتساعها وخروج بعضها من نطاق القرى الزراعية البسيطة لتدخل تاريخ كبريات مدن العالم الوسيط. ولعل شبكة الطرق الكثيفة التي تعرضنا للحديث عن نماذج منها في بلاد السودان خير دليل على كثرة الأسواق في تلك المنطقة وحيويتها.

1509 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176 وص:177.
1510 نفس المصدر، ص.ص:178-179.

الخريطة رقم 6: ابرز الطرق التي كانت تربط بين صحراء الملثمين وغرب إفريقيا من منتصف القرن8 م وحتى نهاية القرن 11م



الأسواق السودانية:

كانت المجتمعات السودانية تعتمد في حياتها على النشاط الزراعي أساسا، مما ساعد على تناثر القرى الزراعية في منطقة غرب إفريقيا منذ فترة مبكرة نسبيا من تاريخها وجعل تلك المنطقة مهيأة لاحتضان مدن كبرى، كانت في الغالب عواصم أقاليم أو ممالك، وكانت في الأصل قرى ثم تطورت من حيث الحجم نتيجة للأدوار السياسية والتجارية التي كانت تؤديها، كما تطورت من حيث مظاهرها العمرانية لتصبح على مستوى كبريات مدن العالم وقتئذ.

ويمكننا القول بأن تطور الظاهرة الحضرية في إفريقيا الغربية جاء نتيجة لتضاعف علاقاتها مع الصحراء وشمال إفريقيا، فهي إذن تدخل في إطار الثورة العمرانية التي عرفها الغرب الإسلامي ابتداء من منتصف القرن2هـ/8م، عقب ازدياد حجم المبادلات التجارية عبر الصحراء، وكانت المدن السودانية تتفاوت من حيث الأهمية حسب مواقعها الجغرافية وأدوارها، وقابليتها للاستمرارية.

وقد عرفت منطقة غرب إفريقيا مدنا كثيرة[1511] نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، كوكيا التي تأسست في بداية العصر الوسيط، وكانت أول عاصمة لمملكة الصنغاي، وتميزت فى تلك الفترة بأهميتها التجارية الكبرى[1512]، قبل أن تنقل عنها وظائفها السياسية كعاصمة إلى كاوكاو، الواقعة إلى الشمال الشرقي من كاوو وتبعد عنها مسافة حوالي عشر كيلومترات، وقد لعبت كاوكاو دورا تجاريا وثقافيا في منطقة غرب إفريقيا ابتداء من منتصف القرن2هـ/8م[1513]، كما أسست مدينة جنة في أواسط القرن2هـ/8م، وكانت أكثر مدن السودان الغربي توغلا باتجاه الجنوب "... وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، فيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازه وأرباب الذهب من معدن بيط...."[1514]، هذا فضلا عن مدن ملل، ودو وديارا وتكرور وسلى، وبريسى الخ...

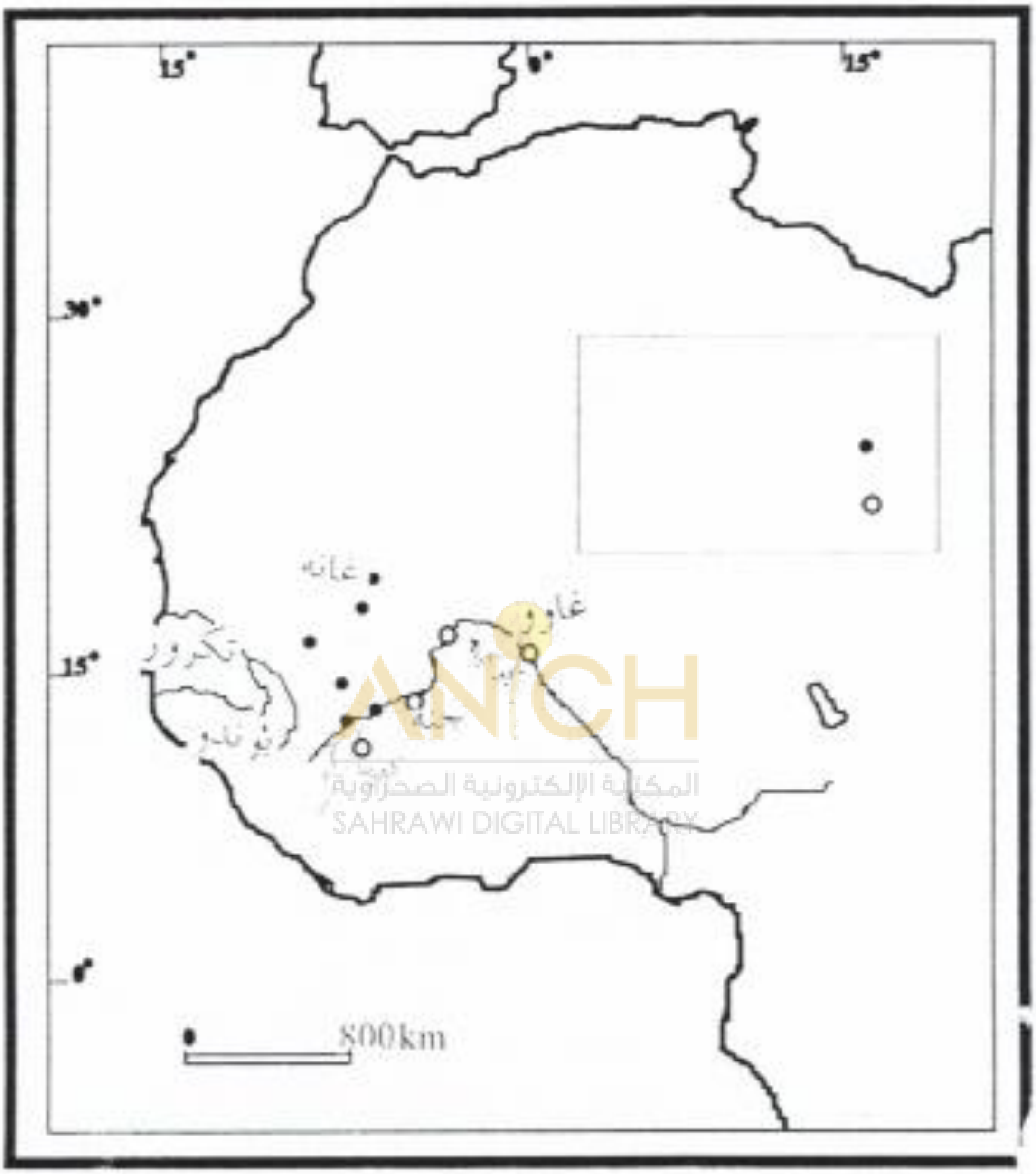
وإذا كان من الصعب في هذا المقام إيراد معلومات مفصلة حول أهم المدن السودانية فإننا سنكتفي، مثلما فعلنا بالنسبة لمنطقتي الصحراء وشمال إفريقيا، باختيار مدينة نموذجية، وذلك اعتمادا على الدور الذي لعبته على المستويات التجارية والثقافية كأداة ربط فاعلة بين غرب إفريقيا والصحراء خلال الفترة التي تهمنا، ولعل أكثر مدن تلك المنطقة حيوية في هذا المجال خلال العصر الوسيط، عاصمة إمبراطورية غانة التي هيمنت خلال الفترة ما بين القرن8م ونهاية القرن11م على الحياة الاقتصادية والسياسية في إفريقيا الغربية.

- مدينة كونبى صالح:

اختلفت المصادر العربية والسودانية حول تسمية عاصمة غانة، إذ كثيرا ما أعطتها الكتابات العربية اسم المملكة ذاتها، حيث يفيد مثلا احد كتاب الفترة أن غانة في الأصل لقب للملوك،ثم توسع استعماله ليشمل عاصمتهم ثم مملكتهم فيما بعد[1515] .

1511 Sekéné Mody SISSOKO ، op.cit ، p 16.
1512 R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p 385
1513 باولو فرناندودي موريايس فارياس "نظام تجارة تادمكة وجاوكاوو كوكيا" المجلة التاريخية الليبية، مرجع سبق ذكره، ص: 40.
1514 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:11 و12.
1515 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:174.

الخريطةرقم7 : المدن التجارية الرئيسية في غرب إفريقيا من منتصف القرن 8م وحتىنهايةالقرن11م



أما الكتابات السودانية، فإنها تعرضت للحديث عن عاصمة غانة أثناء سردها لتاريخ تلك الإمبراطورية، مثال ذلك ما كتبه محمود كعت عن ملوك غانة الأوائل عند ما قال: "...واسم بلده قنب... مدينة عظيمة..."[1516]، ويؤكد لنا مصدر سوداني آخر أن قنب هذه هي نفسها مدينة غانة في الكتابات العربية الوسيطة، ويتضح ذلك مما ذكره السعدي عندما استعرض أخبار مملكة غانة في عهد أسرة قيمغ، فقال عنها "... وقيمغ هو الذي بدأ السلطة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، هي مدينة عظيمة في أرض باغن..."[1517]، وانطلاقا من ذلك، فإن مدينة غانة هي بعينها مدينة قنب، التي نعتقد أن الحرف الأول من أسمها كان ينطق كافا معقودة كتبها السودانيون قافا مثلما كان شائعا في بعض مناطق الغرب الإسلامي، ثم حرفت فيما بعد إلى كونبى وأضيفت بعد ذلك إلى صالح الذي قد يكون الاسم العائلي لأحد حكامها بعد فتح المرابطين لها[1518]، إن لم تكن تلك الإضافة مجرد تفاؤل للمدينة بعد فتحها بالإصلاح وصلاح أمورها فربط ذلك التفاؤل باسمها فأصبحت "قنب صالح"[1519].

وعلى الرغم من أن تحديد موقع عاصمة غانة، كان من بين المشاكل الأساسية التي واجهت المؤرخين المهتمين بتاريخ إفريقيا الغربية للوهلة الأولى، فإن عمليات التنقيب والحفر جعلت الباحثين يسلمون تقريبا بأن موقع كونبى صالح الحالي، هو موقع العاصمة الغانية الذائعة الصيت خلال العصر الوسيط[1520]، فعند ما سأل الباحث الفرنسي بونيل دمييزيبير سكان ولاته عن عاصمة غانة، قادوه مباشرة ومن دون تردد إلى موقع آثار كونبى صالح الموجودة في الجنوب الشرقي الموريتاني عند خط الطول، !7 58غربا، وخط العرض!15و 46شمالا، وتوجد بذلك الموقع أطلال مدينة كبيرة، وهو عبارة عن خرائب لبنايات ضخمة مشيدة بالحجارة على امتداد كيلومتر مربع، وتحيط به مقبرتان كبيرتان تتقارب فيهما المدافن على امتداد 2كلم، وتمثل تلك الأطلال أكثر المواقع الأثرية أهمية في إفريقيا الغربية وأكثرها جدارة بالإهتمام[1521].

وقد وصفت مصادرنا العربية الوسيطة مدينة غانة (كونبى صالح)، فقال عنها البكري مثلا "...ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة..."[1522].

ويعتقد الباحثون أن الشطر الإسلامي من مدينة كونبى صالح هو الذي مازالت بعض آثاره بادية على السطح، وقد استفاد وحده حتى الآن من عمليات الحفر، في حين ما يزال موقع مدينة الملك مجهولا، لعدم رصد الإمكانات المادية الضرورية لعمليات التنقيب عنها وحفرها، وإن كان مونى يفترض اعتمادا على ما ذكره البكري من أنها تبعد مسافة ستة أميال عن مدينة المسلمين، أي حوالي 11كلم، وعلى محتوى أسطورة وكدو بيدا، أنها مدفونة على عمق عشرة أمتار تحت سطح الأرض قرب البئر المعروفة باسم دالي كونبى Dali goumbé، الواقعة إلى الشمال بانحراف قليل إلى الشرق، من أطلال كونبى صالح الحالية (أي الشطر الإسلامي)،

1516 محمود كعت: مصدر سبق ذكره، ص:41.
1517 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:9.
1518 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 38، وابن خلدون: العبر، سبق ذكره، ج4، ص:245.
1519 Joseph KI.ZERBO ، op.cit ، p 110.
1520 Sékené Mody SISSOKo ، op.cit ، P 16 ، et KIZIRBO ، op.cit ، p 110.
1521 Raymond Mauny:Les siècles Obscurs ، op.cit ، p.
1522 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 175.

على بعد حوالي 10 كلم منها[1523]، وقد وصف البكري الشطر الإسلامي من المدينة فقال عنه "... مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها المؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات..."[1524].

ويتطابق ما وفرته الإيركولوجيا من معلومات حول القسم الإسلامي من مدينة غانة، حيث أثبتت الحفريات أنها كانت فعلا كما وصفتها المصادر العربية الوسيطة، مدينة كبيرة، وكانت بها شوارع رئيسية متسعة[1525] تتفرع عنها ممرات ثانوية تسهل عملية النقل وكانت مبانيها ضخمة، مكونة من عدة طوابق وغرف، وكانت الطوابق العليا منها مخصصة لسكن أصحابها، في حين كان الطابق الأرضي خاصا بالاستقبالات وفيه تتم الصفقات التجارية، وكانت أرضية الغرف مبلطة بألواح صخرية مرصصة بشكل دقيق لا يسمح بملاحظة فواصل فيما بينها، يبلغ طول اللوح منها 2م[1526]، وكانت غرف المنازل متسعة وجدرانها مرتفعة[1527]، وقد حدد البكري مادة البناء التي كانت مستخدمة لتشييد مباني تلك المدينة فقال: "... ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط"[1528].

وتبقى معرفتنا للشطر الثاني من المدينة، الذي كان خاصا بالملك ورعاياه الوثنيين، مقتصرة على ما تركه لنا البكري من معلومات، في انتظار أن يتم البحث عنه وحفره، وقد وصف البكري بشكل خاص قصر الملك فقال عنه: "... وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور..."[1529].

ويرى بعض الباحثين أن المعالم الأساسية التي حددها البكري لذلك الجزء من مدينة غانة كافية من أجل أن تساعد على البحث عنه والتعرف عليه، وينطبق ذلك مثلا على قبور الملوك التي يميز شكلها غانة عن بقية مدن غرب إفريقيا[1530]، وكانت تلك القبور توجد داخل الغابة المقدسة التي كانت توجد على مشارف المدينة، "... وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن فيها أحدا انقطع عن الناس خبره..."[1531]، وكانت قبور الملوك على شكل أكوام مخروطية الشكل، تشبه القبور الفرعونية[1532]، إلا أنها تختلف عنها لكونها مشيدة بالأخشاب والتراب بدلا من الحجارة، ويتحدث البكري عن طريقة تشييد تلك القبور ومراسيم دفن ملوك غانة فيها فيقول: "... وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج، ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا، فادخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس

[1523] R. MAUNY:Siècles Obscurs ، op.cit ، P 149 et 150.

[1524] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 175.

[1525] Sekéné Mody SISSOKO ، op.cit ، p 17.

[1526] Joseph KI ZERBO ، op.cit ، p 111.

[1527] Sekéné Mody op.cit ، p 17.

[1528] البكري مصدر سبق ذكره، ص: 175.

[1529] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[1530] R. MAUNY:Siecles obs curs ، op.cit ، P 150.

[1531] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 175.

[1532] R. MAUNY:Siecles obcurs ، op.cit ، p 150.

فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد..."[1533]، ومن المحتمل أن تلك القبور الملكية قد تعرضت للحفر والنهب بعد أن فقدت قدسيتها، فتغير شكلها الهرمي، وأصبحت مسطحة بفعل انجراف التربة أو التآكل، مما يجعل حظوظ التعرف على الجزء الملكي من مدينة كونبى صالح ضئيلة[1534].

وكانت مدينة كونبى صالح (غانة) أهم الأسواق الدولية في إفريقيا الغربية، وظلت تتصدر ذلك الدور حتى سنة 1240م، حيث كانت تتم بها معظم عمليات التجارة الخارجية لتلك المنطقة من القارة الإفريقية[1535]، فلقد كانت نتيجة لموقعها الجغرافي المتقدم شمالا، ووقوعها على الساحل الصحراوي أقل خطرا على حياة التجار الشماليين من غيرها من المدن السودانية الأخرى ولو أن الفترة المثالية فيها بالنسبة لهم كانت الموسم الجاف فقط، حيث كان معظمهم يستقرون هنالك في انتظار تسلم أثمان بضائعهم التي كانوا يسلمونها لتجار سودانيين ليروجوها لهم في دواخل المناطق المنتجة للذهب من بلاد السودان مقابل بعض الأرباح[1536].

وقد وصفت المصادر العربية الوسيطة الحيوية التجارية لمدينة غانة، والدور الريادي الذي كانت تضطلع به في هذا المجال في غرب إفريقيا، واجتذابها بواسطته للتجار من مختلف الآفاق، من ذلك مثلا وصفها لها بأنها كانت "..هي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها"[1537]، في حين وصفها البعض الآخر بكونها "... من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمرا... "[1538].

ويعتقد أن التجار القادمين من المشرق وشمال إفريقيا، كانوا يضطرون إلى الانسحاب من مدينة غانة خلال فصل الخريف ليستقروا في المدن الصحراوية بعيدا عن تأثير مناخها خلال ذلك الموسم الذي لم يكونوا متعودين على تحمل خصائصه في المنطقة السودانية، فكان يلحق بهم أضرارا كبيرة ويعرضهم إلى مخاطر جسيمة، تاركين المجال للتجار الصحراويين، وقد بين البكري بعض مميزات المناخ الذي كان يسود مدينة غانة خلال ذلك الموسم وتأثيراته على أولئك التجار، فقال: "... وغانة بلدة مستوبية:... لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان في غربائها عند استحصاد الزرع... "[1539].

وبالإضافة إلى المصادر العربية الوسيطة، فإن بإمكاننا أن نتعرف بواسطة الايركولوجيا على الخطوط العريضة لبعض أوجه الأنشطة التجارية التي كانت تمارس في مدينة كونبى صالح خلال تلك الفترة، فلقد بينت البحوث الأثرية أن السوق المركزي للشطر الإسلامي من كومبي صالح كان يقع في وسط المدينة وكانت الحوانيت تصطف على طول الشوارع الرئيسية[1540]، وإلى جانب السوق وفى وسط المدينة أيضا كانت هنالك ساحة متسعة

[1533] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:176.

[1534] R. MAUNY: Siècles obscurs ، op.cit ، p 384.

[1535] R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p 384

[1536] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 384 et 387

[1537] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 38.

[1538] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 412.

[1539] البكري مصدر سبق ذكره، ص:177.

[1540] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 384

خالية من المباني[1541]، من المرجح أنها كانت مخصصة لاستقبال القوافل الكبرى عند ورودها إلى المدينة، حيث كانت الجمال تناخ بها وتحط عنها البضائع أو عن سواها من وسائل النقل الأخرى المستخدمة هنالك، قبل أن توجه إلى المخازن، كما نعتقد أنها كانت المكان الذي تنطلق منه القوافل الصادرة من تلك المدينة فى اتجاهات مختلفة.

وكانت المساومات بين كبار التجار تتم خارج السوق، وغالبا ماكانت تبرم داخل المنازل، إذ هي المكان المعهود لعقد الصفقات الكبرى[1542] بين أصحاب القوافل والتجار المستقرين هنالك بشكل موسمي أو دائم، وكان التجار الكبار يتولون توزيع البضائع بعد شرائها من أصحاب القوافل على أصحاب الحوانيت أويبيعونها للتجار السودانيين الذين كانوا ينقلونها إلى المدن الجنوبية، فكونبى كانت هي المدينة الرئيسية التي يلتقي فيها تجار الشمال بتجار الجنوب[1543]، ولذلك فإنها كانت من بين المدن الأساسية في المنطقة التي تمركز المواد التجارية الشمالية لتجعلها تحت تصرف التجار الجنوبيين، وتفعل بالمواد الجنوبية الشيء ذاته في خدمة التجار الشماليين.

- المواد التجارية:

العلاقات بين صحراء الملثمين وإفريقيا الغربية، جزء من علاقات تبادل تجاري أشمل يضم كامل منطقة المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي من جهة وحوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى، ولذلك يمكن القول بأن العلاقات بين الصحراء والسودان جزء من العلاقات التجارية العالمية وقتئذ، وإن كانت المنطقتان الصحراوية والسودانية هما نواة تلك المبادلات، ومنطلقها ومنهما توسعت، وفى حدودهما كانت تنتج المادتان الرئيسيتان لتلك المبادلات التجارية، وهما الملح والذهب، بالإضافة إلى مواد أخرى محلية، أو مستجلبة لكنها كانت تمركز فى أسواق إحدى المنطقتين ليتم نقلها باتجاه المنطقة الأخرى، وسنحاول التعرف على أهم المواد التجارية التى كان تجار المنطقتين يتبادلونها خلال الفترة المدروسة.

أ - مواد التصدير الصحراوية باتجاه غرب إفريقيا

كانت الصحراء تنتج العديد من المواد التى لعبت أدوارا حيوية فى المبادلات التجارية التى شاركت فيها، وقد تم تصدير تلك المواد إلى أسواق مختلفة فى غرب إفريقيا وشمالها بل تجاوزتها إلى أسواق المشرق الإسلامي وأوربا خلال العصر الوسيط، ولعبت الصحراء بالإضافة إلى ذلك، دور الوسيط التجاري بين المناطق الثلاث الأخيرة ومنطقة إفريقيا الغربية، لكنها كانت بصفة خاصة، خزانا لاينضب لمادة كانت جد هامة بالنسبة للسودانيين، بل هي المحرك الأساسي لهم فى تبادلهم مع المناطق الواقعة إلى الشمال منهم، وهي مادة الملح الحجري.

أ-1- الملح الحجري:

وهو عبارة عن منتوج صحراوي تشكل تدريجيا عبر العصور على شكل طبقات ملحية متفاوتة من حيث السمك تفصل فيما بينها طبقات طينية، ويتم تشكل الملح عادة فى الأحواض

[1541] Joseph KIZERBO ، op.cit ، p 111
[1542] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 384
[1543] idem

والسباخ[1544]، وقد عرف سكان صحراء الملثمين استخراج الملح وتسويقه فى بلاد السودان منذ عهود سيحقة، أرجعها البعض إلى بداية تعمير المنطقة[1545].

وعلى الرغم من أننا لايمكن أن نحصر مجموع السباخ والمواقع التى كانت تنتج الملح الحجري فى الصحراء خلال الفترة الوسيطة، فإننا سنقتصر هنا على ثلاث منها، لعبت أدوارا كبيرة، على مدى قرون متتالية زودت خلالها مناطق شاسعة من المغرب الإسلامي بالملح، وخاصة منطقة غرب إفريقيا، وتعرضت المصادر العربية الوسيطة للحديث عن بعض تلك السباخ لكنها لم تمدنا بمعلومات كاملة حولها، ومن أهم تلك السباخ: آوليل وأجل وتغازة.

- **سبخة آوليل:**

هي إحدى أهم سباخ جنوب غرب الصحراء، وتقع فى منطقة الترارزة بالقرب من نهاية الساحل الجنوبي لموريتانيا، غير بعيدة مصب نهر السنغال، لذا اكتفى بعض الباحثين بالإشارة إلى أن موقعها يقع داخل المنطقة الواقعة بين نواكشوط وسانلوي الحاليتين، فى حين اعتقد البعض الآخر أنها بدون شك إحدى السباخ المعروفة اليوم بمنطقة الترارزة، مع ترجيحه أنها هي التى تحمل فى وقتنا الحاضر إسم انتررت[1546].

ولعل من بين ما شجع الباحثين المعاصرين على اختيار هذه المنطقة فى إطار بحثهم عن موقع آوليل، ما خلفه كتاب الفترة الوسيطة من مواصفات تنطبق عليها، من ذلك مثلا وصف الإدريسي لموقع آوليل عند ما كتب يقول: "... فأما جزيرة آوليل فهي من البحر وعلى مقربة من الساحل، وبها الملاحة المشهورة، ولايعلم فى بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان، وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتسوق بها الملح، وتسير منها إلى موقع النيل وبينهما مقدار مجرى فتجري فى النيل إلى سلى وتكرور وبريسي..."[1547].

وبالإضافة إلى الدلائل الايركولوجية التى ساعدت الباحثين عقب عمليات التنقيب فى منطقة آفطوط الساحلي على التمسك بأن آوليل هي إحدى السباخ الموجودة هنالك، فإن وصف الإدريسي السالف الذكر، يشجع أيضا على الاحتفاظ بذلك التحديد، فآفطوط الساحلي الذى توجد به سباخ مازال بعضها ينتج الملح الحجري، هو عبارة عن منخفض طويل يمتد بمحاذاة ساحل المحيط الاطلسي بحيث لايفصله عنه سوى حاجز رملي رقيق نسبيا، ومبدؤه شمالا هو مدينة نواكشوط ثم يتجه جنوبا بمسافة تصل ما بين 180-200 كلم طولا، أي أنه ينتهي عند الحدود الشمالية لدلتا السنغال، فى حين يتراوح عرضه ما بين 5-10 كلم[1548]، وخلال السنوات التى تحظى اثناءها المنطقة بتساقطات جيدة تؤدي إلى فيضانات قوية على مستوى نهر السنغال، فإن مياه تلك الفيضانات تنساب مع منخفض آفطوط الساحلي، مما يسمح للقوارب بالاقتراب أكثر من أي وقت آخر من سبخة آوليل الواقعة على حافة آفطوط، وذلك عن طريق استخدام تلك المراكب للخلجان المنحدرة من النهر، الأمر الذى جعل الإدريسي يعتقد أن القوارب كانت تصل آوليل

[1544] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 325

[1545] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص:137.

[1546] Denise ROBERT CHALEIX, op.cit, pp. , R. MAUNY, Tableau géographique, op.cit, p. 325

[1547] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 31و32.

[1548] Denise ROBERT- CHALEIX, op.cit, p

وتحمل منها الملح[1549]، ولم تكن الفترة التى تصلح خلالها مياه الفيضانات للملاحة تتجاوز شهرين هما اكتوبر ونوفمبر، وهذا الموسم لم يكن صالحا لاستخراج الملح من السبخة وإنما كانت القوارب تنقل ما كان مخزنا منه لتسويقه خلال تلك الأشهر من السنة التى تحول اثناءها مياه النهر العذبة دون التشبع الكامل والمستمر للمادة الملحية فى السبخة، وبالتالى فإن الفترة المثالية لاستغلال ملح آوليل هي تلك الواقعة بين يناير ويوليو[1550].

ولعل الجزيرة التى اعتقد الإدريسي أنها آوليل، هي تلك التى كانت غير بعيدة من السبخة التى كانت تحت نفوذ بني كدالة، ففى هذا المضمار يقول البكري: "... ومعدن للملح آخر عند بني كدالة بموضع يسمى آوليل على شاطئ البحر، ومن هنالك تتحمله الرفاق أيضا إلى ما جاوره، وبقرب آوليل، فى البحر جزيزة تسمى أيوني وهي عند المد لايوصل إليها على القدم"[1551]. وإلى جانب آوليل كانت سباخ بالصحراء سباخ أخرى لعبت دورا تجاريا هاما.

- سبخة أجل:

توجد هذه السبخة فى منطقة تيرس الموريتانية، ولم تتحدث عنها المصادر العربية الوسيطة، بهذا الإسم، مما فتح المجال أمام بعض الباحثين المعاصرين للخوض فى دورها التجاري خلال تلك الفترة، فشك بعضهم فى أن تاريخ استغلالها يرجع إلى نفس الفترة التى راج خلالها ملح كل من آوليل وتغازة، حيث ذهب أحد الباحثين إلى أن بداية اكتشافها واستغلالها تعود إلى تاريخ غير محدد خلال الفترة الواقعة بين سنة 1068م وسنة 1455م، مبررا رأيه بأنها لو كانت معروفة سنة 1068م لأشار إليها أبو عبيد البكري الذى تحدث عن طريق يمر بالمنطقة التى توجد بها، فذكر جبلا سماه آدرار أن وزال، وذكر أن معني ذلك الاسم هو " جبل الحديد"، الذى يعتقد أنه هو الذى يحمل اليوم اسم كدية اجل، أما سنة 1455م التى اعتبرها أول تاريخ مكتوب يتحدث عن استغلال هذه السبخة، فقد ورد فى كتابات كاداماستو أن "سبخة تغازة قريبة من وادان حيث تبعد عنه ستة أيام"، وهنا يتدخل صاحب الرأي أيضا ليصحح مارأى أنه خلط وقع لكاداموستو بين تغازه واجل، مفيدا أن المعنية هنا سبخة اجل بدون شك وليست تغازة، مذكرا بأن البرتغالي ديوكوكوميز (DiogoGomés) الذى كان يكتب فى نهاية القرن15م تحدث بصراحة عن تصدير ملح اجل عبر وادان بواسطة قوافل كانت تتكون من ما بين 400-500 جمل، تسير به باتجاه تنبكتو، كما تحدث عن هذه السبخة وباسمها الحالي برتغالي آخر هو فرناندز V.Fernandés، وذلك سنة 1506م وينتهي هذا الباحث إلى رأي مفاده أن سبخة اجل استغلت بعد نهاية القرن11م، خلال تاريخ سابق لبداية القرن15م[1552].

وعلى العكس مما ذهب إليه هذا الباحث، يمكن القول، من خلال ما استعرضه من معلومات وقرائن أخرى، أن استغلال سبخة اجل ربما لا يكون أحدث من التاريخ الذى بدأ فيه استخراج الملح من سباخ الصحراء الأخرى، خاصة آوليل وتغازة، إذ يبدو أن تلك السباخ كانت تتداول الادوار فى اجتذاب القوافل الكبرى من قرن إلى آخر، وقد يكون مرد ذلك متمثلا فى حيوية طريق معين تقع عليها إحداها خلال فترة تاريخية محددة مقابل تراجع أدوار الطرق الأخرى التى تقع عليها باقي السباخ التى تصمت عنها مصادر الفترة المحددة لأسباب محتملة

[1549] R. MAUNY: Tableau geographique, op.cit, p 358

[1550] Denise ROBERT ،CHALEIX, op.cit, p , R. MAUNY: Tableau geographique, op.cit, p . 325

[1551] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

[1552] R. MAUNY: Tableau geographique, op.cit, p 327 et P 358

من أهمها وأكثرها احتمالا انتشار الفوضى وعدم استتباب الأمن على طول الطرق التى تقع عليها تلك السباخ خلال مرحلة تاريخية معينة، أولأن تلك السباخ كانت خلال ذلك التاريخ تنتج ملحا أقل جودة من ذلك التى تنتجه سبخة أخرى، فتجتذب هذه الأخيرة التجار وتعج الطرق المؤدية إليها بالقوافل على حساب السباخ الأخرى التى تبقى شبه مهجورة فى انتظار أن تنفد الطبقات الملحية الرديئة فى السباخ المتضررة، ويتم الوصول إلى طبقات ملحية جيدة لتعود إليها الحيوية والإزدهار من جديد، فمن هذا المنظار يمكن أن نتفهم ازدهار آوليل خلال القرن10م، وعدم تعرض المصادر العربية الوسيطة للحديث عن تغازة قبل القرن11م، على الرغم من أن استخراج الملح بها يعود إلى منتصف القرن8م على أقل تقدير، ثم تأثير استعادتها لحيويتها على شهرة آوليل التى أصبحت ابتداء من نهاية القرن10م مجرد سبخة إقليمية متراجعة عن دورها الدولى لصالح تغازة، فهل يمكننا التفكير بأن الأمر نفسه يمكن أن ينطبق على سبخة أجل ؟

إن الجواب البديهي- بالنسبة لنا- على هذا السؤال، هو بالطبع، نعم، وذلك بالاعتماد على عدة اعتبارات من بينها، أن بعض المصادر المكتوبة التى تعود إلى بداية القرن الثامن، وبالذات سنة 700م قد تحدثت عن تلك السبخة وذكرت رواج ملحها خلال تلك الفترة[1553]، كما أن الوضع فى صحراء الملثمين خلال الفترة الوسيطة يوحي بضرورة وجودها واستغلالها ليكون هنالك توازن مقبول فى إطار تقاسم المجموعات الرئيسية بالمنطقة للثروات الاستراتيجية وقتها، والتى كانت تتمثل أساسا فى السيطرة على الطرق التجارية وسباخ الملح.

فإذا كانت سبخة آوليل والطريق الساحلي مثلا من حظ قبيلة كدالة التى كان نفوذها يشمل جزء صحراء الملثمين الغربي المحاذي للمحيط الأطلسي، والطريق الشرقي من المحور الغربي بالإضافة إلى سبخة تغازة تحت نفوذ قبيلة مسوفة التى كانت تهيمن على الجزء الشرقي من الصحراء، فإن قبيلة لمتونة التى كانت ديارها تتوسط المنطقة وكانت تسيطر على الطريق الأوسط من المحور الغربي الذى كان يصل تامدلت بأودغست لايمكن إلا أن يكون مجالها الجغرافى محتويا على مصدر اقتصادي مهم يتناسب مع ملكية القبيلتين السالفتي الذكر، والأنسب أن يتمثل ذلك المصدر فى سبخة تنتج الملح الحجري، لأنه وحده هو الذى كان يتيح وقتها الثراء السريع لمالكيه، لارتفاع أسعاره ببلاد السودان، وإلا أدى ذلك إلى عدم توازن يقود إلى دخولها فى صراع مع كدالة أو مسوفة لانتزاع ملكية إحدى السباخ من نفوذ إحداهما، وهو صراع كان بمقدور لمتونة أن تحسمه لصالحها بسهولة نظرا إلى أنها كانت أكبر قبائل الصحراء عددا وأكثرها عشائر مما أتاح لها قيادة الاحلاف الصنهاجية فى الصحراء باستمرار.

ولعل من أهم المؤشرات التى تشجعنا على الاعتقاد بأن استغلال أجل يعود إلى الفترات ذاتها التى استغل خلالها ملح آوليل وتغازة، مرور طريق بالمنطقة التى توجد بها تلك السبخة، وهو طريق من أقدم الطرق العابرة للصحراء، إذ هو طريق العربات المعروف بطريق عربات الفاروسي الذى تعود بداية تاريخ استخدامه إلى الالف السنة الأخيرة قبل الميلاد، وهو الطريق الذى سلكته حملة حبيب، وحفرت على طوله آبار عبد الرحمن، وهو الطريق الذى حدد البكري مراحله خلال القرن11م، وذكر أنه يمر بـ"... جبل يسمى بالبربرية آدرار أن وزال تفسيره جبل الحديد... "[1554]، أي كدية أجل عند مونى[1555]، وبالتالى، فإن مرور ذلك الطريق بالمنطقة لا يمكن تفسيره إلا ببحث التجار عن ثروة محددة على طوله، فمراحل الطرق وتعرجاتها كانت

[1553] R. MAUNY: Tableau geographique, op.cit, p 327

[1554] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

[1555] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 327

تتحكم فيها أساسا عوامل طبيعية وإقتصادية مرتبطة فى أغلب الأحوال ببحث القوافل عن ثروات طبيعية يكثر عليها الطلب من الزبناء على إحدى ضفتي الصحراء.

وإذا كان المسلك الذى تحدث عنه البكري يقع على بعد حوالي40 كلم إلى الشرق من موقع أجل، فإن ذلك لا ينفى أن القوافل لم تكن تعرج عليها، أو أن هنالك مسلكا آخر من ذلك الطريق يمربها، ثم يندمج فى الطريق عند أدرار ان وزال، وبالإضافة إلى ذلك، فإن المصادر العربية لم تكن تربط حديثها عن السباخ بمراحل الطرق، وذلك ربما للأهمية الخاصة التى كان يكتسبها كل منهما خلال ذلك التاريخ فى إطار التجارة عبر الصحراء، لذا فإن إفراد فقرة للطرق وأخرى للملح كل على حدة، تعبر عن تلك الأهمية، بقدر ما ترمي إلى تجنب الخلط بين موضوعين ربما كان الكتاب يرون أن معالجتهما معا تقلل من شأنهما ، وفى هذا السياق يندرج ما كتبه البكري نفسه عن الملح، فحديثه عن تاتنتال وآوليل جاء بعد استكماله المعلومات المتعلقة بطرق الصحراء، فخص الملح بفقره مستقلة، بحيث لم يربط أيا من السبختين بطريق تجاري من الطرق التى تحدث عنها[1556]، وهو أمر قد ينطبق على أجل التى تعرض للحديث عن طريق يمر بالقرب منها ولم يذكرها.

وفضلا عن ذلك، فإن بعض الباحثين يعتقدون أن الإشارات المتعلقة بالملح التى وفرها ابن حوقل خلال منتصف القرن10م، تفيد أن استخراج الملح لم يكن مقصورا خلال تلك الفترة على آوليل، وأن سباخا أخرى كانت تزود إلى جانبها منطقة الصحراء وبلاد السودان بالملح[1557]، وهي التى أشار إليها الكاتب أثناء حديثه عن علاقة ملوك السودان بملوك أودغست، بقولة: "... وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام..."[1558].

ومن المعروف أن المؤلف يعني بـ"ناحية الإسلام" خلال تلك الفترة، الناحية الشمالية، فهل يدخل ملح سبخة اجل إذن فى إطار الملح الخارج من ناحية الإسلام؟، ألا يمكننا بدورنا قراءة إشارة ابن سعيد الذى كان يكتب فى منتصف القرن13م، على أنها تتعلق بسبخة اجل وذلك عند ما كتب يقول: "وآخر هذا الجزء من الصحراء حصن الملح وهو مبني على ملح معدني، ومنه يأخذ المسافرون الملح إلى بلاد السودان، وبينه وبين قاعدة لمتونة أزقي سبعة أيام..."[1559] وهل من المنطقي أن تبقى سبخة مثل اجل غير بعيدة من مسار القوافل باتجاه بلاد السودان مجهولة فى الوقت الذى كان فيه الملح يلعب أدوارا اقتصادية وسياسية خطيرة فى المطنقة خلال تلك الفترة ؟ وهل كانت قبيلة لمتونة التى تقع السبخة فى مناطق نفوذها وقتئذ لتجهل موقع ذلك المصدر الاقتصادي الحيوي، إذ البدو مشهورون بمعرفتهم الجيدة لمناطق انتجاعهم؟ وبما ذا نفسر اختيار لمتونة لآزوكي عاصمة لهم بعد سقوط أودغست التى كانت تحتكر ملح جميع السباخ قبل أن يتم تصديره إلى حوض النيجر، أليس ذلك من أجل الاقتراب النسبي من سبخة اجل؟ ثم أليس ذلك هو ما أشار إليه ابن سعيد فى قوله بأنها كانت على بعد سبعة أيام من عاصمة لمتونة؟ وإذا جاز لنا أن نقبل ذلك، فهل يمكننا الاعتقاد أن معلومات ابن سعيد عن السبخة تعود إلى تاريخ تأسيس آزوكي واختيارها عاصمة للمتونة بعد طردهم من

1556 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171.

1557 J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op.cit, p. 114

1558 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.

1559 ابن سعيد: مصدر سبق ذكره، ص:113.

أودغست؟، وهل ذلك يسهل علينا تقبل وفهم ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن تلك السبخة ظلت تحت نفوذ إحدى أهم المجموعات اللمتونية حتى بداية القرن 18م[1560] ؟

إن الاعتبارات السالفة الذكر تقودنا إلى الاعتقاد بأن ملح سبخة أجل استغل منذ فترة غير محددة، لكنها ليست أحدث من تاريخ استغلال سباخ صحراء الملثمين الأخرى، وأنها لعبت دورا مهما فى تجارة الملح خلال معظم مراحل الفترة الوسيطة، على الرغم من أن ذلك لا ينفى أن انتاجية السبخة قد تكون عرفت تناقصا من حيث الجودة والكم خلال بعض الفترات، بالمقارنة مع السباخ الأخرى.

- سبخة تغازة:

توجد هذه المملحة المشهورة على بعد160 كلم إلى الشمال الغربي من تاودني[1561]، ومع أن البعض يعتقد أن بداية استغلالها ترجع إلى القرن8م[1562]، فإنه من المؤكد أن العمل بها واستخراج ملحها لأغراض تجارية حدث على أقل تقدير قبل القرن11م، خاصة قبل التاريخ الذى تحدث خلاله البكري عن سبخة تاتنتال[1563]، عند ما كتب يقول: "... ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر... ويسمى هذا المعدن تاتنتال..."[1564].

وإذا سلمنا بأن تاتنتال هي سبخة تغازة، فإن ذلك يعني أن اسم "تغازة" أعطي للسبخة بعد القرن11م، وهو رأي معظم الباحثين المهتمين بهذا الموضوع، والذين يعتقد بعضهم أن المعلومات المتعلقة بتغازة فى كتابات البكري دونت قبل خروج المرابطين من صحرائهم، وتوجيههم لجيوشهم شمالا وجنوبا بفترة تتراوح بين 15و 20 سنة، أي أن تلك المعلومات تعود إلى ما بين سنتي 1035م-1040م، ومع ذلك فإن استغلالها خلال فترة مبكرة من تاريخ فتح العرب للمغرب الأقصى أمر غير مستبعد، فهي تقع على طول طريق تجاري يربط بين المغرب والسودان عبر الصحراء يعود على الأقل إلى القرن7م، أو بداية القرن8م، لذلك، فإن تعاظم دورها فى تزويد مناطق الصحراء وبلاد السودان خلال القرن 11م جاء بناء على رغبة تجار القوافل فى اختصار الطريق الذى كان معظمهم يتبعه من جنوب المغرب إلى آوليل، ومن هذه الأخيرة إلى أودغست التى.

وربما تكون عملية الاختصار تلك أصبحت ملحة أكثر من أي وقت مضى أثناء المراحل الأولى من قيام الدولة المرابطية فى الصحراء، حيث احتدم الصراع بين القبائل الكبرى هنالك، وخاصة الصراع الذي نشب بين لمتونة وكدالة فى الجنوب الغربي من المنطقة، ابتداء من سنة 1050م، وشكل عائقا أمنيا حال دون تدفق القوافل باتجاه آوليل، مما اضطر التجار إلى استبدالها بسباخ أخرى غزيرة الانتاج وسهلة الاستغلال، فكان اتجاههم إلى سباخ الشمال (تغازه- اجل) وإن كان تركيزهم على إحداها دون الأخرى قد تفاوت من حيث الأهمية من فترة

1560 اسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطؤها، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1980، ص.195.

1561 EL ALAWI, op.cit, p. 67.

1562 .CUOQ: L'islamisation, op cit; p 7ل.

1563 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 328 et 359

1564 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

إلى أخرى وفقا لقدرة السبخة المختارة على الانتاج من حيث الكم والنوعية، وسهولة استخراج ملحها[1565].

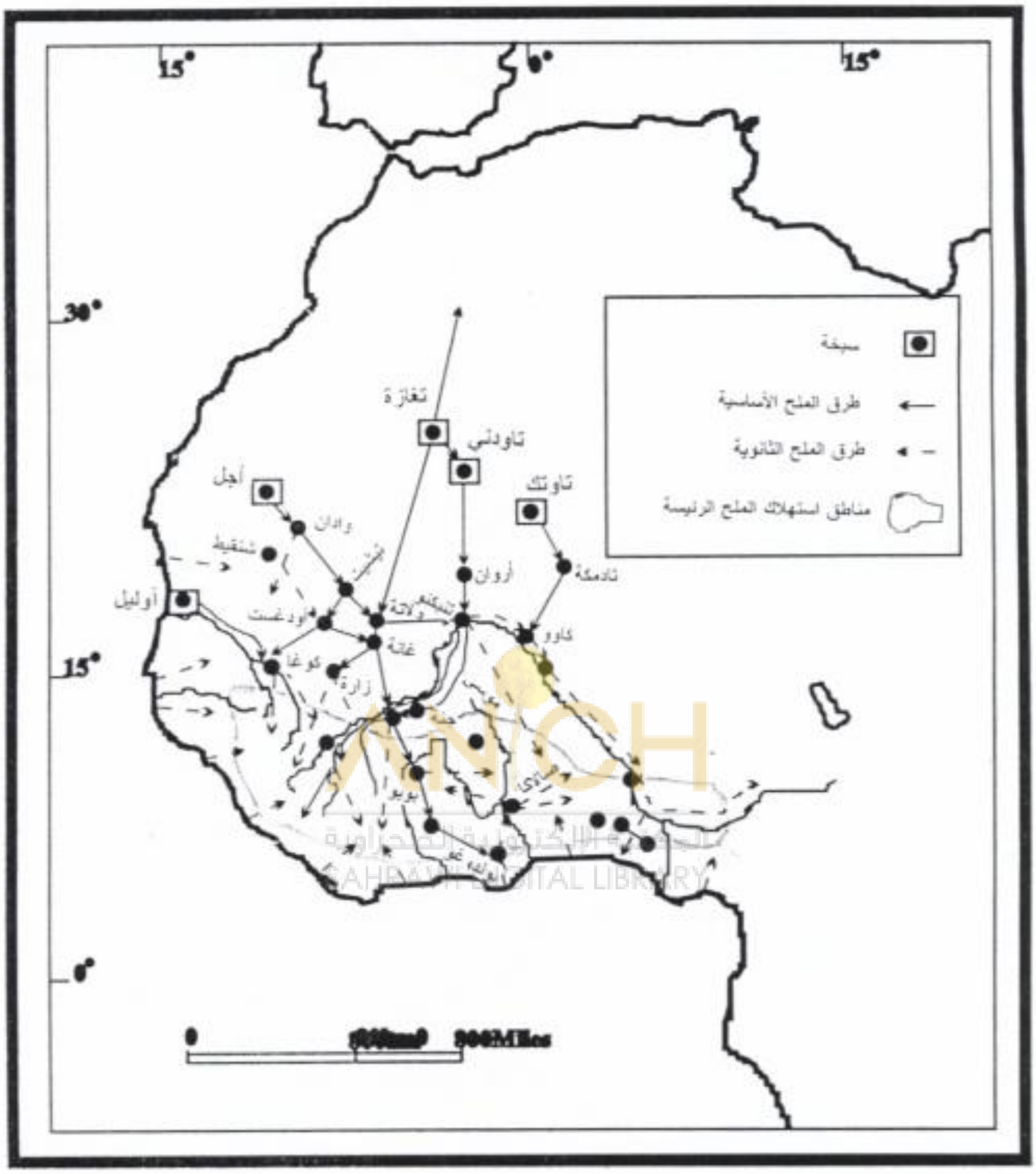
وقد وصف البكري طريقة استخراج الملح من السباخ، فذكر أن العاملين فى هذا الميدان كانوا يقومون بالحفر، وأن حفرهم قد يصل إلى عمق قامتين، ويواصل أثناء حديثه عن ملح تاتنتال قائلا: "... تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة..."[1566]، وكان الملح يقطع على شكل ألواح يسمى الواحد منها "العديلة"، ويصف بعض سكان الصحراء طريقة تقطيعهم له، بقوله: "...معدن ملح يستخرجونها من تحت الأرض ويقطعونها ألواحا كألواح الرخام..."[1567].

[1565] J. DEVISSE:TEGDAOUST I ، op.cit ، p. 114 et116 ، Histoire genérale ، t3 op. cit ، p. 412

[1566] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

[1567] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص:136.

الخريطة رقم8: مواقع أهم السباخ التى كانت تنتج الملح الحجرى فى صحراء الملثمين من منتصف القرن 8م وحتى نهاية القرن11م



وبما أن الطبقات الملحية فى السباخ كانت متعددة، الواحدة تحت الأخرى، ومختلفة عن بعضها البعض من حيث نوعية الملح، وسمك الألواح المقطعة منها تبعا لسمك كل طبقة، فمن البديهي أن ذلك كان ينعكس على الألواح من حيث السمك والوزن والنوعية، حتى ولو تعلق الأمر بألواح مستخرجة من سبخة واحدة لكن من طبقات مختلفة، لأن المملحة الواحدة كثيرا ما تمتد على مساحة شاسعة نسبيا قد تصل عشرات الكيلومترات المربعة، وبالتالى كانت ورشات الاستخراج فى سبخة واحدة متعددة، مما يسمح باحتمال استخراج العمال لملح الطبقة الأولى بإحدى الورشات قريبا من سطح الأرض، فى حين يصل عمال ورشة استخراج أخرى فى موقع

آخر من نفس السبخة إلى الطبقة الخامسة أو السادسة، على عمق قامتين أو أكثر، مثلما ذكر البكري عن تاتنتال، وتكون الطبقتان الأولى والثانية عادة أقل جودة وسمكا من الطبقات الموالية[1568].

وعلى الرغم من أننا لا نعرف الشيء الكثير عما كان يحيط بعمليات استخراج الملح فى كافة السباخ، فإن بعض الكتاب العرب يذكرون أن القائمين عليه في تغازة كانوا من عبيد مسوفة، وأنهم كانوا يبيعونه للقوافل نيابة عن سادتهم، فيأخذون من أثمانه ما يسد حاجاتهم اليومية ويحتفظون بالباقي حتى يسلموه لاولئك السادة[1569]، ولاشك أن وضعا مشابها كان سائدا في مختلف السباخ التى كانت تخضع لنفوذ قبائل الملثمين الأخرى، وكان أولئك الأرقاء يتوزعون فى أرجاء السبخة على شكل فرق عمل، فبالنسبة لسبخة أجل مثلا كان فريق عمل مكون من ستة أشخاص بإمكانه استخراج 120 لوحا من الملح خلال اليوم، أي بمعدل 20 لوحا للشخص الواحد[1570].

ونظرا إلى غياب الموازين الكبرى عن الساحة التجارية بصحراء الملثمين خلال تلك الفترة، فإن وسيلة القياس الأساسية للوح الملح، كانت تتمثل فى الشبر، وفى هذا الإطار يقول الونشريسي على لسان أهل الصحراء فى معرض وصفهم لألواح الملح فى بلادهم "... قدرها بالشبر، فيقولون خمسة أشبار فى طول كل لوح منها وثلاثة أشبار فى عرضه، وفى الغلظ على الوسط، لا رقيقة جدا ولا غليظة جدا، على المتعارف بينهم فى الغلظ والرقة..."[1571]، ويتناسب هذا القياس مع حجم ووزن ألواح ملح أجل عند منتصف القرن20م، ومع ذلك ، فإن الكتاب التبرتغاليين خلال القرنين 15م و16م، ذكروا أن طول الألواح التى كانت تستخرج من تلك السبخة يصل إلى 8 أشبار، وأن عرضها كان 4 أشبار، فى حين كان سمكها يصل نصف شبر، وبالتالى يكون حجم اللوح الواحد، 1.0م3، ووزنه 200كلغم، الأمر الذى جعل بعض الباحثين يعتقدون أن الكتاب البرتغاليين إنما وقعوا فى خطإ عند ما حاولوا تحويل المقاييس البرتغالية إلى الشبر، وبالتالى يكون تقديرهم غير سليم[1572].

وبما أن الملح كان مادة تجارية صحراوية تسيطر على مواقع انتاجها، وتشرف على استخراجها وبيعها قبائل الملثمين، وبما أن تلك المادة كانت حيوية بالنسبة لسكان المنطقة، فإن صنهاجة الصحراء، مارست قدرا من الاحتكار فيما يخص تلك المادة، فكانت القوافل تنقل الملح إلى المراكز التجارية الصحراوية الأكثر تقدما باتجاه الجنوب لتخزينه هنالك والتحكم فى الكميات التى تصدر منه إلى بلاد السودان بغية المحافظة على ارتفاع اسعاره هنالك[1573].

وهذه السياسة الاقتصادية كانت جلية خلال النصف الثاني من القرن 10م، عندما كانت مملكة أودغست قائمة، وكانت عاصمتها مرتبطة بواسطة الطرق بأهم السباخ المنتجة للملح الحجري، وأدت تلك السياسة إلى إذعان ملوك السودان لملوك الملثمين وتوددهم لهم للحصول عليه، وفى هذا الصدد يقول ابن حوقل متحدثا عن ملوك السودان: "... وحاجتهم إلى ملوك

[1568] R. MAUNY:Tableau geographique ، op.cit ، p 325 et 326

[1569] القزويني مصدر سبق ذكره، ص:26

[1570] R. MAUNY: Tableau géographique ، op.cit ، p 327

[1571] الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص: 137.

[1572] R. MAUNY:Tableau géographique, op.cit, p. 358

[1573] Histoire genérale de l'Afrique T3, op.cit ، p. 412, et TEGDAOUST I, op.cit, p. 114

أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به..."[1574]، كما جلب ذلك الاحتكار لسكان الصحراء وتجار الشمال أرباحا كثيرة، حيث ارتفع ثمن حمل الجمل من الملح في بلاد السودان إلى ما بين 200-300 مثقال من الذهب[1575]، حسب بعد المنطقة التي يباع فيها عن مصدر استخراجه، وخلوألواحه أوعدم خلوها من الكسر، وتشير بعض المصادر إلى العوامل المتحكمة في أثمان الملح فتقول: "... ويحمل الجمل منها لوحين أحدهما على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيسر، ويسمون حمل ملح، وهي مختلفة، وتختلف أثمانها باختلاف أنواعها وكبرها وصغرها، والمحمودة عندهم السالمة من الكسر، والكسر الكثير يعيبها، وهي معظم تجاراتهم يحملونها من بلد إلى بلد... "[1576].

وابتداء من القرن11م انتهى احتكار الملثمين لتجارة الملح وتزايدت كميات انتاج ممالح الشمال الصحراوي وأصبح ملح آوليل شبه مقصور على مدن وممالك حوض نهر السنغال، ويبين البكري ذلك قائلا: "... ومعدن للملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى آوليل على شاطئ البحر، ومن هناك تتحمله الرفاق أيضا إلى ما جاوره..."[1577]، ويبين ذلك انتقال دور آوليل من سبخة ذات صيت "دولي" إلى مجرد مملحة إقليمية[1578].

وكان ملح آوليل يحمل في مراكب كبيرة نسبيا تنقله عبر نهر السنغال، ويتم توزيعه على امتداد طريق سيرها في مناطق توقف محددة على ضفاف النهر، تباع بها كميات من الملح فتحط لتحمل على متن وسائل نقل أخرى تناسب بيئة المحطة المعنية، فتتجه به إلى الأسواق الصغيرة التي تبعد عن ضفتي النهر ما بين100 و 200 كلم.

وعادة ما كانت تخصص لتلك الأسواق الصغيرة القرب المحشوة بدقيق الملح أو الألواح المكسرة، بينما كانت الألواح السليمة تبادل أساسا بذهب كالام، وابتداء من هذه المدينة يدخل ملح آوليل في تنافس مع الملح القادم من كل من أجل وتغازة اللتين كان ملحهما يصل كالام بواسطة القوافل عن طريق أودغست وغانة، ليصل مناطق كيتا ونياكاصولا ثم بوري[1579]، حيث معادن الذهب.

أما تغازة واجل فإن معظم إنتاجهما من الملح كان يوجه مباشرة إلى منطقة حوض نهر النيجر، فتنقله القوافل من المنطقة الساحلية إلى مدينة جنة والأسواق السودانية الموازية لها، ليحمل منها إلى مناطق انتاج الذهب الموجودة في الاطراف الشمالية للغابات الاستوائية، وفي دواخلها[1580]، بينما كانت كميات ضئيلة منه توجه إلى اسواق المغرب[1581].

1574 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.
1575 نفس المصدر ونفس الصفحة.
1576 الونشريسي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص: 137.
1577 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:171.
1578 J. DEVISSE: TEGDAOUST, op.cit, p 115
1579 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 358
1580 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:11
R. MAUNY:Tableau géographique, op.cit p 359
1581 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 171.

وبصفة عامة فإن الملح الحجري الصحراوي، كان يمثل المادة التجارية الشمالية الأكثر أهمية عند السودانيين، الذين كانو ايبادلونه بأهم مادة عندهم وهي الذهب، وكانت كثرة الطلب عليه لا تميز منطقة عن الأخرى فى بلاد السودان[1582]، التى لم تكن تحتوي على سباخ تنتجه.

وكان لوح الملح، يقطع إلى 12 قطعة متساوية في الغابات الأستوائية لتستخدم فى تلك المناطق عملة يتم على أساسها التبادل، وتعبر قطعة الملح هي الوحدة الأساسية لتلك العملة محليا وتسمى "الكوكوتلا"[1583]، وقد أشارت المصادر العربية الوسيطة إلى ذلك فقال البكري على سبيل المثال مانصه: "...وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم..."[1584]، ولعل هذه الظاهرة تفسر من بين أمور أخرى ندرة الملح الحجري فى بلاد السودان، واهتمام سكانها الكبير به، وقد بين ابن حوقل ذلك فى قوله متحدثا عنهم "... الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به..."[1585].

وقد حاول بعض الباحثين الكشف عن الأسباب الكامنة وراء تحمس السودانيين خلال العصر الوسيط للحصول على الملح الحجري بأي ثمن، وحرصهم على استمرارية تموين منطقتهم به، ففسروا عبارة ابن حوقل السالفة الذكر "لا قوام لهم إلا به"، على أنها تعني أنهم كانوا مرتبطين فسيولوجيا بهذه المادة، ومما شجعهم على الأخذ بهذا الرأي، استخدام سكان السودان الغربي خلال تلك الفترة الملح علاجا للكثير من الأمراض التى كانت متفشية فيما بينهم، لارتباط غالبيتها بنقصه لديهم، كما كانوا أيضا يستعملونه لعلاج الأمراض التى كانت تصيب حيواناتهم ذات الأعداد الكثيرة، الأمر الذى يسمح لنا بالإعتقاد أن كميات كبيرة من الملح كانت تخرج من الصحراء باتجاه بلاد السودان لتلبية حاجياته المتنوعة من هذه المادة.

وكان السودانيون يستخدمون الملح أيضا لحفظ الأطعمة من التعفن لفترة من الزمن، وفى هذا الصدد يقول الإدريسي فى معرض حديثه عن سكان حوض نهر السنغال: "فى النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار ومنه طعام أكثر السودان يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه..."[1586]. وكان السودانيون يعتقدون يضعون الملح فوق شفاههم،ويعتقدون أنه ستساقط إن كفوا عن ذلك.

وقد أكدت بعض الدراسات المعاصرة على أن حاجة الإنسان بصفة عامة إلى الملح فسيولوجية، وأن تلك المادة كانت ضرورية للسودانيين بصفة خاصة، إذ لم يكن بمقدورهم تعويضه بالملح النباتي أو البحري لأسباب مرتبطة بطبيعة البيئة التى كانوا يعيشون فيها من جهة، وضرورة العناصر المكونة لهذا النوع من الملح لمن يسكن فى مثل تلك المنطقة من ناحية أخرى[1587].

ويمكن تقدير ما كانت تجارة الملح توفره لصنهاجة الصحراء والتجار الشماليين من أرباح وفيرة، انطلاقا من ندرته فى بلاد السودان وحاجة سكانها الكبيرة إليه.

1582 EL ALAWi , op.cit, p. 69
1583 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p . 360
1584 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 183، انظر ايضا ، ص:173.
1585 ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص:98.
1586 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 34.
1587 R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 323 et EL ALAwi, op.cit, p. 70

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك جدولا لأسعار هذه المادة خلال مختلف الحقب التاريخية التى تهمنا ولا حتى فى كل نواحي وجهات غرب إفريقيا، فإن الثمن الذى مدنا به ابن حوقل فى منتصف القرن10م والمتمثل فى ما بين 200 دينار بالنسبة للمناطق السودانية غير البعيدة من الأطراف الجنوبية للصحراء، و300 دينار لحمولة الجمل الواحد من الملح بالنسبة لدواخل غرب إفريقيا[1588].

وبقدرما يعطينا هذا الثمن فكرة عن قيمة الملح ومكانته فى المبادلات التجارية عبر الصحراء خلال تلك الفترة، فإنه أيضا يجعلنا نستغرب الحيرة والاندهاش اللتين أبداهما نفس الكاتب حول مبلغ 42000 دينار ذكر أن تاجرا عراقي الأصل من أهل سجلماسة قرضه لواحد من تجار أودغست، فاستغرب المؤلف أن تصل ثروة رجل واحد هذا الحد وبالأحرى أن يكون ذلك المبلغ مجرد جزء منها، مبررا حيرته بأنه لم يسمع فى المشرق الذى كان مركز الثروة فى العالم الإسلامي وقتها أن فردا قد امتلك ذلك المقدار من المال، فقال: "... ولقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة، باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان، فاستطرفت..."[1589].

فإذا اعطينا لحمولة الجمل الواحد من الملح ثمن 250 دينارا، فى المتوسط، فإن مبلغ الـ42000 دينارا لا يمثل سوى حمولة 168 جملا من الملح[1590]، وبالتالي يصبح المبلغ الذى أثار دهشة ابن حوقل زهيدا، إذا أعدنا إلى الأذهان أن حجم القوافل التجارية كان يصل عشرات الآلاف من الجمال التى كان نصفها تقريبا يخصص لحمل الملح، ويرجح بعض الباحثين أن المبلغ الذى تحدث عنه ابن حوقل، استدان به التاجر السجلماسي من أجل أن يغطي به مصاريف شراء الملح من السباخ، ليبيعه بأضعافه فى أودغست أو المناطق السودانية الواقعة إلى الجنوب منها[1591].

وبالإضافة إلى دور الملح، فإنه لعب دورا سياسيا كبيرا، حيث كان ورقة ضغط رابحة يمسكها ملوك أودغست الصنهاجيون، ويواجهون بها ملوك السودان[1592]، ومن بين أهم مظاهر اهتمام السلط السياسية السودانية بالملح، تخفيفها للضريبة التى كانت تفرضها على إدخاله إلى بلدانها بالمقارنة مع ما فرض على البضائع الأخرى، ومضاعفتها فيما إذا حاول التجار إخراجه من حدود الممالك السودانية، وفى هذا الصدد يقول البكرى فى معرض حديثه عن إمبراطور غانة ما نصه: "... ولملكهم على حمار الملح دينار فى إدخاله البلد، وديناران فى إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل..."[1593].

وعلى الرغم من المكانة المتميزة التى احتلها الملح الحجري بين مواد التصدير الصحراوية باتجاه بلاد السودان، فإنه لم يكن مادة صحراء الملثمين الوحيدة، وإنما كانت إلى جانبه مواد أخرى.

[1588] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
[1589] ابن حوقل : مصدر سبق ذكره، ص: 96.
[1590] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 113
[1591] ibid, pp. 289-290
[1592] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
[1593] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:176.

أ-2- مواد أخرى:

كانت الصحراء تمد السوان الغربي بمواد أخرى متنوعة محلية ومستوردة، ومن أهم المواد التجارية الصحراوية التى كان يتم تصديرها إلى بلاد السودان نذكر الحجارة الكريمة التى كانت استخداماتها متعددة فمن بينها استعمالها كحلي من ناحية، ولأغراض علاجية من ناحية أخرى.

ولقد تحدثت المصادر العربية الوسيطة عن قيمة تلك الحجارة التى كان بعضها يوجد فى مواقع على الساحل الصحراوي للمحيط الأطلسي، حيث "... يوجد أيضا بساحل هذا البحر حجارة كثيرة ذات الوان شتي وصفات مختلفات يتنافسون فى أثمانها ويتوارثونها بينهم ...ومثل هذه الحجارة عندهم كثيرة، وهم بالرقي عليها مشهورون وبه معروفون..."[1594].

وقد بدأت تجارة الحجارة الكريمة تأخذ مكانتها فى التجارة بين صحراء الملثمين وبلاد السودان عبر أودغست ابتداء من سنة 900م، وقد عثر فى منطقة تكانت بالقرب من تجكجكة على موقع كان بعض أنواع تلك الحجارة يستخرج منه[1595]، وفضلا عن ذلك كانت المدن الصحراوية تستقبل أشكالا أخرى من الحجارة الكريمة من مناطق الشمال أو الشمال الشرقي تدعى "الخلقدونية"، من معدن لها كان يوجد بموقع بين غدامس وتادمكه غير بعيد من الهكار[1596] فتتم إعادة تصديرها إلى بلاد السودان التى كان سوق هذه المادة بها يستوعب كميات كبيرة.

وقد تحدث البكري عن ذلك النوع من الحجارة الكريمة، فقال عنه: "... وفى هذه المجابة الثانية معدن لحجارة تسمى تاسي النسمت، وهي حجارة تشبه العقيق، وربما كان فى الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض، وربما وجد فيها النادر الحجر الجليل الكبير، فإذا وصل به إلى أهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه الرغائب، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى..."[1597]، وقد عثر الباحثون أثناء حفريات تغداوست (أودغست) على عينات عديدة من حجارة تاسى النسمت هذه، يعود تاريخ استعمالها إلى نفس الفترة الزمنية التى تحدث عنها البكرى، مما يجعلنا نفكر فى أن تلك المدينة كانت تستجلبها لتعيد تصديرها إلى بلاد السودان، وغانة منها بصفة خاصة، هذا فضلا عن أنواع أخرى من الحجارة الكريمة، كانت تصل إلى أودغست من المغرب الأقصى حيث كان يوجد لها معدن على الطريق الذى كان يربط سجلماسة بأغمات، وقد عثر على بقايا لأشكال عديدة من هذا النوع من الحجارة الكريمة فى خرائب أودغست من الراجح أنها وصلت إليها من السوس الأقصى خلال الفترة التى تهمنا[1598].

ومن بين المواد التجارية التى كانت الصحراء تنتجها، وتستورد منها كميات من شمال إفريقيا لتصديرها إلى بلاد السودان، نذكر النحاس، الذى كان يستخدم من طرف السودانيين لأغراض مختلفة لعل من أهمها، المسامير النحاسية التى كانت أودغست تصدرها إلى غانة ليتم

[1594] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص:34.

[1595] Histoire genérale de l'Afrique, t3, op.cit, p . 449

[1596] J. DEVISSE:TEGDAOUSTI, op.cit, p . 119

[1597] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:182.

[1598] Histoire generale de l'Afrique, t3, op.cit, pp 449-450

استخدامها هنالك على شكل عملة[1599]، وكذلك الأواني النحاسية[1600]، التى كانت أيضا تستورد مصنعة من فاس[1601]، وفضلا عن ذلك كان السودانيون يصنعون معظم حليهم من النحاس، وكان سكان الغابات الأستوائية، بصفة خاصة، يصنعون منه تماثيل يصل وزن بعضها إلى حوالي 20 كلغم[1602] وخواتم، وكان النحاس يأتي بالنسبة لهم فى الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد الملح[1603].

وكانت الصحراء، بالإضافة إلى ذلك، تصدر إلى غرب إفريقيا ما يفيض عن حاجياتها من المواد التجارية، التى كانت تصلها من الشمال، وخاصة الملابس الصوفية، والقطنية[1604]، والتمور، فضلا عن الخيول التى كانت الممالك السودانية تتنافس للحصول على أكبر عدد منها، باعتبارها أداة عسكرية أساسية لجيوش تلك الفترة، خاصة بالنسبة لغانة التى كانت إمبراطورية مترامية الأطراف وحاجها كانت ماسة إلى وسيلة قادرة على ضبط الأمن داخل مناطق نفوذها[1605]، وبما أن الخيول المحلية لم تكن أفضل وسيلة للقيام بذلك الدور، فلقد كان من اللازم على ملوكها استيراد خيول قوية وسريعة، ويصف لنا البكري الخيول السودانية الأصلية فيقول: "...وخيل غانة قصار جدا..."[1606].

وعلى الرغم من أن المصادر العربية الوسيطة لم تتحدث بشكل صريح عن تجارة الخيول فى المنطقة خلال الفترة التى تهمنا، فإن صمتها قد يفسره كون الخيول المستجلبة من شمال إفريقيا كانت تستغل كمطايا من طرف التجار المرافقين للقوافل، وتباع بعد الوصول إلى المراكز التجارية الساحلية[1607]، وكان التجار يجنون أرباحا كبيرة من الصفقات المتعلقة بها، نظرا لقلة الأعداد المعروضة فى الأسواق بالمقارنة مع الطلب الكبير عليها، فمصاعب عبور الصحراء، وخاصة منها طول المسافة وندرة المياه والعلف، كانت من بين العوائق التى وقفت أمام توسيع مجال هذه التجارة.

لذلك كانت الخيول التى تصل المنطقة من الشمال موجهة أساسا للملوك السودانيين الذين كانوا يدفعون مقابلها أثمانا باهظة ويحرصون على اقتنائها، ويولونها اهتماما كبيرا، لعل من بين مظاهره ما ذكره محمود كعت عن أحد ملوك غانة، عندما قال: "... ويقال إن له ألف خيل مربوطين فى داره عادة معروفة إن مات واحد منهم فى صبح جاء بآخر مكانه عوضه قبل المساء وفى الليل كذلك، ولاينام واحد منهم إلا على زربية ولا يربط إلا بحرير فى عنقه وفى رجله، ولكل منهم آنية من النحاس يبول فيها لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا فى الإناء لا فى ليل ولا فى نهار، ولا ترى زبلا واحدا تحت واحد منهم، ولكل منهم من الخدم ثلاثة أنفس

1599 Ibid, p 451

1600 محمود كعت: مصدر سبق ذكره، ص: 41.

1601 R. MAUNY:Tableau geographique, op.cit, p 374

1602 Ibid p. 348

1603 EL Alawi, op.cit, p. 73

1604 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158 ، الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 33 وكذلك: Histoire générale, op.cit p. 460

1605 EL Alawi, op.cit, p 83

1606 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 177.

1607 EL ALAWI, op.cit, p 83

يجلسون تحته، واحد منهم يقوم بعلفه وواحد منهم يسقيه وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله..."[1608].

وشملت مواد التصدير الصحراوية إلى بلاد السودان كذلك بعض المواد الغذائية، خاصة القمح والزبيب والتمور والفضة والخزفيات الخ...، ومقابل تلك المواد كانت الصحراء تحصل على المواد التجارية السودانية، التى كان معظمها يصدر بعد تجميع كميات كبيرة منه فى مدن جنوب الصحراء إلى الشمال.

ب- المواد المستوردة من بلاد السودان:

تتميز مواد التصدير السودانية باتجاه الصحراء وشمال إفريقيا بكونها إنتج محلي، إذ لم تكن منطقة غرب إفريقيا تستجلب بعضها لتصدره إلى الشمال، وهي مواد فى معظمها أساسية فى المبادلات التجارية عبر الصحراء، وإن كانت تتفاوت من حيث الأهمية، ولعل أكثرها شهرة، الذهب.

ب-1-الذهب:

توجد آثار استخراج الذهب العائدة إلى الفترة الوسيطة فى مناطق مختلفة من غرب إفريقيا[1609]، ويبدو أن استغلاله فى هذه المنطقة يعود إلى فترة مبكرة، وكانت الكميات التى تستخرج منه سنويا متواضعة نسبيا، حتى القرن7ق.م، حيث عرفت ابتداء من ذلك التاريخ تزايدا مستمرا، وعرف ارتفاع إنتاج هذه المادة نقلة منذ أواخر القرن 5 ق.م عند وصول القرطاجيين إلى المنطقة يبحثون عنه، وتوالى إزدياد كميات الذهب العابرة للصحراء بشكل تدريجي، لتعرف ازديادا كبيرا بعد وصول العرب الفاتحين إلى شمال إفريقيا، ودخولهم فى علاقات تجارية مبكرة مع بلاد السودان[1610]، ومنذ تلك الفترة اهتم الكتاب العرب بمنطقة غرب إفريقيا، فأطلق عليها بعضهم اسم "بلاد الذهب"، وكان من أوائل من كتبوا عنها، وهب ابن منبه المتوفى قبل سنة 728م، والفزاري المتوفى سنة 790م[1611].

وقد أدى قيام امبراطورية غانة فى غرب إفريقيا وهيمنتها على تجارة الذهب هنالك إلى تشجيع ورود القوافل إلى المنطقة بحثا عن هذه المادة الثمينة، خاصة أن غانة اثبتت قدرتها على توفير الأمن فى ربوع المنطقة التى كانت خاضعة لنفوذها، وفرضت هيمنتها على الممالك الموجودة المجاورة لها، مما ساعد على تضاعف إنتاج الذهب[1612]، فكثر فى أيدي الناس، لذلك ارتبط لقب الأسرة الأولى التى حكمت غانة بهذه المادة، التى كان ملوكها يسيطرون على مناطق ذات احتياطي هام منها، فلقب "كيمغ" الذى حملوه، يعني بلغة السودان هنالك "... ملك الذهب، كيهو، الذهب، ومغ الملك وهو سلطان عظيم..."[1613].

[1608] محمود كعت: مصدر سبق ذكره، ص: 41.

[1609] بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 211.

[1610] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 300

[1611] J. CUOQ: Receuil des lources, op.cit, pp 42-43

[1612] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 300

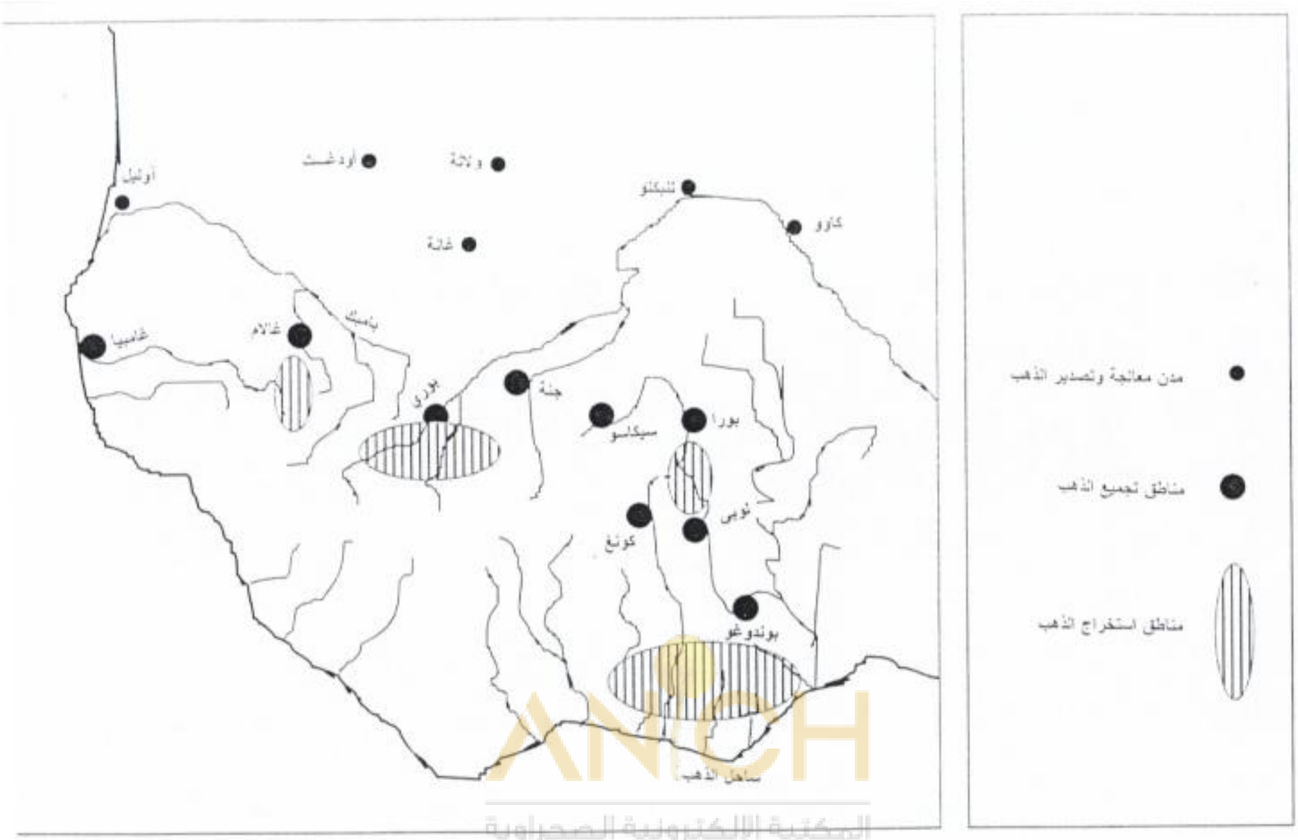
[1613] محمود كعت: مصدر سبق ذكره، ص: 41.

ومثلما كان الملح مادة تجارية محتكرة من قبل قبائل الصحراء والتجار الشماليين، كان السودانيون أيضا يحتكرون الذهب، وكان الملوك يشرفون على ذلك الاحتكار، ويقول البكري في هذا الصدد: "... وإذا وجد فى جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون..."[1614].

ولم تكن أماكن وطرق استخراج الذهب معروفة إلا من قبل الشعوب السودانية، مما أضفى حوله الكثير من الغموض، لذلك هيمن الطابع الأسطوري على المعلومات التى أوردها معظم الكتاب العرب والمسلمين حوله خلال المرحلة الأولى من خول هذه المادة السوذانية للأسواق المشرقية[1615]، لكن معارفهم حوله ظلت فى تحسن مستمر وتدريجي إلى أن تمكنوا من تحديد بعض مواقعه، ومعرفة طريقة استخراجه، من ذلك مثلا تحديد البكري لموقع أحد معادن الذهب التى كانت خاضعة لملك غانة، فى قوله: "...وأفضل الذهب فى بلاده ماكان بمدينة غيار وا..."[1616] ، كما أشار إلى استخراجه من منطقة أنها كانت تقابل مدينة يرسني على الضفة اليسرى لنهر السنغال، و كان تجار "بنو نغمارته" وهم تجار التبر ينقلونه منها إلى يرسني[1617]، أما الإدريسي، فقد حدد بلاد ونقارة واعتبرها أهم منطقة بغرب إفريقيا تنتج الذهب، فقال عنها: "... وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة... وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا، والنيل يحيط بها من كل جهة فى سائر السنة"[1618].

[1614] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 177.
[1615] المسعودي: أخبار الزمان، مصدر سبق ذكره، ص88و89، ابن الفقيه: مصدر سبق ذكره، ص 87
[1616] نفس المصدر، ص: 176.
[1617] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 177.
[1618] الإدريسي: مصدر سبق كره، ص:39.

الخريطة رقم9: مناطق استخراج الذهب
فى غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط



ومع أن مناطق مختلفة فى غرب إفريقيا خاصة فى السنغال ومالي وغينيا وساحل العاج وبوركينا فاسو وغانا وبنين ونيجريا، تتوفر على دلائل تثبت أنها كانت تنتج كميات هامة من الذهب خلال الفترة الوسيطة، وإن كانت المواقع فيها تتفاوت من حيث الأهمية[1619]، فإن الباحثين ركزوا جهودهم للتعرف على أربعة مناطق كانت تنتج الذهب بكميات كبيرة، وظل إنتاجها متواصلا خلال قرون عديدة وهي: بامبوك الواقعة بين أعالي السنغال والفاليمي، وبوري الموجودة عند مصب رافد تينكيسو فى نهر النيجر ومنطقة لوبي فى الفولتا (بوركينا فاسو) ومنطقة الاشانتي فى ساحل الذهب (غانا)[1620].

وإذا كان البكري قد أشار إلى موقعين اعتبرهما هامين من مواقع إنتاج الذهب خلال القرن11م، هما غيارو ويرسني، فى الوقت الذى ذكر فيه الإدريسي موقعين آخرين هما تكرور ونقارة، فإن الباحثين الذين أنجزوا بحوثا قصد التعرف على تلك المواقع يرون أن معدني غيارو وتكرور عند الكاتبين تنطبق مواصفاتهما على منطقتي كالام وبامبوك الواقعتين فى الجزء الغربي من بلاد السودان، أما ونقارة ويرسني، فإنه يفهم من خلال الكاتبين أنهما تقعان أكثر توغلا فى الداخل إلى الشرق من المعدنين السابقين، وتنطبق أوصافهما على منطقة بوري[1621]، ويرى باحثون آخرون أن غياروا عند البكري هي الموقع المعروف اليوم باسم دوكابا على بعد5 كلم إلى الجنوب من مدينة خاي بجمهورية مالي[1622]، ولعل الميزة المشتركة بين معظم مواقع استخراج الذهب خلال الفترة الوسيطة، هي وجودها قرب ضفاف الأنهار و مصاب روافدها[1623].

وقد وصف الإدريسي طريقة استخراج السودانيين للذهب مبينا ارتباط مواقعه بضفاف النهر، فقال: "... فإذا كان فى شهر اغسطس وحمى القيظ وخرج النيل وفاض وغطى هذه الجزيرة أو أكثرها وأقام عليها مدته التى من عادته أن يقيم عليها ثم يأخذ فى الرجوع، فإذا أخذ النيل فى الرجوع والجزر، رجع كل من فى بلد السودان المنحشرين فى تلك الجزيرة بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل، فيجد كل انسان منهم فى بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر، وما يخيب منهم أحد، فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر، وتاجر بعضهم بعضا..."[1624].

من الواضح إذن أن الباحثين عن الذهب كانوا ينتظرون تراجع فيضانات الأنهار، التى تخلف مياهها وراءها الطمي الذى كثيرا ما يكون ممزوجا بالذهب فى المواقع المعدنية، فيتم غسل ذلك الطمي من قبل النساء، ليتخلص دقيق الذهب من حبيبات الرمل وفق طريقة فنية، وفى الحالات التى لا يظهر فيها دقيق الذهب على السطح، فإن الأمر يتطلب حفر الآبار التى قد يصل عمقها إلى عدة أمتار فى تربة عادة ما تكون حمراء صلبة إلى أن يتم الوصول إلى منطقة الطمي الذهبي، عندها يتم رفع الأتربة والحصي بواسطة أواني تجذب خارج البئر بواسطة حبال، فيتم غسل تلك الأتربة لتخليص التبر من الغرين[1625].

1619 R. MAUNY: Tableau géographique ، op.cit ، p 294

1620 بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 211.

1621 نفس المرجع ، ص: 215.

1622 J. CUOQ: Receuil des sources ،op.cit ، p 101 note n!2

1623 بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 215.

1624 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 39.

1625 EL ALAWI ، op.cit ، p. 92

ولعل ارتباط موسم البحث عن الذهب بتراجع الفيضانات من بين الأسباب التى جعلت بعض الكتاب المسلمين يعتقدون أن تربة بلاد السودان تنبت الذهب مثلما تنبت التربات الأخرى الأعشاب والأشجار والبقول والخضراوات، فاعتقدوا أن تراجع الأنهار فى بلاد السودان يترك للتربة المروية الفرصة لأن تنبت نباتات تثمر الذهب، وأن ذلك هو السبب الوحيد وراء الثراء الفاحش الذى كان السودانيون يتمتعون به، من ذلك مثلا ما كتبه ابن الفقيه المتوفى سنة 903م عن غانة، فقال: "... وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا فى الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس..."[1626].

وكان معظم ما يقع فى أيدي الناس أثناء بحثهم عن الذهب هو دقيقه، وفى حالة عثور أحدهم على كتلة ذهبية متماسكة مهما كان حجمها، فإنه يوصلها إلى الإمبراطور الذى كان وحده يمتلك حق حيازتها، لا كملك شخصي له وإنما ليحفظها للآلهة باعتباره فى نظر الرعية أقرب لها[1627]، ويتحدث البكري فى هذا الصدد فيقول: "وإذا وجد فى جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك للناس هذا التبر الدقيق... والندرة تكون من أوقية إلى رطل ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم"[1628].

وكان التجار السودانيون المعروفون بـ "ديولا"، ينقلون الذهب من مناطق انتاجه المختلفة في غرب إفريقيا إلى المدن الساحلية السودانية ومنها إلى المدن الصحراوية، لذلك نجد جاليات عربية إسلامية، خلال فترة مبكرة من وصول العرب إلى المغرب فى مدن غانة[1629] ويرسني وغيارو وملل وكوغة والوكن الخ...[1630]، ومن هذه المدن كان يحمل إلى الصحراء وشمال إفريقيا.

وقد قدر ريمون موني(R. MAUNY) إنتاج غرب إفريقيا السنوي من الذهب خلال الفترة الوسيطة بحوالي 9 أطنان افترض أن مابين 3 إلى4 أطنان منها كانت تستهلك محليا على شكل حلي أو إدخار، فى حين كان يتم تصدير ما بين 6 و 5 أطنان إلى الشمال[1631]، أما ج. دفيس(J. DEVISSE) ، فإنه يرى أن هذا الرقم مبالغ فيه، وأن غرب إفريقيا لم يكن يصدر سنويا إلى الشمال أكثر من 3 أطنان، ويعتقد أن إنتاج تلك المنطقة السنوي من الذهب كان يتطلب من سكانها بذل جهد كبير يتمثل فى حفر ما بين 240000 و 480000 بئرا كل سنة للبحث عن هذه المادة النفيسة خلال الموسم المحدد لذلك النشاط، وأن ذلك يعني تعبئة مئات الآلاف من السكان خلال سنويا[1632].

وكانت ملكية الذهب تنتقل من التجار السودانيين إلى تجار الإيراد والتصدير فى المدن الساحلية، فيتولى أولئك تصديره إلى شمال إفريقيا، ليوضع هنالك تحت تصرف الصيارفة فى ورشات سك العملات التى كانت تستهلك كميات هامة منه، بينما يتم تصدير جزء منه إلى

[1626] ابن الفقيه: مصدر سبق ذكره، ص:87.

[1627] Joseph-KI-ZERBO ، op.cit ، p

[1628] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176.

[1629] العبر: المجلد6، مصدر سبق ذكره، ص: 412.

[1630] البكري: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 178-177.

[1631] R. MAUNY: Tebleau géographique ، op.cit ، p 376

[1632] Histoire genérale de l'Afrique ، op.cit ، pp 417-418

المشرق الإسلامي الذى كان بحاجة إلى كميات كبيرة من هذه المادة لتنفيذ الإصلاحات الاقتصادية التى وضعت خطتها فى النصف الثاني من القرن 7م، إذ لم يكن إنتاج آسيا وبلاد النوبة وما وفرته الكنوز الفرعونية يكفى لتحقيق ذلك الغرض[1633].

و يعتقد بعض الباحثين أن وصول العرب الفاتحين إلى السوس الأقصى خلال النصف الثاني من القرن7م مكنهم من الحصول على بعض المعلومات حول أهم الثروات الموجودة فى الصحراء وبلاد السودان، وخاصة منها الذهب، وأن حملة حبيب بن أبى عبيدة سنة 734م التى قادته إلى بلاد السودان فسبي وغنم كميات من الذهب، كانت تهدف إلى استكشاف مصادر إنتاج الذهب السوداني[1634]، وفي نفس السياق يندرج حفر ابنه عبد الرحمن بن حبيب لجملة من الآبار على أهم المراحل الشمالية للطريق الذى كان يربط سجلماسة بأودغست، مما شجع التجار وساعدهم على عبور الصحراء بحثا عن الذهب السوداني الذى أصبح منذ النصف الأول من القرن8م، يمون الأسواق الشمالية والشرقية، ومكنت إستمرارية إنتاج كميات كبيرة منه من تدفق القوافل المحملة به سنويا عبر الصحراء إلى الشمال والشرق، وتزايدت الكميات المنتجة من هذه المادة في القرن10م وذلك عندما تزيد عليه طلب الدولتين: الفاطمية في المغرب والأموية[1635].

وكانت غانة تتولى تجميع معظم الذهب السوداني المعد للبيع لتصدره إلى الشمال، باعتبارها الكيان السياسي الأكبر والأقوى فى غرب إفريقيا ولجوارها الجغرافى مع الصحراء، فكان باعة الذهب يتوافدون إلى مدنها من مختلف الجهات التى توجد بها معادنه، لذلك قال عنها أحد كتاب القرن10م مانصه: "... وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بماليه من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم"[1636].

ولقد ظلت مدينة أودغست خلال الفترة التى تهمنا أهم مركز تجاري فى الصحراء يستقبل الذهب السوداني ويهيؤه للتصدير إلى الشمال، لقربها من العاصمة الغانية، فغصت أسواقها به إلى درجة أن وفرته الدائمة بها جعلت بعض كتاب الفترة الوسيطة، ينوهون بجودة الذهب المجلوب منها، مثل ما كتبه البكري فى معرض حديثه عن تلك المدينة، في قوله: "...ويجلب منها...الذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه..."[1637].

لقد استقر تجار الإيراد والتصدير العرب والمسلمون فى أودغست منذ القرن8م، ونمت مع وجودهم صناعات مرتبطة بالذهب، خاصة تصفيته من الشوائب، لأن التبر كان يصلها خاما، كما كان القائمون على تلك الصناعة يتثبتون من وزن الذهب ونوعيته قبل أن تتم قولبته فيها على شكل "خيوط مفتولة"، كما سبق أن رأينا مع البكري، ويرى بعض الباحثين أن تلك الخيوط المفتولة هي عبارة عن أساور حلزونية ذات وزن كبير وأن ثمن الذهب الذى كان يمر بمراحل الفحص والتنقية والقولبة أعلى بكثير من ثمن الذهب الخام[1638]. ولم تكن مدينة أودغست

[1633] Ibid ، p 413
[1634] R. MAUNY: Tebleau géographique ، op.cit ، p 300
[1635] Histoire générale de l'Afrique ، t. 3 ، op.cit ، p. 412

[1636] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.
[1637] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.

[1638] R. MAUNY: Tebleau géographique ، op.cit ، p 300-375 et 376

المكان الوحيد فى الصحراء الذى يتم فيه تجميع الذهب وتهيئته للتصدير إلى الشمال، وإنما كانت إلى جانبها أسواق مختلفة من بينها على سبيل المثال سوق لهذه المادة كانت موجودة فى شمال موريتانيا فى بداية الفترة الوسيطة[1639].

وكانت صياغة الذهب فى الصحراء سواء على شكل خيوط مفتولة أو سبائك أو غيرها، تساعد التجار على حمله ونقله بأمان عبر الصحراء، حيث يمكن تحويله من دقيق ذهب إلى قطع متماسكة تمكن التاجر من أن ينقش على تلك القطع علامة معروفة له تميز ممتلكاته، أو حتى اسمه، مما يساهم فى حفظه من السرقة، كما كان يهدف من وراء تحويله إلى قطع متماسكة المحافظة عليه من الضياع، فى حالة سقوط الأكياس التى تحمله من أعلى ظهور الجمال، لوكان تبرا و فى حالة تمزقها، وتناثره بين رمال الصحراء، بحيث تستحيل استعادة كميات الذهب فى هذه الحالة، لأن دقيقه يندس فى الرمال، ويصعب العثور عليه، على العكس من السبائك أو الخيوط المفتولة.

وكان عدد القوافل المحملة بالذهب، والمتجهة إلى شمال إفريقيا، لا يتجاوز فى الغالب قافلة واحدة سنويا تتكون من 40 إلى 50 جملا، حمولة الواحد منها ثلاثة قناطير من الذهب أي 127.5= 3 x42.5 كلغم، وكانت تلك القوافل تتميز عن سواها من القوافل العابرة للصحواء بتشديد الحراسة عليها[1640].

وكان التجار يحصلون على الذهب السوداني عن طريق مقايضته ببضائع صحراوية أو شمالية، أهمها الملح الحجري، لكن معظمها كان فى الحقيقة لا يرقى إلى مكانة وقيمة تلك المادة النفيسة، وفى ذلك يقول المقري: "... تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له مع..."[1641].

وعلى الرغم من أن الذهب كان أهم مواد التصدير السودانية باتجاه الصحراء ومن خلالها إلى بقية العالم الإسلامي وحوض البحر الأبيض المتوسط، فإنه لم يكن المادة السودانية الوحيدة، وإنما كانت إلى جانبه مواد مختلفة تأتي دونه فى المرتبة من حيث الأهمية والكميات المصدرة.

ب-2- الرقيق السوداني:

لم تكن صحراء الملثمين بما عرف عنها من بساطة العيش وأنماط الإنتاج وضعف الكثافة السكانية بحاجة إلى يد عاملة كبيرة العدد ومتنوعة المهارات، وبالتالى لم تكن بها أسواق قادرة على ضمان استمرارية تجارة للرقيق، فضلا عن أن الغارات التى كانت تشن على سكان الواحات من قدماء البربر الحراثين والحروب القبلية كانت كافية لتوفير اليد العاملة من بين سكان الصحراء المتعودين على وهجها وندرة الماء بها والخدمات المطلوبة فيها، كما أن منطقتي شمال إفريقيا والمشرق الإسلامي اللتين تربطهما بها علاقات تجارية نشطة كانتا تحصلان خلال ذلك العصر على أعداد كبيرة من الرقيق من مناطق أخرى أقرب لهما جغرافيا، ولعل هذه الأسباب هي التى تفسر صمت معظم المصادر العربية الوسيطة عن تجارة الرقيق

[1639] J. DEVISSE:TEGDAOUST I ، op.cit ، p 133
[1640] R. MAUNY: Tebleau géographique ، op.citt ، p 375-376
[1641] الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق، د. احسان عباس 8ج، دار صادر، بيروت، 1968 ج5، ص:206.

عبر الصحراء أثناء تعرضها لمواد التبادل التجاري بين شمال إفريقيا والصحراء، وبلاد السودان.

وعلى الرغم من ذلك، فإن تجار الرقيق السوداني لم تكن غائبة بشكل مطلق عن المنطقة، إذ من المعروف أن سكان غرب إفريقيا كغيرهم من شعوب العالم ، كانوا يمارسون الرق الذى هو ظاهرة إجتماعية عالمية، حيث كانت الحروب في بلاد السودان توفر أعدادا من الأسرى يؤول بهم المطاف فى الغالب إلى الاسترقاق، بل إن بعض الملوك السودانيين في حوض نهر السنغال، كانوا ينظمون حملات عسكرية ضد بعض الشعوب السودانية بهدف الحصول على حاجتهم من العبيد لاستخدام بعضهم فى المجال الزراعي وبيع البض الآخر للتجار الشماليين[1642]، بل كان ذلك دأب مختلف حكام الممالك السودانية التى كانت موجودة بين الصحراء والغابات الأستوائية، حيث كان ملوكها يشنون الغارات باستمرار على الشعوب التى كانت تقطن فى أطراف وداخل الغابات الأستوائية ليحصلوا على الرقيق الذى كانت أعداد هامة منه تجمع فى المدن التجارية السودانية مثل غانة وتكرور وغيرهما وتعرض هنالك على التجار[1643]، وفى هذا المجال يقول الإدريسي: "... وأهل سلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم، ويسلبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار..."[1644] ، ويصف الادريسي شعب لملم، فيقول: "... والغالب عليهم الكفر والجهالة، وجميع أهل بلاد لملم إذا بلغ أحدهم الحلم وشم وجهه صدغاه بالنار ذلك على علامة لهم..."[1645].

وكانت العادات السائدة بين المجتمعات السودانية بغرب إفريقيا تشكل مصدرا آخر للرقيق، ومن الأمثلة على ذلك ماذكره البكري عن سكان أعالي السنغال وغيرهم من السودان عند ما كتب يقول: "... وحكم أهل هذه البلاد والمذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة فى بيع السارق أو قتله..."[1646]، ويشير البكري إلى مكان للرقيق فى غرب إفريقيا ذكر أن التجار السودانيين كانوا يجلبون منه العبيد، فيقول: "... ومن يرسنى يجلب السودان العجم المعروفون بنونغمارته... "[1647] ، وفضلا عن ذلك، كانت الشعوب الوثنية السودانية تقدم أعدادا من أبنائها سنويا عبيدا للملوك السودانيين[1648].

ومن بين النصوص النادرة التى تحدثت بصراحة عن دخول الرقيق فى التبادل التجاري عبر الصحراء خلال الفترة التى تهمنا، ماورد فى إشارة لابن حوقل أثناء سرده للمواد التجارية التى كان المغرب يصدرها إلى المشرق، في قوله: "...الخدم المجلوبون من بلاد السودان، والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة إلى الأندلس..."[1649] ، كما أشار الإدريسي إلى أن تجار المغرب الأقصى كانوا ينقلون العبيد من مدينة تكرور، وذلك فى قوله: "...ومدينة تكرور أكبر

[1642] MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 337
[1643] EL ALAWI ، op.cit ، P 91

[1644] الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 33.
[1645] نفس المصدر، ص: 34.
[1646] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 173.
[1647] نفس المصدر، ص: 177.

[1648] EL ALAWI ، op.cit ، p 96

[1649] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 95.

من مدينة سلى وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم... "[1650].

وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر بشكل مباشر إلى أي دور لصحراء الملثمين فى هذه التجارة التى تتخذ من الانسان بضاعة لها، فإن من المعتقد أن مراكزها الحضرية الجنوبية وبصفة خاصة منها أودغست قد عرفت خلال فترة سيطرة الزناتيين والغانيين عليها هذه التجارة، وقد أشار البكري إلى ذلك الدور عند ما تحدث عن أثمان بعض الجاريات السودانيات بأودغست، فقال: "... وبها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر، يحسن عمل الأطعمة الطيبة..."[1651].

ويرى بعض الباحثين أن العبيد فى مدينة أودغست كانوا يمثلون الفئة الاجتماعية التى تباشر الانتاج وعلى سواعدها يتم القيام بمختلف الأنشطة والخدمات سواء تعلق الأمر بالبستنة أو تربية المواشي أو خدمة القوافل أو تشييد المنازل أو الخدمة المنزلية الخ...، لذلك فإن سكان تلك المدينة كانوا بحاجة دائمة إلى استيراد أعداد منهم للقيام بتلك الأشغال، كما كانوا يصدرون بعضهم إلى الشمال[1652].

وإذا كنا لانتفق مع صاحب هذا الرأي، خاصة عند ما يتعلق الأمر بالفترة مابين القرن8 م ونهاية القرن10م، فإننا لا نمانع فى تفسير إشارات بعض المصادر حول هذا الموضوع في النصف الأول من القرن11م، على أنها تتعلق بتجارة الرقيق فى تلك المدينة، إذ من المعروف أن ذلك التاريخ، هو الذى تغيرت خلاله وضعية أودغست من عاصمة لصحراء الملثمين معظم سكانها من صنهاجة إلى مدينة محتلة من طرف غانة ومعظم سكانها من تجار إفريقية المتحالفين مع تلك الإمبراطورية السودانية، فقد أشارت المصادر إلى امتلاك أولئك التجار لأعداد هامة من الرقيق المستجلب من بلاد السودان، وقد صفهم البكري أثناء حديثه عن مدينة أودغست فى عهده فقال: "... وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب... وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، كان للرجل منهم الف خادم وأكثر..."[1653]، فمن الواضح إذن أن امتلاك مايزيد على ألف خادم بالنسبة للفرد الواحد يتجاوز حدود الأغراض المتعلقة بالخدمة، ولا يمكن تفسيره إلا بأن التجار المستقرين هنالك كانوا يشترون العبيد ويجمعونهم فى انتظار قدوم القوافل التى تبحث عنهم لتصديرهم إلى الشمال.

ومن المعروف أن الملوك السودانيين كانوا يبادلون العبيد أساسا بالخيول التى كان التجار الشماليون يزودونهم بها، ثم ينقل أولئك التجار العبيد فى قوافل تختار الطرق والمسالك المناسبة لها، والتى ينبغي أن تتوفر على نقاط مياه متقاربة، كما ينبغي أن تكون معظم جمال القافلة محملة بالماء للمحافظة على حياة أولئك العبيد الذين يخشى عليهم من الموت عطشا فى أعماق الصحراء قبل وصلولهم إلى شمال إفريقيا[1654].

1650 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 33.
1651 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.
1652 الجنحاني(1977): مرجع سبق ذكره، ص: 216.
1653 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.
1654 R.MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 337

وفى الوقت الذى يرى فيه بعض الباحثين الغربيين أن تجارة الرقيق عبر الصحراء خلال العصر الوسيط مبالغ فى حجمها ون أعداد العبيد الذين كانوا يعبرون الصحراء كانت محدودة نتيجة لضعف الطلب فى شمال إفريقيا على الرقيق السوداني [1655]، فإن باحثين آخرين يرون عكس ذلك، ونخشى أن تكون عقدة الذنب قد دفعتهم إلى تهويل هذه التجارة خلال العصر الوسيط لتخفيف مسؤولية أوربا عما لحق بإفريقيا الغربية من خسائر بسبب إفراغها من معظم سكانها النشطين عقب اكتشاف أمريكا، فى إطار ما عرف بالتجارة المثلثة، فعلى الرغم من أن أولئك الباحثين يقرون بأن المصادر الوسيطة لم تعط أهمية تذكر لتجارة الرقيق عبر الصحراء، فضلا عن أنهم يعون المخاطر التى تعترض عبور مجموعات بشرية هامة من حيث العدد للصحراء، من جهة، وعدم ضمان تلك التجارة للربح بسبب هروب العبيد وموتهم فى الطريق وتعرض القوافل التى تنقلهم للغزو والسلب والضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم، فإنهم مع ذلك كله يرون أن الحد الأدنى لصادرات السودان الغربي من الرقيق باتجاه شمال إفريقيا خلال الفترة الوسيطة كان 20.000 عبد سنويا، أي أن تلك المنطقة كانت تصدر إلى شمال إفريقيا مليوني شخص خلال كل قرن، ويصرح صاحب هذا الرأي بأن تقديره دون الواقع، وأن الأرقام قد تكون أكبر بكثير من تصوره[1656].

وقد أورد أحد الباحثين ردودا نرى أنها كافية لدحض هذا الرأي، فتجارة الرقيق عبر الصحراء لم تكن على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للتجار العرب والبربر ولا للصادرات التجارية السودانية إلى شمال إفريقيا، وذلك لاعتبارات عديدة من أهمها:

- غياب وسائل نقل ضخمة قادرة على حمل أعداد كبيرة من العبيد السود الذين كان عبور الصحراء يخلق لهم مشاكل كبرى مرتبطة بعدم تعودهم على تلك البئة وما يرتبط بها من مصاعب، فضلا عن هروب ومرض وموت وإعياء الكثيرين منهم نتيجة لعبور تلك الفيافي.
- ارتفاع كلفة تجارة الرقيق السوداني بالمقارنة مع المواد التجارية الأخرى مما خف حمله وغلا ثمنه، فالعبيد كانوا يتطلبون مصروفات أثناء نقلهم وبعده وخلال مدة تسويقهم، كالمأكل والمشرب والثياب والعلاج إلخ...
- أن الأنشطة الاقتصادية بالمغرب لم تكن بالنظر إلى عدد سكانه ونمط الانتاج السائد به تتطلب يدا عاملة مستوردة، وفى حالة استيراد عبيد، فإنهم كانوا يوجهون إلى الفئة المترفة، وفى هذه الحالة فإن عدة آلاف منهم كانت كافية، مع العلم بأن العبيد السودانيين لم يكونوا قادرين على المنافسة فى الأسواق المتوسطية خلال الفترة التى تهمنا، حيث كان العبيد المسيحيون والمسلمون يباعون فى أسواق شمال إفريقيا وأوربا بأثمان أقل بكثير من تلك التى كان الرقيق السوداني يباع بها فى أسواقه المحلية قبل أن تحمله القوافل إلى الشمال، فمثلا لم يكن ثمن الجارية المسيحية المستجلبة إلى المغرب من الأندلس يتجاوز دينارا واحدا ونصف دينار[1657] فى الوقت الذى كانت فيه الجارية السودانية تباع فى أودغست بمائة دينار[1658].

ومن الملاحظ أن غالبية ما كان يجلب إلى المغرب من رقيق غرب إفريقيا- على محدوديته- كان من الإناث، اللاتي كن عادة يوجهن إلى الخدمة المنزلية، ويتخذن فى كثير من الأحيان سرايا من قبل السادة[1659].

[1655] Histoire generale de l'Afrique t3 ، op.cit ، p 412
[1656] R.MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 377 et 378
[1657] EL ALAWI ، op.cit ، p 9
[1658] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158.
[1659] EL ALAWI ، op.cit ، p 98

وبصفة عامة يمكن الجزم بأن أعداد العبيد الذين كانوا يوجهون إلى الشمال عبر الصحراء خلال العصر الوسيط لم تكن تتجاوز على أعلى تقدير عدة مئات خلال السنة[1660]، وبالتالى فإن تجارة الرقيق عبر الصحراء كانت أقل أهمية مما تصور البعض وصوره، لأن مواد سودانية أخرى كانت أكثر رواجا منها، وأهم عند التجار الذين لا يبحثون إلا عن الربح.

ب -3 مواد أخرى:

كان غرب إفريقيا يصدر إلى الصحراء فضلا عن مادتي الذهب والرقيق، مواد تجارية متعددة، بعضها كان يوجه للاستهلاك المحلي، والبعض الآخر يصدر إلى الشمال، ومن الصعب حصر كل تلك المواد، وإن كان من المؤكد أن لائحتها ظلت فى أزدياد مطرد مع تطور العلاقات التجارية مع الصحراء وعبرها، لكن من أهمها على سبيل المثال لا الحصر، الذرة التى كانت تمثل أساس الغذاء فى صحراء الملثمين، خاصة الفئات المتوسطة والفقيرة، وكان فائض إنتاج إمبراطورية غانة منها كبيرا، إذ كان سكانها يزرعونها مرتين فى السنة، كما كانت صحراء الملثمين تستورد من بلاد السودان كميات كبيرة من العسل[1661].

ويعتقد أيضا أن الصحراء كانت تستورد العاج السوداني لتصدره إلى الشمال، فمن المعروف أن الفيلة كانت كثيرة فى المنطقة السودانية الواقعة بين الصحراء والغابات الأستوائية، وكان العاج الذى يحصل عليه منها يستخدم فى مجالات صناعية وفنية عديدة، إلا أن بعض مشاهير فقهاء الغرب الإسلامي عارضوا استعماله لأسباب شرعية، وبالتالى كانت القوافل تحمله إلى شمال إفريقيا لتصديره إلى الهند والصين، مما جعله من المواد غير الأساسية فى التبادل التجاري عبر الصحراء[1662]، يضاف إلى ذلك مواد أخرى عديدة منها، التوابل والفلفل والشب والزيوت النباتية الخ...[1663].

ويمكننا القول بأن العلاقات التجارية بين غرب إفريقيا وصحراء الملثمين، كانت مزدهرة، وأنها كانت الأساس القوي الذى انبنت عليه العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

I - الصلات الاجتماعية والثقافية:

من الطبيعي أن يكون للجوار الجغرافي بين صحراء الملثمين وإفريقيا الغربية الواقعة والعلاقات التجارية التي كانت نشطة بينهما أثر على الصلات بين شعوب المنطقتين بسبب الإمتزاج بين مختلف الجماعات عن طريق المساكنة والجوار، مما يؤدي إلى تسهيل تبادل التأثير بين سكان المنطقتين فى المجال الثقافى.

1 - الصلات الاجتماعية:

أدت عوامل عديدة عبر الفترات التاريخية المتعاقبة إلى استقرار مجموعات سودانية فى صحراء الملثمين وهجرة مجموعات من سكان الصحراء، سواء ممن استقروا بها مؤقتا بعد قدومهم إليها من المشرق العربي أو شمال إفريقيا أو من سكانها الأصليين إلى منطقة غرب

1660 Ibid, p. 99

1661 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 158و ص: 177.

1662 EL ALAWI ، op.cit ،p 102

1663 R.MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p p 379-380

إفريقيا، ويبدو أن من أهم العوامل التى أدت إلى هجرة الجماعات من الصحراء إلى غرب إفريقيا أو من بلاد السودان إلى الشمال، البحث عن المرعى وممارسة التجارة، والبحث عن العمل فى المراكز التجارية فى المنطقتين.

وإذا كنا قد تعرضنا سلفا للحديث عن بعض المجموعات السودانية التى استقرت فى الصحراء، وأصبحت تشكل جزءا من مكونات سكانها خلال العصر الوسيط والعصور اللاحقة[1664]، فإن مجموعات بشرية أخرى هاجرت إلى الاتجاه المعاكس، أي من الصحراء إلى بلاد السودان، فاستقرت بين السودانيين بشكل نهائي واندمجت فى وسطهم الاجتماعي والثقافى إلى درجة أصبح من العسير معها تمييز أحفاد تلك المجموعات الوافدة من السكان الأصليين، مما جعل البعض يجزمون بأنها جماعات سودانية فى الأصل، ولا تمت بصلة إلى العرب أو البربر، ومن تلك الجماعات على سبيل المثال المجموعة التى كانت تعيش بتادمكة وحول كاوو، والتى أطلق عليها ابن حوقل اسم "بني تامناك"، فقال عن فروعها التى ذكر منها مايزيد على 25 عشيرة، ما نصه: "... وأما بنو تامناك ملوك تادمكة والقبائل المنسوبة إليهم فيقال إن أصلهم سودان ابيضت أبشارهم وألوانهم لقربهم إلى الشمال وبعدهم عن أرض كوكو... ويقول آخرون بل من صنهاجة أنفسهم، واحتج ملحق بني تامناك ببنوة حام، يقول الكندي أن البيضان إذا تناسلوا فى بلد السودان سبعة أبطن عادوا فى سحنتهم وسوادهم، وإذا توالد السودان فى بلد البيضان سبعة أبطن عادوا فى صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء، وليس بهذه الدعوى يتكلم فى الأنساب"[1665].

ويرى بعض الباحثين أن المجموعة التى تحدث عنها ابن حوقل خلال القرن10م، هي نفسها المعروفة اليوم باسم "كل تامجق"، وأن معظم عشائرها مازالت تحمل الاسماء نفسها التى أوردها ابن حوقل، ويفسر ذلك الباحث تردد ابن حوقل فى تحديد هوية بني تامناك ومايرتبط بهم من القبائل، ثم ماذهب إليه من تحول للسودان إلى بيضان والعكس، بالترابط والتداخل الذى كان قائما بين تلك المجموعات ذات الأصول الصحراوية، والتى أوغلت جنوبا، والمجموعات السودانية التى آوتها واستقرت معها فى مواطنها، وأن زواج رجال تلك المجموعات جيلا بعد جيل بالنساء السودانيات كان أمرا شائعا خلال تلك الفترات[1666].

ويفيد ابن خلدون باستقرار مجموعتين صحراويتين فى بلاد السودان خلال فترة مبكرة من التاريخ الوسيط، مشيرا إلى أن إحداهما لعبت دورا كبيرا فى حروب الردة ببلاد المغرب، كما شاركت فى تثبيت المذهب الخارجي الاباضي فى المغرب الإسلامي، ويذكر بصفة خاصة هوارة ولمطة فيقول: "... ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان..."[1667]، وقبيلة لمطة التى ذكر ابن خلدون أنها من الملثمين، وأنها استقرت قرب كوكو، هي مجرد جزء من القبيلة الكبرى التى تحمل نفس الاسم، والتى كانت منتشرة فى صحراء الملثمين وجنوب المغرب الاقصى، وقد هاجرت جماعات من فروعها الصحراوية إلى منطقة السودان الغربي فاستقرت ابتداء من منتصف القرن7م فى المنطقة المحيطة بأواسط نهر النيجر، وفرضت نفوذها على المجموعات السودانية التى وجدتها هنالك، خاصة الصنغاي، فاخضعتهم لسلطتها السياسية، بزعامة أسرة لمطية اتخذت من كوكيا

[1664] انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

[1665] ابن حوقل: مصدر سبق مصدره، ص:101.

[1666] بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 101.

[1667] العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 286.

حاضرة لمملكتها هي أسرة، "زا"[1668]، التى تحدثت عنها المصادر السودانية، وحاولت تفسير الطريقة التى تولى بها اسلافها حكم الشعوب السودانية فى تلك المنطقة، فقال السعدي فى هذا المجال: "... أما الملك الأول زا الأيمن، أصل اللفظ جاء من اليمن، قيل أنه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين فى أرض الله تعالى، حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا... فى أرض سغي... فنزلا عند أهل ذلك البلد فسألوهما عن مخرجهما، فقال الكبير جاء من اليمن، وبقوا لايقولون إلا، زا الأيمن، فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم من العجمة..."[1669].

ونعتقد أن صلة "زا " باليمن ليست سوى أسطورة نسجت حول هيمنة قبائل الملثمين على الحياة السياسة فى بلاد السودان، خلال فترة مبكرة من تاريخها الوسيط، وبما أن صنهاجة تدعي النسب الحميري وأن أسلافها هاجروا من اليمن إلى المغرب والصحراء، فإن الرواية السودانية، احتفظت بتلك الادعاءات للاسرة المالكة وحدها دون غيرها من اللمطيين والملثمين الذين استقروا معها فى تلك المنطقة خلال الفترة ذاتها وساعدوا ملوكها فى بسط نفوذهم هنالك، وانطلاقا من ذلك، يمكننا القول بأن العشائر اللمطية السالفة الذكر، وصلت إلى تلك المنطقة فى إطار الهجرات التى حدثت قبل القرن8م، وأدت إلى نزوح بعض القبائل من الصحراء إلى منطقة الدلتا الوسطى لنهر النيجر واستقرارها هنالك بطريقة سلمية، حيث تمكن بعضها من تشييد مدن على الضفة اليسرى لذلك النهر، كانت لها شهرتها فى غرب إفريقيا مثل نونو، وديا، ثم جنه على الضفة اليمنى لنفس النهر[1670].

كما أن قبيلة مسوفة الصنهاجية المشهورة، كان لها وجودها هي الأخرى حول منعطف نهر النيجر أيضا، خاصة منها عشائر إمغشرن التى كانت تنتجع فى تلك المنطقة وتعودت على المصيف بموقع على ضفة النيجر شيدت عليه فى آخر المطاف قرية إسمها امظغ، أما موسم الخريف فكانوا يقضونه شمالا، خاصة حوالي أروان، وانتهى الأمر ببعض تلك العشائر إلى تأسيس مدينة تنبكتو فى أواخر القرن 5هـ/11م[1671]، وفضلا عن ذلك، أشارت مصادرنا العربية الوسيطة إلى قبائل صنهاجية أخرى عديدة أكدت أنها كانت مستقرة خلال الفترة التى تهمنا فى أعماق بلاد السودان، مثل مداسة وسغمارة[1672] الخ...

ولعل من بين أهم المجموعات الصحراوية التى هاجرت من صحراء الملثمين إلى بلاد السودان واستقرت بها وأثرت فى ساكنيها وتأثرت بهم وتفاعلت معهم حتى أصبح من العسير تمييزها عنهم، المجموعة المعروفة باسم "ماسنة"، والتى كانت تتكلم لهجة عرفت بكلام "آزير" وهي لهجة يعتقد البعض أنها كانت ذائعة بين سكان مدينتي أودغست وغانة، ومع أن بعض الكتاب اعتقدوا أن ماسنة الذين كانوا يقيمون فى الصحراء ومناطق مختلفة من غرب إفريقيا، هم عبارة عن مجموعة سودانية سوننكية، فإن بعض الباحثين توصلوا إلى أنهم مجرد عشيرة صنهاجية، هاجرت إلى بلاد السودان وتأثرت بلغات الشعوب هنالك، ونتج عن تأثرها وتأثيرها فى لغات تلك الشعوب لهجة جديدة مركبة، هي "كلام آزير"[1673]، ولعل ذلك هو ما أشار إليه

[1668] عبد الرحمن زكي: مرجع سبق ذكره، ص: 133.

[1669] عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:4.

[1670] Ch. MONTEIL "La langue Azer" Contribution l'etude du Sahara occidental ، ouvrage publié sous la direction de Th. MONOD ، Librairie Larose ، Paris ، 1939 ، p. 217

[1671] عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص.ص 20و25.

[1672] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 180 و181.

[1673] راجع:

Ch. MONTEIL ، op.cit ، pp 216-218

عبد الرحمن السعدي فى معرض حديثه عن دولة التوارق التى اتخذت من مدينة تنبكتو عاصمة لها فى عهد سلطانها أكل، فقال: "... وفوض أمر البلد إلى تنبكت كي محمد نض وهو صنهاجي من قبيلة آجرأصله شنجيط، وهو أصل جميع هذه القبيلة كما أن أصل أهل ماسنة تيشيت..."[1674].

ومما يؤيد الرأي القائل بأن ماسنة هي إحدى عشائر قبيلة صنهاجة الكبرى، أن وجودها لم يقتصر على الصحراء والسودان فحسب، كما أن اسمها ليس وليد ظرفية متأخرة، وإنما يبدو أنها كانت ذات مكانة بين قبائل المغرب الأقصى، حيث أعطت اسمها لبعض جهاته ومدنه مثل تامسنا التى يعتقد البعض أنها المنطقة التى انطلقوا منها مهاجرين إلى صحراء الملثمين ثم إلى بلاد السودان[1675]، كما أن البكري أشار هو الآخر إلى وجود مناطق تحمل اسم تلك المجموعة فى المغرب الأقصى، فكتب يقول على سبيل المثال: "... ومن مدينة البصرة طريق آخر إلى فاس فمنها إلى وادي ورغة ثم إلى مدينة ماسنة مرحلة، وهي مدينة عيسى بن الحسن المعروف بالحجام..."[1676] ، ويبدو أن مدينة ماسنة قامت قبل عهد الحجام، حيث ذكر نفس المؤلف اسمها فى معرض حديثه عن المولى إدريس عند ما قال: "... وخرج إلى ماسنة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة..."[1677].

ويبدو أن صنهاجة الصحراء كانوا على علم بالروابط التى تجمعهم بماسنة الذين كانوا قد استقروا منذ عدة قرون بين الشعوب السودانية الواقعة جنوب الصحراء، فكان الصنهاجيون يتحركون بدافع العصبية من أجل حماية ماسنة كلما تعرضوا لخطر من طرف إحدى الممالك السودانية، ومن بين الأمثلة على ذلك مساعدة تينيروتان ملك أودغست لملك ماسنة ضد أحد ملوك السودان وذلك فى إطار الحملة العسكرية التى أوردها البكري نقلا عن الوراق فقال متحدثا عن الملك الصنهاجي: "... واستمده بعرين ملك ماسين على ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب، فدخلت بلد أوغام وعساكره غافلة، فغنمت البلد وأحرقته، فلما نظر أوغام إلى ما حل ببلده هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله عن دابته وجلس عليها فقتلته أصحاب تينيروتان، فلما عاين نساء أوغام إليه قتيلا تردين فى الآبار وقتلن أنفسهن بضروب القتل أسفا عليه وأنفة من أن يملكهن البيضان..."[1678].

وبالإضافة إلى ماسنة هنالك مجموعات صنهاجية أخرى عديدة هاجرت إلى بلاد السودان واستقرت بين سكانها فاختلطت بهم، من بينها مثلا المجموعة المعروفة عند السوننكه باسم جيري انكو، وكذلك المجموعة المعروفة عندهم باسم "برته" والتى يدعى فرعها المقيم مع الجيريانكو فى آلاسو بباغنه فى جمهورية مالي الحالية أنها تعود إلى مجموعة كل انتصار وهي إحدى عشائر مسوفة، فى الوقت الذى يرى فيه بعض الباحثين أنهم فى الأصل جزء من قبيلة صنهاجية كان لها وجود فى المنطقة المحاذية لباغنة من الشمال، وبصفة خاصة فى مدينة ولاته وهي قبيلة "بارتيل" خاصة أن "برته" معروفين بين الماندي على أنهم من بين العشائر المرابطية فى بلاد السودان[1679].

[1674] عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:22.

[1675] TEGDAOUST III ، op.cit ، p 530

[1676] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 111.

[1677] نفس المصدر، ص: 118.

[1678] نفس المصدر، ص: 159.

[1679] TEGDAOUST ، III ، op.cit ، p 526

ولاشك أن تداخل سكان الصحراء مع الجماعات والشعوب السودانية تم على مر العصور وعلى امتداد حدود صحراء الملثمين مع بلاد السودان، ولا يعني ماسبق أن تحدثنا عنه من نماذج تؤكد ذلك التداخل أن الاختلاط بين سكان المنطقتين كان مقتصرا على الحدود الشرقية بينهما، وإنما كانت تلك الصلات أكثر وضوحا فى تلك الجهات لأن عاصمتي الصحراء وبلاد السودان (أودغست- غانة)، كانتا موجودتين فى تلك المنطقة، إلا أنه من المؤكد أن كدالة التى كانت تقطن المنطقة الغربية من الصحراء وتسيطر على سبخة ملح آوليل، غير البعيدة من مصب نهر السنغال، قد تجاوزت بعض عشائرها هي الأخرى الصحراء جنوبا واستقر بعضها بين السودانيين المقيمين حول ذلك النهر، ومن بين أهم الإشارات التى تدل على ذلك ما ذكرته المصادر الوسيطة عن أن الكداليين كانوا محتكين بالسودان، وأن أقرب مدن بلاد السودان إليهم هي صنغانة التى كانت مشيدة على ضفتي النهر[1680] ولعل اسم هذه المدينة، مجرد تحريف لاسم قبيلة صنهاجة التى تنتمي إليها كدالة، وربما يكون وقوع مدينة صنغانة (صنهاجة) على ضفتي ذلك النهر، هو السبب وراء اعطاء البرتغاليين فى القرن15م لذلك النهر اسم "نهر السنغال[1681].

أما عرب الفتح الذين تدفقوا إلى الصحراء من الشمال بعد فتحهم للمغرب، فإن جماعات منهم تجاوزت حدود الصحراء هي الأخرى جنوبا واستقرت بين الشعوب السودانية مكونة جاليات هامة فى معظم أهم كبريات المدن السودانية خلال الفترة التى تهمنا، وكان دافع العرب وراء التوغل فى بلاد السودان يتمثل أساسا فى التجارة بالنسبة لبعضهم والدعوة إلى الإسلام بالنسبة للبعض الآخر، فضلا عن البحث عن المراعي الذى كان سببا لهجرات جماعية لبعض العرب إلى تلك المناطق، كما وصلها أفراد منهم هاربون من قبضة السلط السياسية[1682].

ومن بين الجماعات العربية التى وصلت غرب إفريقيا من أجل الفتح واستقرت هنالك إلى الأبد، نذكر الجيش الذى أوفده بنو أمية إلى غانة لنشر الإسلام بها، فاستقر بها وبقي أحفاده هنالك بشكل نهائي، وكانوا متميزين عن السودان فى عهد البكري الذى كتب عنهم يقول: "... وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون فى السودان، وهم بيض الألوان حسان الوجوه، وبسلى أيضا قوم منهم يعروفون بالفامان"[1683]، أما اللاجئون السياسيون، فنذكر من الأدلة على ورودهم إلى بلاد السودان وبقائهم فيها، هروب بعض الأمويين من قبضة العباسيين ولجوئهم إلى بلاد الكانم، وعن عقبهم هنالك يقول البكري أثناء حديثه عن بلاد الكانم مانصه: "... وبين زويلة وبلد الكانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء بلاد زويلة، لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هنالك قوما من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زي العرب وأحوالها..."[1684]، وفضلا عن ذلك، من الرائج عند الهاوسا أن جد مؤسسي إماراتهم السبع، هو شخص عربي ينسبونه إلى ابن ملك بغداد ؟ !، ويدعى حسب زعمهم "أبويزيدو" أو " باياجيدا" وتذكر الأسطورة التى نسجت حوله، أنه خرج من بغداد مغاضبا أباه إثر خلاف بينهما، وأقام فى برنو ثم اتجه إلى مناطق عديدة من بلاد الهاوسا واستقر به المقام أخيرا فى دورا التى تزوج ملكتها، كما يدعى سكان البرنو أن أسرة السيفيين

1680 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 172.

1681 بوفيل: مرجع سبق ذكره، ص: 102. وكذلك غوتيي: مرجع سبق ذكره، ص:252.

1682 R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 461

1683 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 179.

1684 نفس المصدر، ص: 11.

التى حكمت بلادهم حوالي الف سنة ترجع فى نسبها إلى سيف بن ذي يزن ملك اليمن قبيل البعثة النبوية، فى حين يعتقد شعب اليوروبا أنه ينحدر من سلالة أحد ملوك مكة الجاهليين، هو الملك النمرود[1685].

أما جاليات التجار العرب والبربر التى لم تكن أي مدينة تجارية سودانية تخلو منها إلا فى النادر، فقد لعبت دورا هاما فى الحياة الاقتصادية والثقافية لغرب إفريقيا خلال الفترة الوسيطة[1686]، وقد وصل أولئك التجار خلال تاريخ مبكر من فتح المغرب الأقصى على يد الجيوش العربية الإسلامية إلى غرب إفريقيا، وربطوا مع السودانيين علاقات تجارية[1687] وأهم المدن السودانية التى أشارت المصادر إلى أهمية الجاليات العربية بها، هي غانة وبريسي وملل وبلاد البكم[1688] وجنة[1689]الخ...

وبصفة عامة، فإن الاتصال البشري بين سكان صحراء الملثمين وأهالي غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط، وما أدى إليه من امتزاج وتداخل بين البربر والعرب والسودان ساعد على تبادل التأثيرات الثقافية بين سكان المنطقتين.

2 - العلاقات الثقافية:

كان إذن للجوار الجغرافى بين صحراء الملثمين ومناطق إفريقيا الغربية السودانية، وما نتج عنه من صلات تجارية وبشرية، أثر على تبادل الافكار والعادات والتقاليد بين المنطقتين، وبما أن معظم أفكار وعادات وتقاليد وأفعال السودانيين- إن لم تكن كلها- كانت تنبع من معتقداتهم الوثنية وبتوجيه من الكهنة، إذ كان الدين يسيطر على حياتهم اليومية مثلهم فى ذلك مثل معظم المجتمعات القديمة والوسيطة، مع التفاوت فى درجة سيطرة الدين وطبيعته على مجتمعاتهم[1690]، فإننا سنركز فى دراستنا للعلاقات الثقافية بين صحراء الملثمين ومنطقة غرب إفريقيا على تبادل التأثر والتأثير بينهما فى هذا الجانب الروحي، مما يتطلب منا معرفة طبيعة الديانات التى كانت سائدة فى غرب إفريقيا قبل انتشار الإسلام بها، مادمنا قد تعرفنا فى الفصل السابق على ذلك الجانب من حياة سكان الصحراء خلال الفترة التى تهمنا.

أ- أهم ديانات سكان غرب إفريقيا قبل اعتناقهم للإسلام:

كانت الوثنية بشكل عام هي الديانة الأساسية بل الوحيدة التى تنبثق منها الطقوس وتوجه المجتمعات السودانية فى إفريقيا الغربية حتى وصول العرب المسلمين إلى تلك المنطقة خلال

1685 د.أ.م كاني: ؛مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700م و1700م مع إشارة خاصة إلى كانم - برنو وأرض الهاوسا« المجلة التاريخية الليبية، مرجع سبق ذكره، ص.ص:9-26.

1686 R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 461

1687 العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 412.

1688 البكري: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 174-183.

1689 السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:13.

1690 دريد عبد القادر نوري: تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10 هـ/ 10-16م، نشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- مطابع جامعة الموصل، 1985، ص.ص:39-40.

القرن 2هـ/ 8م[1691]، وقد سيطر طابع الاحيائية على الوثنية هنالك، حيث ظلت تسيطر على الذهنية السودانية خلال معظم مراحل الفترة التى تهمنا.

ويتلخص مضمون الأحيائية فى اعتقاد معتنقيها أن كل الأشياء لها أرواح، وأن مصدر قوة الطبيعة هو إله أعلى وأعظم من كل الآلهة الأخرى يوهبها قوته، ويتداول المالنكي بصفة خاصة أسطورة حول ذلك الإله مفادها أن أول ما خلقه من الأحياء يتمثل فى طفلين توأمين حلت روحيهما فى الكائنات المتناثرة فى الطبيعة فدبت الحياة فى البشر والحيوان والنباتات نتيجة لذلك.[1692]

ولاشك فى أن هذه الأسطورة من بين أساطير سودانية أخرى تؤسس للاحيائية فى المجتمعات السودانية، التى كانت شعائرها الدينية متنوعة على الرغم من أنها تصب كلها فى الإيمان بوجود الإله الأعظم السالف الذكر، مع عدم الاتفاق على صفاته، ولا الطريقة التى يتم التقرب له بها، وما إذا كانت عبادته إلزامية أم اختيارية، حيث كان بعضهم يرى أن الإله الأعظم غير مهتم بما يدور على الأرض، وأنه ترك العلاقة بين البشر والإله لأرواح أقل أهمية منه، فهي بالنسبة لهم أحق وأولى بالعبادة منه مادامت إرادته كذلك[1693]، بينما كانت مجموعات سودانية أخرى تعتقد بأنه يراقب سلوك البشر، ليكافئ المستقيمين ويعاقب المخطئين، فكانوا يعبدونه ويقدمون له القرابين[1694]، لكن طرق عبادتهم له اختلفت من مجموعة إلى أخرى، حيث شاعت بين بعض الجماعات السودانية صناعة بعض التماثيل الخشبية أو المعدنية وعبادتها[1695]، وبالتالي يمكن إلحاقها بغيرها من المجتمعات البشرية التى كانت تعبد الأصنام، و هي العبادة الأكثر انتشارا بين السودانيين، وفى ذلك يقول البكري فى معرض حديثه عن سكان مملكة تكرور: "... وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم..."[1696]، كما وصف ديانة أهل مملكة كوكو قائلا: "...وهم يعبدون الدكاكير كما تفعل السودان..."[1697]، ومع تعميمه لعبادة الأصنام على كافة السودان خص منها مناطق أخرى كغانة ومالي وترنقة ومملكة الدمدم[1698] الخ...

وكانت أشكال وطبيعة تلك الأصنام تختلف من مجموعة إلى أخرى، حيث تجدها عند البعض على شكل تماثيل بشرية[1699]، وصفتها مصادرنا الوسيطة مثل ما أورده البكري أثناء حديثه عن سكان مملكة الدم دم عند ما كتب يقول: "... وإذا سار السائر من بلاد كوكو على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم، يأكلون من وقع إليهم... وفى بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم فى صورة امرأة يتألهون به ويحجونه..."[1700] ، ومقابل ذلك، كانت مجموعات سودانية أخرى تختار معبوداتها من عناصر الطبيعة ، بحيث كان المعبود يختلف من

1691 R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p ،520

1692 دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص.ص: 40-41.

1693 حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية- ط3، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1984، ص: 53.

1694 دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص: 41.

1695 R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 520

1696 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 172.

1697 نفس المصدر، ص: 183.

1698 نفس المصدر، ص.ص: 175-183.

1699 دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص:41.

1700 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 183.

منطقة إلى أخرى، تبعا لاختلاف المناخ وما يوفره من مقومات العيش، فمثلا كان بعض رعايا مملكة غانة التى كانت حدودها الشمالية تلامس الصحراء ومنها عاصمتها، يعبدون "الثعبان" معتقدين أنه وحده كان يملك القدرة على انزال المطر مقابل تقديم قربان بشري له، هو عبارة عن فتاة بكر يتم اختيارها سنويا عن طريق القرعة وتقدم له فى مغارته بالغابة المقدسة المشرفة على العاصمة ليلتهمها، وكان هذا الثعبان يعرف عندهم باسم "بيدا"[1701]، بل إنهم ربطوا إسمه بإسم مملكتهم التى كانوا يطلقون عليها "وغدو"، فكان هو يحمل إسم "وغدو بيدا"، أي إله بلاد وغدو (غانة)، وكان فى نظرهم، بالإضافة إلى انزال المطر، مسؤولا عن حمايتهم من كل مكروه وحراسة كنوزهم ومختلف ثرواتهم، بل كان-حسب معتقدهم- هو مصدر السعادة والشقاء، ومانح النجاح والفشل[1702].

وكان عامتهم يستعينون بكبار رجال الدين أثناء قيامهم بالشعائر، التى يبدو أنها كانت تمارس بالغابة الواقعة قرب مقام الملك الغاني، ويعتقد أنها كانت تأوي الكثير من الثعابين التى يختار من بينها المعبود من طرف الكهنة، ويقول البكري فى هذا الصدد متحدثا عن غانة: "...وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم"[1703]، وكان الغانيون يعظمون تلك الثعابين والحيات ويحرمون قتلها، ويعتقدون أنه إذا حدث يؤدي إلى المصائب[1704]، وكان هذا النوع من العبادة يتجاوز مملكة غانة ليشمل ممالك سودانية أخرى من بينها على سبيل المثال مملكة زافقو، التى كان سكانها يعبدون، هم الآخرون، حية وصف لنا البكري طريقة عبادتهم لها فى قوله: "... بلد زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب، رأسه كرأس البختي وهو فى مغارة بالمفازة، وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب، وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز لهم"[1705].

ولقد اتخذت الوثنية فى غرب إفريقيا أشكالا أخرى عديدة، منها عبادة الملوك، الذين كانت القضايا المرتبطة بخصوبة الأراضي الزراعية وانتظام تساقط الأمطار تخضع لمشيئتهم، حسب معتقد بعض الجماعات السودانية، لذلك لم يكونوا يتركون الملوك ليموتوا بشكل طبيعي، وإنما يتم قتل الواحد منهم فى حالة تقدمه المفرط فى السن، أو إصابته بمرض قاتل عن طريق سقيه السم أو خنقه، "خنقا مقدسا"، ثم تحنط جثته[1706]، قبل أن يدفن، ومن أبرز مظاهر النظرة التقديسية التى كان الملوك الغانيون يحظون بها من طرف رعاياهم، مثلا أن الأمبراطور بسى "... عمى فى آخر عمره فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم أنه يبصر، وتوضع بين يديه أشياء فيقول هذا حسن وهذا قبيح، وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول فلا تفهمه العامة"[1707]، كما أن مراسيم دفن الملوك الغانيين تعتبر من مظاهر تقديس

[1701] Marie- france Briselance: Histoire de l'Afrique ، 2t ، "collectiom je sais" J.A. Livre ، Paris 1988 ،t2 p. 177

[1702] جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويقي - دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت 1984، ص: 57.

[1703] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:175.

[1704] دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص: 41.

[1705] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 173.

[1706] رولاند أوليفر، وجون افيج: موجز تاريخ إفريقية، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965، ص:47.

[1707] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 174.

الشعوب السودانية لحكامها إلى درجة تسمح بمقارنتهم بمنزلة الفراعنة عند قدماء المصريين، وتصف لنا المصادر طريقة دفن ملوك غانة، فيقول عنها البكري: "... وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا فادخلوه فى تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التى كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد"[1708].

وبعد الوفاة يدخل الملوك فى إطار الاسلاف الذين كانوا يعبدون أيضا، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الوثنية فى إفريقيا الغربية قبل دخول الإسلام إليها، فالاجداد بالنسبة للسودانيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وربوا خلفهم على تلك الاعراف والتقاليد، وموتهم لا تعني بالنسبة لأبنائهم وأحفادهم الفناء، وإنما تبقى أرواحهم بعد انتقالها إلى عالم آخر تراقب تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عما سنوه له من تقاليد أوقعوا به الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم ووجهوه من حيث لا يعلم إلى الخير والنجاح فى الحياة[1709]، مما جعل السودانيين يتقربون إلى أسلافهم بالذبائح عند قبورهم، وظلوا ملتزمين بعبادتهم حتى منتصف القرن11م، حيث كانت جلية عند المجتمع الغاني وفق وصف البكري له عند ما قال: "... وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور..."[1710].

وبصفة عامة، فإن تنوع المعبود فى إطار الوثنية السودانية، كان يشكل ظاهرة فى غرب إفريقيا، تسعى بعض الجماعات الصغيرة بواسطتها إلى التميز داخل المجموعة الكبرى، ويمكن القول أنه قلما كان يوجد تصرف فى حياة السوداني مهما كانت قيمته، إلا وكان نابعا من موقف ديني، بما فى ذلك الاعمال الفنية، مثل الحجارة المنحوتة فى إيفى وتونديدارو، والسنغال، بالإضافة إلى تماثيل كبيي والماندي، فضلا عن الاقنعة المختلفة الأشكال التى كانت منتشرة ومستخدمة على نطاق واسع فى منطقة غرب إفريقيا، وظلت كذلك إلى عهد قريب[1711].

وكان السحرة الذين رأينا أنهم كانوا بمثابة رجال الدين عند وثنيي غرب إفريقيا، يمدون العامة بالتمائم والطلاسم الوثنية، ويتمتمون بتعاويذ يعتقدون أنها قادرة على طرد الشر عمن خضع لها، كما بإمكانها إصابة العدو بمكروه يحدده الساحر وكانوا يستخدمونها لجلب الخير والسعادة[1712]، مما يسمح لنا القول بأن السحر كان يلعب دورا هاما فى حياة سكان غرب إفريقيا[1713].

وبالإضافة إلى الوثنية شارك بعض سكان بلاد السودان غيرهم من شعوب العالم المعروف وقتئذ، فى اعتناق الديانات القديمة المشهورة، وربما كان ذلك تحت تأثير علاقاتهم بها عن طريق الصحراء، ومن بين أهم تلك الديانات نذكر، المجوسية، التى أشارت المصادر

[1708] نفس المصدر ، ص:176.
[1709] دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص: 43.
[1710] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176
[1711] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p 520
[1712] حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص: 53.
[1713] دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص:44.

الوسيطة إلى وجودها وانتشارها فى معظم أقطار الغرب الإفريقي[1714]، فكان بعضهم يعبد القمر، وكان البعض الآخر يحرص على بقاء النار مشتعلة أبدا، فى حين خصها بعض ملوكهم بحراسة مشددة حتى لا تخمد، واعتبروها رمزا لحياتهم وسلطانهم[1715]، كما انتقلت إليهم أفكار وشعائر أخرى بواسطة العلاقات التجارية، ويتعلق الأمر هنا بالديانتين السماويتين، اليهودية والنصرانية، وإن كانت تلك الأفكار والشعائر قد بقيت محدودة فى نطاق جغرافى ضيق من بلاد السودان وخلال فترة وجيزة من تاريخها[1716].

ومن الطبيعي أن يكون للصلات التى ربطت بين الصحراء وبلاد السودان أثر على المعتقدات قبل وبعد دخول الإسلام إلى المنطقتين[1717]، إذ من المعروف أن المجوسية كانت الديانة الأساسية للملثمين قبل انتشار الإسلام بينهم[1718] ويعتقد أن الجماعات الصنهاجية التى هاجرت إلى المناطق الواقعة جنوب الصحراء، واستقرت بين سكانها هي المسؤولة عن نشرها هنالك، ونعتقد أن الأمر ذاته ينطبق على اليهودية التى رأينا أن بلاد قمنورية آوتها خلال فترة مبكرة نسبيا من وصول أفواج المهاجرين اليهود من المشرق إلى بلاد المغرب، ومن المؤكد أن تأثيرا فى هذا المجال من الجانب المعاكس قد حدث، حيث تبنت جماعات من سكان الصحراء الديانات السودانية، وراجت بينها المعتقدات الوثنية، وما يرتبط بها عادة من رواج للسحر فضلا عن بعض العادات والتقاليد، خاصة المجموعات الصنهاجية التى استقرت فى بلاد السودان أو فى المدن التجارية الصحراوية ذات الصلات الوثيقة بتلك المنطقة، وخير دليل على قوة تأثير المعتقدات السودانية حياة العرب والبربر الذين احتكوا بسكان تلك المنطقة، ما حدث لذرية الجيش العربي الأموي الذى دخل بلاد السودان فى صدر الإسلام لفتح غانة، وحافظ عبر القرون على خصائصه باستثناء ما يتعلق منها بالدين، حيث يقول عنه البكري: "... وفى غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولاينكحونهم.... وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان..."[1719] ، فإذا كان استقرار هذا الجيش وذريته من بعده بين السودانيين الوثنيين واحتكاكهم بهم، قد أدى إلى تخلي أو لئك العرب الذين جاؤوا أصلا لنشر الإسلام وتأثرهم بالمحيط الثقافى الذى عاشوا به وتفاعلوا ثقافيا معه، فكيف بالملثمين الذين عايشوا السودان مئات السنين إن لم نقل آلافها وكانوا دوما على صلات وثيقة بهم؟

لكن عند منتصف القرن2هـ/8م، وعند ما أصبحت بعض قبائل الملثمين تدين بالإسلام مالت كفة الهيمنة الثقافية بشكل واضح إلى جانبهم، لأسباب موضوعية من أهمها عدم قدرة الوثنية على منافسة الإسلام فكريا، فضلا عن جاذبية الأهداف الأساسية لهذا الدين الحنيف والتى انصبت أساسا فى اتجاه يرمي إلى تحرير عقل الإنسان من المعتقدات الأسطورية وتوجيهه إلى عمل الخير وما يفيده فى دنياه ويجعله على صلة بربة، بعيدا عن الترهات، فكان للصحراويين دورهم المتميز فى نشره بين إخوانهم وجيرانهم بغرب إفريقيا.

ب -دور الملثمين فى نشر الإسلام بغرب إفريقيا:

[1714] البكري: مصدر سبق ذكره، ص.ص:172 و176.

[1715] رولاند أوليفر: مرجع سبق ذكره، ص:48.

[1716] دريد عبد القادر نوري: مرجع سبق ذكره، ص: 44.

[1717] Fernand BRAUDEL ، " Monnaies et civilisation ، de l'or du soudan l'argent d'Amérique ، un drame Méditérranéen"in ANNALE Economie ، Société ، Civilisation. N! 1 ، 1946 ، pp.9-22

[1718] العبر: مصدر سبق المجلد6، ذكره، ص: 371.

[1719] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 179.

اقتصرت الحملات العسكرية الإسلامية الأولى التى تجاوزت السوس الأقصى جنوبا خلال النصف الثاني من القرن7م، والسنوات الأولى من القرن8م، على منطقة صحراء الملثمين، حيث استقرت جماعات ممن جاءوا لغرض الفتح هنالك، وكان المنحدرون منها خلال القرن11م يشكلون أرومة لمجموعات عربية صحراوية كانت تعيش وقتها فى مناطق تيرس وآدرار وتكانت والحوض، واختلطت هذه المجموعات فى النهاية مع السكان المحليين مما أدى إلى ظهور مولدين فى المنطقة، يعتبر بعض الباحثين أن الفلان منهم[1720].

ومن بين أشهر الحملات الإسلامية الأولى التى وصلت بلاد السودان، تلك التى قادها حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع، بأمر من عبيد الله بن الحبحاب سنة 734م[1721]، وفى هذا الإطار يقول الازدي: "... وفى شهر رمضان من هذه السنة (سنة 116هـ)، عزل هشام ابن الحبحاب عن مصر وولاها القاسم بن عبد الله، وكتب هشام إلى عبيد الله بن الحجاب بولاية إفريقية، وفيها أغزى عبيد الله بن الحبحاب **عبد الرحمن بن حبيب** السوس وأرض السودان فظفر وأصاب ذهبا كبيرا..."[1722]، وعند ما استقل **عبد الرحمن بن حبيب**، وهو ابن قائد الحملة السالفة الذكر بحكم إفريقية ابتداء من سنة 745م، وبدأ يفكر فى تحقيق طموحه المتمثل فى رغبته بسط نفوذه على كامل بلاد المغرب، اختار أن يكون النهج الذى يحكم سياسته اتجاه صحراء الملثمين وبلاد السودان سلميا، فأمر بحفر الآبار على طول أهم الطرق التجارية التى كانت تربط بلاد المغرب بالصحراء ثم ببلاد السودان[1723]، مما أدى إلى تدفق أعداد هامة من المهاجرين العرب إلى تلك المناطق يسعون إلى تحقيق أغراض شتى، من أهمها ممارسة التجارة، والدعوة إلى الإسلام، فتشكلت جاليات عربية إسلامية كبرى فى مناطق عديدة من صحراء الملثمين وفى المدن التجارية الكبرى ببلاد السودان، واختلط أفراد تلك الجاليات بالشعوب التى استقروا بين ظهرانيها عن طريق الجوار والمصاهرة، مما أدى إلى امتزاج الدماء وتداخل الثقافات بين الطرفين[1724] وأفسح المجال أمام الثقافة العربية الإسلامية فى غرب إفريقيا، وتمت لها الهيمنة هنالك بواسطة وسائل من أهمها: التثاقفة والدعوة ثم الجهاد.

المثاقفة:

أدى ازدهار العلاقات التجارية بين شمال إفريقيا والصحراء وبلاد السودان إلى استقرار جماعات من التجار العرب والبربر فى المدن السودانية منذ منتصف القرن8م، وكان لوجود تلك الجماعات فى الوسط الوثني بغرب إفريقيا دور كبير فى تغيير العقليات، والمعتقدات نتيجة لقوة تأثيرها المرتكزة على مكانتها الاقتصادية وإشعاعها الثقافى، باعتبارها تمثل الحضارة العربية الإسلامية التى لم يكن بمقدور المعتقدات الوثنية الصمود أمامها[1725]، لذلك، فإن التجار العرب والصحراويين بصفة خاصة، الذين توغلوا فى بلاد السودان بدافع الحصول على الأرباح

[1720] Oumar KANE:"La place des Almoravides dans l'islamisation des noirs du Tékrour" in Actes des traveaux du colloque intérnational sur le Mouvement Almoravide ، Nouakchottdu 15 au17 Avril 1996 ، en voie de puliation ، p.4.

[1721] R. MAUNY:Tableau géographique ، op. cit ، p 521

[1722] الشيخ ابوزكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الازدي: تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبه، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة أحياء التراث الإسلامي مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة 1967، ص:36.

[1723] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:156-157.

[1724] د. صباح ابراهيم الشيخلي والالوسي: مرجع سبق ذكره، ص: 53وص:60.

[1725] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، pp 522-523

أولا، واستقروا فى المدن، ظلوا ملتزمين بتطبيق تعاليم دينهم وأداء الواجبات التى فرضها الله عليهم، فكانوا حريصين على الصدق فى أقوالهم والنزاهة فى معاملاتهم التجارية، كما كانوا يداومون على ممارسة شعائرهم الدينية بشكل منتظم من صوم وصلاة وزكاة الخ...، مما استرعى انتباه السكان المحليين[1726]، الذين يؤمنون أصلا بوجود حياة سرمدية بعد الوفاة، وكانت وضعية مابعد الموت من الشواغل الرئيسية لتفكيرهم، كما كان بعضهم يعتقد بوجود إله واحد قادر، وإن كانوا يختلفون فى الجدوى من عبادته والطريقة التى تتم بها، مما ساعدهم على استيعاب التوجهات الرئيسية للرسالة الإسلامية، لذلك كان الطريق ممهدا إلى دخول بعضهم فى هذا الدين، وكان من الطبيعي أن تكون المجموعات السودانية الأكثر صلات بالتجار العرب والصحراويين المسلمين، أكثر انفعالا بتأثير الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالى أكثر تأهيلا إلى الدخول فى الإسلام، وكان التجار السوننكيون هم أول وأكثر السودانيين اتصالا بجاليات التجار العرب والبربر فى المدن التجارية الكبرى بغرب إفريقيا، كما كانوا يرافقون القوافل كأدلاء ومترجمين فى مختلف المناطق السودانية[1727]، وفضلا عن ذلك كانوا يعملون لحساب كبار التجار الشماليين فى المناطق التى لا يمكن لأولئك الأجانب وصولها لأسباب مناخية أو أمنية[1728].

ويفترض بعض الباحثين أن كبار التجار العرب والبربر كانوا يشترطون على المتعاملين معهم من التجار السودانيين الدخول فى الإسلام للحصول على ثقتهم، وبالتالى تسليمهم أموالهم ليسافروا بها بعيدا فى دواخل غرب إفريقيا انتظار عودتهم ليدفعوا أثمانها، وقد يستمر غيابهم لمدة ثمانية أشهر[1729]، إلا أننا نعتقد أن بناء الثقة بين الطرفين كان يتم اعتمادا على علاقاتهما التجارية البحتة، وأن انتشار الإسلام بين هذا الصنف من التجار السودانيين قبل غيرهم من سكان غرب إفريقيا الآخرين، إنما يرجع إلى احتكاكهم أكثر من سواهم بجاليات التجار العرب والبربر المسلمين التى استقرت فى مختلف المراكز التجارية، حيث أن ميلهم الفطري كبشر إلى التعرف على الافكار الدينية الجديدة عليهم، قد أدى بهم فى النهاية إلى اعتناق تلك الافكار بعد الاقتناع بجدواها، خاصة أنها تمس قضايا كانت ماثلة فى ذهن الوثني بغرب إفريقيا، مثل حياة ما بعد الموت، ومسألة الحساب والعقاب وإن كنا لا ننكر أن رغبة التجار السودانيين فى تدعيم علاقات الود والثقة مع التجار الشماليين قد ساعدت فى حسم ترددهم فى التخلي عن دين الاسلاف لصالح الإسلام، كما أننا نعتقد أن من بين التجار العرب والبربر المسلمين من كانوا يهتمون كثيرا بالدعوة إلى الإسلام إن لم نقل بوجود دعاة متفرغين خلال هذه المرحلة ضمن تلك الجاليات، وكان التجار السودانيون يعتقدون أن قدرتهم على منافسة التجار العرب والمسلمين تتوقف أساسا فى قدرتهم على التحول من مجرد أجراء أو باعة فى خدمة الشماليين إلى شركاء لهم، وهو ما يتطلب الارتفاع إلى مستواهم الفكري الذى كان فى نظرهم السر الكامن وراء نجاح العرب والمسلمين فى العمل التجاري، وبالتالى كان الدخول إلى الإسلام مغريا بالنسبة للتجار السودانيين، لأنه كان دين كبار التجار والملوك أي الفئة التى يتعاملون معها[1730].

الدعوة:

1726 صباح ابراهيم السيخلي والالوسي: مرجع سبق ذكره، ص:61

1727 Oumar KANE ، op.cit ، p. 4 .

1728 R. MAUNY:Tableau géographique ،op.cit ، p 387

1729 Ibid p 357 ، cuoq: Islamisation ، op.cit ، p 47

1730 J. Cuoq: L'Islumisation ، op.cit ، p 49

لم يترك المسلمون مسؤولية نشر الإسلام فى غرب إفريقيا على التجار المحترفين، فإلى جانب انتشاره بشكل عفوي، فإن الجاليات الإسلامية فى المناطق السودانية كانت تضم مع التجار العارفين والراغبين بالقيام بالدعوة إلى الإسلام بموازاة أنشطتهم التجارية، مجموعات من العلماء والفقهاء المتفرغين لنشر الإسلام والدعوة إليه[1731] وكانت الجاليات العربية المسلمة منتشرة فى مختلف مناطق غرب إفريقيا، حيث كانت توجد جاليات كبرى أساسا فى العواصم مثل تلك التى كانت موجودة بشكل ملحوظ فى عاصمة غانة على امتداد قرون قبل دخول الإسلام رسميا إليها وقد قال البكري عن تلك الجالية فى منتصف القرن 11م أثناء حديثه عن تلك العاصمة: "... ومدينة غانة مدينتان... إحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه وبها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك... "[1732]، كما كانت هنالك جاليات مماثلة، ولو أنها كانت أصغر حجما فى تكرور وسلى وبريسي وكوغة وكوكو الخ...[1733].

وقد تساءل بعض الباحثين عما إذا كانت الأحياء الخاصة بالمسلمين فى المدن السودانية قبل القرن 11م تخص كلها الشماليين من العرب والبربر، أو أنهم كانوا يشكلون معظم سكانها وتضم إلى جانبهم أعدادا معتبرة من السكان المحليين المسلمين، مبينين أن الإجابة على هذا التساؤل صعبة، وإن كانوا يشيرون إلى أن غالبية سكان تلك الأحياء كانت من العرب والبربر الذين كانوا يعتقدون أن وجودهم فى مدينة مستقلة عن الوثنيين، أمر تقتضيه العفة ومقاييس الشريعة، وكان الأباضيون أكثر تمسكا بهذا الرأي من سواهم من المسلمين[1734]، وهم الذين كانوا يتوافدون بكثرة على منطقة غرب إفريقيا، ووصلوا إليها منذ القرن 9م على أقل تقدير حيث تمكن الرستميون من ربط صلات تجارية وعلاقات صداقة حميمة بملوكها، لاشك أنها مهدت الطريق للتجارالقادمين من تاهرت وسهلت عليهم دخول بلاد السودان والاستقراربها[1735]، وكان الدعاة من هذه الجاليات يتوجهون بالدرجة الأولى إلى الملوك ورؤساء العشائر الذين كانوا يستقرون بالقرب منهم، فيربطون بهم علاقات صداقة ويبذلون جهودا كبيرة من أجل إقناعهم باعتناق الإسلام، كما كان أولئك الدعاة يحرصون كلما سنحت لهم الفرصة بذلك، على تربية أبناء أولئك الملوك والرؤساء وفقا لتعاليم الإسلام وينشئونهم عليها[1736].

ومن بين أهم ملوك غرب إفريقيا الذين استفادوا خلال تلك المرحلة من هذا النشاط، نذكر على سبيل المثال ملك الصنغاي الذى تذكر المصادر أنه أسلم سنة 400هـ/ 1010م، وأعطى لنفسه لقب "مسلم دام" ومعناه فى لغتهم أسلم طواعية وبدون إكراه[1737]، وحاول بعض الباحثين ربط اعتناق ملك كوكيا (الصنغاي) للإسلام، بالأمويين فى الأندلس، فذكروا أن ذلك الحدث يرجع إلى النصف الثاني من القرن10م، الذى أعلن فيه حكام الأندلس أنفسهم خلفاء بعد

[1731] د. صباح ابراهيم، والألوسي: مرجع سبق ذكره، ص: 53.

[1732] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 175.

[1733] نفس المصدر، ص.ص: 172-183.

[1734] J. CUOQ: l'Islamisation, op.cit, pp 48 - 49

[1735] ابن الصغير:أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق ، د. محمد ناصر و الأستاذ إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 36.

[1736] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 522

[1737] عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:3

أن اكتفى سلفهم بلقب "أمير"[1738]، بل إن بعض الباحثين يرون أن الصلات بين حكام الصنغاي والأمويين فى الأندلس كانت موجودة بالتأكيد سنة 318هـ/930م، وأن إسلام ملك كوكيا ربما يعود إلى ذلك العهد ونتيجة لتلك العلاقات[1739]، وذلك من دون أن يبينوا أسباب اختيارهم للتاريخ الذى حددوه، ولا الدلائل التى يستندون إليها لإثبات وجود علاقات بين المنطقتين خلال ذلك التاريخ، اللهم إلا إحالتهم لنا إلى البكري فى هذا الصدد، والتى لا نعتقد أنها دقيقة، إذ أهم ماذكره ذلك المؤلف الأندلسي فى معرض حديثه عن ملك كوكيا الذى وصفه بكونه مسلما، قوله عنه: "...ومدينة كوكو... وهي مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، وملكهم يسمى قندا، وإذا تولى منهم ملك، دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم مسلم، لا يملكون غير المسلمين..."[1740]، فهل إن لقب "أمير المؤمنين" الذى ورد فى نص البكري كاف لصرف الذهن مباشرة إلى خليفة قرطبة ؟ ولما ذا لا نفكر فى الفاطميين الذين اتخذ حكامهم منذ الوهلة الأولى من قيام دولتهم هذا اللقب، خاصة أنهم كانوا مهتمين بمنطقتي الصحراء وبلاد السودان، حيث ذكر المهلبي أن صنهاجة أودغست أسلموا على يد أبى عبيد الله الشيعي ؟[1741]، و هل أن صنهاجة أودغست نقلوا الإسلام الشيعي إلى منطقة النيجر الأوسط ؟.

ذلك ما نعتقده، مبررين رأينا بأن البكري، الذى تحدث عن ملك الصنغاي المسلم وعلاقاته ب"أمير المؤمنين"، ربما يكون قد أضفى عن قصد على من يعنيه بأمير المؤمنين قدرا من الغموض لكونه سنيا وأندلسيا مواليا للأمويين وعدوا للفاطميين ومنهجهم من جهة، كما أنه ربما يكون قد نقل تلك المعلومات من مصدر لم يعد متداولا فلخصها أو أنها كانت غامضة وغير مفصلة أصلا فى المصدر الأصلى.

ومما يجعلنا نتمسك بفكرة وجود تأثير شيعي فى منطقة كوكيا مرتبط بإسلام الملك ماذكره البكري نفسه ونسبه إلى رواة ربما أنه لم يباشرهم وإنما نقل عمن رووا له ما ذكروا أنهم شاهدوه، فقال: "... وأخبر الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأي فى بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس، قتل الحسين، قتل الحسين، يكررها مرارا ثم يقول بكربلاء مرة واحدة، قال عبد الملك سمعته أنا ومن حضر معي من المسلمين..."[1742]، وإذا صح أن هذه الرواية ذات الطابع الأسطوري تنبني على تأثير شيعي في المنطقة، فإننا نعتقد أن له صلة ما بهجرة قبيلة لمطة الصنهاجية من صحراء الملثمين واستقرارها خلال القرن8م حول بمدينة كوكيا وحولها وتأسيسها لأسرة حاكمة هنالك منذ ذلك التاريخ[1743]، إذ يسهل اختلاط لمطة بالشعوب السودانية بحكم جوارهما ومعرفة كل منهما تقاليد و أعراف الآخر، وبالتالي تكون تلك المجموعة الصنهاجية هي التي نقلت التأثيرات الثقافية من صحراء الملثمين إلى تلك المنطقة ومن ضمنها الإسلام الشيعي الذى قد يكون اللمطيون تبنوه مباشرة بعد اعتناق بني عمومتهم له فى أودغست على يد أبى عبيد الله الشيعي، خاصة أن الرواية السودانية تذكر أن الملك الأول من هذه الأسرة كان مسلما وأن أرتداد خلفه حدث بعد وفاته وتوالى على حكم الصنغاي ملوك وثنيون، إلى أن أسلم مسلم دام[1744].

[1738] J. Cuoq: L'Islumisation, op.cit, p 20

[1739] المجلة التاريخية الليبية: مرجع سبق ذكره، ص: 58.

[1740] البكري: مصدر سبق ذكره، ص 183.

[1741] ياقوت الحموي: مصدر سبق ذكره، ص: 278.

[1742] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 181.

[1743] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص:286 وعبد الرحمن زكي: مرجع سبق ذكره، ص:133.

[1744] السعدي: مصدر سبق ذكره، ص: 4 وص ص: 3-4

وليس ملك كوكيا هو الملك السوداني الوحيد الذى أسلم تحت تأثير الدعوة، وإنما هنالك ملوك عديدون من أمثال وارجابي بن رابيس ملك التكرور، الذى أسلم بعد توليه حكم بلاده، حيث قال عنه البكري، فى معرض حديثه عن مملكة التكرور وسكانها مانصه: "... وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس، فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها، وتوفى وارجابي سنة إثنين وثلاثين وأربعمائة..."[1745].

وعلى الرغم من أن هذا النص صريح فى إشارته إلى أن إسلام وارجابي، تم بعد توليه السلطة، وأنه توفى بعد أن فرض الإسلام على معظم أتباعه سنة 432هـ/1041م، فإن بعض الباحثين يرون أن انتشار الإسلام فى تكرور يعود إلى القرن 3هـ/9م، وذلك عند ما وصل إليها- حسب رأيهم- جماعة من التجار السوننكيين المعروفين بالجولا، الذين أسلموا تحت تأثير احتكاكهم بالتجار العرب المقيمين فى المدن السودانية، فبثوا بدورهم المعتقدات الإسلامية فى تلك المملكة الواقعة فى حوض نهر السنغال منذ ذلك التاريخ!، ويستدل أصحاب هذا الرأي على صحة ما ذهبوا إليه، بإرجاعهم بعض الكلمات المتداولة فى التكرور إلى اسم الجولا، حيث يعتقدون أنها اشتقت منه، ويذكرون أنها مازالت متداولة فى المنطقة التى قامت فيها تلك المملكة، ومنها كلمة "جولاده" وتعني ممارسة التجارة، و"جوأولده" بمعنى إقامة الصلاة، و"انجولو"، أي الصلاة، الخ...، ويضيف صاحب هذا الرأي أن دور أولئك التجار السوننكيين كان مدعوما من طرف التجار العرب والمسلمين الذين كان الجولا أدلاء لهم داخل منطقة غرب إفريقيا[1746].

ومقابل هذا الرأي يرى ج. كيوك، (J.cuoq) أن أهالي تكرور تعرفوا على الإسلام لأول مرة تحت تأثير قبيلة كدالة المجاورة لهم، وأن ذلك تم على يد تجارها الذين كانوا يحملون ملح أوليل لتسويقه على طول ضفتي نهر السنغال، وكانت علاقاتهم مع سكان مملكة تكرور حميمة[1747]، ويؤيد هذا الرأي ماذهب إليه أحد الباحثين السنغاليين عند ما شدد على أن دور صنهاجة الصحراء لم يقتصر على نشر الإسلام فى حوض نهر السنغال، وإنما تجاوز تأثير تلك المجموعة ذلك الحد إلى أن أعطت اسمها للنهر الذى كانت تكرور تقع حوله، وأن اسمها حرف عبر الزمن من صنهاجة إلى صنغانة فالسنغال[1748]وبالتالي فإن الرأي القائل بأن الملثمين ليس لهم دور في اعتناق وارجابي للإسلام لأن إسلامه ووفاته، أحداث سبقت قيام حركة المرابطين[1749]، لايستند إلى دليل لأن وارجابي -كما رأينا- لم يعتنق الإسلام إلا بعد توليه السلطة، كما أنه وفاته لم تحدث إلا بعد حجة يحيى بن إبراهيم الكدالي وعودته صحبة عبد الله بن ياسين إلى الصحراء.

ومن المعروف أن تلك الحجة جاءت نتيجة لتبلور وعي ديني سني مهد له وعمقه جهاد الملثمين لنشر الإسلام السني فى المنطقة بقيادة زعيمهم أبى عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني

[1745] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 172.

[1746] Oumar KANE, op.cit, p. 5.

[1747] J. Cuoq: L'Islumisation, op.cit, p 43

[1748] AMAR SAMB: "l'Islam et l'histoire du sénégal" BIFANT XXXIII, Serie B, n!3 ; 1971 p . 461-465

[1749] Oumar KANE, op.cit , p. 2.

الموصوف بكونه من أهل الحج والفضل والجهاد[1750]، ومن بين ملوك غرب إفريقيا المشهورين، الذين اعتنقوا الإسلام خلال فترة قيام حركة المرابطين بالصحراء، نذكر ملك سلا، الذى ذكر البكري أن مملكته أسلمت على يد وارجابي، وبعد ذلك، تولى ملكها محاربة كفار السودان المجاورين له، وذلك فى قوله: "... وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوما فى عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة، وملك سلى يحارب كفارهم، وليس بينه وبين أولهم إلا مسيرة يوم واحد، وهم أهل مدينة قلنبو..."[1751].

ولعل ملك مالي من بين أشهر ملوك السودان الذين أسلموا تحت تأثير دعوة العلماء القادمين من صحراء الملثمين، سواء كانوا من أهلها أو من الدعاة العرب الذين استقروا بها لبعض الوقت، قبل أن يتوجهوا إلى بلاد السودان وذلك للتعرف على طبيعة المجتمعات هنالك، واختيار الوسيلة الانسب لدعوتها إلى الدين، ويذكر البكري أن سبب دخول ملك مالي فى الإسلام يرجع إلى الجفاف الذى عرفته بلاده التى كانت تعتمد فى حياتها على الزراعة، وأن ذلك الجفاف استمر سنوات متتالية، أهلك السكان خلالها الكثير من الحيوانات تقربا إلى أصنامهم لوضع حد له، وأعياهم التوسل إلى تلك الأصنام من دون فائدة، مما شجع أحد الدعاة المستقرين فى حاضرة السلطان إلى التدخل بعد أن اشتكى إليه الملك حال بلاده، فربط الداعية نهاية الجفاف باعتناق الملك للإسلام، ولم يزل به يدعوه إليه ويظهر له محاسنه ويرغبه فيه "... حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لايسع جهله ثم أستأنا به إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده، وبرزا إلى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون، فسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلماني..."[1752].

ويرى بعض الباحثين الأفارقة أن ملك مالي المعروف بالمسلماني هو نفسه برمندانة عند ابن خلدون[1753]، حيث يقول هذا الأخير فى معرض حديثه عن ملوك مالي مانصه: "... يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندانه.. وحج هذا الملك واقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده..."[1754]، والحقيقة أن المؤلفين اختلفا فى اللقب الذى كان ذلك الملك يحمله (المسلماني- برمندانه)، وإن كانا اتفقا على أن كل واحد منهما يعني بمن تحدث عنه أنه أول من أسلم من ملوك مالي، كما اتفقا على أن خلفاءه قلدوه واقتفوا أثره فى الاحتفاظ بالاسلام وإدخال قيمه إلى البلد، والالتزام بشعائره فى إطار المراسيم الملكية لدولة مالي، وتؤكد طريقة دخول ملك مالي فى النصف الأول من القرن11م على فعالية أسلوب الدعوة السلمية فى غرب إفريقيا من أجل استقطاب الشخصيات المؤثرة إلى الدخول فى الإسلام[1755]، وينسب كي زربو إقناع هذا الملك بالعقيدة الإسلامية إلى أحد فقهاء قبيلة لمتونة من قبائل الملثمين[1756]، وهي إحدى كبريات تلك القبائل الصحراوية، ومنها كان أمراء دولة المرابطين وكبار قادتها.

[1750] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:164.
[1751] نفس المصدر، ص: 172.
[1752] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 178.
[1753] Joseph ki. Zerbo, op.cit, p. 130
[1754] العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 413.
[1755] J. Cuoq: L'Islumisation, op.cit, p. 49
[1756] Joseph KI ZERBO, op.cit, p. 131

ومن المحتمل أن الكثير من الأمراء والملوك فى إفريقيا الغربية أسلموا بنفس الطريقة، وإن كنا لم نحصل على معلومات وافية حولهم بسبب بعد ممالكهم وعدم اهتمام الكتاب بها، أولأنهم فضلوا كتمان إسلامهم خوفا على مراكزهم، أولأنهم يرون أن الخدمات التى يمكنهم تقديمها للإسلام والمسلمين فى وسط وثني منغلق، قد تكون أكبر وانجع لو أنهم ظلوا منسجمين دينيا مع رعاياهم، ويمكن أن ندرج فى هذا المجال، امبراطور غانة بسي الذى حكمها قبل تنكامنين المعاصر لدولة أمير المرابطين أبى بكر بن عمر اللمتوني ، وعن بسي هذا يقول البكري أثناء حديثه عن إمبراطورية غانة فى عهد تنكامنين: "... وكان إسم ملكهم قبله بسي ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة وكان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين"[1757]، فالإيثار الذى حظي به المسلمون بغانة فى عهده، ليس- حسب رأينا- لمجرد إعجاب الإمبراطور الغاني باستقامتهم وامتلاكهم للغة مكتوبة تساعده على تنظيم أجهزة دولته والعلاقات التى كانت تربطها بالدول الأخرى، وإنما استئناسا بهم واطمئنانا إليهم، لذا خصهم بامتيازات كثيرة، ذكر البكري منها أن "فى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك، وتراجمة الملك من المسلمين وكذا صاحب بيت ماله ومعظم وزرائه"[1758]، وفضلا عن ذلك، فإن الإ مبراطور كان يعفى المسلمين من الكثير من التصرفات المفروضة على رعاياه الوثنيين، من ذلك مثلا إعفاؤه لهم من التحية التى كان يقدمها له رعاياه وأهل مملكته، والتى قال عنها البكري: "... فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، أما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيق باليدين..."[1759]، ولقد شجع هذا الوضع التجار المسلمين على التوافد أكثر من أي وقت مضى إلى غانة حتى أصبح الجزء الذى يخصهم من عاصمتها يحتوي على "... اثني عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه وبها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها حملة علم..."[1760].

وإذا صح أن الإمبراطور كان فعلا يخفى إسلامه، فإنه يحق لنا أن نتساءل عن السر وراء بنائه لمسجد بالقرب من مجلس حكمه بالشطر الوثني من العاصمة، واختياره لمعظم كبار مساعديه من المسلمين، فهل كان يصلى فى هذا المسجد ؟ وهل كان يختار المساعدين من بين "الائمة والراتبين فى العلم" ليستفيد من معارفهم، ويعمق بواسطة مجالستهم ثقافته الإسلامية، ولعل أهم مايشجعنا على الاعتقاد بصحة ذلك، بل الاعتقاد بأن الإمبراطور بسي تجاوز تلك الحدود إلى درجة أنه كان يدعو أفراد عائلته والمقربين منه إلى اعتناق الإسلام، ما ذكرته المصادر الوسيطة المعاصرة له من أن أحد أبنائه كان بعد وفاته يحكم مملكة صغيرة ولاه عليها الإمبراطور الذى حل محل والده وهو تونكامنين، وأنه كان يسر بإسلامه، وفى هذا الإطار يقول البكري: "...وهناك مدينة الوكن وملكها يسمي قنمر بن بسي، ويقال أنه مسلم يخفى إسلامه..."[1761].

وبصفة عامة، فإن الدعوة السلمية إلى الإسلام فى غرب إفريقيا، قد أثرت بشكل جلي على مدى الفترة مابين منتصف القرن8م ومنتصف القرن11م، نتيجة لجهود التجار والدعاة الذين استقروا منذ فترة مبكرة من انتشار الإسلام فى شمال إفريقيا فى معظم كبريات المدن

1757 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 174.
1758 نفس المصدر، ص:175.
1759 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176.
1760 نفس المصدر، ص: 175.
1761 نفس المصدر، ص: 179.

والقرى التجارية بغرب إفريقيا، وإذا كانت فترة النصف الأول من القرن5هـ/11م، قد عرفت إقبالا كبيرا من طرف الارستقراطية السودانية على الإسلام، فإن الدعوة إليه ظلت محصورة فى المدن بعيدا عن الأرياف، وهو أمر مرتبط بمدى قدرة الدعاة والتجار المسلمين على التحرك فى المجال السوداني، إذ لم يكن بامكانهم تجاوز المدن التجارية الكبرى لأسباب أمنية ومناخية، وإن كنا لا ننفى الدور الذى لعبه الجولا الذين كان بمقدورهم أكثر من سواهم التوغل أكثر جنوبا وربما الوصول إلى المعادن التى كان يستخرج منها الذهب فى ذلك العصر، فمن المعروف أن الإسلام حتى منتصف القرن11م، لم يمس بشكل جدي فى غرب إفريقيا، سوى الأرستقراطية السودانية، خاصة الملوك ورؤساء العشائر ومحيطهم البشري، وكبار التجار، وبالتالى كان التوزيع الجغرافى للتجمعات الإسلامية فى تلك المنطقة يتتبع المحطات التجارية الكبرى بها، وعلى امتداد مسالك نقل الذهب والكولا والملح[1762].

ويمكننا تفسير التطور الذى عرفته الدعوة إلى الإسلام فى غرب إفريقيا خلال تلك الفترة بازدياد الحماس الديني عند قبائل الملثمين وقتئذ، خاصة لمتونة التى امتدت فترة انتشار الإسلام بين فروعها وتجذره فى عشائرها مابين منتصف القرن 3هـ/9م، ونهاية 4هـ/10م، حيث أن موقع صحراء الملثمين الجغرافى، ودور صنهاجة الصحراء عبر القرون فى لعب دور الوسيط التجاري بين شمال إفريقيا وغربها كان يؤهل تلك المجموعة لأن تكون الأداة الأنجع لنقل المؤثرات الثقافية بين المنطقتين بما فيها نشر الإسلام، بل إن بعض الباحثين ذهب إلى القول بأن انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا، كان يتوقف على اعتناق الملثمين له وتبنيهم لمبدإ الدعوة إليه والجهاد فى سبيله[1763]، وذلك لمعرفتهم أكثر من غيرهم بالشعوب السودانية وجوارهم لبلدانها، ومعرفة بعضهم للغاتها وعاداتها الوثنية ودرايتهم بالطريقة الأنسب لدعوتهم إلى التخلي عن الوثنية لصالح الإسلام، فضلا عن الصلات الاجتماعية التى كانت تربطهم ببعض تلك الشعوب والتحالفات التى كانت تجمعهم مع بعضها الآخر، وسيكون دور الملثمين فى نشر الإسلام بغرب إفريقيا أكثر وضوحا بعد إعلانهم الجهاد ضد الحصون المتمنعة للوثنية هنالك بعد قيام الدولة المرابطية.

الجهاد:

وهو الوسيلة التى كسرت الحواجز الوثنية بشكل نهائي وفسحت المجال أمام انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا، ولعل من أهم التعريفات التى اعطيت لهذه الوسيلة من وسائل نشر الإسلام، اعتبار البعض أنه شكل جاد من أشكال الدعوة إلى الدخول فى الإسلام، وأن اللجوء إليه يتم عادة بعد استنفاذ الوسائل السلمية للدعوة إلى الدين، حيث يخير أهل الكتاب خاصة، بين دفع الجزية والإبقاء على دينهم أو الحرب، وبما أن سكان غرب إفريقيا لم يكونوا فى معظمهم أهل كتاب، فإن ذلك الخيار لم يكن مطروحا، وإنما يعلن ضدهم الجهاد مباشرة لكونهم وثنيين، إذ لا يتطلب الأمر سوى محاولة اجتذابهم إلى الاسلام بالطرق السلمية أولا، ثم الحرب بعد التأكد من رفضهم، خاصة إذا كانت المجموعة الإسلامية الداعية تستأنس فى نفسها القدرة على كسر شوكتهم وإرغامهم على اتباع تعاليم الدين[1764].

وقد بدأ الجهاد من أجل نشر الإسلام فى بلاد السودان خلال فترة مبكرة من وصول الفاتحين إلى شمال إفريقيا، حيث وجهت الدولة الأموية جيشا فى صدر الإسلام لفتح

[1762] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 525 et 526

[1763] حسن احمد محمود: انتشار الإسلام: مرجع سبق ذكره، ص: 206.

[1764] J. CUOQ: l'Islamisatiom, op.cit, p 50

إمبراطورية غانة، لكنه لم يفلح لا فى تحقيق هدفه ولا فى العودة إلى منطلقه، فاستقر أفراده فى بلاد السودان، وكان أحفادهم خلال منتصف القرن5هـ/11م يشكلون "جزيرة بشرية" عربية الملامح فى محيط سوداني، وتخلوا عن الإسلام تحت تأثير تعايشهم الطويل مع السودان لصالح الوثنية[1765]، ثم تلت ذلك حملات عربية إسلامية أخرى خلال القرن2هـ/8م منها الحملة التى قادها حبيب بن أبي عبيدة وتلك التى قادها المشتري بن الأسود والتى وصلت إلى مصب نهر السنغال إلخ...

وعلى الرغم من أن إسلام الملثمين فى الصحراء ظل سطحيا حتى منتصف القرن11م، تاريخ ظهور حركة المرابطين بينهم، فإن المصادر الوسيطة تشير إلى أن ملوك صنهاجة هنالك بدأوا منذ القرن9م فى الجهاد من أجل نشر الإسلام فى بلاد السودان المجاورة لهم، من ذلك مثلا ما ذكره ابن أبى زرع عن ملك صنهاجة الصحراء يتلوتان بن تلاكاكين المتوفى سنة 222هـ/837م، عند ما قال: "... وكان أول ملك منهم بالصحراء يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني، ملك بلاد الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان يؤدون له الجزية..."[1766]، فمن الواضح إذن، أن الجزية مفهوم إسلامي، وأن تأدية ملوك السودان لها لن تتم إلا بعد أن يخضعوا بالقوة أو يهدد أمن بلادهم، وفى النصف الثاني من القرن4هـ/10م، ذكرت مصادرنا العربية نفس الشيء عن ملك أودغست الصنهاجي، حيث كتب عنه أحدها يقول، "... وكان صاحب أودغست فى عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي له الجزية..."[1767].

وبصفة عامة، فإنه لايمكننا الحديث عن جهاد مستمر يستهدف نشر الاسلام فى المنطقة ولا يرضى بأقل من ذلك، إلا ابتداء من قيام حركة المرابطين، خاصة بعد توحيدها لسكان الصحراء وإخضاعهم لأمور الشرع من طرفها، ويعكس انعزال المرابطين الأوائل فى الجنوب الصحراوي، واختيارهم لجزيرة بنهر السنغال لتكوين المجاهدين والدعاة فيها، إهتمام الرعيل الأول من قادتهم بمنطقة السودان المجاورة لهم[1768]، وذلك على الرغم من أن اتجاه المرابطين الأوائل إلى الشمال بعد إخضاعهم لمعظم قبائل الصحراء يعكس إهتمام عبد الله بن ياسين وشيوخه من فقهاء المالكية فى استغلال حماس العصبية اللمتونية لتوحيد المغرب الإسلامي تحت راية مذهبهم، إلا أن زعماء الملثمين الذين كانوا يتولون القيادة العسكرية والسياسية للحركة المرابطية كانوا يولون اهتماما كبيرا لبلاد السودان، تم تجسيده بشكل واضح بعد وفاة ابن ياسين مباشرة، وانفراد أبى بكر بن عمر اللمتوني بالزعامتين: الروحية والزمنية، حيث عاد إلى الصحراء بعد أن كسر شوكة برغواطة وأخضع جنوب المغرب لسلطة المرابطين[1769]، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على ذلك الجزء من دولة المرابطين، ثم توجه إلى الصحراء لاخماد الفتن والصراعات التى نشبت بين الملثمين هنالك نتيجة لبعد مركز السلطة المرابطية من بلادهم وتوغلها شمالا، الأمر الذى مثل بالنسبة لأبى بكر ناقوس خطر قد يقضي على طموحات المرابطين إن لم يبادروه، ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد: "... وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعد، ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء حيث أصل

[1765] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:179.
[1766] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 121
[1767] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 159.
[1768] Amar SAMB: Essai sur la contribution du sénégal a lalitterature d'expression arabe, Mémoire de l'IFAN, n! 87- IFAN, DAKAR, 1972, p. 19
[1769] J. CUOQ: L'islamisation op cit, p 40 et 41

اعياصهم ووشائج أعراقهم ومنبع عددهم، فخشى افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة وتلافى أمره فى الرحلة... ولحق بقومه ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة وفتح بابا من جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم"[1770].

ويبدو أن هدف الأمير المرابطي، عندما غادر المغرب إلى الجنوب، لم يكن مجرد القضاء على الصراعات القبلية فى الصحراء، ثم العودة إلى المغرب مثلما ذهب إلى ذلك معظم الكتاب، وإنما كان ينوي أيضا فتح باب الجهاد فى غرب إفريقيا لنشر الإسلام بين سكانها الذين كان معظمهم حتى ذلك التاريخ من الوثنيين، وقد نبه ابن أبى زرع إلى انشغال أبي بكر بن عمر بهذا الموضوع فقال: "... فعزم على السير إلى الصحراء ليصلح أحوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان"[1771].

ومع أن أبا بكر كان يحظى - بدون شك- بدعم مملكة تكرور المسلمة، وربما مملكة سلا أيضا، فإنه اختار الفترة المناسبة لإعلان الجهاد فى بلاد السودان، ذلك أن امبراطورية غانة التى كانت قوية وتتخذ الوثنية ديانة رسمية لها، عرفت فى تلك الفترة بداية تفكك سياسي، تمثل فى محاولة بعض الأقاليم والممالك التى كانت تابعة لها، الانفصال والثورة ضد الحكم الإمبراطوري[1772]، ومع ذلك، فقد تمكنت من مقاومة جيوش المرابطين لفترة طويلة، إذ لم يتمكنوا من إلحاق الهزيمة بها ودخول عاصمتها كونبي، إلا بعد 14 سنة من الحروب[1773]، ويتحدث الزهري عن دخول أبى بكر بن عمر لعاصمة غانة، مع عدم ضبطه لاسمه الذى ركبه من جزء منه وجزء من اسم أخيه وسلفه فى الحكم، فيقول: "مدينة غانة... وأهل هذه البلاد كانوا يتمسكون بالكفر إلى عام (تسعة وستين) واربعمائة، وذلك عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير (مسوفة) وأسلموا فى مدة لمتونة وحسن إسلامهم... "[1774].

ويرى بعض الباحثين أن التجار والملوك الذين أسلموا كان لهم، بالإضافة إلى الجاليات المسلمة المتناثرة فى مختلف المدن السودانية، دور كبير فى كشف نقاط ضعف غانة والممالك الوثنية التابعة لها للمرابطين أثناء صراعهم معها، وانطلاقا من ذلك فإن المرابطين كانوا - حسب أصحاب هذا الرأي- يتحركون على ضوء المعلومات التى كانت تصلهم من طرف أولئك المسلمين الذين كان معظمهم يحتل مواقع تسمح له بالإطلاع على أوضاع تلك البلدان[1775].

ومع احترامنا لهذا الرأي، فإنه لا يمكننا التسليم به، خاصة أن بعض المصادر المعاصرة للأحداث والتى أوردت معلومات تتعلق بهذا الموضوع، تفيد أن المرابطين عاقبوا بعض الجاليات العربية الإسلامية هنالك على صلاتها الوثيقة مع إمبراطور غانة وقتئذ وإخلاصها له، وفى هذا الصدد يقول البكري: "... وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه..."[1776]، وهذا يعني أن أفراد تلك الجالية الإسلامية ظلوا يؤازرون الإمبراطور الغاني تنونكامنين حتى تمكن المرابطون من رقابهم، فهل يعنى أصحاب الرأي القائل بخيانة الجاليات الإسلامية لملوك غانة وجوسستها على بلادهم لحساب المرابطين، أنها

[1770] العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 377.
[1771] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 134.

[1772] Sekéné Mody SISSOKO ، op.cit ، p 26
[1773] Amar SAMB, Memoire de l'Ifan, op.cit, p19

[1774] الزهري: مصدر سبق ذكره، ص: 125.

[1775] Joseph-KI-ZERBO, op.cit, p. 117 et mody sisoko, op.cit, p. 26

[1776] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 168.

خافت على مصيرها فى حالة عدم تعاونها معهم، وخشيت من أن تواجه مصير الجالية المسلمة السالفة الذكر، والتى تعاونت مع الوثنيين، عندما سقطت المدينة التى كانت تأويها بأيدي المرابطين ؟، وإذا كان ذلك هو الأساس الذى بني عليه ذلك الرأي، فعلى أي مصدر اعتمد ؟

مهما كان الجواب على تلك الاسئلة، فإن فتح المرابطين لامبراطورية غانة يعني بالنسبة لهم، القضاء على رمز الوثنية فى غرب إفريقيا، وفتح تلك المنطقة من إفريقيا أمام الدعوة إلى الاسلام[1777]، لذا فإن المرابطين بادروا بعد دخولهم إلى عاصمة غانة إلى القضاء على المعالم الكبرى للوثنية هنالك، حيث قاموا بمحق الغابة المقدسة التى كانت تأوي الإله الثعبان، كما دمروا القصر الإمبراطوري بشكل تام[1778]، بل إن بعض الروايات تفيد أنهم قتلوا الثعبان المقدس، الأمر الذى جعل الاسطورة السوننكية المنسوجة حول نهاية غانة الوثنية تفسر أفول نجم تلك الإمبراطورية بمقتل ذلك الثعبان الذى أدى إلى سيادة القحط والجفاف فى ربوعها، إذ الإله "وكدوبيدا"، هو المسؤول - حسب معتقد الوثنيين هنالك فى تلك الفترة- عن سقوط الأمطار، وبموته توقفت الأنشطة الزراعية وحدثت الهجرات وانتشرت المجاعات والأوبئة بين الناس، وهلكت الحيوانات والنباتات من جراء ندرة المياه[1779].

وتورد بعض الروايات أن جيوش غانة المنهزمة تراجعت إلى الجنوب بعد دخول المرابطين لعاصمتها من أجل مساعدة الممالك الوثنية الواقعة هنالك على وقف الزحف المرابطي جنوبا[1780]، الأمر الذى لم يحدث، حيث تمكن أبو بكر بن عمر من شق طريقه فى ذلك الاتجاه بسهولة، وضغط عسكريا على سكان تلك المناطق والممالك الواقعة فيها، حتى دخل معظم وثنييها فى الإسلام[1781]، وأدى عدم انسحاب الجيوش المرابطية من تلك المناطق إلى سد الباب أمام حدوث ردة لبعض الشعوب والممالك السودانية الجنوبية المتذبذبة عن الإسلام ورجوعها إلى الوثنية[1782]، وهذا الضغط المتواصل قد يكون هو السبب في اغتيال أبي بكر بن عمر سنة 1087م، عند ما كان يواصل جهاده فى غرب إفريقيا، حيث يقول عنه ابن أبى زرع: "... فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلى أن استشهد رحمه الله فى بعض غزواته، رمي بسهم مسموم، فمات رحمه الله، وذلك فى شهر شعبان المكرم سنة ثمانين وأربعمائة (نفمبر 1087م)، وذلك بعد أن استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان..."[1783].

وإذا صح ما ورد فى نص ابن أبى زرع من أن سلطة المرابطين فى عهد أبى بكر بن عمر شملت "جبل الذهب"، فإن زحف ذلك الأمير يكون قد تجاوز المنطقة الساحلية ليخضع للإسلام الشعوب السودانية الوثنية، التى كانت مستقرة فى الغابات الاستوائية وبالقرب منها، حيث كانت تلك الشعوب تمتهن أساسا استخراج الذهب من معادن تلك المناطق، ولعل مما يشجعنا على الاعتقاد بأن المرابطين نشروا الإسلام فى معظم المناطق السودانية المجاورة لهم، ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الشخص الذى رمي أبا بكر بن عمر بالسهم المسموم يحمل إسما إسلاميا، إذ اسمه حسب تلك الرواية، هو عمر كودوما، ويعتقد أنه أحد افراد مجموعة

[1777] R. MAUNY:Tableau géographique ، op.cit ، p. 524
[1778] Sekéné Mody SISSOKO ، op.cit ، p. 26
[1779] جوان جوزيف: مرجع سبق ذكره، ص.ص: 58-60.
[1780] R. MAUNY: Siècles Obscurs, op.cit, p 146
[1781] KI-ZERBO, op.cit, p. 117, et SISSOKO, op. cit, p 26
[1782] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 524
[1783] ابن بي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 135.

السرير[1784]، بينما يورد بعض الباحثين أن قاتل الأمير المرابطي كان وثنيا موفدا من طرف زعيم الموسي الذي غضب من سرعة انتشار الإسلام بين الشعوب السودانية وتخليها عن عبادة قوى الطبيعة والسحر، بل و سخرية من اعتنق الإسلام منها من المعتقدات التي كانت سائدة بين السودانيين، مما جعله يكلف أحد جنوده يثق في قدرته على اغتيال أبي بكر بن عمر فتسلل صحبة جماعة من الموسي إلى تكانت، وظل يتحين الفرص إلى أن تمكن من تسديد سهمه المسموم إلى ظهر الأمير أثناء أدائه الصلاة في موقع يدعى المقاسم فارداه قتيلا[1785].

وإذا صحت الرواية الأولى فإن ذلك يعني أن أيام أبي بكر بن عمر الأخيرة، لم تكن أيام حروب ضد الوثنيين، لأن الحواجز العسكرية والسياسية للوثنية أمام انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا قد أزيلت مع سقوط غانة، وإنما تميزت تلك الفترة بتكثيف الوجود العسكري المرابطي هنالك، واستجلاب الفقهاء والمعلمين إلى تلك المنطقة لتعليم أهلها أمور دينهم والتركيز على تأصيل الإسلام وتثبيته فى نفوسهم، وربما يكون ذلك هو الدافع وراء استصحاب أبى بكر بن عمر لمجموعة من المعلمين والفقهاء عندما أراد العودة من المغرب لمباشرة الجهاد فى بلاد السودان.

وبصفة عامة فإن الملثمين كانوا عبر تاريخهم فى الصحراء أنجع قناة لنقل المؤثرات الثقافية والحضارية المتوسطية والمشرقية إلى غرب إفريقيا، باعتبارهم جزءا من سكان المغرب الكبير مهيئين لاستقبال واستيعاب كل ما يطرأ عليه وعلى سكانه من تطورات، ونتيجة لجوارهم لسكان غرب إفريقيا ومعرفتهم لثقافاتهم ودرايتهم بشخصيتهم الحضارية أكثر من غيرهم، وهذه المكانة هي التي خولهم وضع حد لعصور من الجهل والظلامية عاشها الإنسان السوداني فى غرب إفريقيا فى عبودية لمعتقداته الأسطورية وتبعيته للطبيعة، تلك المعتقدات التى منعته من تطوير وضعه إلى ما هو أحسن، فأدى اعتناقه للاسلام إلى تحرير عقله وتفتحه لاستقبال الافكار النيرة والارتباط بالحضارات الإنسانية الأكثر تطورا، والعمل فى إطارها بعد عهود من العزلة والانغلاق على الذات.

ولعل ذلك هو ما أدى ببعض المهتمين بالتاريخ الإفريقي، إلى وصف القرن5هـ/11م بأنه قرن انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا بفضل الجهاد الذى نظمه المرابطون، حيث انتقلت ممالك بأكملها من الوثنية إلى الإسلام، وأن ذلك القرن لم ينصرم إلا بعد أن انغرس الإسلام فى تلك المنطقة[1786]، وقد سلم المرابطون المشعل إلى المسلمين السودانيين وظلوا إلى جانبهم يساعدونهم ويحثونهم على جهاد من يليهم من الوثنيين، فأصبح الجهاد لنشر الإسلام أحد أهم مظاهر الشرعية بالنسبة للسلط السياسية حكمت الممالك السودانية الإسلامية بعد ذلك[1787]، وهو أفضل وسيلة تسوغ للملوك توسيع نفوذهم السياسي عن طريق ضم مناطق أخرى إلى ممالكهم بعد نشر الإسلام بين سكانها.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإننا لا ننفى بقاء شعوب سودانية بإفريقيا الغربية على وثنيتها بشكل صريح مثل شعب الموسي الذى بقيت مملكته صامدة أمام محاولات الفاتحين، ولم يخترقها الإسلام إلا خلال فترات متأخرة[1788]، بل إن بعض الجماعات السودانية التى اعتنقت

[1784] Oumar KANE, op. cit, p. 2.

[1785] دندش، مرجع سبق ذكره، ص.115.

[1786] R. MAUNY: Tableau géographique, op.cit, p 524

[1787] SAMB, Mémoire de l'Ifan, op.cit, p. 19

[1788] R. MAUNY: Tableau géographique, op cit , p 525

الإسلام، ظلت تحافظ على بعض العادات الوثنية وكانت تمارسها إلى جانب أدائها للشعائر الإسلامية واستمرت تلك المظاهرالتى ميزت الإسلام السوداني إلى عهد قريب[1789]، ولم يتم القضاء على مخلفات الوثنية بين مسلمي غرب إفريقيا إلا بمواصلة تلقي السودانيين لتعلم العلوم الشرعية والاقتباس من الحياة اليومية، عن طريق جهود الفقهاء الصحراويين الذين كانوا يقيمون فى المدن والقرى السودانية لتحقيق ذلك الغرض، فضلا عما لعبته مراكز الإشعاع الثقافى الصحراوية فى آزوكي وتينيكي، ولاته وتيشيت الخ... من دور فى نشر المعارف الإسلامية بين السودانيين الذين كانوا يسافرون إليها للتعلم والعودة إلى بلدانهم بعد تخرجهم على يد الفقهاء هنالك، ليتحولوا بدورهم إلى معلمين بعد استقرارهم بين ذويهم، واتخذت جماعات سودانية عديدة اللغة العربية لغة تواصل وتفاهم بين المجموعات الاثنية التي كانت لكل واحدة منها لغتها الخاصة في غرب إفريقيا.

ولم يقتصر استعمال تلك المجموعات للغة العربية على ما يتعلق بالعبادات وإنما شمل مجالات أخرى عديدة، وتأثرت لغات المجموعات الكبرى بلغة القرآن إذ يعتقد أن نحو 50% من مفردات اللغة الولفية ذات أصول عربية وإن كانت قد طرأ عليها تحريف كبير، ويعود ذلك إلى التأثير الذي يرى بعض الدارسين السنغاليين أنه حدث في عهد الهيمنة المرابطية على منطقة السودان الغربي، كما أن تأثير تلك اللغة في البولارية جلي وكان موضع دراسات عديدة، كما أثرت اللغة العربية في اللغة المالنكية.[1790]

وقد ساعد عمق الصلات السياسية التى كانت تربط صحراء الملثمين بممالك غرب إفريقيا على استمرار تنقل الأشخاص ونقل المعارف بين المنطقتين.

II - العلاقات السياسية:

يمكن القول إن تاريخ العلاقات السياسية بين صحراء الملثمين وغرب إفريقيا يرجع إلى بداية ظهور التنظيم السياسي فى المنطقة، وبالذات إلى المراحل الأولى لقيام مملكة غانة التى يكتنف الغموض هوية مؤسسيها الأوائل، وإن كانت المصادر السودانية المدونة خلال القرنيين16و17 الميلاديين تؤكد أنهم غير سودانيين، حيث يقول عنهم عبد الرحمن السعدي الذى أعطى لأسرتهم الحاكمة إسم قيمع مانصه: "... أما ملي فاقليم كبير واسع جدا فى المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط، وقيمغ هو الذى بدأ السلطنة فى تلك الجهة ودار إمارته غانة وهي مدينة عظيمة فى باغن، قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة، فتملك حينئذ إثنان وعشرون ملكا وبعد البعثة إثنان وعشرون ملكا... وهم بيضان فى الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه فى الأصل..."[1791]، أما محمود كعت، فإنه حدد المجموعة التى يعتقد أن مؤسسي غانة ينتمون إليها، وأطلق على الاسرة الأولى التى حكمت تلك المملكة إسم كيمغ، وذلك فى قوله: "... أما سلطنة مل ما استقامت إلا بعد انقراض دولة كيمغ سلطان المغرب كله، بلا استثناء مكان ما منه، وسلطان مل من عبيده وخدمه ووزرائه... وهو سلطان عظيم، أخبرني بعض الموثقين عن الفقيه قاضي ماسنه الفغ أيد الماسني أن كيمغ من الملوك الأوائل، وقد مضى منهم عشرون ملكا قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم واسم بلده قنب.... وكان فى القرن الأول من الهجرة

1789 جوان جوزيف: مرجع سبق ذكره، ص: 38.

1790 الخليل النحوي، إفريقيا المسلمة، مرجع سبق ذكره، ص ص. 38 - 42.

1791 عبد الرحمن السعدي: مصدر سبق ذكره، ص:9.

النبوية، واختلف أي قبيلة هم كانوا منها، قيل من وعكري وقيل من ونكر وهو ضعيف لا يصح، وقيل من الصنهاجة وهو الاقرب عندي... والأصح أنهم ليسوا من السوادين والله أعلم..."[1792].

ويمكننا مقارنة المعلومات التى أوردها المؤرخان السودانيان بتلك التى دونها البكري المعاصر للمرحلة الأخيرة من تاريخ إمبراطورية غانة، عند ما كتب عنها يقول: "... وغانة سمة لملكهم وإسم البلد آوكار..."[1793]، بل إنه يوضح الأمور أكثر ليقترب مما ذهب إليه كل من السعدي وكعت، عندما يشير إلى العاصمة الأولى لتلك المملكة، وهي أودغست، فيقول عنها: "...أودغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة... وهو كان منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن تدخل العرب غانة..."[1794]، فهل يعني ذلك أن الصنهاجيين الذين ذكر محمود كعت أنهم هم مؤسسو مملكة غانة، اتخذوا من أودغست عاصمة لدولتهم، وأطلقوا على تلك الدولة اسم آوكار، وهو الاسم الذى مازالت المنطقة المطلة على أطلال أودغست من الشمال تحمله حتى الآن، بل إنه يطلق على منطقتين فى موريتانيا الحالية، إحداهما فى إقليم الحوض، والأخرى فى غرب البلاد قرب أبى تلميت، وهما منطقتان رمليتان.

إننا نعتقد أن مملكة آوكار التى كان ملوكها الصنهاجيون يحملون لقب "غانة" تمكنت من بسط نفوذها على الصحراء وأجزاء هامة من بلاد السودان، وذلك قبل أن يستقل عنهم رعاياهم من السوننكة، ويتخذوا من قنب (كونبي) عاصمة لهم، ويعطون لدولتهم اسم غانة، فى الوقت الذى بقيت فيه أودغست عاصمة لمملكة صنهاجية صرفة، وابتداء من التاريخ الذى حدده البكري بشكل لا يخلو من الغموض عندما أشار إلى انفصال السودانيين عن الحكم فى آودغست وذكر أن ذلك لم يحدث " قبل أن يدخل العرب غانة"، وهو ما يعني أن التحول الذى طرأ على الخريطة السياسية فى المنطقة ولم تعد بموجبه أودغست عاصمة لغانة، تم بعد دخول العرب إلى تلك المملكة، مما يحيلنا إلى التفكير فى أن التاريخ الذي وقعت أثناءه تلك الأحداث يقع ضمن الفترة ما بين النصف الثاني من القرن7م والنصف الأول من القرن8م.

ويرى بعض الدارسين أن الجماعات التى أسست غانة، وصلت خلال فترة مبكرة من بداية العهد المسيحي إلى الحوض قادمة من شمال إفريقيا، وأن سيطرتها على السودانيين استمرت حتى القرن8م عندما تمكن السوننكة من وضع حد لها بعد استيعابهم لطرق الحكم نتيجة لخدمتهم الطويلة لملوك تلك الجماعات[1795]، كقادة عسكريين أو وزراء فأسسوا دولتهم الخاصة بهم، وقد أشارت الرواية السودانية إلى الثورة السوننكية على سلطة الملوك الصنهاجيين، فذكرت أن استقلال المملكة السودانية عن الدولة الصنهاجية صاحبته حروب وفتن[1796]، ويعتقد بعض الباحثين أن ذلك التحول حدث بعد اندماج غالبية المؤسسين البيض للمملكة فى المجموعة السودانية عن طريق المساكنة والمصاهرة بحكم التفوق العددي للمجموعة السودانية فى المنطقة، لذلك كانت سماتها هي الغالبة، مما شجعها على الاستقلال والتميز عن المجموعة التى وحافظت على خصائصها ولم تندمج فيها[1797].

[1792] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:174.
[1793] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:174.
[1794] نفس المصدر ، ص:168.
[1795] عبد الرحمن زكي: مرجع سبق ذكره، ص:23.
[1796] محمود كعت: مصدر سبق ذكره، ص: 42.
[1797] أحمد طاهر: افريقيا فصول من الماضي والحاضر، دار المعارف، القاهرة 1979، ص:70.

وبصفة عامة، فمن المعروف أن غانة كانت خلال القرن8م مملكة سوننكية صرفة، حيث تمكنت منذ ذلك التاريخ من إخضاع ممالك سودانية أخرى عديدة حتى كاد نفوذها يشمل كافة أراضي منطقة غرب إفريقيا، فتحولت من مملكة سوننكية صغيرة إلى إمبراطورية كبرى تشتمل على حوالي14 مملكة[1798]، ذكر البكري أسماء معظمها وحدد مواقعها[1799]، وأشار إلى أن ملوكها كانوا يقدمون أبناءهم رهائن لإمبراطور غانة ليتربوا فى قصره وينشأوا على خدمته وطاعته تهيئة لتوليهم السلطة بعد آبائهم فى الممالك التى يحمونها، وللإمبراطور الحق فى قتل أي واحد منهم حاول والده الانفصال عن الإمبراطورية، وكان أولئك الأمراء يحضرون مجلس الإمبراطور الذى كتب البكري عن الطريقة التى كان ينعقد بها فقال: "... وهو يجلس للناس والمظالم فى قبة... ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أبناء ملوك بلده قد ضفروا رؤوسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة..."[1800].

ويبدو أن العلاقات السياسية بين مملكة أودغست الصنهاجية وإمبراطورية غانة، كانت مبنية على التنافس بين المملكتين حول الاستفادة من التجارة الصحراوية، وهو مايفسر التقارب الجغرافى لعاصمتي المملكتين اللتين كانتا تقعان فى المنطقة الساحلية، وذلك على الرغم من أن غالبية رعايا مملكة أودغست الصنهاجية كانوا يقطنون فى المناطق الواقعة إلى الشمال من عاصمتها، فى الوقت الذى كان فيه معظم رعايا غانة منتشرون إلى الجنوب من عاصمتها، وكانت كل واحدة من المملكتين تسيطر على منتوج هام بالنسبة لتلك التجارة، فكانت أودغست تبسط نفوذها على المناطق التي كانت توجد بها معظم سباخ الملح الحجري، وكانت غانة تفرض نفسها وسيطة بين منتجي الذهب فى بلاد السودان، الذين كانوا يدينون بقدر من الولاء لها من جهة، والتجار الشماليين بمن فيهم الصنهاجيون بأودغست من جهة أخرى، وكانت كل واحدة من المملكتين تعمل جاهدة لفرض سيطرتها على المناطق التى تخترقها الطرق التجارية الرئيسية بالمنطقة، وإلى اجتذاب أكبر عدد ممكن من كبار التجار الشماليين للاستقرار فى مراكزها التجارية، كما كانت كل واحدة منهما تسعى ما أمكنها ذلك إلى السيطرة على الثروتين الاستراتيجيتين (الذهب والملح)، خاصة بعد أن أصبح ذهب غانة مطلوبا منذ النصف الثاني من القرن8م من مختلف التنظيمات السياسية فى إفريقيا الشمالية، لذلك كانت طبيعة العلاقات السياسية بين الصحراء وبلاد السودان الغربي خلال تلك الفترة تتجه إلى السلم كلما كانت هنالك مقايضة من طرفهما للمنتوجين، وإلى الحرب عند ما يحاول أحد الطرفين الإخلال بالتوازن عن طريق السعي إلى السيطرة على الثروتين فى آن واحد[1801].

ويبدو أن محاولة ملوك صنهاجة السيطرة على أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا منذ بداية القرن9م تدخل فى هذا الإطار، مثل ما قاله ابن أبي زرع عن تيولوتان بن تلاكاكين المتوفى سنة 222هـ/836م، عند ما كتب عنه يقول: "... ملك بلاد الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية..."[1802]، وفى النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، ذكر اليعقوبي أن ملك أودغست كان "يحارب السودان وممالكهم كثيرة"[1803]،

[1798] ابو العباس احمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الإنشا، 14ج، المؤسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج5، ص:286.

[1799] البكري: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 172-183.

[1800] نفس المصدر، ص: 174.

[1801] J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op.cit, p 113 et 136

[1802] ابن ابي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 120.

[1803] اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ص:111.

وفى منتصف القرن 4هـ/10م كان يحكم مملكة أودغست الصنهاجية ملك يدعى تينيروتان، وقد تمكن ذلك الملك الذى كان بمقدوره استنفار مائة الف مقاتل، من التدخل خلال فترات خلافاته مع إمبراطورية غانة فى شؤونها الداخلية ويؤجج الصراعات بين الممالك التابعة لها ويحرضها على الاستقلال، وفى هذا الإطار تذكر المصادر أنه ألحق أثناء بعض فترات حكمه عشرين مدينة سودانية بمملكته وأصبح رؤساؤها يقدمون له الجزية، ويفهم مما أوردته تلك المصادر أن تينيروتان كانت له صلات ببعض الممالك السودانية، وأنه كان يقدم لها الدعم الذى تحتاجه من ذلك مثلا ما نقله البكري عن الوراق فى معرض حديثه عن ذلك الملك، فقال: "... فاستمده بعرين ملك ماسين على ملك أوغام، فأمده بخمسين ألف نجيب، فدخلت بلد أوغام وعساكره غافلة، فغنمت البلد وأحرقته..."[1804]، وربما تكون هذه الفترة من عهد تينيروتان هي التى أصبحت خلالها مملكة تكرور تابعة لمملكة أودغست الصنهاجية[1805]، ويبدو أن ذلك الملك اللمتوني غير سياسته تجاه إمبراطورية غانة، حيث أوردت المصادر أن علاقات مملكته بها كانت خلال سبعينيات القرن10م جيدة، وأن الممالك السودانية بما فيها غانة كانت تخطب وده ليمدها بالملح الحجري الذى كانت سباخه متعددة فى بلاده، ومنعدمة فى المنطقة السودانية، ويعرض ابن حوقل الذى أدعى أنه زار أودغست خلال ذلك التاريخ، لذلك الموضوع فيقول: "... وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة... وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به، وربما بلغ الحمل من الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه مابين مائتين إلى ثلاثمائة دينار..."[1806]، ويعتقد أحد الباحثين أن حروب تينيروتان مع بلاد السودان وغزوه لها، كانت تهدف إلى فرض الاحتكار على الملح الصحراوي وتحكم ملوك أودغست فى تحديد الكميات التى تدخل إلى بلاد السودان منه، وهو ما تحقق وأدى إلى ارتفاع أثمان تلك المادة فى دواخل غرب إفريقيا[1807].

ولاشك فى أن الاحتكار الصنهاجي للملح، كان ردا على الاحتكار الغاني للذهب، حيث كان ملوك غانة لا يسمحون لرعاياهم بتداول ولا بيع القطع المتماسكة من الذهب، وإنما كانوا يرخصون لهم فقط فى دقيق الذهب خوفا من تدهور أسعار تلك المادة الثمينة التى كان يرتكز عليها اقتصاد الإمبراطورية، لذا كان السودانيون يحتفظون أثناء بحثهم عن الذهب بتلك القطع، ليتم تسليمها طواعية وبعيدا عن أي ضغط إلى الامبراطور، وفى هذا الصدد يقول البكري: "... وإذا وجد فى جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك وإنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق، ولو لا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون، والندرة تكون من أوقية إلى رطل ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم..."[1808].

ولم تدم علاقات الود بين المملكتين طويلا، نتيجة لتدخل طرف ثالث فيها، وتحالفه مع غانة ومحاولته الإخلال بالتوازن المذكور، ويتعلق الأمر بزناتة إفريقية من الأباضيين، أعداء صنهاجة خاصة بني زيري، ويعتقد أنهم أرادوا أخذ الثأر من صنهاجة بتوجيه قوتهم إلى الملثمين لإزاحتهم عن السلطة فى أودغست، وسلب دور الوساطة التجارية بين بلاد السودان وشمال إفريقيا منهم[1809]، وقد أشارت المصادر المعاصرة لتلك الأحداث إلى محاولاتهم الأولى

[1804] البكري: مصدر سبق ذكره، ص:158.

[1805] SAMB, memoire de l'Ifan, op.cit, p 18

[1806] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص: 98.

[1807] J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op.cit, p 114.

[1808] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 176.

[1809] TEGDAOUST I, op.cit, p. 128.

لتحقيق ذلك الهدف السالفة، من ذلك ما أورده ابن حوقل من محاولتهم القضاء على حكم تينيروتان فى اودغست وتوجيههم جيشا لغزوها، وأن تينيروتان تمكن من إفشال خطتهم والقضاء على جيشهم بسهولة ومن دون أن يحتاج إلى استنفار قومه لقتالهم[1810].

ويظهر أن الزناتيين لجأوا إلى رسم استراتيجية أخرى للوصول إلى أغراضهم، حيث بدأوا بعد ما لحق بهم، بالتسرب سلميا كتجار إلى عاصمة المملكة الصنهاجية وإلى العاصمة الغانية وكونوا بهما مع مرور الزمن جاليتين كبيرتين، أدت الصلات فيما بينهما من جهة، وبينهما والامبراطورية الغانية الطامعة فى إنهاء السيطرة الصنهاجية على الطرق العابرة للصحراء، ووضع حد لاحتكارهم للملح، إلى سقوط مملكة أودغست فى أواخر القرن10م، فتنازلت غانة للتجار الزناتيين عن ممارسة النشاط التجاري هنالك، مقابل تبعيتهم السياسية لها، وكانت توفر لهم الحماية العسكرية[1811]، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مدينة أودغست والمناطق المحيطة بها تدار من طرف حاكم سوداني معين من طرف الإمبراطور الغاني[1812]، ويبدو أن فترة من الصراع بين المملكتين قد سبقت هذا الواقع، استعمل اثناءها السلاح الاقتصادي، حيث حاولت غانة إضعاف مملكة أودغست عن طريق إثارة الخوف على طول الطرق التجارية المؤدية إلى عاصمتها، ومدنها التجارية الرئيسية، وذلك بواسطة حاميات من جيشها كانت ترسلها إلى المناطق الجبلية للاختباء بها، وقطع الطرق على القوافل المارة، من ذلك مثلا ما أشار إليه البكري فى قوله: "... ثم تسير منه يوما فى جبل يقال له ازجونان يقطع فيه السودان..."[1813].

وقد عرفت مدينة أودغست إزدهارا إقتصاديا وعمرانيا فى ظل السيطرة الزناتية-الغانية[1814]، وذلك قبل أن يستخدم الصنهاجيون بدورهم سلاح قطع الطرق وإثارة الخوف وعدم الطمأنينة على طولها، لخلق أزمة إقتصادية لغانة تضعفها قبل مواجهتهم العسكرية معها، وفى هذا الصدد يقول البكري أيضا: "... وانزمين آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش، وبهذا الماء يجتمع جميع طرق السودان، وهو موضع مخوف، تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق، ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بافضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه..."[1815].

وفى أواخر الثلث الأول من القرن5هـ/11م تمكن أبو عبد الله محمد ابن تيفاوت اللمتوني من توحيد صنهاجة الصحراء لأول مرة بعد سقوط مملكتهم[1816]، ويبدو أن أهم وأول خطوة كان ينوي تحقيقها تتمثل فى تحرير العاصمة الصنهاجية من الاحتلال الغاني، إلا أنه لقي مصرعه على يد الطلائع الشمالية لجيش تلك الامبراطورية السودانية، التى يبدو أنها كانت تراقب عن كثب تحركات الصنهاجيين، مما جعلها تحتل مواقع متقدمة فى الشمال لرصد تحركاتهم واستقرت حاميات عسكرية من جيشها على الهضاب المشرفة على الصحراء، لصد أي تقدم صنهاجي قبل أن يصل إلى المنطقة الساحلية، حيث توجد أودغست والعاصمة الغانية

[1810] ابن حوقل: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 97-98.

[1811] J. DEVISSE, in TEGDAOUSt I, op.cit, p 122 et 129

[1812] Sekéné Mody CISSOKO, op.cit, p 12 .

[1813] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.

[1814] TEGDAOUSt I, op.cit, p 129.

[1815] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 157.

[1816] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص:121.

ذاتها، وقد تميز أبو عبد الله محمد بن تيفاوت عمن سبقه من القادة الملثمين، بأنه غير الأسس التى كانت العلاقات السياسية بين صنهاجة الصحراء تنبني عليها، حيث أصبح الطابع العام الذى يحدد طبيعة العلاقات بينهم منذ عهده يرتكز على الدين، فلقد وصفته المصادر بأنه "من أهل الدين والحج والجهاد"[1817]، ويبدو أن ابن تيفاوت أوصي صهره وخليفته على الملثمين يحيى بن إبراهيم الكدالي بترسيخ ذلك الاتجاه، فكانت حجته، ثم قيام حركة المرابطين، التى وإن كانت أهدافها فى نشر الإسلام وفتح المجال أمام الملثمين ليستعيدوا دورهم فى الوساطة التجارية لا تحتاج إلى مجهود كبير لإثباتها والبرهنة عليها، فإن أهدافها السياسة ممثلة فى رغبة قادتها فى إنهاء الاحتلال الغاني لأراضي الملثمين كانت جلية أيضا، بل إنهم كانوا يطمحون إلى إقامة دولة أوسع وأكثر نفوذا من مملكتهم الصحراوية تشمل معظم مناطق الغرب الإسلامي، وذلك بإغراء من فقهاء المذهب المالكي فى تلك المنطقة.

وتتجلى رغبة القادة الملثمين للحركة المرابطية فى إنهاء الهيمنة الاقتصادية والسياسة لغانة على المنطقة، فى معاملتهم للجالية المسلمة من تجار زناتة والعرب بأودغست بعد دخول الجيش المرابطي لها سنة 1055م، حيث يقول البكري فى معرض حديثه عن فتح تلك المدينة مانصه: "... فاستباح المرابطون حريمها، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئا، وقتل فيها عبد الله بن ياسين رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان معلوما بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحج البيت يسمى زبقرة، وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه..."[1818].

ومع أن المصادر صمتت عن طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين المرابطين وغانة، خاصة بعد عودة أبى بكر بن عمر من المغرب، فإن بعض الباحثين يعتقدون أن تلك العلاقات اتسمت بالتسامح لفترة طويلة، خاصة فى عهد بسي، إمبراطور غانة العجوز[1819]، الذي كان "محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين..."[1820]، إلا أن الوضع تغير بعد تولي ابن أخته تنكامنين مقاليد السلطة فى غانة سنة 455هـ/1063م، حيث وصفته المصادر بأنه كان "شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان..."[1821]، فهل قام تونكامنين بما يستدعي من المرابطين تغيير سياستهم تجاه بلاده، واستنفار قواهم لمحاربته بعد أن ألقوا بكامل ثقلهم على الشمال، وبصفة خاصة منه المغرب الأقصى ؟

يرى بعض الباحثين أن المرابطين، على الرغم مما أولوه من اهتمام للشمال، كانت مصالحهم المحلية وعلاقاتهم مع بعض الممالك السودانية التى اعتنق ملوكها ومعظم رعاياها الإسلام، تفرض عليهم عدم إهمال منطقة غرب إفريقيا، خاصة أن الملوك السودانيين حديثي العهد بالإسلام كانوا ينتظرون من المرابطين إعطاء الأولوية للقضاء على الوثنية فى غرب إفريقيا، ممثلة فى رمزها وحامي أوكارها، إمبراطور غانة، بدلا من توحيد المغرب الإسلامي[1822] وكان حماس أولئك الملوك ورعاياهم المسلمون كبيرا لتحقيق تلك الأهداف، وقد

[1817] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 164.

[1818] نفس المصدر، ص: 168.

[1819] J. DEVISSE: in TEGDAOUST I, op.cit, p 153

[1820] البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 174.

[1821] نفس المصدر، ص:175.

[1822] ددود بن عبد الله: ؛دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتي نهاية القرن18 للميلاد« حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة نواكشوط. العدد الأول 1989، ص.ص:18-33.

قاتل بعض أولئك الملوك السودانيين إلى جانب المرابطين خلال فترة مبكرة من قيام دولتهم فى الصحراء[1823].

ولعل تلك المعطيات إذن ساهمت إلى جانب عوامل أخرى في عودة أبى بكر بن عمر، وتخليه عن السلطة فى المغرب لصالح يوسف بن تاشفين، حيث ذكرت المصادر أن الجهاد فى بلاد السودان من بين الأسباب التى أدت إلى ذلك التنازل، فقد ذكر ابن أبى زرع فى هذا الصدد أثناء حديثه عن ذلك الأمير المرابطي مثلا مانصه: "... فعزم على السير إلى الصحراء ليصلح أحوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان..."[1824]، وبالفعل، فإنه بعد وصوله إلى صحراء الملثمين وتسويته للخلافات التى كانت موجودة بين قبائلها المتصارعة "جمع جيوشا كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر..."[1825]، ولاشك أن المعني هنا "ببلاد السوادن"، هو أساسا غانة التى دخلت جيوش أبي بكر بن عمر عاصمتها سنة 469هـ/1076م[1826]، مستفيدا من الظرفية التى كانت تمر بها وقتئذ، والمتمثلة فى انفصال العديد من الممالك السودانية عنها، فكانت قوتها مشتة فى مواجهة الخارجين عليها من جهة، وأعدائها الأقوياء القادمين من الشمال من جهة أخرى، لذا كان أبوبكر بن عمر، يراهن على الوقت، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على العاصمة بعد إجهاد جيش الإمبراطورية الضخم والقوي بالمناوشات المتتالية خاصة أن تعبئتها لذلك الجيش الذى كان عدده يصل 200.000 مقاتل لمدة طويلة لم تكن متوقعة فى ظل انقساماتها الداخلية وتأثر التجارة والاقتصاد عموما بالحروب[1827].

ولم تعد غانة بعد فتحها سوى مجرد إقليم من إمبراطورية المرابطين المترامية الاطراف، فحل الصنهاجيون بقيادة أبى بكر بن عمر محل الأباطرة السوننكيين فى حكم البلاد[1828]، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن أبى زرع عند ما كتب عن الجناح الجنوبي للدولة المرابطية، عند وفاة أبي بكربن عمر، فقال: "... وانصرف إلى الصحراء فأقام بها يجاهد الكفرة

1823 البكري: مصدر سبق ذكره، ص: 167.
1824 ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص: 134.
1825 نفس المصدر، ص: 135.
1826 راجع كلا من:
-الزهري: مصدر سبق ذكره، ص: 125،
-Tadeusz Lewichi: "Un état soudanais inconnu: le Rogaume de Gafun (4)" Cahier d'Etudes Africaines, 44, Volume XI MCMLXXI, 4, 1971, pp 501-525.
ويعتقد أحد الباحثين أن فتح المرابطين لغانة لم يؤكده مصدر يعتد به، فناقش الشذرات الواردة في كتابات ابن أبي زرع وابن عذاري وابن خلدون، وانتهى إلى استنتاج مفاده أن روايات هؤلاء الكتاب حملت أكثر مما تطيقه وأنها لا تفيد إطلاقا فتح المرابطين المزعوم لغانة، وتساءل عن أسباب تجاهل الكتاب الفرنسيين والمتفرنسين -المروجين لذلك الفتح- لرواية الإدريسي الذي تحدث عن غانة قوية ومسلمة مقابل ترويجهم لرواية البكري التي تشير إلى وثنية تلك المملكة، ولا يستبعد هذا الباحث في هذا الإطار أن تكون لتلك الكتابات خلفية أيديولوجية. انظر: أحمد الشكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1997، ص. 74 و ص. 75، الهامش 193.
ونحن مع تقديرنا لهذه الرؤية المفيدة والبصيرة النافذة فإننا لا نجدها بعيدة كل البعد عن النتائج التي توصل إليها الكتاب الإنجليز والآنجلوساكسونيون في هذا المجال، وخاصة في ما يتعلق بفتح غانة. راجع:
-Humphrey J. Fisher: "Early arabic sources and the Almoravid conquest of GHANA", Journal of African history, 23; 3 (1982), pp. 549-560.
-Sheryl L. Burkhalter: "Listening for silences in Almoravid history: Another reading of (the conquest that never was ،"(
–Dierk Lange (Bayreuth): "The Almoravid and the Downfall of Ghana", Der Islam, Zeitschrift fur Geschichte und kutur des Islamschen Orients; Berlin, Band, 73, Heft, 2, 1996, pp.
-Dierk Lange (Bayreuth): "The Almoravid and the Downfall of Ghana", Der Islam, Zeitschrift fur Geschichte und kutur des Islamschen Orients, Berlin, Band, 73, Heft, 2, 1996, pp..
1827 Sekén ModySISSOKO ، op.cit ، p 26
1828 J.CUOQ: L'Islamisation ، op.cit ، p 42

من السودان إلى أن استشهد رحمه الله فى بعض غزواته، رمي بسهم مسموم فمات رحمه الله، وذلك فى شهر شعبان المكرم سنة ثمانين واربعمائة (نفمبر 1087م)، بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلى جبال الذهب من بلاد السودان..."[1829].

ولقد أدى فتح المرابطين لعاصمة غانة، وإطاحتهم بسلطتها السياسية الوثنية إلى استقلال الممالك التى كانت سائرة فى فلكها عنها، مثل مملكة صوصو فى كانياكا، والمملكة التى أسسها آل دوكوري فى إقليم باغنة، بالإضافة إلى المملكة التى كانت تحكمها أسرة نياخاتي فى إقليم كنكي والتى كانت عاصمتها تحمل اسم "زاره"[1830]، هذا فضلا عن مالي وتكرور وديافونو الخ...، وأخضع المرابطون معظم تلك الممالك لنفوذهم، فأصبح بعضها فى عداد إمبراطوريتهم والبعض الآخر يدفع لهم الجزية، وهذا هو ما أشار إليه ابن خلدون عند تلخيصه للأحداث المتعلقة بسقوط إمبراطورية غانة عندما كتب: "... ثم إن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر، كما ذكرناه، وعبروا على السودان، واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزي، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به..."[1831].

وتميزت الفترة التى تولى فيها المرابطون حكم بلاد السودان، ابتداء من سقوط غانة سنة 1076م، وحتى الاضطرابات الأولى الناتجة عن حركة ابن تومرت بسيادة الأمن، وعرفت خلالها أرجاء الامبراطورية المرابطية بشطريها، الشمالي والجنوبي، ازدهارا اقتصاديا كبيرا[1832]، وعلى الرغم من أن الزهري، ذكر أن مدينة غانة التى كانت عاصمة الامبراطورية المنهارة، أصبحت منذ فتح المرابطين لها "... حاضرتهم ودار مملكتهم..."[1833]، فإننا نعتقد أنها كانت مجرد عاصمة الأقليم السوداني الذى كان تابعا لهم، وذلك لا ينفى أن يكون الحاكم القائم بأمرها من الملثمين أو مكلفا بتدبير شؤونها من طرفهم، ومع أن وفاة أبى بكر بن عمر اللمتوني سنة 1087م، أدت إلى انفجار الامبراطورية، واستقلال جزئها الشمالي نهائيا بعد أن كان تابعا ولو شكليا لزعامتها الصحراوية، حيث بادر يوسف بن تاشفين إلى ضرب العملة باسمه ليظهر ذلك الاستقلال، فإن الشطر الجنوبي من الامبراطورية المرابطية، ممثلا فى صحراء الملثمين وبلاد السودان، استمر موحدا فى ظل حكم زعماء لمتونيين طيلة 146 سنة بعد ذلك التاريخ[1834].

وظلت ذكري المرابطين ماثلة فى الذاكرة العامة للسودانيين، خاصة ما يتعلق منها بتاريخهم الثقافى والسياسي، مثل ما تورده بعض التقاليد المتداولة فى حوض نهر السنغال من أن مؤسس مملكة والو وإمبراطورية جيولوف المعروف باسم اندادیان انجاي، هو أحد أحفاد أبي بكر بن عمر اللمتوني، وتحدد فترة حكمه بما بين شنتي 1186م و 1202م[1835]، ونشير هنا إلى أننانعتقد أن أبا بكر بن عمر، تزوج فى بلاد السودان[1836]، مثلما تزوج فى بلاد المغرب

[1829] ابن أبي زرع: مصدر سبق ذكره، ص.ص: 135-136.

[1830] T. LEWICKI ، op.cit ، pp 501-525

[1831] العبر: مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص: 413.

[1832] J. CUOQ: L'Islamisation ، op.cit ، p 55

[1833] الزهري: مصدر سبق ذكره، ص: 126.

[1834] J. CUOQ: L'Islamisation ، op.cit ، p 42

[1835] Amar SAMB ، Bifan ، op.cit ، p 465

[1836] الخليل النحوي، إفريقيا المسلمة، مرجع سبق ذكره، ص.42.

بزينب بنت اسحاق النفزاوية ليكسب ود السكان بالمصاهرة مما يعطي مصداقية للرواية السودانية السالفة الذكر، خاصة أن ابن عذاري اثناء حديثه عن ابناء ذلك الأمير قال: "... فأما إبراهيم فلم تعرف أمه، وكان أسود الجلدة، وهو إبراهيم بن الأمير أبوبكر بن عمر..."[1837] ، ونشير إلى أن الزواج السياسي ظهر مبكرا مع قيام دولة المرابطين فى الصحراء، حيث أوردت المصادر عن عبد الله بن ياسين أنه كان أثناء إقامته فى الصحراء "... نكاحا للنساء يتزوج فى الشهر عددا ويطلقهن"[1838]، وفضلا عن ذلك أشارت المصادر العربية الوسيطة إلى وجود زعماء لممالك سودانية بإفريقيا الغربية، ليسوا سودانيين، مثل ملك غانة فى عهد الإدريسي، الذى كتب عنه يقول: "... وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا... وأهلها مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله(؟) ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي..."[1839]، فهل يتعلق الأمر هنا بسليل أحد الأشراف الذين وصلوا إلى الصحراء وبلاد السودان صحبة أبى بكر بن عمر إثر عودته الأخيرة من المغرب الاقصى للتبرك بهم وليساعدوا فى نشر الإسلام والمعارف الدينية عن طريق التدريس فى المناطق التى يتمكن الجيش المرابطي من فتحها ؟، وهل تمت تولية والده أوجده من طرف ذلك الأمير المرابطي على تلك المملكة السودانية الغنية تكريما له واعترافا بفضله وصلته النسبية بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم بقيت ذريته تتداول السلطة فيها حتى عهد الإدريسي؟ أم أن الأمر يتعلق بمجرد أمير مرابطي كان واليا على تلك البقاع، رفع السكان المحليون عائلته إلى رتبة الأشراف تعظيما وتثمينا لدور المرابطين فى نشر الإسلام بغرب إفريقيا؟

لايمكننا الجواب بشكل نهائي على هذه التساؤلات التى ينبغي أن يكون موضوعها محل دراسة فى إطار العلاقات بين صحراء الملثمين وإفريقيا الغربية ابتداء من القرن12م، وهو ما لا يدخل ضمن الإطار الزمني لدراستنا هذه، وعلى كل حال، فإن العلاقات السياسية بين صحراء الملثمين وبلاد السودان خلال الفترة ما بين منتصف القرن8م ونهاية القرن11م، كانت دائما تتناسب مع مدى قوة ومكانة الملثمين فى المنطقة والدور الذى كانوا يلعبونه، باعتبارهم جسرا تنتقل بواسطته المؤثرات الثقافية والحضارية بين شمال إفريقيا وغربها من جهة، ووسيطا تجاريا إجباريا وشريكا أساسا فى المبادلات التجارية بين المنطقتين.

1837 ابن عذاري: مصدر سبق ذكره، ج4، ص: 17.
1838 البكري: مصدر سبق ذكره، ص:169.
1839 الإدريسي: مصدر سبق ذكره، ص: 38.

الخاتمة

هكذا إذن، تبين من خلال فصول هذا البحث، أن صحراء الملثمين لم تكن خلال مراحل تاريخها خالية من السكان، على الرغم من الأوصاف التي وردت في كتابات مؤلفي العصر الوسيط والتي تدل على وعورة مسالكها وندرة الماء بها وارتفاع درجات الحرارة في ربوعها وقلة المراعي في أرجائها ومحدودية الأنشطة الاقتصادية المتاح لساكنيها فرصة ممارستها مع ضعف مردودية ما وجد منها بالمقارنة مع المناطق الأخرى، بل إنها اجتذبت السكان من المناطق الأكثر حظوة من الناحية المناخية والأكثر إنتاجية في مجال الزراعة، في شمال و غرب إفريقيا، وأكثر من ذلك استقرت بها جاليات كبيرة قادمة من المشرق العربي، مركز العالم الاقتصادي والحضاري عصرئذ، فاستغل الإنسان هنالك الإمكانات المتوفرة أحسن استغلال وتكيف مع وضع المنطقة، فكان بدويا متنقلا في المناطق التي لم تكن الظروف فيها تسمح بالاستقرار، وحضريا مقيما مزارعا أو تاجرا في الجهات التي توجد بها واحات أو تسمح التساقطات بممارسة نشاط زراعي بعلي فيها أو مزاولة زراعة البستنة بفضل ما كانت توفره تلك التساقطات من دعم لمخزون المياه الجوفية سنويا، أو تقع على طول إحدى الطرق التجارية العابرة للصحراء.

ومهما كانت طبيعة نمط الحياة الذي كان سائدا بين سكان منطقة أو أخرى من مناطق صحراء الملثمين تبعا لتمايز الظروف المناخية وتأثيراتها على النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فإن الملامح العامة لمجتمع الصحراء كانت على قدر كبير من الانسجام، ولم يقتصر ذلك على السكان الأصليين، وإنما طبعت تلك الملامح الأقليات القبلية والعرقية التي استقرت هنالك إثر قدومها من المناطق المجاورة شمالا أو جنوبا بطابعها الخاص، و أنتج ذلك المجتمع النظم والقيم الملائمة لأوضاعه، مستوحيا معظمها من صراعه مع محيطه الطبيعي فكان لها بسبب تلك الخصوصية ما يميزها في بعض الجزئيات عن تلك التي كانت سائدة بين مجتمعات يرتبط معها بصلات حضارية أو جوار جغرافي.

كما تمكن الملثمون في الصحراء من إقامة التنظيم السياسي الذي كان يناسبهم وطوروه تبعا للتطورات التي عرفوها، فبدأ بكونفدرالية قبلية تستهدف الحفاظ على المصالح الأساسية لصنهاجة الصحراء في المنطقة ثم تطور إلى مملكة كانت لها مكانتها الهامة في المغرب وغرب إفريقيا لسيطرتها على مراحل هامة من طرق القوافل وتحكمها في إنتاج وتسويق بعض مواد التبادل التجاري الرئيسية، وبعد استقرار الإسلام في المغرب وتسربه إلى الصحراء و بلاد السودان الغربي وما أدى إليه ذلك الحدث الهام من تغيرات جوهرية على مستوى الخريطة السياسية، لا في المنطقة التي عرفت باسم المغرب الإسلامي فحسب، وإنما في أجزاء واسعة من العالم القديم، وما صاحب ذلك من تغيرات تتعلق بمفهوم الدولة وطرق ممارسة السلطة وغير ذلك من القضايا العامة المستوحاة من الدين الإسلامي الذي أثر بشكل سريع في مختلف أوجه الحياة في المناطق التي وصلها، بعد هذا كله قامت دولة المرابطين في الصحراء على أنقاض مملكة أودغست الصنهاجية، وكان قيامها استجابة لمتطلبات تلك المرحلة، فارتكزت بالإضافة إلى لحمة العصبية الصنهاجية على لحمة العقيدة الإسلامية، وتمكنت من فرض هيمنتها الاقتصادية والثقافية والسياسية على منطقة المغرب الإسلامي، فكانت أول إطار سياسي يجمع بين أجزاء هذه المنطقة ويمهد لوحدتها الشاملة التي تمت في عهد الموحدين، كما ساهمت تلك الدولة في توطيد وتطوير العلاقات بين أجزاء المغرب الاسلامي.

ومع أن علاقات الصحراء بشمال وغرب إفريقيا قديمة ومتعددة الجوانب، فإنها عرفت توسعا مطردا خلال الفترة ما بين منتصف القرن 2هـ/8م ونهاية القرن 5هـ/11م، حيث أعطى

الفتح الإسلامي للمغرب دفعا كبيرا لتلك العلاقات، خاصة التجارية منها، حيث انتقلت منذ تلك الفترة من طورها الأول الذي لم تكن تتجاوز فيه كونها مجرد علاقات إقليمية محدودة من حيث الأطراف المشاركة فيها ونوعية وكميات المواد المتبادلة في إطارها، إلى تجارة دولية تشارك فيها مختلف القوى الاقتصادية في قارات العالم المعروفة في ذلك العصر، فاستفادت نظمها من تجارب تلك الأطراف، وتجاوز تأثير تلك التجارة المجال التجاري الصرف ليشمل النواحي الثقافية، حيث أدى استقرار أعداد هامة من تجار الآفاق، خاصة العربية منها، في الصحراء وغرب إفريقيا إلى إنشاء أحياء عربية في كبريات المدن الصحراوية والسودانية، شيدت وفق معايير الهندسة المعمارية العربية في المشرق وشمال إفريقيا والأندلس ثم إن سكانها احتفظوا بنمط الحياة الذي تربوا عليه في مواطنهم الأصلية أثناء إقامتهم في مستقراتهم الجديدة، لذلك كانوا يستوردون ما يحتاجونه من أدوات ومواد استهلاكية مما لا يمكن إنتاجه محليا من الشمال، فانتشرت عن طريقهم التأثيرات في تلك المجالات بين الفئات التي كانت تحتك بهم من تجار المنطقة وأرستقراطيتها، وانتقلت عن طريق تلك الجاليات إلى سكان المناطق المذكورة جملة من القيم والعادات ساعدت في تقبلهم للإسلام، الذي بدأ ينتشر بين سكان المدن والقرى فيها خلال فترة مبكرة من وصول التجار العرب والمسلمين إليها.

لكن انتشار الإسلام بين سكان الصحراء كان أسرع نتيجة لجملة من العوامل أهمها، استقرار معظم التجار المسلمين هنالك متحاشين بذلك التأثيرات السلبية للمناخ السوداني على صحتهم، فضلا عن تشابه البيئة وحياة السكان المرتكزة على قيم البداوة في الصحراء مع ما عرفوه في الجزيرة العربية، كما أن نسبة هامة من أولئك التجار كانت من سكان المغرب الأصليين، و يحتمل أن معظمهم كان يتحدث اللغة الأمازيغية التي كانت لغة معظم سكان الصحراء، على أن المصادر - كما سبق أن رأينا - ذكرت بأن تدريس القرآن والعلوم الشرعية، باللغة العربية طبعا، كان منتشرا في مدينة أودغست عاصمة صحراء الملثمين، ومن المحتمل أن ذلك حال معظم المدن والقرى الصحراوية والسودانية التي احتضنت جاليات عربية وإسلامية خلال تلك المرحلة من التاريخ.

ثم إن الصحراويين الذين من المفروض أن معظمهم كان يعرف لغات المجموعات السودانية في غرب إفريقيا وعاداتهم بحكم الجوار الجغرافي والاحتكاك المستمر منذ عدة عصور، تولوا مهمة نشر هذا الدين بين تلك الشعوب وكان ذلك في بداية الأمر بنفس الطريقة التي تلقوه بها، إذ كان الملثمون هم الذين يتولون شراء البضائع من التجار القادمين من الشمال في المراكز التجارية الصحراوية، ثم يقومون بنقلها إلى بلاد السودان، فيبيعونها للتجار السودانيين الذين ينقلونها بدورهم إلى مناطق إنتاج الذهب لمبادلتها به هنالك، وبالتالي تتاح للملثمين فرصة إبلاغ الدعوة إلى السودانيين الذين يتعاملون معهم، ثم يقوم أولئك بدورهم بإبلاغها لبني جلدتهم في أطراف الغابات الاستوائية، لكن هذه المرحلة من انتشار الإسلام في الصحراء وغرب إفريقيا تميزت باقتصار الدعوة على المناطق الحضرية التي كانت عهدئذ تمارس بها الأنشطة التجارية بينما حرمت منها الأرياف والبوادي من جهة، كما أن الإسلام أثناءها كان سطحيا في نفوس معتنقيه من جهة أخرى، وقد تغيرت هذه الوضعية مع قيام دولة المرابطين في الصحراء خلال النصف الأول من القرن5هـ/11م، عندما جعلت هدفها الأساسي هو تعميق الإسلام في نفوس الصحراويين وإلزامهم بإتباع تعاليمه بصفة صارمة وفق المذهب السني المالكي، والقضاء على الوثنية في غرب إفريقيا، ومحاربة البدع في كامل منطقة المغرب الإسلامي.

وفضلا عن العلاقات التجارية والثقافية التي ربطت صحراء الملثمين بمناطق الجوار الواقعة إلى الشمال والجنوب منها، فإن طبيعة علاقاتها مع التنظيمات السياسية التي تعاقبت في

مناطق الجوار كانت تتحدد من خلال تطابق أو تعارض مصالحها معها، ويتمثل ذلك في الغالب في درجة اهتمام تلك الدول بالمبادلات التجارية عبر الصحراء، حيث كانت علاقات الملثمين بالأدارسة والفاطميين وبني زيري - مثلا - طبيعية وسلمية لأن تلك الدول على الرغم من أهمية المبادلات التجارية عبر الصحراء بالنسبة لاقتصادياتها، لم تحاول - حسب علمنا- أن يكون لها إشراف مباشر عليها يستدعي منها محاولة السيطرة الفعلية على أهم مراحل طرقها والمراكز التجارية الأساسية بالنسبة لها، بما في ذلك تلك الموجودة منها في الصحراء، وذلك على العكس من الدويلات الزناتية في المغرب، المدعومة من طرف الأمويين في الأندلس، ومملكة غانة السوننكية.

فكانت علاقات تلك الدول مع مملكة أودغست تخضع لموازين القوة العسكرية والاقتصادية، فخلال الفترات التي تضعف فيها قوة الملثمين في الصحراء، فإن غانة وتلك الدول تبذل قصارى جهودها من أجل تحييدهم والاستيلاء على المراكز التجارية التي كانوا يسيطرون عليها ووضع حد للاحتكار الذي كانوا يفرضونه على مادة الملح الهامة في تلك المبادلات وطردهم من المناطق الاستراتيجية، مما يؤدي إلى ابتعادهم عن الطرق والمراكز التجارية مشتتين في الصحاري لا تجمع بين قبائلهم سلطة مركزية تنظمهم لمواجهة خصومهم، وقد عرفت الصحراء هذه الوضعية مرارا، إحداها كانت في أواخر القرن 4 هـ/10م، وهي من بين الأسباب التي أدت إلى قيام دولة المرابطين كردة فعل علي مجريات أحداثها، وبالتالي لم تكتف هذه دولة المرابطين بالسيطرة على المجال التقليدي للملثمين، وإنما تجاوزته لتبسط نفوذها على المناطق التي كانت تمثل بالنسبة لها مصدر خطر يهددها، سواء في المغرب أو غرب إفريقيا، يدفعها من أجل تحقيق ذلك الهدف، الحماس الديني العارم الذي لم يكن يتناقض مع المصالح الاقتصادية للعصبية القبلية التي قامت عليها، ولعل اتساع الرقعة الجغرافية التي رامت إدخالها تحت نفوذها، ما بين الأندلس شمالا والغابات الاستوائية جنوبا، كان يتطلب من أولي الأمر فيها رسم خطة محكمة تكفل لهم السيطرة على زمام الأمور فيها، فتقاسم قادتها المنطقة المذكورة، حيث تولى يوسف بن تاشفين بأمر من أبي بكر بن عمر قيادة قسمها الشمالي ومهمة ترسيخ النفوذ المرابطي فيه، في حين اختص أبو بكر نفسه بتولي تلك المهمة في الصحراء وغرب إفريقيا.

وبعد وفاة هذا الأخير سنة 480 هـ/1087م، تناقصت قوة القسم الجنوبي للدولة المرابطية، ويبدو أن أميرين تعاقبا على قيادته منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية القرن 5هـ/11م، هما إبراهيم بن أبي بكر ومحمد بن يحيى، وبعيد نهاية نفس القرن توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وخلفه على رأس السلطة ابنه علي بن يوسف الذي تزعزعت أركان الدولة في أواخر أيامه، ولم يتمكن خلفاؤه من إيقاف ذلك التدهور إلى أن دخل الموحدون مراكش سنة541 هـ/1156م وشيدوا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين.

وقد أدى قيام دولة الموحدين في المغرب والأندلس إلى إعادة التوازن الديموغرافي في الصحراء، حيث كانت الامتيازات التي يحصل عليها الملثمون في الشمال قد استنزفت الكثير من سكانها، لكن مطاردة الدولة الجديدة للمجموعات المتحيزة للمرابطين والقبائل ذات الأصول الصحراوية التي ثارت ضدهم وظلت فترة طويلة تحاول القضاء على الدولة الموحدية وإحياء دولة المرابطين وشارك في ذلك الفقهاء الذين تمسكوا بالمذهب المالكي وعقيدة السلف الصالح ولم يستجيبوا لدعوة الموحدين إلي التخلي عن الفروع والعودة إلى الأصول.

كل تلك المجموعات وجدت نفسها مرغمة على الالتجاء إلى الصحراء والاحتماء بها من انتقام الدولة الجديدة بعد فشل محاولات إسقاطها، وقد أدت هذه الوضعية إلى فتور في الصلات بين صحراء الملثمين ومناطق النفوذ الموحدية، وأصبح ارتباطها بغرب إفريقيا أوثق، فأهملها الكتاب المغاربة، الذين نعتقد أن مستوى الارتباط بين المنطقتين لم يعد يبرر بالنسبة لهم اهتماما كبيرا بالصحراء مأوى الثائرين ضد أولياء نعمتهم، أو أن رقابة أولي الأمر على ما يكتب منعتهم من ذلك، أو أن تراجع العلاقات التجارية بين المنطقتين أدى إلى ندرة في تدفق المعلومات المتعلقة بالصحراء، الخ....

ولم تعد علاقات الصحراء بالشمال إلى سابق عهدها إلا بعد هجرة القبائل المعقلية إليها انطلاقا من جنوب المغرب خلال النصف الثاني من القرن 8هـ/14م، وتبقى الفترة الممتدة مابين وفاة أبي بكر بن عمر و قيام دولة الموحدين من جهة وحتى هجرة بني حسان إلى الصحراء، فترة مظلمة تحتاج إلى أقلام الباحثين من أجل إنارتها، فكيف - إذن - كانت أوضاع صحراء الملثمين خلال الفترة ما بين بداية القرن 6 هـ ومنتصف القرن 8 هـ ؟، وما هي أهم التطورات التي مرت بها خلال تلك الفترة؟ ثم كيف كانت طبيعة علاقاتها بشمال وغرب إفريقيا؟

نتمنى أن تتاح لنا محاولة الإجابة على هذه التساؤلات وما يرتبط بها من إشكالات في دراسة قادمة إن شاء الله.

لائحة المصادر والمراجع

I - المصادر المخطوطة:

- ابن ايده (داد): ترجمة الشيخ بوي احمد ميكرو فيلم مسجل بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت الرقم، 271.
- ابن بوعسريه (شيخنا بوي): تأليف في انساب بني عبد المؤمن وبني محمد مسلم، ميكروفيلم مسجل في المعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت الرقم:413.
- ابن الحاج إبراهيم (سيدي عبد الله): صحيحة النقل في علوية إداوإعل وبكرية محمد قللي، مخطوط بحوزتنا صورة منه.
- ابن الحاج عبد الله (أحمد): في ذكر نسب كنته وقبائل الصحراء، مخطوط، بحوزة الباحث حماه الله ابن السالم - نواكشوط - موريتانيا.
- ابن حبت (سيدي احمد): تأليف غير معنون يذكر في بدايته القبائل التي خرجت من مراكش إلى بلاد التكرور، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، قسم المخطوطات مسجل تحت رقم2766.
- ابن الشيخ المصطفى (سيدات): البرهان القاطع الجلي عن ما ثبت عن أصل نسب وتاريخ إيديشلي، مخطوط، بحوزة الأستاذ محمد المختار ولد السعد، أستاذ بجامعة نواكشوط.
- ابن الطالب اعبيدي (الداه): الدرر الوهاجة في حميرية ضنهاجة، مخطوط، مودع بالمكتبة الوطنية، نواكشوط-موريتانيا.
- ابن عابدين سيدي (سيدي محمد): تاريخ وادان في غابر الأزمان، مخطوط، بحوزة الشيخ محمد محفوظ بن محمد الأمين، المرشد الديني بالإذاعة الوطنية، موريتانيا.
- الكنتي(سيدي محمد بن سيدي المختار) الرسالة الغلاوية، مخطوط، محفوظ في مكتبة المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية، قسم المخطوطات، تحت الرقم. 14.
- اللمتوني (محمد امبارك) : نظم في الدولة اللمتونية: مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي محفوظ تحت رقم 2338 ر.ت.
- ابن محمد المامي (محمد يحيى) : نظم لبعض التاريخ الموريتاني، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، مسجل تحت الرقم2838 .

II - المصادر المنشورة:

- ابن إبراهيم (العباس): الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط1، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1976 .
- ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني):الكامل في التاريخ، 9ج، دار الفكر، بيروت، 1978 .
- البلاذري(الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، تحقيق وتعليق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، منشورات مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987.
- ابن أبي دينار(أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعينى القيرواني):المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس1967.
- ابن أبي زرع الفاسي(علي):الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 .
- أبو الفداء صاحب حماه(عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر):
  - تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830.
  - الأخبار القويمة عن الحوادث القديمة، ذيل على كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للطبرى، مطبعة محمد محمد مطر، مصر1919.
- ابن الأحمر(إسماعيل): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودى): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 .
- ابن الأمين الشنقيطي(أحمد):الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مؤسسة المنير، موريتانيا، 1989.
- البرتلي الولاتي(أبو عبد الله الطالب محمد بن أبى بكر الصديق):فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

- ابن بطوطة(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي):تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، د.ت.
- البكري(أبو عبيد)المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، المطبعة الحكومية، الجزائر، 1857.
- ابن بسام الشنتريني(أبو الحسن علي):الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط1، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979 .
- ابن بشكوال(أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى):كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1955 .
- البيذق(أبو بكر بن علي الصنهاجي):أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975 .
- الجزنائي (علي): جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967.
- ابن حزم الأندلسي(أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد):جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- الحميري (محمد بن عبد المنعم):الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، مطابع هيدلبورغ، بيروت، 1984.
- الحموي(ياقوت):معجم البلدان، 4مجلدات، دار صادر، بيروت، 1977.
- ابن حوقل(أبو القاسم النصيبى): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979 .
ابن خاقان(أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي): قلائد العقيان، تحقيق، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990.
- ابن خرداذبة(أبو القاسم عبد الله): المسالك والممالك، دار المدينة، مطبعة ابريل، ليدن، 1889.
- ابن الخطيب(لسان الدين): القسم الثالث من كتاب الإعلام، تحقيق وتعليق د.أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتاني دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.
- ابن خلدون(عبد الرحمن):
- المقدمة، الدار التونسية للنشر - تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، 1984.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، 6مجلدات، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء الزمان، 8 ج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971
- الرقيق القيرواني(أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم):تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق د.عبد الله العلي الزيدان و د.عز الدين أحمد موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
--- الزهري(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر):كتاب الجعرافيه، تحقيق محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- ابن الزيات(أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي):التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي يعقوب السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984 .
- كعت (القاضي الفغ محمود بن الحاج المتوكل كعت):تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداس ودي لا فوس، LIBRAIRIE D'AMERIQUE ET D'ORIENT, ADERIAN MAISONNEUVE, Paris ; 1981
- ليون الإفريقي(الحسن بن محمد الوزان): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 .
- مجهول(مؤلف مغربي من أهل القرن 6هـ):كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر، وتعليق د.سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة(آفاق عربية)، بغداد، 1986.
- مجهول(مؤلف اندلسي من أهل القرن8ه-):الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979.
- المرادي(أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني):كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، ط1، دراسة وتحقيق د.رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
- المراكشي (عبد الواحد بن علي التميمي): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1963.
- المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين بن علي):
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2 ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الفكر بيروت، 1973.

- أخبار الزمان وما أبداه الحدثان وعجائب البلدان والعامر بالماء والعمران، ط4، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1980.
الملزوزي(أبو فارس عبد العزيز):نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء ولملوك، المطبعة الملكية، الرباط، 1963.
- المقري التلمساني(الشيخ أحمد بن محمد):نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، 8ج، دار ص-ادر، بيروت، 1968.
- الناصري(أبو العباس أحمد بن خالد):كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 7ج، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.
- النويري(أحمد بن عبد الوهاب):نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق د.مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 .
- السعدي(عبد الرحمن بن عمر بن عامر):تاريخ السودان، تحقيق ونشر ه-وداس، LIBRAIRIE D'AMERIQUE ET D'ORIENT ADERIAN MAISONNEUVE، Paris، 1981
- ابن سعيد المغربي(أبو الحسن علي بن موسى):كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982 .
- ابن سعيد الحميري (نشوان): ملوك حمير وأقيال اليمن تحقيق: إسماعيل بن أحمد الجرافي و علي بن إسماعيل المؤيد، دار الكلمة - صنعاء، دار العودة - بيروت ، 1978.
- شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي): كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1988.
- ابن فرحون اليعمري(برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد):الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ابن الفقيه(أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني):مختصر كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، 1303ه-
- القادري(محمد بن الطيب):نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، 4ج، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
القاضي النعمان (أبوحنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي): كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوخ ومحمد اليعلاوي، نشر الجامعة التونسية، كلية الآداب، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 1978.
- ابن القاسم الازدي(الشيخ أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس):تاريخ الموصل، تحقيق د.علي حبيبة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، 1967.
- القزويني(زكريا بن محمد بن محمود):آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969.
- القلقشندي(أبو العباس أحمد):
- نهاية الأرب في أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري
- القاهرة، دار الكتاب اللبناني -- بيروت، 1980.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14ج، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ، د.ت.
- ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الله):فتوح إفريقية والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964 .
- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4ج، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، ط3، بيروت، 1983.
- العمري(أحمد بن يحيى بن فضل الله):مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)تحقيق وتعليق د. مصطفى أبو ضيف أحمد، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988 .
- عياض اليحصبي السبتي(القاضي أبو الفضل عياض بن موسى):
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك، 3مجلدات، منشورات مكتبة الحياة بيروت، ودار مكتبة الفكر طرابلس الغرب، 1967.
- الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) دراسة وتحقيق د. محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1978.
- الونشريسي(أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، 11ج، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، بإشراف د. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981 .
- اليدالي (الشيخ محمد بن ساعيد): شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة. نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق محمذن بن باباه، بيت الحكمة، قرطاجة، 1990.

- اليعقوبي(أحمد بن أحمد بن أبى يعقوب بن واضح): كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، 1957.

فهرست المراجع:

- ابن أبي مدين الشنقيطي (محمد): كتاب المنيحة، مطبعة العهد الجديد، الرباط، 1959.
- أحمد محمود(حسن):
- الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.
- قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى- دار الفكر العربي القاهرة، 1957.
- الإدغيري (عبد السلام، وآخرون): أعمال ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة- دورة القاضي عياض- بمراكش 20-21-22 مارس، مطبعة فضاله، المحمدية، 1983 .
- إسبر (أمين): إفريقيا والعرب، دار الحقائق، ط1، بيروت، .1980
- إسماعيل(محمود):
- مقالات في الفكر والتاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
- فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988.
- أوليفر (رولاند، وجون افيج): موجز تاريخ إفريقية، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965.
- بالايديه(جورج): الانتروبولوجيا السياسية- ترجمة على المصري، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1990.
- بنعيد الله (عبد العزيز):
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية- معلمة الصحراء الملحقI-، مطبعة فضالة، الرباط، 1976 .
- تاريخ المغرب- ج1 العصر القديم والعصر الوسيط-، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، د.ت.
- بوتشيش(إبراهيم القادري) :
- المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1993 .
- تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1994.
- بورويبه (د. رشيد ، د. موسى لقبال، د. عبد الحميد حاجيات، د. عطاء الله دهينه و د. محمد بل راد): الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني3 ج، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. د ت.
- بوفيل(ا. و.): تجارة الذهب وسكان المغرب العربي، ط2، ترجمة الهادي ابو لقمة ومحمد عزيز منشورات جامعة قاريونس، بنغازي 1988.
- بيضون(إبراهيم) : الدولة العربية في إسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1986.
- الجابري(محمد عابد) :

- فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، ط4، الدار البيضاء، 1984 .
- العقل السياسي العربي- محدداته وتجلياته-، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 1990.
- الجنحاني (الحبيب):
- المغرب الإسلامي- الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3-4هـ/9-10م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- جوزيف (جوان): الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، 1984.
- جوليان (شارل اندرى): تاريخ إفريقيا، ترجمة طلعت عوضي أباظة، مرجعة عبد المنعم ماجد، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1968.
- الجوهري(يسرى): شمال افريقية، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1976.
- الجيدي (عمر): محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987.
- ابن حامدن(المختار) :
- حياة موريتانيا. الجزء الجغرافي، مرقون، محفوظ بالمعهد الموريتانى للبحث العلمي، نواكشوط
- حياة موريتانيا، الجزء السياسي، مرقون، محفوظ بقسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.
- حركات (إبراهيم): المغرب عبر التاريخ 3ج، الجزء الأول، من عصر ماقبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984.
- حسن(حسن إبراهيم) : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1984.
- حسن (حسن علي) : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين- ، ط1، مكتبة الخانجي بمصر، 1980.
- داداه(محمد ولد) : مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع- دراسة في التاريخ السياسي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1977.
- دندش (عصمت عبد اللطيف): دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430--515هـ/1038--1121م، مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- زكي (عبد الرحمن): تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية.المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1961.
- السعد (محمد المختار ولد) : حرب شرببه أو أزمة الجنوب الغربي الموريتاني خلال القرن17م، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993.
- السوسي (محمد المختار) :
- المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963
- ايليغ قديما وحديثا، طبع وتعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966 .
ابن الشرقي حصري (أحمد): ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1986.
- الشكري (أحمد)، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1997.
- شعبان (محمد عبد الحي محمد): الدولة العباسية- الفاطميون 750م-1055م/ 132- 448هـ، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1981.
- الشيخلي (صباح إبراهيم و عادل محي الدين الالوسي): تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، مطبعة التعليم العالي، بغداد 1989.
- صابر(محي الدين): العرب وإفريقيا، العلاقات الثقافية، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1987.
- صفر (أحمد): مدنية المغرب العربي في التاريخ. (عشرون قرنا من تاريخ افريقية من عصور ما قبل التاريخ إلي آخر العهد البيزنطي)، دار النشر بوسلامة، مطبعة العمل تونس، 1959.
- طاهر (أحمد) : إفريقيا فصول من الماضي والحاضر، دار المعارف، القاهرة، 1979.
- العربي(إسماعيل) : الصحراء الكبرى وشواطؤها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980.
- العروي (عبد الله):
- مجمل تاريخ المغرب- الجزء الأول، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ب.ت

- مجمل تاريخ المغرب ج2، المركز الثقافي العربي بيروت. د.ت.
- علاقات المغرب بإفريقيا- ملاحظات أولية-، نشر كلية الآداب -أكادير، درس اختتامي للسنة الجامعية 1986-1987، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د ت.
- عوض الله (الشيخ الأمين محمد): العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، دار المجمع العلمي، جدة، 1979.
الغربي (محمد): بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الكويت، د.ت.
- غوتييه (أميل فيليكس) : ماضي شمال إفريقيا- تعريب هاشم الحسيني ط1، الفرجاني- طرابلس، 1970.
- فيج- حي- دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق د. السيد يوسف نصر، ط1، دار المعارف القاهرة، 1982.
- فيرون (ريمون): الصحراء الكبرى- الجوانب الجيولوجية- مصادر الثروة المعدنية استغلالها، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963 .
- قداح(نعيم): إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر، 1975.
- ابن قربة(صالح): المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- القطان(متاع خليل) : الحديث والثقافة الإسلامية ط6، دار الاصفهاني للطباعة، جده، 1987.
- كراتشوفسكي (اغناطيوس يوليا نو يتش) : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- كرو(أبو القاسم محمد ، وعبد الله شريط): عصر القيروان،. دار المغرب العربي، ط1، تونس، 1973.
- كوك (ماك): الروايات التاريخية حول تأسيس سجلماسة وغانة، تعريب وتعليق محمد الحمداوي، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ت.
- لومبار (موريس) : الإسلام في فجر عظمته، ترجمة حسين العودات، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1979.
- المجدوب (عبد العزيز) : الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.
- محمد يوسف (سهيره عبد العزيز): الاستمرار والتغير في البناء الاجتماعي في البادية العربية، دار المعارف، القاهرة، 1991.
- مصطفى(ناعمي): الصحراء من خلال بلاد تكنة- تاريخ العلاقات التجارية والسياسية-، مطابع عكاظ، الرباط، 1988.
- م. ع. ت. ث. ع:
- تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984.
- الجمهورية الإسلامية الموريتانية- دراسة مسحية شاملة- ، دار نافع، القاهرة، 1978.
- ابن منصور(عبد الوهاب): قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968.
- منصور(محمد صالح): العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس "يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف"، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1995.
- موسى(عز الدين أحمد): النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشرق، بيروت - القاهرة، 1983.
- ميكل(اندريه): جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، 2ج، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1985.
- الناضوري(رشيد): تاريخ المغرب الكبير، العصور القديمة، أسسها التاريخية، الحضارية والسياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
- النجار(عبد المجيد عمر): فصول في الفكر الإسلامي في المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- النحوي (الخليل):
- بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.
- إفريقيا المسلمة، الهوية الضائعة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993.
- نصر عبد الله (سعدون عباس): دولة المرابطين في المغرب والأندلس- عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين-، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985.
- نوري (دريد عبد القادر) : تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10هـ/ 10-16م، نشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطابع جامعة، الموصل، 1985.

- هوغو (هـ.ج) ؛الصحراء في ما قبل التاريخ« الفصل23 من كتاب تاريخ إفريقيا العام، جون افريفك - اليونسكو، 1980.
ويدنر (دونالد): تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة د. راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، د.ت.
- يوسف (جودت عبد الكريم): العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

- الرسائل والأطروحات:

- ابن حميدة (عبد الله حسن): نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، بحث قدم لنيل الماجستير في الآداب العربية، جامعة القاهرة، 1986.
- خليل (سعد): تكوين موريتانيا الحديثة، 2ج أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة علي الآلة الكاتبة، جامعة ، القاهرة، 1977.
- ددود(عبد الودود بن عبد الله): الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي والثاني عشر (17-18م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 1992- 1993.

- البحوث والدراسات

- الجمل(ابراهيم محمد) : "الإمام عبد الله بن ياسين في رباط السنغال"، مجلة البحث العلمي ، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، العدد29--30، 1979، ص ص:247-265.
- حركات (إبراهيم): "دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط"، مجلة البحوث التاريخية الليبية، العدد الأول، 1981، ص27.
- ددود (عبد الودود بن عبد الله): "دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتي نهاية القرن18 للميلاد" حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة نواكشوط. العدد الأول 1989، ص.ص:18-33.
- السعد(محمد المختار ولد): "عوائق البحث في التاريخ الموريتاني"، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد2، السنة الثانية1988 ، ص ص:28-43.
- صدقي (علي): "النسب والتاريخ وابن خلدون" مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس العدد11 السنة 1985، ص.ص:47-84.
- العلوي (عبد العزيز) : "صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الانتاج والمبادلات" مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس- عدد خاص، دراسات في تاريخ المغرب، عدد خاص(2) 1985، ص.ص:49-65.
- فارياس (باولو فرناندو دي موريس): "نظام تجارة تادمكة وجاوكاوكاوو كوكيا" المجلة التاريخية الليبية، مرجع سبق ذكره، ص ص.
- الفرح (محمد حسين):
- "بعد المكتشفات الأثرية الجديدة في اليمن: وحدة الحضارة القديمة للامة العربية". المنابر- السنة الثالثة- العدد27 مايو 1988، ص.ص:136-143.
- "الحضارات العربية الكبرى في العصور القديمة" المنابر- السنة الرابعة العدد37 مارس1989، ص: 149.
- كاني (أ.م): "مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700م و1700م مع إشارة خاصة إلى كانم - برنو وأرض الهاوسا" المجلة التاريخية الليبية، مرجع سبق ذكره، ص.ص:9-26.
- موني(ريمون): "طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السافانا في النيجر وتشار قبل الفتح العربي"- مجلة البحوث التاريخية- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الثالثة- العدد الأول، 1981، ص.ص:115-131.
- الندى(محمد المصطفى ولد) : "حصيلة رحلة استطلاعية إلى منطقة أوجفت بولاية آدرار مويتانيا"، الوسيط: نشرة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط 1993، العدد4 ، ص:90 و94.

المراجع باللغات الأجنبية:

-ANGELIN (Alain) ‹La question peule et l'histoire des Egyptes ouest africaines ‹KARTHALA ‹Paris ‹ 1981.

-AUMASSIP (G. ‹N. FERHAT ‹A. HEDDOUCHE ‹R. VERNET et autres): Milieux ‹Hommes et Techniques du Sahara préhistorique ‹Problèmes actuels ‹L'HARMATTAN ‹Paris ‹1988.

-BONTE (Pierre) ‹L'Emirat de l'Adrar. Esquisses historiques ‹Centre Recherches Inter-Africain en Archéologie ‹Centre Culturel Français de Saint-Exupéry ‹Nouakchott ‹1999.

-Briselance (Marie- france): Histoire de l'Afrique ‹2t ‹"collection je sais" J.A. Livre ‹Paris 1988.

- BUGNON (Jean ‹Abdelaziz AMINE et autres): Histoire du Maroc ‹Hatier ‹Paris ‹Librairie Nationale ‹Casablanca ‹1968.

-CAMPS (Gabriel) : Berbères aux marges de l'histoire ‹Editions des Hesperides ‹Toulouse 1980.

-CISSOKO (Sékéné Mody): Histoire de l'Afrique Occidentale - moyen-âge et temps moderne du VIIe siècle 1850 ‹Présence Africaine ‹Paris ‹1966.

-CHAVANE (Bruno A.) : Village de l'ancien TEKROUR ‹Karthala ‹c.r.a. ‹Paris ‹1985.

-CUOQ (Joseph : (

-Recueil des sources arabes concernant l'Afrique Occidentale du VIIIe au XVIe siècle-BULAD ALSUDAN ‹Editions du C.N.R.S ‹ Paris ‹ 1975.

-Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines jusqu' a la fin du XVIe siècle ‹ Librairie Orientaliste ‹Paul Guethner ‹SA ‹Paris ‹1984.

-DEVISSE (J. et S. et D. ROBERT :(

- TEGDAOUST I ‹Recherches sur Awdaghost ‹A.M.G ‹Paris ‹1970.

-Villes ancienne de Mauritanie ‹Association universitaire Pour le développement de l'enseignement et culture en Afrique et Madagascar ‹Paris.

-DEVISSE (J. sous la direction de) ‹Vallées du Niger ‹éditions de la Réunion des Musées Nationaux ‹ Paris ‹1993.

-DELAFOSSE (M.): Haut – Sénégal - Niger (Soudan français) ‹3 t. ‹Larose ‹Paris ‹1912.

-HUGOT (Henri - Jean): Le Sahara avant le désert ‹Editions des Hesperides ‹Toulouse ‹1974.

-GSELL (Stephane): Histoire ancienne de l'Afrique du Nord ‹t. 1 ‹OTTO ‹Zeller Verlag ‹Osnabrck ‹ 1972.

-KAK (Ibrahima Baba et Elikia M'BOKOLO): Histoire générale de l'Afrique ‹ l'ère des grands empires ‹2 vol. ‹ vol.2 ‹imprimerie Caterman ‹Belgique. 1979 .

-KI-ZERBO (Joseph): Histoire de l'Afrique noire d'hier demain ‹Hatier ‹Paris ‹1972

-LAFORGUE(Pierre): Une fraction non musulmane en Mauritanie saharienne: LES NEMADI ‹extrait du B.C.E.H.S. de l'A.O.F. ‹Librairie Larose ‹Paris V ‹1927.

-LAGARDERE (Vincent): Les ALMORAVIDES jusqu au règne de Yusuf Ben Tashifine (1039-1106) ‹l'Harmattan ‹Paris ‹1991.

-LEHOUEROU (H.N et autres): La Désertification au sud du Sahara ‹Colloque de Nouakchott ‹17-19 Décembre 1973 ‹les Nouvelles éditions africaines ‹Dakar - Abidjan ‹1976.

-LESTIVEN (Y.) ‹Implantation de l'Islam en Mauritanie (VIIe-XIIe siècle) Inédit.

-MAUNY (Raymond:(

-Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen-Âge ‹d'après les sources écrites ‹la tradition et l'archéologie ‹Mémoire de l'IFAN ‹n!61 ‹Dakar ‹1961.

-Les Siècles obscurs de l'Afrique noire ‹Fayard ‹Paris 1970.

-MEUNIE (D. Jacques): Cités anciennes de Mauritanie ‹Librairie C. KLINCKSIECK ‹Paris ‹1961.

-MEUNIE (Jacques): Le Maroc saharien des origines 1670 2 ‹t. ‹Librairie KLINCKSIECK ‹Paris ‹ 1982 .

-MONOD (Th. sous la direction de): Contribution l'étude du Sahara occidental ‹ Librairie Larose ‹ Paris ‹1939.

-POULET (J.): Fouille d'un cartier de TEGDAOUST ‹Mauritanie orientale ‹Urbanisation Architecture ‹Utilisation de l'espace construit ‹TEGDAOUST IV ‹Mémoire n!54 ‹Editons Recherches sur les civilisations ‹Paris 1985.

-MONTEIL(Vincent) ‹Essai sur le chameau au Sahara occidental ‹centre IFAN Mauritanie ‹Saint-Louis du Sénégal ‹1952 ‹pp. 128-129 .

-PUIGADEAU (Odette du) : Les grandes foires des dattes - Adrar mauritanien ‹Librairie Plon ‹Paris ‹ 1936

-OULD HAMIDOUN (Mokhtar) : Précis sur la Mauritanie ،Centre de l'IFAN- Mauritanie ،Saint-Louis ،Sénégal ،1952
- ROGET (Raymond ،Textes traduits par) Le Maroc chez les auteurs anciens ، Société d'édition "LES BELLES LETTRES" ،Paris ،1924.
- ROBERT-CHARLEIX (D.): Céramiques découvertes TEGAOUST ،in TEGDAOUST III ، Recherches sur Aoudaghost ،Campagnes 1960/65 ،Enquêtes générales ،Editions et recherches sur les civilisations ،Paris ،1983.
-SAMB (Amar): Essai sur la contribution du Sénégal a la littérature d'expression arabe ،Mémoire de l'IFAN ، n! 87- IFAN ، DAKAR ، 1972.
-UNESCO: Histoire générale de l'Afrique ،t3 ،UNESCO. N.E.A. Paris ،1990.
-VANACKER (C.): TEGDAOUST II ،Recherches sur Aoudaghost ،Fouille d'un quartier artisanal ، Mémoire de l'IMRS ،n!2 ، Imprimerie Sopizet Thonon ، 1979.
-VERNET (Robert): La Mauritanie des origines au début de l'histoire ،Collection "Connaissance de la Mauritanie" ،Centre Culturel Français ،A. de St EXPERY ،Nouakchott ،1989.
-VERNET (Robert ،et autres) Introduction la Mauritanie ،CNRS ،1979.
- TOUPET (Charles et autres): Atlas de la Mauritanie ،Editions Jeune Afrique ،Paris ،1977 .

الرسائل والأطروحات:

-EL ALAWI (Abdel Aziz): LE MAGHRIB ET LE COMMERCE TRANSSAHARIEN (milieu du XIè- milieu du XIVè s) contribution l'histoire Economique ،Sociale et Politique du Maroc médiéval ، thèse en vue du doctorat de 3è cycle ،UNIVERSITE DE BORDEAU III ،(Institut d'études arabes et islamiques) 1983.
-OULD CHEIKH (Abdel Wedoud): Nomadisme ،Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI-XIXè siècle) Essai sur quelques aspects du tribalisme ،thèse de doctorat en sociologie، 3t ،Paris-V ،1985.
-OULD KHALIFA (Abdoullah ould youba): Les aspects économique et sociaux de l'oued TIGIGJA ، de la fondation du KSAR l'indépendance (1660-1960) ،thèse présenté pour l'obtention du doctorat nouveau régime ،Université Paris I Panthéon Sorbonne ،1990- 1991.
-TAMOUH (Mme AKHCHICHINE Zahra): Le Maroc et le Soudan au XIXe siècle (1830-1894) ،thèse pour le Doctorat de 3e cycle ،Université de Panthéon Sorbonne ،(Paris I) ،1982.

- البحوث والدراسات باللغات الأجنبية:

-BAYREUTH (Dierk Lange): "The Almoravid and the Downfall of Ghana" ،Der Islam ،Zeitschrift fur Geschichte und kutur des Islamschen Orients ،Berlin ،Band ،73 ،Heft ،2 ،1996 ،pp.
-BRAUDEL(Fernand) ،"Monnaies et civilisation ،de l'or du soudan l'argent d'Amérique ،un drame Méditerranéen" in Annales Economie ،Société et Civilisation. n!1 ،1946 ،pp.9-22.
-BURKHALTER (Sheryl L.): "Listening for silences in Almoravid history: Another reading of (the conquest that never was ،"(
-DAVEAU (Suzane) ،"La découverte du climat d'Afrique tropicale au cours des navigations portugaises (XVe et début du XVIes) ،BIFAN ،série B ،n!31 ،1969 ،pp. 953-988.
-DELACHAPPELLE (F.): "Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale" in Héspéris Tamuda ،t.XI Rabat ،1930 ،pp. 35-95.
-DELAFOSSE (Maurice) "Les relations du Maroc et du Soudan travers les âges" ،Hesperis Tamuda ، Rabat ،1924 ،pp153-174

-DEVISSE (J.): Routes du commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée ،un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle in Revue d'histoire économique et sociale ،Paris ،L.1 ،1972 ،pp. 42-73
- Farias (Paulo Fernando de Moraes) :" The Almoravids: Som questions conserning the character of the movement during its period of closest contact with the western soudan " BIFAN ،série B. ،XXIX ، 1967 pp 794-878.
-FISHER (Humphrey J.): "Early arabic sources and the Almoravid conquest of GHANA" ،Journal of African history ،23 ،3 (1982) ،pp. 549-560.

-KANE (Oumar): "La place des Almoravides dans l'islamisation des noirs du Tékrour " in Actes des travaux du colloque international sur le Mouvement Almoravide ‹Nouakchott du 15 au17 Avril 1996 ‹ (sous presse)

-HUGOT (H. J: (.

" -Mission l'Ile de Tidra" ‹BIFAN ‹série B ‹t. XXVIII ‹n! 1-2 ‹janvier-avril ‹1966 ‹pp. 555-563 .

"-Deuxième Mission dans l'Ile de Tidra (Mauritanie) ‹27 janvier-4 mars 1966" ‹in BIFAN ‹ série B. ‹t. XXVIII ‹n! 3-4 juillet- octobre 1966 ‹pp. 1019-1023.

-LAFORGUE (Pierre) : Notes sur AOUDAGHOST ancienne Capitale des berbères Lemtouna In B.C.E.H.S. de l'A.O.F. ‹1940 ‹ pp. 217-236.

- LEPORTIER (J): "ATAR (Etude monographique)" in Annales Africaine ‹Faculté de droit ‹ Université de Dakar ‹1958 ‹pp. 221-233 ‹p. 223.

-LEWICKI) T:(.

" -Les origines de l'Islam dans les tribus Berbères du Sahara occidental: Musa Ibn Nusayr et Ubayd Allah Ibn Alhabhab in STUDIA ISLAMICA ‹vol. 32 ‹1970 ‹pp. 203-214.

" -Un état soudanais inconnu: le Royaume de zafun (4)" Cahier d'Etudes Africaines ‹44 ‹ Volume XI MCMLXXI ‹4 ‹ 1971 ‹pp 501-525

-MODAT (Colonel):" Les populations primitives de l'Adrar mauritanien" ‹in ‹B.C.E.H.S. de l'A.O.F. ‹ t.1 ‹1919 ‹pp. 372-392.

-MONTEIL (Charles):" Problèmes du Soudan Occidental: Juifs et Judaïsés" ‹in Hesperis Tamuda ‹ 1930 ‹pp. 265-298 .

-OULD CHEICH (Abdelwedoud et Bernard saison): "Le théologien et le somnambule: un épisode recent de l'histoire Almoravide en Mauritanie" in Canadian Journal of African studies ‹vol. ‹19 ‹1985 ‹ pp. 301-317.

-REVOL (Lieutenant):"Etude sur les fractions d'Imraguen de la Côte mauritanienne" ‹B.C.E.H.S. de l'A.O.F. ‹t; XX ‹janvier-juin n! 1-2 ‹1937 ‹pp. 178-231.

-ROBERT- CHALEIX (D.): "Coquillages et jarosite: propos de la saline médiévale de l'Awlil" ‹in Journal des Africanistes ‹Paris ‹1991 ‹pp. 169-185.

-SAMB (AMAR): "L'Islam et l'histoire du Sénégal" BIFAN ‹t.XXXIII ‹Serie B ‹n!3 ‹1971 pp. 461-465

- UNESCO: Patrimoine culturel de l'humanité ‹Bulletin d'information n!23-24/octobre 1983 ‹p. 24 .